أنطونيو غالا

المخطوط القرمزي

«يوميات أبي عبدالله الصغير آخر ملوك الأندلس»

رواية

ترجمة رفعت عطفة

عنوان الكتاب الأصلي:

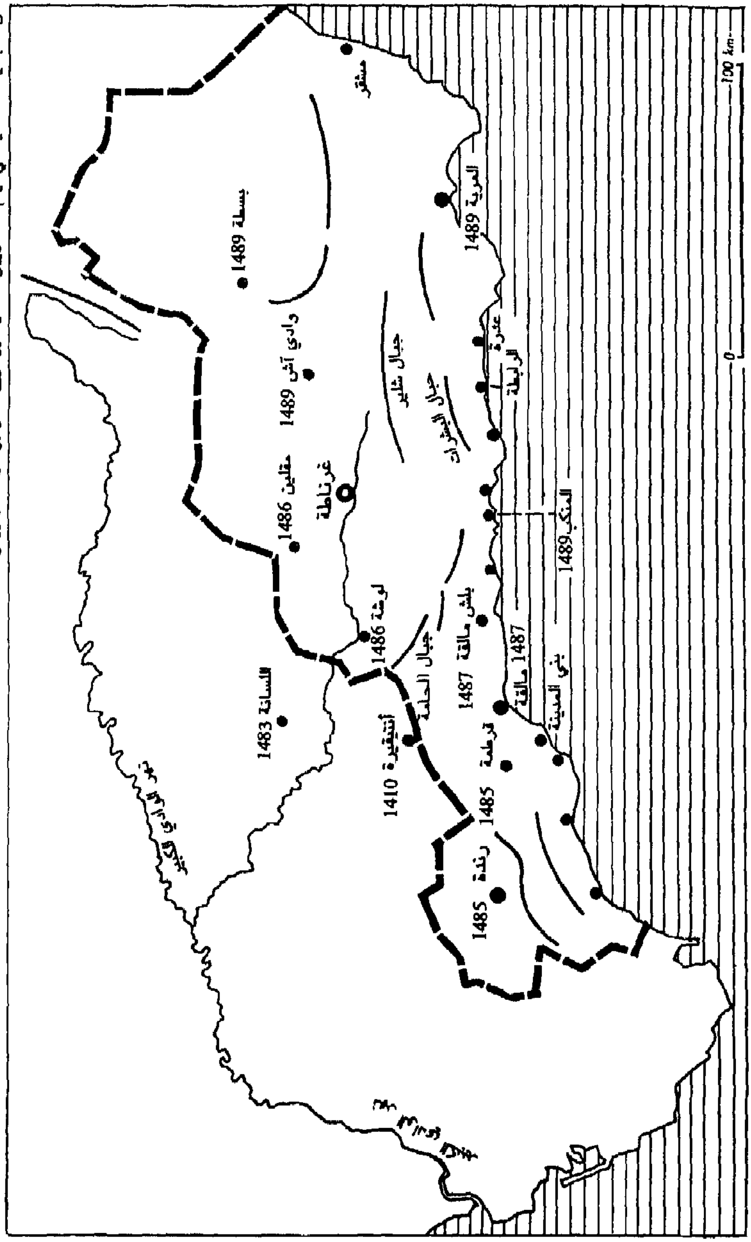
Antonio Gala
El manuscrito carmesi

premio planeta
1990

حصلت هذه الرواية على جائزة بلانيتا 1990 وهي من أهم جوائز الرواية في اسبانيا.

طبعت الرواية وأعيدت طباعتها أكثر من عشرين مرة حتى الآن ووصل عدد النسخ إلى أكثر من مليون نسخة.

عن اسبانية الاسلامية في أيام النصريين لـ راشيل أرييه، دو بوكارد باريس 1990



احتلال الملكين الكاثوليكيين للمملكة غرناطة (1481 - 1892)

مقدمة المترجم

يعتبر أنطونيو غالا اليوم واحداً من أهم الأقلام الإسبانية، على كلِّ المستويات، ذلك أنه كتب ويكتب كل الأجناس الأدبية ويبدع فيها جميعاً. وإذا كان قد بدأ شاعراً بديوانه «العدو الحميم» ونال عليه جائزة أدونايس وتلاه «شهادة أندلسية» و «سونيتات ذوبيا» فإنه أتبع ذلك بعدد من المسرحيات: «حقول عدن الخضراء» و «الأيام الطيبة الضائعة» و «خاتمان من أجل سيدة» و «القيثارات المعلقة على الأشجار» و «لماذا تركضين يا أوليس» وكتب إضافة إلى ذلك المقالة النقدية والصحفية، فإنه أبدع أيضاً في الرواية، فأصدر منها حتى الآن روايتين، «المخطوط القرمزي» التي نقدّمها اليوم للقارئ العربي و «الوَلَه التركي» .

وترافقت كتابتهما بعدد من القصائد التي تشكل ديواناً، ونقلنا بعضها إلى العربية وهي «قصائد سورية» و «انتخاب أبي عبد الله الصغير» و «ثلاثيات الوادي الكبير وقرطبة وغرناطة» .

واللافت للانتباه في أعمال انطونيو غالا هو موضوعاتها ومحورها: فالموضوعات في مجملها لها علاقة بتاريخ العرب في الأندلس، أو انطلاقاً من علاقة اسبانيا بالعرب والمسلمين، بشكل عام، ومحورها هو الحب، الذي يعتبر الهاجس الأساسي ويكاد يكون الوحيد فيها. فبالحب وحده ينتصر الإنسان للإنسان ومعه وبه. لكن هذا لايعني أنّ المؤلف يُخرج النص خارج الواقع الصراعي، الذي تنتصر فيه القوة دائماً وإنما يجعل أبطاله يقولون ذلك ويعبرون عنه، مع أنهم غارقون في دوامة العنف، تماماً كما يحدث في رواية «المخطوط القرمزي» وقبلها في «خاتمان من أجل سيدة» وفي «الوله التركي» بعدها.

كان أنطونيو غالا في رواية المخطوط القرمزي، تماماً مثل ميغيل سرفانتس في دون كيخوته، أي إنه لا عمل له غير الترجمة، دون أن يتدخل في النص، وبالمصادفة، أو ربما بغير المصادفة وبالوعي، جاءت الترجمة عن العربية. وإذا كانت رواية «سرفانتس» قد عبّرت عن أفول عصر الفروسية، فإن رواية «غالا» قد جاءت لتعبر ليس عن أفول مملكة النصريين في الأندلس فحسب، بل ومعها التعايش والحب والتنوع في البيت الواحد. أي إن سرفانتس سخر من عصر ولّى كانت الفروسية فيه هي معيار القوة ليحل محله عصر آخر يعتمد القوة، لكن قوة سلاحها مختلف، عمادها البارود والتقدم في المجال العسكري. بينما غالا يبكي حنيناً إلى عالم مضى، كان العلم والأدب والفنون، وبالتالي الإنسان، محوره.

وهل تستطيع الثقافة: علماً وأدباً وفنوناً، إذا ما استقلت عن القوة التي تحميها، أن تحكم وتستمر نموذجاً ينبغي أن يُحتذى؟ أعتقد أن أنطونيو غالا لا يجيب كما أنه لا يريد أن يجيب عن تساؤل كهذا لكنه يدين الأقوياء وما يقومون به، ويجعل الذين يؤمنون بالعلم والآداب والفنون يحزنون لأن مشروعهم خاسر في مواجهة مشروع الآخر القوي. أي إنهم يؤمنون مع أنطونيو غالا بأن الإنسان خسر، وكما قال في حفل العشاء الذي أقامته الدكتورة نجاح العطار، وزيرة الثقافة، على شرف الأدباء الإسبان في مدريد في أيار 1992 ، إنه كان في العالم سيدة وخادمتان، الثقافة والسياسة والإقتصاد، فاستطاعت الخادمتان أن تسرقا السيدة (الثقافة) مكانها لتحلا محلها، ومهمتنا نحن المثقفين هي كيف نعيد السيدة إلى مكانتها والخادمتين إلى عملهما. تلك هي المسألة وذلك هو الهاجس الذي حمل انطونيو غالا، إضافة إلى انتمائه الأندلسي - فهو على الرغم من أنه ولد خارج الأندلس لا يعترف إلا بأنه ولد فيها وفي قرطبة عاصمة الأمويين تحديداً - أقول حمل أنطونيو على المضي بالأشياء والأفكار إلى نهاياتها: العرب لم يغزوا الأندلس، ولم يفتحوها عسكرياً، بل ثقافياً. وإذا كان انتماؤه الثقافي والمادي أندلسياً، فإن هذا الانتماء كلّي، وخصوصاً في المخطوط القرمزي، حيث يتبنى أفكار إيغناثيو أولاغو بكليتها على لسان أبي عبد الله الصغير، الذي ينفي أي انتماء عربي لأبطال الفتح العربي الأول ويجزم باستحالة فتح كهذا وأبطال كأولئك: فطارق بن زياد لم يكن أكثر ولا أقل من قوطي ، والمعركة التي نشبت بينه وبين لزريق لم تكن إلا معركة ضمن البيت الواحد، وأفريقية لم تمنح الأندلس في يوم من الأيام أي شيء إيجابي، على العكس لقد دمّر

دخول المرابطين الأندلس بدعوة من ملوك طوائفها تلك الثقافة ، وكانت البداية لحروب لم تنته إلا بقضاء الملوك الكاثوليكيين على ما كان قد تبقى من مرحلة جميلة من المحبة والتعايش والفنون. وهنا نرى أن انطوينو غالا وقع ضمن سياق العمل تحت ضغط الانتماء القومي إلى الأندلس واسبانيا، في نوع من «الشوفينية الأوروبية» ، التي هو في الأساس ضدها، ومن المدافعين عن الثقافة العربية في الأندلس. إن قراءة عمل واحد لأنطونيو غالا لا يمكن أن يعطي فكرة حقيقية عنه، لذلك ينبغي قراءة أعماله كلها أو بالتحديد العمل الروائي الثاني له: «الوله التركي» ، حيث يكمل، أو يعكس تماماً أفكاره الحقيقية حول انتمائه وانتماء الأندلس إلى الأمويين وبالتالي إلى ثقافتهم. وهنا تبرز نقطة في غاية الأهمية، وهي أنه إذا كان أبو عبد الله الصغير ـ وهو عربي ومسلم ـ يؤكد في المخطوط القرمزي على انتمائه الأندلسي والإسباني وينفي ما قاله التاريخ العربي والتاريخ الأوروبي نفسه عن تدفق هجرات القبائل العربية إلى الأندلس، فإنه وعلى لسان اسبانية معاصرة يؤكد غالا على انتماء الأندلس دماً وثقافة إلى العرب والإسلام. أي إنه إذا كان أبو عبد الله الصغير، وضمن حالة الحصار الكاثوليكي عليه في الأندلس، يرى أنهم لا ينتمون إليه أكثر منه، وبالتالي لا حق لهم بالأندلس أكثر منه ومن المسلمين واليهود، فإن ذلك إنما كان طرحاً سياسياً ومحاولة لدحض أفكار الآخر اللاغي، الذي لا يؤمن بالتعددية، ويريد أن يوجد نوعاً من الانسجام الكلي بالانتماء إلى الكاثوليكية، وإلغاء كل ما عداها وبكل الوسائل التي لا تملك من الإقناع إلا بالقوة، والقوة تُلغي ولا تُقنع. فإن من يطرح انتماءه إلى الثقافة العربية والإسلامية في «الوله التركي» هي اسبانية، واسبانية معاصرة من نهايات القرن العشرين، وهنا أود أن أنقل بعض ما قاله بهذا الخصوص:

كانت سورية بالنسبة إليّ باهرة جداً. في السكريتاريّة، الهادئة عادة، قرأت كثيراً عن تاريخها. كنّا نطير من أقصى المتوسط إلى أقصاه الآخر. من بلادٍ، هي ذيلٌ لأوروبا لا ينسلخ عنها وفيها الكثير من افريقيا، (هو بالنسبة لي تمرين عام) إلى بلاد أخرى، هي أيضاً على حافة أوروبا وعتبة آسيا. من مساجدنا التي تحولت إلى كاتدرائيات إلى الكاتدرائيات التي تحولت إلى مساجد، من تراكم ثقافاتنا إلى تراكم ثقافاتهم. قال لنا طبيب سوري، رفيقٌ لأرتورو في الجامعة وهو يحدثنا عن بلاده:

ـ أشكركم ردّالزيارة. جئنا نحن السوريين اليوم إلى هنا لنتعلم من أجدادنا الإسبان.

والصحيح هو أنهم أجداد الجميع: هناك مهدُ الإنسان، في وقتٍ لم تكن قد تمايزت في بابل اللغات والأعراق. هناك المدن الأولى في العالم، وعلى شرف المدينة الأولى تتنافس حماه ودمشق وحلب وثلاثهن مدن سورية.

في حماه، التي تعاقبت على أرضها نيف وعشر مدنٍ، أبكاني عنين النواعير التي تلعب بنور العاصي ومائه. كان مساءً وردياً، ولخرير الماء هذا اللون وكان نور الغروب مسموعاً. هضبة حلب، الرمادية (الشهباء)، حيث خيّم ابراهيم، تقوم على أنقاض حضارات أقدم منه بكثير. ودمشق المتقلّبة، ولا تتبدّل، الحية كما الحياة، ومتكيّفة معها أكثر من روما وبيزنطة (ارتعشت يدي وأنا أكتب بيزنطة) هي الحيّة المنبعثة من ذاتها...

هذا تقريباً كل ماقرأته. اليوم في مقبرة حلب الأولى يقوم ملعبٌ لكرة القدم، وفي قلعتها المجيدة مسرحٌ. أمام لوحة سور دمشق من حيث هبط القديس بطرس، بعد أن عاد إلى رشده، يوجد مدينة ملاهٍ... على الرغم من كلّ شيء فإنّ كل شيءٍ باقٍ في الاعماق. زرنا في يوم، شمسه دافئة، أوغاريت، بين أنقاضها يغفو ثلاثة آلافٍ وخمسمئة سنة، من هناك خرجت الأبجدية الأولى. اشترتْ لاورا نسخةً عنها: نوعاً من السبابة الصلصالية نُقِشَ عليها ثلاثون حرفاً. انفجرت لاورا، المكتبية، وبين يديها تلك النسخة، بالبكاء.

ـ لاتكوني غبية ـ قال لها مرثيلو ـ انظرْ ماذا حدث لها الآن... لو عرفتُ ما كنّا أتينا.

ما هزّ راميرو هو العمود الذي عاش عليه القديس سمعان الصحراوي العمودي، هذا القذر الذي عاش اثنين وأربعين عاماً وهو يلقي بقاذوراته على أمثاله. إنه بين معابد واحدةٍ من المدن العديدة الميتة.

كلّ شيء ـ كنت أتمتم ـ يشبه ممارسة التمارين الروحية. مثل قراءة الكمبيس: كل شيء يمر «كالغيم، كالسفن، كالظلال» .

كنت أقول ذلك بتفخيم وكأنني أنشد لامادو نيرفو...

ـ ... هذا ما كنت أفكر به عندما نهضنا فجراً في تدمر، كي نرى خيوط الشمس الأولى تداعب الآثار الرشيقة والذهبية في تلك الواحة...

كنت أشعر بشيء أخوي تماماً في تلك الرحلة. كما لو أن العرب الأندلسيين يهمسون في عروقي بصلوات غير مفهومة. لا شيء يموت كلياً، لا وجود للنسيان. وآمنت وقتها وما زلت أومن بأننا مجبولون مما

ننساه ظاهرياً... رحت قبل أن أنام أنظر إلى نفسي في مرايا حمامات الفنادق وأتساءل: من أين لك هاتان العينان السوداوان، هذه الانحناءات الفريدة في الأجفان، هذا الفم النهم، هذا الشعر الفاحم، هذا الفوران المتأجج للانتصار والاستمرار رغم كل الكروب؟ فهمتُ ملكة تدمر زنوبيا وأحسست بها خالدةً أكثر من أعمدة بيتها المنهارة، حيةً أكثر مني، أنا نفسي. وعندئذ كنت أنظر إلى عينيّ بثقة:

«ما يزال أمامك متسع من الوقت ـ كنت أردد بصوتٍ منخفض جداً ـ : انتظري» كان روميرو، بشكل ما على حق: فقد كانت تلك الرحلة مفيدةً لي أيضا كتمارين روحية...

أعتقد أن هذه الفقرات من رواية «الوله التركي» ، على لسان الراوية ديسيديريا أوليبان، تستحق، رغم طولها، أن تُثَبَّتَ في هذه المقدمة، كي تكتمل صورة أنطونيو غالا في ذهن القارئ للمخطوط القرمزي.

ومما تجدر الإشارة إليه، هو أنني كنت مع انطونيو غالا في رحلاته التي قام بها إلى القطر، لذلك أعرف أنّ كثيراً من المشاعر التي يعزوها لهذه الشخصية أو تلك، هي مشاعره هو، وحدثت معه هو أيضاً. أذكر أننا وبينما كنا نتأمّل آثار أوغاريت وقف متمتماً وسألته «أوتصلي، يا أنطونيو؟» فأجابني: «نحن في حضرة التاريخ، وأنا مدينٌ لهذه المدينة بأنّني كاتب» .

رفعت عطفة

مدخل

كلّفت فرنسا في عام 1931 لجنة من الفنيين والعلاّم في محمية مراكش، بدراسة أبنية فاس وتاريخها. منهم معماريان انكبا على دراسة واحد من أهم مباني المدينة: جامع القرويين. وهوأكبر دور العبادة في مراكش والمغرب قاطبة. وكان أصله معبداً صغيراً بنته في بداية القرن التاسع فاطمة، وريثة محمد الفهري الثرية، التي هربت من القيروان أثناء أحد الاضطرابات المعتادة في ذلك الوقت. في النصف الأول من القرن الثاني عشر بنى المرابطي علي بن يوسف المسجد الحالي، الذي تبلغ مساحته عشرة آلاف متر مربع، وقد بقي لعدد من القرون مقراً لجامعة فاس، أعظم المراكز الفكرية في مراكش مكانة. وتحتفظ مكتبتها بكتب لا مثيل لها وفي غاية من الأهمية.

بدأ المعماريان الشابان عملهما بوضع مخططات القرويين. وبعد حسابات دقيقة وعند تجسيد الأبعاد المحققة تماماً وجدا أن الأبعاد الخارجية في أحد الأماكن لا تنطبق على الداخلية، حتى بعد طرح سماكة الجدران. أعادا قياساتهما فكان عدم التطابق نفسه. وهذا ما جعلهما يفكران أن ذلك الاختلاف في السطح لابدّ أنه يعود إلى حيّز أُغلِق لسبب صار منسياً. وقد استطاعا من خلال التفحّص والسبر أن يجدا الغرفة المُقدَّرة. عثرا فيها على مجموعة من المخطوطات والكتب النفيسة، أحدثها وجد منذ قرابة خمسة قرون، وهي في أفضل حال يمكن تصورها، نظراً لانعدام عوامل التآكل، هذا إذا استثنينا بعض الحشرات والرطوبة التي ربما كانت سابقة على القرن السادس عشر.

كان بينها ـ وأقوم بهذه الإشارة لأن التاريخ صديق تماماً للتماثلات ـ منكرات عبد الله آخر ملوك غرناطة الزيريين الذي اقتلعه عن عرشه المرابطي ملك إشبيلية. ومع ذلك كان هناك ما لفت بشكلٍ خاص انتباه المعماريين الفضوليين، غير الخبيرين بالكتابات القديمة. كان الأمر يتعلق ببعض المخطوطات التي تتميز عن غيرها لسببين اثنين: لأنها مجلدة تجليداً في

غاية الكمال، وكأنّ يداً متأنيةً أوْدَعتْها هناك، وللونها القرمزي الذي لم يكد الزمن يبدل فيه شيئاً.

استغرق ترتيب لقيات مسجد القرويين زمناً طويلاً، ولم تكن جميع الأيدي التي تدخلت فيه من النزاهة إلى الحد المرغوب به. فقد اختفى عدد من المخطوطات التي لاتقدر بثمن. عاد وظهر بعضها، مع مرور السنين، في مكتبات أوروبيةٍ عامةٍ وخاصةٍ، بل وأيضاً في حوزة بعض باعة الأثريات والكتب المنسية إلى هذا الحد أوذاك. وكان المخطوط القرمزي، الذي يشكّل مجلّداً ذا حجمٍ مُعتبر، قد سرق قبل الزيارة الثانية للمعماريين. وتشاء الظروف أن الرجل الذي سرقه لم يكن أهلاً لفك رموزه، بل ولا للمساومة عليه، فوصل إلى معرفتي وجوده في مكتبة معروفة من مكتبات الرباط. وعندما أصبح بين يدي، أدهشني خطه الأنيق، الذي كان يتنوّع ببطء وكأن الذي كتب صفحاته جميعها فعل ذلك خلال حياته كاملة وتملّكني انطباع غريب فهمته حين عرفت مضمونه. فالمخطوط يجمع مذكرات ملك آخر وأخير، لكن كان الأخير نهائياً. إنها مذكرات أبي عبد الله الصغير، السلطان الذي ذوى الاسلام عملياً في أيامه: الذي سلم غرناطة إلى الملكين الكاثوليكيين يوم 2 كانون الثاني 1492 .

حاولت بمساعدة عدد من الخبراء، مراكشيين وإسباناً على السواء، الذين أشكرهم جميعاً من هنا، أن أنسخ المخطوط القرمزي ـ اللون الجميل جداً ـ . (قرمزية كانت أوراق أمانة الدولة في الحمراء.) وكان من الضروري للوصول إلى قرار مقبول، الرجوع إلى عدد من النصوص، والأراشيف، والأخبار والروايات وكتب التاريخ. وفي نهايتها جميعاً جاءت هذه الحكاية الباردة أحياناً والمتأججة أحياناً أخرى، لتكملها أولتناقضها.

اخترتُ لنقلِ التسلسلِ التاريخي وأسماءِ الأشخاص والأماكنِ والتواريخ والإشاراتِ لغةً أكثر وضوحاً بالنسبة للقراء الغربيين اليوم. والترجمة، وهذا بسببي، ليست أمينة تماماً كما كان سيطلب الدارسون. مقابل هذه التضحية أعتقد أن النص سيكون بالنتيجة أقرب إلى عيوننا وأسماعنا. هكذا ورغم تحقيقاتي الشغوفة فإنني لم أصل إلى النتيجة المحدّدة فيما يتعلق بحقيقة المخطوط. أجهل ماإذا كان ما يرويه أبوعبد الله كله صحيحاً أوأنه يميل به لصالحه. كما لاأدري ما إذا كان قد كتبه كله بنفسه أوأنه أملاه على واحد أوأكثر من أمنائه ـ وهوأمرٌ يبدو غير محتمل بسبب تشابه الخط ـ ، أوماإذا كان عملاً مختلقاً، رغم أنه معاصر له. يُفاجئنا أحيانا النضوج الذي تنطوي عليه شواهده إلى حد أنها تثير الشك بما إذا كان أبوعبد الله قد حرر كل هذه المذكرات في فاس، بعد أن أتم الثلاثين من عمره، ومن الوهم أن نعزيها إلى عصور مختلفة، ومع ذلك فإن التماسك والنضج الموجودين على امتداد مراحل الزمن، وعدم الانسجام الموجود ما بين الأحكام المعرب عنها، كلها أمور تتعارض في الواقع مع هذا الرأي. على كل حال يتبدى من المخطوط قابلية، ليست قليلة، للتفكر وذاكرة أفضل من التي

يؤكد المؤلف أنه يملكها.

وقد وجدت بعض الأوراق، القرمزية أيضا، مضافة فوق جسم المخطوط المضغوط وواحدة تحته كما لوكانت المقدمة والخاتمة لما يشكل المذكرات بذاتها، هذه المذكرات التي تجزّأت على تقسيمها إلى أربعة أقسام، كي أسهل قراءتها. هناك أيضا بعض الملاحظات الهامشية، التي أضيفت ولاشك في مراحل لاحقة أدخلتها إلى النص واضعاً إياها بين قوسين معقوفين.

شكري الأخوي لكل المؤرخين والكتاب الذين عالجوا من قريب أو من بعيد هذا الموضوع المحزن والملهم، بادئاً بأبي عبد الله الصغير نفسه. فقد أحبوه كما أحببته. ويا حبذا أن أكون توصلت، كما توصلوا هم، إلى أن يكون حبي متبادلاً. على كل الأحوال فإن التاريخ، كما يقول مؤلف المخطوط نفسه، ليس إلا سباقاً لحلول واقع مكان آخر: نعرف من أين يأتي وأين يجري، لكننا لا نعرف في النهاية إلى أين يتجه ولا متى سينتهي.

أوراق وجدت في بداية المخطوط

أكتب على الأوراق القرمزية الأخيرة من كل ما كنت أخرجته من أمانة الدولة في الحمراء. ربما كان ذلك دافعاً مناسباً كي لا أكتب أكثر. لست واثقاً ـ تماماً كما هوالأمر مع كل الأشياء ـ ، لكنني أعتقد أنني أُتمّ اليومَ الرابعة والستين من عمري. منذ أن وصلت إلى فاس وحياتي تجريَ مثل يوم وحيد طويل ومُمِل. ثم إنني لم أعرف قط الساعة التي ولدت فيها بدقة، من هنا لم يستطع الفلكيون أن يحددوا برجي دون خطأ. (ربما كان هذا هوالمرغوب به بالنسبة إلى ملك.) وبالتالي فإنّ كل ما قيل عن قدري الذي خَطّتْهُ النجومُ خيالاتٌ. وقد فكرت أحياناً أن هذا هومصدر كل غلط: إن السير على غير هدى لا يقود أبداً إلى نتائج حسنة. رغم أن الحياة ـ من ناحية أخرى ـ ليست إلا سيراً على غير هدى. الأمور الأكيدة في حياتي ـ ولم يكن فيها أكثر من اثنين أوثلاثة ـ قادتني عامة إلى الأسوأ.

استيقظت باكراً ـ صار نومي الآن قليلاً ـ ، ولم أنادِ أحداً. فأمين وأمينة انسحبا ليلة البارحة مبكرين حين لاحظا أنني تعب. كانت أمينة تغني أغنية أرادتها أن تكون خفيفة ومسلية. سألتها:

ـ أين تَعَلمْتِها؟

أجابتني ضاحكة:

ـ أنت علمتني إياها.

معروف أنني أفقد ذاكرتي. ولكي لا أعود فأنساها، رغم أن الوقت لن يمنحني الفرصة، سجّلتها بينما كنت أنظر إلى أمينة الخبيثة وهي تبتسم وتعزف. كانت أغنية ألغاز:

ومستحسن عند العيان مدحرج غذاه نمير الماء في كل بستان
تطلع من أقماعه فكأنه قلوب نعاج في مخالب عقبان

وأطلق أمين قهقهة وقال:

ـ الباذنجان.

كنّا نشرب نبيذ هذه الأرض الداكن الكثيف، والمليء بالثمالة. ودون أن أنتبه كنت أحمل إيقاع الأغنية بكأسي وأفكر، وكما هي عادتي، بشيء آخر وظروف أخرى وغنت أمينة:

وهيفاء من ندماء الملوك تزيد وتنقص من قدرها
إذا أضحكت جنح داجي الظلام بكت فجرى الدمع من نحرها
وإن نعست للكرى نعسة فأيقظها القط من شعرها

تنهدت مكرراً لنفسي:

ـ مُسَهدٌ حتى موتي.

لم نحزرها. داعبت وجه أمينة، المماثل لوجه أمين.

ـ الشمعة ـ صرخت وتناولت رشفة من كأسي. عادت تغنّي:

وذي اصفرار ناحل جسمه مجتهد في خدمة البار
يلازم الخمس لميقاتها ودمعه من طرفه جار

كم كان وقع الكلمات مؤثراً. كان القلم. أيضاً لم نحزر. صَفَّقَتْ أمينة. و:

مثلا اقتدى ذو خُلَّةٍ بفعالنا فيكون واصل خُلَّة كوصالنا
مهما دنا شيء ليدخل بيننا سنعود من غدنا لأوّل حالنا

كنت أنا من حزر هذه المرة. وأنا أرى أمين وأمينة توأمين أمامي. مهما دنا شيء ليدخل بيننا

ـ المقصّ.

قبّلتني أمينة ملاطفة. ربما أننا شربنا ما فيه الكفاية، لكننا تابعنا. كانت شموع القاعة تطرف وتتمطى مثل شموع الألغاز. والظلال تتكدّسُ في الزوايا مثل حيوانات متهيئة للانقضاض علينا. فكرتُ: «الليل عدوّي» تعلمت الخوف من الأشباح، التي كان توأماي ثابتي الجنان أمامها ويحميانني منها بمجرد حضورهما. مازالا غضي الغصن، لا شيء يخيفهما ـ وهل هذا عيب ـ .

تابعت أمينة:

عجباً من القوس المزية أنها لم ترع حقّ حمائم الأغصان
أضحت لها حتفاً وكانت مألفاً وكذاك فعل حوادث الأزمان

تذكرت اللحظة التي كتبت فيها هذه الكلمات. كنا قد تزوّجنا تواً آنذاك، وذهبت مع مريمة لقضاء بعض الأيام في الشنت. وكنت أخرج في الصباحات ومعي قوسي وجعبتي أرمي بها على حمام الطوق.

ـ القوس ـ همستُ.

سألت نفسي: «أين أصبحت تلك الأيام، نور تلك الأيام» عانقني الأخوان، كل من جهة. قَبَّلَتْ أمينةُ ذقني وأمين يدي اليمنى.

ـ الأخيرة ـ قالت أمينة ـ إنها غاية في الجمال:

كان نسيمي والهجير مطنّب حديث وصال جاء في عقب الهجر
وإلّا كما هبت لمحتدم الوغى صبا النصر لكن من لقاء بني نصر

غنّتها دون عود بينما كانت تروّح لي بالمروحة.

ـ المروحة ـ قلت ـ وما تبقى كذب.

صفّقا لي بإيقاع واحد، كما يفعلان دائماً. صبّا لي كأساً أخيرة وانسحبا، مقتنعين أن أوسم بني نصر ـ ليس الأوسم. بل هوالأتعس الموجود هنا، بعيداً عن الباقين، أحياء وأمواتاً، أضاع حتى حقه باسم سلالته، وأغلق عينيه تواً ليخفي دموعه ـ يحتاج للراحة.شعرت بما يشبه الدافع للتقيؤ، فامتلأ فمي بالمرارة. عزوت السبب إلى حرافة النبيذ.

نمت أسوأ نوم. مضى على نهوضي برهة طويلة. فتحت نوافذ المشرف فرأيت كيف كان الفجر يتهيأ للبزوغ فوق المدينة. هذه المدينة التي يمكن أن يقال إنها مدينتي: عشت فيها أكثر مما عشت في أية مدينة أخرى، لكن شيئاً في داخلي كان يناقض هذا. لن تكون فاس مدينتي أبداً، كما لن أكون لها، لأن الحلم سيجافي عظامي في أرضها تماماً... تراني أكتب كي أؤجل الوداع؟

كان الليل ما يزال مطبقاً. ارتفع صوت المؤذن كمن يكسر فجاة وعاء ثم يلملم كسراته ويعيد تركيبه مرتبكاً ثم يتركه يسقط من جديد دونما حيلة من أمره هذه المرة. أقول ارتفع، لكنه كان ينخفض أيضاً ويلعب في الهواء مثل عصفور، يستريح فجاةً ثم يتلوى ويتمطى. كان يبدو

وكأنه قد انتهى، لكنه لايلبث أن يرتفع بقوة أكبر. كنت قد سمعت صوت المؤذن مرّات لاحصر لها، وتذكرت وقتها واحداً منها، صوت إمام الحمراء، مثلاً، الذي كان يشبه النعيق ويسبب لنا الضحك ونحن صغار: أنا ويوسف. لكن صوته اليوم بدا لي مختلفاً، فقد كان يطفوفوق المدينة، التي أراها عند أسفل قدميّ بينما أحس على يساري بمقبرة بني مرين أكثر مما أراها، كان يطفوفوق الليل وكأنه لايشكل جزءاً منه رغم أنه الجزء الأفضل فيه. كان نحيباً، ولم يكن ذلك بل عتاباً يثير النحيب. لم يكن من الممكن فكّ رموز كلماته تماماً مثل أغاني أمينة. ومع ذلك فأيٌّ كان يستطيع فكها. كانت تتحدث عن أقدم هاجس عند الإنسان: هاجس أن يكون محمياً، أن يعبد شيئاً أعلى، أحداً أعلى، أحداً يناسبه أن يوجد كي لايبقى وحيداً تماماً وسط الليل، ضائعاً دونما يد في الكون، دون أن يكون هناك من هوأعلى منه يضحك منه ومن وحدته. إن الإنسان البائس يحتاج إلى ربه، كما يحتاج إلى نهيق حماره، وحمامته وقوسه ومروحته ودفء زوجته وكابوس أبنائه الذين يوقظونه عندما يكون هناك قرب أمّهم، والرائحة المثيرة للغثيان والحارة للروث الذي لا يزال طرياً... كل ذلك كان يردده الصوت مهدداً ومتوسلاً. والأصوات، صارت كثيرة. فجأةً صارت كثيرة: ملتفة، متعاكسة، يحل بعضها محل بعض وتتحالف مثل دخان كريهٍ وناعم، بطيء وعاجل، يرتفع من المآذن مذكراً النيام الغافلين أن الإنسان ليس شيئاً: ومضة تعبر وتختفي دون أن يقاسمها حرارتها. لاشيء، مالم يتفق مع الومضات الأخرى على ما يجب أن يعتقد به. لاشيء إلا ما يقترحه هو: الآن رجل متكاسل ربما مارس الحب في بداية الليل، ويرشُّ وجهَهُ بالماء ويبلل حنجرته وذراعيه ويمضي يبحث عن عمله، دون رغبة ولا أمل، تحت وطأة إله مُبتدع وصعب المنال... صعب المنال ومُبتدع؟ ألم يخلقه الإنسان على صورته؟ الأصوات بالمئات، بعيدة أوقريبة، كانت آهات خالصة، على من؟ على البشر الذين يهجرون الإله الذي أشادوه؟ على الإله الذي هجر البشر منذ البداية؟ أية وسيلة بقيت لهم؟ آهة يبدوأنها لن تنتهي أبداً. وفجأةً انتهت. وكأنها لم تكُن. إنها أفضل طريقة.

كانت الآهة تتقاسم الليل مع الهلال، العنيد وغير المبالي، مع صياح الديكة المتعاقبة، مع الهندسة الفوضوية للمدينة، التي لم ترتسم بعد كلياً، وتظهر بشكل طفيف، مع خرير المياه المتأجج الذي كان النهر يكبحه عند حافة البيوت المتواضعة... لاأدري لماذا أحكي هذا! رأيت الفجر يبزغ آلاف المرات في حياتي. ومع ذلك، فاليوم... ما الذي أقول له وداعاً؟ وراء الهضاب تكتسب السماء لون البرتقال، ما عادت المدينة سوداء، وإنما ذات

لون أزرق داكن، أوربما من لون فحم الانتراسيت وإذا ما توقفت عن النظر إليها، سأراها فيما بعد سائلة مصبوغة بلون الماء غير الثابت. يبدومحالاً أن ينبثق من هذه العجينة التي لاشكل لها، فجأةً حياة منتعشة، جارحة، حاضرة ولها كل هذا التنوع. تزرقّ السماء في الجنوب وتشفّ. الغرب لا يزال كتيماً، يخضوضر الشرق. تولد المدينة وتنبعث خطوط مرئية تؤطر ما ليس محدداً. وإذا ما أمعنت النظر جيداً تكّهنت بوجود مئذنة، شحوب ناعم ينزلق فوق سطح من قرميد، بين الحوار الصاخب للديكة البعيدة.

يتسع برتقال الأفق ببطء. يقترب الشمال الأقصى مخضوضراً أيضاً بنعومة لا تخمد. لكن الغرب استمرّ داكناً بينما الأرجوان يتدرج نحوالأصفر. ومن نقطة محددة تماماً يبدأ الشعاع الأخير من هذا العالم ليصبح ذهبياً. عصفور وحيد يغرّد وأسمع تدفقَ ماء قريب جداً، بَرْبَطَةٌ في ماءٍ وطيراناً يشقّ الهواء. تحزن روحي أو تسعد مشوّشة وباردة.تراكم المدينة صار رمادياً خفيفاً، لايشبه الماء وإنما بخارٌ ساكن، ينتظر أمراً كي يتدفّق ويتحرر. كما لوكان باستطاعة هواء عليل أن ينقله، يشوّهه ويسقطه. وأول ما يدرك في الفجر هودائماً الأكثر انخفاضاً، فجوات البيوت، الجانب الموجود في الظل من مئذنة، الأبواب، لأن النور يلامس بأصابعه بعض الواجهات، والزوايا وبعض المستويات الشرهة التي تنظر إلى الشرق. أفسح الأذان مجالاً لنهيق متطاول وحيوي، لماء أكثر، لصياح ديكة، وشدو طيور.جلبات غير مفهومة، يختلط بعضها ببعض، رنانة ملتبسة. ليمون الأفق يتحول أخضر رخصاً مع بعض اللمسات الخفيفة والمطولة للخبّازى. الآن الجنوب هوالذي ينضم إلى الحياة ما بين الوردي والبنفسجي.

لايبدو أن النور يجيء طارئاً ولا المدينة مُنارة من خارجها. إنه أشبه ما يكون بالحب الذي يصل ويحوّل العالم كله في داخله، كما لوأن النور ينبثق من مركز ذاته، خالقاً نفسه وحده، مستيقظاً مثل هذا النهيق الذي ما يزال يمتد دون أن يعرف لماذا. الأحياء المواجهة للشرق هي أول من يمثل، أما الأخرى المقطوعة على أرضية السماء الخضراء والوردية مثل شجرة ورد منتصبة، ما تزال طيفية. وأخيراً بعض الأصوات، وأخيراً بعض الضحكات... كنت أرى البيازين من الحمراء ـ سياجاته وبساتينه ـ، وخلفي الجبال المكسوة بالثلج دائماً ما تزال خفيّة. وهنا أرى في الوقت ذاته نسخة البيازين وجبلاً أبيض خلفه، كما لوأنني أضعت رأسي أوأن جغرافية غرناطة قد دارت كي تلعب معي لعبة الاستخباء أولعبة الألغاز التي طرحتها أمينة ليلاً. أشعر بوخزة في خاصرتي، تصعد إلى حنجرتي

وعيني... عليّ أن أنسى ذلك.عليّ أن أنظر بإمعان إلى عالم هذا المكان، إلى صباح هذا اليوم، فهوآخر صباح لي هنا. العصافير تزيد من تطريبها، الذي لم يعد بالإمكان كبحه، وكذلك الناس. كلب، ثلاثة، عشرة كلاب تنبح. والمدينة ساكنة، تعارك كي تخرج من الليل، كي تمزّق مشيمة الليل المترددة والقاسية. يبدوأن المدينة بقيت مضاءة داخل عباءتها وتتعرى الآن من أنسجتها الداكنة، لكن: شيئاً فشيئاً، وببطء دون أن تتركها تسقط أوتمزقها، بل تتمثلها، وتُدْخلها في ذاتها، بحبّ هادىء، كي تعود وتستخدمها بعد قليل، حين لن أكون أنا في هذا المشرف البلوري الملون، الشبيه تماماً بحياتي، والزائف مثلها...

القمر المرتفع والوحيد، يُخفّف من قوّته. السماء المنخفضة كلها صارت خضراء وتبتعد، وحدها السماء العالية زرقاء. إلى الشمال غمامة صغيرة جداً وداكنة، خطأ، لطخة حبر في هذا المنظر الذي رسمه طفل. ما زال هناك ديك، ديك واحد وألف عصفور انبثقوا وَجُنّوا. الهضاب الخلفية يتميز بعضها عن بعض، تنفصل، تقترب أوتبتعد حسب وظيفتها اليومية. كفر الشرق يتحدد، وكفر الغرب يزحف محدداً ودقيقاً، سطيحاتٌ فوق سطيحات، ليست ساكنة كما ستتظاهر خلال هيمنة النور، وإنما مرتعشة، وربما مرتعدة، أوربما تنشط. والنور المتزايد، المستند إلى الانحدار أوإلى الأبنية الأكثر ارتفاعاً، يُنَمّي البيوت التعيسة ويجعلها تترنّح وتتصادم...

وكما في كل فجر أخذ سربٌ لا نهائي من الزرازير المنبثقة من حقل الزيتون يسوّد السماء. شبكة كثيفة تنقضّ كي تدرك المدينة بصمت وفجاءةً تتلوّى، واثقة فوّارة، ترسم أشكالاً مختلفةً على الأزرق، تخفق، تنتشر، تتركز في متعة الفجرتنفتح وتنغلق مثل نخلة تلعب فيها الريح. أسمع خفق طيرانها الغامض. وفي لحظة تبتعد من جديد، كما جاءت، إلى حقل الزيتون. يخطر ببالي هذا البيت:

كلما اشتقت للزرازير من حز ~~ نٍ أراها تفر عن زيتوني

صارت السماء، أكثر صفاء، وأكثر بريقاً. يذوب الأخضر في غلبة الأزرق شبه الأبيض. الألوان الترابية، الرمادية، البنية للمدينة تستعيد ثقلها. بعض الغربان ـ طيور الرحمة، حسب المعتمد المنفي، والمقتلع منها تماماً مثلي ـ تعبر قريباً جداً من جبيني، وحين تحسّ بي، تكبح من سرعتها، أوهكذا يبدولي... ها أنا أميّز الآن المساجد والمدارس والأضرحة. انفجرت الحمائم تسجع، وأسمع هديل اليمام دون أن أراه.

يبتعد القمر عبر ثقب نوره نفسه. زوج من اللقالق يعبر منخفضاً فوق الأسطحة. أزهار الورد انبثقت من الليل بين الرياحين في الحديقة. حرارة الحياة تنسكب ببطء فوق العالم، لكن ليس فوق قلبي. كذلك الحياة، وهي التي أشعر بها في هذا الصباح... طفل يبكي دون عزاءٍ ممكن. الشمس لم تشرق بعد، وكل شيء نور، ولا وجود للظلال حتى الآن، وكل شيء يرقد تحت ظل خفيف. حين تهجم الشمس عنيفة أمامي سيقع كل شيء في الظل مرةً أخرى: في ظل الشمس ـ عن هذا يعرف الذي أمر ـ في الدخان وفي الضباب. باستثناء رؤوس النخيل، التي ترتفع وتتحدى، والمآذن الحادة، باستثناء ما يحافظ على كبرياء التطلع والسمو: عن هذا يعرف الذي كان فوق... ستبقى الحياة جميلة حتى ترتفعَ الشمس وتُتَوَّجَ وتهيمن... وحتى يحين ذلك أخاف أن تكون ساعتي قد حانت: من هنا جاء أنني أماطل على هذه الأوراق القرمزية التي تذكرني بأشياء كثيرة.

في الأشهر الأخيرة ما عادت تسير جيداً أمور الخليفة حامد المريني. فالدسائس والمؤامرات تحاك. وأنا أعيش الأيام اللاحقة على غرناطة. وقد استدعاني اليوم إلى قصره. أعتقد أنه سيضطر عاجلاً لأن يخرج إلى الحقل ليدافع عن نفسه، فحاسة شم الخيانات هي الوحيدة التي لا نفقدها نحن المنفيين. وأنا أعرف ماذا يعني الدفاع ـ عدم الهجوم ـ . ليذهب أينما ذهب ـ وأعرف أيضاً إلى أين يذهب ـ فإنني سأرافقه. بنو مرين، هم إلى حد ما أسرتنا، طموحون، ويضغطون الأحداث، لم يتمتعوا بالصبر قط. قبيلة الشرفاء تنازع الخليفة على عرشه، وأنا والحال كذلك قد وصلت إلى هذا المستوى، لن أبدل ملكي. لقد فقدت رعيّتي، وربما فقدتكما أنتما أيضاً، إنه فقدان كبير.

منذ زمن طويل وأنا أرغب بأن أرسل إليكما أوراقي هذه. أعتبر أن من المفيد أن تعرفا تاريخ دمكما المدرك، هذا إذا كان يمكن للدم أن يدرك. يؤكدون أن التاريخ يكرر نفسه، وهذا ليس صحيحاً، الذين يتكررون هم المؤرخون. عندما يكتب أحد ما لأمر أحد، فإنه ينتهي دائماً إلى أنه يكتب الشيء نفسه. البشر يسيرون على هَذي مصالح رتيبة. والتاريخ يرويه المنتصرون دائماً ـ فالمهزومون، إما أنهم لا يعيشون أو أنَّهم يفضلون النسيان ـ وبالتالي فالنتيجة واحدة. وأظن لوكتبه المهزومون لفعلوا الشيءَ نفسه، لكنهم سيستخدمونه من أجل أملهم. على كل حال لا بدَّ لأي كتاب في التاريخ، سابقاً أولاحقاً، أن يحدد حجمه بكتاب: أن يُبَسَّط، يُسَهَّل، ويبهت مضمونه، فلا يعود تاريخاً!. لذلك ألفتُ انتباهكما إلى ما أقوم به هنا ـ ولم أتَقَصَّدْ ذلك وأنا أكتبه ـ ليس مديحاً،

ولا حتى تعليلاً. ليس تاريخ ملوك ما أرويه لكما، وإنما تاريخ شاهد، قيمته الكبرى جاءت من أنه الأخير. ومن جهة أخرى لن يكون قصدي، كما لم يكن قط، أن أنقح هذه الملاحظات المتراكمة، التي هي من الاختلاف بتواريخها ومصادرها بقدر ما هي متباعدة. أحياناً كتبت وعدت إلى ما كتبته، وأخرى كتبتُ عبوراً، كمن يتقيأ رغماً عنه.

الأشخاص الذين يسكنون هذه الأوراق، باستثناء أمين وأمينة، ماتوا، ربما أنا أيضاً، وربما أنتما أيضاً، من أجهل عنكما كل شيء تقريباً، أو واحد منكما. ليس لديّ غير الأخبار المبلبلة، وربما غير الأكيدة. آخر ما عرفته عن أكبركما، يا وَلَدَيَّ، أنه كان في تلمسان، وأنه خرج من هناك مع زوجاته وأولاده. لا أعرف أكثر. سأحاول أن يبحث عنكما من هوأشدُّ عزيمة مني - لكنه لن يكون أشد اهتماماً - ويجدكما ويحمل إليكما هذا المخطوط القرمزي - لونه هوالأكثر ثباتاً فيه - الشيء الوحيد الذي أورثكما إياه. أما الخليفة فسأقدم له مقابل كرمه، إذا سنحت الفرصة، هذا البيت. بقية أملاكي فقد صارت لكما: منحتكما إياها منذ أن بَدَا أن الموتَ ما عاد يَرْفضني. مذّاك ما رأيتكما.

نويت الأسبوع الماضي أن أعيد قراءة هذه الوثيقة، أن أعيد تحريرها، أن أعرض شهادتي بأكبر ترتيب وأكبر تأنٍّ، لكن الوقت كان قد تأخر. أرسلها لكما كما هي، مُرَاكَمَةً بهذيان ودون تنسيق، تماماً كما كانت قد تدفقت. ربما لوأن كل شيء كان مختلفاً - بما في ذلك أنا - لكنتُ حرّرتُها بدقة وتفصيل، لكنني أنتمي إلى عصر وإلى ثقافة - هي ثقافتكما - بنيت فيها أزهى القصور ببعض الأخشاب وبعض الجص. وها أنا أترك لكما العناصر الضرورية، ربما أراد أحد ما أن يخلطها ويحوّلها. إذ لا وقت عندي ولا ثقة بأن في العالم ما يستحق العناء. إن القيمة التي تنطوي عليها إنما تكمن في أنها كتبت تقريباً في الوقت الذي وقع فيه ما ترويه. لقد تربيت كأمير، وبالتالي لم أكن حاكماً جيداً. جذبتني القراءة، كان عندي حبّ اطلاع، وكان باستطاعتي أن أصبح عالماً. لم يسمحوا لي بذلك، بالمقابل أجبروني على النضال من أجل البقاء لشعبي. لم ألعب دوراً ناجحاً، ولم يكن من الممكن أن يكون بشكل آخر. لكن، لماذا العودة - تراني أسأل هذا كي أستريح من مراجعة هذه الأوراق - إلى ما بَعُدَ به الزمان؟. بعيد بالنسبة لكم، أما بالنسبة لي فهناك ظروف تتوقّف فيها الحياة، تتعطل في لحظة محددة، مثل بغلة تحرن عن التقدم، مثل عجوز ثملة تخرّ وتغفوأمام الأماكن التي سقوها فيها...

لا، لا أريد أن أفكر أنه كان هناك أحداث أهم من حَدَثِ هذا اليوم أبداً. وهو ليس ما سيحدث في معركة الخليفة مع أعدائه، وإنما رؤيتي طلوع النهار الذي أُكمل فيه أربعاً وستين سنة في فاس... ذاكرتي ليست جيدة. أكدت لي ذلك أمينة البارحة، أستطيع أن أضيف شيئاً إلى هذه الأوراق، لكن بعبق الذكرى الضائعة، ودون فكاهة. يبقى عطر الوردة بعد أن تذبل الوردة، ومع ذلك ما أهمية العطر دون الوردة؟ أفضل أن تأخذاها بالتلقائية التي ولدت فيها. ثم من يدري إذا كانت ستصل إليكما أوأنه سَيَهمُّكُما أنْ تلقيا عليها ولونظرة واحدة؟

هرناندوالبياسي ـ الذي كان يشكل جزءاً من هيئة مترجميَّ في الحمراء، وكان صديقي ومؤرّخي ـ حَثَّني دائماً على الكتابة. لكنه كان يهددني ـ هذه هي الكلمة ـ بكتابة ما أعرفه فقط. وكان يغيظني أن يكون كوني الملك هوما يشدّه، وليس قلبي، ولا المشاعر التي يُثيرها أنني ولدت في عرش آيل إلى الغروب، ولا المحن التي كان يحدثها فيّ المحيط الذابل مثل الوردة السابقة. شُتِمْتُ عليٍ أنني من ضَيَّعَ المملكة ومع ذلك لم ينشغل أحد في التحقيق كيف كنت فعلاً ولا ما إذا كنت قد قاتلت بكل قواي، التي للحقيقة، لم تكن كثيرة. لم يخطر لأحد أنني ربما كنت ـ ليس لأنني الملك ـ التجسيد الأفضل لشعب مكتوب عليه أن يغادر الجنة... والزمن الذي كنت فيه مأموراً كان أكثر من الذي كنت فيه ملكاً والزمن الذي كنت فيه منفياً أكثر من الذي كنت فيه متوّجاً. أكثر من ثلاثين عاماً مضت على تسليم مفاتيح بيتي: نسخة عنها، لأن الحقيقية سترسلُ لكما مرفقة بهذا المخطوط، الذي يكمن اعتباره في أنه يأتي من واحد لن يكون موجوداً، حين يصلكما، ويكاد لا يكون موجوداً وهو يقدّمه لكما.

ربما احتوى على ما لا يجب أن يعرفه ابنٌ عن أبيه، لكن الزمن الذي مارست هذا فيه كان قليلاً جداً... فكبيركما لم يكن قد بلغ الثانية من عمره عندما استخدم فدية لي. تقريباً لم نعش معاً. فقد ذهبتما سريعاً من فاس. لن أكون بالنسبة لكما، كما بالنسبة للآخرين، إلا مجرد خائن. من جهة أخرى من الذي يقع عليه قول ما يجب أن يعرفَهُ ولدٌ عن والده أولا؟ ألم يحكوا لكما، وبطريقة سيئة، ما هوأسوأ؟ ألم يكن المؤرخون جائرين عليّ لصالحهم؟ أنا لا أحاول أن أدافع عن نفسي، أيضاً تأخر الوقت لهذا.أنا عجوز، ونحن العجائز تُنكر علينا الملاحم كما تُستنكر الغنائيات! في المعركة القادمة سأكون إلى جانب من احتفى بي (لم أكن لا الآن ولا في أي وقت مضى من قرر المعارك) لم يبق في العالم من أنا مدين له غير سلطان فاس هذا، وأنتما. وكان محالاً علي أنّ أعيد لكما ما ضاع، فأكرمكما

بحكاية ضياعِهِ. وأنا بهذا لا أحاول حتى أن أضع النقاط على الحروف. فقط هذا الصندوق الذي أخبىء فيه ما تبقى من الحديقة ـ صندوق العرس:

لوتقبلين، يا غرناطة
لتزوجت منك

كما غنى نشيد القشتاليين الشعبي ـ ، آمل أن يصل، بما أنني لن أستطيع أن أوصله بنفسي، إلى أيد أندلسية. وأيديكما من بينها ما تزال الأهم والأقل تلطخاً. لا أنتظر شيئاً منكما: لا عودة، لا مراسلة ولا مطالبة، لكنكما ما زلتما تحملان دماً نَصْرياً، الدم النصري الوحيد، غير الملطخ الموجود على الأرض. أسلافي أشادوا غرناطة وأنا خربتها. اقرأا جيداً هذه الأوراق كي تعرفا كيف. ولكن إذا لم تأخذكما الرغبة فألقِيا بها إلى البحر أوإلىالنار: فالأمر سيّان، أما ما سيكون، فلا نعرف عنه شيئاً. فالعزيز المقتدر سيقول الكلمة التي يريد حين تحين الساعة. إن أي تاريخ ـ لا تنسيا ذلك ـ لا يمكن أن يحكى قبل أن ينتهي. إذاً بدأ الآن دوركما. انتهى دوري:

أضعت ما خفت أن أضيعه،
وما انتظرت أن أفوز به ما عدتُ أنتظره.

مات أملي قبلي، ما بقي لدي منه متواضع جداً! ألا يَشْهَدُ هذا المَوْقِفُ ضدي؟

لا تثر عليَّ، أيها القلب،
كما الآخرون وإن متُّ، لا تثر وارتح.

عليّ أن أذهب الآن. يجب أن أتسلح ـ سأحاول أن أقوم بذلك وحدي ـ كي أمضي إلى المعركة. لن أعود منها: لا حياً ولا ميتاً. أرغب في الاستسلام لمياه النهر، مثل علي العطار في هزيمة اللسانة، فلا يستطيع أحد أن يجد بقايا من كُنتُه، ولا حتى أسلحتي الملكية. سأخرج دون أن أوقظ أميناً أوأمينة. لا بد أنهما معاً، متماثلان، متحابان، يطفحان بالحياة على سرير واحد. ولماذا أتودّع من شيء أو من أحد؟ كل شيء منته. الله يفسر نفسه، لكنني أشك في أنه أعطى ملكاً أجراً أسوأ من الذي أعطاني أياه.

المخطوط القرمزي

بسم الله الرحمن الرحيم

أوجه وجهي لله ـ جلَّ وعلا ـ قبل البدء، وأتوسله الهداية لا الضلال. وصلى الله على محمد، نبينا ورسولنا وخاتم النبيين والمرسلين إلى يوم الدين.

«الحمد لله ربّ العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين»

I . بمنجاة في الحديقة

ما أنت واسمي بمنجاةٍ في الحديقة:
خارج الزمن لا يطالكما شرُّه

أبوعبد الله الصغير

مـن القـلـيل الذي تعلمته في المدرسة، التي أسسها سلفي الأول، ومن شيوخي الشيّب الباردين والمزدرين للشباب، شيء واحد هوقاعدة لكل ما عداه: لسنا أحراراً. قدرنا يُقْرَنُ بنا منذ ولادتنا، يسلم لنا، كما يسلم اللوح الذي ندرس عليه، في طفولتنا، الحروف الأولى وتركيباتها. يمكن أن يُمحى ما نكتبه عليه، لكن اللوح يبقى ثابتاً، ثم عندما نتعلم الكتابة والقراءة، يُهدى إلينا كذكرى فنحتفظ به بحنووخيلاء طوال الحياة. نصّ قدرنا مكتوب منذ البداية، الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نفعله إذا امتلكنا جرأة كافية هوأن ننسخه بيدنا وخطّنا، بمعنى أن نؤدي الخط الذي علمنا أياه أحد ما.

من جهتي أستطيع أن أقسم إنني ما اخترت قط إلا ما هوثانوي أوعرضي: طعام، لون، طريقة قضاء أمسية. الحرية غير موجودة. نمثل دوراً مبتدعاً ومحدداً، لا يضيف أي شيء مفاجئ، وخاصة بالنسبة لبقية الممثلين. لم أكن لألفت انتباه أحد لولم أكن الابن البكر لأبي الحسن، ملك غرناطة. وأول ما يتعلمه الأمير، ولي العرش هنا ـ حتى قبل «أب» أو «أم» ـ هو «لن أتنازل عن العرش» كي يتقن تكراره بطبيعية منذ اليوم الأول لتتويجه. ورغم ذلك فإنه ليس أكيداً أن التنازل لن يحدث، حتى في

حال أن التتويج يحدث فعلاً.

نحن مختلفون بعضنا عن بعض، وهذا ما يحمل على الاعتقاد بأننا أحرار، لكننا مصوّرون مسبقاً، وقراراتنا تنبع من عصارتنا الهضمية وتفكيرنا، أي من معدتنا ودماغنا، غير القابلين للنقل. يبدولنا، مثلاً، أننا نختار الشخص الذي نُحِبُّ، ليس صحيحاً، لأن الامكانيات المقدمة لنا هي - وبصعوبة - اثنتان أوثلاث. نحن لا نختاره: نُذْعِنُ له، فجنسنا، الذي يحدد صورتنا إلى جانب المعدة والرأس، هوناطق آخر. القدر هوالذي يحكم، لذلك تراني أحترم وأفهم الذين يمتثلون له دون تمرد. هم الأقرب إلى إدراك السعادة، إذا وجدت، فأنا لا أعتقد بوجودها: الذين يتحرّكون وينتهون في المكان والاتجاه الذي ولدوا فيه. لكنني لا أفهم ولا أحترم الذين يتمردون. أفكر بالمنصور، الذي حل محل الأمويين بالعنف - بطموح من يريد أن يحكم دون أن يكون وُلِدَ على درجات العرش، بطموح المحامي الثرثار المدمر الذي لا يقف أمام حاجز - الذي قلب صفحاتِ كتاب حياته حين بَرْهَنَ لرعاياه أنه يمكن للازدراء أن يقف في وجه القوة. القدر مكتوب: والصعوبة تكمن في معرفة قراءته. هناك من، - وبينما هم يتطلّعون إلى أن يتجاوزوا قدرهم - يصبحون مجرد سلاح لقدر الآخرين: ينتصبون سادة المصادفة وبقوّة الصراع بدءاً من قدرهم الدهمائي، يتحوّلون إلى منتصبين لما ليس لهم ويلعبون بالشطرنج باسم التاريخ، مطيحين بكل شيء، قطعة قطعة حتى يغرقوا الرقع بالدم. يا للذعر الذي لا رجعة منه حين يتأكد الإنسان أخيراً، في مدخل مدينة سالمة، ويكتشف، وهويتصرف على أنه حر، أنه مستخدم!.. لأنه ما من أحد يتجاوز حياً المهمة التي ولد لأجلها: كل شيء مسوّى ومقاس مسبقاً. وما أن تنتهي مهمته، حتى يصرعه القويّ الوحيد الموجود على الرقعة، التي كان قد أخلاها القدر - قدره هوهذه المرة - بالضربة القاضية. إن الحياة مباراة غير قابلة للاستئناف، ينتهي فيها جميع اللاعبين إلى الخسارة...

الخطاب السابق ينطوي على فورة شباب مفرطة. يبدو لي اليوم مبتذلاً ومتحذلقاً، لكنه دشّن هذه الأوراق. نادتني أمي إلى غرفتها قبل أن أنهيه. كان الصباح يدخل من النافذة مثل ومضة لهب تغمر البلاط بالذهب. كنت أنظر شارداً عن حديثها، إلى نوعِ البلاط. في الأول صورة أنثى تقابل صورة ذكر، وبينهما بعض التروس، يرتديان ملابس مسيحية: هو،

بجورب عال، وهي، بِكُمَيْنِ مشدودين أكثر قتامة تحت آخرين واسعين وفاتحين، والشعر مشطور شطرين ومضموم في ضفيرة واحدة، الرسم أزرق بتدرجات عدة. في النموذج الآخر، وبدرجات من الأزرق مختلفة: غزال وحصان، رشيقان وَفَتِيَّان، الواحد منهما في مواجهة الآخر.

كانت أمي قد انتهت من الانتقال إلى الحمراء من قصرها في البيازين، حيث انزوت تعبيراً عن امتعاضها، عندما بدأ الملك علاقاته مع ثريّا. لكنها، عندما رأت قوة هذه تزداد، اعتقدت أن من الحكمة أن تستعيد مكانها كسلطانة وغرفها الرسمية.

كنت أصغي إليها وأنا مطرق، دون أن أوليها اهتماماً زائداً. افترضت أن الأمر كان يتعلق بشيء أسأت عمله، أوبمشروع سياسي من النوع الذي لا يشدني: الأمر الوحيد الذي يمكن لأمي أن تستدعيني لأجله. ومع ذلك أدركت من كلماتها نغمة جديدة، محلاّة، غير معتادة عندها أبداً. نظرت إليها. لم تكن وهي منحنية تنظر إليّ وإنما إلى قطعة قماش مطرزة بين يديها تطويها وتعيد بسطها. كانت قد أمرت بانسحاب جميع خادماتها، ووجدنا نفسينا وحيدين بشكل مفاجئ. وعندما قررت أن أنتبه إليها كان قد مضى عليها برهة طويلة وهي تتكلم. أنا معتاد على أساليبها التي تلف وتدور فيها إلى ما لا نهاية، وتحيط بالموضوع من بداية بعيدة هي وحدها من يربطها مع النهاية. تشير مثلاً إلى ابن عمها الملك محمد العاشر، أوإلى أبيها محمد التاسع قبل أن تبلغ أياً كان عن الحاجة إلى القيام ببعض الأعمال في الطابق العلوي، أوإلى تغيير مخطط حديقة، أوإلى الاحتفال بعيد الأضحى بأبهة أكبر هذا العام.

كان تخاطُبها مستمراً. وضعت أنا عيني على الصورة الذكورية للأرض الموجودة بجانب قدمي اليمنى.

- إذا كان ما يطبخه والدك هوالتعدي على امتيازاتي لصالح عبدة مسيحية، فإنني سأوقفه عند حدّه. فأنا لست تابعة له لا في دمي، ولا في مالي، ولا في ذكائي. أنا امرأة حرة بكل ما في الكلمة من معنى. لست بحاجة إلى شيء لكن، وبما أنك عينت ولياً للعرش، أريد أن تساندني. وأحذرك من أن خدائع ايسابل ده سوليس تصيبك تماماً كما تصيبني.

وهي لا تناديها ثريا، لأنها ترى أن إسلامها [وفي هذا كانت مصيبة] كان حيلة.

- لا تنس أن والدك عنده ثلاثة أولاد منها. سيفضلهم عليك مع أنهم أصغر منك سناً أوبالضبط لأنهم كذلك. إن قوة السحر (أنت ما زلت لا

تعرفها؛ رغم أنني سأحدثك أيضاً عنها) كبيرة جداً.

ودون أن أفهم حديثها جيداً نقلت نظرتي إلى صورة الأنثى على الزليج. لقد اعتدت على ما هومفاجىء في حديث أمي:

ـ وقوّة الغرور. فأبوك، المتكبّر دائماً، سوف يعيّن، حتى ولوناقض نفسه،وريثاً أصغر، وكأن هذا سيؤمن له حياة أطول،. وهكذا سيجد نفسه أقل اضطراراً لترك العرش لأحد، وأنت تعرف ما أقل مناصرة غرناطة للسلاطين الصغار، وكم لحقها من الأضرار بسببهم.

كنت أجهل أين سيصب ذلك الحديث. المسافة كانت معتادة. لم يكن هناك ما يستحق أن أقطع تماريني من أجله: لا تمارين الفروسية، حسب ما كانت تعتقد، ولا تمارين الشعر، التي استبدلت بها هذا الصباح وكانت تعجبني أكثر.

ـ عليّ أن أدافع عن نصيبي، عليّ أن أدافع عن حقوقي، وأمام كارثة أنك لا تدافع عن حقوقك، عليَّ أن أدافع عنها أيضاً. أنت استمراريتي، ونظراً للأحداث، فأنت وسيلتي الوحيدة للاستمرار في العرش، هذا إذا تكلمنا بوضوح. ربما كانت الأمور ستسير سيراً أفضل مع ابن آخر... انظر كم أكلمك، يا أبا عبد الله.

نظرت إليها. رفعت عيني عن الغزال الأزرق، المخنوق في مستنقع الشمس، لكنها أيضاً لم تكن تنظر إليّ. آنئذ رفعت عينيها. إنهما رائعتان. الشيء الوحيد البهي في وجهها غير الجميل: داكن، طوله زائد، مع زغب خفيف فوق الشفة العليا، وجه جهم غير لطيف. نهضت على قدميها دون أن تمنحني وقتاً كي أساعدها. الآن نحن قريبان الواحد من الآخر ووجهاً لوجه. تابعت:

ـ ومع ذلك ليس لديّ أبناء إلاّ أنت ويوسف، وأنت الكبير، ماذا سنفعل؟ فقد حانت ساعة زواجك ـ أضافت فجأة.

أدركت في نظرتها الذعر الذي لا بدّ أنها أدركته في نظرتي. وبالفعل فقد تيبست كمن يباغته تهديد أونداء مفاجىء أومفرط الطنين.

ـ وصلت إلى نتيجة مفادها إنه ما من واحدة من بنات أعمامك تناسبنا. فالاستمرار بخلط الدماء في عائلة كعائلتنا، يعني المخاطرة بأن يكون لنا أسلاف يزيدونك ضعفاً. أنت ترى كيف ولد أخوك ـ كانت تشير إلى يد يوسف الكسيحة، كنت سأحتج لكنها قاطعتني بإيماءة لا تدحض:

ـ دعني أتابع. علىسبيل الإضافة، إن زوجة من الدم النَّضري

ستدخل إلى البيت الفرصة لهم والخطر علينا. لا أريد أن تثار المطالبُ بالعرش في مواجهة مطلبك، ولا أن يخطر ببال أحد أوهام أن يحكم من خلالك. فروع العائلة يجب أن تبقى حيث هي. يكفينا ما عندنا من ولعِ بني سراج بالقيادة وأعمال شغب متطوعي الإيمان (أنا واثقة من أن إيمانهم الوحيد هوإيمانهم بأنفسهم وبقوتهم). ها أنت ترى أنني أتطرق إلى الموضوع دون لف أو دوران. لا أعرف، كما لا يهمني أن أعرف ما هي تقلباتك في الحب، رغم أنني أملك أخباراً متناقضة، وليست كلها تعجبني ـ الآن فعلاً كانت تنظر إليّ ـ . كذلك هذا لن يرجحَ الكفةَ ضد أو لصالح ما سأقترحه عليك. (وأقول أقترح، من أجل أن أستخدم كلمة لطيفة.). آمل أن يبدو اختياري للزوجة مقبولاً لك.

كنت سأقاطعها فقاطعتني.

ـ ابنة عمّك خديجة هي آخر من أريدها أن تكون إلى جانبك. أولاً، لأنني لست متأكدة من أنها ليست ذكراً ـ كانت لاتزال تنظر إليّ ـ وإذا كانت أنثى، فلأنها من اللواتي، ولكي يعرف العالم كله أنهن حرّات، يمرغن بحريتهن وجهَ كل من يلتقينه! إنها غريبة الأطوار، ملفتة للنظر وبلهاء. ما من امرأة ذكية تتحدى أحداً ما لم تكن مضطرة جداً لذلك: تذكرني بتلك الأميرة الأموية ولّادة: شالات سوداء كثيرة طرّزت عليها بالأبيض أبيات شعر غزلية، شالات بيضاء كثيرة طرّزت عليها بالأسود أبيات شعر غزلية،لكنها لم تفدها في شيء ولم تقرّبها مثقال ذرة من هدفها. ابنة عمك خديج تصبغ شعرها بالأخضر، وتصبغ باللون نفسه شعر الجواد الذي تمتطيه: إسراف وحماقة. ستنتهي صلعاء وتنتهي بالجواد إلى الصلع، وهوالأسوأ. كل ذلك كي تتنزّه وتخُبّ في جنة العريف. يبدولي هذا الغلو جيداً لو كان في قصر سيغوبيا، مَثَلاً، للضحك من المسيحيين المرعبين والجبناء تماماً، لكن أن تسير هكذا في بستان، فهذا ليس إلا رغبة بلفت الانتباه.

وبالفعل كنت سأشير إلى ابنة عمي خديجة، التي كنت أعتقد أنني عاشق لها. صار واضحاً أن أمي، رغم أنها آمرة وبعيدة، تعرف كل شيء.

ـ إن القائد الأكبر للحمراء رجل بدأ من اللاشيء، وأقلَّ من لا شيء: كان يبيع التوابل في سوق لوشة. إنه شجاع، قويّ وفيٌّ وعجوز، أحد ذراعيْ والدك. ونيتي ليست في أن يتخلّى عن دعمه له وحسب بل أن يدعمك أنت أيضاً. الغرناطيون يحترمونه، فهوأحد الأفذاذ الذين لا خلاف حولهم في هذه المملكة بعد الأحداث الأخيرة، أستطيع أن أقول إنه أقل

قابلية للجدل مني ومنك. إذا انتزعناه منه، يخسر أبوك وتكسبُ أنتَ (أوإذا أردت: نحن) وذلك بعمل ما خططت له أنا.

أخيراً كنت سأسمع الملخص.

ـ عنده ابنة جميلة جداً. تسمى مريمة. تعاملت معها هذه الأيام. تستطيع أن تنجب لك أولاداً بسرعة ودون دلال. لا تحمل دماً ملكياً، لكن في عروقها دم وهذا ما ليس لدينا منه زيادة. سيروق لعلي العطار أن يصاهر سلالة بني نصر، وسيقف إلى جانب من يمكن أن يمنحه حفيداً سلطاناً. إنه أفضل قائد في المملكة، وسيساعدك دون أن ينتابك شك بالهدف الذي ينطوي عليه ذلك أو بأنه سينهي مسيرته كبائع للتوابل باقتلاعك من العرش إذا حلَّ محلك. وبما أنه لا يملك خيالاً، سيرضيه أن يرى ابنته على العرش بالحسنى أكثر من أن يجلس عليه هو بانقلاب. أعرف، لو تركتك، ستقول لي إنك قليلاً ما تهوى الحكم، وإن رغباتك تقتصر على تأمل المناظر، وشرب القليل من الخمر، وأن تكتب ما يلهمك به الخمر والمنظر، لكنني أخاف ألا تكون ولدت لتكتب، ما لم أكن أنا من سيملي عليك. وما إن تستقر في العرش، حتى تستطيع، إذا أردت، أن ترتاح في تجربتي، وسيُسمح لك بممارسة الهواية التي تعتقد أنك تملكها، لكن قبل ذلك لا. ستدرس فيما بعد، وستكتب. فغرناطة تمتعت بسلاطين مثقفين، رغم أنهم لم يكونوا دائماً على قدر كبير من الثقافة! تذكر محمد *الفقيه*. ومع ذلك فنحن لسنا سادة حياتنا، أم أنهم لم يعلموك هذا في المدرسة؟ أنت منذور لقدرك ولشعبك. ومن أجل هذا الواجب لا توجد زيجة مناسبة غير تلك التي نصحتك بها، رغم أن بهاءها قليل. إذا لم تعجبك مريمة ـ هذا ما كنت سأعترض عليه، دون معرفة السبب ـ تستطيع أن تفعل فيما بعد ما يرضيك. أنجب منها ولداً، أواثنين، وهذا أفضل. إنهما احتكاكان أوثلاثة، لا أكثر: وهذا ليس طلباً كبيراً. اتخذ فيما بعد محظية أو اثنتين، لا يُنصح بأكثر. كما لا أعتقد أنه ضروري. على الأقل بالنسبة لك أنت، أما والدك فشيء آخر. أنت، ألاحظ أنك تميل إلى الحب العذري، هذا الذي يبدو دائماً أنه يمارس جانبياً. وأسأل نفسي تراه لا يستطيع ويريد، أم أنه يريد ولا يستطيع ولا أعرف ما يمكن أن يكون أكثر شقاء. أنا لا أفهم بهذه التكهنات، كما لا أريد أن أفهم ـ ختمت ـ يسعدني أنك موافق على اقتراحي. مبروك.

صفقت تصفيقة لتنادي خادمتها، وأشارت لي في الوقت نفسه إلى الباب. خرجت وأنا أتذكر دون إرادة مني، حديثاً للبخاري. عندما سأل

أحد المؤمنين النبي عن أحق الناس بصحبته وأجابه: «أمّك، قال ثم من، قال أمك، قال ثم من، قال أمك قال ثم من، قال أبوك.»

عرفتُ مريمة في قصر البيازين. رأيتها تعبر الفناء من الرواق العلوي، المكان المخصص للنساء، حيث كمنت. كانت ترتدي الأبيض والأصفر. يبدوأن أحداً نبهها إلى أنني كنت أتجسس، لأنها رفعت عينيها ونظرت إليّ. ثم خفضتهما بطريقة ظريفة جداً. حزرت أنها كانت تبتسم تحت وشاحها، واكتشفت، دون أن أعرف لماذا، أنني كنت أبتسم أيضاً. كانت طويلة وليست ناحلة كثيراً. تتحرك بجلالة بطيئة. وتتمتع ـ بل ما تزال تتمتع ـ بمظهر الملكة أكثر مما أنا بمظهر الملك.

وقامت الأعراس ـ ولي سبعة عشر عاماً ولها خمسة عشر ـ في نهاية عام 1479 قبل أسابيع كان رودريغو بونش ده ليون، ابن كونت أركوس، قد احتلّ قلعة مونتي كورتو. وبعد يومين، وفي ليلة عيد الميلاد المسيحي، وبينما كان القشتاليون يؤدون شعائر منتصف الليل استعاد مسلمو رندة تلك القلعة. ومع استعادتها وعرسي، عمّ الفرح غرناطة. كنت أرتدي الأبيض والأزرق ومريمة ترتدي تنورة وشالا من نسيج أسود مطرّز بالحرير الأزرق وخماراً أبيض يغطي الوجه والكتفين. عندما انقطعت عن النظر إلى صورتها لم أستطع أن أفصل عينيّ عن عينيها، اللتين كانتا تجذباني وكأنهما من حجر المغنطيس وأنا قطعة حديد صغيرة. عينان بريئتان وخبيثتان، سوداوان وصافيتان في الوقت نفسه، مثل لوزتين حلوتين أومرتين، عينان صريحتان بشكل مطلق وصارم لا يمكن تفاديهما

على ثوب عرس العروس نقشوا قصيدة لابن الجياب(1)

يسحرُ البصرَ جمالُ هذا التاج كأنه الديباج
والعروس على كرسيها انجلت
كأنها شمس تتلألأ في عالي السماء
نجمان على الكرسيّ التقيا يتنافسان
ببهائهما الباهر.

---

(1) لم استطع العثور على النّص العربي فترجمتها (المترجم).

لم يكن صحيحاً أنهما كانا يتنافسان: فأي كان، لا بدّ كان سيخسر في ذلك اليوم مع مريمة.

كزوجين جديدين حضرنا الاحتفالات الشعبية التي قدّمتها لنا أمي. (فوالدي بقي على هامش العرس، رغم أن عمّ ابنه كان شيخ لوشة، وسيد شقرة، وحاجب المملكة الأكبر، وكذلك سيفها الأمضى. أعتقد أنه كان يعرف بداهة أن كل ذلك لم يكن إلا مكيدة من مكائد السلطانة ـ التي وبمكائد لا تقل غموضاً عن مكائد عشيقته ثريا ـ كان يحاول أن يعزلها. في مساء اليوم الثاني حضرنا حفل مصارعة ثيران. كانوا قد أطلقوا في ساحة المصارعة عدداً من الثيران الشرسة، من تلك التي ترعى في حظائر بيغا لهذا الهدف، ثم مجموعة من كلاب الدرواس، الشرسة أيضاً. والغرناطيون يحبون كثيراً أن يروا اندفاع الحيوانات عندما يقاتل بعضها بعضاً بنبل واحتدام. ينتظرون إلى أن تتعب الثيران أمام مضايقة الكلاب ـ التي، ولأنها أخف، تتفادى النطحات وتتعلّق بآذانها مثل الأقراط ـ ، يسمحون للفرسان بالخروج والحراب في أيديهم، ليقضوا عليها. كان عمي محمد أبوعبد الله وفرسان آخرون سيخرجون، وكانت رغبتي في أن أراه أبقتني في حالة تحفّز. لكن مريمة التي لم تكن تحب مثل هذه الألعاب الدامية، توسّلت اليّ، رغم معارضة أمي، أن نخرج من المنصة. وقد عوّضني عصيانُ أمر أمي عن رؤية عمّي وازدادت رغبتي به.

إن المؤمرات التي تنتشر حولي، وتتلبسني مرات ليست قليلة، تجعلني أحتاط كثيراً من المرأة. لم أفهم أبداً أولئك الذين يؤكدون أن الرجل ينطوي على طبيعة الذكر تماماً كما ينطوي على طبيعة الأنثى، لأن كليهما يؤلف الكل المصنوع على شاكلة الله. فالمرأة، حسب زعمهم، هي، بالنسبة إلى الرجل، بمثابة المرآة لنفسه، تُعَرِّفُهُ بالجزء الخفي عنه من جوهره (إن قدرة العين تكمن في الرؤية، لكنها لا تستطيع أن تتأمل نفسها). وأقل ما أفهم هي النتيجة التي تقول إن الرجل، ولأنه في كماله الأصلي هوالرمز الأتم لله، ولأن هذا الكمال يوجد في التكامل مع الأنثى، فإن المرأة تتحول إلى الرمز الأكمل لله. هناك من يؤكد أن في هذا يكمن لبّ الحب، لكن في الحقيقة، ليس هناك أبعد عن مفهومنا له من مفهوم الرفاقية بين الرجل والمرأة: فمجالاتهما هي من الاختلاف بحيث أنه من المحال القران بينهما. للمرأة البيت، حيث الرجل ضيف، للرجل الخارج، حيث لا تظهر المرأة. وبهذا نتراوح بين الحريم والاحترام الفروسي ـ الحب العذري الذي أشارت إليه أمي ـ والمرأة ليست في أيّ من هذين الطرفين: سواء لأنها مستهلكة ورهن التصرف، أولأنها غائبة. ومع ذلك

فإنني أستنتج من قراءاتي أن إهمال وازدراء المرأة هما نتيجة للحياة المدنية، لأنه في عالم البدو، حيث يظهر الجنسان مثل قطبين لفلك واحد، يغرم الرجل بالمرأة وتحترمه هي، كسيد لها. ومع ذلك، فإنه ما من حالة - ولا حتى هذه - يحدث فيها الاقتراب الضروري للتعايش ولما يفترضه التعايش. وأقصى ما في الأمر هوحديث للترمذي، ينصح النبي فيه بالمعاملة الحسنة الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى: «الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن الله كان علياً كبيرا[1]» .

لكن ماذا كانت تمثل لي تلك الأفكار في علاقتها مع مريمة؟

منذ اللحظة الأولى أظهرت نفسها لي كما هي: محترَمة وواثقة، لكنها محترِمة وأهل للثقة أيضاً، بحاجة للحماية وحامية في الوقت نفسه. تتصرف معي كزوجة لكن كأم أيضاً، أوكصديقة، أوكابنة، حسب الظروف، ثم إنها تتمتع بالميّزة النادرة بمعرفة متى عليها أن تقوم بهذه المهمة أو تلك. وزيادة على ذلك، لا تتطلع، مثل أمي، لأن تحكم، بل هي مقتنعة، بإباء وتواضع، بما خصّها به القدر: أن تكون زوجتي. زوجتي كما أنا في الواقع، لا كما يمكن أن تكون قد تصوّرت كيف يمكن أن أكون قبل أن تعرفني، ولا كما يمكن أن تتصوّر كيف سأكون غداً.

كنت، قبل أن أصبح مع مريمة، أحسد الفلاحين ذوي الأعضاء التناسلية الكبيرة والقاطعة، والأيدي القوية والأكتاف العريضة، الذين يهيمنون على الأرض التي يحبون، ويُؤَمِّنُون دون مبالغة حياة أبنائهم. كما حسدت أيضاً نساء أولئك الفلاحين، اللواتي يلجونهنَّ - دون حياء في الصيف وشبه مغطيات في الشتاء، عند ما يخيم الليل - مرّةً وأخرى؛ الفلاّحات، اللواتي يعضضن على صرخات اللذة كي لا يلهين أويزعجن الذي يسبّبها. قبل أن أصبح معها كنت أستمني لأنَّ اشتهاءَ أجساد كثيرة ومبهمة كان ينقضُ عليَّ وسطَ حديقةٍ أووسطَ درسٍ مثل موجةٍ عليَّ أن أستسلم لها. [حضور مريمة وحده، حتى دون أن تتدخل إرادتها، غَيَّرني

(1) لم أعثر على حديث يجمع ما قاله المؤلف والذي ينطبق تماماً على ما جاء في الآية 187 من سورة البقرة والآية 34 من سورة النساء المثبتة في النص .

منذ البداية. بل حتى قبل أن تسلبنا الأحداثُ دافعَ حياتنا الجميل والمتبادل من جانب وتعززه من جانب آخر].

أكتب هذا وهي حامل. سيكون ابننا الأول. في عزِّ الصباح مارسنا الحبّ بهدوء ولذّة. قبل أربعة أشهر، وفي لقاءاتنا الأولى كلّ شيء كان مستعجلاً وبليداً. كانت مريمة، بعد الإراقة، تستمرُّ، تنظرُ إلى مقرنصات السقف كما لوأنها انتظرت شيئاً أكثر. وشيئاً فشيئاً قادت حالة الرضى عندي إلى حالة الرضى عندها. أتقدّم منها الآن متوَّجاً بالأزهار ـ بالأزهار فقط ـ ، كما لوأنني أتقدم إلى موعد يمكن أن أُستَبْدَلَ فيه، لكن أنا وهي نفضل ألا يحدث ذلك. أدخل إلى مخدعنا، كساقٍ يخدم سيّدَتَه الشابة، التي تنتظره، قلقة ومتلهفة، على السرير. وأنظر إليها ببطء. تكاد تتيه شهوتي من كثرة اشتهائها. لم أعد ابن ملك، لا حاجة لي بذلك، ولا هي زوجة أمير، أوأيَّ رجلٍ آخر من هذا العالم: مجرَّد فتاة ترى فتى شبهَ عار، مفكوكَ الزنار، يقترب من سريرها. وأنا رجل يقبّل الفم الذي يحبّ في هذه اللحظة، يزلق يده، المجردة من الخواتم، على الجسد الذي يتوق، يرتعش شَبَقاً، مثلَ من ينزاح عنه الغطاءُ عند الفجر وهوفي الحلم، يصل إلى المكان المناسب، بين الفخذين الطويلتين، ويبلل أصابعه في شاهد الشوق الذي لا يعتريه الالتباس. وأنا هناك دونما التزام يتطلّبُ وجودي. والجسد إلى جانبي، أوتحت جسدي، يستسلم ويتفتح، عذباً ناضجاً مثل ثمرة لدنة وديعة، كريمة من ذاتها وجائعة لجسدي، مبعث اللذة وملتذّ فقط بما يحتك به جلدها وجلدي، الفوّاح وغير المعطر، مثل رغيف طريّ جاهز لإشباع شهية.

في الضحى مارسنا الحب ببطء وقور، بدا وكأننا نمارس طقوساً دينية، ولا شك أنه كان كذلك. مررت بلساني الكسول في أرجاء جسدها، غمرت سرَّتها، مركز بطنها الذي يأوي وعد ابننا، باللعاب.

ـ بهذا البطء، يقولون إن السلاحف تتلاقح.

ـ وكذلك الأفاعي ـ أضافت هي، بينما كنت أحاول أن ألمس بيدي اليمنى أرز التخت، الذي أخفته الحرائر والوسائد التي زلقتُها، بين قهقهات مريمة.

ـ لا تعودي وتقولي مثل هذه الكلمات، أوأنني سأجرُّك عندما أقع عن السرير وستجهضين.

مريمة، التي تمتطيني، أعادت إليَّ كل الدغدغات. وجابت كل الزوايا الخفية في جسدي، مثيرةً وماحقةً إيّايَ. وبينما أنا مسحور بهذه النشوة

التي يتخلى فيها المرء عن العيش كي يعيش أكثر، أويتخلى فيها عن أن يكون هونفسه كي يتماهى بكل ما يمتعه، بكل ما يهزّه، بكل ما ينبض في هذا العالم، فكّرت، وَمْضاً، كم هي قصيرة وبائسة لذة الاستمناء مقارنة مع هذه الأخرى، الآسرة تماماً والمشتركة، حيث تتشابك القسوة والكرم، الأنانية والسخاء، ثم تختلط.

أجهل لماذا عندما استرخت الرأس بالمداعبات الطويلة، واهتزّت، والعينان غابتا في الوسائد، ورد إلى ذهني مشهد من مراهقتي. كان ذلك في أحد بساتين جنة العريف، في أكبرها. وبين يدي كتاب معلّم صوفيّ، وكنت أرى ـ كما في كثير من المساءات السابقة ـ الشمس تغرب. كان الوقت صيفاً. وكانت الرطوبةُ وخريرُ المياهِ، الذي يقترب ويبتعد، والنورُ الذي يقاومُ الموتَ في القَصَبِ، الفاصل بين الحمراء والبيازين، تبعثُ فيَّ حزناً لذيذاً. إلى الأسفل مني، وكنت جالساً وصامتاً، ظهر في المنحدر أحدُ الفتيان الذين يعتنون بالبستان، ودون أن يلحظَ حضوري تَرَكَ نفسه يسقطُ في منزلقٍ مليءٍ بعشبٍ يكادُ يغطيه. كان مقابل الشمس الغاربة، مرفوع الرأس، مفتوحَ الساقين، ويداه بينهما. رفع العباءةَ، دون عجلةٍ؛ وبرصانةِ من يمتثل لقانون مقدّس، أرخى سرواله واستمنى كما في تقدمةٍ حميميَّةٍ وكاملة للشمس، التي كانت تموت. أوهكذا فهمتُ الأمر. كان قلبي يخفق بقوّة، لا أدري ما إذا كان بسبب المتعة التي كنت أحضرها، أوخوفاً من أن يكتشفني الفتى بعد أن مارس فعله. انقبض وجهه، بعد أن وقع على العشب، بحركة كان من الممكن أن تكون بسبب ألم لا يحتمل، إلى أن خفّ التشنج وهدأت شفتاه. كان الفتى رشيقاً، خشناً ورقيقاً جداً في آن واحد، فضحيت بدوري للشمس بعد أن أثرتُ وأرقت على الأرض. سقط كتابُ الحبِّ الصوفيِّ من على ركبتيَّ ولم أقرأ بعدها في ذلك اليوم شيئاً.

قصصت على مريمة، بعد أن انتهى طقسنا، الرؤيا التي داهمتني بينما كنت أحبّها. سألتني هي عن الراعي.

ـ لم يكن راعياً، بل بستانياً.

ـ سيّان...

ـ لا، ليس كذلك. ثمّ إنني لا أذكر كيف كان. فقط أتذكرُ انقباضَ فمه وجبينه، كما لوكان سيصرخ ثم سَكِيْنَتَهُ. أفكّر ما إذا كان هذا ما يحدث لمن هم على وشك أن يموتوا: يرعشهم الاحتضار، ثم يأتي الموت فيلطّف تقاسيمهم. لا أتذكر غير هذا.

وسألت مريمة بخبث :

- لا غير؟!

وأنا رحت أضحك.

- أتذكّر شيئاً كان جلياً جداً: عضوه المنتصب والأسمر، مثل الجذوع، التي وحسب ما قرأت، يعبدها بعض الأفريقيين.

- منتصب وأسمر؟ كرّرت بينما راحت تسحب الغطاء الذي كّنا قد تغطينا به.

قَبّلتْني، ضاحكة، على ضحكة فمي، وعدنا لنبدأ من جديد،بعد الضحى، دورةً متأخرة من الدغدغات المتبادلة. وقالت: هذه الياسمينة لا تتوقف عن الإزهار.

فأكملت:

- وأكثر من ذلك لا ينقصها العطر بين إزهار وآخر.

وقبّلت نهديها.

التفاهم والعاطفة، اللذان اكتشفتهما في مريمة هُما ما كنت أبحث عنه دائماً، لكنني بحثت عنهما بشكل سيء: في أبي، في أمي، ومعلّمِيَّ، وكلّ أولئك الذين كانت الحياة الرسمية تهيّئهم لي. ومع ذلك فإنَّ الحنانَ والعالمَ الواقعيّ يبتعدان عن الأمراء ولولا بعض الأشخاص لما كنت واثقاً من أنني كنت طفلاً ذات مرّة. عليَّ أن أكتب، حتى إذا رغبتْ أن تقرأ مريمة هذه الأوراق لتعرفني معرفة أفضل، وأن أكتب كيف - أوبالأحرى بين أيدي من - جرت طفولتي. فمن أجل مريمة ومن أجل من أنا شكور لهم أترك اليومَ أسماءهم منقوشة هنا. اليومَ، الذي هوأسعد يوم في حياتي لأنَّ ابني وُلِدَ فيه. وسيكونُ اسمه أحمد.

لكي يكون صوته قوياً وجلياً فَرَكتْ أمه، التي تتبجّح بأنها لا تؤمن بالخرافات، فَمَهُ بقطعة نقد ذهبية قديمة، ولكي يكون مليحاً - مثلي، تقول هي - وضعت حبّة ملح بين شفتيه. ولكي ينموشعره سريعاً، جلبت مرضعاته، قبل أن تبزغ الشمس تماماً، ماءً من نبع الطريق الذي ينحرف عند أسفل البساتين، وفَرَكْن به رأسه، أمام ذعر أمه الخائفة من ألّا يلتحم يافوخه بسبب التدليك. ولكي يصبح قوياً وضعت في قبضتيه الصغيرتين

سيف الأحمر، مؤسس سلالتنا. وأرسلت في طلب إمام المسجد الكبير وإمام مسجد الحمراء - اللذين، بالمناسبة، يكره أحدهما الآخر - كي يصليا على المهد لتتحد قوى الروح مع قوى الجسد، هذا إذا لم تكن قوى الاثنين واحدة.

أتمنى أن تكون طفولة ابني أكثر فرحاً وأكثر رفقة من طفولتي. أتصوّر الطفولة كنزاً ينتزعونه منّا شيئاً فشيئاً. لذلك أتمنى أن يجد، وسأسعى لكي يجد، أشخاصاً كالذين التقيتهم خفية تقريباً. هم من قرّبني من العالم، وكجسر، مكّنوني من الوصول إليه بنعومة. لولاهم لما عرفت شيئاً أو لكان ما عرفته عن الحياة الحقيقيّةِ قليلاً، ولاقتصرت على المطامع الجنائزية للحكام ولمن يطمحون لأن يصبحوا حكاماً. منهم تعلمت لغة الصدق، والفضاء المتنوع، والهامّ لكل إنسان، والذي يتمتعون به معاً في عيد الأخوة، ونبض المشاعر الأولية، التي هي الأنقى، بعيداً عن قناع المجاملة التي تشوّهها إلى حدّ الاقتلاع. مازلت أشكرهم في أعماقي، وأحمل وجوههم محفورة في قلبي. إنهم:

المرضعة صبح

مات أولادها، بمن فيهم الذي كانت ترضعه عندما ولدت أنا. حدث ذلك في هجوم قام به، ميغيل لوكاس ده ايرانثو على قلهرّة لينتقم لفشله في قلعة أرينش. اختبأت هي، وصغيرها في يديها، بين بعض شجيرات العليق، غير بعيد عن البيت حيث بقي زوجها وولداها الآخران. كانت تسمع صرخات المطعونين، والتهديدات وقهقهات الجنود الذين كانوا يتسارعون للاستيلاء على الغنائم مهما كانت تافهة. رأت بين يدي أحد الجنود أدواتها، أدوات مطبخها المتواضعة وثياب ابنها البالية. ارتطم رأس الكبير بعتبة الباب فتلطّخ الأفريز العلوي بالدم. فهمت صبح أن كل شيء قد انتهى بالنسبة لها هناك. فهربت في طريق وادي آش، تسقط وتنهض بينما راح الجنود يدمرون الضيعة ويذبحون سكانها.وعندما وصلت إلي وادي آش كان الطفل قد مات: كان ذلك في حزيران، وكانت هي قد جفّت بين عرق ونحيب.

كانت صبح قويّة، ضخمة وجميلة على طريقتها ولها يدان تالفتان، لكنهما رقيقتان، كأنهما تابعتان لجسد مختلف. وكان ثدياها اللذان رضعت منهما لسنوات، إذ كنت أفضلها على المرضعات الأخريات، دائماً مليئين. (أعتقد أن حليبها كان لذيذاً جداً، لأنني، وكما كانت تقول لي، كنت ألتصق بهما بلهفةٍ لا ترتوي.) لمْ تكن تكره أحداً: حتى المشير ايرانثو، أو أبي، (الذي كان هومن نقض الهدنة في نيسان في معركة مادرونيو قرب أستيبة، ضد القائد أشونة بإثارته الحدود عليه. لم تكن تكره شيئاً غير الحرب).

ـ الله ليس طيباً ـ كانت تقول ـ لأنني أخافه.

كانت ورعة وتقوم بواجباتها، أيضاً على طريقتها. كما كانت تصلي بحماسة، والشيء الوحيد الذي تطلبه، عندما تسجد، هوألا يكون هناك حرب (أعتقد أن هذا هوالشيء الوحيد الذي لم يكن الله على استعداد لأن يمنحه لها). ومع الزمن راح ينبت لها شارب خفيف، يخزني قليلاً عندما تقبلني ولكثرة ما تفعل ذلك كانت تلهب جلدي. كنت أراها عجوزاً كبيرة، لكنها لم تكن كذلك، فالأطفال يخطئون في تقدير قياس الأشياء: الغرفِ، المستقبلِ الذي ينتظرهم، العمر. لكن ربمّا لا يخطئون في تقدير الحب.

برّرت صبح حياتها بحياتي. كانت تعمل لي بيديها الهائلتين تعزيمات غريبة كي تحميني من كل سوء وتتمتم بصلوات غير مسموعة وعيناها إلى الأعلى. وبما أنها لم تكن تثق بطيب الرب كان عليها أن تحذر علينا، نحن الأثنين، حتى منه. كانت مخلوقة رحيمة، تجد نفسها وحيدة ومحصورة وسط العالم، وكأن أية كارثة، وهي لن تفهمها أبداً، إنما هي موجَّهة ضدها وضدي. كانت تعلق لي أنواعاً كثيرة من التمائم، والسور التي يقدمها لها مشعوذو السوق إضافة لعدد من الأعشاب المفيدة. وعندما كانت تذهب أمي لرؤيتي ـ وهذا لم يكن يحدث كثيراً ـ كانت تعمد إلى نزعها، وتنساها أحياناً، فتقيم أمي الأرض وتقعدها متذمرة من جهل العامة (أتصور أنها لم تكن تعتقد أيضاً بأنها تَضرُ بي، ففي أعماقها كانت ترتاح إلى عاطفة المرضعة صبح، العمياء والأخّاذة).

ـ سيصير حليبي سلطاناً ـ كانت تردد وهي تأكلني بالقبل، فقد كانت واحدة من الخادمات القليلات اللواتي يُقَدِّمْنَني على أخي يوسف.

ـ أنت تُذَكِّرني بأولادي مجتمعين. أنت مرآة ينعكس فيها الثلاثة، من

علي عندك الوجه الدائري والخجول، ومن محمد عيناه الناعمتان ومن مالك، آه يامالكي، الذي لم أره يمشي، ومن مالك فمه اللباني المدور... ستعيش أجمل حياة في العالم... ستجن النساء بِعُظَيّماتِكَ وبأشياء أخرى لا أستطيع أن أقولها لك. والرجال سيطيعونك إلى حد أنك لن ترى غير ظهورهم، لأنهم سيكونون أمامك منحنين دائماً.

وفي أثناء ذلك كانت ترتل علي حسن الطالع، وتعلّق لي هنا وهناك تمائمها غير الفاعلة، والتي لم تكن دائماً نظيفة.

ـ لا تضيّعها، إذا أضعتها فإنها تنقلب عليك آجلاً أوعاجلاً. تفقّدها، من حين لآخر، في الدرس وأثناء اللعب، كي تتأكد من أنك ما زلت تملكها. ولا تدعهم يرونها، لأنهم سينتزعونها منك. لك أعداء كثيرون، يا صغيري، لكن لا تهتم، فستخرج منهم منتصراً. لأن ذلك يناسب الله، سوف يستخدمك. أنا أطلب منه هذا في كل ساعة: أن تكون أنت من يقضي على الحرب، أعرف أنه سيستجيب لي. إنه يحبك أكثر مما يحبّني. ألا تلاحظ ذلك؟ ألا تفوح منك رائحة الورد ياحياتي؟ رائحة الورد التي تفوح من جسدك تدل على أنك ستقضي على الحروب دفعة واحدة.

أكثر ما كان يربطني بها أنها، وهي التي لم تكن تثق بالكبار، ولا تستطيع أن تعبّر أمامهم عن معتقداتها ولا عن حميمياتها، كانت تكلمني، أنا الذي فعلاً كانت تثق بي، كما لوكنت كبيراً وأفهمها. ومن يدري كيف، فأنا كنت أفهمها حَقًّاً، لأنني اليوم بالذات أتذكّر قسماً كبيراً من مسارّاتها التي أعتقد أنها كانت تسكبها في أذني وكأنها تكلّم نفسها. كانت تخلط بعضها ببعض. تحكي لي أقاويل بيت الحريم: توتّرات محظيات والدي مع الخصيان، أومع من يتظاهرون بأنهم كذلك، وليسوا خصياناً كلياً، عراكاتهم المرعبة بالكلمة والفعل؛ ومن مِنْهُنَّ كن يقمن فيما بينهن علاقات حبّ عميقة وصاخبة... لم تكن تحبّهنّ، لكنها كانت تحترم العبدات الأمهات. (لم يكن هناك أميرات أمهات، فأمي ما كانت لترضى)، ربما كانت الأمومة الشيء الوحيد الذي كان ما يزال يؤثّر فيها وينتصر عليها. وكانت تعتني بجميع العبدات الأمهات ضمن إمكاناتها، باستثناء ثريا، التي كانت تشعر تجاهها بنفور خاص.

ـ عندها ولدان (ثم أنجبت واحداً آخر). جميلان جداً، لكن ابتسامتها الدائمة تثير الريب عندي. ما من عبدة عندها كرامة تملك مبرراً للابتسام، إلا إذا كانت تعد للعبة قذرة.

إضافة إلى الأمومة، كانت مشغوفة بموضوع «القرون» . «القرون

هي العلة الأكثر عادية في الحمراء. الناس كلهم يركّبونها، والناس جميعهم يحملونها. بها يكاد يُشْتَرَى كل شيء، ومنها تأكل الأغلبية» . ولكي تنوّمني كانت تغني لي هذه الطقطوقات التلميحية:

تطاول قرن الهوزنّي بباجة وأفرط حتى.كاد أن ينطح النطحا
فحمرة ما في الجومن شفق الضحى دليل على أن النجوم به جرحا

أوهذه الأخرى، التي لم أكن أدرك معناها جيداً:

قالوا له زوجته قد زنت فقال هذا قول أهل البلد
والله لا صدّقت أقوالهم حتى أرى المرود في المكحلة

وقبل أن تنهي الطقطوقة التي تحاول أن تنوّمني بها كانت تشرع بإطلاق قهقهة توقظني. كانت قهقهاتها تخرج من سرّتها وتتوزّع في كل جسدها كصوت إبريق يفرّغ من مائه.

ـ ذات ظهيرة، جاءتني جارة، يا صغيري، هناك في قلهرّة، ولم يكن قد حدث شيء مما كان سيحدث وكنت أؤمن بالله، فقالت لي: «إنهم يجيئون بزوجك مشدوداً إلى عربة، هناك في أسفل الشارع هوقادم، لن يسعه الباب» . «آه منك، يا أيتها العاهرة الكبيرة» ، أجبتها، «هذا الصباح لم يبغ زوجي الخروج إلى الحقل ليعمل، لأنه في كل مرّة يرى فيها قرونك يغوط في سرواله» .

كانت ترتل تعازيم وتتناول شرابات سحرية، وتستعمل توابل كي تحصل على عرائسها ثم لا تلبث أن تحتقرهم دون أن تجربّهم. كان يفرحها صيدهم، لكن ليس استغلالهم. «أنا مثل معركة الهجيرة» . كانت تضع عينيها على أحد الخدم وتترك أهدابها تتسدل رافّة، وتسرّح شعرها تحت الخمار، وتنفض ملابسها جيداً وتهمس بصلاتين قصيرتين أو بثلاث، تستعمل طلاسمها الخاصة وتنطلق للهجوم.

ـ سيتبعني هذا حتى الموت. لن يلهث إلّا حولي. إذا لم أقطع أنا العلاقات معه فإنه لن يبغي رؤية أحد غيري.

وبعد يومين أو ثلاثة، كانت تقول لي:

ـ اضطررت أن أقطع العلاقة معه، لأنه أصبح غير محتمل: لا يتركني لا في الشمس ولا في الظل. الرجال مثل الذباب. بل أسوأ: ما من مذبّة تذبّهم.

أحياناً كنت لا أفهم بعض تعليقاتها فأطلب منها أن توضّحها لي

بسؤال وآخر ثم آخر.

ـ أنت غبي، يا أبا عبد الله. يبدوكذباً أنك رضعت مني كل هذا الحليب ولم تتعلم منه شيئاً. أنت غبيّ تماماً ـ كانت تكرّر.

ذات مساء ـ لا أدري لماذا أتذكّرُهُ ولا أتذكر مساءات أخرى ـ كانت تحمّمني في جرن بماء ساخن جداً:

ـ لكي تتعلَّم. لكي تمضي في التعلم، فإن الكبار، إذا كانوا أغنياء يستحمون بماء بارد وفاتر وساخن، ويستلقون، ويلمسون عوراتهم بين بخار الغرف، ويرتاحون بعدها قليلاً قبل أن يعودوا للمسها ثانية. هكذا، هكذا ـ كانت تدلكني بيديها القاسيتين والناعمتين ـ . وفي الحمّامات يوجد حلاّقون، يحلقون شعر من يتركهم يفعلون ذلك (رجال ونساء، لا تظن). ويوجد مدلّكون يصفعونك ويرفسونك، وناس يغسلون ثيابهم ويعصرونها، هكذا، هكذا، وأطفال مثلك، يفرحون لأنهم ولدوا، لأن طفلي هذا متخلف، متخلف جداً ومسكين...

[كانت المرة الأولى التي يناديني فيها أحدٌ بلقب سيلاحقني طوال حياتي، بل وأبعد منها: *الزغيبي*، المسكين البائس].

ـ هذا الطفل شبيه تماماً بفائز الجنائني.

كان فائز أحد أحبّ أصدقائي إليّ.

ـ بماذا أشبه فائزاً؟ ـ سألت بافتخار كبير.

ـ في أن عكّازه جاسئ، لكن ما تَبَقّى مرتخ دائماً.

ـ وما هوما تبقى؟

ـ ما لا يهمّك ـ وتروح تترنّم ـ :

عدمت من أيري حسّه يا حسرة الشيخ على نفسه
تراه منقضاً على سفله كحائط خرّ على سفله

و

يود عيسى تزول عيسى عساه من دائه يريح
وموضع الداء منه عضو لا يرضى مسه المسيح

›› ليس لهذا الجنائني أي مستقبل: لا بدَّ للمعول، كي يحفر، من نصابٍ قاسٍ وطيّب ـ وكانت تطلق ضحكة مدوية ـ محمدي وأنا ـ كانت تضيفُ

وعيانـاهـا تطفحـان بـالدموع المفـاجئـة ـ آه، يـا صـغيري، بوعبدل[1]، محمدي وأنـا، بين ثلاثة أولاد، كنـا مثل مقص صغير: واحد فوق الآخر، دائماً واحد منـا فوق الآخر ومسمـار في الوسط.... لا يمكن أن يكون الله طيباً. إنه ليس طيباً، فلوكان كذلك لما فعل ما فعل. إذ مـاذا فعلنا لـه، نحن البؤسـاء، يـاصغيري؟ أتريد أن تقول لي أنت، الذي تملك أسـاتذة وفقهـاء جيدين، وتحفظ نصف القرآن عن ظهر قلب؟ قل لي، يا حياتي، مـاذا فعلنا نحن لله حتى يتصرّف معنا بهذه الطريقة؟!

ـ هل أنت نصرانية؟ ـ سألتها.

ـ أنا نصرانية؟ هؤلاء الذين لا يؤمنون إلا بالكنوز المطمورة أو بالأصنام التي تظهر لهم ويطلبون منها كنوزاً مطمورة.

حَمَّمَتْني ذات يوم، وحمَّمنا بعدها بالماء نفسه بعضَ الجراء الصغيرة، التي تركتها لنا كلبة صدمتها وقتلتها عربةٌ من العربات التي تستخدم للصعود بالحطب من الخارج إلى الحمامات. كانت كلبة حنوناً. كنّا نسميها أنا وصبح نوبة ـ أي *البخت* ـ لأنها جاءتنا ذات يوم بحجر أسود في فمها أكدت صبح أنَّ مصدره القمر وأنه أكثر الطلاسم قيمة. المسكينة نوبة لم تُسْعَدْ به: فقد رأينـاهـا ذات صبـاح وقد سحقت عجلةٌ رأسَها وجراؤها الثلاثة تبكي حولها.

كانت صبح تغسل الجراء التي تنفض نفسها تحت الشمس وتلعب صاعداً بعضها فوق بعض.. لم أكن أميِّزُ ما إذا كانت ذكوراً أم إناثاً، لكن صبح كانت تعرف:

ـ انظر هذا اللوطي ـ كانت تقول لي ـ ألا يريد أن يمتطي أخاه؟ والأُنَيْثَة، انظرها، انظرها: بدل أن تلمَّ تنورتها، أنظر إليها مرفوعة لدرجة أن الجنائني نفسه يتمناها لنفسه. والإثنان يمضيان ضد الصغير. تذكر، يا بوعبدل: هذا ما يحدث دائماً.

وفجأة بدأت الجراء يعض بعضها بعضاً وتتصارع بيأس بين قدمي صبح، التي أعتقد أنها كانت ترضعها أيضاً، وهي تضحك وتصفّق. وقد خفتُ كثيراً وأنا أراها هائجة ومليئة بالكراهية فيما بينها.

ـ هذه ليست الحرب، يا أبله. ليست الحرب ـ كانت تقول ـ إنها

(1) هو أبو عبدالله الصغير كما يناديه الإسبان.

شقاوات صغار. وكانت ترشقها بجفنة من الماء كي تفصل بينها، فتنكمش الجراء وقد تَبَلَّلَ شعرها فتكاد تصير لا شيء.

كانت صبح معتادة على مخالفة جميع القواعد تقريباً. أعتقد أنها كانت تَتَلَذَّذُ بالقيام بذلك خلسة. فمثلاً إذا كان ممنوعاً علينا أن نُعْطى الحلوى، كانت هي (ولا أدري من أين تخرجها، ولا أيَّ محظية تُرْضي كي تحصل عليها) تأتي بمنديل مربوط من أطرافه، مليء بالحلويات القاسية والمخشخشة.

- لحياتي - تقول، وتبدأ بإعطائها لي واحدة فواحدة.

وذات يوم ظهرت أمي بشكل غير متوقع وباغتتنا بالجرم المشهود. وأمرت، دون شفقة، بجلدِ صبح عشر جلدات. أنزلوا ثيابها هناك في المكان نفسه، أمامي، ونفذوا العقوبة. رأيت في البداية كيف كانت ذقنها ترتجف وينقبضُ وجهها من الألم، وكيف ينكمش جسدها الكبير والعزيز. بعدها غامت عيناي وما عدت أرى شيئاً. ولكي أتجنب أن يلاحظوا ذلك وضعت يداً أمامهما. لكن يداً ما أنزلت يدي، رَفَعَتْ ذقني وأجبرتني على النظر، كانت أمي، التي ابتعدت بعد لحظة، وبشكل غير متوقع، تماماً كما جاءت.. بقيت الحلوى على الأرض بعضها داخل وبعضها خارج المنديل الذي أحضرتها فيه صبح.

انفجرت بالبكاء بين الفواقات بينما هي تواسيني مبتسمة حتى قبل أن تتغطى كلياً.

- لكنهم لم يميتوني، يا حياتي. لم يفصلوا بيننا، يا مليكي. هيَّا، ما عاد عندنا حلوى نأكلها سويةً... لا تبك. لا تبك، يا عيني. لم أتألم، ياصغيري لم أتألم إطلاقاً. لأنني وبينما كانوا يسعرونني ضرباً، كنت أفكر بأنهم يجلدون الجنائني بعكّازه الجاسئ دائماً. وما من سوط يفيد مع العكّاز.

بقيت حتى العاشرة من عمري لائذاً بتنورة صبح. لم أعرف قط أين كانت تعيش، رغم أنها حملتني خلسة يوماً أويومين إلى بيتها، كي ترضي فضولي. كانت تأتي كل صباح، تغذُّني وترتبني وتبقى تنتظرني حتى ساعة الغداء. وجاء صباح لم تأت فيه. وعند الظهيرة سألت الجنائني فائز أين يمكن أن أجدها. لم أشأ أن أقول لأحد إنها لم تأتِ، كي لا أسبب لها أي ضرر. ذهبت إلى نهاية السبيكة، حيث المطاحن، أعطيت علائمها. كانت معروفة جداً، ولم تكن مثلي، أنا الذي لم يكن أحد يعرف هويّتي هناك.

وصلت إلى بيتها، الذي تتقاسمه مع أناس كثيرين. كان باب غرفة نومها مفتوحاً. دخلت، ناديتها. بحثت عنها. كانت ممددة على كومة من القش ويدها اليمنى تحت خدها. صبح كانت تبتسم. بقع كبيرة من الدم كانت تصبغ الفراش بالأحمر. أحدٌ انتزع منها طوق تمائمها عنوة. لم أستطع إيقاظها. كانت قاسية وباردة. عندما وجدوني أخيراً كنت ما أزال أجلس إلى جانبها. وكان الليل قد خيّم.

فائز، الجنائني

المرة الأولى التي رأيته فيها، كنت أعبر الحدائق مع ابراهيم، الطبيب اليهودي. كنت صغيراً جداً وكنا ذاهبين من الغرف الرئيسية إلى غرف النساء. لابد أن واحدة منهن كانت مريضة، بمرض من تلك الأمراض الخيالية التي يصبن بها عادة، أوربما لشجّة ما تسببت بها العراكات التي تقوم بينهن مرة أومرتين في الأسبوع، وتَسَبَّبَتْ بإسالة دماءٍ وبإغماءات الغيظ.

كان الطب وما يزال يلجأ عادة إلى النباتات. كثيرون هم الأطباء الذين يبدؤون حياتهم بالتعامل مع الأعشاب - ولم يكن ذلك حال ابراهيم، الذي درس في القرويين في فاس - كان ابراهيم مؤدباً وجليلاً دائماً، لا يزدري أية حالة، ويشعر عندما يكلم طفلاً بالرضى الكبير من انسجامه مع نفسه. كان يحكي لي أن طبيباً قديماً، ربما السكوري، كان يطبق حرشف الحمار على الأورام، مع الثقة بأنه يمتصّها، وأنه من المناسب العودة - أمام تعقيد تركيب الأدوية الحالية - إلى التركيب البسيط، مثل لحم الأفعى التي تشكل جوهر الترياق العظيم، والدواء الحقيقي الشافي من كل السموم، حسب أحد أطباء مالقة الذي لا أتذكر اسمه الآن، والذي حاز على مكانة كبيرة في بلاط يوسف الأول.

- لا يهمك الآن هذا، ياعزيزي أبا عبد الله، لكن إذا ما استمرت الأمور على هذا الشكل في هذا البلاط فإننا سنحتاج إلى ترياق ضد الكثير من السموم.

لم أعرف إلى ما كان يشير، خفت أن أسأله، لأنه كان يصبُّ في شلاّلٍ من المعلومات لا أفهمها ولا تعنيني. بعدها توضح تماماً ما كان يريد أن يقوله لي ابراهيم الطبيب في ذلك المساء الشفاف والدافئ من نهاية آذار. أعرف أنه حدث ذلك لأن فائز، عندما توقّف الطبيب أمامه كي يبحث في

أمر الأعشاب والعلاجات، أشار إلى ظهور الربيع الحليم، الذي يُشْكَرُ كثيراً لأنه ينهي الصقيع الليلي في غرناطة.

سأله فائز من أكون.

ـ هل هو ابنك؟ إنه يشبهك كثيراً.

ضحك الطبيب وأجابه بأنني ابن السلطان. فصحح الجنائني دون أن يتوقّف:

ـ كان عليّ أن أتصوّر ذلك، لأنه يشبهه كثيراً، حفظه الله وعظّمه كما يستحق، ثم ناولني زهرة.

لاأتذكر نوعها، لكنني أتذكر تماماً رائحتها. كانت، إذا لم أكن مخطئاً اليوم، رائحة خفيفة وقويّة في آن واحد، كما لوأنها لم تتأخر لحظة في تجميع حضورها الكامل، الذي يغدوبعدها حاداً ونافذاً. كانت شبيهة برائحة الياسمين وعطر الليل أوسنبل الطيب، لكنها لا يمكن أن تكون أيّاً منها، لأنني مقتنع بأنني تعرفت إلى فائز في نهاية آذار أوبداية نيسان. منذ ذلك الحين صار، كلما رآني ـ وصار يراني في كلّ مرة أكثر، لأنني كنت أتقصّدُ لقاءه ـ يقدم لي أقرب زهرة إليه. وكنت أعود إلى القصر منتفجاً قليلاً ومضحكاً قليلاً، والزهرة في يدي أوخلف أذني كما كان يفعل الفتية الكبار.

أحاول أن أعرف ما الذي فتنني في فائز منذ اللحظة الأولى فلا أدركه. فقد كان في هيئته مثيراً للاشمئزاز بتقريباً، في عينه العوراء وعكّاز عرجه. كان يرتدي خرقاً بالية هي كل ملابسه وقدماه الحافيتان في مداس يحميهما قليلًا من الرطوبة، وخرقة مربوطة حول رأسه. لاأقول إنه كان قذراً، إذ ما كان ليُسمح له بذلك، لكنه أيضاً لم يكن الأكثر نظافة بين الخدم. وشيئاً فشيئاً عرفت لماذا كان يملك امتياز العمل بحرية أكبر من حريتهم. فقد خدم مع جدي، وعندما خلعه والدي عن عرشه دخل في الحال في خدمة السلطان الجديد، ثم انضم، بعد أن أصبح كسيحاً خلال إحدى الغزوات الأخيرة التي قام بها الملك انريكه الرابع انطلاقاً من أستيجة في الغوطة، إلى لائحة خدم القصر. ربما أحدث تعبير «خدم القصر» انطباعاً خاطئاً. لم يكن هناك لباس مُوَحّدٌ ولا غنى ولا مطرزات، على الأقل في غالبية البيوت. كان هناك فيضٌ من كسيحي ومعوقي الحرب، الذين تقتصر طريقة حياتهم الوحيدة على القيام بأحد الأعمال الألف التي كانت الحمراء تتطلّبها لتكون ما كانته: مدينة حقيقية. وعمل الجنائني كان من أهمها.

ـ أنا لم أعرف قط ـ كان فائز يقول لي عندما عقدنا صداقة بيننا ـ كلمة واحدة عن زراعة الجنائن. ليس لأنني كنت أحتقرها، لكنها لم تبدُ لي من عمل العسكر. عملي كان الحرب، والثغور. كنت بشاربّي الكبيرين (قد خفّفتهما الآن كي لا يفزع مني الناس هنا، لكن كان لي شاربان هما من الطول بحيث أنني حتى أنام جيداً كان عليّ أن أربطهما إلى قفاي) كنت بشاربّي الكبيرين أُخيف المسيحيين بمجرد مثولي أمامهم.

ـ وهل كنت تذهب إلى الحرب مع العكّاز؟ كيف كنت تمتطي الجواد؟

فائز، الذي من الواضح أنه لم ينتم إلى سلاح الفروسية، كان يزيح أي شك عندي بأنجح طريقة يمكن تصوّرها.

ـ سابقاً كان لي أرجل، يامليكي، أربع أوخمس أرجل. وكنت أخدم جدك، الذي كانت علاقته مع يوسف الخامس سيئة جداً (والعكس صحيح إذا سمحت لي أن أقول ذلك) في أوج شهر شباط من عام 1464 ، وبعد أن مات الملك السابق (أوبالأحرى ليس السابق تماماً، لأن الملكين تصادفا في الحكم بين الحين والآخر) أقول حين مات الملك يوسف، بقي جدك وحيداً، وذلك قبل أن يحل أبوك محله بقليل. فقد حل محله وهو حي، إذا سمحت لي بأن أقول لك ذلك، يا مليكي. لأن الملوك هنا راحوا وجاؤوا، بل لم يذهبوا ولم يأتوا، بعضهم بقي في تلك الهضبة ـ كان يشير إلى البيازينْ ـ وآخرون هنا. وقد فضّلت دائماً ملوك الحمراء هذه فهي أكثر رسوخاً، إذا سمحت لي قول ذلك: لا تَنْسَ هذا، يا مليكي، فلربما احتجت إليه ذات يوم، والنتيجة على المدى البعيد: هنا أفضل.

كان يشير ـ كما أعتقد ـ إلى بعض الحروب الأهلية السابقة ويتنبأ ـ كما أعتقد ـ بالتي جاءت فيما بعد. لكن أكثر ما كان يدهشني فيه هوأسلوبه الفخم والملتوي في حكاية القصص، حتى إنني، عندما كان ينتهي، لم أكن أعرف شيئاً عما كان يريد أن يحكيه لي، كنت أعرف بعض الحالات.

ـ ولماذا كانت لك كل تلك الأرجل؟

ـ في الحرب تكون كلها قليلة. بأرجلي وشاربيّ كنت سيد الحرب. إلى أن جاء انريكه الخامس وقتل حصاني، وسقط فوقي وقصم رجلي هذه. قصمها بطريقة لم يترك لي مجالاً غير قطعها. هكذا أعطوني بعض المنومات و... ثْرَكْ! قطعوها لي. لأنه لم يكن من اللائق أن يتركوا سيد الحرب ينزف وسط «الغوطة» .

ـ وماذا فعلوا لك بأرجلك المتبقية.

ـ رحت أفقدها واحدة بعد الأخرى، إلى أن قال لي أبوك عندما رآني برجل واحدة: «بما أن المنومات قد أنقذت حياتك، من الأفضل لك أن تعتني لي بالحديقة، التي هي أحب الأشيّاء إليّ بعد الحرب، تُسَلّي ابني الأكبر، الذي سأقدمه لك في الوقت المناسب» . الذي يحدث، إذا سمحت لي قول ذلك، هوأنني أشتاق كثيراً للحرب. أشتاق، وكما ترى، حتى إلى ذلك الملك الذي يقول أتباعه إن له وجه أسد، وليس له في الحقيقة غير وجه قرد كبير، مثل خطيئة غشيان المحارم.

ـ أي ملك؟

ـ ألا أقوله لك؟ أنريكه الخامس. طويل جداً، ضخم الإليتين وله وجه قرد. في المرة الثانية التي التقيت فيها به وجهاً لوجه، خاطبته بأنت، لأنه، إذا سمحت لي، كان قد أتعبني. دخل ست مرات في الغوطة في وقت قصير جداً، وكان سيستمر بذلك لولا أننا أوثقنا قدميه بشكل مناسب.

وبينما كان يحكي لي مآثره، كل يوم بطريقة مختلفة، كان يحفرُ، يُقَلِّمُ، يسقي، ينتزع أوراقاً أويقص الرياحيًن. لاشيء يستطيع أن يوقفه عندما تأتيه القريحة. كان أحياناً يبقى والمشذب أوالمعزقة في يده، أويسند ذقنه إلى المقبض، وتتألق ابتسامته، وهي واحدة من أنصع وألمع الابتسامات التي رأيتها في حياتي. لأنه يسمح ـ وهوالذي كان خارجه قبيحاً كلّه ـ عندما كانت تنتهي قشرة جسده وتنفتح دفّة شفتيه، برؤية جمال داخله وداخله يبدأ بأسنانه!... كان يرنم أحياناً:

محاسني محاسن القصوز
خارجها ملطخ مقشوز
داخلها فيه عجائب التبوز

كان يبتسم وينُّط ويمعن النظر فيمن يكون أمامه.

ـ وهل كان لك حصانك الخاص؟ ـ كنت أسأله.

ـ كيف تريد ألّا يكون عندي؟ وكنت صديقاً لوالدك، وجميع أصدقاء والدك كنا متخمين بالجياد الأصيلة الخالصة. كان عندي جواد صغير عريض الصدر، له ردف ليس للنساء مثله، ووجه متطاول وناعم وله عينا أميرة، ومنخران يليق بهما أن يُتَوَّجا بالمنثور. إذا تَمَلَّكَهُ الخَبَبُ استطاع أن يصعد بك إلى جبل البشرات بأقل مما يصدح شحرور. كيف تريد ألّا يكون عندي جياد؟ أم إنني لست صديقاً لوالدك؟

ـ لكن هل كانت العلاقة بين والدي وجدي جيدة؟

كنت قد سمعت تعليقات مفادها إن الطفل، مهما افترض أنه بسيط، تنحفر الأشياء في ذهنه. كانوا يتكلمون عن نكران الجميل والمشادات العائلية.

ـ انظر، يا مليكي. تلك كانت أشياؤهم. أنا كنت صديقاً لجدك وأفضل صديق لأبيك. فكيف لا يكون عندي جواد؟ أو ما الذي حدث لي إذاً؟ سقط عليّ جواد وكسر رجلي؟ إذا سمحت لي أن أقول ذلك، إن هذا ببساطة افتراض.

وقد وصلت، رغم صغر سني، إلى نتيجة هي إن ما يسميه هو افتراضات يسميه الآخرون وقائع، لكن طفلاً، مثله مثل فائز، لا يستطيع أن يميز متى ينتهي الافتراض ومتى يبدأ الواقع.

ـ كان المسيحيون يلقبون جدك *بالكرزة*، «سيريسا» ، وهي ثمرة حمراء، لذيذة الطعم، تنموعلى شجرة تصير في نهاية الربيع مثل معجزة من معجزات الله.

ـ *كرزة* «سيريسا» ؟ ولماذا *كرزة* «سيريسا» ؟

ـ لأنهم يقولون له سيدي سعد، لكن وبما أنهم لا يتقنون الكلام، انتهوا إلى أن صاروا ينادونه *كرزة* «سيريسا» تماماً كما يسمون والدك مولاي حسن. هكذا هم. لهم ألسنة قاسية جداً، لا تحسن اللفظ، مثل العقاعق... فما كان يريده جدُّك *كَرزة* قبل أن يتحالف والدك مع بني سراج ليخلعه عن عرشه، هو توقيع هدنة مع المسيحيين والإتجار معهم، لأن غرناطة قد أصبحت فقيرة. لكن لوالدك طريقة أخرى في التفكير. فهو يريد الحرب والانتصارات، وليس التجارة، ولا الهدنات ولا الجزيات.

ـ وأنت، ما الذي تريده؟

ـ أنا حسب الظرف. في عهد جدك كنت أفضل التجارة. والآن الحرب. لكن لم يعد باستطاعتي الذهاب إليها.

ـ وعينك، ما الذي جرى لعينك؟

كانت هناك سحابة كبيرة تغطي عينه بالبياض. وبعد مضي الزمن، عثرت في مختارات لابن الخطيب على بعض الأبيات لمالك بن المرهل:

وناظر مقلة فيها بياض يدافع حقّه أبداً بشكّ
رآه الصيرفي فقال هذا عيار من لجين في محكّ

شيء مماثل كان يحدث لفائز. فعندما كان يُلَمِّح أحد لعينه ينظر

بالأخرى إلى البعيد ويغير الحديث، أويسكت، أوفقط ببساطة يذهب. المسألة أنه لم يستطع أحد قط أن يجعله يبتدع خيالاً كالخيال الذي كان يبتدعه لشرح فقدانه لرجله. ولم يكن ليكلفه هذا إلا جهداً قليلاً. نبهتني صبح لذلك:

ـ لا تسأل فائزاً عن عينه، لأنه لن يجيبك. إنها زوجته الثانية، ضربته عليها بالمهراس عندما عاد ذات ليلة سكران. والضربة من الجدَّة بحيث أنه لن يجرؤ على ابتداع قصة أخرى.

لكن صبح نفسها كانت تضحك برغبة كبيرة إلى حد أنني استنتجت، أنا نفسي، أنها هي أيضاً ابتدعت القصة تواً.

ـ عندما ناولني ساقي الملك طعنة في هذه الساق (ساقي الملك انريكه، الذي يسمونه *العنين*، لسبب من الأسباب) عندما ناولني الطعنة... في الساق المبتورة، إذا سمحت لي أن أقول لك ذلك... عندما ناولني الطعنة بشكل مناسب، رأيت قدمي تطير لوحدها، بلا صاحب فقلت لها: «اذهبي، الله معك» ، لأننا حتى تلك اللحظة كنا على وفاق، وقد قادتني دائماً في الطريق القويم، حتى في تلك الليالي، التي لا تعرف فيها ما إذا كان الجدار يسندك أم أنك أنت من يسند الجدار، لأن كليكما قد شرب أكثر من اللازم أولأنكما في أفضل رفقة.

ـ لكن موضوع رجلك، يا فائز، هل سببته لك طعنة أم جواد؟

ـ إذا سمحت، يا مليكي، أن أقول لك، كان السبب لحسن الحظ طعنة وجواداً. ـ وضَّح بنبرة عتاب ـ . عندما يدافع المرء عن الدين القويم في حرب مقدسة، عليه أن يكون مستعداً لأن يفقد رجلين وثلاثاً بل وحتى أربعاً لأي سبب كان وفي أي فرصة.

تأكدت عندما رأيت ذات صباح السلطان يقترب، أنه لم يكن صديقاً له، ولا حتى معروفاً منه. اختبأت أنا خلف شجرة سروضخمة، رغم أنني لم أكن متأكداً من أن والدي سيتعرف عليَّ. بقي فائز بلا حراك، وكأنه مذعور، ونظر إلى الأرض وحنى خصره عند مرور السلطان، الذي نظر إليه دون إكتراث كمن ينظر إلى كومة روث جاهزة لتسميد حوض.

ـ أرأيت ـ قال لي فائز ما إن اختفى الموكب ـ لقد قال لي بعينيه إنه لم ينس مآثري وكيف هي ساقي. أجبت أنا إنها أفضل بكثير ولا تزعجني إلا عندما يتبدل الطقس، رغم أن القدم التي فقدتها تؤلمني أحياناً، الشيء الذي لا يتعدى كونه إحدى غرائب الطبيعة. وأجابني والدك إنه سيرسلني في العام القادم إلى الحامة، لأن مياه حمَّاماتها مفيدة جداً لوعكات

الأرجل المقطوعة هذه.

كنت، أنا الذي عندي صورة مجيدة عن جدي، أصر بمثابرة بليدة ومزعجة أن أسأله:

ـ قل لي من تفضل، جدي أم أبي؟

ـ اسمعني، يا مليكي، النبي، أدخله الله جنّته محاطاً بكل أسرته المباركة، سمح (عندما يَصِلُ الظرف، وهويصل بأسرع مما يظن الإنسان وبتكرار أكبر) بالتقية، أي بالنكران، لا أدري ما إذا كنت تسمح لي بأن أقول ذلك، يا مليكي، نكران أكثر قناعاتك رسوخاً. النكران الخالص والبسيط، تماماً كما تسمعها. لأن الجمعة والمعتقدات وجدت لصالح الإنسان، ولم يوجد الإنسان لصالح المعتقدات والجمعة. إن أعلى مكارم الأخلاق، ولحسن الحظ أنك لا بد تعرف ذلك، أعلى مكارم الأخلاق هي الأخلاق التي تكون لخير حاملها.

إذا كان عليك أن تخون كي تحصل على ما تنشد، فماذا نستطيع أن نفعل؟ ليس من الممكن دائماً التقدم في خط مستقيم. نحن الذين نجاهد نعرف ذلك جيداً: المهم هوالنصر. إذا كان من الضروري الكذب على العدو، فلنكذب عليه، لنخدعه إذا كان لا بدَّ من خداعه. فلكي ينقذ المرء حياته في بلاد النصارى يستطيع أن يطلب التعميد ويرتد. كذباً بالطبع: إذ من يريد أن يَتَحَوَّلَ إلى مثل هذا الدنس؟ المسألة هي أن الحياة فوق كل اعتبار. كي تكون محتشماً عليك أن تكون مزيفاً وأن تناصر التزييف في القرآن، دون أن تخرج عليه، إطلاقاً. المداراة، يا مليكي، الترنيم، النظر إلى جهة أخرى، إلى هذه الوريقات الخضراء تماماً، ألا تراها؟ التي تملكها جميع النباتات تقريباً تحت الكبيرة منها... بالحقيقة، الحقيقة، لا يمكن، إذا سمحت لي أن أقول لك، الوصول إلى مكان. لا أدري ما إذا وضحت. تلك هي المسألة: دائماً فَضَّلْتُ جدَّك ووالدك، لكن الذي أفضله على الجميع، هوأنت يا مليكي.

وبما أنه لم يكن يحدثني عن النباتات، إلا عندما كان يحضر الطبيب ابراهيم، فإنني أتذكر جيداً أنَّه حدثني مرَّة عنها وشرح لي تقويم الجنائنيين، وهوتقويم النصارى الشمسي. (لأن التقويم القمري ـ كان يقول لي ـ لا يفيد إلا للأسفار والقوافل والحروب، والجنائنيون لا يستطيعون السفر أبداً، كما لا يستطيع الغُزْج أن يذهبوا إلى الحرب).

ـ في كانون الثاني يُجْمَع محصول قصب السكر. في شباط يُطَعَّمُ

التفاح والأجاص. في آذار يُزْرَعُ القصبُ والقطنُ أيضاً وتخرج ديدان القز من بيوضها السوداء الصغيرة. وفي نيسان تظهرُ الورودُ والبنفسجُ وكأنها مجنونة، ويُزْرَعُ النخيلُ، والحنَّاءُ، والجَبَسُ، وهي الفرصة التي ينتظرها الأندلسي كي يسقي المطرُ قَمْحَهُ وشَعيرَهُ. وفي أيار يكتسي الزيتون بالزهر، يسقط الخوخ، والمشمش والتفاح المبكرُ والخيارُ في أيدينا. وهي لحظة يُجْمَعُ فيها الفول والأفيون ويُحْصَدُ القَمْحُ والشعيرُ ويمنحُنا فيها النحلُ عسله الرائع لكل شيء (وقانا الله سوء موسم الخلية) وفراخ الطواويس تأتي إلى العالم صائية. وفي حزيران وتموز تحدث أشياء هي من الكثرة بحيث أنني لن أستطيع أن أعددها لك حتى ولولم أسكت في حياتي. الأشياء التي علينا أن نقوم بها هي من الكثرة بحيث أننا نغتمّ وعليهم أن يحملونا إلى الماريستان، الحصاد ودرس الحبوب قيلولة، لا أقول لك أكثر. في آب يَنْضج العنب والبطيخ، تُقطف الحناء من أجل أن تُحَنّي إنْ أردت شعرك وباطن قدميك، والجوزُ لكي تأكله مع العسل في الحلوى اللذيذة التي عندنا الآن، وثمار البلوط التي تسقط برمية واحدة من قلنسوتها. لكن بالمقابل تجب زراعة اللفت والفول والهليوم إلى أن يجيء دورها من جديد. أيلول هوشهر قطافات العنب السعيدة جداً والمليئة بالغناء والرمان والسفرجل، الزيتون يسمّن حبوبه، والريحان ينفجر بالإزهار بقوة لا عهد له بها. في تشرين الأول تتفتح الورود الأكثر بياضاً، وتحضّر، كي يلعق المرء أصابعه، حلويات التفاح والسفرجل. في تشرين الثاني يقطف الزعفران، وتنزع بِرِقَّةٍ زهيراته البنفسجية. في كانون الأول تعود الأمطار التي تغذّي الأرض وتنزع عنا العطش ويزورنا النرجس وتتجمع المياه في الجباب ويزرع في البساتين، لفائدة الجميع، القرعُ والثوم والأفيون، الذي أدين له بحياتي وبهذه الساق الخشبية، التي ستُطلقُ أزهارها في اليوم الذي لا نتوقّعه مثل عصيّ أقدس الأنبياء.

مرّ زمن طويل كنت أرى فيه فائزاً كل يوم تقريباً. بعد شهر من آخر لقاء به سألت عنه. قال لي جنائني شغل مكانه:

ـ أرسله والدك إلى حمّامات الحامة، لربما يخف ألم رجله.

سبّحت ـ أنا الذي فوجئت، وإن لم يكن كثيراً ـ بأسماء الله وفائز في قلبي. أعتقد أنني ومنذ ذلك الوقت لم أتوقف عن فعل ذلك.

عمي يوسف

كان كبير أخوة أبي.. كبيراً في كل المعاني، لأنني لم أره قط كاملاً. كان طويلاً ومستديراً، ينادونه استخفافاً، *البدين*: يقولون إن ذلك من أجل تمييزه عن يوسفات آخرين في العائلة. لكن السبب الحقيقي كان واضحاً للعيان. كان في حالة اتكاء دائمة، حتى حين ينام، إذ لو اضطجع تماماً لما استطاع أن يتنفّس ولما استطاع أيضاً أن يقوم بعدها. كانت المعركة مع أمراضه ومع جسمه الضخم من الشدة بحيث أنه لم يخطر له ولا لأحد أنه يمكن أن يكون وريث جدي. قضى طفولته وشبابه مع أخوته وأبيه في بلاط خوان الثاني، ملك قشتالة، وكنّ يعلّقن في الحريم أنه تحوّل إلى المسيحية. أنا لا أعتقد أنه تحول إلى شيء: كان يكفيه أن يتحرّك قليلاً وهو يأكل كما كان يأكل طوال النهار وطوال الليل تقريباً، حسب ما كانوا يحكون. كان يعيش وحده كي يستطيع أن يستمر في الحياة، ووصل إلى غرناطة متزوجاً من جليقية، اسمها مينيا، التي رغم أنها تحولّت إلى الإسلام يقال إنها كانت تمارس ديانتها سراً. الصحيح هو إنه لم يكن في العائلة من يهتم بهما، باستثناء الأطباء، أطبائهما. كانا يسكنان في أحد الأبراج، التي تحيط بالطريق نحو جنة العريف، في البرج الثاني منها.

كنت أتردد عليهما، لأن البدين كان يسليني بحكاياته التي يحكيها عن حياته التي لا أدري ما إذا كانت نهمة مثله، في الوقت الذي لم يكن قد صار بديناً جداً.

- كذّابون - كانت مينيا توضّح - عرفته وهو في السابعة عشرة من عمره وكان هكذا.

كانا يتبادلان النظرات بتواطؤ ويبتسمان بحنان إلى حد أنني كنت أحسدهما حسداً عميقاً.

لم يكن عندهما أولاد ويعبداننا أنا وأخي يوسف كما لو أننا كذلك. كانا يهديانا كل أنواع اللعب وفي الإرساليات التي كانا يتلقيانها من بلاد النصارى هناك دائماً شيء لنا. في أعياد السنة الجديدة، وإفطار رمضان والربيع كانا يفاجئاننا بالحيوانات الفخارية أو الفضية. أتذكر الزرافات، التي وصل عددها عندي إلى أربعين، بحنان خاص لأنها حيوانات لم أرها قط، بل وكنت أشك بوجودها في أي بلد على وجه الأرض. ربما كان

أكثر ما أشتاق إليه آنذاك هو أن أتعثرّ في غابات جنة العريف بزرافة أكثر مما بأسد أوبفيل.

بينما كان العم يوسف وردياً وأشقر كانت مينيا عكس ما هو مُتوقَّع، سمراء، صغيرة وسوداء، وحَيَويَّةَ العينين. كان العم يوسف عبارة عن كرة كبيرة وكرات أخرى أصغر حولها: رأس وذراعان وساقان ويدان وقدمان. لم يكن يسكن في البرج بقدر ما كان يسكن في كرسيّ هائل مثقّب موضوع في مكانٍ عالٍ جداً كي يستطيع الخدم الذين يعتنون بنظافته أن يقوموا بمهمتهم. سبعة أوثمانية منهم كانوا ينزلونه مرّة في الأسبوع، يغسلونه، يبدلون له ملابسه، وخلال ذلك يليّفون ويعطرون الكرسي، ويسندونه كي يمشي أربع خطوات ممدودات. لكن هذا كان طقساً حميمياً جداً، لم أره قط. كنّا نخاف أنا وأخي أن يتدحرج، إذا وقع من مقعده الذي وضع فيه، فيصل عبر منحدر الغابة إلى النهر، فلا تستطيع المياه أن تحركه هناك ولا بأية طريقة، فتنبت النباتات والأشجار في كرشه إلى أن يشكل هضبة جديدة بين الحمراء، والبيازين.

كان عندي قط أعتني به، ليس كثيراً، اسمه، *لونا* (قمر). وقد جاء اسمه من أن عمي يوسف كان يحكي لنا حكايات كثيرة بطلها السيد ألباروده لونا، وزير ومحسوب الملك *خوان*. كان قصدي أن أسميه *خوان*، لكن السيدة مينيا نبهتني إلى أن ذلك سيكون قلة احترام، وأن عظمة أي شعب تبرز في الاحترام الذي يكنه لأعدائه، وأنه إذا ما صغّرناهم وسخرنا منهم، سنكون نحن، على المدى الطويل من سينتهي نهاية وخيمة. وإذا بدا ذلك قليلاً، فالذي حدث أن القطّ كان قطة، الأمر الذي يجعل تسميتها بـ *خوان* أو *ألبارو* منافياً للمنطق. أهداني الزوجان لهذه القطة الصغيرة، التي كانت شقراء مثل عمّي يوسف، جُلْجلاً ذهبياً، سارعت فأضاعته، رغم الشك بأن أحداً من الخدم ربما أخذه، لأن من الجنون أن يوضع جلجل من ذهب لقط. ومع ذلك فقد استمر الزوجان يهديانني جلجلاً وراء جلجل، واستمرت *لونا* تضيعها واحداً بعد الآخر إلى أن ضاعت هي نفسها، فانتهت معها مرتبات سارق الجلاجل.

كانا زوجين ثابتي الجنان، وأعتقد أن ذلك يعود لوضعه الجسدي (بل ووضعها، فهي أيضاً كانت بدينة، لكنها بالمقارنة مع زوجها تبدو هيكلاً عظمياً.) في كل مرّة كنا نمثل فيها في البرج كانا يستقبلاننا بحرارة اليوم الأول نفسها، وكنا نضيع في عناقاتهما الهائلة وقبلهما. ثم نجلس لننظر إلى العم يوسف وهو يأكل، الأمر الذي كان يرضينا ويسرّنا

كثيراً. وحوله كان يوجد عدد لا يحصى من الصينيات المليئة بأنواع من الأطعمة: المالحة والحلوة، والحامضة بل والحامزة.

- نهاية الكائن البشري سيئة: فهوغير قادر على تمييز أكثر من هذه المذاقات الأربعة. كم من الأفضل له لويُخَصِّصُ نفسه للتركيز على تعلم تركيبها بتنوع وفطنة أكثر بدل أن يخصص نفسه للحرب والحماقات الأخرى.

بالطبع كان حازماً في موضوع الطعام، من كل النواحي وليس من ناحية الكمية فقط، لكنه لم يكن في النهاية يرفض أي صحن مهما ساء تتبيله، لأنه كان أسير اللذة إلى ما لا يمكن تصوّره. لم يكن عند الطبيب ابراهيم من سلاح في مواجهته. كان قد شخص له أمراضاً كثيرة: بَدْءاً من الاستسقاء وحتى الخلل الوظيفي لغدة كان يقول إنها موجودة في رقبته رغم أننا، أنا وأخي يوسف كنا نشك بإمكانية ذلك، لأنه لم يكن للعم يوسف رقبة. كان ابراهيم، المختص بالعناية به، يعظه دون توقف وهوغير قادر على فعلِ أيٍّ شيء أفضل من أجل العاصي.

- المعدة بيت كل داء والشفاء يجب أن يبدأ بالرأس. حتى الوباء الأسود، سوط البشرية الأكثر قسوة يحارب بالحمية، فكيف ببدانة بسيطة كالتي تعاني منها وأنت مسؤول عنها.

وعندما كان عمي يوسف يسمعه يسمي لا نهائيته بدانة بسيطة كان ينفجر بقهقهات تخنقه وتزحمه وتجعله على وشك أن يحطم العرش الذي يعيش فيه.

- ما لم تتوقف عن تناول الأسماك المملحة والحلويات، وما لم تخفض حصتك من الخبز (وهذا مصنوع من الطحين غير المنخول، المعجون بالخل والمبلل بالماء، ومقادير معقولة من الملح والخميرة). فإنني لن أستطيع أن أبدأ معالجتي لك.

كان مجرد تصّور العم يوسف لنفسه يأكل القذارات التي ينصحه بها الطبيب أويمتنع عن تناول الملذات التي اعتاد على تناولها، يخنقه من الضحك.

- لوكان ما بك هو داء النقرس، لاستعملنا، في حال موافقتك، لزقات أبصال اللحلاح على الدهون مباشرة أوبواسطة معجون اللحلاح الجاف والمطحون. لكنك ترفض كل شيء... تنازل، على الأقل، وكُلِ اللحمَ

باعتدال، ويفضل أن يكون لحم طيور داجنة، لا طيور صيد أبداً، ولا تشرب إلا ماء بارداً تماماً مع دفقة صغيرة من الخل لتنظيف مسالك الجسد. لكنك تستطيع أن تأكل تفاحاً مزّاً، ثوماً أخضر، سماقاً، عنباً حصرماً، عصير ليمون، خضراوات تليّن بطنك، أجاصاً ورماناً ناضجاً جداً، خوخاً، تيناً وبلحاً...

- لكنني آكل كل هذا. والبقول؟ - كان العم يوسف يسأل ساخراً، دون أية نية بإطاعة الطبيب.

- الجزر، العدس، والكوسى - كان الطبيب يجيب بجدية ووهمِ من يعتقد أنه سيُصغي إليه ذات يوم.

للحفاظ على القلب، التَّعِب، كما كان حاله، من كثرة ما يضخ دماً لهذه البشرية الهائلة، كانوا يزودونه دون انقطاع بالمقويات ونقيع ومغلي الأعشاب والعنبية، وعصير نباتات فوّاحة تخفف مرارة الأدوية المستخرجة من نباتات فواحة أخرى. بمعنى إنه بين ما كان يأكله وما يتناوله كيلا يقتله ما يأكله لم يكن العم يوسف يملك لحظة فراغ واحدة. كم كان يسلينا، أنا وأخي أن نحضر نقل الصحون، التي يقربها أو يسحبها فيض من الخدم قرب الكرسي الكبير.

كان الحب الذي خصني به العم يوسف كبيراً، حتى قبل أن أولد، إلى حد أن رغبته بالاحتفال بختاني، تمثلت في رغبته بحضوره.

- سيزداد الطفل جمالاً بهذا التطهير - قال بمزاج رائق - تماماً كما يزداد نور الشمعة حين تقرّط فتيلتها.

وحسب ما كانت تحكي لي صبح، فإن أحداً لن يستطيع أن ينسى الفوضى التي دبّت في المراسم عندما ظهرت السيدة مينيا، المغطاة بالجواهر والجاسئة، متقدمة نوعاً من النعش، المؤلف من حمالة مليئة بالوسائد، ويبحر فوقه جرم العم يوسف. كان يحرّك بشكل خفيف أفلاك يديه ليحيّي الحشد، الذي لم يره قط قبل تلك اللحظة. ونظراً لعادتنا في بناء الأبواب بعرض ليس كبيراً في البيوت، وحمايتها بمرفق، فقد كان ضرورياً لكي يعبر موكب السيدة مينيا والعم يوسف مدخل البرج، هدمُ جدار كامل والإطاحة بالقوس الرئيسي الذي سيمخر فيه القادم الجليل في نعوش ليست أقل جلالة.

- في قشتالة - قال لي ولأخي في أحد المساءات بين لقمة وأخرى -

سيسمونكما موريتوس.

- لا تدوّخ الطفلين بهذه الحماقات - حَذَّرته السيدة مينيا.

- لكن هذا صحيح: إنهما موريتوس، وأنت أيضاً مورا، حتى لا تتفاخري بما ليس عندك.

- دعك من توزيع التصنيفات، ياخوسيه - هكذا نادته في هذه المناسبة - . لا تزرع الشقاق في عائلتك نفسها - مدّت يدها وداعبت بأمومة غَبْغَبَهُ - كُلْ واسكت يا صغيري.

- ولماذا يسموننا موريتوس في قشتالة، ياعم يوسف؟ - سألت عندما راح الحديث يبحر باتجاهات أخرى.

- لأنكما كذلك. أنا موراثو[1] وأنتما موريتوس. ولكي لا يَبْقى الأطفال هناك كذلك، فأنهم يسكبون على رؤوسهم ماء وينطقون ببعض الكلمات السحرية.

- ويصبحون شقراً؟

- لا، فقط يتبللون.

- وما هي الكلمات؟

- أنا أعمدك، يقولون، باسم الآب والابن والروح القدس.

- لأن عندهم آلهة ونحن واحد - وضح أخي الذي كان تلميذاً مفضلاً عند الفقهاء - .

- دعوكم من هذا الاستهتار - ألحت مينيا - لا أحبّ، يا خوسيه، أن تُحَدِّثَ الصغيرين بمسائل لاهوتية. فكل واحد يحقق خلاصه أو يُدان حسب دينه وحسب سلوكه.

- هذه فعلاً مسألة لاهوتية - علّق العم وهويضحك وفمه ملآن -.

- لا تضحك وأنت تأكل، يا يوسف: شيء بشع. طبعاً لوعملت بهذه القاعدة الأولية، لما ضحكت أبداً.

وضحك الإثنان. لكن فضولي كان قد وخزني.

- لكن لماذا موريتوس؟ نحن أندلسيون، أليس كذلك؟ نحن مثلهم، لكننا مولودون في الجنوب. إذا كانت لا تعجبهم أرضنا، فلماذا ينزلون

(1) تعني مسلماً ضخماً، بينما موريتوس تعني مسلمين صغيرين.

لينتزعوها منا. أو برغبة انتزاعها منا، فهم لن يحققوا هذا أبداً. أليس صحيحاً، ياسيدة مينيا، أنت التي ولدت هناك؟

ـ نأمل ذلك. فالأمور جيدة كما هي، أجابت، بينما كانت تناول زوجها منديلاً ينظف به خيطاً من الدهن راح ينزلق على لحيته.

ومع ذلك أزعجني الحديثُ ولقبُ «موريتوس» . حاولت أن أعرف أصل هذا اللقب. سألت جميع من سمحوا لي بأن أسألهم وأتعبتهم إلى حد أنهم صاروا لا يولونني أذناً صاغية أو لا يجيبونني. عرفت أننا نتبع ديانة مختلفة، أي إن إلهنا كان غير إلههم، وإن لإلههم ثلاث رؤوس، وإن سلالتنا كانت أيضاً مختلفة، لكنها أكثر كمالاً بكثير. ومع ذلك لم تبدُ لي الأمور سهلة، ويرجع هذا أوّلاً إلى الأقاويل التي مفادها إن عمي يوسف كان مسيحياً إلى حد ما، إن زوجته الوحيدة ـ إذ ليس لديه أية محظية ـ ، ناقصٌ إسلامها. ثانياً لأننا لم نكن ننتمي إلى سلالة واحدة، حتى ولوقيل عكس ذلك.

راحت تحقيقاتي وتأملاتي حول الموضوع تتراكم، من هنا إنني أجهل كم من الأمور حققتها آنذاك وكم منها تحققت فيما بعد. لا أقصد بيت بني نصر الملكي، الذي لا أحد يشك بنقائه، على الأقل في حضورنا، وإنما نسب الغرناطيين بعامة. فهاهم المتحدرون من البربر الأوائل، سواء من قبيلة صنهاجة كما من قبيلة زناتة (من هؤلاء جاءت ذرية الزيريين التي حكمت غرناطة عند سقوط الخلافة الأموية) وهنا أيضاً الذين جاؤوا كل من أبيه وأمه، لاجئين من الأراضي التي احتلها المسيحيون. وهنا العرب أيضاً، الأنقياء إلى هذا الحد أوذاك، والذين لايتجاوز عددهم الخمسين وينظرون إلى الآخرين باستعلاء. والأفارقة الذين احتُضنوا إما لأنهم جاؤوا هرباً من خلفاء مراكش وتونس وتلمسان أو لأنهم جاؤوا ليساعدونا في الجهاد. والمتدينون الصوفيون الذين جاؤوا من الهند، وكثير من الزنوج السودانيين، الذين كانوا يعيشون مجتمعين في صوامع، رغم أنهم لا يتزاوجون دائماً فيما بينهم، والمدجنون، الذين وبعد أن قرروا البقاء في المدن المحتلة، غيَّروا رأيهم وجاؤوا مع أولادهم ـ لا أعتقد أنهم أنقياء إلى حد كبير ـ إلى العاصمة أوإلى المملكة، كي لا يشعروا بالتمييز إلى الحد الذي كانوا يشعرون به في بلاد النصرانية. ثم هناك أهل الذمة، أي النصارى واليهود. بعض النصارى الأسبان الرومانيين أوالأسبان القوطيين (أيضاً ليسوا أنقياء

تماماً) تحوّلوا عن دينهم - المولدون - مثل حرس السلاطين، مثلاً، وآخرون لم يتحوّلوا - المستعربون - ولهم طقوسهم وكنائسهم، بل ويقرعون أجراس كنائسهم لمدة نصف ساعة في خميس يسمونه المقدس، والمسيحيون الذين يأتون ويذهبون متاجرين، من جنوى أوالبندقية أوالذين نفوا أنفسهم إلى غرناطة غير راضين عن ملوكهم أنفسهم، وإلى جانب الجميع كان اليهود المنعزلون قدر استطاعتهم، ومع ذلك يمارسون مهنهم ويختلطون بالآخرين أحياناً.

علموني في طفولتي أن المسيحيين كي يتميّزوا كانوا يضعون زناراً خاصاً، واليهود الذكور قطعة قماش صفراء على أكتافهم، والنساء جلجلاً معلقاً إلى أعناقهن أوهيماناتهن. لكنني ورغم إمعاني النظر لم أر أحداً يحمل هذه العلائم: الشيء الذي أوصلني إلى نتيجتين: إن كثيراً من القوانين لا يطبق - بل إنها لم توضع حتى تطبق - ، وإن موضوع الموريتو كان من اللاواقعية والسطحية مثله مثل هذه القوانين نفسها. لأن الجميع في غرناطة، ومنذ تأسيسها، اندمجوا وتزاوجوا وأنجبوا أولاداً لا يستطيعون أن يعرفوا بالتأكيد ما إذا كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً، إلا إذا انحصر الحديث بالدين فقط وليس بالعرق بل وحتى في هذه الحال: أين هم القرشيون الأنقياء، الفهريون الأنقياء، أو الأمويون أو القيسيون أو الخزرج أو الأنصار، أو اليمنيون أو الخزيميون والغسانيون؟. ليسوا موجودين. جميعهم أولاد أو أحفاد مرتدين، لأمٌ أو جدٍ نصرانيين، أو أنهم هم أنفسهم صاروا نصرانيين. مَنْ سلالته خالصة هنا؟ ولا حتى أفضل الخيول. من المئتين والخمسين ألف مواطن لا يصل إلى عشرة مواطنين من يحافظون على دم واحد. جميعنا هنا أندلسيون وهذا يكفي. غبية المراهنة على كبرياء الارستقراطية وشجرة الأنساب. لذلك انتقدنا ابن خلدون «إنهم يتصورون أنه بالنسب وبمنصب في الدولة يمكن فتح مملكة والسيطرة على الناس» (ربما يحتاج الأمر إلى أكثر من ذلك بكثير. فما بالك أن يَسْمَحَ البشرُ بأن يُقَادوا وتحتلَّ ممالكهم.)

أما بالنسبة لنا نحن بني نصر، فإنني أخاف أننا بدأنا نبالغ منذ مؤسس السلالة. فالشر هوفي تأسيس السلالة، هذا يعني أنه كان لها بداية وأنه تم تصوّر كل ما تقدمها. إذ ألم تكن بُطَيْنة أم محمد الخامس الكبير، ومريم الشحيحة أم اسماعيل الثاني، وبحر أم يوسف الأول، وعلوة أم محمد الرابع، وشمس الدولة أم نصر أبي الجيوش، جاريات نصرانيات؟ وكانوا هم - جميعاً متفهمين ومنفتحين - من يستحق فعلاً اسم أندلسيين.

[ثم قرأت، فيما بعد وبهدوء أكبر، عند ابن رشد: «إن مناخ وطبيعة الأندلس يشبهان مثيلهما في اليونان أكثر من مثيلهما في بابل، ويجعلان الناس فيها هادئين وأذكياء. كما يلاحظ من لون بشراتهم ونوعية شعرهم. فجلد الأندلسيين ليس أسمر مثل جلد العرب وشعرهم ليس جعداً مثل الأفارقة ولا سابلاً مثل أهل الشمال، بل هوحريري ومتموج» وكذلك قرأت عند ابن خلدون: إن امتزاج العناصر المتباينة أعطى نوعاً وعرقاً أندلسيين يختلفان عما في المغرب بحيوية الروح الفريدة وقابلية ظاهرة للتعلم ورشاقة في الأطراف لطيفة. مع أنه يعزو ذلك إلى الغذاء، المرتكز كثيراً على الحبوب والزيت، لأنه كان من أنصار الدعوة إلى المجد البدوي وندرته كأصل للعظة. وقد رسم ابن بلدنا ابن الخطيب عن قرب أكبر صورة تنطبق على مجموع الأندلسيين: قامتنا متوسطة وبشرتنا تكاد تكون ذهبية، وشعرنا داكن ناعم، وملامحنا عادية ورقيقة...

لا أدري بماذا سيعترض النصارى والعرب واليهود على هذا، فنحن الأندلسيين مختلفون عنهم جميعاً. وعلى أية حال فإنَّ الخليفة علي، صهر النبي قال: «لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم».]

إن البشرية جمعاء ولأنها بشرية، تملك من الأشياء المشتركة ما يجعل الفروقات بينها تبدولي ضئيلة. أليست الفروقات بين النمر والوشق أكبر مما هي بين والدي ومولى الزنجي مهما اختلفت قامتاهما وديناهما ولوناهما وثروتاهما؟ والفروقات بين عمي يوسف والجنائني فائز كنت أراها في أسلوبيهما في الحياة أكثر مما هي بين إمام مسجد الحمراء ورجل كان يصعد عادة أنتيقيرة وأبلغوني أنه الكاهن المسيحي. وقد بلغ تأثير ذلك الموضوع فيّ آنذاك حدَّ أنني أردت أن أجرب آثار الطقوس التي وصفها لي العم يوسف فذهبت ذات مساء بحثاً عن أحد الخصيان الذين كنت أعرفهم، وسأكتب عنه فيما بعد ورجوته أن يعمدني. لم يكن يعرف كيف، لكنني قلت له ما كنت سمعته. قدته إلى نبع قرب برج محمد مؤسس السلالة (وهوبرج كنت أذهب إليه كثيراً، تشدني إلى ذلك رسوم كانت موجودة فيه) وتوسلت إليه ـ وكان ينظر إلى هذا الجانب وذاك، ليقاوم نزوتي ـ أن يأخذ ماء بيديه ويسكبه على رأسي، مكرراً ما كنت ألقنه. أتذكر أنني كنت أخترقه بعيني وأرى خلفه جنة العريف وإلى الأعلى منها قصر المزرعة والسماء داكنة جداً، لأنني كنت أرى الليل سريعاً جداً. «أعمدك باسم أبينا وابننا وأخينا القدس.» وعندما انتهى من شعائره هُرِعتُ لأنظر إلى نفسي في بركة ماء كانت قريبة، لكنني لم أر شيئاً في

الماء الأسود. وذهبت سريعاً أبحث عن مرآة، وهناك رأيت وجهي، تماماً كما كنت أراه دائماً، رغم أن الشعر كان مبللاً: عينان خضراوان داكنتان وكبيرتان أكثر من الواجب بالنسبة لحجم الخدين، أنف قصير ومستقيم وشفتان ربما غليظتان بشكل مفرط. لم يحدث فيّ أي تغيير رغم الشعائر.

وذات يوم منعونا، بغتة، أنا وأخي من الاقتراب من البرج الذي كان يعيش فيه العم يوسف. اعتقدت أن السبب يعود لشيء يتعلق بالنصارى وبتعميدي، ندمت على الردة التي أبقيت عليها دائماً، حتى تلك الساعة سرية. لكن المنع لم يشملنا وحدنا بل شمل جميع سكان الحمراء وسبّبَ تغييراً في العادات. ذهب الطبيب ابراهيم ذات صباح باكر، ليرانا أنا وأخي. كان مشوشاً، أشعثَ الشعر، شاحباً من التعب. فحص عيوننا وأظافرنا بتأن، سأل المربين ما إذا كان بطننا بخير، ووصف لنا نقيعاً هو، حسب قوله، بين المسهل والقابض. عندئذ عرفنا أنهم أعلنوا عن وجود نوع من وباء الطاعون وأن العم يوسف أول ضحاياه.

قررت السيدة مينيا نقل جثمان زوجها إلى بلدها. وقد كلّف الزنجي مولى، وهوصديق لي كان ينشغل بكل شيء قليلاً، وذلك كي لا يعمل، كما أعتقد، أيَّ شيء بجد، كُلِّف بحرق كل أمتعة الميت، وتطهير البرج وإعداد عربة ثقيلة، تجرها خمسة بغال لنقل الجثمان المعطر. أردت أن أودعه وأروني إياه من الطابق العلوي من خلال مشرف من البلور الملون. كنت أنتظر أن أرى البدين ملطخاً بالأزرق والأخضر والبنفسجي. لم يحدث ذلك: رأيته من فراغ بلور مكسور ولم يكن، كما كان بديناً، بل على العكس، ناحلاً جداً وطويلاً مثل برج ساقط في كفن أبيض شذّب طيفه أكثر، وكانت دونيا مينيا بجانبه على ركبتيها تصلي، ممرّرة حبات سبحة هي - وليقولوا ما يقولون - مثل سبحتنا.

روى لي الزنجي أن السيدة مينيا طلبت أن تحمل معها شاهدة القبر الرخامية التي كان والدي قد أمر بصنعها له.

- بما أن وزن أخي قد هبط كثيراً - قال والدي - فلا ضير في أن تضاف إليه الشاهدة. ولتحملْ هذه الجليقية (فوالله لم يكن الجليقيون في الأندلس قط عبيداً حمالين) الاثنين. فلا الشاهدة ولا أخي سيفيداننا هنا بشيء. وكذلك السيدة مينيا. الأفضل أن يختفي الثلاثة. وكان ذلك.

الزنجي مولى

كان أفظع شخص رأيته في حياتي. حتى أكثر من فائز. كانوا ينادونه مولى سخرية، لأن مولى تعني سيداً. على كل حال لم يكن عبداً، وإنما شخص جاء به أحد أفراد أسرة بني سراج من قرية من جبال مالقة، حيث كان ينتمي إلى جماعة إسلامية متشددة. أوعلى الأقل هذا ما كان يُنَمُّ في الحمراء، حيث ينم الكل عن الكل. ونظراً لذكائه ولموهبته في رواية القصص ترقّى إلى ما هوعليه آنذاك من مكان عالٍ في خدمة والدي. ولقناعته ببشاعته لم يكن يستغرب الذعرَ الذي كان يسببه، لأول وهلة، لكل مَنْ يراه. كانت عيناه دائرتين وكثيرتي الحركة، مع عروق صغيرة حمراء جداً، الأمر الذي كان يتوجهما بالوحشية والضراوة، ويداه كبيرتين بإفراط، وكانت له حدبة تجعله يبدوكما لوأنه يمشي منحنياً لِيَلْتَقطَ شيئاً سقط منه. كان يمازح ويبتدع خيالاتٍ ويحكي حكاياتٍ ساخرةً، وهويومئ بذراعيه المفرطتين في الضخامة ويدور بعينيه بطريقة مرعبة، مثل المهرجين الذين يسلون الملوك المسيحيين في بلاطاتهم حسب ما سمعت.

كانت صبح تقول إن الغلمان الجميلين الذين يخدمون في احتفالات الحمراء كانوا يريدونه أن يبقى معهم دائماً، كي يبرز جمالهم. وجد شاعر سيء خصّه ببعض الأبيات الشعرية عندما كان يعمل ساقياً في ليلة من ليالي أيلول، ودَّع فيها والدي الحضور قبل أن ينسحب ليرتاح في سالوبرينا.

[اعتدنا أن نبتعد عن غرناطة في الخريف والشتاء، بعد الغارات الصيفية، لنجد لأنفسنا مناخاً ألطف على شاطئ البحر.]

تقول الأبيات:

يـاربَّ زنجـيٍّ خَلَـوْتُ بـهِ — الشمسُ عندَ دجاهُ مَمْقُوتَهْ
مُحْدَودَبٍ قد غابَ كاهِلُه — في منكبَيْه فلا ترى لِيتَه
قد حَكَّمَ التجعيد لمّتَه — فتراكمتْ فكأنّها تُوتَه
وإذا سعى بالكأسِ تحسبه — جُعَلاً يُدَحْرِجُ فصَّ ياقوتَهْ

شكر مولى الشاعر المدعو أصدق شكر؟ وكان ينشد أبياته لكل من عنده صبرعلى سماعها، بملاحة وحركات متبختر كبير إلى حد أن أحداً لم يكن قادراً على أن يفلت من القهقهة. مما كان يضع الهاجي في وضع أسوأ

من وضع المهجو.

أقمت علاقة معه بسبب صبح وفائز. فقد اتفق الاثنان على أنه كان من المستحيل العثور على حدبة أكبر من حدبة مولى في غرناطة. كلّفاني بمهمّة مشتركة كان عليّ أن آخذ طوق تمائم صبح وكيساً فيه بعض النقود وأمررهما بحدبة الزنجي دون أن يحس بذلك. كانت صبح مقتنعة بأن التمائم ستصير الأكثر فعالية ومقاومة في المدينة وفائز بأن النقود ستتضاعف في الحال في جيبه.

بقي الطوق والكيس يومين معي دون أن أجرؤ على تنفيذ الطلب. كنت أترصد مولى خفية ـ أو هذا ما اعتقدته ـ . أروح وأجيء خلفه. بالمناسبة كان يجول بسرعة كبيرة لا شك أنها لا تُمَكِّن أحداً من القيام بمثل تلك المهمة الثقيلة. كان موفداي يتململان لكنني لم أقرر اتخاذ الخطوة الفظيعة وأحكّ الأشياء، التي كنت أخفيها تحت عباءتي، بحدبته. كان تشرين الأول قد بدأ يترطب، والمساء قد هبط، والظلام يتسلّقُ منحدر السبيكة وتشتعل المشاعل. والمجامر أشعلت قبل أيام لأن البرد جاء مبكراً في ذلك العام، وصبح ألبستني برنساً صوفياً أخضر كي أستطيع أن أخفي، بمداراة أكبر، الطوق والكيس. كنت أقترب من قصر يوسف الثالث، المفضل عندي (وما يزال إذ يمكن أن أعيش فيه أفضل من أي قصر آخر لأنه أكثر حميمية واعتدالاً)، عندما رأيت مولى يتوقف في الشارع الملكي. كان يرافقني أحد المربِّين، الذي خدعتُهُ بقولي له إنَّ علي أَنْ أبلغ شخصاً أمراً ملحاً وإنّ عليه أن يتابع طريقه إلى برج العم يوسف، إلى حيث كنا متوجهين. وبجرية واحدة تجاوزت مولى واستندت إلى نجران الباب آملاً أن يلامسني بحدبته عند عبوره بي. لكن شيئاً مما هيّأته لم يحدث. إذ عاد وتوقّف عندما وصل إلى مستواي وتوجّه إليّ بابتسامة مرعبة.

ـ أنت ابن السلطان، أليس صحيحاً؟

أجبته بالإيجاب برأسي: فالكلمات لم تخرج من لهاتي.

ـ أنت الأبن البكر؟

وأكدت من جديد برأسي.

ـ وتحمل اسم عمك نفسه؟

ولم أجد بداً من أن أتمتم:

ـ اسم عمي يوسف. وأنا ذاهب إليه الآن.

ـ لا، لا، أقصد عمك الأصغر.

ـ إذن، بلى.

ـ ليتك تشبهه في كل شيء. فعمك قوي وكريم وشجاع.

ـ هذا ما يؤكده الجميع.

ـ قمت بحملة معه بالقرب من قمارش، رغم أنني لست من أنصار الحرب. تسرُّ النفس رؤيته يخبُّ منشورَ الرايات.

ثم ودون أن يتوقف عن الابتسام ودعّني. رأيت فرصتي تضيع. مددت يدي تحت البرنس، لكن دون داع هذه المرة، فمولى راح يبتعد. التفتَ فجأة:

ـ إذا كان ما تبغيه هو أن تلمس حدبتي بما تخبئه هناك تحت، فافعل ولا تتردد. لقد اعتدت هذا. ويسرني أن أكون مصدر فأل حسن للآخرين.

ـ لا، لا ـ أجبت مصعوقاً ـ بارك الله فيك، لكن لا.

ـ حسن إذن. إلى اللقاء قريباً.

ودخل في القصر، الذي كان يسكنه آنذاك أحد وزراء والدي. في تلك اللحظة انتبهت إلى أنني لن أملك فرصة أكثر مناسبة فركضت خلفه وفركت الطوق والكيس بحدبته فراح يتلوى من الضحك، عند زاوية الصهريج.

عملت على تجنبه زمناً طويلاً، خَجَلاً من تصرّفي. وكان فائز يكرر عليّ أنه يعد ويعيد عد نقوده دون أن تتضاعف. بينما صبح تذيع إنها دخلت فورة من الحظ، وإن العرسان يتقدمون إليها أكواماً وثؤلولة الوجنة اليسرى ـ التي كانت في السابق مجرد شامة، وصارت مليئة بالشعر ـ تنكمش لحظة بلحظة بفضل مدية خنزير كانت تعلقها في طوقٍ إلى عنقها. لكن كيف كنت سأسمعهم؟ في الحمراء كنا نلتقي جميعاً، وكنت أخاف الساعة التي سأواجه فيها الحبشي «الذي كانت الشمس نفسها تمتنع عن البزوغ أمامه».

وكانت ظهيرة، استطعت أن أتجنب فيها لقاء مولى القادم باتجاهي، خَفَقَ قلبي بقوة كبيرة حتى أنني اضطررت أن أتكئ على الجدار. وما أن زال الخطر، وأنا ما أزال أرى جلّابيته المنتفخة بالحدبة، حتى رأيته يظهر مرّة أخرى في الجانب المعاكس للشارع تماماً. وأرخى يده الرهيبة على كتفي وعرفت أنني ضائع تماماً وأنه سيخنقني كلياً هناك. ومع ذلك ارتفعت تلك اليد إلىعنقي ثم خدي برقة غير منتظرة.

ـ اعتقدت أننا أصبحنا أصدقاء منذ ذلك اليوم، لكن وكما أرى لسنا

كذلك.

سألته وقد لعثمني الخوف:

ـ أتريد حقاً أن تصبح صديقاً لي؟

ـ ليس عندي رغبة أخرى. إذا سمحت لي فإنني سأرافقك إلى حيث تذهب.

ـ لست ذاهباً إلى مكان، فقط كنت هارباً منك.

ـ هذا عمل ستوفره على نفسك من هذه الساعة وصاعداً.

لم يسحرني أحد مثله بحكاياته الهائلة. لا أحد مثله أيقظ عندي الرغبة بالسفر والتعرف على بلاد أخرى غريبة ومناظر بعيدة، وعلى ناس جدد لهم عادات غير معهودة، حيوانات وأزهار تدشنها عيناي تَوّاً. للأسف لم أستطع حتى الآن تحقيق ذلك.

ـ أنا، يا أبا عبد الله ولدت متوجاً مثلك ومثل الرمانة. أنتمي إلى الأسرة الامبراطورية في الحبشة، الأقدم من العالم، التي وجدت نفسها مقتلعة من العرش، منذ خمسة عشر عاماً لتحل محلها أسرة أخرى عدوّة، مع أنها ليست من دم غريب. واستطعت أن أنجو من المجزرة لأن مظهري الخارجي الفظيع جعلهم يظنون أنني لست أكثر من عبد حقير، هذا ما يدل على أنه لا يمكن معرفة ما يضر وما ينفع أبداً، ما هوالذي يسقط وما الذي يسمو، وكيف يوجد دائماً ما هو أسوأ من الأسوأ من كان سيقول إنني، أنا الذي كنت أشكوإلى آلهة شعبي، قبل أن أدخل الإسلام، خلقه لي مشوّهاً وكريهاً، سأشكرُ الله وأحبّهُ لأنه أنقذ حياتي تحت هذا القناع. اسمي ليس مولى، أو إنه يجب أن يلحق بمولى اسمي الحقيقي. أنا فوزي، أمير أثيوبيا، رغم أن الأمير بلا إمارة ليس أكثر من تابع عليه أن يكسب خبزه واحترام الغريب، وأن ينظر دائماً إلى وجه مَنْ بيده الأمر محاولاً أن يخفف من جهامته. يقولون إن الشرب بكأس من ذهب، وشم النرجس يدخلان السعادة إلى النفس، ويقولون إن الجلوس على ضفة النهر إلى جانب مائدة من الريحان تذهب بالغمّ. وأنا كساق هزلي أتبع هذه الوصايا باستثناء شرب الخمر، لأنني أحترم تعاليم النبي، لكن الشيء الوحيد الذي يحققه المرء هو أنه يفتق ذكرى كل ما كان له وفقده. ورغم كل شيء فقد تعلمت من الأندلسيين أفضل درس: تقليص الحاجات من أجل تقليص العذابات التي يكلفّ إشباعها كثيراً. وهكذا توصلت إلى أن الأشياء التي

أحتاجها صارت قليلة جداً، وهذه الأشياء القليلة أحتاجها قليلاً جداً. لأن السعادة الحقيقية ياصديقي ليست في أن تملك وإنما في ألّا تحتاج.

وكنت أطرح عليه قَضِيَّةً ما إذا كان باستطاعته أن يجلس ذات مرة على عرش أسرته وما إذا كان مُصيباً في هربه بعيداً عن وطنه.

ـ لا أحد يستطيع أن يمسك بمملكة دون أن يأخذ بالحسبان قاطنيها ـ أجابني ـ. ربما لأن أسرتي حكمت بشكل سيء وأن الرعية نفضت عنها نيرها للأبد. لكن دعنا من الكلام عن الماضي: أن تحكي عن كارثة أشبه ما تكون بأن تقضي نحبك تحتها من جديد. رأيت جمالاً كثيراً في الكون لكنني أحزن فقط لأنني بشع وشقيّ. كم أود لو أريك ما تسميه وطني. ولدت في المرتفع الجبلي نفسه الذي ينبع منه النيل الأزرق. وباتباعي طريقاً مائياً عبرت السودان ومصر المماليك والفاطميين. خدمت من أمرني أن أخدمه وأرضيت من كان يدفع لي. صرت عبداً وحراً مرات كثيرة حتى إنني ما عدت أرى اختلافاً بين الحرية والعبودية. مارست أعمالاً كثيرة ومتباينة جداً لدرجة أن باستطاعتي أن أضيع في جزيرة وحيداً وأخرج سالماً. عرفت ناساً هم من التنوع بحيث أنه ما عاد هناك ما يمكن أن يفاجئني. ومع ذلك فإنني أحنُّ هنا، أمام هذه المدينة الرائعة الجمال، التي سترثها ذات يوم، إلى فَساحةِ وطني. أحنُّ إلى هيبة الأسود البطيئة ورصانة النمور المخططة وغير المبالية. إلى ريش الطيور التي تتجاوز الوصف. أحنُّ إلى طبيعةٍ لا تخضعُ للإنسان، تستسلم بلا كلل ولا تعب، دون أن تنتظر مَنْ يلمُّها.

كنت أريه مجموعتي من الحيوانات الفخارية ويحدثني عن حيوانات مجهولة، عن الزرافة بشكل خاص وبناء على طلبي. كانت كلماته معبرة إلى حد أنني أخلط حتى اليوم بينها وبين أبيات شعر ابن زمرك (الذي ملأ جدران الحمراء بالآيات والموشحات في أيام سلفي محمد الخامس، والذي يسرني أن أروي قصته، كمثل على عدالة الحياة، آجلاً أو عاجلاً، لأنني على قناعة بأن من يَقْتُلُ بالحديد بالحديد يُقْتَل.) تقول الأبيات:

موشّية الأعطاف رائعة الحلى رقمت بدائعها يد الأقدار
راق العيون أديمها لمكانه روض تفتح عن شقيق بهار
ما بين مبيض وأصفر فاقع سال اللُّجين به خلال نضار
يحكي حدائق نرجس في شاهق تنساب فيه أراقم الأنهار

كان مولى يرسم لي أزهاراً وحيوانات ضارية وطيوراً، يحرص على تمزيقها كي لا يكسر قواعد القرآن. كان يصف لي مخلوقاتٍ غير معقولة، أنهاراً، لوأنني حلمت، ما كنت سأحلم بمثلها أبداً. غِزْلاناً بقرون أرق وأطول وأكثر تلوياً مما يمكن تصوّره، وأمْعازاً هي من الاختلاف عما عندنا بحيث ما كنا لنطلق عليها هذا الأسم قط، وحيواناتٍ صفيقة الجلد مثل الأبنية جلودها أقسى من دروع المحاربين، حيوانات هائلة، مسالمة ولطيفة كالعصافير، وعصافيرَ كل ريشة فيها ألوان قوس قزح. كان يصف لي البشر الذين يأكل بعضهم بعضاً، وأولئك الذين يرتاحون على ساق واحدة، وأولئك الذين يتغذون، مثل المسيحيين، بحيوانات نجسة، والذين يعبدون الحجارة، أوالأشجار، أوالقمر، أوالشمس، والذين يئنون ويصرخون عندما تكون نساؤهم في حالة ولادة، وأولئك الذين يذبحون آباءهم حُبّاً كي يُجَنِّبوهم الشيخوخة وأحزانها. .

ـ رغم أنني أفكر ـ كان يختم كلامه ـ إن الشيء نفسه يحدث في كل مكان. نفاجأ بأولئك الذين لم نرهم منذ طفولتنا، لكن في غرناطة يوجد أيضاً من يعبد المال، ومن يتظاهر بالمعاناة نفسها التي يُوقِعونُها بالآخرين طلباً للاحترام، ومن يرتاح، مثل العم يوسف، دون أن يستلقي في الليل ولا في النهار، ومن يخلعون آباءهم عن عروشهم كي يحلوا محلهم في السلطة...

عندما سمعت هذا الأخير خفضت عينيَّ، لأنني فهمت أنه كان يشير إلى والدي، الذي يبدو أنه لم يكُن يكِنّ له ولاء كثيراً.

كانت الحمراء كلها تجد مولى قبيحاً ومسلياً مثل نكتة ابتدعتها الطبيعة. بينما كان يبدو لي، على العكس، وقوراً ومتنوعاً مثل كتاب لا ينتهي أبداً، ولم أشبع قط من الاستماع إليه. كان الخادم الوحيد الذي لا ينغلق وجهه عندما يظهر السيد الذي يخدمه. الوحيد الذي يكتسب فجأة تعبيراً جليلاً ولغزياً حين يغمض عينيه نصف إغماضة رغم أنهما مثل بيضتين محمرتين، وكان يوقع بأصابعه على طبل إيقاعاً فجائياً عنيداً وساحراً يحدث عندي نعاساً أحياناً وأحياناً أخرى تنبيهاً جامحاً.

ذات ليلة جاء يبحث عني وأخرجني، رغماً عن مرضعاتي إلى الفناء تحت ضوء القمر البارد، وأجبرني على الرقص والرقص، طافحاً بالمتعة ـ فقط على وقع بعض الثمار الجافة في إبريق ـ بينما هويرنم ترتيلة بعيدة الغور، ويتحرك بخفة أكثر من خفة راقصة، كما لوأن ثقل حدبته قد تبخّر.

وانتهت المرضعات اللواتي أخذن بعدوى اللغز السعيد إلى مرافقتنا بالتصفيق، إلى أن أمرنا أحد رؤساء الخدم بسوء أدب أن نعود إلى غرف نومنا.

في العام التالي أعتقد أنني لم أجد مولي عند عودتي من سالوبرينا ـ رغم أنني أشدد على أنّ الزمن بالنسبة للأطفال يتوسّع ويضيق، مثل وعاء أهميته لا تعود إليه وإنما إلى محتواه ـ . بعضهم قال لي إنه تدهور من فوق ربوة الشمس، حيث تجرأ وصعد سكراناً، لكنني كنت أعرف أنه من القلة القليلة التي لا تشرب في الحمراء. وبعضهم قال لي إنه لم يعد من الجبال التي صعد إليها بحثاً عن أعشاب للأطباء. وآخرون أسرّوا إليّ إن والدي أمر بقطع رأسه، لأنه رفض أن يسخر من أمي كما أمرته ثريا. وأخيراً قال لي آخرون ـ وهذا ما يكلفني تصديقه عناء أقل ـ إنه وبعد أن رأى كل ما كان عليه أن يراه في مملكة غرناطة ذهب إلى بلاد النصارى ليتعرف على أماكن أخرى وعادات أخرى وناس آخرين. ومهما كان من أمره فإنني كنت سَأُسَرُّ لوبقي إلى جانبي وقتاً أطول وسأسرُّ اليومَ، لأنه كان شخصاً يَنْعَكِسُ العالمُ كله فيه. حزنت لأنني لم أودعه. أستصعب أن يكون هناك رجل يستحق أن يكون أميراً أكثر منه، أو أن يكون هناك من يستحق اسم مولى أفضل منه.

ابراهيم، الطبيب اليهودي

من بين جميع الأطباء الذين يمارسون الطب في الحمراء، وعددهم كبير، لم يكن هناك من هوأقرب إلينا من ابراهيم: كان دقيقاً ومضجراً ذا طيبة وصبر يضعان صبر وطيبة الجميع على المحك.

كان خبيراً بالاستمواه وله ثقة خالصة بخاصة المياه العلاجية. [يتمتع بشهرة امتلاكه عيناً سريرية لا تخطئ وقدرة رائعة على التشخيص، وأنا لست واثقاً من أنه ساعد عمي يوسف بشكل استثنائي، لكن عمي أيضاً لم يكن يترك أحداً يساعده.] كان يرى أن الإنسان خلق للصحة، وأنهُ إذا فقدها، يكون لخطأ هوارتكبه، رغم أن الطبيعة تملك وسائط كافية لإعادتها له دون اللجوء إلى يد إنسان آخر. كان يشكّ بالمنجمين، ورغم إعجابه بالجراحين، إلا أنهُ ينظر إليهم باستعلاء ـ وهذا يشكل تناقضاً ظاهرياً ـ ، لفهمه أنَّ ليس من الصالح معاكسة مسالك الطبيعة أومقاطعة

إيقاعها. وكان على علاقة سيئة مع طبيب آخر يدعى علي بن محمد بن مسلم، ذي المهارة الظاهرة في المداخلات الجراحية، وقد لاقى غروره ضربة عنيفة عندما اضطر أن يضع نفسه بين يدي منافسه ليجري له عملية الساد، لأنه كان يفقد نظره على مرأى من الجميع (هذا إذا كانت التورية مسموحة في أمر على هذا القدر من الخطورة.) [حسب ما فهمت يُزال الساد إما بالاستئصال وإما بسحبه بواسطة إبرة معدنية مجوّفة.] كانت أمي تعلق: إننا في فترة النقاهة التي مرّ بها ابراهيم ومنعته من مداواتنا، تمتعنا بصحة نحسد عليها.

طبعاً كان رأي والدتي قابلاً للدحض، فهي قليلاً ما تنزع إلى الاعتماد على أحد مالم يكن على نفسها. إلى حد أنها، ورغم أن ابراهيم كان المسؤول عن أسفارها إلى الحامة لمعالجة عرق النسا ـ أوكائن ما كان سبب مضايقاتها ـ فإنها لم تعترف له قط بأنها كانت تتعافى، رغم أنها تابعت الذهاب إلى الحمّامات بدقة، وأعتقد أنها كانت تأخذني وأخي معها لتخفف من ضجرها. ورافقنا ذات مرة الطبيب نفسه. كيف لي أن أنسى تلك الأسفار السنوية؟ والإعلان عنها كان يؤرقنا قبل أيام كثيرة منها، ذلك لأننا كنا ننسى من عام إلى عام كم كان سريعاً ضجرنا. وأنا ما أن كنت أرى المنظر المتماوج والخصيب لضواحي الحامة والغوطات الخضراء المشغولة بحب ساهر، منحدرات الزيتون والجبال البعيدة، التي كانت تحتفظ ببقايا الثلج حتى آذار، حتى أشعر بشيء من الهجران الداخلي والخواء، ربما عرفاناً بالابتعاد عن الرتابة في الحمراء. مازلت حتى الآن أرقُّ للجسر على النهر، لسقوط المياه الحارة، الحديدية والمالحة، للوهاد بصخورها التي لم تستقر بعد والعصافير التي تغرد هناك برونقٍ آخر. كنت أتنزه في الظل، أتنزه؟ أقفز، مثل عصفور، وأيضاً من منطقة مشمسة إلى التي تليها وأتحاشى ظل رؤوس الأشجار، وأنا أكاد أطير. أصغي إلى خرير الشلال القريب من المياه الساكنة، مثل مرآة محاطة بالعوسج، حيث تُعَشِّشُ البلابل. وكان يدهشني دائماً أن أتأكد أن الماء الذي يتصاعد منه البخار يصب في جدول مثلج. في الحامة كانت حجج ابراهيم الباحث المعتبر في الطبيعة تُفْهَمُ أفضلَ.

[وأنا أعيد قراءة ما سبق خطر بذاكرتي شيء ربما لم أَنْسَهُ في حياتي. بعد سنوات من تلك التي تشير إليها هذه الأسطر، وعند خروجي من الحمامات الرومانية، التي حُفِظَتْ مع تماثيلها الجميلة، لمحت فتىً كان من الرقة بحيث أنه لا مُبَرِّر لأن يحسد نماذج التماثيل. ولكي أقيم معه حواراً سألته لاأدري ماذا. وعندما رأى بالقرب منه ولي العرش، فوجئ

وخاف ولم يستطع الإجابة. أدار ظهره وهرب، وبقيت وحيداً أراقب قطيعاً من الماعز يتسلق الضفة الأخرى للنهر. أمعنت النظر بشكل خاص في واحدة، عرجاء تجهد نفسها للحاق بالأخريات وتخمع وتبقى دائماً الأخيرة والراعي يحثها، تتوقف لحظة لترتاح وتتفكر في حظها السيء، وتستمر تتقدم، منهكة وحزينة بساقها الأمامية العرجاء التالفة. لاأدري لماذا ـ أوأدري ـ أتذكر اليوم ذلك الفتى الرشيق الذي هرب وتلك العنزة الكسيحة التي لم تستطع أن تخفّ في سيرها.]

كان ابراهيم شديد التدين ولا يذهب إلى مكان إلاّ ويحمل كيساً فيه إلى جانب الأدوية الأكثر استعمالاً، التوراة والميشنة: كي يرجع إليهما إذا تطلب الأمر، أولمجرد أن يشعر بأنه مرافق. كان يطبق فرائض دينه بتقيد صارم ويحترم من يطبقون فرائض دينهم بتقيد صارم.

عندما انتشر وباء الطاعون، عزاهُ الناس إلى قران ثلاثة كواكب مشؤوم، بل وذهب بعض زملاء ابراهيم إلى الحكم بأنه سوط إلهي نزل بالناس عقاباً على أخطائهم. ومع ذلك فإن ابراهيم المتدين جداً، فهم أن ذلك كله كان ترهات وأنه يجب أن يُفرضَ العمل بلا هوادة ضد الكواكب والسياط. وأعلن عن خطر العدوى وعن أهمية عزل المرضى، وأمر بغلي أوإحراق ثيابهم وأدواتهم، وحتى أقراط النساء، ومنع الذهاب إلى الحمامات العامة، التي كانت تنشر التلوث، بكلمة واحدة عزى المرض إلى أسباب طبيعية، ينعشها نقص النظافة والازدحام وندرة المساكن.

كان يعرف أن أبناء جلدته كانوا وسيبقون ـ كان يؤكد ـ ملاحقين في غرناطة وفي ممالك أخرى كثيرة. وكان يعرف أنهم أعطوا أحياناً مبررات لملاحقة شعب أفقره الرّبا والأتاوات التي يقبضونها منه والأسعار المرتفعة التي عليه أن يدفعها للمهنيين اليهود عندما يقتضي الأمر. كان ابراهيم يعيش في حي اليهود، الحي الذي يتسلق أنتيقيرة ـ حيث لجأ الهاربون من أنتيقيرة عندما سقطت في يد الأمير السيد فرناندو ـ وحتى البروج الحمراء.

ـ هكذا ـ كان يقول ـ أنا مستعد للذهاب إلى حيث يستدعونني. يكفي إطلاق صفير واحد من الحمراء كي أسمعه.

وبالفعل كان يمثل في الحال مع كيسه المليء بالأعشاب وبالعلاجات والكتب المقدسة.

كان يعترف بأنه من مدرسة ابن زرزر، وهويهودي مشهور عمل

طبيباً لبيدروالأول في قشتالة، ثم سفيراً له في غرناطة أمام محمد الخامس، والذي استمر يُنفى ويعود ليحافظ على حياته. كان ابراهيم فخوراً بسلفه، كطبيب وكرجل لامع من أنصار أن تعمل الطبيعة عملها وأن تُنزع العوائق من أمام فعلها. كذلك كان رجلاً ذا مكانة عالية، بل وحسب ماسمعت، تلمودياً محترماً ومستشاراً لزملائه من أبناء ملّته في الحالات السديمية التي كثيراً ماتثيرها قوانينهم المقلقة جداً. وأكثر من مرّة سمعت منه تأكيدين. الأول إن الدين بالنسبة للأندلسيين ليس أكثر من مسألة طقوس.

ـ وأنا أتكلم عن أي من الأديان الثلاثة ـ كان يدقق ـ سلسلة من القواعد العملية والتقوى أوالخرافات للفوز بالجنة، سلسلة من التوعدات والتحريمات لتجنب أمراض البدن، وسلسلة من السلوكات للفوز بالنفوذ الاجتماعي ذلك هوالدين بالنسبة لنا.

والتأكيد الثاني كان في أن التفوق الأدبي ليهود الأندلس على يهود البلاد الأخرى إنما يعود إلى أنهم يتحدرون من قبيلتي يهوذا وبنيامين، وأكثر من هذا كله إلى قوّتهم باللغة العربية التي أثّرت في لغتهم ووسمتها. وابراهيم نفسه كان البرهان على كل ماكان يقول: رجل رائع ومتدين بثبات، يتكلم لغة عربية جميلة، لكنها مطعمة بالعبارات الباهرة للغة العربية الشعبية (بنبرة الإمالة، التي نلكن بها هنا.) والمزينة بعدد من التعابير الرومانية.

ـ اللغة، أولاً وأخيراً ـ كان يؤكد ـ يجب أن تفيد للتفاهم مع الآخرين وليس للتخفي وراءها.

ـ من هم اليهود؟ ما الذي يجب عمله أوتركه كي يصير الإنسان يهوديا؟ ـ كنت أسأله.

ـ شيء واضح، أيها الفتى: يجب أن يكون وُلد من أم يهودية، أوأن يكون تحوّل إلى اليهودية. لكن إذا أردت أن تعرف رأيي في العمق، فإن جميع الديانات واحدة. على الأقل الأديان الثلاثة القائمة في غرناطة. واختلافاتها تقوم على من أين تؤخذ ومن هم آخر أنبيائها. بالنسبة لنا هم أنبياء التلمود، وللمسيحيين المسيح ولكم محمد. لذلك كثيراً مايهاجمني الشك بما إذا كنت متديناً حقيقياً، رغم أنني آمل من الله أن أكون كذلك، بالمعنى السليم للكلمة. أنا أخاف المتدينين الحقيقيين، لأنهم كثيرا مايتحولون إلى متعصبين. تذكر المرابطين، فقد كانوا بالنسبة إلى ثقافتنا وإلى هدوئنا مثل المطرقة. في مكتبة الحمراء توجد نسخة من

كتاب كتبه آخر الملوك الزيريين، عليك أن تقرأه فلربما وجدت نفسك ذات يوم في المأزق نفسه. فقد انتزع المتدينون المتعصبون غرناطة منه ونفوه إلى افريقية، لاتنس ذلك يا أبا عبد الله. أيضا كان اسمه عبد الله. عاش منذ أربعة قرون تماماً.

ـ إذا كان الأمرُ كما تقول فما هوالاختلاف الموجود بين الأديان حتى تكون متناقضة إلى هذا الحد؟ ـ ربما ليست هي المتناقضة، وإنما نحن. من هنا يأتي خطر الهرطقة. فبعد أن نفي الشعب اليهودي إلى بلاد بابل، الذي لم يكن لنا فيه دور، لأننا لم نكن أحراراً، وعلقنا قيثاراتنا على الأشجار، بعد هدم المعبد الأول، برز بين اليهود الخوف من الذوبان والاندثار كشعب، نظراً لأهمية المنتصرين أو لأهمية الهيلينية في زمن المكابيين. كانت غايتنا الأساسية هي الاستمرار والحفاظ على أنفسنا كشعب له مميزاته الخاصة وفردانيته. لذلك كان الإصرار على كل الأشياء، على التحريمات، وأوقفنا التطور. تصور المأساة التي افترضها، في تلك الظروف، تهديم الرومان للمعبد الثاني. لقد أثبت صحة مخاوفنا. كان باستطاعتنا أن نقبل عقيدة المسيح لكن أتباعها اللطيفين جعلوها متناقضة مع الروح العبرية، وإذا بدا لك ذلك قليلاً فإن شعبي أضاع أرضه الموعودة. اضطررنا أن ندافع عن أنفسنا، أن نجمع أنفسنا، وأن ننغلق حول حاخاماتنا: كان التلمود وطننا والبديل عن أرض الوطن، كما كانت سفاراد أي الأندلس، منذ قرون كثيرة. يابني، لقد اضطر الشعب اليهودي لأن يقاتل على امتداد التاريخ كي يبقى هونفسه. ديننا ليس عقائدياً مثل المسيحية، ولا ناظماً للسلوك مثل الإسلام، ديننا سياسي. صار مجرد سياسة. أنتم والمسيحيون تعتقدون أنكم تدفعوننا وتحصروننا في حي، في جالية، هذا ليس صحيحاً: نحن الذين نحصر أنفسنا ليحمي بعضنا ظهر بعض، لنتحصّن، لأننا بحشرنا لأنفسنا ندافع عن أنفسنا بشكل أفضل من العدوى والتسلل، ونُصان بشكل أفضل من التغيّر. أن تكون يهودياً، ياأبا عبد الله يعني أن تقاتل بلا هوادة كي تبقى كذلك بالطريقة الأكثر صرامة. ولأننا نحاول بأي ثمن أن لانُهضَمَ، فإننا سوف نستمر نلفظ من الجسد الذي لايستطيع أن يهضمنا رغم محاولته ذلك. هذا أيضاً واحد من قوانين الطبيعة الأساسية. من هنا إننا نشعر في اللحظات المواتية، بإغراءات أن نفتح أبواب أحيائنا اليهودية كي نؤهل أنفسنا ونتجنب الركود والاختناق، لكن على الفور يحدث شيء رهيب يقنعنا بأن الساعة لم تحن بعد، وأنها قد لاتحين أبداً. حبذا لويُسْمَحُ لك عندما تحين ساعتك، ياأبا عبد الله، أن تساعدنا، هذا إذا سُمِحَ لك بأن تساعد نفسك.

كنا قد وصلنا ونحن نتنزه، في ساعات المساء الأولى، أمام برج التكريم في باب السلاح. وكان ابراهيم لايكلّ ولا يملّ عندما تلامس نقطة ضعفه. قال لي وهو يشير إلى البرج:

ـ هل تعرف قصة اليهودي الذي بدأ ببناء الحمراء؟

ـ يهودي؟ ـ سألت وأنا مقتنع بأن ابراهيم وقع في الحماس العنصري.

ـ نعم، هوالذي رفع هذا البرج، ثم بنيت بقية الأبراج والقصور. اسمع، هذه القصة تبين الصالح والطالح عند شعبي. كان المظفر جدَّ عبد الله، آخِرَ الزيريين الذي حدثتك عنه، استولى على مملكته، بعد أن أسلمه لحياة الخلاعة يهوديٌّ يدعى ابن نغرالة، بدأ عنده إدارياً. وكان يحكم على هواه حين خرج له منافس. عبد قديم من عبيد المعتمد في إشبيلية، شكل جزءاً من مؤامرة ضد ملكه، وصل إلى غرناطة تسبقه شهرته فالتف حوله عبيد السلطان الزنوج ونصبوه رئيساً. النجا الاشبيلي، بتأثره المتزايد، وهوتأثير عسكري أكثر مما هو إداري، كان يغار من ابن نغرالة، الذي يشير إليه عبد الله في تاريخه دائما *بالخنزير*. حسناً، حين شعر *الخنزير* بانحدار نجمه وبهدف الحذر قدر أن الحل كان في تسليم غرناطة إلى ملك ألمرية، المعتصم بن صمدي، الذي سيحافظ على امتيازاته امتناناً. وقد نصحته الجالية اليهودية وحاخاماتها بأن يأخذ أمواله ويهرب قبل أن يقضي عليه النجا، لكن ابن نغرالة تمسك برأيه، لاقتناعه بأنه أينما هرب فإن النجا والسلطان سيلاحقانه.

»وبالتالي اتصل بملك ألمرية، الذي طالبه بضمانات، فغرناطة كانت أكثر المدن تحصيناً وكان يخاف من هزيمة تفقده مملكته نفسها. وبدأ ابن نغرالة دسائسه: أرسل العبيد الزنوج، الذين كان قد نفرهم من النجا إلى الحصون الرئيسية في المملكة، فكسبهم بهذا التصرف، وبالعكس أخلى الحصون الثانوية كي يستطيع ابن صمدي أن يحتلهابسهولة. وبما أن اليهودي والإشبيلي أبقيا، كل من خلال مصالحه وبسرور، على السلطان بعيداً عن نظر الشعب، راح الغرناطيون يعتقدون بأنه مات وأن اليهودي يخفي عنهم الحقيقة. وكان ابن نغرالة يتلهف لسقوط غرناطة بيد ملك المرية، الذي لم يجرؤ على الاقتراب من العاصمة لأنه صار ملكاً للكثير من الحصون الصغيرة، وقد سبب هذا التأخير تمرد العامة مرة أخرى على اليهود، محاولين مرة أخرى انتزاع شريحة منهم.

»وكان ابن نغرالة قد اتخذ قراراً ببناء هذا الحصن ليحمي نفسه

وعائلته حين تسقط غرناطة في يد ملك ألمرية، إلى أن تهدأ فورة النفوس. لكن الشعب والنبلاء، الذين لايتحدون إلا في الغزوات الكبيرة، هاجموه يساعدهم ويحرضهم العبيد الزنوج، الذين خرجوا سكارى من اجتماع كانوا فيه، وهم يعلنون بأصوات عالية عن موت السلطان. ولكي يخدع الدهماء بادر ابن نغرالة وَمَوَّهَ أحد أبناء بيته وجعله يطلُّ عليهم من نافذة هذا البرج. لكن العبيد كانوا قد أذاعوا إن ملك ألمرية يقترب (وهذا لم يكن صحيحاً.)، واجتمعت عوامل كثيرةضده: كره اليهود، المبالغة بغدرهم، تعميم عيوب عدد قليل منهم ومطامع واحد على الجميع، احتكار المناصب والوظائف الكبيرة، خرق التقاليد الزيرية والخوف من احتلال مثار. واستطاعوا أن يدخلوا في ذلك البناء الأول من الحمراء وقد أعماهم وهيجهم الحقد والرغبة في الغنائم فقتلوا ابن نغرالة. ثم مرّوا بالسيف على جميع يهود غرناطة، وكيف لا، رغم أنه بقي بعضهم، كما يحدث دائماً. وبالفعل فإن الباقيين لم يتأخروا عن الإمساك بزمام الحكومة الجديدة. انظر، يا أبا عبدالله كيف أن هذه القصة الحقيقية تبرهن أن الحمراء هي نتيجة حذرٍ وقوّة رجل من قومي.

راح ابراهيم الطبيب يضحك من كلماته نفسها، التي صدقتها وأنا مرتاح، لأنه لايوجد أبعد من كذب شخص بهذا التهذيب وهذه النزاهة.

كان لابراهيم من الأولاد بعدد القبائل اليهودية، وعدد أفراد ذريته كبير جداً، وكأنه اتخذ على عاتقه وحده أمرَ استمرار شعبه. عُمِّرَ كثيراً. منذ سنة واحدة مات، أوبالأحرى انتهى، حسب الطبيعة التي كان يسعده احترامها، محاطاً بحب أسرته. آمل أن تلقاه في السماء جوقة الشيوخ ويُسْعَدَ بترحاب يَهْوَهْ الذي لم أره قط أهلاً للترحاب بأحد.

الخصي نسيم

كانت المرة الأولى التي تعثرت به فيها بسبب زلة مني. سأوضح أكثر. كنت ألعب ذات مساء مع أخي يوسف في الحدائق الموجودة أمام قصر محمد الخامس، حيث بركة الأسود. كانت غرفة أمانة الدولة قد أغلقت وأخذنا نتسلى برؤية الإداريين والأمناء تعلوهم ملامح الاقتراف والحياد التي تُمَيِّزُ مَنْ يكتبون كثيراً، عن أمور لاتهمهم وقد تقوَّست ظهورهم. دخلتُ ويوسف إلى *قاعة المساعدة* (هكذا كنا نسميها فيما بيننا،

لأنه حفر على جدرانها من الأرض وحتى السقف آية واحدة تبدؤها هذه الكلمة مع التكرار الذي وضعه مزخرفو الحمراء في عملهم.. هذا التكرار الذي يسبب بعض الدوخة، وكأن المرء محاط بالمطلق، وذلك بقوة النظر إلى الجمل نفسها مكررة بشكل لايحصى.) كنا نركض خلف بعضنا، يضايق واحدنا الآخر ويمسكه من ثيابه. وكان يوسف قد مزق لي كمّاً، وتخلصت منه بصرخة حادة. مررت بين بعض الأمناء دون أن أنظر إليهم، فابتعد الجميع ماعدا واحداً، اصطدمت به بشكل لامناص منه. صفعني بعد أن أخذ بخناقي. رفعت عيني حائراً، فوجدت السلطان.

ـ لمن هذا الصبي؟

ـ ابن السلطانة عائشة، ياسيدي ـ قال صوت.

ـ إذن قل للسلطانة أن تربيه بشكل أفضل وأن تمنعه من إثارة الضجة ومن الصراخ مثل امرأة بشعة. علمه أنت بنفسك.

ثم تابع طريقه ببطء بين بطانته وهويتحدث في موضوع أكثر أهمية.

مكثت متخشباً مرتبكاً. يوسف كان قد اختفى وهذا ماكان يفعله بمهارة رائعة. لم يكن إلى جانبي إلا صاحب الصوت، الذي يعرفني رغم أنني كنت أجهله. كان أبيض مثل الرز بالحليب، وذا شفتين حمراوين ووجه رقيق كأنه وجه طفلٍ، أشقر وبلا لحية، فارع الطول، رغم أن جسده لم يكن رقيقاً كوجهه. وجه كان يبتسم لي في تلك اللحظة بتواطؤ.

ـ لقد خلط بيني وبين واحد من مُرَبّيك. لن يزعجني أن أكون ذلك، لأنك لطيف، ماذا تفعل هنا في مثل هذه الساعة؟

ـ كنت ألعب ـ أجبته.

ـ وحدك؟ أليس لك أصدقاء؟ ممن كنت هارباً؟ ـ ثم ختم ضاحكاً ـ من نفسك؟

ـ بلى.

ـ شيء سيء أن يهرب الواحد من نفسه. سوف تنتهي إلى أنك لن تجد نفسك أبداً ـ وبدل نبرته ليسأل ـ : أأنت الأكبر أم الأصغر؟

ـ الأكبر.

ـ وبالتالي أنت أبوعبد الله، الوارث المستقبلي للعرش إنْ لم يُخَرِّب عليك الأمرَ تعثُّرك بوالدك ـ كان يتفحصني بوقاحة ـ . أنا أدعى نسيم. [وتعني الريح اللينة.]

وكان الإسم بالنسبة له مثل الخاتم للإصبع: ضعيفاً لكنه ملحاح، بل كان أضعف مما كانٍ يوحي به وجهه، لأن وركيه كانا بارزين مرتفعين، أنثويَّينِ قليلاً.

ـ هل تعيش هنا؟ ـ سألته.

ـ أعمل هنا. في الحريم، لكن ليس عندي حراسة اليوم. كنتُ ذاهباً مع مجموعة من الأصدقاء حين اصْطَدَمْتَ بالمجلس كُلِّه. أين تعيش الآن؟

ـ مع أمي ـ ندمتُ لأني قلت له فلاحظ ذلك.

ـ لا تخف، لن أنقل إليها ماكلفني به السلطان. اعتبره أمراً منتهياً.
ـ راح يمشي ـ في مثل هذه الساعة أكون عادة في الحمّامات، أوفي هذا لمكان نفسه. إذا كنت تريد أن نعود ونلتقي، فهذا يسرني.

ـ حفظك الله ـ قلت له وركضت أبحث عن يوسف.

لكن يوسف كان مختبئاً على بعد شبرين تماماً مني وراء أحد الأعمدة، قهقهته جمّدتني.

ـ إنه خصيّ ـ قال لي بصوت منخفض جداً ـ ليس عنده هذا الذي يؤلم عند الختان.

ـ ألذلك يبدوطفلاً كبيراً؟

ـ لست أدري، لكن يجب أن نعرف. أنا لاأودُّ أن أبقى طوال حياتي دون لحية.

ـ لكنك أشقر مثله ـ نبّهته بنية سيئة جداً.

ـ لكن الذي أقام الصداقة معه هوأنت.

لم أتأخر، تقريباً، في الاستفسار عما كان يعني أن يكون المرء خصياً، ولمن كان نسيم. كان مشهوراً بأنه قوّاد رائع: ناعم، مقنع، مؤدب حامل لأرق الرسائل ولأغلى الهدايا. وكان يتمتع، بسبب منصبه، بِفُرَصٍ متعددة ومؤاتية. هذا لايعني أنه كان واحداً من الخصيان العظام الذين يهتمون بالسياسة، لكنه كان ذا إعداد جيد ويتمتع باحترام عام. كانٍ يُقَدَّرُ على أنه خادمٌ وفيٌ، والجميع يتكهنون له بمستقبل حسن. بما في ذلك الشعر، لأنه وحسب صبح كان يتطلع لأن يصبح شاعر البلاط، وكان في الطريق إلى ذلك.

عندما أشرت إلى نسيم راح صديقي «مولى» يضحك.

ـ أستطيع أن أقدم لك معلومات كثيرة، ستكون ذات فائدة كبيرة

بالنسبة لك. تدور في الحمراء بعض الأبيات أنت لن تفهمها، لكنك إذا أردت أن تمدحه ذات يوم، فانشدها:

إذا ماكان من تهواه غصناً وأقسم لايميل لمن تهيم
فدونك والنسيم له رسولاً فإن الغصن يثنيه النسيم

››أعتقد أنه سيسحر لسماعها منك. فهوفخور ببراعاته ومعه كل الحق.

في بعض الأيام كان نسيم يقول لي إنه من سلافونيا وفي أخرى من قطلونيا. لاأدري ما إذا كان يريد أن يغطي على أصله أم أنه كان يجهله ويختلقه حسب الظروف. الشيء الذي استنتجته منه أنه كان يجهل من الذي قاده إلى وضعه الحالي وأية أخطار قادته إلى غرناطة. كان سلافياً لكنه ماعاد، لأن والدي حرره لاأدري مقابل أي شيء. كان يبتسم بغموض عندما يشير إلى تلك الخدمة ويعطيني انطباعاً بأنه لابد على علاقة مع ثريا التي يتحدث عنها بتعبّد، فعرفت بداهة أنه ينتمي إلى حزب معاد لحزب أمي، رغم أنني كنت حتى ذلك الوقت أجهل وجود حزبين قويين جداً داخل الحريم. لم أتخيل قط أن تلوك ألسنةُ الناس أمي، وأستطيع أن أؤكد أن أمي أيضاً لم تتخيل ذلك. لكن، وكما بدا واضحاً، هذا ماكان. ثريا كانت تُدعى من قَبْلُ إيسابل وكانت ابنة للكومندادور بيزمار، السيد سانتشو خيمينث ده سوليس. أسروها في إحدى الغارات على الحدود، فَخُصَّ بها والدي الذي أرسلها لخدمة أختي، وكان لها العمر نفسه تقريباً. رآها السلطان ذات يوم فأسره جمالها الذي كان يتمزق نسيم في مدحه.

ـ الحريم مليء بالنساء ـ كان يقول لي ـ وجميعهن جميلات بشكل من الأشكال. لكن ثريا لاتقارن بأية واحدة منهن. تلك هي ميزتها. المسألة ليست في حجم وبريق العينين، ولاملاسة البشرة أولحامة الشفتين ولا أي كمال آخر. رؤيتها لوحدها تكفي. إنها مثل قصر، واجهته من الجمال بحيث لايتطلع المرء إلى الوصول لأكثر من العتبة، فيبقى أمامها متحيراً وذاهلاً، وراضياً لأنهم سمحوا له أن يبقى هناك، مشبعاً تقريباً. نحتاج أياماً وأياماً بطولها كي تعتاد عيوننا على نورها. ولا أحد، مالم يكن الأقوى، يمكنه أن يخاطر ويدخل.

لم تشغل ثريا بال أي من أمهات الحريم، ولاحتى أمام تفضيل والدي المتقلب لها، إلا عندما تحولت إلى الإسلام. فبهذا وضحت نيتها في الترقي والحلول محل والدتي. وما أن أُعْتِقَتْ لاعتناقها الإسلام وتوطّدت مكانتها

بولادة ابنها البكر، حتى غادرت الحريم وسكنت في أحد الأبراج المستقلة. لكن وحسب ماكان يؤكد نسيم، الذي كان شعاره الوقوف على القيل والقال الذي يغلي به البلاط فإنها لن تبقى هناك طويلاً، فوالدي كان يعد لها واحداً من قصور البيازين، عملاً بطلباتها، هي التي كانت تطالب بمعاملة وأبهة السلطانة.

كان نسيم يحكي لي أن غضب والدي من تعثّري به كان نتيجة تعثّر آخر أكثر جدية. فقد تصادفت والدتي وثريا، مع مخطيات أخريات في احتفال أقيم بمناسبة قدوم بعض العازفين الموسيقيين من مالقة. وحدثت المصادفة بناءً على طلب من ثريا، التي كانت ترغب بأن تتباهى جهراً بنفوذها. ومع ذلك فقد عاملت والدتي المحظية باحتقار فما كان منها وقد جرحت في حبها إلا أن اتهمت السلطانة، عندما جاء والدي، بالاستخفاف بها، وهذا ما لم يكن معتاداً على الإطلاق في بلاط الحمراء. وبدلاً من أن يهدئ والدي الحالة، ويعيد المياهَ إلى مجراها، وكل امرأة إلى مكانها، أنب والدتي جهراً وبقسوة، ولولا ذلك مافعلت أمي مافعلته: أخرجتْ، وقد طفح بها الكيل، مقصاً من هميانها - يرى نسيم أن أمي أكثر ذكاءً وأعدت كل شيء - وجزّت بسرعة البرقِ ضفيرة ثريا الكثيفة الشقراء والداكنة. الصرخة التي أطلقتها المحظية سمعت حتى جبال البيرة. بالطبع خرجت والدتي من الحمراء في الليلة نفسها لأسباب أمنية. لكنها راحت لتشغل القصر الذي كان والدي يعده للأخرى وكان من أملاكها. وبهذا فشل مشروع ثريا الطموح، وكانت حاملاً بابنها الثاني وفي أوج وحامها ودلالها.

أَلْحَفْتُ، مدفوعاً بفضول لا أدري ما إذا كان طفلياً، على التعرف إلى ثريا. لم يكن صعباً أن يؤمنه لي نسيم. قادني يوماً إلى البرج الموجود بجانب برج العم يوسف، والثالث على طريق جنة العريف، وهوبيت مسيج بناه يوسف الأول، ونقوش زواياه الأربع هي أبياتٌ لابن الجياب. انتظرتُ برهة، رأيتُ بعدها ومن خلال المنور المطل على الفناء، المحظيةَ تعبر.

الحقيقة إن أية مقارنة بينها وبين والدتي، مهما كبر أوصغر الحب الذي أكنه لها، لامعنى لها. فوالدتي متكبّرة، جليلة ووقورة، تسير، وتتكلم وتومئ كامرأة مُعَدَّةٍ للسير - أومن الأفضل القول للانتقالِ - وللكلام والإيماء في الأجواء العامة. وجهها جهم، غير متماثل تقريباً، ولولم تكن أمي لتجرأت وقلت إنَّه رجولي بعض الشيء، على العكس تماماً من وجه نسيم ووجه ثُرَيّا. يقول الحديث الشريف إنَّ في الجنة حوريّاتٍ يُدْعَيْنَ

حوريات العين. يَتَكَوَّنَّ من أربعة عناصر كريمة: فهن من القدمين وحتى الركبتين من الزعفران ومن الركبتين وَحَتَّى النهدين من المسك ومن الثديين وحتى شعر الرأس من الكافور، وشعرهن من الحرير الخالص. وكُتِبَتْ على أَصْداغِهِنَّ الكلمات التالية: «من يريد أن أكون له، فليعمل بطاعة الله.» [وإذا مابصقت واحدة منهن في البحر، حلّت ماءه.] وحسبما استطعت أن أرى فإنّ ثريا ليست مصنوعة من رقع، ولاتحتاجُ إلى كل تلك الخلطة كي تكون وحيدة جمالها. كنت طفلاً، لكنني عندما رأيتها أذهلني ماكنتُ لاأعرفه بعدُ: نفوذُها الذي لايقاوم. أولاً وأخيراً ليس العقل الذي يكتسبه البالغ غيرَ شيخوخةِ البراءة. وهذا لايعني أنها أيقظت عندي رغبة، بل أسوأ من ذلك، لأنني ودون أن أشتهيها، شَعَرْتُ بأنَّ الجاذبية التي تثيرها ثريا عند كل من يراها قد سيطرت عليّ. لم يكن لخمار المرأة كل هذا المبرر قط. لن يفهمني من يملكُ إلى جانبِهِ جسداً ذا جمال داجن ومبتذل، ذا جمال ذاتي، لطيف وفردوسي، بل من انحنى وشرب من نبع الجمال المؤجّج: الجمال المطلق الذي يغفر أية حرب، أية جريمة وأعظم المظالم، الجمال الذي يدفع امتلاكه الناسَ إلى إضاعة أوانتزاع الشرف والحياة.

كان والدي قد عقد قرانه على ثريا ومنحها درجة سلطانة. أرسل ذات صباح في طلب المشوار، الذي كان حارساً لوضعه وشخصه، لعدالته العليا وأمره أن يأخذ مكانه في باب برج الشابة. ودون الحاجة إلى مظاهر الفرح، كان ذلك دلالة على أن شخصاً ملكياً يقطن هناك. من جهتها تتلقى ثريا التشريفات والتكريمات بطبيعية من يختزن الجمال الذي يدين له جميع الرجال بالاحترام والتقدير، دون أن يكون وُلِدَ بين الملوك، مثل أمي. وإذا كانت هذه المرأة مصممة على أن تصبح ملكة غرناطة ـ وهذا ما يؤكده نسيم، الذي لاأدري كم هي الأوراق التي يراهن عليها ـ ، فمن الغريب ألّا تدركه، رغم أنف أمي.

ـ وإذا كانت قد صممت ـ كان يضيف ـ أن يكون أولادها ملوكاً، فعليك، أنت وأخوك، أن تتحركا بحذر شديد. فأنتما لم تُنَحَّيَا بعد، فقط لأن أمك ماهرة وصاحبة أملاك ويقف إلى جانبها القسم الأعظم من الجيش والنبلاء والتجار. منذ زمن ووالدك لايرى إلا بعيني ثريا، والوزير أبوالقاسم بنيغش يُؤَجِّجُ هذه العاطفة عنده بكل مايستطيع فيلقى غزلاً خفيفاً منها.

ـ لكن، مع أيّ طرف أنت، إذا كان هناك طرفان؟

ـ هناك طرفان وأنا لست من أي منهما: ماالذي يمكن أن يخسره خصي مسكين مثلي؟ أوربما أنا في الوسط بين الخصمين، بانتظار أن تأخذ الأشياء سبيلها الأكيد.

ـ لكن ما المسار الذي تريدها أن تتخذه؟

ـ مساري أنا، يا أبا عبد الله ـ قال ضاحكاً ـ . ومع ذلك، الآن وقد عرفتك، فإنني لاأريد للنهر أن يطفح وأريده أن يذهب ليطحن في طاحونك.

كان نسيم يداعبني برقة، ويترك يده، بلا مبالاة ظاهرية، على كتفيّ، على رقبتي وخصري. من جهة كان ذلك يحدث عندي نفوراً، ومن جهة أخرى، كانت ترضيني وتثيرني الإثارة التي تظهرها مداعباته. لايعني هذا أنني كنت أستسلم إليها، لكنني أتظاهر بعدم ملاحظتها. كم هي معقدة روح الطفل وفي الوقت نفسه كم هي شفافة وكتيمة.

ـ أنت جميل جداً ـ همس نسيم في أذني ذات مساء معتدل من مساءات أيار ـ . كلما رأيتك أكثر كنت أجمل. وهذا شيء غريب عندي لأنني أملُّ الأشياء في الحال. ـ وختم بعد أن نظر إلي طويلاً بعينيه الرطبتين ـ : لو كانت ثريا صبياً لكانت مثلك.

وصعدنا ذات مساء، بعد أن أغلقت أمانة الدولة أبوابها، إلى برج قمارش. كان الليل يخيم ببطء شديد. فتح نسيم باباً في الجانب المقابل للمصلى، بمفتاح مستعار ـ كان له أصدقاء في كل مكان. ـ وصعدنا السلم الضيق، الذي كانت تنفتح في أقراصه بعض القبب الصغيرة واللطيفة. كانت نوافذ الرواقات الفسيحة حيث يعمل المكلفون بالأمانة مفتوحةً.

ـ لقد خفّف والدك ـ راح يقول نسيم ـ إجراءات المعاملات كثيراً، فرحَّبَ الغرناطيون بذلك رغم أنهم الأكثر تذمراً في العالم.

فجاة رأيت عدداً من الظلال تطفووتصطدم. كانت تسقط وقد ضخمت ـ كان نسيم يحمل ضوءاً ـ على الجدران. كان الخصي يسند يده الحرة على كتفي، وعندما لاحق نظرتي فهم لماذا كنت قد توقفت.

ـ إنها الخفافيش ـ قال بسهولة.

بدا لي من غير الحشمة أن أصرخ وأهبط الدرج مثل النيزك، وهوماكان يطلبه جسدي، لكنني لذت بجسمه فضمني إليه وكأنه كان ينتظر ذلك. تَبَيَّنَ لي بشكل ضبابي لماذا كان يحثني ويشجعني على زيارة قاعات الإدارة، لكن، ماذا أستطيع أن أفعل، فها هي الخفافيش هناك.

مكثت متحجراً، بينما أخذني نسيم، بعد أن ترك الضوء على الأرض، بين ذراعيه وقبلني بحرارة المتعبد، في الوقت الذي راحت همساته المتقطعة تطمئنني.

ـ ماهوالحريم؟ ـ هتف أمام إلحاحي ـ أنت تعرف، أوأنك تتخيّله: إنه خليط من النساء اللواتي يتحرّقن لقضاء أكبر عددٍ من الليالي مع مالكهن. ليس حباً (فهذا غير موجود في الحريم، وإن وجد، فَيَالِذَكاء التي تشعر به!) وإنما للحصول على بعض الأفضليات أوبعض المعروف أومجرد قارورة مرهم أوعطر، أوعلى مجرد خمار جديد. التي تتآمر على إرادة سيدها يُقْطَعُ رأسُها، أوتختفي في ليلة دون أن تترك أي أثر، التي تُزْعِجُ تُطْرَدْ، والمطلقة، لأنها كانت واحدة من الزوجات الأربع المسموح بهن تقدم لها غرفة خارجية، مالم تستسلم لغروب شمسها. الوحيدات السعيدات في الحريم هن اللواتي لايتطلعن إلا إلى البهرجة، أوالشمشمة، والكسل، دون أن يعتنين بأولاد أوطعام، أوأزواج، أوحماة، واللواتي لايتطلعن إلا إلى الدندنة وسماع الموسيقى والأغاني والانتظار ونفخِ السيد أومن يجيء برسائله.

كان الوقت ليلاً تقريباً عندما أدخلني إلى الحريم. راقبنا الحرس باستلطاف. كان الربيع في أواخره، ولا أدري الآن لماذا ـ وأعتقد في السابق أيضاً ـ كنت حزيناً. وعندما كنت أنزل الجزء الثاني من الدرج، خرج حذائي من قدمي. قَرْفَصَ نسيم وَقَبَّلَهُ وأنعلني إياه من جديد. كان يشير إلي وإصبعه على شفتيه أن أبقى صامتاً، رغم أن الضوضاء التي كانت تأتي من الأعلى يَقْشَعِرُ لها البدن: صراخات، شتائم، قهقهات، موسيقى،. كانت غرف المحظيات تطل على ممر ليس عريضاً جداً، يقلد القسم الأسفل منه بالدهان زُلَيْجَ قاعات القصر. رأيت عبر إحدى النوافذ شُجيرات الغار تَتَحَرَّك في أحد الفناءات، فأحزنني هذا أكثر. عند أحد الأبواب قال نسيم:

ـ تلك كانت غرفة ثريا، في البداية. الآن تعيش فيها زنجية.

وبالفعل خرجت الزنجية. كانت طويلة ولدنة، ولها فم كبير وأنف مفلطح. بدت لي مهيبة غير مُنَفِّرَة. كانت تضع بعض الشرائط الملونة المعلقة إلى شعرها المعنقد وتبتسم ابتسامة هي من الكلية بحيث أنها انزلقت من فمها هابطة جسدها. كان ملاحظاً أنها تعاشر نسيماً، لأن هذا

ترك في يدها صرة صغيرة جداً وتلقى بدوره شيئاً لم أره. في فناء الحريم كان ينتصب عمودان من المرمر الداكن جداً لم أنسهما قط. أجهل السبب، ربما لأنني ربطت بينهما وبين المحظية الزنجية. وعند خروجي تعثرت بدعامة معترضة كانت بارزة، لا شك أنها دعامة إحدى القبب التي تتوج القاعات في الطابق الأسفل. شغلني الألم الخفيف في القدم عن الحزن الذي كان على علاقة عميقة الأغوار بوالدتي.

هذا كل ما أذكره من تلك الزيارة. وبكاء طفل رضيع أواثنين، حركة المرضعات الخادمات، والعازفات الموسيقيات الغليظات، والراقصات ـ اللواتي ربما لم يكنَّ كذلك، وإنما محظيات من الحريم نفسه ـ وعجوز درداء تبيع المطرزات والخرز. وعندما هبطت القسم الأول من الدرج فكرت في تعب والدي كي يستطيع إرضاء كل ذلك القطيع من الإناث، رغم أنني في ذلك العمر لم أتوقف عند أي إشباع آخر غير إشباع الحاجات البسيطة والعامة.

أكثر ما كان يسحرني في نسيم هوقدرته على الاختفاء حين كان يظهر أحد المحترمين. كان أخي يوسف يختفي لحظة وبنوع من اللعب، لكنّ نسيم كان يتبخر. لم يكن ينتاب المرء إحساس بأنه اختفى، وإنما بأنّه لم يكن موجوداً قط. ويبقى على قناعة بأنه كان ضحية وهم بأنه كان ومازال وحده.

المرة الأولى التي برهن فيها عن هذه القدرة البارزة، بعد فترة من التعامل معه، كان يشير فيها إلى النوافذ المحصرة في طابق علوي يطل على فناء متناسق فيه بحيرة عميقة وفاترة. كان يقول لي:

ـ أليس صحيحاً أنك لاتعرف ماذا كان هناك، في السابق؟ لكن ليس في السابق البعيد.

ـ لاأعرف، تراها بعض مكاتب أمانة الدولة؟

ـ لا. هذا الآن. في أيام اسماعيل الثاني، الذي كان يسرح شعره في جدائل تصل إلى خصره، ويشبكها بخيطان من ذهب وحرير، كان يقيم هناك حريماً ذكورياً.

ـ هذا منذ أكثر من قرن ـ أجبته بغضب غير إرادي.

ـ وكذلك في زمن محمد السادس، الذي كان يصبغ شعره الشائب بالحناء والقرطم، ولهذا كانوا يسمونه *الأحمر*. هل كنت تعرف ذلك؟ وكان يدخن الحشيش وأشياء أخرى.

ـ ما الأشياء الأخرى التي كان يدخنها؟

ـ لا أتكلم عن التدخين. بل عن أشياء يجب ألّايعرفها طفل مثلك، لكنها على علاقة بأطفال مثلك. والمحظيات في الحمراء لم يتمتعن بمثل الذي هن فيه الآن. في ماضٍ ليس بعيداً كان هناك محظيون أيضاً.

ـ وحين لاحظ أنني لا أتقبل الحديث، قطعه ـ . لكن دعنا من هذا: ليس هذا ما أردت أن أقوله لك عن اسماعيل الثاني. كنت أريد أن أقول لك إن تتويجه كان محصلة مكائد امرأة بلا أدنى تردد. كان أخاً غير شقيق لمحمد الخامس وتمكنت أمه مريم من جعل ابنها يغتصب عرش غرناطة (لم يكن صغيراً جداً، كان عمره عشرين عاماً) في ليلة من ليالي رمضان، في أوج الصيف وسط الحر وفي وسط هذا الفناء نفسه.

ـ كان باستطاعة مريم هذه، إضافة إلى وضع ابنها على العرش أن تربيه بشكل أفضل: فاسماعيل، حسب ما فهمت، كان بديناً، وبذيئاً، في وجهه غرَّة، ولم يعتن قط بمظهره الخارجي، إذا استثنينا الضفائر.

راح نسيم يضحك ويربت على ظهري.

ـ على كل الأحوال، راقب نساء الحريم: فهن أقوى مما يُبْدين، وعندهن من الوقت الحر ما يسمح لهن بتدبير الدسائس. مهما كان من أمرهنَّ، فإنك ستكون وليّ عرش ممتازاً. سأراهن عليك.

لكن، وقبل أن أنتبه إلى أنني لم أعد أشعر بضغط يده وباقتراب الوزير بنيغش، كان نسيم قد تبخر.

عندما كنت منذ عام في طريقي عبر فناء قمارش باتجاه قاعة العرش يوم عرسي،حاولت أن أَخْتَلِسَ النظر إلى الموكب الذي كان يرافق مريمة على الطرف الآخر من البركة. وقد بلغ مني الجهد حد أنني اصطدمت متعثراً بأحد الأعمدة المزهرة.فانبعث بين المدعويين لغط من الاستلطاف، لأنهم انتبهوا إلى السبب. اكتشفت، في الصف الأول من المشاهدين، وعلى بعد خطوات مني، نسيماً، بوجه الطفل الكبير الذي كان له، لكنه أفضل ثياباً ـ بل وأفضل بكثير ـ ، أكثر انتصاباً إن صح التعبير. «قدري ـ فكرت ـ أن علاقتي به تمضي من تعثر إلى تعثر.» انتابني عند رؤيته انطباع غامض: أنا وهو نخون بعضنا بعضاً، لاأدري ماإذا كان الواحد منا للآخر أم كل واحد لنفسه. وفَكَّرت أيضاً: «لو لم أولد أميراً لكانت حياتي من ناحية أكثر ضجراً، لكنها من ناحية أخرى أكثر مرحاً.» وخلصت: «أود، قبل أن أموت، أن أصير لمرة واحدة أنا نفسي. لكن ما

أصعب ذلك... أو ربما صرته ذات مرة، ذات لحظة،دون أن أنتبه، أوأتذكّر متى يمكن أن يكون قد حدث.» تحرّك فيّ، للحظة، حزنٌ مجهول شبيه بحزن يوم الحريم.

انحنى نسيم انحناءة احترام مبالغ فيها. وحين عبرته سمعت صوته.

ـ ماتزال ولياً للعرش رائعاً. ليس هناك من هوأفضل منك. سأراهن عليك.

أخي يوسف

هناك من يولد ونجمة على جبينه. لم أعرف أحداً كان بريق نجمته مثل بريق نجمة أخي. كانت صُبْح تُقْسِمُ إنه بكى في بطن أمي وإنه وُلد ملفوفاً بالمشيمة دون أن يمزقها حين خرج. لكن لم يكن بحاجة إلى تلك العلائم ولا ليبشره المنجمون بحياة طويلة ومثمرة وسعيدة ومضيئة. فالمنجمون تنبأوا بأنه سينعم بالأولاد والسعادة وبحب من يتعاملون معه وبحياة طويلة.[دافع آخر للشك بالطالع على الأقل فيما يتعلق بالحياة نفسها.] ومن المنطق أن يكون كذلك لأسباب منها أنه لايشبهني على الإطلاق. فأنا في الشكل مثل أسرة والدي، وهومثل جدنا لأمي، محمد العاشر، على رأي الذين عرفوه. فهوفارع الطول، أشقر، تضيء وجهه اللطيف جداً، ابتسامة دائمة، وللمزيد من الدقة فإنه أعسر مثل جده. ومع ذلك فعسرة يوسف إجبارية، فقد ولد بعاهة في يده اليمنى: تنقصها أصابع الوسطى والبنصر والخنصر بينما الإبهام والسبابة لاتملكان إلا مفصلاً واحدا. لكن هذا النقص لم يؤثر عليه أبداً ولم يمنعه من القيام بكل التمارين التي فرضوها علينا لتعليمنا.

لم يحدث أن انفصلنا أنا ويوسف قطّ، إلّا في الفترة الأخيرة. ربما كنت أكثر فضولية منه وزججت نفسي في مشاكل، كثيراً ما احتجت لمساعدته للخروج منها. العالم في عينيه جيد كما هو: لايتطلع إلى تغييره، بل ولا يقبله، وإنما يندرج فيه بالطبيعة التي يدخل فيها مكعب في فسيفساء. يقوم مسروراً بوظيفته كمكعب خالص في كل لحظة، دون أن يطالب بأكثر أوبأقل مما يعطى له، وقَدَره دائماً يتصادف مع الأفضل.

يقولون إن التوائم تبلغُ من التطابق حدّ أن الواحد منها يتنبأ بكل

شيء عند قرينه، أوأكثر من ذلك لايحتاج إلى أن يتنبأ، فكل واحد يشعر بأنه الآخر. أنا ويوسف لسنا توأمين، فهوأصغر مني بسنة، ونكاد نكون نقيضين ولكننا نحمل ثقة كبيرة، عشنا كثيراً معاً وقلّبنا الفراغ العاطفي العائلي كثيراً بحيث أنني أشك بوجود أخوين متّحدين مثلنا. مثلاً إذا كنا نلعب لعبة الاستخباء مع بعض الأطفال، يكفينا أن يُقدّر أحدُنا أين يمكن أن يختبئ الآخر، كي أكتشف أين اختبأ ويكتشف أين اختبأت. كان العالم ينقسم بالنسبة لنا إلى مجموعتين: واحدة أنا ويوسف والأخرى الباقون. وفي توزيع الأعمال، الذي يطرح على اثنين، يجب أن يكفيا نفسيهما بنفسيهما، كان نصيب يوسف دائماً المرونة مع النصف الآخر من العالم. هومن لينّ المواقف التي أثرتها، ومن أقنع الغرباء بأن يسمحوا لنا بنزوة، من توسل العفومن العقوبات التي كانوا يفرضونها علينا، ومن رفع شكاوانا أومطالبنا إلى المربين والمعلمين.

يجب أن أؤكد أن مهارة يوسف الكبرى، خاصة عندما كنا صغيرين، كانت تقوم على أنه يحملني مسؤولية كل المصائب. ليس بشكل صريح: كان يكفي أن ينظر إليّ شزراً. هذا في البداية فقط؛ بعدها كانت تلصق بي التهم بشكل آلي. ومع ذلك وفي اللحظة التي أوشك فيها على تجشم نتائج اتهاماته الضمنية، كان يتقدم ويعترف أنه المسؤول ويعلن عن استعداده لمواجهة أية عقوبة، لكن بنبرة هي من البراءة بحيث أنه لم يعاقب قط. وبهذا كنا، نحن الاثنين، نلقى العفو. أنا أميل لأن أكون أقل وداً مع الناس منه، ومع ذلك فإنني أتردد على ناس أكثر تنوعاً مما يجب علينا بسبب الدم، الجوار أوالدراسة. لكن كان يكفي أن يظهر كي ينتزع مني الأسبقية في علاقة كلفني كسبها أسابيع، وأي من أصدقائي الذين أتكلم عنهم في هذه الأوراق كان يفضل ولا شك أن يكون صديقاً له، لكنه وبالبساطة نفسها التي كان ينتزعهم بها مني، يتنازل عنهم كما لوأن اهتمامه كان يتركز على شيء آخر. بمعنى إنني كنت أحصل بانكباب أكبر على أقل مما كان يتخلى هوعنه بعد أن يُحس به دون جهد.

عيناه شديدتا السواد وأهدابه طويلة وملتفة، مما يضفي على نظرته صيغة تأملية وعميقة، وتتناقض مع شعره الفاتح وفمه الورديّ والضاحك. كان يتمتع، وحتى اليوم، بمظهر طفليّ أخّاذ يتأرجح بين البراءة والإثارة ـ بأنفه القصير والمشمّر قليلاً ـ إضافة إلى قوة جسدية مدهشة وقامة سامقة. أعتقد أن جميع نساء غرناطة، لو كنّ صريحات كالبنات اللواتي أحطنَ بنا، سيقبلن بأن يمُتن رغبة بقبلة من يوسف.

ربما بدا أنني أشعر بضعف جامح تجاهه. يسعدني أن يبدوذلك لأنه صحيح. فلولا وجود يوسف إلى جانبي لكانت حياتي كلها، وليس طفولتي فقط، شيئاً آخر، أكثر قتامة وأقل غنى. فخواطره، ومبادراته وإبداعاته المتواصلة في اللعب والمغامرات، وهوايته للأسرار المشتركة، حبه للحيوانات والنباتات كانت الهواء الذي تنفسته في لحظات طفولتي الذهبية غير الوفيرة. كانت ثقتي به عمياء، لا أتذكر أنني قمت بعمل لم أحكِه له أوأرغب بأن أحكيه له. وحدها حادثة العم أبي عبد الله في سالوبرينا احتفظت بها لنفسي، ليس لما كانت تعنيه، وإنما لأنني ماكنت لأعرف كيف أحكيها له، ولا النتائج التي سأستخلصها، ويوسف نفسه ماكان ليريد أن يسمعها: فهوليس ميالاً لأن يعطي حلولاً، ولا لأن يتفكر في الأحداث. ربما كان سينصحني بأن أنساها وأنه كان نفسه سينساها في اللحظة نفسها.

يوسف لا تغريه المشاريع الطويلة الأجل، ولا إصلاح حياة أحد، ولا حتى حياته نفسها: فهو يعيش كل ساعة بتركيز شديد ويستسلم للحاضر، دون أن يسأل كيف جاء، ولا متى أو كيف سينتهي. عندما التقى سكان الحمراء على فكرة أن والدي سيختارني وريثاً رسمياً، ناقشت مع يوسف كم كانت ستكسب المملكة لو صار هو ملكها. فأوشك على الاختناق قهقهة.

ـ إذا كنت أنا كما أنا، فليس لأنني ولدت هكذا ـ أجابني بعد أن توقف عن الضحك ـ ، وإنما لأنني واثق ثقة مطلقة أنني لن أصير ملكاً أبداً. مجرد أن أتصور بأن هناك من يتعلق أمره بي، يجعلني أبدّل طريقة عملي وتفكيري، هذا إذا كنت قد فكرت ذات مرة بذلك. أم أنك لا تنتبه إلى أنني أكبر لامسؤول في غرناطة؟

رغم أننا إلى هذا الحد متناقضان، أوربما لهذا السبب، يوجد بيننا كثير من التشابه. نظرة واحدة إلينا تكفي كي تثبت أننا اهتممنا نحن الاثنين بفتاة واحدة، أوأن أنوار المساء، أوالانحناءة الرقيقة التي تنحنيها زهرة، أوالخرافة التي يحكيها لنا أحد تدهشنا. في هذه اللحظة ذاتها أفكر في يوسف، المفصول عني أكثر من أي وقت مضى، وأشتاق إليه، وأعرف أنه سيشتاق إلي أيضاً، يكفي هذا كي نقترب من بعضنا بعضاً. أفهم أن زوجتينا يمكن أن تغارا من هذا التبادل لأنه لايوجد في العالم عاطفة أقدّمها على عاطفتنا المتبادلة... أستحضر اليوم ألواناً لا أعرف أين رأيتها، ولا تركيبها: ألواناً زرقاء مبهمة، خضراء مستجدة، ورداً صارت ذابلة، إنها مثل ألوان حب قديم، حياة منهكة، يوم قصير

مضى. أستحضر ألواناً في غاية الإبهام، كرائحة الياسمين الذابل، ـ ومن يستطيع أن يستحضر رائحة؟ ـ ، صعبة التحليل ومتحركة مثل ظل غمامة على الأرض أوانعكاس وجه في بركة. ومع ذلك أعرف أنني رأيت هذه الألوان مع يوسف وأنها ملأتني فرَحاً كان يتضاعف لأنه مشترك وأنها كانت تكسو جسداً متناغماً، أوتحدد بلّور كأس، أوترسم خط منظر أوتكتنف عينين، رأيتها أنا ويوسف في لحظة واحدة وطريقة متماثلة. وأعرف أنه من المحتمل جداً أن يوسف قد نسيها، ولا يهمني، فرؤيتها معه هي التي جعلتها لاتنسى.

ذهبنا ذات يوم مع خديجة إلى حقل بطيخ في مُنيةٍ كانت للعائلة. لم يكن لنا من العمر أكثر من تسعة أعوام. خطرت ليوسف فكرة أن نبقر، بسكين كانوا قد أهدوها له، جميع الثمرات التي نلقاها إلى أن نجد واحدة حلاوتها كافية، كي نقدمها لابنة العم التي كنا في غاية العشق لها. وبما أنه لم يكن هناك ثمرة واحدة ناضجة، قررنا أن نعيد القطع المنزوعة من كل واحدة إلى مكانها كي تتابع بهذا الشكل نضجها. بالطبع خرّبنا المزرعة. وهذا ما استحققنا عليه توبيخاً من المرضعات وسخرية خديجة القاسية، التي كانت قد تركتنا نفعل ذلك، لأنها تعلم أن الضرر حاصل لامناص. المضحك أمام عيني خديجة الخضراوين وعتوّها الذي لايحتمل جعلنا نتشابك في باب المنية في شجار لم يسبق له مثيل، مثل جروين يبدآن كلّ بدوره بالهمهمة، ويمضيان يرفعان من وتيرتها إلى أن يصلا إلى النشب الأول للأظافر ثم إلى العض. كانت قاسية وخرساء بل وأكثر فظاعة لأنها الأولى، كما لوتكثفت فيها جميع المشاجرات التي لم تقم بيننا. كنا نتضارب مغمضي العينين في البداية بين ضحكات ثم بين ذعر ومحاولات جميع الحضور للفصل بيننا. وفي لحظة معينة وبينما أنا فوق يوسف فتحت عيني كي أضربه في أكثر الأماكن إيلاماً، رأيت إلى جانب عيني قبضته الصغيرة، مصممة على أن تضربني بحنق أيضاً. وبغتة طفحت بالرعب. وانفجرت فوق صدره أبكي بكاء أعتقد أنه كان مجهول السبب لي وللآخرين. لم أكن أبتغي بهذا البكاء المرّ أن أتلمس عفوه، الذي أعرف مسبقا أنه ممنوح، وإنما عفوي الذي سيكون الحصول عليه أصعب عليّ بكثير.

وفي يوم آخر ونحن نلعب لعبةَ عثورِ الواحد منا على الآخر دون أية علامة غير الأصوات، فرأسانا مغطيان تماماً وأيدينا ممدودة في فناء

بأعمدة ـ وكنا نعيش آنذاك في قصر صغير، لايبعد عن قصر محمد الثاني ـ . ناديته من جهة، ورفعت في الحال الغطاء الذي كان يغطيني، في حيلة مني، وعندما رأيت يوسف يأتي راكضاً، تفاديته بالوقوف خلف أحد الأعمدة. وراح يوسف ليرتطم به ويُجْرَحَ في أحد حاجبيه. وعندما كشف عن وجهه رأيته ينزف. كان الدم يصبغ نِصْفَ وجهه ويتقطر على صدره. أخرسني الرعب. نظفته ببرنسه ثم ببرنسي. وضعت شفتي على الجرح، كي أمنع، لا أدري كيف، انبثاق الدم أكثر. فكرت أن الجرح كان ينفتح مثل فم صغير... وصرخت. صرخت بقوة هدأتني، حتى جاؤوا ومعهم الطبيب ابراهيم وعالجه في الحال. لكنني لم أنس قط الطعم المالح والمعدني لدم يوسف. كانت المرة الأولى التي أتذوقه فيها.

هناك شخص ما كان قد كفل لنا أنَّ دهن الخروف ينمي الشوارب. وكانت هذه هي الفكرة الشاغلة لنا أنا ويوسف في ذلك الوقت، فكنا نَتَدَهَّنُ به طوال الوقت. وكنا نحمل الدهن الذي تمدنا به صبح في كيس معداتنا فنفرك به الشفة العليا خفية. كان الكبار يعتقدون مندهشين أننا لانتوقف عن أكل الخروف بل وأننا نتلوث بدهنه أيضاً. لكن هذا الهوس بالشَّعْر انتقل، بعد أن نصحنا المدافعون أنفسهم عن الدهن، إلى منطقة أخرى ـ بعض أولاد العمومة الذين يزيدوننا سنة أوماشابه ـ أن نحلق شعر أرجلنا مرتين أوثلاث مرات في الأسبوع، للإسراع بِنُمُوِّهِ. لا أدري ما الذي كنا نحاول حلاقته، لكننا اشترينا موسىً من حلاق العم يوسف، وفي غرفة سرية كنا نرغي الصابون على أرجلنا ونمرر الحد البارد عليها. كانت تلك المرة الثانية التي أرى فيها دم يوسف يسيل. عندما انزلقت الموسى في عكس الشعر ـ دون أن تحدث أي ألم في الظاهر، ذلك أنه لم يشك وكان أول من فوجئ ـ فانبثق من قصبة ساقه خيط قرمزي. لابدّ أنه تذكر هوأيضاً فضيحة العمود، لأنه قال لي كي يشجعني ويلهيني:

ـ اسكت هذه المرة وناولني حجر الشب، فقد قالوا إنه جيد لمثل هذه الحالة، ولاتحلق أنت، إذ لاأدري ما إذا كان هناك ما يكفي للاثنين.

لكن كان واضحاً أنني لا أملك أية نية على الإطلاق للحلاقة.

لم يكن من الممكن مقارنة الحقد الذي كانت تظهره لنا بنت العم خديجة إلا بالحقد، المصطنع طبعاً، الذي كنا نظهره نحن لها. وقد توصلت فيما بعد إلى أنها هي أيضاً كانت تصطنعه، لأنه كان يخجلها، تماماً مثلنا، أن تَقْبَلَ بعكسه.

في مساء من مساءات نيسان رأيناها تستحم وسط ضوضاء فتياتها، في بركة قصر محمد الثاني الكبيرة، وهوواحد من أكثر قصور الحمراء تناسقاً. [في الحمراء مساكن ملكية كثيرة. فكل سلطان، إذا كانت فترة ملكه مزدهرة وطويلة بما يكفي، كان يشيد مسكنه، محترماً مَسْكَنَ سابقيه، باستثناء يوسف الأول ومحمد الخامس، اللذين وسعاها. فالحمراء كانت كائناً حياً يكبر ويصير جميلاً مع الزمن. إلى أن جاءها، ككل كائن حي، يوم موتها.] كان القصر في تلك الفترة فارغاً، فالقائد الذي يشغله مات توّاً ولم يعين أحد مكانه بعد. كانت الفتاة المتمردة، بثيابها المبللة التي تشف عن جسدها، تبربط وتضحك بين الزبد، وتنبثق من الماء الأخضر تماماً كما كان يقول الإغريق إن أفروديت تنبثق. كانت تذكر بالإلهات، اللواتي ما يزلن ينتصبن حتى الآن في بعض الآثار القديمة المحترمة، بجمالهنّ. وقد أذهلتنا أنا ويوسف إلى حد أننا لم نجرؤ على أن ينظر الواحد منا إلى الآخر ومكثنا وقتاً طويلاً صامتين مرتبكين، كما لوأننا اخترقنا حرمة ـ وكانت كذلك ـ لم ينبهنا أحد إليها.

كان لا بد لحبنا المشترك لخديجة أن يقود إلى هدف ما. في أحد الأعياد، لا أدري ما إذا كان عيد الفطر أم عيد الأضحى. كنا نلقي، وقد شكلنا جزءاً من مجموعة من الفتيان، كما هي العادة، أزهاراً، حلويات، مياهاً عطرة، برتقالاً وليموناً، على بعضنا البعض. لكننا لم نفعل ذلك قط معها، والعكس صحيح. وبغتة، وكما لوأن حكماً في اللعب أمر باستراحة، توقفنا نحن الثلاثة وتبادلنا النظر بهدوء. كنتُ ويوسف متلاصقين تماماً. رفعت خديجة ببطء وتردد وردة بيضاء ثمّ ألقتها بقوة نحونا. أصابتني في صدري، فابتسمت لأول مرة لابنة عمي طافحاً بالعرفان، والفخار والرقة. لكنها قالت مرتبكة ويدها التي ألقت الزهرة أمام فمها:

ـ لم تكن لك، عفواً، لم تكن لك، كنت أريد أن أعطيها ليوسف.

ـ أنت غبية إذن ـ وبّخها يوسف ـ فأبوعبد الله أفضل مني بكثير.

وألقى إلى الأرض باللقمة اللذيذة التي كان سيرد بها عليها.

كان زواجي من مريمة موفقاً. لأنها وإن كانت لا تحمل دمي فإنها كانت تمدني بروح عدم التنافس بين الاثنين والثقةِ بنفسي، التي طالما احتجتها. مثلاً كنت في طفولتي أطلب من مرضعاتي ـ باستثناء صبح، التي كان انحيازها لايقبل الجدل ـ أن يكررن علي بأنهن يحببنني أكثر وأكثر وأكثر من يوسف، وإلا لما صدقت إنهن يحببنني، على الأقل مثله. فخديجة

ابنة عمي، المتكبرة والجريئة، كانت ستملأ حياتي بالتقلب. ومع ذلك، إذا كان هناك فراغ في داخلي (الذي تحول إلى مُتَبَرِّم صغير لاصوت له، وهولاينزف ولايؤلم ولايجيش)، إذا كان هناك ليأل أحس فيها بعدم رضى مبهم في داخلي، فهولأنني لم أتزوج من خديجة. إنها إحدى المخلوقات القليلات جداً المحظوظات، مثلها مثل يوسف، التي تعرفت إليها، واحدة من المخلوقات التي تعتز الطبيعة بها، وتتركنا نتأملها من بعيد، مثل هدية لم تخصص لنا.

منذ أسابيع فقط دخل يوسف إلى بيتي، بين القلق والمسرور. حدست ما كان سيقوله لي، قبل أن يتكلم.

ـ أنت تعرف أُمَّنَا كم هي متبصّرة، وكم هي قادرة على التحكم بحياة الآخرين. كيف تعتبر أنها غطت جناح علي العطار بزواجك، وقد قررت أن تستخدمني أنا من أجل أن تغطي الجناح الآخر.

ـ أي جناح؟

ـ جناح العم أبي عبد الله، غير المحمي. لن أقول لك إنني أضحي لأجلك ولأجل المملكة. لن أقول لك أَنْ تصدق أن الوضع سيسوء إلى الحد الذي ستحتاج فيه أية مساعدة كي تخلف والدنا. أعتقد أنها تخيلات من ينتهون، تَحْتَ ضغط الدسائس وزرع الشقاقات، إلى التوهم والشك بأن العالم كله يَقِفُ نَفْسَهُ للشيءِ نفسه. لكن وبما أن أمنا تصر على أن تجد مناسباً ما أجده أنا لطيفاً، فقد جئت لأبلغك: إنني سأتزوج.

ـ من خديجة؟

ـ من خديجة.

ـ فأنتما تعرفان (وعندما أقول أنتما، أقصد أنت وخديجة) منذ أن كان عمرنا سبع سنوات، أن هذا سيحدث. والأسوأ من ذلك، هوأنني، أنا، كنت أعرف أيضاً. أتمنى لكما من كل قلبي أن تكونا سعيدين. لايوجد عندي أدنى شك بأنها ستكون سعيدة معك.

وبدأت أنشد بعض الأبيات التي تعلمناها في صغرنا، دون أن نعلم بالضبط ما كانت تعني، ككلمة سر لتواطئنا:

أرى مسكة الليل البهيم غدت كافورة نقضتها راحة الزمن

فردّ علي بكلمة السر:

فقلت طيب بطيب والتبدل في   روائح الطيب شيء غير ممتهن

وختمتُ القصيدةَ بعدها بأقصى فرحٍ استطعته كي أفرغ انشغاله:

قالت صدقت ولكن ليس ذاك كذا   المسك للعرس والكافور للكفن

[من كان سيتصوّر آنذاك إلى أي حد كان ذلك نبوءة] .

[لم أنم قط بعمقٍ لكنني، منذ شهور لاأكاد أنام. كعلاج لذلك بدأت أستعمل وسيلة أعطت أحياناً نتائج جيدة وأحياناً أخرى أسوأها. ما أن تطفأ الأنوار وتسدل الستائر حتى أغمض عيني وأتصور مشهداً هوأبعد ما يكون عني وعن أرقي: وجهان بلا عمر ولا جنس، ينحنيان متحدثين فوق مائدة، عريشة وخادم تحتها يشتغل، رجل يدوس العنب، ينتعل نعلي العصر، أوحافياً، ويتوقف لحظة ليصغي إلى أحد ما يكلمه وأنا لا أراه. يتعلق الأمر بتثبيت الصور شيئاً فشيئاً للوصول إلى التركيز: أبدأ أراها بوضوح أكبر، وبالإيقاع نفسه لا أعود الشخص الذي يتصور، وأمضي لأصبح شخصاً يراقب. أي إن المشهد صار هناك وأنا خارجه كمن يرى خطاً أومنظراً، ربما وهويطل من نافذة. الخطر الذي أقع فيه عادة هوأنه إذا لم يأت النوم سريعاً، فإنه يتجاوز هذا الحد، يخلف النافذة وراءه ويدخلُ النائمَ ـ أوبالأحرى من يحاول أن ينام ـ إلى المشهد الذي كان عليه أن يساعده. وعندئذ تقع إحدى النتيجتين التاليتين: إما أن تزداد حِدَّةُ الاهتمام بما حدث في المشهد، ويتيقظ من كان يراقب غير مبال، تماماً، أوالعكس، يغلب عليه النعاس متأخراً تقريباً، لكنه محاط بهذه الظروف نفسها فيحلم، بالتالي، بالمشهد المتأمل، ويصبح الفاعل فيه جزءاً منه فيتدخل فيه دون إرادته. بالنسبة إلي كثيراً ما يحدث لي هذا، إلى حد أنني استطعت أن أثير لنفسي أحلاماً غير متوقعة على الإطلاق ولا تخصني نهائياً. لذلك أجهد نفسي في أن تكون الشخصيات غريبة عني وليس لها أية أهمية، وإلّا فإنها ستفرض نفسها عليّ بطريقة تجعلني أقع فيما لم أكن أريد، وأجد نفسي وقد تورطت في حالات بعيدة كنت أتطلع إلى نسيانها، في حوادث حاولت أن ألغيها، في مشاهد عنف وقعت ذات يوم وتركت أثرها فيّ، أوأنها لم تقع وأرغب لوأنها وقعت...

في الوقت الحالي أقاوم استخدام هذه الوسيلة. لأنني، مهما فكرت، ومهما كانت بداية الحيلة المستخدمة للنوم، لا أفتأ أحلم بالشيء نفسه. سواء أكانت مائدة وعليها نديمان تافهان وعاميان، أوأيكة يتنزه فيها عاشقان، يتوقفان ليتبادلا الدغدغات، أوبرجاً مرتفعاً حيث يوجد مُشَاهد

يُسَيطر على مشهد عام ليس له منظورات كبيرة... فالأمر سيّان. فأنا أنتهي لأن أرى، بين الأقمشة البيضاء وصرر الكافور، داخل صندوق تفتحه قليلاً بعض الأيدي،على صينية مغطاة بالكتان ترفعها يَدَا رجل أو إمرأة أوفوق وسادة كبيرة بين أزهار جميلة ومعطرة، أو وسط سراجين أشعلهما بسرعة شخص ظهره إليّ، أنتهي دائماً، دائماً إلى أن أرى رأس أخي يوسف مفصولاً عن جسده. وأسمع انتحاب النسوة يرتفع ويشتد على يوسف الآخر، يوسف القرآن، وما تبقى من الحلم مجرد صراخ، أريد أن أستيقظ منه ولا أستطيع، بركة دم خالص ما أن أنهض قافزاً حتى تجبرني على أن أنظر إلى نفسي وأنظر حولي، واثقاً تماماً أنني سأجد نفسي مبللاً به.]

في عيد المولد النبوي الذي صادف إتمامي الحادية عشرة، وفي الوقت الذي كنّا نحتفل فيه بمولد النبي، احتفلت ودون انتظار، دخولي سنَّ المراهقة، في هذه المتاهة المبهمة التي لايعرف الفتى، الانطوائي عمّن يبحث، ويتيه إلى أن يجد نفسه أمام مرآة مجهولة فيساعد نفسه بنفسه.

يَعْتَبِرُ المذهبُ المالكي الذي علمونا إياه في المدرسة، وكتبُ الشريعة والديانة نفسها، الرقص والغناءَ نوعاً من الفسق وتَنْزَعُ إلى الفجور. ويغيب الفقهاء عادة عن البيوت التي فيها هذا النوع من الاحتفالات. والدي نفسه، الذي لايطبق هذه القواعد، لايسمح، عندما يخرج في غارة، بالنقر على الآلات، حتى يجتازوا باب البيرة. ومع ذلك فإن غرناطة قد صمّت آذانها دائماً عن أية موعظة ضد الموسيقا. في يوم المولد هذا الذي أتكلم عنه لم يبق ركن دونها. فقد كانت المدينة كلها صدى حيّاً وطَرِبَاً لها. كان الغناء الأندلسي يسمع في كل مكان، هذا الغناء الذي يؤججني منذ أن وعيت نفسي: أغان تنتصب مثل قضيب سنبل الطيب، مثل رماح حادة، وتهبط فجأة مثل الجوارح بعد أن تستطلع، تهبط متأوهة وضاحكة في الوقت نفسه. ولا أدري ما إذا كان زرياب البغدادي، الذي كانوا يسمونه في قرطبة *الطائر الأسود*، هوالذي أوجدها، لكنني دائماً اعتقدت أنها تطلع من هذه الأرض تماماً كما تطلع الأزهار: من مناخها، من نورها، من وعيها للموت مختلطاً بلذة الحياة. تماماً كما كانت تطلع في

روحي، في ذلك المساء بانتظار المجهول.

أقام السلطان في الحمراء احتفالاً عظيماً لوجهاء المملكة الكبار، فسمحوا لنا، ليس لي وليوسف فقط بل ولبعض أخوتنا غير الأشقاء أيضاً بحضور احتفال آخر كان يقيمه ابن أحد الوزراء في بيته. واسمه حسين ولم نكن نعرفه، لأنه قضى السنوات الأخيرة في ألمرية مع بعض أقاربه الذين يعملون في التجارة البحرية. لوأنني انتقلت إلى ذلك المساء، الذي أراه اليوم بعيداً جداً، لبقيت حتى الآن أرتعش من بردِهِ. بينما كنا نعبر الحمراء للوصول إلى بيت حسين، الذي لايبعد عن بيت بني سراج، كنت أقوم بحركة كانت ترفع حولي جداراً غير مرئي: تقوم على الضغط على الفكين في نقطتي التحامهما، إلى أن يحدث في أذني دويّ يضاعف إحساسي بالبرد وبالإهمال. وما أن يعزلني الدوي الداخلي الذي يبعدني عن الآخرين جميعاً، حتى أرى بدقة أكبر الأوراق الجافة التي كانت تجرفها الريح وتدوّمها. كانت الجنائن قد تحولت إلى آثار جميلة وحزينة، الألوان الصفراء والترابية، والضاربة للحمرة تختلط وتنفصل، والمطر يهطل ناعماً وبلّورياً، يبعث من الأيائك رائحة تعفن طازجة. كنا نتدثر بمعاطف من صوف مخطط بالألوان، أي كان مظهرنا يدل علينا: بعض الأطفال، الذين يسمح لهم، لأول مرّة، بحضور احتفال خارج بيتهم، في غروب يوم خريفي. كم كنت غريباً عن أن تَتَحَطَّمَ طفولتي بين يدي في تلك الليلة مُحْدِثَةً الدويَّ الخفيفَ نفسه الذي يحدثه تحطم حُقَّةٍ فَخَّارية.

وحين دخلنا وجدنا أنَّ الاحتفال منظم بأفضل مما هومتوقع، لكنه أسوأ حسب المبادىء القرآنية. كان بانتظارنا عدد من المغنين الذين لم يكونوا يقدّمون في الحمراء ـ وبعض من سيذهبون فيما بعد إلى هناك ـ . والمغنون الغرناطيون ليسوا مشهورين في شبه الجزيرة وحسب، بل وخارجها أيضاً ـ في شمال جبال البيرينيه وفي المغرب ـ إنهم، مع الفارق الكبير بينهم وبين الآخرين، أعلى ثمناً. قدمت لنا بعض الجواري الموجودات هناك، المسطارَ وأنواعاً من العصير جميلة الألوان. كانوا يُحَضِّرون في إحدى القاعات لسهرةٍ بالنايات والمزامير والشبابات، لكنه كان واضحاً تحت صوت الماندولينات والربابات والأعواد، أن إيقاع الدفوف والطبول والصنجات غير المعتبرة بين النبلاء، هوالمنتصر. كان يُشْتَمُّ جوٌّ راقص ليس ممنوعاً لأنه شعبي جداً. كان يوسف قد احمر برداً وإثارة وكان يلكزني بكوعه ضَجَراً وتَوَاطؤاً.

كان يرافقني كلبي، *زين*، الذي ما زال حياً، لكنه هرم ويسعل كثيراً. عندما خرجت من البيت، استحالت قدرتي على إبقائه. كان مايزال جرواً، ـ مثلي، لكنه أشقر وأبيض ـ ، ممتلئاً، قليل حياء، لطيفاً وبلا تربية، مما جعلهم يمنعونني من حمله معي إلى أي مكان. لكنه كان قدراً، في تلك الليلة، أن يكون كل شيء مخالفاً.

بدأ الغناء، وكانت كلمات الأغاني تدل على مظهر الرقصة، وغير مفهومة بالنسبة لنا. امرأة كانت تغني[1]:

مَـعْ حـبـيـب وَحْـدَ الـفَـرَشْ
يَـعْـثَـرْ فـي ذَيْـلْ إذا الـتَـبَـسْ
يَـقُـولْ بِـعَـيْـنْ أهْـمَـزْ وَبَـسْ
حـتّـى يَـغـرّق رَشْـقَ الـسِـهـام

همس حسين، المضيف، في أذني:

ـ هذا زجل لشاعر قرطبي قديم ومستهتر. قالت لي المغنية إنه في الأصل يتكلم رجلٌ عن رجلٍ آخر.

لم أفهم ما كان يقوله لي والتفت بوجهي لأطلب توضيحاً، كان منحنياً عليّ بحيث أن وجهينا التقيا. تابعت المغنية[2] :

مَـنْ نَـحِـبّ يَـقُـلْ «يـامَـوْلاي» يَـابْـنِ اقْـلَـبْ تَـضْـيـبْ
يـاحَـبـيـب، قُـلْ «آنـتَ هُـ الـدُنـيـا وَالـزَمَـانْ الخصيبْ
إنّمـا أنْ نَـكُـنْ آنـا مَـوْلاكْ فَـكَـلامـاً مُـحَـالْ
لاتَـقُـلْ لـي مِـنْ الـبـرور إلّا مَـا يَـجُـوزْ أنْ يُـقَـالْ
والـذي يَنْتَقَصْ مِنَ التَبجيلْ زِيـدْ لـي فَـالـوِصَـالْ
وَلاَ تَحْبَسْ في صَدْرَكَ القِطْران وَفـي فُـمّـكْ حَـلِـيـبْ

فكرت بشكل مبهم أن حُسَيْناً لم يكن يبعد وجهه عن وجهي بالسرعة المطلوبة، ولاحظت أنه متورد ومتأجج. حاولت أن أبتعد بالتقدم خطوة إلى الأمام، لكنني لم أفعل رغم محاولتي. وبعد لحظة جلس حسين وشدني بشكل خفيف من جلبابي كي أفعل مثله. أرضيته وجلست. في هذه اللحظة راح *زين*، الذي سر للوضعية الجديدة التي تسمح له أن يلتصق بي بشكل أفضل، يقفز حولي. أنبته، بل وضربته بزناري وهوأمر غير مألوف ـ فقد

---

(1)، (2)، (3) زجل شعبي لابن قزمان الأندلسي (المترجم).

كنت أُدَلِّلُهُ كثيراً ـ مما جعل يوسف ينظر إليّ من بعيد باستغراب. لكنني كنت أريد من الجميع أن يتركوني بحالي. كنت مضطرباً دون أن أدري لماذا، أخشى أن أبدو لشاب البيت صبيانياً أكثر من اللازم، والذي لم يكن من جهة أخرى يكبرني بأكثر من عام أواثنين.

ـ لا يزعج، اتركه. إنه ظريف جداً ـ قال بينما كان يداعب زين.

كانت يده، التي تهتزّ بفعل حركات استظراف الكلب، تحتك من حين لآخر بفخذي، رغم أنه كان يسحبها بحشمة. أوبحشمة محسوبة. لم أكن أعرف ما كنت أريد، ولا ما إذا كان علي أن أريد شيئاً. فقط كنت أعرف ماذا كان يريد زين: أن يلعب مع أي كان، وما يريد يوسف، الذي كان يومئ إلي لأتبعه إلى خارج القاعة. لكنني تظاهرت بالشرود وبقيت بلا حراك. شعرت أن خدّيّ احمرّا وأن جسمي يشع حرارة. كانت الموسيقا تزدادُ بهجة مرّةً بعد أخرى. توقف الزمن، أوربما جرى بسرعة أكبر. لأن الفتى الذي كان يغني وقتها لا يتجاوز التاسعة من عمره.

ـ إنه ابن حداد ـ علّق حسين، بصوت منخفض إلى حد أنه لامس أذني بشفتيه ـ سترى كم يغني جيداً (3).

شَفَيْفَه الكاسْ نَريدْ نَرْزَمْ والمِسكِ ثَم
في ذا الزمَان يحتاج الإنسان يَرْجَعْ خَليعْ
اذا انْتَلَفْ كاسٍ فالبستان بيْن الربيعْ
الوَرْدِ نجني دَنَا نَرْضَعْ فَمْ القطيعْ
أمّ الحَسَنْ فَوْق تَتْكَلم وما تَتَمْ

أخذ حسين الكأس من يدي بأدب وشرب جرعة منها وهوينظر إليّ. أعادها بعد ذلك ودون أن أنتبه شربت أنا أيضا. في قلبي كانت تحلق فراشات، وكان خفقانها من القوة بحيث أنني استغربت أن تبقى الموسيقى مسموعة. أخذ حسين يدي التي تمسك الكأس وجذبها نحوه. اعتقدت أنه كان سيشرب من جديد، لكن لا، قرّب فمه وقبّلها ثم همس:

ـ لأنني قبلت يدك، سَيُقَبِّلُ الملوك يَدَكَ.

وغرز عينيه في عينيّ.

كنت أسمع ضحكة يوسف الذي لاذ مع فتية آخرين إلى قاعة قريبة. وظننت أنه لن يفهم ما كان يجري معي، ببساطة لأنني لم أكن أفهمه أنا ولا أعرف كيف أشرحه له:

قلبي يطقطق عن الرّبيع يدْ نوْق
وعن شزيبه وعن مليح معشوقْ
ولش تخلّي (لـ) باب داري مغلوق
وذا النّوّار قد فتح لي ألوان

ـ هل ما في الكؤوس نبيذ؟ سألت حسيناً ملتفتاً إليه.

لوحدث ذلك لكان مبرراً لسوء أوحسن حالتي. رأيت وجهه من الأمام: كان مليحاً، بعينين تقدحان بريقاً، وأسنانٍ تطل من بين شفتين طريتين.

ـ لا ـ أجاب، وأضاف مبتسماً ـ في الكؤوس لا. يوجد نبيذ في كل ما عداها. أخوك ساحر وأجرأ منك. أتعلم ماذا يفعل؟ يدخن الحشيش في الداخل هناك. هل تجروٌ أنت على تدخين الحشيش؟

ـ أفضل أن أبقى هنا ـ تمتمت، لكن حسيناً لم يسمعني.

ـ ماذا قلت؟ ـ سأل مقترباً أكثر.

ـ إنني أفضل أن أبقى هنا.

ـ وأنا أيضا ـ ألمح. ووضع يده فوق يدي ـ . رغم أننا سنكون أفضل في مكان آخر.

ـ أين؟ ـ سألته.

ـ تعال.

حملني دون أن يفلت يدي إلى حجرة صغيرة ومنعزلة. كان زين، الذي رافقنا يقفز حولنا سعيداً بالتغيير. عدت لألوم نفسي لأنني لم أربطه في البيت. كان حسين يداعب وجهي بيد وخصري باليد الأخرى. كنت أجهل ماذا أفعل بيدي، ترددت، إلى أن وضعتهما، كما لولم تكونا لي ـ أو ربما هما توضّعتا ذاتياً ـ على وركيه. كنت قد خفضت عيني وسمعت نفسي أتنهد. رفع حسين ذقني وتناظرنا: كان العالم كله عينيه. إلى حد أنني اضطررت أن أغمض عيني. ثم قبلني من فمي. كنت أشعر بسيقان ووعوعة زين الذي يطلب انتباهي، المركز بالكامل في مكان آخر. كنا نسمع صوتاً يغني:

بفمي يمرُّ الشرابُ المسكرُ ودخانُ الكيفِ العطرُ
بقايا الشراب تخرج من مكان لا أقول وبقايا الدخان ضحكات وبخورُ

كان فم حسين قد تأخر على فمي. ولكي أستطيع أن أتنفس فتحت

شفتيّ قليلاً. تصورت أسنانه الكبيرة بعض الشيء وشفتيه، التي رأيتها عن قرب قبل قليل. لكنني تساءلت لماذا عليّ أن أتخيلها إذا كانت الآن بين أسناني وشفتيّ.

إذا شَرِبتُ هي راحة الأرواح
إذا شَمَمتُ فعنبراً فوّاح
إذا نَظَرتُ نَسْتَغْنِ عن مصباح
وإنْ خَبِشتُ، مَليح هو خُبْشان

كان جسدانا، المستند الواحد منهما إلى الآخر، يتحاكان ويتضاغطان. شيء ما كان ينموفيّ، يتمدد فيّ بألم غير معهود. عانيت من دوار، أغمضت عيني في الفراغ، ودفعت وركيّ إلى الأمام فجأة. رفع حسين طرف جلبابي وأدخل يده تحته. داعبني حيث يوجد شيء جديد يتآمر على مايبدوعليّ. دفعني باليد الأخرى من كتفي إلى الأسفل، وانحنينا فوق بعض الوسائد. أخذ يدي ووضعها بين ساقيه، عندئذ فهمت ما الذي كان ينتصب بين ساقيّ. أحد غنّى، فتردد صداه في داخلي:

حطّ على جزعي أيها الحسون
غرّد وامرح
ترنح واصدح
ابنِ عشّك في صدري
فما عاد له عمل يجدي

استلقى زين، الذي أهانه إهمالنا، إلى جانبنا، ينظر إلينا معاتباً ويقظاً ومتوسلاً. كان حسين يداعبني وأنا أداعبه. جاءت لحظة، زاغت عيناي فيها، واعتقدت أنني أموت على الوسائد وأن الحياة تهرب مني ولن أستطيع أن أنتصب أبداً على قدميّ أوأري أوأسمع. فتحت عيني لأن زين كان يشم بطني المبلل بشيء لم أره من قبل. كان حسين يرقد ملتصقاً بي أكثر من اللازم بقضيبه المنتصب يحميه من زين الذي كان يحاول بكل الوسائل أن يلعقه.

ـ زين ـ صرخت، أو لا أدري إذا ماكنت قد صرخت ـ زين!

ـ هويعرف مايفعل ـ ابتسم حسين ثم أضاف بعد لحظة من الصمت ـ هيا بنا إلى حيث الآخرين.

بدا لي أن سنوات مضت ونحن منفصلين عنهم. عندما عدنا إلى القاعة الرئيسية كان ابن الحداد مايزال يغني بصوت الطفل، الأبيض

والحاد:

أيها الحسون، دعني أُقبِّلُ مِنْكَ الجيدْ
في وَدَاعٍ مِنْكَ تدري

داعب حسين عنقي دون التوقف عنده.

ـ عندك أجمل جرو في العالم ـ قال لي.

ـ ابقه لك. أريد أن أهديك شيئاً بمناسبة عيد المولد واحتفالك.

ـ صحيح؟

ـ ليس أحب عندي من هذا، شريطة أن تتركني أزوره من حين لآخر.

ابتسم وأحنى رأسه احتراماً وشكراً ونادى *زين*، الذي ركض نحوه وكأنه فهم أنه بَدَّل صاحبه، وراح يقوم بحركات تملق، يهز، ليس ذيله وحسب، وإنما عجزه بل كل جسده تقريباً.

لم أستطع النوم تلك الليلة. كنت ممسوساً بسعادة صاخبة. أوربما ليست سعادة، لأنني كنت أفترض أن هذه يجب أن تكون شعوراً أقل تعذيباً. ما لم يتركني أنام هو التوتر الذي كان يعيد مشاهد الحدث واحداً واحداً، الحاجة لئلّا ينقضي الليل، وفي الوقت نفسه أن يأتي النهار فأتأكد على ضوئه بأن كل شيء كان حقيقة، وأنني رغم كل شيء ما أزال أنا نفسي. كنت بعيني المفتوحتين في الظلمة أحس بأصداء لم أحس بها من قبل في ليالي الحمراء: أصوات الماء الهشة والمتقطعة، صليل أسلحة الحراسة البعيد، الهواء الساهد يبلبل الجنائن، الصمت المتناغم الذي طالما سمعته بعدها يهبط من النجوم. بدا لي، أخيراً، أنني عرفت من كنت ولماذا...

غفوت دون إرادة مني. يجب ألّايكون قد مضى وقت طويل عندما أيقظتني لعقات زين الشرهة تبلل وجهي. ابتسمت دون أن أفتح عينيّ. فكرت ما أسهل طريق العودة، الآن وقد بدأتُ طريقَ ذهاب لا أعرف أبداً إلى أين سيقودني. تنهد الكلب، تنهدت، ونمنا متعانقين.

مرّ يومان قبل أن أعود وأرى حسيناً. كان ذلك عند الخروج من صلاة العصر في مسجد الحمراء. حيّاني بلطف. بحثت عيناي الطافحتان جِدَّةً عن عينيه، لكن الخيبة خفضتهما: كان حسين ينظر إليّ باللامبالاة

نفسها البسيطة التي ينظر بها إلى الأشجار، المِئذنة، الأسطحة الخضراء، المساء المنحدر الخفيف الذي يهبط حتى مدخل القصور الرئيسي ووجوه من يحيطون بنا. سألني عن زين وحكى لي أنه لم يمكث عند قدميه، في تلك الليلة، مدّة احتراق شمعة. إذ ما إن أطفأ السراج حتى هرب من غرفة نومه.

عاملني حسين بعد ذلك وكأن شيئاً لم يحدث بيننا. وكان ذلك بالفعل: فلا شيء مهمٌ حدث. ومع ذلك تأخرت في اكتشافه. وعندما اكتشفته، كنت قد غادرت الطفولة وللأبد.

كنا نلعب، بين درس وآخر، في مدرسة الأمراء داخل حظار القصور. كنا اثني عشر أوأربعة عشر. وقد أرسلوا لنا، منذ وقت قصير، بعض الألعاب: بعض المُهَر الرائعة المصنوعة من الخشب بألوان براقة مع لوازمها من قماش مخطط ومطرز. كنا نربطها إلى خصرنا كي نلعب برمي القصب، وكان مُهْرُ أخي نصر قد اصطدم تواً بقوة بمُهْري. فكسر أذنه، كنت أمسكها بيدي وأنظر إليها بحزن، أحاول أن ألصقها من جديد بالرأس، عندما دخل خادم من بيت أبي وقال بحزم متوجهاً إليّ:

ـ السلطان، بارك الله به، يريد أن يراك في الحال.

ساد الصمت في الفناء. ربما أخافني ذلك الصمت أكثر من الرسالة. فوالدي لم يرسل في طلبي قط ولم أره بمفرده في حياتي. ففككت المهر، وضعته بعناية فائقة، ـ لاأدري ما إذا كان من أجل كسب الوقت أم للتظاهر بهدوء لم أكن أشعر به ـ في زاوية من الفناء. نظرت إلى يوسف، الذي حيّاني بيده، كي آخذ نفساً، وتبعت الخادم، سائلاً نفسي ما الذي ارتكبته من خطأ، أوأية شكاوى قدموها لوالدي كي يقطع عليّ دروسي بهذه الطريقة الصارمة ويطلبني أمام الجميع.

قادوني إلى قاعة المجلس، وهذا مازاد في توتري، إن كان هناك مكان لزيادة في التوتر. كنت قد دخلت مرة واحدة فقط إلى هناك، برفقة واحد من معلميّ، كي أطلب من وزير الصفح عن خادم لنا كان قد أحرق، بمجمرة، طرفَ إحدى السجادات. ونظراً للنور الباهر في الخارج، لم أميز حين عبرنا القوس، أيّ شيء. بعد ذلك رأيت أبي، لم يبد لي قط مرعباً إلى هذا الحد، ربما لأنني لم أره من قبلُ يقوم بأعماله كملك، أوربما لأن

حالتي النفسية كانت تضخمه. اعتقدت في البداية أنه وحيد: أنوفٌ، بحاجبين كثين مقطبين، وعينين تبرقان كما لوبغضب متواصل. يبدوأنه كان يرتدي لباساً داكناً لأنني لم أميز غير وجهه المحاط بلحية سوداء ويديه القويتين والطويلتين.

ـ اقترب ـ قال لي.

كان جالساً فأشار إليّ بالجلوس قُبالته. وعند ذلك استطعت، بعد أن تكيّفت عيناي مع النور، أن أرى رجلين يحيطان به. الأول استطعت أن أحدد أنه كبير الوزراء أبوالقاسم بنيغش، أما الآخر فلم أكن قد رأيته قط. كان الوزير ناحلاً جداً وعريض المنكبين بلحية طويلة ليست بيضاء كلياً. أما الآخر، وكان قصيراً وبديناً له مظهر رجل طيّب، فيه بعض الخبل، فقد ابتسم حانياً رأسه عندما لاحظ أنني أنظر إليه، كان أفتى من الاثنين الآخرين. تَكَلَّم والدي:

ـ عندما وُلدْتَ لم يكن الفأل الذي قاله لنا المنجمون مؤاتياً. أنا لاأؤمن به، ما لم يكن مناسباً، خاصة إذا كان صادراً عن منجمين مخادعين، أومدفوعاً لهم من أعدائي. وبالفعل فإنَّ منجّمي جدّك لم ينظروا إليّ قط كصديق.

كنتُ قد ولدتُ قبل عامين من تنحية والدي لجدي عن العرش. وفي محاولة من المنجمين الرسميين لمساندة السلطان العجوز، أو ربما ترشيح عمي أبي عبد الله، قدّموا من جعبتهم كلّ ماكان يمكن ألّا يكون لصالحي وبالتالي، لصالح والدي. كانت العلاقة بين والديّ، أكثر انسجاماً مما صارت إليه فيما بعد، فزورت والدتي يوم وساعة ولادتها لي لتمتلك الحجة لرمي نتيجة كشفهم للطالع أرضاً، منطلقة بذلك من اعتقادها بسوء نية العلماء. لذلك لم أعرف قط اللحظة التي ولدت فيها. المسألة أن الفؤول جميعها كانت متفقة على أنني إذا جلست على العرش يوماً واحداً فإن المملكة ستضيع معي. وكانت مثل هذه اللعنة قد ألقت بثقلها عليّ بشكل بغيض، حتى ولولم يؤمن أحد من ذوي الشأن، بشكل مطلق، برسائل النجوم، ـ كما قال والدي ـ إلّا عندما يكون مناسباً لهم. وقد عرفت قبل أشهر أن أنصار عمي أبي عبد الله، استخدموا هذه التنبؤات الضارة بي خلال أيام تمردهم الفاشل على والدي.

كان الوزير والمرافق الآخر يصغيان لوالدي وعليهما علامات الموافقة. كانا واقفين وأنا جالس، الأمر الذي أقلقني، لأنني أستبقت ما

كان سيبلغني به.

- تجري أيام سعد ممتازة بالنسبة للمملكة. فالملوك المسيحيون يتشاجرون فيما بينهم ومع البرتغال أيضاً، بينما اقتصادنا معافى، ورعيتنا تعيش هادئة سعيدة. والعملة قوية بفضل حكومتي، الزراعة مثمرة، الضرائب محتملة، والجيش مدرّب وجاهزيته جيدة. لاتظهر غيوم في الأفق. [كذلك لم تظهر خلال أيام العرض الكبير وعندما ظهرت، كان قد فات الأوان.] من هنا تكون هذه اللحظة المثالية كي تبتديء بالمهمات السياسية. هنا يوجد اثنان من الأشخاص الذين سيعملون أدلاءً معك في هذا الواجب. أعرف أنك أصبحت تملك معرفة كافية بالكتابة وبالقرآن. من الآن فصاعداً يجب أن تتبنّى وجهة نظر الأمراء النصريين. أهم وأسمى التعاليم هي التي تؤدي إلى قيادة شعبنا وهي الطريقة للحصول على السلطة والمحافظة عليها فيما بعد في أيدينا. إذا استجبت لهذا الطلب، سوف تكون خليفتي عندما يأذن الله، وإذا لم تستجب فأمير آخر سيحل محلك في هذا الامتياز. إذن قدرك يتعلق بك أنت، وليس بالمنجمين التافهين الذين تطلعوا إلى تعكير أملنا.

أشار إلى اليمين.

- هذا هو ذراعي الأيمن في الحكومة، كبير الوزراء بنيغش، وأنت تعرف أنه يتمتع بثقتي المطلقة. ما من رجل يستطيع أن ينيرك مثله، ولا من يرشدك أفضل في الرحلة التي ستبدأها عبر بحر السياسة الهائج. الكائن البشري يعيش زمناً قصيراً جداً ومضطرباً. عصرنا مضطرب وحرج، وفي جزء كبير منه يدنا هي التي ستحدد سمت واتجاه الأحداث فيه. مبدئياً، الشجاعة والتفاني والدفاع عن مملكتك حتى الموت فضائل مفروغ منها، ويجب أن يضاف إليها المهارة، الفرصة المناسبة في الأعمال واستباق الأعداء، الذين يحيطون بنا من الداخل والخارج. - الثلاثة أظهروا تواطؤهم بابتسامة - . لا أستطيع أن أرجوك مُصِرّاً على أن تدرس وتتمثل، وتختبر وتجتهد في إدراك كل مايجري حولك، حتى إذا حانت ساعتك (ومن المحال أن أرغب أن تكون قريبة) - ابتسم الثلاثة من جديد - حكمت بدقة وعدل ومنفعة.

أشار إلى اليسار.

- هذا الشخص الآخر، هوأبوعبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي. رجل مشهور، شاعر وعالم. هوالذي سيوجهك إلى أسرار وخفايا البلاط، والمراسم والجلالة، غير سهلة المنال دائماً، خاصة في البداية

عندما لاتكون القوة بعد كافية لقطع العقد بضربة واحدة واتخاذ القرار بعنف. آمل منك ومنهما أن تعملوا عملاً يرضي الله. ومنكما ـ أضاف متوجهاً إليهما ـ آمل أن تعملا مايرضيني ـ وختم ناظراً إليّ ببرود ـ . اذهب الآن. لاتحك شيئاً عن هذا الاجتماع، ولا لأمك. بالأخص أمك ـ ابتسم وعاد مساعداه فابتسما ـ . اذهب، بسلام واعمل. فانتصارك وانتصار المملكة سنكتبه بتعاوننا جميعاً آخذين بيدك.

نهضتُ، شكرتهم بارتباك، حييتهم وخرجت.

انضم إلى بنيغش والعقيلي معلّم أسلحة وحاجبٌ للخزينة. علّمني معلم الأسلحة أنواعها واستخدامها واسلوب اختيارها والاستفادة منها، وأيضاً كيفية استخدام الجنود، الذين تجب قيادتهم وتشجيعهم، في السلم أكثر مما في الحرب تقريباً.[ومع ذلك فإن أحداً لم ينبهني إلى أن المدفعية ـ إحدى الطرق الجديدة لصناعة الحرب ـ كانت ستجلب لي أكثر المضايقات جدية في حياتي. جميعنا كنا نسهوفي المملكة دون أن ننظر ـ لا بالسلاح ولا بشيء ـ إلى الأمام، بل إلى عادات وتقاليد الماضي.] لكنه كان يحدثني عن الخيول أكثر من أي شيء آخر. أعطاني *كتاب الأعلام والرايات* لأقرأه وأضاف وهوينصحني:

ـ عندما أراد الله أن يخلق الحصان العربي الجميل، حسب الأسطورة، توجه إلى ريح الجنوب: «ستنجبين مخلوقاً له قدرة من يدافعون عني وقوة من يطيعونني» . لذلك نبَّهنا النبي إلى أنَّ من ملك حصاناً ورعاه رعاه الله ومن ملك حصاناً وازدراه ازدراه الله. إنه يمثل سرعة نصرنا في العالم الواسع. لايوجد شيء آخر أرشق ولا أخف حركة منه ولايماثله شيء آخر في وداعته وانقياده، ما من حيوان آخر أكثر ذكاء لتعلم الفرح، أوللقيام بمعجزات الخفة. تذكّر هذا: لاتطلب أن يقطعوا ذيله الحريري الطويل أبداً، لاتقلد تلك الشعوب التي تقطع رؤوس ملوكها، بالموسى نفسها التي تقطع بها ذيول خيولها. رجل الحرب القشتالي ـ قال وهويفرِّغ صدرَه ـ تثير الضحك رؤيته، هذا إذا استطعت أن تراه لأنه يضع خوذة لها حافة صدر درع مزدوج، واقي أفخاذ، غريفاس ونعلين من حديد. عنده جواد رئيسي يغطيه أيضاً ببردعة على الردفين والرقبة والصدر والقائمتين الأماميتين، وآخر ليحمل المعدات أوليحل محل الأول، المنهك بهذا الوزن. هذا الفارس، الثقيل مثل فيل، يحمل رمحاً طويلاً جداً، تحت ذراعه وفي جيب من الجلد متصل بالسرج من جهة اليمين، وسيفاً

ودبوساً وطبراً. على العكس من فارسنا، فهويحمي نفسه بدرع أخف، ورمح أقصر ودرقة وخنجر. وبينما القشتالي يستخدم ركاباً منخفضاً، فان ركابنا أعلى ونمتطي مقلصين أرجلنا، مما يجعل حركاتنا أسهل وأخف. لاشك أن القشتاليين قلدونا منذ زمن، ومع ذلك من المستحيل عليهم أن ينافسونا، لأن الحصان حليفنا.

وقد أطلعني حاجب الخزانة، واسمه أبوالقاسم المالح مع معلم الأسلحة في صباح طويل، على الثروات المحفوظة في أقبية القصر الرئيسي، الذي كان يسكنه آنذاك والدي. وقد كان ملوك غرناطة، الزيريون منهم أوالنصريون شغوفين بتجميعها، لذلك كان ملوك الطوائف يسموننا *بالعقاعق*. ثروة الزيريين انتزعها منهم المرابطون، ترى من سينتزع ثرواتنا منّا؟ عندما رأيتها بدت لي باهرة ولا تحصى: ما من حرب أوكارثة تستطيع أن تستنفدها. [اليوم أعرف أنني لم أكن على صواب، وأتذكرها، وقد ضاع معظمها، أكثر مما تذكرتها في اليوم التالي من اطلاعي عليها.]

دخلت في نفق محفور في حجر السبيكة الأحمر، يرشح الصمت والرطوبة من جدرانه. فقد بنت القرون هناك ثقباً طويلاً يودع فيه دون سرعة، أفخم وأغرب مايمكن أن يوجد. في القاعة الأولى كان يوجد من الأسلحة ليس مايكفي الجيش المحترف الغرناطي (الاحتراف كان موجوداً من أيام المنصور) الذي كان مالكاً لسلاحه وحسب بل والجيوش الطارئة، المجمعة نتيجة لأحداث معينة أولتجنيد مفاجئ.

ـ فيها يندرج، لنقل تطوعاً، المهنيون، التجار ومواطنوالمملكة، منظمين حسب البلدان، أوالإقطاعات والأسر، وكذلك مهنيو وتجار ومواطنو العاصمة ينظّمون حسب النقابات والأحياء والأبواب.

هكذا شرحه لي معلم الأسلحة، في تلك الفسحة المظلمة والهائلة، حيث كان صوته ووقع خطواتنا يَتَرَدَّدُ مرة بعد أخرى إلى أن تتلاشى. وخلال ذلك كان يريني حزماً غليظة من آلاف الرماح المسننة أوذوات الحدين والطبر، والفؤوس، والدبابيس والنبوتات ذوات القبضات الواسعة والمرنة، أقواساً ونبالاً مجهزة بعدة شفرات، سهاماً مريشة، وأقواساً قوية ورشيقة. آلاف الدرق مكومة عل شكل أهرامات ومصنفة حسب المادة المصنوعة منها وحَسَبَ مقاومتها وعَمَلِها: كان هناك تروس دائرية من الخشب، درقات من جلد الثور أوالحمار الوحشي أوالريم

الصحراوي، عليها تزيينات معدنية متدلية وجميلة، شباك وخيزران، ودروع وزرد، خوذ وبيض. في قاعة خلفية، سروج مطعمة دمشقية وتونسية، مصنوعة من قشرة مطوية، دروع مشغولة ودروع مطعمة بالفضة ومعروضة فوق دمى خشبية، إلى جانب أطقم الخيول، والرايات والبيارق والأشرطة. وقريباً منها عدد من الخناجر والحسامات والخناجر المغربية والمدى والسكاكين والسيوف والأبواق والطبول التي تواكب عبور الجيش.

في طابق أسفل، ـ هبطنا إليه بدرجات متآكلة منحوتة في الصخر الحي، ـ تحفظ أسلحة السلاطين والأمراء: خوذ مُعَشَّقة بالذهب والحجارة الكريمة، سيوف قتال واستعراض مغطسة بالمينا ومزخرفة، سلاح أبيض للاستقبالات مطعمة بالدرر والياقوت والزمرد، مهاميز، ركابات، لجامات من فضة للسباقات، أسرجة موشاة بالذهب، معدات الفروسية، سواء ماهوللحرب أوالمبارزة، تجفافات الخيول والسلاسل، دروع صممها وزينها أفضل صاغة وأدق جوهريي الأرض...

ـ جميع أدوات الهجوم والدفاع التي ابتدعها الإنسان ليزرع الموت بها بشكل جميل ـ قال المالح.

في الغرف التالية وهي أكثر جفافاً وعزلة، توجد الأثاثات والملابس العائدة لملوك الحمراء على حصر القش (السيزال) والقنب. يَتَكَوَّمُ السجاد والقطيفة الملفوفة وتصطف في حراسة دائمة الخزائن والصوانات وخزائن الثياب والصناديق والأدراج. وعند مروري فتحت أحد الأدراج دون تعيين فانبثق مايشبه السم الجاف أو قوس قزح انطلق من أحد الأثواب. فكرت أنني، مهما عشت، لن أستطيع أن أظهر، حتى ولولم يكن إلا لثانية واحدة، بكل ملبس من هذه الملبوسات الموجودة هناك ـ البرانس، الجبات، السترات والقلنسوات والمعاطف، وما لاأدري ـ محفوظة بانتظارٍ حزينٍ ومكفهرٍ.

ليس بعيداً، هناك آلاف الأغراض المعدة لزينة البلاط ولتفاخرات السلاطين: منابرُ الشرق الخشبية، أكاليل من خرز، طيافر دمشقية معشقة بالصدف، قاشاني صيني، أكواب عراقية، كؤوس من تبشير، جلود من قرطبة، وسلسلة لامتناهية من الفخاريات والزجاجيات والمرصعات. رأيت مئات الآلات الموسيقية: نايات، ماندولينات، ربابات، أبواقاً إيطالية، شبابات، دفوفاً، مزاهر، أبواقاً وأعواداً وقيثارات، رأيت كميات كبيرة من المباخر، ثريات وشمعدانات مطعمة بالعقيق والجزع اليماني، مرايا من

فضة أوذات إطار ذهبي وطارة من الماس... كل ذلك كان ينتشر أمام عيني الفتيتين مثل حلم، أومثل حكاية من حكايات *ألف ليلة وليلة* يمكن أن تلمس.

ومع ذلك فالذي لفت انتباهي أكثر كان شيئاً لايلمع: أكداس عالية ومحفوظة من المهرق والورق القرمزي: المستخدمة في أمانة الدولة للمراسلات الرسمية. سألت:

ـ هل أستطيع أن آخذ بعضها؟

ابتسم المالح، الذي كان يرافقني:

ـ ليس هناك خطر أن تزوّر أية رسالة ملكية: مايزال ينقصك الخاتم. خذها.

أخذت كدسة صغيرة. بعد ثلاث سنوات بدأت بكتابة هذه المذكرات الخفيفة.

وفي ممر عريض، قريب من خيام حرب كثيرة مطوية لمحت فيها الترف والألوان، كمية هائلة من الساعات الرملية وساعات معقدة تقيس الوقت بالماء، مقرابات طويلة، اسطرلابات، أجهزة كنت رأيت منها في بيت الطبيب ابراهيم، أدوات كيمياء غريبة، منفاخات ومعوجات، حواجل، ألواح هندسية وأجهزة ومعدات أجهل غايتها وعملها، وما أزال أجهلها حتى الآن. وعلى رفوف تستند إلى جدران أكثر صقلاً ومحمية بالجلود مخطوطات قديمة وكتب متقنة وفاخرة التجليد. نظرت إليها بإشفاق عندما رأيتها بعيدة عن قدرها من القراءة والدراسة. وقلت في داخلي: «عندما أحكم، إذا حكمت، ستصعدين معي، ففيك تكمن الجلالة الوحيدة» ، وودعتها دون أن أستطيع أن أرفع نظري عن معناها: لأنها هي الأثر والتعبير عن المعرفة، عن العلوم، التي شهرتنا في تاريخ العالم، في الأدب الذي يضم كلمات الحب والحزن، والتي يمكن للبشر أن يدركوا الخلاص بها.

ومع ذلك فقد كان مايزال عليّ أن أرى ماهوأروع. خلف باب لايفتح إلّا بخمسة مفاتيح، يحجز كل واحد منها نقيب مختلف، توجد غرفة الكنز الملكي. في الوسط منضدة طويلة ألواحها من العقيق وقوائمها من الذهب. عليها أكبر كمية من الحجارة الكريمة يمكن أن تخطر ببال. وفي الجوانب آنية من زجاج توضع فيها مرتبة حسب حجومها وألوانها. ورغم الظلمة المخيمة هناك في الداخل فإنه كان يحدث مع حركة المشعل الذي كان يحمله المالح حريق بارد حقيقي. وأنا غير قادر على وصف

تنوع الحجارة غير المركبة التي تشتعل هناك، ولا أن أغامر بعددها. فقد كان وميضها الذي يعمي، يعطي ألوان الفراشات، يخفق، ينطفيء، يتحرك من جانب إلى آخر، يصاب بالعدوى، فيشتعل ويقفز من إناء إلى آخر.

في طرف كانت تزدحم، في صناديق كبيرة ومتوسطة من جلد، النقود المصكوكة من الذهب والفضة وكذلك أكياس مليئة بالذهب المسحوق وبالسبائك والقضبان. في الطرف المقابل حلي السلاطين ونساء البيت الملكي: تيجان، سوارات، أقراط، أطواق، خلاخل، خيوط برؤوس معدنية، كل مابتدعه التفاخر للتجميل أولإثارة انطباع العظمة والثراء. وبدل أن أشعر بنفسي مفتوناً بتلك الحلي، التي انصبّت فيها رغبةُ وفنُ رجالٍ ونساء كثيرين ماتوا لم أشعر تجاه مابقي بعد موت أصحابه أنفسهم إلاّ بالازدراء. ربما ولأنها مكومة بكميات تفوق أي قياس، كانت تفقد ذلك الشيء الذي كانت تطمح لأن تكونه: فريدة لاتتكرر، ممدوحة من شخص واحد لايتكرر أيضاً. فلأنها مختلطة بعضها مع بعض وتؤلف أتوناً من البهاءات، كانت تشبه كومة من الترهات، التي ترى في أي من البازارات، قابلة لأن تفيد لمجموعات الأطفال وللتبادل فيما بينهم. وربما لم تكن قط أكثر من ذلك.

حدثني العقيلي، الذي عرضت عليه الحكم الذي استحقه الكنزُ عندي، عن حماقة الطموح الانساني غير المحدودة. لكنني لاحظت أنه لايريد أن يدخل في عداوة مع موقف ملوكه التقليدي من جهة، ومن جهة أخرى أن تلك الحماقة كانت تصيبه هوأيضاً وبجدية كبيرة، فهومن هواة الخواتم وعلب الحليّ. بالنسبة لي أفادتني الزيارة كعلاج من الاندهاشات وكوقاية، مثل طفل يدخل ليعمل في مشغل للحلوى، من أول إفراط في تناولها لايعود يحلم بالحلوى ويبدأ يملها.

فَضَّلَ العقيلي أن ينحرف بالحديث عن المجوهرات وأن يتطرّق للأسلحة، قال لي:

ـ رغم أنها ليست مهمتي أن أدربك على فنّ الحرب، فعليك أن تعرف أن الفنون والعلوم عندنا ليست مفصولة تماماً، وأن الشعر، وهوبجوّه العبق والحار، يضمخها جميعاً. سأعطيك برهاناً. أبوبكر الصيرفي، شاعر قديم، سمح لنفسه أن ينصح المرابطين، بعد هزيمة ألحقها بهم النصارى، بفن الحرب بعيد المدى للمسلمين الأندلسيين. لأنه ما من أحد أفضل من محاربي البلد الأصليين، العارفين جيداً بجغرافية ومناخات

ومزايا أعدائهم، ليصيب في الفن الحربي الذي يجب أن يستخدم. [كذلك كان العقيلي المسكين ينظر إلى الماضي، دون أن يخطر له أن من يجدد الفنيات القديمة ويضم المكتشفات الجديدة، الرابضة في العتبة، سيكون هومن سينشد النصر النهائي، إذا كان هناك نصر.] يقول الصيرفي لمخاطبه المتخيل وهوأحد الغزاة المغالين الذين حلموا بأن يصبحوا ملاك جنة الأندلس:

أهديك من أدب الوغى حكماً بها — كانت ملوك الحرب مثلك تولع
لا أنني أدري بها لكنها — ذكرى تخصّ المؤمنين وتنفع
اختر من الخلق المضاعفة التي — وحتى بها صنع السوابغ تبّع
والهند وإنى الرقيق فإنه — أمضى على حلق الدلاص وأقطع
ومن الرواجل زعزعته — أعطاك هزّة معطفيه الأشجع
ومن الجياد الجرد كل مضمّر — تشجّى بأربعة الرياح الأربع
خندق عليك إذا اضطربت محلة — سيّان تتبع ظافراً أوتتبع
لاتبقين النهر خلفك عندما — تلقى العدوفأمره متوقّع
واجعل مناجزة العدوعشية — ووراء الصرف الذي هوأمنع
واصدمه أوّل وهلة لاترتدع — بعد التقدم فالنكول يضعضع
واذا تكاثفت الرجال بمعرك — ضنك فأطراف الرماح توسع
ثم انتهض بجميع من أحمدته — حتى يكون لك المحلّ الأرفع
وتوق من كذب الطليع انه — لا رأي للمكذوب فيها يصنع

[مازلت أحفظ عن ظهر قلب تلك الأبيات. وقد طبقتها أحياناً وأحياناً أخرى لم أطبقها. لكنني بتطبيقها، أودون تطبيقها، في بعض المناسبات أحرزت النصر. ربما لم أتعلم التمييز بين الكذّاب والحكيم. وفقدت الثقة بنصائح الشعراء. أستطيع أن أقول إنني فقدت الأمل بالنصائح بشكل عام.]

ومن جانب آخر، بدأ أبوالقاسم بنيغش (المتحدر من آل ايغش من قرطبة، من أصل نصراني، من آل ستي مريم، رغم أنه كان يتستر على ذلك وكان واحداً من أكثر الرجال الذين عرفتهم، وعرفت منهم أكثر مما كنت أريد، تعقيداً وطمعاً) بدأ في الحال يهتم بتربيتي السياسية. إذا كان يجب أن تُفهم هذه العبارة في أسوأ معانيها، ربما ماكنت لأجد معلماً أفضل منه. فالنظرية والتطبيق كانا عنده عدوين لايمكن المصالحة بينهما. حتى وأنا مراهق كنت أدهش لأن والدي كان يضع في خدمته ـ أكثر من أنه يثق به كليا ـ شخصاً مثل ذاك، محسناً لأصدقائه وزبائنه، ومنافساً متطرفاً

لأسرة قرارها حاسمٌ كأسرة بني سراج.

- الحاكم الجيد - قال لي في الصباح الأول - يجب أن يكون أكثر الرجال علماً وذكاء.

اعتبرتُ نفسي عاجزاً عن إدراك هذا الهدف، واعترفت في داخلي إنني لن أكون مهيئاً أبداً للعرش. ومع ذلك تابع بنيغش بعد ابتسامة:

- وإن لم يكن كذلك، سيصير بسرعة، فتحت جناحه تنبثق وتنتشر كل المعارف، تزهر كل العبقريات، وتملك كهفها كل المكائد وتقوم كل النزاعات. في يوم واحد فقط يستطيع الحاكم أن يحرز تجربة أكبر من تجربة بقية الرجال خلال حياتهم كلها. وكما أكد عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه: «أنا لاأخدع أحداً، لكن ما من مخادع يستطيع أن يخدعني» إنّ من يعرف ماهوالشر، وكيف هم الشريرون، هوفي أحسن حال كي يحذرهم.

كنت أترصده كي أكتشف سبب مسحة السخرية التي أراها في عينيه، لكن ما إن كان يحس بالهدف من نظرتي، حتى تتلاشى الشرارة.

- إن مبدأ كل براعة هوأن يكون واضحاً للمرء أنه يعرف ما يعرف حقيقة، ويجهل مايجهل حقيقة. من هنا فإن على الأمير، وكما حذّرك والدك يومذاك، أن يتعلم من كل مايلاحظه، وأن يستخلص الدروس من كل مايسمعه، ويحافظ على موقف مشرّف دون أن يسمح بأن ينقاد لعواطفه - لم أستطع وأنا أسمع هذا أن أتلافى صورة ثريا - ، ولا لهيجانات غضبه، أن يتكلم بصراحة ويفي بوعوده، وأن يكسب بسلوكه احترام الجميع ولا يخجل من السؤال إذا كان عنده شك ما، ولا يخضع ويقبل بما ليس عادلاً، وأن يقيس درجة قواه، لأن هدف المرء عندما يرمي ليس تجاوز الهدف، وإنما إصابته. القاعدة الأعلى تكمن، بالتالي، في معرفة قوة الدفع الضرورية والكافية لإدراك كلّ هدف من الأهداف.

عندما سمعته يكلمني بهذا الشكل قدرت أن تلك النصائح ليست لأمير، وإنما لرجل أياً كان، وإنه ربما على الأمير أن يكون الأفضل بين الرجال العاديين، وليس ابن ملك.

- يسعدني أنّ والدك أراد، قبل أن يتخذ قراراً قاطعاً، أن تتقدم في فن السياسة. لأن التعيين لن يكون مناسباً وفاعلاً إذا كان المعينّ سيحل محل الذي عينه دون أن يكون مسلحاً بالتجربة الضرورية. ثق بي، يا أبا عبد الله، في التعلم، ثقة أبيك الراسخة بي في الحكم. في مايتعلق بي دائماً أضع نصب عيني الأخطاء الأربعة التي يمكن أن يقع فيها وزير أمير

فاضل: السفاهة، إذا تدخل عندما لاأحد يطلب رأيه، الجبن، إذا لم يناقض سيده عندما يخطيء في عمله، الخوف، إذا لم يجرؤ على التعبير عن رأيه عندما يطلب منه، وفوق هذا كله الرعونة، إذا تكلم دون أن يكون قد تفحص قبل ذلك حالة الأمير النفسية. إن وزيراً لايقع في هذه الأخطاء الأربعة هو أفضل صديق للملك. ولا تنس، يا أبا عبد الله، إن الصديق ليس الذي يرافقك في الشدة، وإنما الذي يمنعك من الوقوع فيها. لأن غياب الصداقة، أي العزلة التي يوجد فيها القوي، أخطر وأكثر جذرية من تلك التي لأي انسان آخر. أولاً، لأن عليه أن يبقى بعيداً عمن يطلبونه لمصلحة، يتملقونه ويحيطون به للحصول على منافع لهم. ثانياً لأن الشرفاء الذين يجب أن يكونوا إلى جانبه يبتعدون عادة، تدفعهم حساسيتهم، وحشمتهم وكرامتهم. ثالثاً لأنه يجب ألاّ يشفّ عن هذه العزلة، ولا أن يظهر أمام أحد أنه ضعيف بسببها، لأنها ستُستغل في تدميره بحقد الذين يحيطون به. لذلك، لاتتذمر أمام من ليس متورطاً بما أنت متورط به فيتنصلون مما تخبرهم به وتعرّض نفسك للإهانة. ثم لاتعرض رأيك في موضوع أمام الناس، لأنه سيكون عملاً عقيماً وإضاعة للوقت. إذا نصحت عالماً ضد رأيه سينكمش عنك، واذا كان غبياً لن تحصل إلّا على فقدانك ودّه كليا دون أن تغيّر من طبيعته. إن تقديم النصائح خطر خطورة طلبها، لأنه لايوجد أمرٌ يجتمع فيه ذوق المعلم والتلميذ في الوقت نفسه. أقول لك ذلك، أنا الذي عُينت معلماً لك. لأن النصيحة إذا أُعطيت ولم تُتبع تجعل من أعطاها يشعر بالإهانة ويغير موقفه، وإذا اتُّبعت بنجاح تجعل الذي أعطاها يشعر بأن له حقوقاً توازي هذا النجاح. لذلك يوجد مثل يقول: «المؤمن لايلدغ من جحر مرتين» . السياسة ياأميري العزيز، في أعمق أعماقها، هي النباهة في معرفة اختيار أهون الشرور، وفي معرفة إقناع الرعية بأن أي قرار هوعمل منجز.

بينما كان بنيغش يلقي خطابه، متحمساً بخطابيته نفسها، كنت أصغي اليه باجتهاد، ليس لأنه كان يقول لي ماكان يفكر به في الحقيقة (إلا في بعض الاستثناءات التي هي أقرب ماتكون إلى اللاإرادية) وإنما لأنني كنت أفكر في فائدة مايقوله لي (ربما رغماً عنه.) عندما كان يضعني في حذر متواصل من الجميع، كان يضعني في حذر منه أيضاً. لم أعاكسه قط، وكنت أصيغ له قضايا بسيطة، أتوقع أجوبتها، عزّزت عنده الاعتقاد أنني غير نبيه إطلاقاً، وأنني لن أصير نبيها أبداً، وكنت أحاول أن أوافقه على كلامه، ليتأكد من وداعتي كخليفة محتمل، وهوما كان يناسبه تماما، كي يخبر السلطان بذلك مطمئناً. بكلمة واحدة كنت مثل

المريض الذي يبتلع الشراب الكريه الطعم لا ليتخلص من المرض، بقدر ما ليتخلص، على الأقل، من الطبيب.

«كان يمكن لِعَمِّك أن يكون ملكاً جيداً»، سمعت أمي تقول ذات يوم. وعندما بدأ والدي يخفق كثيراً، صارت غرناطة كلها على هذا الرأي. عمي، الذي يحمل اسمي نفسه، أسمر، ناحل وطويل القامة جداً، شاحب البشرة وعيناه مخمليتان: كانت تقول صبح: «ينظر وكأنه يدغدغ» وعندما كانت تراه النسوة، ما كنّ ليستطعن رفع نظرهن عنه، ويتنهدن وكأنهن نسين أن يتنهدن كي ينظرن إليه. ويرد عمي على هذه التنهدات مقهقهاً، يعرف سببها ويحتقرها. ليس عبثاً أنه يسير محاطاً بالنساء، حتى في بيته، فهو لا يملك غير البنات. شعرت تجاهه بالإعجاب الرائع، حتى قبل أن أدخل سن الرشد.

رووا لي إنه وأنا في الثانية من عمري، كان يأتي عادة يبحث عني ـ «آتي لأراه يكبر» هكذا كان يقول ـ يأخذني بين ذراعيه، ويملؤني بالقبل، ثم يقذف بي في الهواء ويلتقطني ببرنسه أمام صراخ صبح. إلى أن علق برنسه ذات صباح بحسامه، وحين لم ينشره في الوقت المناسب، ارتطمت بعظامي، التي كانت ماتزال لدنة، ببلاط الأرض. أضافت صبح إن وجه عمي شحب بطريقة أنها لم تجرؤ على زيادة ذعرها بالشتائم. الحمد لله أن نتائج السقطة كانت بعض الكدمات الزرقاء وورماً كبيرا، لكن عمي ما عاد ليلعب بجسمي على طريقة الكرة. وتأكد تفضيله لي في البلاط. وإذا ماسألني أحد في طفولتي من أحب أن أشبه، كنت أجيب دون أن أتردد ثانية واحدة عمي. لذلك ومنذ أيام قليلة عندما قالت لي مريمة بعد أن راقبتني بسخرية باسمة إنني في كل مرة أشبه أبا عبد الله أكثر، رفعت رأسي بافتخار. أشك في أنها استطاعت أن تفسر حركتي وخرست معتقدةً أن المقارنة أزعجتني.

كانت العلاقة بين والدي وبينه، رغم فارق السن، حسنة جداً. وقد ساعده عمي في البداية أكثر من جيش بكامله. وحققا معاً، ما أكده والدي في الصباح الذي استدعاني فيه إلى المجلس، لحظةً مناسبةً تماماً للمملكة. كانت تسير أمور الحكومة بثبات، فالمواطنون يشعرون بالأمان، والعقائد الدينية تحترم، الشيء الذي وفر للعاملين إحساساً سعيداً بالهدوء، انتفت الجرائم، وصارت الحدود، ثابتة ومحمية، الشيء الذي لم يكن يحدث من قبل تقريباً. اذن فالشعب كان راضياً عن والدي. ومع ذلك

سرعان ماقام ضده، وضد نجم بنيغش الصاعد، القوّاد الذين حرّكهم جدي دافعوا عن قضيته، يساعدهم عدد من الرؤساء المسيحيين (المستعدون دائماً لتأجيج أي شقاق داخلي) وبنوسراج، الذين لم ينسوا الموقف العدائي الذي وقفه والدي منهم عندما بدأ حكمه، وشعروا باغراء أن يقلدوا القشتاليين الكبار الذين يتصرفون على الحدود كسادة حاكمين بأمرهم. ورفعت هذه المجموعات المتمردة، كراية، أرفع وأنبل ما هو موجود: اسم عمي، أبا عبد الله. خطفوه بالحيل ووضعوه في مالقة بالقوة وتوّجوه ملكاً وهكذا أعلنوا حرباً أهلية كان من الممكن أن تكون مشؤومة. في غرناطة المعتادة جداً على التقلبات، لم يستغرب أحد الأمر كثيراً، وكان الناس، مثل أمي، يرون أنّ عمّي خلق ليكون ملكاً. كنت قد أتممت آنئذ الثامنة. وشاع الخبر في الحمراء. كان عمي او بنو سراج كما القادة الشيوخ يلقون تعاطفاً لم يدركه قط بنيغش، المكروه بشكل عام، والذي سَيُكْرَهُ أكثر. والأنكى من ذلك أن مالقة كانت دائماً تتطلع إلى الاستقلال. في السلالة الملكية السابقة كانت محكومة أيضاً من أخي آخر ملوكها، ياليتَ التاريخ لايعيد فصوله.

لكن والدي لم يرتدع، فهويعرف أخاه جيداً. وعرف منذ اللحظة الأولى أن فكرة التمرد لم تكن فكرته، وإنما هي ثورة المُهمَلين والمُهانين. [تملي عليّ تجربتي أن بني سراج كانوا دائماً، كأفراد، جديرين بالاعتبار، مسؤولين وشرفاء، لكنهم عندما عملوا كقبيلة سببوا للمملكة أوجاع رأس كثيرة. يحدث لهم عكس مايحدث لجنود الإيمان، الذين هم، كهيئة حراس، جيدون وحصنٌ رائع، لكنهم عندما وقعوا بين يدي قائد متآمر، حشروا أنفسهم في السياسة فخربوا كل شيء.] لذلك ذهب أبي شخصياً إلى مالقة وتمكن بالخداع والمال أن يحمل عمي على الهرب من براثن المتمردين وأن يمثل في معسكره. وهناك ظهر الاثنان معاً وخضع المتمردون أمام المكانة التي لهذا وذاك، دون عوائقَ كبيرة. وعاد عمي لشغل المنصب الذي كان يشغله، لكن القمع الذي لحق بالقادة القدماء وببني سراج كان مريعاً. فقد قطعت رؤوس الكثيرين منهم بعد عشاء أقيم في الحمراء، حضروه مخدوعين بالعفو الذي منحه والدي لعمي. وقد لجأ الذين هربوا بحياتهم، إلى قشتالة أو أغيلار أو مدينة شذونة، معزولين بالعائلات الحدودية المعادية للأسر الصديقة لوالدي. وبعد حمام الدم هذا الذي ثبّط همّة المدينة استتب الأمر للسلطة من جديد، رغم أن ظلاً منه بقي في ذهن الشعب، الذي كان عاشقاً لبني سراج ـ الوجهاء والشجعان وذوي الحضور الكبير ـ ونفوراً من بنيغش. أية

حاسة شم عند الشعب ليكتشف مسبقاً الشر الذي يقترب!

بعد ثلاثة أعوام، أي في العام نفسه الذي قابلت فيه والدي، أرسلوني إلى المنكّب مع عمّي، الذي كان حبه لي يزداد لاستمراره دون أولاد ذكور. كان الهدف تدريبي على استخدام الأسلحة وتأهيلي في الفروسية. ودّعتني أمي قائلة:

ـ نبّه عمّك أنه مهما تطلع إلى العرش فإن عليه ألا يرمي في الهواء من عليه أن يخلفه، وأنه إذا ما رماه لن يلتقطه له أحد.

وهي بهذا أرادت أن تفهمني ثقتها بجدية عمي التي كانت تتبدى أمام عينيها، وأنها كانت على علم بمقابلتي لوالدي ربما قبل أن أكون قد خرجت من قاعة المجلس.

ـ وحسب قول النبي ـ قال لي عمي في اليوم الأول ـ ثلاث ألعاب تحضرها الملائكة: سباق الخيل والرماية وأخرى لم يحن الوقت بعد لتعرفها.

ماهي؟ ـ سألت فوراً.

ـ مايلعبه معاً رجل وامرأة.

كنا نهبط كل صباح من الحصن ونخب على الشاطئ في منافسات حماسية، كان عمي يسمح لي بوضع قواعدها ويتفوّق عليَّ رغم أنه كان يمنحني أفضليات. كانت تلك الأيام السعيدة واللامحدودة طافحة بعمي وبالشمس. ربما كان الاثنان بالنسبة لي واحداً: قريبين وبعيدين في آن واحد، ثابتين ومتغيرين بلا توقف، فرحين وصارمين وواسعين. ليس لي من رغبة إلا أن أكون يقظاً للإثنين، وأتظاهر دائماً أنني لا أنظر إليهما، وأن أشعر أنهما ينظران إلي، وأن أتظاهر أيضاً أنني لا أنتبه. رغبتي الوحيدة أن أكبر في عيني عمي، لذلك كنت أقاتل كي أظهر شجاعة ومقاومة وجلداً وإعداداً أكبر مما كان لي.

مُتَوَغِّلَيْنِ في البر أَسْقَطَتْني المطيةُ ذات صباح بعنف. سببت لي أذية محتملة في ذراعي، لكن ـ ربما لكي أبرر بلادتي ـ أغمضت عينيَّ، وتصنعت الإغماء. ترجل عمي أبوعبد الله ووثب فوقي، لمس حنجرتي وضمني. ابتعد منزعجاً، دون أية كلمة، عندما فهم أن المسألة مسألة خداع. لكن عندئذ حدث أن وقعت الأذية الحقيقية: أفعى صغيرة أوصلّ، عضتني في فخذي حين ذُعِرَتْ من سقوطي. شعرت بالوخزة، رأيت الدبيبة، وأردت ألاّ أصرخ، لكنني صرخت. التفت عمي برأسه وتنبّه إلى كل شيء

في الحال. وثب فوقي ووضع فمه على فخذي وامتصّ السّم. الزمن الذي استغرقه فم أبي عبد الله على لحمي، الذي كان مثل محجم، شعرت به دهراً. وأنني يمكن أن أموت، ولم يبد لي ذلك مزعجاً. كان عمي يبعد وجهه، يبصق ويعود ليضغط على فخذي بشفتيه. حتى نفَّذ كل ماكان ممكناً عمله. كنت أرقد على العشب شبه عار ويدي على رأس عمي السوداء، وكانت يداه تجوبان ساقيّ وصدري وخدّي كي يُهدِّئني. ما من أحد منّا كان يتكلم، فقط كنا نسمع صوت تنفسنا، لكن كان واضحاً أنه خُلِقَتْ بيننا تواً آصرة حياة وموت، كرم وواجب: آصرة كان من المناسب الحفاظ عليها بصمت. بنظرة عميقة وطويلة، هكذا رسّخناها. كانت الشمس تسقط فوقنا عمودية. ساطني بيده القوية السمراء وقال لي بصوت صارم:

- الآن صرت رجلاً. آمل ألايسمم هذا السم حياتك. ولاحياتي. لنعد.

وبما أن غرارتي تركت الجواد يهرب بعد أن قذف بي من فوق أذنيه، امتطينا جواده - أنا أمامه - وعدنا إلى القلعة.

ما ساكتبه الآن حدث بعد يومين. أكاد أكون متأكداً أنه ليس تخيلاً وإنما حدث تماماً كما أرويه، ومع ذلك فإن أي شخص - حتى أنا اليوم - يستطيع أن يستخلص استنتاجات مختلفة.

كان مايزال فخذي يؤلمني بسبب العضة، والطبيب وضع لي لزقة أعشاب - «إنها لزقة ضفادع» ، كان عمي يمزحُ - تمنعني من الحركة بحرية. قرر عمي تدريبي على رماية القوس في ذلك الصباح بدل ركوب الجواد. كنت أرمي بشكل سيء، وأمامي الشاهد: المرمى الذي لم يُمَس. عندما أخطئ في رمية، أسمع قهقهات أبي عبد الله.

- أفضل طريقة لتفادي سهامك، هوأن يقف المرء أمام المرمى.

كنا في ساحة القلعة. تحتنا البحر يتلألأ. كان الوقت ربيعاً وبدأنا نتعرق. خفَّف عمي من ثيابه وكذلك أنا. لعبنا لعبة الحرب، مثل صديقين قديمين في السلاح. فجأة رأيت قميصي تصطبغ بالدم. لم أشعر بألم ولم أفهم ما كان يحدث. كان عمي قد ذهب ليجمع السهام التائهة، حين رفع وجهه رأيته يشحب. واقترب مني بقفزتين، اقتلع النسيج المدمى، أخذ رأسي بين يديه، فعاد إليه لونه والضحكة.

ـ معك دائماً يبقى المرء متحفزاً. الآن تنزف من أنفك، مازلت طفلاً. هل أصبت بضربة؟

نفيتُ بإيماءة من رأسي بينما كان يغطي أنفي بإصبعه. جلس بعدها عمي على الأرض، ألقى برأسي إلى الخلف، ورفع ذراعي فوقها، وقصف غصين ريحان كان بجانبه ووضعه في فمي فوق اللثة العليا، ضاغطاً بعدها الشفة العليا بنعومة. توقف الدم عن النزف في الحال تقريباً. نشف بدارة قميصه ماكان يلطخ ذقني وفمي. أغمضت عيني نصف إغماضة لأن الشمس بهرتني. كانت أهدابي الشافة تصبغ السماء بالحمرة. شعرت أن الدم ـ ليس دم الأنف ـ يتسارع في جسدي ثم يَتَوَقَّفُ جريانه فجأة. لم أدر إلى ما أعزوه، لكنني كنت مرتاحاً في حضن عمي. كانت يده اليسرى تداعب الفخذ الذي عضّه الصل، واليمنى التي كانت ذراعها تشدني إليه لم تتحرّك عن شفتيّ. قبّلتها مجروفاً بحنان أكبر مني أنا نفسي، لاأدري ما إذا كان مجرد رد فعل امتنان، أوربما كان شيئاً أقل بساطة. شعرت بنفس عمي على وجهي، وكأن جهداً جسدياً قد جعل إيقاع تنفسه يضطرب. كان طعم الريحان يعطر فمي وعبق الروض الذي تحرك مع اقتلاع الغصن يتضوّع في الهواء. كانت الشمس تلهب من عليائها المكان والنحلة الأولى تئز حولنا. أحسستُ بالبحر يتلألأ وأنا مغمض العينين. شعرت بفمي قريباً من فمه. ترقبت، لثانية دامت دهراً ماكان سيحدث. انتظرت، ضاغطاً على أجفاني. فجأة نهض عمي وتركني أسقط على فمي. فتحت عينيّ أخيراً. رأيته وظهره إليّ أمام البحر. رأيتهما معاً متراكبين هو والبحر.

ـ ماعدت تنزف. أسرع. خذ القوس والسهام.

في تلك اللحظة فهمت لماذا كان الجميع يفكرون أن عمي أبا عبد الله يمكن أن يكون ملكاً صالحاً.

عندما زوّج جدي والدي من والدتي لم يزعج نفسه بسؤاله عما إذا كان يحبها: كان الجواب واضحاً للعيان. كانت قد تزوجت من سلطانين، الثاني منهما قطع والدي رأسه توّاً، كانت أكبر منه، فالأمر يتعلق بمؤسسة نصرية أكثر مما يتعلق بامرأة، أنا نفسي لاأجرؤ على القول إنها حلوة.

ـ لولا الثياب لبدت عن بعد رجلاً، بل وعن قرب أيضاً. ـ سمعت إحدى الخليلات تعلق.

بالفعل إنّ لها غطرسة لاترى عادة إلاّ في الرجل، غريزة الأمومة عندها سطحية جداً، وتختفي إذا ما قورنت بغريزتها الملكية. أعتقد أن ذلك ناتج عن أنها لم تشك قط بأنها وُلِدَتْ لتكون ملكة. إنها ابنة محمد التاسع، *الأعسر*. كان زوجها الأول، الذي لم تنجب منه، ابن عم لها وهومحمد الحادي عشر، *الأعرج*، أما الثاني الذي تزوجته أيضاً لأسباب سياسية فهومحمد العاشر، *الأصغر*، ابن محمد الثامن الصغير.(أعرف أن هذه الرطانة يمكن أن تكون بالنتيجة معقدة، وهي كذلك بالنسبة لي أنا نفسي، رغم أن الأمر يتعلق بأسماء قريبة منا. من هنا فأنا أقترح على نفسي، حين يكون لدي وقت، أن أكتب تاريخ السلالة، موضحاً ماليس واضحاً، مصفياً الأخبار المتخنة بالإطراءات المعلوكة والمسروقة، وتفوح منها رائحة العرق إن لم تكن رائحة الدم أكثر من رائحة الشعر. من أجل هذا عليّ أن أراجع مكتبة الحمراء، لأن رأساً واحدة - خاصة إذا كانت رأسي - لاتتسع لكل هذه المعلومات وخاصة كل هذه الخيانات.) فأمي عاشت بين الدسائس، والمغامرات، والخلع والتتويج، النفي والعودة. إنها ذكية، ذات حضور كبير، وتجسد المجموعة الأقوى في غرناطة. لذلك كان من الحكمة لمن يُرَشَّح للحكم أن يضمها إليه. وما من إجراء أكثر فعالية من تزويجها من ولي العهد، الذي ظهر بالنتيجة أنه مُغْتَصِب للعرش. لذلك لم يطرح جدي ولا والدي قضية رفض العرس. لأنني مقتنع بأن الإزدهار يختلف عن الانحدار، الذي فيه إرادة - ليس فقط إرادة القوي، وإنما أيضاً إرادة الغالبية من الرعية - تُصيب في الاختيار، وتختار وتضع في الصف الأول رجلاً فيه سمة الإيجاب، وتزيح أوتلغي رجل السمة النقيضة. وهذا هو بالضبط السبب الأخير في أنني لا أملكها جميعاً إلى جانبي في هذه المرحلة الحرجة، رغم أن موقف والدي يتجاوب مع الاتجاه الإيجابي الذي أتكلم عنه، لأنه، مع من ستقف الغالبية العظمى من الرعية إن لم يكن مع نفسها؟

في كل يوم صرت أذهب إلى مدرسة الأمراء أقل من سابقه وأقضي ساعات أطول مع مُدرّبيّ. وكان بنيغش، يشغلني أكثر من أي من الآخرين باطلاعي على كل شيء وعلى طريقته، على السياسة، والخزينة، وكانت إطناباته الطويلة، وبفعل مناقض للحاصل، هي التي تزرع فيّ التردد تماماً.

- يملك والدك الآن بين يديه ثلاثة أسلحة. الأول التنافس بين الفرسان المسيحيين، سواء أكانوا أندلسيين أم من سكان الحدود، منفيين إليها أم مقيمين فيها بإرادتهم. الثاني التحكم بالهدنات مع الشابة إيسابل،

الثالث، الامتناع عن دفع الجزيات المتفق عليها مع أسلافه. هذه هي الأسلحة الثلاثة التي يجب أن تعرفها معرفة أفضل، لأنني لا أعتقد أنك تستطيع، عندما تستلم، أن تستخدم أسلحة أخرى مختلفة.

»» «في وضع قشتالة الحالي، يجب معرفة أن الحدود ميدان لبطولات غير مجدية، أومجدية فقط لمن يقوم بها. إنها ميدان للنفي أوالعقاب للرايات الجموحة، مباراة لمشاريع الفروسية، لا علاقة لها أبداً بمملكة مبلبلة ومنحدرة كمملكة المسيحيين، سوق للمكاسب والاستثمارات الزراعية، يجرف منها كلٌ بما ملكت يده، ومأوى تغفر فيه الذنوب للمجرمين بل وللقتلة أيضا. لم تُرَ الحياة على الحدود بهذا الازدحام قط. من هنا كان والدك ورغم الهدنات يخرج كل صيف للحفاظ عليها ويحاول أن يثبط من همة وجرأة الفرسان، الذين لايحاربون من أجل ملكهم، وإنما من أجل أنفسهم. لأن كل واحد يتصرف على الحدود لا كما يتصرف في قشتالة، وإنما كما هو أو كما يتركونه ليكون. التاج لايصل إلى هنا، وهذا مايصب في منفعتنا. كان يكفي الملك أنريكه ويكفي اليوم أخته من أبيه البقاء في العرش: لايستطيعان أن يبذرا إيراداتهما ولا طاقاتهما في توريد الأسلحة والأموال التي يدعمان بها تخوم المملكة دعماً مقنعاً. حتى ان الملوك المسيحيين استفادوا في مناسبات كثيرة من الحدود ليرفعوا عن كاهلهم عبء شخصيات موغلة في تحديها، أوأَلَمَّتْ بها المحن. فأنريكه الخامس اتخذ عادةً أن ينفي إليها عشاقه القديمين عندما كانوا يستخفون به أوعندما يستبدلهم: تلك هي حال مشير جيان، ميغيل لوكاس ده ايرانثو. وفي حالات كثيرة، ولكي يعجلوا بفشل المنفي، كانوا ومازالوا يتركون الحدود دون حماية ولامؤونة لمن يدافع عنها أويهاجمها، ولحسن حظنا أننا استعدنا أوسلبنا دون خطر المعاقل التي انتزعوها منا إبان حكم الملوك السابقين. وهذا ماضاعف، دون خسائر كبيرة، مجد عمّك ووالدك في السنوات الأخيرة. لأن الحدود النائية عن الرؤوس النصرانية المتوجة، هي أرض للمطامع الشخصية: إنها بعيدة عن قلوب الملوك، يساومون فيها على النجدات والتعزيزات، ولاتلتقي فيها الحياة اليومية مع الحياة السياسية: لأن الحياة، من بين أشياء أخرى، في خطر دائم وداهم. لذلك فإن سادة الحدود، إذا لم يُلْجَموا، مُلوكُ طوائفَ حقيقيون، يعيشون فوق الأحداث أويختفون بحسب شجاعتهم. مهما بدا لنا أنّ الغرناطيين عصاة فإنه من الصعب تصديق مدى استقلال القشتاليين ومدى العداوة القائمة بينهم. إنهم يعيشون معنا علاقات تكاد تكون أخوية، يعيشون في غرناطة أويلجؤون إليها بقدر مايعتبرون ملوكهم

ظالمين أوخصومهم مريعين أشداء. الحدود هي، أكثر من أي شيء آخر، حالة نفسية، طريقة لفهم العالم، شيء يُفَرِّق ويجمعُ. بمعنى البرهان على أن في كل معركة يوجد كثير من العناق، وأنه لمقاتلة عدوّ التحاماً جسداً بجسدٍ، يجب سماع نبض قلبه. إذا لم ير الذين يروون التاريخ الأمرَ بهذا الشكل فإنهم سيسيئون روايته.

›› إضافة إلى أسرتك، يا أبا عبد الله، توجدُ ثلاث أسر في الأندلس عليك أن تقابلها آجلاً أوعاجلاً [التقيتها في أسرع مما تصورت]: بنوقزمان، في مدينة شذونة، بنوبونش في قادش، وبنو فرناندث في قرطبة، الذين مضى قرنان على وجودهم في هذه المنطقة. الأسرتان الأوليتان وبسبب من الخيلاء والفتوحات والغنائم التي حققوها صاروا أعداء ألِدّاء فيما بينهم. يجب أن نخرج من تخاصمهما، الذي نرعاه، بنتيجة. ذلك إنه إذا تمكن ملك قوي أن يُخضع هؤلاء السادة ويجبرهم على التعاون معا فإن فرصتنا ستضيع. أما فيما يتعلق ببني فرناندث فإن الانقسام بينهم أشد مرارة. فالبيت له ثلاثة تفرعات: الأول، آل أغيلار يقوده دون ألونسو الرهيب وهم مقيمون في أغيلار مونيلة وجسر دون غونثالو في الريف القرطبي وفي الجبال، في بريبغووكاركابوى، والثاني هوفرع لوثينا واسبيخو، والثالث هوفرع قُنْد قبرة وسيد بيانة. بين أراضي هذا وأملاك دون ألونسو ده أغيلار يوجد ملكيتان ملكية ثويروس التي تعود إلى دون ألونسو القرطبي، وملكية لُكّه، التي تعود إلى قريب لي، السيد ايغش بنيغش، أعمى مسكين وعاجز، لكن هذين الأخيرين دائماً يرقصان على الإيقاع الذي يعزفه الآخرون. والأهم هوأنه لاتوجد علاقات بين دون ألونسوده أغيلار ودون دييغو فرناندث القرطبي، منذ عدة سنوات. دون دييغوصديق لوالدك، لكنني أريدك أن تفهم جيداً: الصديق بيننا هوالذي يلتقي مع مصلحتنا. على الحدود، يا بني، القاعدة هي التالي: ليس أمامنا من وسيلة إلّا أن نقوم بسياسة التحالفات والعداوات الطارئة حسب هبوب الريح.

ـ ولماذا يتحارب هؤلاء السادة، إذا كان بينهم قاسم مشترك هوالملك نفسه والدين نفسه والعدوالمشترك نفسه، الذي هونحن؟

ـ لا أستطيع أن أطلب من الله أن تبقى بهذه السذاجة ـ أجاب مبتسماً بازدراء خفيف. ـ النصارى يُؤْثرون كبرياءهم على كل شيء، حتى على منفعتهم نفسها. إنهم قادرون على أن يضيعوا كل شيء، وعلى أن يتركوا أنفسهم يقتلون مقابل أن يستمروا بكرامتهم في ذاكرة الآخرين. إنها

فظاعة، كما سترى. دون ألونسو ودون دييغو يمثلان الفرعين الرئيسيين من آل فرناندث القرطبيين، لكن فرع دون ألونسوهوالبكر. لذلك عندما تقدم الفرع الثاني عليه في النبالة وسموا دون دييغو قند قبرة ومن بعدها فيكونت ازنجار وبقي الآخر مجرد سيد أغيلار انتفش شاربه. ثم كان من المفروض أن يتزوج دون ألونسو من الابنة الثامنة لدون دييغو، مما كان سيخفف التوترات، لكنه وبتحريض من رئيس رهبانية قلعة رباح الحربية تزوج من ابنة مركيز بلّيينة، وبذلك انقطع الوئام بينهما نهائياً. إلى حد أن أنريكه الرابع حاول أن يجعلهما يوقعا السلام بينهما في قرطبة، بالطبع لصالح العرش، وقد فعلا ذلك دون أية قناعة. وبعد أربعة أشهر قام دون ألونسو وسط مجمع ديراني في المدينة، باعتقال ولدين للكونت وأجبر الكبير - وهُودون دييغوآخر ستتعثر به دون شك - على تسليم ممتلكات قلعة يحصب، التي كان قائداً لها، وهي، كما تعرف، باب غوطتنا. لأنه فهم أنهم اغتصبوها منه. وما إنْ اغتصبوها منه، وحُرّر دون دييغوهذا حتى تحدى دون ألونسو، دون أن يستجيب للتحدي، ثم سارع وأسر أخاه سيد أغيلار، دون غونثالو فرناندث القرطبي واحتجزه، وهوعسكري جيد سيتصل بك إذا ما شغلت عرش الحمراء ذات يوم. وإذا ماوجدت ذلك قليلاً فإن دون دييغو، عندما شك النبلاء بشرعية أنريكه الرابع، قد دافع عنه في وجه دون ألونسوالذي وقف إلى جانب حزب أخيه الأمير. إن هذه الضغائن جميعها صعبة على الفهم، لكن خُذ بعين الاعتبار أن هذه الالتواءات نفسها موجودة بيننا، وهي أيضاً صعبة على الفهم بالنسبة للنصارى. في السياسة، وبفضل المتغيرات، يمكن أن تجد نفسك بين ذراعي من كان أكبر أعدائك يوم أمس والعكس صحيح. أنا لا أعتقد، الحمد لله، أن هذه الصراعات المستمرة ستنتهي، لأن دون دييغو القبرى ابن عمة اليهودية خوانا انريكيث، أم ملك أرجونة، دون فرناندو، زوج ملكة قشتالة، وهذه القرابة سترجح الحظوة الملكية لصالحه، مما سيغيظ دون ألونسوأكثر.

- وماذا صار من أمر شقيق دون أنريكه؟

- قتلوه في الحال.

- إذن ملكة قشتالة هي ابنة دون أنريكه.

- لا، إنها أخته من أبيه. ابنته، التي يبدوأنها ليست ابنته يدعونها *لابيلترانيخا*، تزوجت من ملك البرتغال. جاءها هذا الاسم، كما يقال، كونها ابنة محسوب الملك، دون بلتران ده لاكويبا.

ـ يا له من اسم غريب.

ـ ولماذا تزوّج منها ملك البرتغال؟

ـ لأن موضوع الأبوّة لايُخطىء أبداً. حتى دون بلتران ده لاكويبا نفسه اختار، عندما جدّ الجدّ، حزب إيسابل، ابنة العمة، ولم يختر ابنته المزعومة. يبدو أن دون بلتران كان يدخل إلى الغرفة الملكية ليلاً، لكن لا ليضاجع الملكة، وإنما الملك. ما كان عليّ أن أحكي لك هذه الانحرافات، لكن التاريخ يصنعه الرجال ومن أجل الرجال، وبالتالي فإنّ للأسرّة أهمية أكبر مما يجب. [لم أكن أدري آنذاك إلى أي حد سيستخدم بنيغش الأسرّة فيما بعد ولا إلى أي حد يتعلق مستقبل المملكة بالغلمة والشهوانية].

كان بنيغش مايَزالُ ينظر إلى الماضي بعين الحنين إلى الفرصة الضائعة.

ـ لسوء الحظ أن إرادة الله لم تشأ أن يتم التحدي بين دون ألونسو ودون دييغو. إذ كنا سنتخلَّصُ من المُتحَدّى والمتحدي. أو ربما من كليهما معاً. كنت قد أعددت كل شيء بدقة. إذا كان هناك من شك، فإنني كنت سأفضل أن نتخلص من دون ألونسو، قلت لك إن دون دييغو والد المتحدى نصير لنا. يرسلونه عادة سفيراً إلينا، لأنه يعرف لغتنا، وهو الذي يوقّع الهدنات باسم ملوكه. بهذا ندخل في النقطة الثانية، المتعلقة بالسلاح الثاني لوالدك.

›› الهدنات، ليست، يابني، إلا ذريعة لتجديد القوى وإعادة البناء اقتصادياً: تلك هي غايتها وليست شيئاً آخر. وإذا ما حقق الإنسان هذا، سواء استنفدت مدتها أو لم تستنفد، فإنه يعود إلى القتال. ما من هدنة تبلغ التاريخ الموقّع عليه: ما أن يرى أحد الطرفين أنه استعاد قواه أكثر من الطرف الآخر حتى يطلق جيوشه عليه. كما ستفهم، لن نكبل أنفسنا بكلمة أعطيت في لحظة ضعف أو هزيمة أو من ملك أحمق أو حذر أكثر من اللازم. والدك سريع في هذا وأنا كذلك. ثم أن قوانين الحرب المضمرة لاتعتبر أن الهدنات تفسخُ من جراء بعض التحركات، التي هي عادية على الحدود. إن مهاجمة المدن الحدودية أمر معترف بمشروعيته مادامت الحملة لاتتجاوز الأيام الثلاثة، والجيوش لاتستدعى بالنفخ بالأبواق، والخيام لاتنصب، ومادام كل شيء يتم باضطراب وعجلة.. أي عندما لايتعلق الأمر بحرب احتلال، بل بتهديد دون تنفيذ، بتخريب المحاصيل، بإضعاف الطرف الآخر والاستفادة مما تستطيع أن تنهبه الحملة.

ـ وهل نحن الآن في هدنة مع النصارى؟

ـ بلى، نحن في هدنة دائمة تقريباً. أي عندما لانكون في حرب. في حزيران 1475 وَقَّعَ قند قبرة معنا هدنة: من لورقة إلى طريف، من أقصاها إلى أقصاها. وقد اكتست مظهراً أكثر جدية من غيرها، لأنه كان يناسب الملكة أن يكون الجنوب، من جهة، هادئاً (إذ كان يكفيها الشمال) ومن جهة أخرى أن تأخذ الجزية منا، إذا أمكن ذلك، والتي كانت عالية جداً منذ معركة هجيرة غير السعيدة التي ربحها منّا والدها. وكانت هذه الهدنة من الجدية والملاءمة بحيث إن المدعو أراندا والمدعو باريونويبو جاءا يوماً بيوم في عام 1467 ليوقعا هدنة أخرى لمدة خمس سنوات. لكن والدك الذي تحصن ذهب في نهاية العام الأول إلى مرسية ليضايق النصارى. لأن رعيتنا كانت بحاجة إلى هذا العمل: إن سلاماً طويل الأمد سيخنّثهم ويدعوهم إلى التآمر، ثم إن غنائم النصارى تلائمنا وكذلك فدية الأسرى. طبعاً، الأسرى في الحالة التي أحدثك عنها، جئنا بهم من شيشة وريسكوت، وما أن وطئوا أرض غرناطة حتى أسلموا، كما هو حال الكثيرين غيرهم، فزاد عدد جيشنا، لكننا خسرنا الفدية: شيء مقابل آخر.

ـ «لا غالب إلّا الله» هوشعار بني نصر ـ قلت مبالِغاً بورعي ـ ، لكن الله معنا حقاً.

ـ ليس دائماً. في تلك الحملة فعلاً كان معنا، في التي تلتها:كانيته، غاب عنًا. لن أخفي عنك شيئاً. لايوجد في تلك البلاد مياه عذبة وكان رجالنا قد توغلوا فيها مسيرة يومين، والمياه التي كانوا يجدونها كانت دائماً مالحة. قرروا العودة محدثين أقل الأضرار الممكنة، من أجل تسريع المسير كما من أجل ألا يلحق بهم المتضررون للانتقام. كثير من الحيوانات والرجال ماتوا أثناء الانسحاب. قلة هم الذين عادوا أحياء. مرّت شهور كثيرة وطريق العطش هذا لاينمحي من ذاكرة الغرناطيين. من هنا كان والدك قد شرع في عمل شيء فوري ليلهيهم. ليس من الواجب أن يبقى المرء زمناً طويلاً يتفكر في الفشل: فالفشل يلتهب في قلوب الرعية. وما سيفعله والدك له علاقة كبيرة مع السلاح الثالث.

ـ سلاح الجزية؟

ـ هذا هو. أشكر لك متابعتك لشرحي المفكك. الخراج الذي كان علينا أن ندفعه (لأن جدك، أقصد جدك لأمك، صادق على التبعية لقشتالة بعد معركة الهجيرة) كان مرتفعاً جداً: عشرين ألف دوبلونة سنوياً. وقد ساومنا حتى أربعة وعشرين ألفاً كل ثلاث سنوات، ومع ذلك فمن الأفضل ألا ندفع شيئاً. قشتالة تعاني، من جهة، من جوع للمال، لأن كل مالها

بأيدي الأساقفة والنبلاء، ومن جهة أخرى فهي ليست في وضع يسمح لها بأن تطالبنا به وتحصل عليه بالقوة. بمعنى إن الهدنات الأخيرة عقدت بمكر منهم ومنا دون الإشارة إلى الجزية. ومن الآن وحتى ثلاثة أيام سيأتي دون خوان بيرث ده بالينثويلا ودون فرناندو ده أراندا، من بين الأربع والعشرين الموجودين في قرطبة، ومعهما رسائل من ملكيهما. عندئذ ستتأكد مما قلته لك، من أنه ليس من الحكمة أن يترك شعب ينام على المرارة.

هكذا كان. تلقيت درساً لن أنساه أبداً، ربما لأنه لم يحكه لي ولم يقرأه وإنما لأنني شاهدته. ولأن والدي، في مركزه كملك وسط البلاط، بدا لي عظيماً، وتوضحت لي أمور كثيرة لاتفسّر. [مازلت إلى اليوم مقتنعاً بها، رغم أنها صارت غير مجدية].

في مساء اليوم السابق شاهدنا، نحن الأمراء ومن البرج، النصارى يقتربون من القصر الذي سيبيتون فيه. كانت زمرة محدودة العدد وصامتة. لم تحدث أية جلبة غير جلبة حوافر الجياد المغطاة بالجلد ودروعهم. كانت الشمس تتلألأ فوقها. الخدم يصعدون خلف السادة الستة أوالثمانية، الذين لاتكاد تطل وجوههم من خوذهم، يتقدمون بهالة وقار وكبرياء مصطنعين، فاجأتنا، نحن المعتادين على أن نعرف النبالة من خلال هيئة أقل صرامة وأكثر مرونة. قال يوسف:

ـ يبدون مثل دمى آلية شدوا نوابضها ليدفعوها إلى السير. أعتقد أنه لايوجد شيء تحت هذا الكم من الحديد.

ـ ليته لايوجد شيء ـ علقت ضاحكاً ـ . ففي هذه الحالة ستنتهي الحروب.

ـ ودون حروب، مافائدتنا نحن؟ ـ سأل أخي نصر.

منذ صغرنا يحدثوننا في غرناطة عن ذوق القشتاليين السيء، عن كآبة حياتهم وموتهم، المتعلقين بأبدية متوعدة، ليس لديهم شواهد عليها، يُضحّون من أجلها بكل شيء، عن أبنيتهم الحجرية غير المريحة وبروج كنائسهم الباردة ونواقيسها غير الانسانية، عن روائحهم الكريهة وقذارتهم، عن رفضهم للحمّامات على أنها خطيئة، عن ملابسهم البنية

والخشنة، وكأنهم يريدون أن يبقوا في حملة متواصلة ويخلط بينهم وبين طبيعة أرضهم الجافة، عن القسوة التي تبقى في حركاتهم حتى عندما يحاولون أن يكونوا لطفاء، وفي ملابسهم حتى عندما يحاولون أن يقلدونا ويخفّفوها. لكن هذه التأكيدات لم تبد لي قط ثابتة.

في صباح اليوم التالي قادني المالح إلى قاعة السفراء. وضعني في غرفة في الوسط، على يمين وخلف الحضرة الملكية، كي أستطيع أن ألمح وأسمع كل شيء.. خلف الزجاج كان ينقسم حيّ بيازين خيالياً مرتعشاً، يتلوّن بياضه بألوان الزجاج. البلاط الملكي الفاخر والمتألق كان يمتد حسب المراسم حتى زوايا القاعة. الشيء الوحيد الذي كان ساكناً أخرس هو بطانة سقف الطباق السبع. كنت أسلّي نفسي بالنظر إلى راقود في طاقة على اليسار حسب الدخول من قاعة البركة، بارد وجميل، معزول ومطيب، مثل هبة من الطبيعة معشقة في ذلك المعبد الصغير. كنت أتأمل سقف الطاقة المصنوع من الخشب المشغول وأرضها التي من المرمر وجدرانها المصغرة المصنوعة من الخزف وملاط الكلس والمرمر، كان ينبض أمام عينيّ الزُليج الأبيض والأسود فلا أكاد ألمح الحد الأخضر ولا زخارف الجص التي تشبه المرمر. في الصباح البارد... انتشرت جلبة بين الحاضرين قادمة من القوس الكبير: دخل والدي. أضيئت القاعة بحضوره. تراه نظر إليّ وهويقترب؟ على كل حال هولم يرني. جلس بعظمة مُحال اكتسابها. كان على الوسائد هرماً منيعاً من ذهب وحرير. والنهار ينفذ بنوره الفضي من خلال مطرزات النوافذ التي تتوّج الغرف. كنت قد بدأت أقرأ في الطنف الأقرب إليّ أبيات لابن الجيّاب:

تحييك منّي حين تصبح أو تمسي   ثغور المنى واليمن والسعد والأنس

فكرت أن ذلك كان، رغم الأبهة التي تقنّعه، مثل مضارب قبيلة بدوية: مصارف الواحة تمثلها بركة الفناء برياحينها، والخيام الصغيرة تصب باتجاه غرفة السلطان، القبة الهائلة التي ينعكس فيها الكون ورموزه السماوية. لوأن ابن خلدون رأى الدرك الذي انحدرت إليه الفضائل البدوية لاحمرّ خجلاً: إذا فعلوا ذلك بقوتهم الفطرية وبتشردهم وعمارتهم الطوبية، فما الذي يبقى من مثلهم وصرامتهم وإيمانهم؟

عندما اقترب النصارى تصورت أنهم أقرب منا إلى تلك العادات. وارتعشت، لكنني تابعت القراءة:

هي القبة العليا ونحن بُناتها   ولكن لي التفضيل والعز في جنسي
جوارح كنت القلب لاشك بينها   وفي القلب تبدوقوة الروح والنفس

وانحنى النصارى انحناءة احترام واحدة فأمرهم والدي بالاستواء بحركة من أصابعه. رأيته يتلألأ فريداً كما الشمس.

وإن كان أشكالي بروج سمائها   ففي ماعدا مابينها شرف النفس

- وبالفعل كانت النقوش تقول:

كساني مولاي المؤيد يوسف   ملابس فخر واصطناع بلا لبس
وصيّرني كرسي ملك فأيدت   علاه بحق النور والعرش والكرسي

كان النور يداعب المطرزات ويتضاعف فيها، يلهوفي الذهب وينزلق على العاج. والنصارى يهيجون، محتارين، وسط تلك اللوحة، لكن لثوان فقط، حتى أذن لهم والدي بالكلام. وعندئذ انجنت رؤوس وعمائم الجلساء إلى الجوانب، اقتربت وابتعدت بين الهمهمات.

اثنان من بين النصارى كانا ملتحيين فقط. لايكاد يكون بينهم من بلغ الثلاثين. بشرتهم الرائقة كانت تدل على أنهم جميعا شقر. ولكي يبرزوا ارتدوا، ملابس فاخرة فاقعة الألوان. ومع ذلك كان يستشف تحتها تيبس من يجد نفسه منزعجاً، ابتسمت عند اكتشاف ذلك. لفت انتباهي خلف السفيرين صاحب العينين الوثابتين في الوجه المتناسق، المحاط بالشعر الكستنائي المسترسل والقصير.

بدأ مولّد مهمته بالترجمة. خطوت خطوتين حذرتين كي أرى بشكل أفضل جانب والدي، المركز واللطيف في آن معاً، الكتيم والودود. وفهمت أن الملكية وراثية لأن الإنسان يحتاج إلى وقت طويل كي يتعلم بعض الحركات، ولأن الجلالة لاترتجل وإنما تحمل في عريكة الدم. كان المولّد يترجم: والدي قد أرسل سفراءه إلى إشبيلية ليوقعوا هدنة، لكنه اشترط مساواته بملوك النصارى وأن يكون التوقيع توقيع دولة لدولة. دون أن يكون قد خوّلهم بالإذعان لدفع أية جزية. السفيران الحاضران والمكلّفان بالتأكيد على الهدنات الآن في غرناطة، يطالبان بتنفيذ الإلتزامات القديمة بالتبعية ودفع الجزية المتأخرة ويدعوان والدي أن يضمّن البنودَ الجديدة ضرائبَ الخضوع المترتبة.

كان الخطاب مسهباً وملتوياً. والخطيب لم يكن يجرؤ على التعبير بالوضوح المطلق عما يريد أن يعبّر عنه. وكان المترجم يشجعه، بتقطيب من حاجبيه، على التخلي عن الموارَبة في بلاط قاعدته الموارَبات. كان

يسمع همس تعليقات الجلساء غير المفهومة. بادرة ابتسامة رفرفت على فمه المكتنز والفلّي حتى الآن. أنفه وجبينه كانا لفتى بالغ على العكس من فمه وذقنه.

ـ من يكون؟ ـ سألت المالح هامساً.

ـ غونثالو فرناندث القرطبي. ـ أجابني ـ : الأمل النصراني.

كل شيء توقف برفة جفن من والدي، الذي قطع التزاحم وأربك المترجم. وما كاد ينتهي الإسهاب حتى رفع والدي رأسه ببطء لايقاوم. وتهيأ البلاط بالكامل، مبدلاً في وضعيته ليستمع إلى خطاب جوابي آخر طويل: خطاب أطول من خطاب السفيرين، أجّل فيه والدي الهدنات، مخفياً إرادته بين جمل منمقة، مبرراً ومستنفداً اهتمام المستمعين كي يستطيع أن يثبط همتهم بسهولة أكبر. ومع ذلك فإن والدي، الذي كانت عيناه الخضراوان والسوداوان تلمعان مثل جمرتين، قال ببساطة:

ـ انقلوا جوابي إلى من أرسلكم: «لقد مات ملوك غرناطة الذين كانوا يدفعون الجزية، ومات أيضاً ملوك قشتالة الذين كانوا يتلقونها» . وأضيفوا: «في دور السك التي كانت تضرب نقود الضرائب، يُطرق اليوم الحديد ليمنع استمرار الدفع» . والآن ـ أضاف ناهضاً ـ والآن تفضلوا، أيها السادة، بقبول ضيافتي.

كان شهر كانون الثاني قد بلغ منتصفه والبرد شديد. لم أشعر به طيلة الصباح. شعرت في النهاية بما يشبه الحرّ.

لم يكد ينقضي شهر على رحيل السفيرين حتى دعا والدي الأمراء إلى قاعة المشورة. عندما وصلت مع بنيغش كان بقية الوزراء وأصحاب المناصب العليا في المستشارية مجتمعين. حيّاني عمي أبوعبد الله بيده مبتسماً.

ـ الطريقة الوحيدة ـ بدأ والدي وكان ينظر إليّ ـ لفرض احترامنا على النصارى هي في أن نبرهن لهم عن قوتنا. كثيراً ماحكم غرناطة ملوك ليّنون مولعون بالتنعم بكل أنواع الملذات بما قل أو زاد من الاعتدال،، بل ودونه أيضاً. يجب أن نبرهن لهم أن هذا الجزء من تاريخنا قد انتهى. وكتدبير أولي أقترح أن نعمل جرداً للقوات التي بحوزتنا وأن نستعرضها في عرض يفخر به شعبنا. لأنني أخاف أن تزداد كل يوم

قناعته بأنه يحضر غروب الأندلس.

أمر بنشر خريطة كانت ملفوفة أمامه وتابع:

ـ لقد انشغلت في أن تموّن حصوننا الحدودية جيداً. بروج الطلائع التي ترصد تحركات النصارى لاتحصى، وهم يطمعون بها كثيراً. ترون هنا التخوم المحمية للمملكة: في الجنوب من بيرة إلى الجزيرة الخضراء. في الشرق وادي آش وبسطة، في الشمال التحصينات التي تتاخم جيّان وأراضيها، في الغرب من جبال رندة وحتى المضيق. بأمر مني تشعل في أبراج المراقبة كل ليلة نيران تشجّع وتحمّس أبناء المناطق إذ سيتأكدون بهذا الشكل أن أميرهم يسهر عليهم. أريد أن نفتتح عصراً نمضي فيه من الدفاع النزق الذي اكتفينا به حتى اليوم إلى الهجوم الذي يستفيد من الظروف الشائكة التي يتحرك فيها العدو. من هنا ولكي يصير قراري مرئياً، أقترح هذا العرض العظيم ـ انثنت أجفانه، لايمكن القول إنه ابتسم ـ لاأخفيكم، إنّ هذا العرض وتكاليفه العالية سيبرر أمام الشعب الضرائب الجديدة التي أزمع فرضها وتجعلها الفرصة مشروعة.

تدخّل عمي دون أن يسمع الجملة الأخيرة:

ـ أليس خطراً جداً أن نجمع الجيوش في غرناطة؟ المدينة المليئة بالجواسيس، الذين سيخبرون عن قوتنا، إضافة إلى ضعف الحدود خلال العروض.

ـ سيتم العرض في تواريخ متتالية ولن نخلي أي معقل إخلاءً كاملاً. سيتم، وأخبركم بذلك كي تعدوا له، في الشهر الأول من العام الجديد. المدة التي سيستغرقها العرض ستكون عيداً في غرناطة. سَيُقْبَلُ فيه سكان القرى القريبة، أما البقية فسيتمتعون بالاحتفالات بالدور. ستعد لذلك الفنادق والمساجد. وسيتدفق من أقاصي المملكة الأكفأ والأشجع من جيوشنا. وسأرأس في باب الجب العروض في كل صباح ـ كان وجهه يلمع وقامته وكأنها طالت ـ سأحيي قوّادي وجنودي وسيحيونني بحرارة. سنتعارف ونتعانق. وستنتشر عدوى حرارتنا وأخوتنا وتَأَجُّجِ الشعب. سيباركنا الله لأننا فرسان الإيمان.

وبدأت الاستعدادات منذ ذلك اليوم. أعدت منصة بدرجات في باب الخضر، ليس بعيداً عن الميدان الذي كان يلعب فيه الفرسان لعبة اللوح والخاتم. وبدأ أهل الأسواق غير المتجانسين، وهم أول من يجتمعون عندما يكون هناك عيد، يصعدون منحدرات السبيكة: باعةٌ جوّالون، مُشَعْوِذون، رواةُ القَصص، بَهْلَوانيون، متسولون، مروضو حيوانات، حواة

أفاع، عميان، أصحاب عاهات حقيقيون ومزيفون مع مواكب أطفالهم، خطّاب، أصحاب فحول خيل لتشبية الأفراس، كل العالم المتباين الذي لايحصى عدده ويحاول أن ينحصر في سوق الحرير أوسوق السقاطين. كانت جلبة الناس الصماء تصل إلينا في غرف الحمراء منذ الفجر وتزداد في كل صباح، والصلوات ترتفع، يوماً بعد يوم مع اقتراب العرض، وتتم التعاقدات وتدار العدالة، بل وتعطى الدروس. وكان والدي يمثل في الظهيرة أمام الشعب في الفسطاط الذي أشاده المعماريون لهذه المناسبة، ويجعلنا نمثل معه كي يعرف الناس الأمراء الجدد ويعتادوا عليهم.

وفي المساء كنت أقترب من باب الجب، يرافقني في أكثر الأحيان عمي، ويهزّ رأسه أمام خليط الناس الهائج والضاج، الذي يتجسّد فيه الاحتفال. كان يسند يده إلى ذراعي أوكتفي: فقد كبرت وصرت بطوله تقريباً. كانت تقع على عاتقه مسؤولية قوات المرتزقة، التي أصابها الوهن، وهي لزمن طويل عماد ـ وخطر ـ المملكة. اقتصرت في البداية على متطوعي الإيمان، لكنها ازدادت فيما بعد بالمتمردين والمتبرمين من سلاطين أفريقيا: وهم أناس خشنون، متكبرون غير قانعين، ميالون جداً للفتن والانقلابات. الجوهري الذي يجب أن ينطوي عليه قائدهم هوالوفاء. وكان عمي هو الأكفأ دون منازع (كنت أتردد مابين الإعجاب به لمروءتهِ وشجاعته أولوفائه.) وكان النصارى يسمون هؤلاء الجنود الكدرين بالقومريين، ومنهم جاء اسم قصر الاستقبالات.

وكان جيش الأندلسيين ـ الجميع، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، استجابوا لدعوة الأمير ـ قد افتتح، بحيويته وظرافته المعهودة، يومَ العرض الأول. يتقدمه علي العطّار قائد لوشة وأشجع شيوخ المملكة وأكثرهم محبة من الناس، والد مريمة، التي ستصير زوجة لي ولم أكن أعرفها. أتذكره على جوادِهِ، منتصباً مثل منارة، شموخاً بلباسه الأبيض، تُقَبِّلُ الريح أهداب مئزره. اقترب من المنصة. كان والدي يمتطي حصاناً أسود كهرمانياً، أمام ثلاثة جياد شقر احتياطية يمسكها ثلاثة عبيد زنوج. رحّب به بعينيه. انحنى علي العطار ليقبل ركبته فمنعه والدي وعانقه بحركة ودية.

كان الجيش تحت أمرة الأمراء أوالقادة، الذين يقودون الرايات الكبيرة، وقوامه خمسة آلاف جندي. يليهم القادة الذين يحملون الرايات الصغيرة وقوام كل مجموعة ألف رجل، تليها الأعلام وقوامها مئتا رجل ثم البيارق وكل واحد من أربعين رجلاً وأخيراً الأعلام الصغيرة وكل

مجموعة من ثمانية رجال. كانت الأقمشة الملونة تصدح وتزدهي مع النسيم. والحشود تهتف للفرسان، متحمسة وسعيدة لانتمائها لمملكة عندها خيول بهذا الجمال وفرسان بهذه الرشاقة، وقوات بهذا التدريب والنظام. كان الفرسان الأندلسيون يفدون من مختلف المدن؛ من الأحياء أوالقبائل المختلفة. كل برايته وعلامته. وكان أبناء مناطقهم ينشدون لهم بحماسة أناشيد المجد والفخار لا يكلون من الاعتزاز بفضائلهم، يراهنون مع أبناء المناطق الأخرى على الكمال الأعظم في العرض.

خلف الأندلسيين خليطُ خطوات، سحناتٍ وموسيقى القومريين. يليهم حرس السلطان الشخصي، وهم من أكثر التشكيلات صلابة ووقاراً، قوامهم مرتدّون من أصل نصراني، بعباءاتهم البيضاء ومعاطفهم السوداء. خلفهم الزهّاد المحاربون، الذين يسكنون الصوامع الحدودية أوالمرابط الموقوفة لبعض الأولياء أوالشهداء. خرس الحضور أمام مظهرهم النفور وهيئتهم المهملة والمغبرّة، وبريق عيونهم المتعصب وطريقتهم الفظة والمتعجرفة في السيطرة على مطاياهم. كنت بجانب عمي الذي كان يخبرني عن بطولات كل واحد، والقبيلة التي ينتمي إليها ومجد أجداده، أربط بينهم جميعاً بداخلي بروابط تكاد تكون روابط دم، كعائلة واحدة مبنية على الرفاقية والإعجاب المتبادل.

لم يكن يزداد كل صباح حشد المشاهدين وحسب وإنما أيضاً حشد الذين عليهم أن يشاركوا في عرض ذلك اليوم نفسه والأيام التالية. تتقدم كلَّ مجموعةٍ الخيولُ الثقيلةُ أوخيولُ الصفِ، تليها الخفيفةُ ثم المشاةُ النظاميون ثم مشاة البنادقِ بنسبةٍ واحدةٍ لكل عشرة رماح ثم العربات التي تنقل المدفعية الثقيلة والخفيفة.

ـ هذا هو سرُّ النصر في الحروب المستقبلية ـ قال لي عمي ـ ، لكن والدك يميل إلى ماهوأبهى: الفروسية، الأبواق، الطبول، المشاة. أي إلى الاستعراض. هاهوأمامنا، واضح للعيان، وليس بيدنا حيلة.

كل مجموعة يحيط بها الأسرى الذين يدفعون الكباش، والعرّادات والمتاريس وقلاع الهجوم. وكانت الثياب والرايات والعمائم، والأدثرة المتماوجة، والمسيرات والأسلحة من التنوع بحيث أنني، أنا الذي لم أحلم قط، كنت أحلم بها كل ليلة وقد أسكرتني رائحة زيت القلي، الدلالون، الضحكات، المشاجرات، والزحام الصاخب الدائم الذي كان يتسلق سفوح السبيكة لينفجر على جدران الحمراء.

أمي، التي حضرت الأيام الأولى وأثارت حَمِيَّةَ المشاهدين والجنود،

انقطعت عن الحضور بحجة أن الهرج الذي كان يحيط بالعرض يسبب لها ألماً في الرأس. لكن السبب كما أعتقد في الحقيقة أن ثُرَيا رغم حبلها الواضح ـ أوربما بسببه ـ بدأت تظهر على المنصة، وفتنت الشعب، شديد التقلب، بجمالها وببطنها. وكذلك فإن والدتي وعمي اهتما بفعالية الحرب أكثر من العرض، واعتبرا المشهدَ المقدَّمَ لنا جميل بقدر ماهوغير مفيد.

الشعب، الذي صار عدده أكبر مما هومعتاد في المدينة واستسلم إلى مجونه في ظل أن الشرطة أرخت حبالها، بدأ يرتكب أذيات هي في كل يوم أكثر وأخطر. مشاجرات بين السكارى، استغلال الزحام لنشل الجيوب، وخلوّ البيوت لسرقة أثاثاثها، ثم إن فقدان الاحترام للقوانين ولأمانة السوق في المقاييس والأوزانِ جعلت المحتسب يضطر للإكثار من التحذيرات في كل ساعة، موسعاً من صلاحياته كما من اختصاصاته وقد بلغت الفوضى والطعن وخرقُ القوانين، وحالات السكر وتذمُر الفقهاءِ والأئمةِ، حدّاً جعل والدي يعود عن قراراته نفسها ويختصرُ، خائبَ الأملِ، العروضَ. وقد حدد يوم الخامس والعشرين من نيسان كآخر يوم، وسيكون الأكثر ازدحاماً وعليه أن يلخص العرض الكامل وحضور جميع الممثلين.

لن أنساه أبداً. إذ كلما أنهى القادة والقيادات العليا عرضهم استمروا على المنصة يحضرون العروض التالية. كان الصباح أزرق ومشعاً. ونسمة ناعمة قادمة من الجبال لاتكاد ترطب القيظ المهيمن على الميدان. والعبيد يروِّحون بمذباتهم الحريرية للشخصيات الكبيرة ليذبوا عنهم الذباب كما ليخففوا الغبار وشيئاً من احتدام الحر الملحوظ. كانت الجموع هائلة، الظهيرة تتلألأ في الدروع اللامعة والملابس الفاخرة وزينات الجياد، في السيوف المحكمة والرماح والتروس المتقنة، المشغولة والمطعمة بالذهب والفضة. في تلك اللحظة كان يمر جندُ بسطةً أَمَامنا. سأذكرُ بيتاً من أبيات ابن الجياب التي قالها بعيد الأضحى[1] :

كان بريق السيوف برقٌ وكان صهيل الخيول رعد

ماكان ليحدث هذا أبداً: غيمة صغيرة، من حسن الحظ أنها غشت للحظات الشمس، انتفخت فجأة، اسودت، والهواء تحول، دون أن يمنحنا

(1) ملاحظة : لم أعثر على هذا البيت في المراجع العربية فترجمته.

الوقت لنتفكر بما سيحدث، إلى ماء. مطر كثيف، صخّاب، مكفهر لايعرف الرحمة انهال علينا. وفي لحظة صار كل شيء طيناً، انزلاقات، سقطات، تعثراتٍ وَتَشَتُّتاً. والمظلات المعدة لتحمينا من الشمس، لم تحمنا من الشلالات التي كانت تسقط من السماء. والموظفون المكلفون بالمراسم انشغلوا، بطريقة أوبأخرى، بأن يوضع السلطانُ والخليلات تحت سقف بأسرع مايمكن. بعد الفوضى التي تبعت الضحك والمزاح والشتائم التي استقبل بها الوابلُ، بدأ الناس يحسون بجدية الأمر. كانت تسمع صرخات الأمهات اللواتي فصلن عن صغارهن، البكاء المذعور للأطفال، غضبُ الباعة الذين يحاولون جمع بضائعهم، زعيقُ الذين كانوا يداسونِ من الهاربين، عجز الجميع. وفي الحال بدأ تقريباً يرتفع هدير الماء المُصِمّ من شِينل. والحواجز التي وضعت لتحمي الحشود من الخيول جرفتها وضربتها المياهُ مِثلَ سلاح قاتل. كانت تُشاهدُ أجسادٌ فارقتها الحياة وحيواناتٌ مخنوقة، ثيابٌ مبعثرة، نِعَالٌ، جيادٌ بلا فرسانها، فرسانٌ أطاحت بهم جِيادُهم، فوجٌ هائج وجامح يبحثُ عن نجاتهِ الخاصة كما في أكثر الهزائم هولاً يمر فوق الشيوخ والنساء والأطفال، فوق الأرزاق والأنقاض. وكان الناس الذين يشغلون المناطق المرتفعة يهبطون إلى منازلهم والذين في المناطق المنخفضة يحاولون أن يتسلقوا أمام فيض الماء النقاط الأعلى، مما كان يبعث على صراعات دامية، في معركة ضروس لارحمة فيها من أجل البقاء على قيد الحياة. كان الفيض قد خرج من مجرى هدّارة في المدينة، فجرف تياره العنيف بيوتاً وخياماً ومساجدَ وفنادقَ اعترضت سبيله. وانهارت الأبنية الأكثر متانة، ومن الجسور لم يبق إلا رؤوسها. الأشجار المقتلعة أعمت منافذ الجسر الكبير. وباعتراض اندفاع المياه، راحت المياه تغزوالأحياء والمتاجر والمساكن. والإعصار حمل المقابر وخرب القبور، ونبش الجثث. بين رعود وبروق وصواعق غرقت غرناطة تحت اللعنة فائقة الوصف.

إلى أن رأف الله بها وبسكانها ففتح مصارف للمياه المدمّرة في المجاري والشوارع والجسور وأجبرها على الخروج خارج الأسوار. في اليوم التالي وبعد أن هدأت العواصف المجرمة أحصيت الأضرار التي لاتحصى. فالفيض ارتفع فوق أسطحة بيوت الضفتين. آلاف الأسر فقدت آباء وأبناء ومساكنَ وأقاربَ. الفيضان والأمطار أغرقا وهَدَما كل شيء اعترض سبيلهما، وغُمر المسجد الكبير، وشوارع التجارة وسوق الحرير وأسواق الحدادين والكرّاسين والصاغة والحذّائين. [والنهر خرب مُنيات

وقرى ومعاصر] لقد ضاع كل شيء. صار كل شيء خراباً وأنقاضاً. بدت المدينة مُبتَلَعَةً وقد نَتَّفتها الكارثة. وَتَنَصَّبَ الحداد مثل سلطان مشؤوم عليها. في الأجواء الصافية كانت طيور الجِيَفِ تحوم مشكلة تيجاناً سوداء.

ومع ذلك فإنني أحتفظ من ذلك اليوم بذكرى خاصة جداً. وما أن أعمتني ستائر الماء بعد أن حاولت أن أعثر على عمي وأخويّ، وقد فصلني عنهم يوسف دفعاً، وبعد أن ذابت الأسرة الملكية مثل قطعة من السكر تنحل في كأس من السائل، حتى جريت لاأعرف إلى أين. وبدل أن أدخل حظار الحمراء، كما فعل الآخرون، من خلال باب الجب، أجبروني على الهبوط في طريق الميدان وقد انسقت مدفوعاً بضغط الناس المتصادمة فيما بينها نحو حي الموريتانيين أوربما نحوحي الأنتيقيريين. كنت أتقدم دون أن تلامس قدمي الأرض، وفي لحظة انفرج فيها احتقان الحشود قليلاً، رأيت نفسي قد ضعت في أزقة متعرجة لم أجُبْها من قبلُ. كنت أسمع صراخ الشعب الذي كان يتعثر بي، بائساً مجهولاً، دون أن يوليني اهتماماً وعندما التفتُّ في محاولة مني لأحدد اتجاهي من خلال أبراج الحمراء، اصطدمت بأحد بدا لي فتاة شابة جداً. كانت السماء بلون القطران، كما لوكان الوقت ليلاً. رأيت وجهها على ضوء البرق أوأنني رأيت عينيها فقط. الرعد الذي تلاه كان من الرعب بحيث أن الفتاة قذفت نفسها بين ذراعي. شددتها إلي لأنها الكائن البشري الأول غير العدواني والمنفرد الذي شعرت به منذ أن بدأ الطوفان. بقينا متعانقين لحظات ـ اللحظات التي لاتنتهي والتي استمر فيها الرعد ـ . كان الماء الذي يصل حتى ركبنا يدفعنا إلى أسفل الشارع. شدتني وحملتني على دخول بيت كان على بعد خطوات منا باتجاه التيار نفسه. استنتجت وأنا حاف أنني أجتاز دهليزاً ترابياً، فناءً مظلماً، نحواليسار، وبداية درج شديد الانحدار وضيق جداً، صعدناه. وصلنا إلى مشرف أوبرج حمام. لم يكن يُرى: فعدمُ وجود النور والمياهُ الغزيرة كانت تمنع ذلك. تركت الفتاة نفسها تسقط على الأرض وكذلك أنا بسبب من الخور ولأنني لاأريد أن أبقى واقفاً في الظلمة. كنتُ تقريباً فوقها، تفوح منها رائحة بهارات وحرارة. تصورت أن بخاراً خفيفاً كان يصعد من ثيابها. سمعنا خفق حمامات مذعورة. فكّرت: «كلنا حمامات مذعورة» . شدتني الفتاة مرتعدة بقوة، أوبالأحرى انشدت إليّ ثم وبشكل ملتحم قبّلتني بنهم،

كما لوأن الحياة ذهبت معها، على الشفتين، الخدين، العينين وقفا العنق. كانت يداها تجوبان جسدي وأصابعها تنغرز في لحمي. نويت أن أنهض وأهرب، لكن إلى أين؟ فالماء يهدر على السطح، وينصب مثل شلاّل بين الدعامات التي تحمله. انتصبت الفتاة ومَزَّقت القليل مما كان قد بقي علي من الثياب ولم تَتَمَزَّق، دفعت بذكري في فمها ووضعت، بحركة وحشية، يديّ على نهديها، الصغيرين والقاسيين. فكّرت: «إنهما مثل حمامتين مذعورتين» . فهمت أن موقفها كان مصالحة عنيفة مع الحياة، أوربما وداعاً، وسط الكارثة التي نجهل أحجامها الحقيقية. وبفهمي له بدا لي أن كل فوضى الخارج يمكن أن تكون حدثت ليقوم ذلك اللقاء. لم نكن أنا والفتاة قد تكلمنا. وكنت أجهل ظرفها، عرقها، اسمها، تقاسيمها وصوتها. وأجهل في أي بيت نحن وما إذا كنا سنخرج منه حيين. في اللحظة نفسها كانت الحياة تتمطى وتتضخم بين ساقيّ. تخليت عن التفكير. وعندما ولجتُ في الفتاة ـ ولم أكن قد ولجت في أية امرأة حتى ذلك الوقت ـ صرختْ. وصرختُها جعلتني أستعيد الوعيَ وأتراجعُ، لكنها وبضربة ردفينِ خلطتني بها. وبعد أن ملكت الذي لها استسلم جسدي للتعب لا أدري لِكَمْ من الزمن. سمعتُ، كما لوكان بعيداً، صريرَ الخشبِ. طرف السطح الأقصى أنهار وغمر الماء المكان الذي كنا جاثيين فيه. لم نأبه أنا والفتاة بشيء. كنت في اليقظة الأكثر تأججاً ومع ذلك كنت نعساً. كل شيء بدا لي خيالاً وملموساً. درت بجسدي الذي بدا لي أنَّه انفصل عني، عدتُ لامتلاكها. كنت أسمع لهاثها، أم أنه كان لهاثي؟ فقدت اهتمامي بالعالم، بالفجائع، بالصرخات التي كانت ترتفع مبللة في الشارع. كل ماكان يُعَرِّفُ بي حتى ذلك الوقت كان بعيد الاحتمال نائياً وبلا معنى، كنت قد نسيت كل شيء ـ أبي، أمي، العرضَ، الجيوش، غرناطة ـ إلا ذلك الحاضر المحسوس والحار، والمقتصر على جسد فتاة كانت تشرب وتلتهم جسدي مرّة وأخرى. كنا كما لوأننا في زورق في عباب البحر، مهددين بالاختفاء والموت وهاجمتنا الرغبة الملحة والمتبادلة بالتلذذ. لم نكن إلا غريقين لاذ الواحد منهما بالآخر وتعارفا متماتعين. كان الماء يخرج، ربما من فتحات القطط أوالحمام المنخفضة. سطوع مصفرٌ بدأ يَسْمَحُ برؤيةِ ذلك المكان الذي لايصدق. لمحت الجسد المُتَرَصِّد بجوار جسدي. بدا لي جسد طفلةٍ. لكنني لا أدري لماذا عرفت أنه لم يكن كذلك. وبما يشبه القسوة امتلكته من جديد. بعدها أخذني النوم للحظة منهكاً. بين الحلم واليقظة كنت ما أزال أسمع احتدام المطر. ثم

وفي غفوة أحسست أنه هدأ. تقلّصُ الرعدِ أيقظني تقريباً. مددت يدي لأداعب جسد الفتاة الناعم، لكنه لم يكن موجوداً. غيابه أيقظني تماماً. جلست على الأرض ولم أرَ أحداً. وللحظة شككت بأن أحداً لم يكنِ معي هناك. بعدها فكرت مرات كثيرة أنه لم يكن موجوداً. نهضتُ مترنحاً. كان المطر قد توقف.

كل شيء تبدل في غرناطة بعد تلك الكارثة. فالشعب اقتنع تلقائياً ومن خلال أئمته بأن ماحدث كان عقاباً جازى به الله والدي على تكبّره. وفشلت غاية والدي، التي لم تكن إلا إبهار الرعية لصالح الضرائب وحملاتِ الصيفِ القادم. الضرائب ستزداد الآن لغايات أخرى مختلفة تماماً والرواتب ستنخفض. إن إعادة بناء ماتهدم شغلِ اهتمام الجميع. وتغلب الماضي على المستقبل: عددُ الضحايا فاق كلّ تصور. المدينة كاملة شعرت بعدم الرضى وفقدان الهمة. الجنود المحترفون اضطروا إلى بيع أسلحتهم بل وحتى جيادهم، كي يستطيعوا أن يأكلوا. والمنجمون والعرافون يخرجون بأسوأ التنبؤات. ظلٌّ من القنوطِ والتشاؤم راح ينتشر حول السبيكة، ومن رابية إلى أخرى. العاصفة جرفت مع العرضِ الأحلامَ والآمالَ. ووالدي الذي فقد قواه أمام المحنة ولم يعد قادراً على التغلب على أثر الصدمة انزلق في هاوية راحت تجرفه نحوالضياع.

تلك هي اللحظة التي استغلتها ثريا لفرض سيطرتها. وتحولت إلى المخلوق الوحيد الذي استمر يعامل والدي دون مهاترات ضمنية ولا ظاهرة. كانت تكرّمه وتتظاهر باحترامه على أنه الرجل القوي الذي كانه. توصلت مع أبي القاسم بنيغش إلى اتفاق. ترك والدي أمور الحكومة للوزير، إلا في حالات نادرة هي في كلِّ مرّة أكثر تباعداً، ولاذ بين ذراعيِ مفضلته، التي منحته طفلها الثالث. في كل يوم كانت تنتزع منه امتيازاً جديداً على حساب أمي وفي كل يوم خيراً جديداً لأبنائها. وانتعاشُ وَضعِ أحدِ الرعايا كان تابعاً لدرجةِ الصداقةِ والخضوعِ التي تربطه بالوزير أوبالسلطانةِ الشابة. وشخصيات البلاط كانت تتحسن أوضاعهم أوتَنْخَفِضُ بحسبِ إخلاصهم للجبارين. أمام هذه الحالة، التي كانت ذكرى الماضي تزيدها خطراً، لم يكن هناك من شيء خطر: فالحياة سريعة الزوال وحاضرنا هوالخير الوحيد. كنت أستذكر الشراهة المجنونة التي انقضت عليّ في برج الحمام ذاك، مساءَ الإبادة نفسه.

كانت تلك ساعة الانتقام بالنسبة لوالدتي: كلما تسارع حقد وعداء الشعب كلما تسارع التمرد. لذلك كانت تشجع جنون والدي وتهيج الناقمين. وبالتالي قررت زواجي من مريمة كي تضع علي العطار إلى - جانبنا - جانبها.

سأحكي شيئاً كنتُ قررتُ السكوتَ عنه عندما بدأت بكتابة هذه الأوراق. إذا ماكان مرادي أن أعاكس الكذب الغريب، فإن علي أن أقول الحقيقة فيما يتعلق بي أنا.

كل شيء كان بالنسبة لي، منذ كارثة العرض وحتى الاستيلاء على الحمة، مبلبلاً، لأنني أنا نفسي كنت مبلبلاً. حدث ذلك حين عشقت لأول مرة. هذا إذا كان ذلك حبّاً. أوأنه كان هناك مرّة أخرى، أوأن الإنسان لايعشق دائماً لأول مرة. لم يحالفني الحظ ولا أعتقد أن من الحظ أن أعشق. ففي الحب دائماً سيد وعبد، وعندما يعكر الحبُ حالات الواقع فإن كل شيء يقود بسرعة إلى الفشل. الآن أعرف أن الحياةَ ليست هذا، ولاذاك، فحياتي وحياة الآخر، أياً كان، ليستْ إلا كُلاً وعلى كل واحد أن يجيب على هذا الكلّ، الذي يجعلها تسير إلى الأمام. ومع ذلك لم يكن لي عينان آنذاك إلا لحبّي. كانتا باتجاه الداخل، بشكل أنه كان من المحال عليّ أن أمعن النظر في مكان آخر ما لم يكن جرحي نفسه الذي منه أتنفس، وخطوب المملكة، الحاسمة جداً فيما تلاها، لم تستطع أن تزيحهما عنه. لأنه إذا كان المرءُ قد وصل إلى الحب، سواء كان صالحاً أم طالحاً، وشرب من معينه، ولعب معه، فنفذ إليه، وضحكَ له ذات مرَّة فجأة، أثناء المعاشرة، فإلى أين سينظر إن لم يكن إليه؟

اليوم لست متأكداً بأن الزمن يجري وأننا لسنا نحن من يتحرك فيه بتعثر. ربما كان يناسبني أن أفكّر بهذا الشكل، لست أدري. هناك لحظات إذا حاول المرء أن يعيدها، أوأن يعود ويتمتع بها ويتعذب، حتى وإن كان في الذكرى، فإنها تختفي تماماً وكأنها لم تكن قط. طالما أننا نعيش الحاضر فإننا لاندركه. تماماً كما لونظرنا إلى وجه عن قرب شديد فإننا لانستطيع أن نحيط به كاملاً: نرى تجاعيد لانراها من بعيد، أولون العينين الخفيف، تداخل الحاجبين، أواعوجاج الشفتين اللذيذ، هل هذا وجه؟ من الضروري أن يصير الحاضر ماضياً وأن نبتعد عنه كي نفهمه. وعندئذ لايعود موجوداً: إنه مجرد ينبوع ذكريات عكر، محاولة عقيمة لبعث ما مات (ما مات ربما كان بأمل أننا عندما نستحضره، نكون قد متنا أيضاً).

أفكر ما إذا كان الموت يوما مبنياً من كل الأيام الماضية، من كل الأيام القديمة التي صارت لاحراك فيها ويمكن تفسيرها وترتيبها مثل الخيوط في سجادة، كل واحد في النهاية في مكانه. إذا ما أصخت السمع اليوم فإنني أسمع موسيقى تأتي من بعيد جداً، من الماضي أيضاً، من الوقت الذي ماتت فيه، من ساعات وعلامات مختلفة عن اليوم وعن حيوات أخرى. ربما أن حياتنا ـ ونحن أنفسنا لسنا إلاّها ـ ليست إلاّ تلك الموسيقى. لأننا جميعا كنا ذات مرة أفضل، أوأسعد وأكثر جدارة. ومع ذلك فإن كل موسيقى تتوقف. حتى في ذكرياتنا كل موسيقى تتوقف.

من أين انبثق هذا الشعور الغريب؟ لماذا كان يترقبني، ويقبع لي خلف الرياحين في ذلك اليوم من أيار؟ يؤكدون أن أيار هوشهر الحب، وأنا لاأعرف شهراً ليس كذلك. فالحب، رغم أنني تأخرت جداً في إعطائه اسماً، انهمر مثل العطر في حياتي مالكاً أيامي وشهوري وسنواتي بعبقه، مضمخاً كل ثنية من ثيابي، وكل بسمة وكل حزن، وصابغاً كل شيء بتلوينات زهرة أوفرحة، مبعداً إياي وشاغلاً اهتمامي عن كل ماعداه، مقلباً المنظورات والأشكال، محولاً السيد عبداً والعكس صحيح، ثم تعلمته يأتي بسعادته الخاصة، لكن حزن الحب تنضاف إليه أحزان الحب الأخرى. كم هوجائر هذا. الجراح الملتئمة تعود دائماً وببطء لتنزف. وذلك الحب الأول مايزال يؤلمني حتى الآن.

انبثق من العدم، من ليل ساكن. [حدث في أقرب رواق من آخر غرفة في قصر يوسف الثالث. رأيته عندما غادرت غرناطة وللأبد فيما بعد] انبثق من العدم، من صباح صاف. من يستطيع أن يحدد تماماً اللحظة التي يحيك فيها القدر نسيج عنكبوته؟ أحد عبر بي قرب تلك الغرفة. سمعت في البداية صوتاً، ليس رائقاً ولا جميلاً تماماً، ماكان يضفي عليه قيمة أن في داخله كان يُقلِعُ شيءٌ، تماما مثل جناح لم يكد يخفق حتى كان الطيران فيه. سمعت الصوت. كان يغني:

إنما أصل الهوى ... يعتري من النظر
تر عينينا ملاح ... خلقت من السحر
تقتبس منك العقل ... وتخليك دون صبر
وترى قلبك فديه ... كالأسير قد قيد

كان يغني فتى، لم يظلل الزغب خديه بعد. كان يضحك لي من الجانب الآخر للبركة. حنى رأسه احتراماً، وعندما هممت بمغادرته لأتابع طريقي، قصف عود ياسمين ووضعه بين أسنانه. لم يحدث شيء آخر.

كان إفقار المملكة وتململها يزدادان دون توقف. وكانت تصل أخبار مفادها إن بني سراج يتآمرون على والدي في بلاد النصارى. لم يمر مساء لم ترسل لي فيه أمي من بيتها في البيازين شكوى ضد المحظية.

ـ ورثتُكَ في الريح. إذا لم تعمل بسرعة وجرأة فإن العرش سيشغله أحد أولاد الخائنة. يجب ألا تسمح بذلك وإذا ماقبلت أنت فأنا لن أقبل.

كان يَتَسَلَّقُ الحمراءَ ـ أسمعه وأنا غارق في قراءاتي ـ ضجيجُ غارة مضطرب. لكنني كنت، وكما في كل مرة يحدث فيها شيء بالغ في حياتي، شارداً في شيء آخر، هذه المرة كمن أصيب بمرض دون أن يدري. تأخرت كثيراً حتى لاحظت كم من المرات تخطر بذاكرتي عينا الفتى المغني وحركته وهويعض على غصن الياسمين. بدأت أكتب قصائد تتخذه ـ هذا ماكنت أظنه ـ مجرد ذريعة. وفوق ذلك كنت أنسخ أبيات الشعر المدرسية المنهكة وغير الانسانية إطلاقاً في شعرنا، يظهر فيها شعراؤنا بريئين مما يفعلون، مثل المطرزات الرتيبة. «أحداث كبرى ـ كنت أفكر ـ تجري حولهم (قتل، زنى، ميتات حب، حروب، انتقامات مريعة) والشعراء يقصرون الحديث عن النرجس وسنبل الطيب والورد» وأقع في خطئهم نفسه، إذ وبينما يتقوّض أساس العرش أكتب قصائد تستلهم فتى مسكيناً. بعد زمن طويل انتبهت إلى أنني كنت أكتبها بعصارة قلبي الحلوة والحامضة.

في شهر حزيران جاء حسين من ألمرية. منذ تلك الليلة التي قضيناها في بيته بتقلباتها حافظت على تعامل سطحي جداً معه. كان يترقى في أعمال أمانة الدولة بسرعة كبيرة. أقام حفلاً لي وليوسف. فهمت أنه يتملقنا كابنين للسلطان وأن نواياه بنات زني، لكنني ذهبت. في تلك الحفلة الغنائية غنى ـ بين آخرين ـ الفتى الذي كنت أُخُصّه بقصائدي، ومع ذلك بدا لي أدنى من غايتها، كما يحدث للشعراء المزهوّين عادة. وجدته سوقياً وباهتاً. لاعيناه كانتا كبيرتين، ولا خده متورداً. لم يكن ينقطع عن الابتسام، يبدوأنه يتمتع باستحسان الجميع. تبين لي أن صوته قد فقد نقاء أصوات الطفولة ولم يثبت بعد. لاشك أن هذا هوالسبب الذي أحدث عندي الانطباع بعدم النقاء عندما سمعته بجانب البركة.

ـ يغني مثل دجاجة حاضنة ـ عَلّقْتُ . . من يكون؟

ـ أنت تعرفه ـ صحح لي حسين ـ إنه غالب، الذي غنى في الليلة التي

بدأت فيها صداقتنا. كان آنذاك طفلاً. وقد غادر الآن كور والده ليغني في حفلات البلاط. أستغرب ألّا تكونا قد تصادفتما ـ وأضاف بشيء من الخبث ـ أم أنكما التقيتما؟ يبدوأنه ينظر إليك بطريقة خاصة نوعاً ما.

ـ لم ألتق به ـ أجبت ببرود ـ ولا أحب أن ألتقي به. قلت إنه يدعى؟

ـ غالب.

ـ إذن قل لغالب أن يسكت. خير له أن يملأ لنا كؤوسنا. ـ كنت أشعر باستفزاز أخرس وغير مبرر تجاه الفتى، الذي كان يمضي من حفلة إلى أخرى، لم أستطع أن أخفيه . . إنه استفزازي ومتغطرس. الناس الذين لافائدة منهم إلا في خدمتنا يجب أن يوضعوا في أماكنهم.

ـ وما هومكانه؟ ـ سألني حسين ضاحكاً.

انتهى الفتى مغنياً:

لورأيتم ما أجملَ
الـذي نعشـقُ أنا؟؟
أي سهام ماءٍ في الجفونْ
النبال كادت أن تكونْ
في خديه وردا مصونْ
مــد يــدك وزوّلــو
أنّ بـالـفـم يُجتنى

اقترب مرحاً ليخدمنا ومعه إبريقٍ بلّوري. لاحظت فراغاً في صدري، كان ينقصني هواء. مددت كأسي ناظراً إلى جانب آخر، هذا الاحتقارُ قطف وردةً وابتسامةَ وَجْهِهِ.

ـ كي تعود وتغني ـ نبّهته ـ انقطعْ سنتين. لم يعد لك الآن صوت طفل، كما أنك لم تملك بعد صوت رجل.

ـ أمر سيدي. لن أعود إلى الغناء حتى تأمرني بذلك.

عند صبّه للنبيذ لطّخ الطاولة.

ـ لقد لوّثت الغطاء.

ـ النبيذ المراق دليل فرح ـ تمتم وبزغت ابتسامته في التحام الشفتين، المنحنيتين إلى الأعلى بملاحة رقيقة.

ـ الخادم عليه أن يصب النبيذ للمدعوين، ولا أن يفرح.

تساءلتُ: «ما الذي أحمي نفسي منه وهوسيء إلى هذا الحد؟»

طلبته مجموعة أخرى فابتعد صامتاً. كانوا يمازحونه ويداعبونه. كان محبوباً من الجميع، كما استطعت أن ألاحظ. ويوزع القبل بتهذيب، وكان لطيفاً وكريماً. شعرت بوخزة لم أشعر بها من قبل وبغضب مدمّر أيضاً. لم يكن حباً، بالطبع. أم أنه كان حباً؟

تراكمت النهارات والليالي فوقي دون أية غاية غير اللقاء الغامض بالشاب المغني أوالساقي أوما كانه. كانت الأحداث تنزلق من حولي، دون أن تترك أثراً أوتلامسني. أريد اللقاء بغالب دون أن أبادر، ودون حتى أن أعترف لنفسي أنني أرغب به أكثر من أي شيء آخر. كنت أتظاهر بنسيانه ونسيان اسمه: ما أصعب أن يخدع الإنسان نفسه، أذهب إلى كل الحفلات التي أدعى إليها بالنية العميقة لرؤيته. وخلال ذلك كانت أمي تلح بتحذيراتها التي هي في كل مرة أكثر شؤماً وتؤنبني على أنني أبدد الوقت ـ «مثل والدك»ـ في الموسيقى وحفلات الغناء والرقص. وكانت جيوشنا قد كابدت هزيمة مونتكورت، التي زادت من حزن سكان غرناطة أكثر، ومع ذلك فإن الرنديين استعادوها، الشيء الذي أسعد الجميع إلاّيَ، أنا الذي أحاول أن أنسى غالباً، وأحرز ذلك للحظات، أوعلى الأقل هذا ماكنت أحاول أن أقنع نفسي به، لكنني أتذكر باستمرار وإلحاح أن عليّ أن أنساه. وبسرعة انتقم الرئيس بونش ده ليون من الرنديين مهدماً برج مركاديل، الأمر الذي أطاح بأسطورة مناعة رندة. وتهشّم ما لايتهشّم.

عرسي ومريمة ساعدني على الابتعاد عن الحفلات وركزّ تفكيري عليها. اعتبرت أنني شفيت واستبقت النصر أكثر من اللازم. وكانت أمي تصاب باليأس الشديد بين «جنون والدي الجنسي» وجنوني.

ـ لوعرفت إلى أي حد ستهيم بمريمة ماكنت سمحت بذلك العرس. على النصريين في غرناطة أن يقضوا عمرهم ونظرهم على العدو. وبما أن والدك فقد الحياء، امسك أنت بالعرش. رعيتنا تريد أن تكون محمية لا محتقرة.

كان جواسيسها يأتونها بأخبار في غاية الخطورة، بعضها يصل إلى النطاق العام. فالهدنة بلغت غايتها وتقترب سنوات سيئة لم تُعهد منذ زمن بعيد. كانت قوة النصارى تتعزز: فالحرب مع البرتغال انتهت بمعاهدة القصوبية التي تم فيها الاعتراف بإيسابل ملكة على قشتالة. مات والد فرناندو، مما جعله ملكاً على أراجون، وقواته الموحدة صارت قادرة على أن تلحق بنا ضرراً لايمكن إصلاحه والنبلاء أصحاب الأراضي المحيطة بنا خضعوا والتحقوا بالتاج عندما أحسوا بالسلطة المتعاظمة له. انتهى

اذن الزمن الذي كان يسمح لنا فيه السادة المنقسمون بأن نحلم. ما من علاج، وكلّنا كنا نعرف ذلك.

التقارير الواصلة إلى أمي كانت تزيد الحالة قتامة. إذ وحسب هذه التقارير فإن البابا في روما، سلطة النصارى العليا، قد أرسل إلى مَلِكَيْ قشتالة وأراجون أمراً بالقضاء علينا.فهوالذي كانت تشدد عليه الخناق قوة الباب العالي التركي المهددة على الجانب الآخر من البحر المتوسط، يريد أن ينتهي دفعة واحدة من التهديد المتواصل ـ رغم ضعفه الشديد ـ لغرناطة، التي بتحالفها مع الأفريقيين يمكن أن تشكل خطراً في أقصى الغرب.

«لست راغباً في أنْ أرى نفسي مثل جوزة في مرضاخ» ، كنت قد قلت لها.

ومن جهة فإن نيّة الملك فرناندو والأسلوب الذي يتبعه أصبحا مكشوفين. منذ سنوات، وهومايزال وليّاً لعرش أراجون وعد أمير ألمرية ابن سليم بن ابراهيم النجار ـ الذي ولأنه ابن ليوسف الرابع كان ينظر إلى فرعنا على أنه مغتصب ـ بمساعدته للاستيلاء على غرناطة. كانت قضيّةً، أراد النصراني بمكره أن يبعثها ليخرج رابحاً من شقاقنا. وقد التزم سادة ألمرية، أباً وابناً ـ الأمير يحيى ـ بمساعدة النصارى بإحياء تطلعاتهما إلى عرش غرناطة وأن يندفعا إلى صراع أخوةٍ قاتل معنا. بينما يعترفان بتبعيتهما لقشتالة، وكمقابل للإمدادات التي يمدونهما بها سلّما مدينة ألمرية ولكي يسترا ماء وجهيهما أمام رعيتهما، كان على ملوك النصارى أن تظاهروا بفرض حصار بحري وبري وهجوم بري على المدينة. لاأدري لماذا، استنتجت مما كانت تحكيه لي أمي أن حسيناً لم يكن غريباً عن هذه الورطة. كنت أجهل ـ ولم أبغ استيضاحه ـ ما إذا كان إلى جانب ابن سليم أم إلى جانبنا، أو ليس إلى جانب أحد مالم يكن إلى جانب نفسه، لكنه كان يتبجح بأنه هومن سرّب خبر هذه التحالفات السرية إلى أمي، بدا أنها تقدره تقديراً كبيراً وتنصحني باستمرارِ صداقتي معه والاحتذاء به. أعتقد أنني كنت بالنسبة لها قليل الطموح أكثر من اللازم وساهياً تماماً عمّا يدبّر حولي. وهكذا كان: كنت أرى الحياة، كما لومن وسط السيل تدور مشوّهة من حولي، غارقاً في همومي، دون أن تبقى لي عينان لأرى ما يجري بعيداً عنّي. كنت بطل حياتي (أوهكذا كنت أحلم، سواء صح ذلك أم لا، والآن أرى أنني لم أكن كذلك إطلاقاً، تماماً كما أنه ما من أحد بطل نفسه)، ولم أكن أرى الآخرين ـ ولا حتى غالب، لشقائي ـ ولا أفكارهم،

ولا اهتماماتهم إلاّ من خلال أفكاري واهتماماتي. أي إنني كنت معزولاً عن العالم ببلّور داكن، هو هوسي المرضي بغالب. إلى اليوم مازلت أتعذّبُ للاقتناع بأن هذا الشيء أوذاك كانا حقيقيين: كنت مركز الأوهام والكراهيات الغريبة، أُحْسَبُ على أنني أمل المملكة، وأفقد، في كل مرة بسرعة أكبر، أملي نفسه.

ـ الحالة مطروحة بوضوح لم يُعْهَدْ قط ـ كانت تكرر أمي ـ في تاريخ السلالة كله أن تصل الأمور إلى هذا الحد. والدك يتورّط أكثر وأكثر بين ذراعي القحبة، وهي تعتبر أنه من المفروغ منه أن ولداً لها سيرثه، في غرناطة تُشْتَمُّ رائحة التمرد: أنفي مخلوق جيداً لهذه الرائحة. العرش يجب أن يشغله من له فيه وزن فعلاً. إما أن تشغله أنت الآن أوأن أهل ألمرية سيستولون عليه. أوربما سبقك وسبقهم وسبق النصارى عمك أبوعبد الله.

ـ ربما كان هذا أفضل مايمكن أن يحدث لغرناطة. أنتِ نفسكِ قلت إنه سيكون ملكاً صالحاً.

ـ قد يكون، لكنني هنا كي أمنعه. فدمي هوالذي يجب أن يسود في غرناطة. لاأريد أن أعود وأسمع منك هذه الحماقة حتى ولو كان مزاحاً.

لم تكن هي تدري إلى أي حد كنت أتكلم بجد.

أخيراً اكتشفت غالباً بين حضور حفلة غنائية في إحدى الليالي. كان قد كبر. كان أكثر سمرة من المرة الأخيرة. عدت إلى الوراء كل ماكنت قد سرته من طريق النسيان. كان عليّ أن أخفي رجفة تهزني من فوق إلى تحت. أسناني كانت تصطك. وعندما هدأت اصطنعتُ اللقاء به.

ـ لم أرك منذ زمن،. أم أنني مخطيء؟

كنت في ألمرية، ياسيدي.

ـ مع حسين؟

ـ نعم، ياسيدي.

ـ وما علاقتك به؟

ـ لاشيء، ياسيدي، لكن بما أنك تَمْقُتُني، دعاني إلى بيته.

ـ أمقتك؟ ـ سألت ناشجاً ـ عليّ أن أراك على انفراد.

ـ لماذا، ياسيدي؟ ـ كان يبتسم لي ـ ألتستمر بزجري؟

حملته إلى مقربة من محرس في وسط الحديقة. وقبّلته بشغف دون

إن أوضح له شيئاً، حاولت أن أقبله كلّ القُبَلِ التي كنت قد تخيلت أنني أُقَبِّلُه إياها في وحدتي دفعة واحدة. استجاب غالب، الذي فوجيء، لقبلاتي بالمطاوعة البعيدة نفسها التي كان يرد بها على قبلات الآخرين اللطيفة.

ـ هل أنت تحبُّ حُسيناً؟

ـ لاأحب أحداً، ياسيدي.

كان واضحاً وضوح الشمس. ومع ذلك لم يكن كذلك بالنسبة إلي.

ـ ولا أنا؟

ـ سأحبك إذا أردت. فأنت من يأمر.

ـ لاأرغب في أن تُحبَّني لأنني أنا من يأمر.

ـ كيف إذن، ياسيدي؟

ـ كما أحبك أنا.

كنت أداعبه باندفاع شديد وكأنني أضربه. أشده باحتدام بين ذراعيّ اللذين كان يستسلم لهما دون مقاومة. ظلّ عبر عينيه اللتين بدتا لي أنهما أجمل مارأيت في حياتي.

ـ تحبني وأنت قاسٍ معي؟

ـ ألا تلاحظ أنني لوتركت كلمة رفق تهرب مني لدمّرتك بحبي؟ عليّ أن أبقى أمامك ويداي على فمي كي أتفادى أن تخرج روحي وترتعب أنت.

لم أفهم وقد لفني انبهاري، أنه وبغيابه عن غرناطة لم يكن حتى ليتذكرني، ولم أتبين وأنا أغلي في نسغ حبي وكرهي، أن طريقينا وخلال الأشهر التي لم أره فيها قد افترقا كما هومنطقي. حاولت أن أحيطه علماً، في لحظة واحدة، بما لم أكن أنا نفسي أفهمه.

ـ أنت خبزي المصري.

ـ وما هذا؟

ـ خبز يسهر عليه الليل كله ولا يمكن أن يؤكل.

راح يضحك ببساطة.

ـ إذن كلني، ياسيدي.

ـ ليس هكذا، ليس هكذا. أنا أيضاً أريد أن أكون خبزك المصري.

ـ الخبز يجب أن يعجن أولاً وتوضع له الخميرة ويخبز وينتظر حتى يبرد.

كان على حق. والذي لايحب هوعلى حق دائماً: وهوالشيء الوحيد الذي يملكه. ودعته متظاهراً بأنني قمت بمزحة معه وعاهدت نفسي أن أبعده عن قلبي وعقلي. كنت عاجزاً عن الإيفاء بتعهدي لنفسي.

ليس هناك ما هوأسهل من امتلاك جسد ولا ما هوأكثر تعقيداً من امتلاك روح: روح لاترفض حتى أن تصبح مملوكة، لكنها تنظر إلى طرف آخر أولاتنظر شيئاً. العاشق فقير من هؤلاء الفقراء الذين يأتون من الهند ليعرضوا فنونهم في السوق: ينامون على المسامير، يبلعون النار، يخترقون أجسادهم بسيوف دقيقة الرأس، ويستمرُّون في الظاهر سليمين، وبقيت في الظاهر سليماً، لكنني كنت أحتضر.

اليوم الذي نمت فيه مع غالب لأول مرة كنت قد رأيت والدي يداعب ثريا علانية، متأججاً بها تتوهج عيناه شبقاً. انسحبا قبل أن تنتهي الحفلة، لأن والدي كان مستعجلاً لامتلاك ذلك الجسد الذي يتقدم له، لكنه لايتجاوب مع رغبته. شعرت بالحزن عليه وعليّ. بحثت عن غالب بيأس. وجدته في بيت حسين، الذي لاتربطه به أية علاقة غير الخدمة، رغم أن الغيرة لم تنقطع عن تعذيبي. حملته معي دون أن أقول كلمة واحدة. وامتلكته. امتلكته؟ تجاوب بحب ووداعة لمداعباتي. سلمني كل ماكان باستطاعته أن يسلمني. ماعنده، كان مثل الذي عند ثريا، لم يكن حباً، كما لن يصيره أبداً. إنه يستسلم لرغبتي، تماماً كما الخبز يسمح بأن يُؤكل. لكنه بالنسبة إلي دائماً هوخبز مصر.

تجسدت منذ تلك الليلة مصائبي. وحدة من يكون وحيداً ليست هي الأسوأ، إذ يبقى لديه الأمل، لكن وحدة الذي يكون مرافقاً، ولا يستجاب له لايبقى له غير اليأس. ليس ممكناً الفوز بمن صار ملكاً لنا، من يطيعنا بخضوع وعاطفة، لكنها ليست العاطفة التي نرغبها. الحب بالتأكيد ليس إلاّ رغبة، واللذة بالتأكيد أيضاً ليست إلا التخفيف من الألم الذي تحدثه هذه ا لرغبة، لكن عندما لاتشبع الرغبة، بل تتضاعف يكبر الألم، بدل أن يسكن، إلى أن يصبح لايقاوم. إنه استسقاء يزيد الماء فيه العطش، يشرب فيه المرء وهو يعي أن ذلك كله عبث وأن المرض في المستسقي نفسه وأن الشرب نفسه أصبح مضرّاً، ربما أقل من الضرر الذي يسببه عدم الشرب.

لكنَّ آخراً يقول:

كالعيسِ في البيداء يقتلها الظما والماءُ فوقَ ظهورها محمول
يدُ الحبِّ تعقدنا فرحاً، نحن اللآلئ والرغبة السلكُ[1]

---

(1) لم أعثر على هذا البيت فترجمته.

هذا ماكنت أتطلّع إليه. لكنْ عندما ينقطع الخيط فإن حبات اللؤلؤ تتدحرج متفرقة دون أن تقوم بدورها البراق في العقد. خلال الشهور التالية المضنية عرفت، وفي كل لحظة، إلى أي حد يتمتع الرجل بسراب الحرية والجنون. لم يكن باستطاعتي عمل شيء ضد جمود عاطفة غالب. معرفتي بأنه سيكون مسروراً لو عشقني، وأنه يسر إذ يرضيني لم يواسني، ذلك كان محالاً. أفي هذا كانت تكمن حريته؟ أفي هذا حريتي؟ الإنسان لايدرك أبداً مايحب: الأفق لايلمس على الإطلاق. ها نحن، وجهاً لوجه، أنا وهو، أو جنباً إلى جنب أو أنا فيه ومع ذلك بعيدان أحدنا عن الآخر بُعدَ الشمس عن القمر.

انتابني نوع من الجنون. كان عليّ أن أنتقم للضرر الذي يسببه لي، رغم أنه غير مقصود. أن أنتقم لحاجتي إليه بتلك الطريقة. منعته من الغناء أمام الناس، منعته من خدمة أي كان. وفرضت عليه مع ذلك أن يغني ويغني ويغني لي وحدي، أن يغني لي بصوته الحامض قليلاً، والذي تتعلق سعادتي العابرة وشقائي الطويل به. كنت أرجوه قائلاً: «دعني أرى جسدك وسط كلماتك» . وكان يتعرى بطبيعته ويتابع الغناء:

خرمت عيناك قلبي
حتى صار مثل كشتبان
ألمي جنان
أنت فيها تمرح
عيناك بركتان ووجهي الجدول
لك المهرجان وقلبي يتمزق.

كنت أحبه وأكرهه بالقوة نفسها وفي آن معاً. [حاولت ليلاً ونهاراً أن أقضي على عاطفتي التي لاجواب لها، تلك العاطفة الفريدة والمبتورة، التي لن تجد صداها أبداً، رغم أن في يدي إنهاء حياة من كان ملهمي لها، أورفعها حتى السماء. ماكنت أرغبه في الأعماق هوأن أجعل من كان يقاومني ـ دون أن يعترض أدنى رغباتي ـ نُتَفاً.] وذات مساء أخذت، وقد بهرتني ابتسامته التي لاتتبدل، حجراً وضربت بها وجهه. أردت أن أحطم تلك الابتسامة التي تدمرني، ذلك الجمال الذي لن يكون لي أبداً، ولايبدو لي، من جهة أخرى، أنّه الأعظم في هذا العالم... كانت عيناه تنظران إليّ مذعورتين من بين الدم ورحت أبكي فوق ذلك الوجه، الأحب إليّ بين كل الوجوه، وحطمته بنفسي. «وظيفة الإنسان ـ كنت أفكر ـ ليست الألم، بل الفرح، لكن ما أسوأ ممارسته لها.»

صار غالب يخافني. يحاول أن يتجنب فرص البقاء معي على انفراد. ويخترع من أجل ذلك أبعد الحجج عن الحقيقة. كل مافعله هوأنه كان يتحول بالنسبة إليّ إلى انبهار لايسمح لي بالتفكير في شيء آخر. كنت أشتاق إليه كما للهواء نفسه، وحين أملكه إلى جانبي أمقته وأشتاق إليه أكثر. كان الناس من حولي يراقبونني باليقظة الحذرة التي يراقب بها من راح يضيع عقله، وكثيراً ما باغتُ همساً ينقطع حين ظهوري. كانت عينا وأذنا أمي من الحساسية بحيث أنه لايمكن أن تجهل ذلك. ما من واحد من مبعوثيها، الذين يحملون لها في كل مرة أخباراً غامضة، استطاع أن يبعدني عن موضوعي. مريمة المحترمة كانت تنتظر أن تمر العاصفة - وهي بفهمها، من الشدة بحيث أنه لايمكن أن تستمر طويلاً - دون أن تشير إلى تبدُّلي أوالى خرابي. كنت أحياناً أحس يدها فوق يدي امتناناً، وأحياناً أمقتها لأن حبها لم يستطع أن يحل محل حبّ غالب. وخلال ذلك كان غالب، الذي وددت لوأربطه إليَّ بسلاسل من فولاذ، يغني لي ويقدّم لي الشراب ويهديني لحمه المعبود، كان وفياً لي، وفياً ويبتسم: يبتسم ابتسامة لاتُدرك. ويمنحني كل ماأرغبه: لم يكن هذا تابعاً لسلطته ولا لسلطتي.

ذهبت ذات ليلة إلى بيت أمي في البيازين، عازماً على المشاركة في المؤامرة ضد السلطان. لكن مشروعي لم يكن فيه أي قاسم مشترك مع مشروعها: كنت قد وصلت إلى نتيجة مفادها إنني ربما إذا أصبحت سلطاناً أستطيع أن أكسب حب غالب، القلب البشري يدافع عن نفسه بحماقته الذاتية. استقبلتني أمي بصرامة واحتقار. لم أكتشف في عينيها أية رحمة، مع أنني كنت أموت. أتوق لأن أرتمي بين ذراعيها، أن أعود لأصبح طفلاً بينهما، أوأن أختفي، وهي، كما لوعرفت ذلك، شبكتهما أمامي.

- لايوجد في هذا العالم ولا في العالم الآخر مايستحق كفاية أن يبعِدَ إنساناً عن قدره. أفضل أن أراك ميتاً على أن أعرف أن شيئاً يجرفك إلى مثل هذا الخرق. سمعت ماقلت: ميتاً. وسأعمل بكل ماملكت يدي لأمنعه. لاتنسَ هذا.

وفي صباح اليوم التالي جاء رسول مُغْبَرٌ بالخبر الوخيم: ضاعت الحمة، التي كانت تشكل قاعة الانتظار بالنسبة للمملكة. كانت الطرقة الأولى للقدر، الذي كانت أمي تتكلم عنه، على بابنا. مساء ذلك اليوم نفسه بحثت عن غالب في كل مكان. لم يظهر. أمرت بالبحث عنه مذعوراً من أن

يكون قد هرب نهائياً من مطالبي التي لاتشبع. قررت لوعاد أن أطلب الصفح منه عن كل تلك العذابات، قررت أن أركع على ركبتيّ أمامه إذا ماعاد، قررت أن أرتب موته، قررت الوصول إلى العرش والتنازل عنه، قررت أن أضمه دون أية إطالة إلى الجيش الذي كان يستدعى لاسترداد الحمة، قررت أن كل شيء قد ضاع وللأبد وكان هذا هو الأفضل، قررت أن أقتل نفسي كي أرتاح قليلاً.

في ساعات الليل الأولى من يوم الفاتح من آذار، حيث كان الربيع يتبدى غير مبالٍ بشيء، طلبت مريمة أن تراني.

ـ أفضل أن تعرف هذا مني: لقد تم العثور على جثة غالب، ابن الحداد. تدهور فجر هذا اليوم، كما يقولون في جبل الثلج.

الربيع، هزيع الليل الأخير، القصر، حياتي، كل شيء راح يتدحرج. سديم... لا، مازال الوقت ليس متأخراً جداً على كل هذا السديم، كل هذه الظلمة: إنهما عيناي.

ـ هونفسه؟ أريد أن أقول بإرادته؟

ـ لست أدري. يبدو أن في صدره طعنة كبيرة... طعنة سابقة على السقوط.

« لن تبكي »، قلت لنفسي. وهنت ساقاي. اقتربت مريمة مني وسندتني. من الأفضل ألا أفكر، أن أغوص. طوتني اهتزازة إقياء. «لا». فراغ في المعدة كما لوأن الموت يعد مكاناً له. كانت تقول لي: «تنفس بعمق» . أم أنها كانت مريمة؟ «لا،لا» لم يكن باستطاعتي أن أوقف ارتعاش ذقني. كنت أسمع اصطكاك أسناني. أبعدتها بحركة وحشية.

ـ ما الذي تعرفينه أنت؟

ـ كل شيء. أعرف كل شيء ـ خفضت عينيها العذبتين ـ وكذلك أمك.

« لن تبكي » ، كررت لنفسي. ولم أبك. لكنني رحت أكره العالم، كل العالم بكل قوى روحي، وأمي أيضاً مع الثقة بأنني سأبقى أكرهها للأبد.

[وكأثر من تلك المرحلة أترك هنا بعض المقطوعات وهي لاتُعبّر، ولا من بعيد عن كثرة ماعانيت وتمتعت. العاشق يحتاج لأن يخدع نفسه كي يستمر بالمعاناة ويحتاج للمعاناة كي يستمر في خداع نفسه. وكبرهان على ذلك هاهي بقايا غرقي باقية على شاطيءٍ غريب تُلَطِّخُ الرملَ، غير قادرة على وصف كم كانت كبيرة شجاعةُ وبهاءُ السفينةِ العالية التي كانت جزءاً منها. سليم من ينسى.

1

كان ليلاً فائق الوصف، وكان لنا
وبما أنكَ قبّلتني عند وصولي،
فقد قبّلتَ، أيها الساقي، الجميع.
تقبّل الفم، أيها الساقي، يا خائني...
انقلب الليل عليّ مثل سيف داكن.
الليل حار وكريم
مثل سيف مُحمًى.

2

ربما اخترت برودة التأمل
ولم يكن الوقتُ وقتَ تأمّل
بل وقت شعور دون توقع
استسلام، بلى، استسلام للأمل
بعينين مُغمضتين.
جميعنا أخوة في المهرجان
ونستطيع تبادل القبل على الفم.
فالقصة تمضي ببطء
أشد من الليل
لا شيء من هذا حدث قط.

3

نتبادل النظرات بينما رئيس الخدم العجوز
يرقص ويتمايل، يده على خصره
والمنديل يهتز في الهواء.
المتعة التي تقوم بين الشباب العاشقين
تحل بيننا كمدعوّ جديد.
كنت شاباً مثلك، ربما أقل قليلاً.
أم مثل رئيس الخدم العجوز الذي يرقص.
وقد ترك الزمن آثاره على الوجه والقلب.

4

الفرح والحزن في الأغنية التي ترنّمها شيء واحد
كما في الحياة.

القنوط يوقظ الجوع والرغبة توقظ الجوع
للخبز الذي لا يُشبعه
أيها الشادي، يا صديقي، لا أدري ما إذا كنا سنأكل.
ما أطول الليل وأقصره
فلنشرب على الأقل معاً.
فلربما نسيت جوعي.

5

لا أذكر ليلاً مثيلاً:
مختلفٌ الشراب والمقعد.
وإن كان ذراعك
يلفُّ خصري
وكان القمر نفسه
فانا أيضاً آخر
مثل المقعد والشراب.
مختلفٌ خوفي من الحياة ورغبتي بها...
الليل وليس الفجر
فالفجر يبقى نفسه دائماً بعد المهرجان.
بالنسبة للجميع، أيها الساقي
القمر ليس سرمدياً
في بغداد، ولا في غرناطة
فحين يطلع الفجر
يذوب في كاسك.

6

لا بدَّ في كل حرب من منتصر
لكننا لن نعرف حتى النهاية من يكون.
ممسكاً بيد الليل
أحتمي من عينيك وأناملك.
أليست المبارزة حتى الموت؟ ألن يكون هناك دماء؟
إن وجدت فلن تلطخ الكاس ولا المفارش.
مسبقاً أنا المُهان
سأسرق في هذه الأثناء من الصداقة قُبَلَك.
وأدفع الوحشة جانباً بمرفقي.

7

تثيرنيَ بحركاتكَ اللطيفة
وترفضني
أنتَ قيدٌ يقيدني ولا ينتهي
بين يديكَ تكرُ لفةٌ
من كل الألوان،
من كثرة ما شربنا ما عدنا نُميزُها.
بنور عينيك أهتدي
ولا أعرف أين يحملني
أو ما إذا كان يهديني أو يضيعني.
فالرشيد انسحب سكرانَ منذ زمن.
ما عادت بغداد بغداد، بل أنا وأنت
بين الموسيقى، التحركات، الفجر والحلوى.

8

في الخارج يسقط المطر على غرناطة
يسقي الليل الحدائق
كما تسقيني.
يضع يديه المبللتين على الغضار،
يجلو النخيل،
يقطع رؤوس المنثور
الياسمين، البربهان، القرنفل
وشجيرات الورد، يقطع رؤوسها ويبكي.
اذا ما تأخر جرحي بالنزف، فلا تَلُمني
فعيناكَ جففتا قلبي مذ وصلت.

9

الحب ليس بستاناً ولا قصراً،
ليس المجدَ، الذهبَ، ولا عبق الزهر.
ليس باب الجنة
ولا أغنية الأيام السعيدة الحالمة،
إن وُجِدتْ،
الحب ليس واحةً، برجاً فضّياً،
لا ولا نخلةً غاوية في الليل.

10

صوتكَ ملاذي، أيها الشادي:
حسناً كان أو سيئاً، فهو ملاذي.
الفجر بقربك
مثل طفل يقشر برتقالة.
قشورها هي كل ما تبقّى لي
للعيش.

11

حبك بعيد عن حبي
مثل خليفةٍ في حصنه
ينظر إلى نفسه في مرآةٍ من ذهب.
ومن جديد أرى العدوّ من أمامي
والبحر من ورائي. فأين المَفرّ؟
وإذا ما بقيت ساكناً
من سيقترب أولاً، البحر أم العدو.

12

عناقكَ يفترس ضعفي.
كم من الدفء يشع من جسدك.
أسير إليك كمن يسير
الى الخلف ويتعثر.
أنظر إليك وأنت رملٌ في عينيّ.
ألمسكَ فينفصل الجلد عن أصابعي.
حين رأيتك عرفت أن حبي لن يكون أصغر مني.
وأنا أكبر منك، أيها الساقي، يا صديقي
لأنني أحملك في أعماقي ولا أستطيع أن أجدك.

13

يقولون إنك جندي شجاع
وبين الطعنة والطعنة
تكتب أشعاراً جميلة.
ولا أفاجأ: ففيك يجتمع عليّ الجمال والقوة
لكننا في الفراش، في معركة الحب
كلانا مهزوم.
لا طلقةً أسمع، لا قصيدة.

المتعة هي التي تئنّ هنا وليس الألم.
الرغبة هي التي تستبد لا الكراهية.
فلماذا لا تتعلم الشعوب منّا
في معركة الجسد حيث كلانا مهزوم؟]

بضبابية شبيهة، كما أفترض، بالضبابية التي ترى فيها الأسماك ضوء الشمس من هوّاتها السحيقة، رأيت ساعتي تقترب [متزامنة مع الأحداث التي رويتها تواً]. لا أحد، ولا أنا نفسي، يستطيع أن يقف في طريقها. فالمملكة فقدت رأسها، والأعضاء تعاني يومياً نتائج غياب الحكومة. وحل محل السلطة طغيان اعتباطي أعمى، والوشايات، بمبرر أودونه، كانت تتضاعف، والانتقام صار عملاً يومياً. ولتفادي النمائم والملامات على الفوضى ـ يقطعونها، ظاهرياً فقط، من جذورها ـ كانوا يعدمون رجالات التدبير والرأي، وأشهر فرسان ومعلميّ المملكة. والدي فقد الثقة بنفسه، التي افتتح بها حكمه ويحتاج الآن إلى تثبيت الشبح الذي يحل محلها. ثريا التي اقتربت من غايتها أكثر من أي وقت مضى، تتدخل بلا تحفظ في شؤون الإدارة والعدالة. وتتطلع إلى أن تُجلِس أحد أبنائها على العرش أوأن تعزز وضعها الاقتصادي، وليحدث مايحدث، فإنها ستبقى في فرح. ولم توفّر وسيلة للوصول إلى ذلك وكانت قد أغرقت والدي في بالوعة الشبق: الشبق الفاحش والغامض ـ الذي صار يُشبعه بصعوبة بعد أن صار أقل قدرة ـ يدفعه، للتمويه على فشله وعجزه، بالخضوع إلى نزوات رفيقته.

نظام الجيش، غير المعتبر وغير المتقاضي لرواتبه، تلاشى، شؤون الدولة أُهملت، والمعلومات التي كانت تصلنا عن ممالك النصارى لاتلقى بالاً، والفساد انتشر مثل بقعة الزيت على سلالم الرتب، زاد الإفلاس، ولمعالجته راح بنيغش يزيد الضرائب على مواطنين يترنحون تحت ثقلها. وافق على بعث الحياة في نظام الدخولات الذي كان قد شرع به جدّي وسبّب عدم رضى الشعب إلى حد أنه دعم والدي في تمرده، ويقوم على الاستيلاء على الأملاك التي باعها أسلافه. وقامت القرى وسكانها ضد هذا الإجراء محتجين «إننا نتضرر بهذا مرّتين ـ كانوا يقولون أمام القضاة ـ لأننا في وقتها لم نشترها بإرادتنا وإنما مجبرين من السلاطين، الذين حدّدوا السعر وأرسلوا فرقاءهم المتوعدين ليقبضوه» . اضطربت المملكة بهذه المطالب، التي تخص تجمعات كثيرة. قرر القضاة، وقد وُضعوا بين

السيف والجدار أن يأخذ الملك نصف الأملاك ونصف الريع وأن تذعن الرعية لأن تُسرق. لكن شيئاً كان قد انكسر، ربما للأبد، بين الرأس، الذي يعمل لمصالحه الخاصة، ويد العدالة التي تعمل دونما حرية في القضاء والأعضاء الأخرى، التي كان نصيبها الطاعة فقط دون ضمان الأول أوالآخر. ومما زاد الحالة سوءاً أن العملة انخفضت قيمتها مما أوقع أضراراً لاتغفرها الرعية. لا أومن بأخلاقية الرعية، كما لا أرى أن حركات التمرد، على الأقل بيننا تنتج عن عدم أخلاقية الأمراء الخاصة. وجذر كل احتجاج إنما هوالاستنزاف الاقتصادي الشخصي. إذ لو إن ملكاً ضمن الحياة المزدهرة للرعية، لحكمهم دون مخاطر مهما بلغ الجور، فالرعية تتمرد عندما تؤثر قراراته على رفاهيتهم وأنانياتهم. وهذا ماكان يحدث في غرناطة. أنا نفسي، عندما كنت غارقاً في مشاكل شخصية، لاحظت ذلك.

وإذا بدا ذلك قليلاً فإنَّ ثُريا راحت تعتمد كلَّ الوسائل الحقيقية والخيالية التي في متناول يدها. إحداها هي أسطورة دوّارة هواء القصبة القديمة، أقدم مافي غرناطة. كنا نسميها ديك الريح. وكان يقال إنها مصنوعة من سبعة معادن وحُفِر عليها النقش التالي: «قصر غرناطة الجميلة أهل للإطراء. يدور طِلسمُه حسب خطوب الدهر. فهذا الفارس، رغم رسوخه تحكمه الريح، لكن ليس بلا سر. لأنه بعد أن يدوم فعلاً حقبة قصيرة ستسوطه بليّة مريعة تهدمه هو وصاحبه» . وكان من الضروري، نظراً للتلف فيه، أن يُرمَّم بناؤه وأن تنزل دوارة ريحه. وقد عزت ثريا، الماكرة، حادثة الديك المهدم إلى تحقق النبوءة، وعكّرت ليالي والدي العبقة بتنبؤاتها المشؤومة. أقنعته بأن أمي سوف تُسَمِّمه كي لاتمنحه الفرصة لتعديل تعييني كولي للعهد، الذي لم يصبح بعد رسمياً. وألزمته بأن يعلن رغبته بأن يكون أبناؤها هم المختارون، ذلك لأن دمي قد أفسده دم أمي المعادي. عرضت له كشوف الطالع التي تمت عند ولادتي وأبرزت له السيءَ فيه. [أنا أيضا كنت أستشيرها بين الحين والآخر وكنت آنئذ أوافق على أنها على حق في بعض الحالات: إحداها مثلاً، عندما تكون الزهراء في العذراء، فإن ارتباطي العاطفي يكون مع أحدٍ من وضع اجتماعي أدنى، رغم أنني كنت أتساءل بحزن، ما الذي يسميه الفلكيون *ارتباطاً*، ومن الذي يصفونه *بالأدنى*.]

وبالفعل فإن الفلكيين، نظراً لأن طالعي في الثور، أكدوا لي الفشل، نظراً لعدم أهليتي ولعدم تكيفي مع الأفكار الجديدة، ونظراً لتصلبي غير

المتناسب مع قدراتي. وكانوا قد تنبَّؤوا لي بكوارث أخرى كثيرة: عندما تكون الشمس في تربيعٍ مع زحل فإنَّ أية مواجهة مع أية سلطة، وبخاصة الأبوية التي كان يُقلِنُ تمردي عليها ـ هناك كثيراً من التردد الوبيل والمؤكد بحلول المريخ في العذراء والقمر في الجوزاء ـ ستنتهي بضياع المملكة، يعدل ذلك وجود المريخ في المنزل الخامس وعطارد في المنزل الثامن، اللذان يتنبآن لي بالإنتهاء والموت بعيداً عن مكان الولادة. كان برج زحل معاكساً لي، فهوفي الحوت يكشف لي محناً مستعصية وفي المنزل العاشر سقوطاً محتماً، بينما بدخوله في قران مع نصف السماء، يحذر بشكل قاطع من وجود عداء داخل الأسرة نفسها ومصادفة مشؤومة لاتجدي معها أي احتياطات، وانحطاط سيحمل معه أكبر الأضرار.

بين الذعر وعدم التصديق، قرأت بدوري تلك الرسائل الفلكية وكنت متفقاً معها بأن حياتي ستجري دائماً في بحر من التردد العاصف، بدءاً من خيبة الأمل وحتى الخيانة، ومن حسن حظي أن الأفضل بالنسبة لي (هكذا كان يقترح عليّ المريخ في شبه التربيع مع نبتون، باستخدام لغة الفلكيين، الذين كانوا يؤكدون ما هو واضح) أن أبقى منعزلاً، نظراً لوضوح عدم استطاعتي أن أتلقى من الآخرين أي شيء صالح.

والدي، الذي كانت تتلاعب به ثريا، صدّق مالم يكن يصدقه من قَبل، أوتظاهر بالتصديق كي لايناقضها. ولكي يعوّض عن ضعفه بالاستناد إلى مرتكزات عالية من المستحيل تفنيدها، لأنها لم تكن منطقية ولا ملموسة، فقد أذعن للعِرَافة والتنجيم. عندما يحاول الكائن البشري أن يبرر قراراته الخاطئة فإنَّه عادة ما يلجأ إلى حجج واهية متضرعاً وطالباً العون من العناية الإلهية، من هنا كان أن الديانات والعلوم تحولت إلى البغاء المربح الذي كان لها في الأصل. عندما لم يعد والدي يثق بنفسه ضرب ضربات عصا أعمى محاولاً أن يجد لنفسه مرتكزات سرية فلم يصل إلّا إلى العنف، هارباً إلى الأمام في طريق يائس لامستقبل له. لكل هذه الأسباب كنت أفترض أن ساعتي قد دقت وفي أسوأ اللحظات.

ومن جهتها، فإن والدتي لم تصبر وتنتظر الأحداث المتوقعة بسلبية، بل راحت تُحَرِّضُ الخصوم. وثقت بشخصٍ من أسرة غرناطية رفيعة، ابن كماشة، ووضعته في مواجهة أبي القاسم بنيغش، وصوّرته أمام عيون الشعب على أنه خلاصة الغيرية والولاء والفضائل. وبواسطته طلبت بحذر

ومكر تدخل بني سراج، الذين كانوا يترصدون، وراء الباب، خطوب المملكة. بعضهم تحول إلى النصرانية، وكانت لهم دوافعهم السرية ـ من كان يخدع من؟ ـ : كانوا يتطلعون إلى تأسيس مملكة تتلاشى فيها أهمية الدين شيئاً فشيئاً وتتحول إلى منطقة من مناطق قشتالة بإدارة تكون إلى هذا الحد أوذاك خاصة، كي تنضمّ إليها بعد مرور عدد من السنوات وبطريقة غير محسوسة. [ولم تكن هذه الفكرة متناقضة على الإطلاق مع الإجراءات التي استخدمها المسلمون الأوائل للنفوذ ـ عبر الثقافة وأساليب الحياة، وليس عبر الأسلحة ـ إلى اسبانيا القوطيين، لكن المسيرة الآن عكسيَّة.]

رغم أن أمي كانت تصم أذنيها عن خطة بني سراج وتتظاهر بأنها تجهلها كي تكسب حلفهم، فإنها تعي تماماً كم للدين من أهمية في الأيام الكدرة. لذلك كسبت بالرشاوى والورع الزائف الأئمة والفقهاء وصلوات الجمعة، وكانت تدعو في كل المساجد وبصوت مرتفع ضد الفحشاء والدعارة وضد عربدة الشيوخ، والإفراط بالشهوانية والسلطة وضد تآكل العادات الأصيلة وضد تأثيرات المرتدين المشؤومة. جميع المؤمنين كانوا يعرفون ضد من كانت توجه هذه السهام وكل شيء كان يوجه، بثبات حذر، باتجاه الثورة.

لكن الفريق الآخر لم يبق مكتوف اليدين. فقد وُضِعنا أنا وأمي وأخي يوسف في سجن نسبي كي لايثيروا غضب مؤيدينا ـ وذلك عملاً بنفاق الوزير بنيغش، قاعدة السياسة في الحمراء. في ا لبداية بذريعة حمايتنا من الخروج من حظار السور، لكن شيئاً فشيئاً ضاقت حدود حريتنا. وبما أنني كنت آنئذ أسيرَ سلاسل أقوى ويلفّني شقائي، لم أنتبه، أولم يضايقني ذلك الحصار. لكن والدتي كانت تفترض ـ وليس دون سبب ـ أن غاية والدي أن ينسانا الشعب بفعل عدم رؤيته لنا، ثم وفيما بعد وبذريعة قيام تمرد أو أية حيلة أخرى نُصفّى وتبقى ثريا وحدها في السلطة. ومع ذلك فإن القدر أبى آنياً إلّا أن يحمينا: لم يكن قد اتخذ بعد قرار تصفيتنا، المخطط لها بصمت لما بعد. وكان ضياع الحمة حيلتها.

احتلها بونش ده ليون، يساعده رؤساء آخرون على أعدائه، على حين غرّة وبشكل مؤلم، وكان تبدّل المواقف من الفردية إلى التضامن نذير شراسة. وقد توقف ضياعي، المدبّر له من والدي أمام الضياع المشترك، الأكثر وضوحاً وإلحاحاً. أربعة أيام جنّ والدي فيها: كان يبكي، يزمجر، يمشي بدون كلل في درب السور، يعطي أوامر غير متّسقة وينفجر بالبكاء

من جديد. كانت الضربة المتلقاة من القوة بحيث أنها كانت قادرة على بعث الميت: فالحمة كانت حاسمة في المواصلات بين غرناطة ومالقة ومفتاح العقد بالنسبة لرندة. (وكانت بالنسبة لي المكان الهادئ الذي مرّت فيه أشهر كثيرة من طفولتي ومراهقتي.) وبعد مرور الأيام الأربعة هذه توجّه والدي إلى الحمة وحاصرها. حاول أن يقطع عنها الماء والحطب بهدف أن يستسلم النصارى، الذين سيقعون في الحاجة أكثر كلما زاد عددهم، لكن يبدوأنهم كانوا لايقلون عن ألفين وخمسمئة فارس وثلاثة آلاف مشاة. وبقيتُ في الحمراء ملفعاً بالحداد مريض الجسد بسبب ميتة أثّرت فيّ كما لوأن العالم كله مات. (ما أرويه الآن عرفته فيما بعد، ذلك أنني لم أكن أستمع في تلك الأيام إلاّ لقنوطي.)

عندما رأى والدي أن حصار الحمة طال، أرسل في طلب ثريا التي تظاهرت، كي تجعله يعتقد أنها في خطر، بأنها دون حماية في الحمراء حيث هي مكروهة. ربما كانت على صواب، إذ ربما كان عليها أن تختار بين الخطر على حياتها، وهو إلى هذا الحد أوذاك وهمي، وبين أن تستبدل أثناء غيابها بأمي. ومع ذلك فإنّ أمي لم تحسب حساب رد فعل الشعب الذي شوشته الخسارة العظمى، وفَهِمَ أنه بدأ احتضاراً ربما كان طويلاً لكنه مؤد إلى الموت، فهم ذلك برسوخ. وبالنتيجة وقف إلى جانب الوحيد القادر على وقايته من المصائب الأكبر والوشيكة جداً، أي والدي، الذي غفر له أخطاءه.

وجيشنا الذي هدّه الفقر وانعدام التدريب، اضطر أن يرفع الحصار الأول عن الحمة بعد عشرين يوماً من بدئه. نطق السلطان بالأمر منتحباً. وقد نيط بالمناكدة إلى جند دوق مدينة شذّونة ـ رغم عداوته الفظيعة مع بونش ده ليون، مما عنى بالنسبة لنا طالع شؤم ـ والى قند قبرة، الذي كانت أسرته مشهورة بأنها حليفة لنا. لقد انتهى زمن السادة العصاة والمستقلين.

قام عمّي، مستغلاً تمركز القوات النصرانية في الحمة، بغارات على الأراضي المتاخمة يستنزفها كي لاتقدّم أية مساعدة للمحاصَرين، واستولى الرنديون على قطعان كثيرة للأعداء وخربوا لهم محاصيلهم. لكنّ مسألة أخرى كانت واضحة: فحرب المناوشات والعصابات التي كنّا لانُهزم فيها نحن الأندلسيين، كانت قد تطورت إلى حروب حصار. أوّلاً لأنّ مساحة المملكة تقلصت، ثانياً للصدمة المعنوية التي اقتضاها سقوط المدن الكبرى، ثالثاً لأن الفنّيات صارت أخرى، والمدفعية بدأت تحلّ محل

تفوّق الفروسية القديمة.

في الرابع عشر من نيسان حاصر والدي الحمة من جديد (كنت أتعافى بعد مرضي،العاطفي أكثر مما هو العضوي، بقيت قرابة شهرين أتأمل مقرنصات السقف،ضائع العقل وفاقداً أسباب الحياة) لكن الملك فرناندوأجبره أيضاً على رفع هذا الحصار الثاني، كما أجبره على رفع الثالث، الذي بدأ في الأيام الأولى من حزيران، قبل أيام قليلة من كتابتي هذه. بهذا الشد والإرخاء عمّ الإحباط في غرناطة. وإذا كنت صريحاً فإنني سأقول إن ذلك لا يعود إلى أن الغرناطيين انشغلوا بنكبة إخوتهم في الحمة، الذين كانت عبوديتهم وإبادتهم كاملتين، وإنما لأنهم يرون صورتهم مسبقاً في تلك الأحداث ولأنهم يخافون أمام هذه الانهيارات أن يزداد ابتزاز الديون والضرائب. وفي النهاية لأنهم واثقون من عدم كفاءة الجيش الذي يتبدى انهياره لهم حتمياً.

انقضى ما يقارب العام على آخر مرة كتبت فيها على هذه الأوراق القرمزية: عام كثيف وحاسم بَدّلَ على هواه مواقف جميع شخصيات هذه القصة.

أكتب في مساء يوم 20 نيسان 1483 . غداً سأخرج على رأس حملة ستأتينا بالمجد ـ مازال يصعب عليّ أن أكتب أنها ستأتيني بالمجد، لكن هذا هوالقصد ـ بفضل الغنائم الكبيرة. مازلت فاغر الفم، ولا أنكر أنني تعلمت من السرعة التي جادت بها الأحداث ـ التي لاتتبع أبداً للأشخاص، رغم أنهم يفضلون أن يعتقدوا ذلك ـ . كلما تعمق قنوط الأندلسيين، جاء الله ليرفع معنوياتهم ويبين إرادته الصحيحة (أتصور أن أعدائي يرون غير ذلك تماماً.)

اتخذ الملك فرناندو، المزهو بنجاحه في الحمة والواثق من خضوع النبلاء له، قرارين خطرين: حصار لوشة ـ لأنه إذا كانت القلعة بوابة الغوطة في جبال براربباندا فلوشة هي كذلك بالنسبة لوادي شينل ولقطع المساعدات الأفريقية المحتملة بحصار الأسطول في المضيق.

أرسل والدي، الذي استنفره جواسيسنا وكان يرى ضعفه بأم عينه، علي العطار للدفاع عن لوشة. بينما استغل هوانشغال القوى النصرانية ليقوم بغارة على أراضي طريف (انتهت بالاستيلاء على قطيع من ثلاثة

آلاف بقرة، الأمر الذي أضحك الغرناطيين، لأن الأبقار كأنثى، مهما بلغ عددها لاتشرّف تاج أي سلطان.) لكنه وقبل خروجه من غرناطة ركّز عقله على الموضوع الذي كان يحرمه من النوم، ذهب إلى السجن، الذي كنت فيه أنا وأمي وأخي، وطلب مني أن نتبادل الصفح على مذابح الخطر المشترك وأن أتعاون معه كولي للعرش وصهر لعلي العطار. ما اقترحه علي - وقبلته - هوأن أخرج في تلك الليلة نفسها على رأس قوة لفك الحصار عن لوشة بالاتفاق مع حَميّ، الذي كان بداخلها. كان اليوم هوالتاسع من تموز من عام 1482 .

ومع ذلك فإن أفكار أمي كانت تسير في طرق أخرى.

- لن تذهب إلى لوشة، مهما حصل. ألا ترى أن مايريده والدك هوأن يجعلك تموت في تلك المعمعة كي لايفكر أحد أنه لطخ يديه بدمك؟ الأمر أبعد من ذلك بكثير. لا هُوَ صَفْحٌ يمنَحُهُ لك، ولايجدُ مايصفحُ لأجْلِهِ عنك، ولا هو قادر أن يصفح عن أحد: ببساطة هذا فخّ. إذا لم يكن كذلك فلماذا انصرف هو إلى مكان آخر؟ عقله العكر على ثقة بأن النصارى سوف يستولون على لوشة، ويريد أن يخرج رابحاً منها: يتخلص في الوقت نفسه من علي العطار ومنك. وفي الحالة القصوى فإنه سيرسل، إن لم يحدث مايتوقعه ويخافه، رامياً موثوقاً وماهراً يقتلك في حنجرتك.

عملت، ولم أكن مقتنعاً تماماً بعد، باقتراحها، فهوكان يمثل بالنسبة إلي خطراً أدنى. وبالطبع راحةً أكبر. توسلات مريمة تكفلت بالباقي: فعندما علمت زوجتي بافتراضات أمي (أوربما لم تكن افتراضات، لأنها كانت تملك خدماً رائعين في الطرف الذي فيه والدي)، لم تعترض على ذهابي مع جيش المساعدة وحسب بل سارعت وأرسلت إلى والدها خبراً دقيقاً بكل ماكانت تشتبه به.

- ثم إن عليك أن تقوم بأعمال كثيرة هذه الليلة - خلصت والدتي بين المتحمسة والمُتَكَتِّمة.

المسألة أن لوشة، بقائدها العريق، ردت الهجوم النصراني. وعاقب المحاصَرون في خروجين أوثلاثة المحاصِرين، الذين لم يكونوا جاهزين لمثل هذا النوع من الهجومات المربكة، كما لم يكن عندهم من المدفعية مايكفي لمفاجآت الحصار. وقعت فرقُ الجنود من مختلف الجماعات النصرانية، التي لم تترابط بعد جيداً، أسيرة الذعر، الذي راحت عدواه تسري بينهم. وعندما هربوا تعثروا بالدعم البسيط الذي كان قد

أرسله والدي - كذريعة لإرسالي أكثر مما لأي دافع متماسك آخر - مع المؤونة من غرناطة. كان علي العطار قد استولى على مدفعية النصارى وذخيرتها، على أسلحتهم ومؤنهم وكمية كبيرة من الطحين خلفوها وراءهم في الخيام. الحصار، الذي توقعه الملك فرناندو طويلاً، دام بشق النفس خمسة أيام. ففي الرابع عشر من تموز حُرِّرَتْ لوشة من حصارها، وفرحةُ أهلها لم تعرف حدوداً.

في هذه الأثناء كان والدي قد عاد من طريف واجتمع مع ثريا في أرداش. كانا يحتفلان بالانتصار الصغير نوعاً ما، المُتَمَثِّل بالحصول على غنيمة الثيران، وما أن شرب وثمل حتى طالب بأخبار لوشة. قال له أحدهم إنني لم أُشَاهَد بين جنود الدعم، مما وضعه في حالة تَيَقُّظ. لم يملك الوقت ليشرب أكثر إذ تلقى أخباراً أكثر تحديداً. حملوا له خبرين دفعة واحدة: إن النصارى قد هزموا وإنه قد نُودِيَ بي سلطاناً جديداً في وادي آش. كان غضبه لايوصف، لكنه لحسن الحظ جاء متأخراً. يقولون إنه جَرَحَ بالكأس التي يشرب بها الساقي الذي أبلغه الخبرَ، وقد أثارته توبيخات ثريا التي قَذَفَتْ بها في وجهه لأنه لم يتبع نصائحها حرفياً، فرمى بها بدفعة واحدة على وسائد الأريكة. ثُمَّ راح يركض في القصر وهويصرخ مُسْتَنْفِراً والقنديل، الذي كاد يَحْرُقُ به نَفْسَهُ، في يَدِهِ.

المسألة أن أمي كانت قد دبَّرت، مُنْذُ وقت مضى، مؤامرة مع ابن كمَّاشَة بالتواطؤ مع شخص يدعى ابراهام ده مورا، مدجن من مدجني هذه المدينة، موجود في طليطلة. حصل على إذن بالدخول أحياناً إلى حيث كنا محتجزين، وهوالقسم السفلي من قاعة السفراء بحجة أنه يبيع النحاس المشغول. وكان ده مورا، وهورجل طيب جداً وخبير ممتاز في أمور الحرب، يحمل رسائل أمي بين قدورِهِ إلى وادي آش مع غُلامٍ يدعى ابراهام روبيلدو، من أهالي وادي الحجارة، كان يعمل في تجارة المعادن في أرجاء المملكة [هونفسه الفتى الذي أقام معسكراً في الغوطة مع فرناندو دل بولغار] وكان يتلقى الرسائل والاتفاقات في وادي آش فارسان مقدامان هما ابن حديد وابن سيد، اللذان سينطلقان معي غداً في الحملة التي سأقوم بها.

آخر ترتيب كان أنه سَيَمْثُلُ في الليلة المذكورة أعلاه من شهر تموز وفي الساعة العاشرة: ستةُ رجال مع تسعةِ جيادٍ بجانب ساقية في سفح جنة العريف. أبوالقاسم بنيغش، الذي كان، بتأثير من إلحاح أمي، يظنُّ

بأنني لن أذهب إلى لوشة، أقام حراسةً خاصةً في تلك الليلة أمام أبواب إقامتنا الجبرية، مما جعل هربنا صعباً. اقترب المتآمرون سيراً على الأقدام خلف ابراهام ده مورا حتى درب السور المقابل لنوافذنا وأعطوا الإشارة، وكانت درغلة الحجل المتكررة. كنا نسمعها، أنا وأخي يوسف، دقيقة وملحاحة بين ابتهالات الجداجد. وكان الليل كثيفاً وساكناً. لم يكن الهواء يجري؛ وعبق الحدائق يتصاعد حتى النوافذ. دخلت أمي إلى الغرفة بسرعة غير معتادة. كانت عيناها تلمعان وفي فمها توتر حين قالت:

ـ هذه الطيور تصدح اليوم لك، غداً تصير المملكة كلها مُلكَكَ. ارمِ حبلاً من النافذة ـ ومدّت إلي بحبل دقيق ملفوف ـ سيكون هذا هو السلمَ الذي ستصعد به إلى عرشك.

أطعتُها دون أن أَفْهَمَ ماكانت تقول. شعرت بأن أحداً كان يشد الحبل عند أسفل الجدران.

ـ شُدَّهُ وخلصنا ـ صرخت أمي بنفاد صبر.

وفعلتُ ذلك. كانوا قد ربطوا إليه حبلاً غليظاً وقوياً.

ـ به ستشنقُ أعداءك، لكن تدَلَّ به الآن إلى أيدٍ ستقودك دون أي خطر إلى وادي آش ـ التفتتْ إلى أخي:

ـ أنت سترافقه.

وأطلق أخي يوسف قهقهة، فالجِدَّةُ والمغامرة كانتا ترفرفان في الغرفة مثل طيور لم يُسْمَع بها. كانتْ ماتزال تسمع في الأسفل درغلة الحجل، شبه ضائعة. عَقَدْنا الحبل إلى سارية المرمر وتركناها تسقط في الفراغ.

رحت لأُوَدِّع أُمِّي.

ـ إذهب الآن ـ قالت لي ـ عندما أراك في المرة القادمة، سأرى فيك مَلِكَ غرناطة.

لاأفهم حتى الآن كيف استطعت أن أعزم على القفز في الفضاء ممسكاً بحبل سلخ يديَّ، ولاكيف قاومتُ إفلاتَهُ. ربما خوفي من أن أجرح يوسف، الذي كان يتقدمني، هوالذي منعني من التخلي عن المهمة وتركي لنفسي أسقط وأنتهي. استُقْبِلْنا أنا ويوسف من المتآمرين باحترام وتبجيل. وعندما وصلنا إلى حيث كانت تنتظرُ الجيادُ سلمونا أسلحة ودرعين. لم يكن قد انتصف الليل حين انطلقنا إلى وادي آش بِقَمْصٍ شديد. لم تكد الساعة التي كان علي أن أنطلق فيها إلى لوشة تمرُّ، حتى كنا

قد سخرنا من والدي وحاشيته. بقي ابن كماشة، المتواطئ مع أمي، إلى جانبها يشدُّ العُقَدَ جيداً، كي ترتسمَ رغباتُهما على السجادة التي يحيكون.

دائماً كان عندي شعور بميل خاص تجاه وادي آش. تحت سماواتها المفتوحة تنتصب القصبة وسط ماكان منذ ألف سنة بحيرة دائرية، شطآنها اليوم أسوار طبيعية موشّاة. يعيش فيها سكان كهوف سعداء، أناس ابتسامتهم صريحة وعيونهم معبرة، محاطون بالنباتات التي تطفح بالخصب وتضفي خضرتَها وغناها على ماكان البارحةَ مستقراً للماء.

وصلنا إلى وادي آش مع بزوغ الفجر. من فوق سطيحة القصبة رأيت مرة أخرى تربتها الحمراء، كهوفها، منظرها المحاط بجبالها المسننة التي بنت فيها الطبيعة أبراجاً، اشتغلها نَحّاتُ الزمن،دوراً ملكية، قباب أسوار جيدة الرسم. إلى هناك جاء القائد الحاكم ورجاله وقدموا الطاعة ووضعوا أنفسهم تحت تصرفنا.

- لايعجبُني - قلت ليوسف معلقاً بصوت منخفض - ، نظرته فرورة.

- فرورة إلى حد أنه لايملك الاّ عيناً واحدة. - أجابني.

اقترب منا حَيِيّاً وربما مرتبكاً، ومضى ليقبّل يد يوسف. أخي، الذي كان مُنْهَكاً دون سبب واضح، أكثر مني بعد ليلة لم ننم فيها، وكان مزرق المحجرين وشاحباً. ابتسم له وأوقفه بإيماءة. حنى ركبته اليمنى وقبّل يدي.كانت الانحناءة التي قام بها يوسف أول انحناءة تلقيتها كسلطان. طفرت دمعتي. ويوسف الذي لاحظ ذلك، أراني وهويضحك يده اليمنى المشوهة وكأنه يريد أن يفهمني أنه لم يكن جديراً بأن يقبلوها له ويخلصني من تأثر غير مناسب. لم يحسن التقدير، فالتأثر الذي تضاعف طفح من عينيّ وشعرت بخديّ مبللين. شددت على تلك اليد بيدي اليسرى وداعبتها باليمنى وعبثت بشعره، الذي كان فاتحاً أكثر مما هوعادةً بسبب غبار الرحلة.

طمأننا الحاكم الأعور. كان يتكلم دون توقف، ربما مُتَغَلِّباً على ذاته بسبب خطورة الظروف التي وجد نفسه غارقاً فيها. كانت مؤامرة أمي ناضجة ومحبوكة بدقة أكبر بكثير مما كنا نعتقد: جميع مدن المملكة تقريباً كانت قد أُخبرت ووقفت في صفنا.

- السلطانة عائشة - قال الحاكم بإعجاب - بطلة متبصرة: ياالأمكما كم هي عظيمة. إنها متشددة بقدر ماهي متبصِّرة مع من لايطيعها - أضاف بمزاج رائق - مما لاشك فيه أنه يصعب على المرأة أكثر من الرجل ألا تمارس السلطة حين تمسك بها. تراه جواب على ديدن إغرائها. يحدث لَهُنَّ ما يحدث للهيابين - تراه كان ينظر إليّ بعينه الوحيدة؟ - الذين ما أن تقدم لهم الذريعة حتى يمضوا من الانكماش إلى الانفلات.

مع كل لحظة تمر كان الحر يصفع الأشياء بأيديه الذهبية بثقل أكبر، وكان الصباح صافياً صفاءً لامحدوداً وأزرق زرقة لانهائية، إلى حد أنه لايسمح للإنسان بالاستماع إلى استنباطات حاكم مستهلكة. ذهبت إلى درابزين الشرفة.نظرت إلى سعة العالم الذي يمتد أمامي. كان رأسي يطفو، بعد ليل السفر، كما لوأنني قضيته بالشراب. فكرت مصعوقاً: «يحب الإنسان أن يتوهَّم بأنه قوي وحر.» ولم أكن أسمع تقريباً همس الحاكم وهويضجر أخي. لم أشعر بنفسي حراً ولاقوياً في ذلك الصباح الرائع. ليس في ذلك الصباح وحسب بل ربما لم أكن كذلك في يوم من الأيام ولن أكونه. كما لا أرغب أن أكون كذلك... ربما لا أحد يرغب به حقيقة،ويقتنع بالوهم الأخاذ أكثر من الواقع. بل، والأسوأ من هذا إن الإنسان ربما يعمل تحت هذا الخلط الذي يثيره بنفسه. [بعدها - عليّ أن أعترف - جرفتني الأحداث ووقعت في هذا الخطأ.] التفت إلى برج الحصن الذي كانت تقطعه الزرقة العميقة. منه جاءت كلاب الدرواس، التي رأيتها تلعب في الفناء، مُحَرِّكة أردافها وأذنابها مرحبةً بي بدورها، بريئة أكثر من صاحبها. نظرت إلى عيونها الذهبية البريئة، واحد منها كان أعور مثل صاحبه. نظرت إلى لون الأرض الداكن، إلى السماء الصافية. نظرت إلى الأزهار التي كانت تزين بسحرها أصيصاً.فكرت: «الأزهار ابتسامةُ اللهِ، وخيرُ برهانٍ على طيبته، والجمال جميلٌ مرتين، لأنه مفرط وربما كانت الأزهار كذلك. لأنها شواهدَ على ألوانِ الجنة.إنها الشاهد الوحيد، الذي لاجدل فيه على أننا نستطيع أن نملك الأمل.» بدا لي مستحيلاً، في ذلك الصباح العميق الغور والبسيط من صباحات الصيف الذي يفتتح العالم مرّة أخرى، أننا نحاول نحن البشر أن يقتل بعضنا بعضاً من أجل شيء أسميناه نحن سلطةً أو دِيْناً. بدا لي مستحيلاً أن نكون قادرين على أن نفقد حياتنا كي نعيش بشكل أفضل، مع أننا نجهل أنها ستكونُ أفضلَ فعلاً.

عند وصولي كنت جائعاً كما لم أكن منذ ماقبل مرضي، لكن كان من المستحيل عليّ أن أَبْتَلِعَ لقمة واحدة، فقد انغلقت معدتي مثل كيس شَدَّ أحدٌ أربطَتَهُ بقسوة. شكرت الذين كانوا يدعونني للطعام في ظل عريشة ناعم،

أعطيتُ بعضاً منها الكلابَ التي كانت ماتزال حولي تحرك أذيالها التي لاتكل منشغلةً بي، داعبتُ رؤوسَها الجليلةَ والوديعةَ، وطلبتُ الانسحابَ كي ارتاح.

لم أرتَحْ. فاختلاطات التغيير كانت مفرطة في تعقيدها. كان خيالي، يطير، دون إرادة مني ـ بل والأدهى من ذلك عندما كنت لاأريد ذلك ـ إلى عمي أبي عبد الله.أين هوالآن؟ فقد خرج مقدماً من غرناطة إلى مالقة، كي يضع خطط بعض الدفاعات في الميناء، ويعد للمساعدات المغربية المحتملة. بالتالي كنت أجهل ما كان قد حدث. واختياره بيني وبين والدي كان مايزال معلقاً في الهواء، لكنني كنت أعرف أنه من أنصار الشرعية. كانت تخطرني حركات الوفاء والحب عنده، رجولته واستقامته مبعثرة. وكنت أكرر لنفسي كم ستربح المملكة لوأنهم بايعوه سلطاناً بدلاً مني.

كانت المرة الأولى التي استوقفني فيها الإغراء، حاصرني مثل حضورٍ ماديّ نام وأَثْقَلَ عَلَيَّ. كان يكفيني أن أمد يدي قليلاً كي ألمسه. فتحت عيني كي أحرر نفسي منه. كانت الشمس، التي هي في كل مرة أكثر علواً ويشتد حرّها أكثر، تتسرّب عبر الزجاج، لتتشظى على الأرض بما يشبه الضجيج، مثل بلّور يصير شظايا، في ذلك الصباح، الأول لاأدري حتى الآن لماذا. هل ملكت الإغراء؟ لا، فالإغراء هوالذي تملكني. وبعدها كثيرة هي المرات التي تملكني فيها. «تنازلْ عن العرش للأمير أبي عبد الله. فهوأكثر كفاءة منك للأيام الخطرة التي تقترب:ردّ فعل والدك المباشر، الحرب الأخيرة التي لم تعرف الرحمة مع النصارى. هوأقوى وأكثر رباطة جأش. وأنت ربيت لتكون أميراً، لالتكون ملكاً. ليس لك سؤدده ولا إمكانياته. لَسْتَ مهيّئاً لكي تحمل على كاهلك الحكومة في أكثر اللحظات صعوبة واضطراباً. وأنت ربما تكون ملكاً صالحاً في زمن السلم، التطورِ والثقافةِ والفنِ، لكن ليس في أزمنة المآسي الواضحة للعيان. تنازلْ الآن وأنت تستطيع، للأمير أبي عبد الله.»

نظرت إلى اليد التي قبّلها يوسف والحاكم.أنيقة وحسنة التشكيل. رأيتها غريبة لاتمتُّ إليَّ بصلة، ربما بسبب التعب، غريبة وبعيدة إلى حدٍّ أنني أصبت بقشعريرة. رأيت كما لو أنَّ الأمر يتعلق بشيء موقّر يجب أن يعاد في وقت قريب. رأيت أظافرها، مصقولة ولوزية، رأيت في ظفر الوسطى بقعة بيضاء. (قالت صبح وهي تشير إليها: «لقد كذبت، لقد كذبت.») رأيت أثَرَ خدشٍ كان قد رسمه غصن زيتون بري على قفاها،

قريباً من الإبهام جداً. تراني تفحصت من قبل تلك اليد بهذه الدقة؟ تراها كانت ما تزال يدي، رغم أنها قُبِّلَتْ. رفعتها كي أتأملها عبر الضوء، وفي داخلها، لون الدم وكمدة هيكلها. رفعت اليد الأخرى.نظرت راحتها، كانت خطوط الحياة فيها ترسم شبكة طرقها. أغمضت عيني لأحاول النوم، لأحاول الهرب. لكن ماكنت أراه وأنا مغمض العينين كان أشد قتامة. عدت وفتحتهما. شبكت يديّ عالياً، أمام نور الشمس، فصلتهما. رأيتهما تتحدان وتنفصلان، كما لوأنهما تنعمان بحياة ليست لي. تظاهرت بأن واحدة منهما ليست لي، اليسرى، كانت لشخص شغوف مات ـ مات قبل أن يحضر أويرغب بهذا الصباح ـ وعرفت أن الموت مُعدٍ... تظاهرت أن واحدة منهما، اليمنى هذه المرة، كانت يد عمي أبي عبد الله وعرفت أن القوة ورباطة الجأش ليستا معديتين... تظاهرت أن واحدة منهما ـ أية واحدة، بلى أية واحدة ـ كانت يد يوسف المشوّهة، أو يد أيٍّ من أولئك الذين أحبوني في طفولتي.لا، لم تكن لهم تلك اليدان، لكنهما أيضاً ليستا لي. لو كان يوسف معي هنا. لكنه منذ برهة خرج إلى ألمرية، كي يتأكد بنفسه من طاعة المدينة. لو كان زين، كلبي وحده بين كلاب الدرواس في الفناء، التي فرحت عند رؤيتها لي فرحاً غامضاً...مامن أحد كان معي. ولا حتى الحلم. لاأحد...نظرت بإشفاق مرة أخرى، إلى خطوط يدي وقرأت فيهما بوضوح الفجيعة والفوضى والانهيار التي تنبّأ لي بها برجي. أخيراً وعند ضحى هياجي، أرِقاً ووحيداً، قرّبت يديَّ من وجهي وانفجرت بالبكاء بينهما، تماما كما كنت سأبكي بين يدي أمي لوسمحت لي بذلك.

منذ الساعات الأولى لذلك المساء بدأ يصل ممثلو المدن والبلدان والقرى، ليعترفوا بي ويكرموني. أهداني حاكم وادي آش ثياباً فاخرة شبيهة بتلك التي رأيتها ذات يوم بين كنوز الحمراء. قال:

ـ أشكر العليّ القدير، الذي منحني، أنا ابن رعيتكم الأكثر تواضعاً، فرصة أن أُقَدِّم إلى أمير المؤمنين ثياب المبايعة.

في تلك الليلة هزمني التعب. في اليوم التالي عدت وأنا في ذروة حالتي وفقداني لوعيي، لأعاني من الإحساس نفسه الذي كثيراً ما انتابني في الأشهر الأخيرة، حين وجدت نفسي مجبراً على إخفاء تمزّقات قلبي: الإحساس بأنني أمَثِّلُ رجلاً آخرَ في احتفالٍ يمكن أن أُصَفَّى فيه دون أن ينتهي هو. لاشيء كان يؤلمني حقيقة، ولا يفرحني حقيقة، لم أكن أنزف،

أو أن ذاك الذي كان يجري لم يكن دمي. إذا ما فكرت بوالدي، تقتحمني من أعماقي الثقة بأنني كنت أنتزع منه مكانَهُ. كنتُ مثلَ إمام سيء يدعو للصلاة في غير وقتها، ممثل يلعب دورَهُ في قصةٍ مزوَّرةٍ وطارئة. الإيماءاتُ هي المناسبةُ، الإعياءُ هوالمؤاتي، المدائحُ محفوظة عن ظهر قلب، الملابسُ متقنة وكذلك حدة النظرات ونبرة الردود، لكنها لم تكن حياتي الحقيقية، ولاأنا كنت ذاك. حَيَاتي الحقيقية كانت تقبع، تختبىء، وترقّ حتى تتلاشى ـ صغيرة ورمادية، لكنها نابضة مثل حيوان صغير ـ تحت الكثير من التبذير بالكلمات والبهارج.

في اليوم الرابع تلقيت بريداً من غرناطة. كان بنو سراج الذين استجابوا بسرعة لنداء أمي وابن كماشة، قد قبلوني، والشعب المنهك أخذته النشوة بظهور أمل جديد. كانوا يُرَدِّدونَ بِتَشَفٍّ وابتهاج من والدي: «من بالحديد يَقْتُل بالحديد يُقْتَل» [كنت أطرح على نفسي كي أتسلى، ودون أن أحل المشكلة، ماذا تعمل خليلات الحريم، وهن المعتادات حين الخلع عن العرش على مجرّد تبديل اسم سيّدِهن، القيل والقال، أحزابهن، والمشاجرات التي قامت بينهن، كيف سيستقبلن السلطانة الجديدة، زوجتي في الوقت الذي سيستقبلن فيه القديمة، التي أعيد لها شرف السلطانة الأم، ماذا ستفعل ثريا التي تبدو طموحاتها قد غرقت آنياً... وكنت أرى في هذا الخليط المُتَصَوَّرِ للحريم الشفتين الغليظتين للزنجية فارعة الطول التي تعرفت إليها خلال زيارتي مع نسيم «رغم أنه يمكن أن تكون قد ماتت ـ كنت أقول لنفسي ـ أوإذا ما كانت مستمرة هناك فلا بدَّ أنها تحوّلت بسبب عمرها إلى خادمة للأخريات.»]

كان والدي قد انطلق بالمخلصين القليلين معه من أرداش لاستعادة الحمراء. فالذي يمتلكها يصبح ملكاً للمملكة لأنه امتلك الرمزَ. إلى حد أن الرسائل الافريقية الموجهة إلى السلطان الغرناطي تبدأ بنداء صاحب الحمراء.فابن كماشة قد استولى عليها باسمي، واستطاع أن يردّ عن أسوار حصنها هجوم السلطان الشرعي. ثم استطاع مع رجاله ـ أريد أن أقول رجالي ـ ومن برج السلاح أن يطرده من السبيكة دون صعوبة كبيرة. وبعد معركة دامية، لكنها قصيرة، في شوارع المدينة، مع سكان البيازين المعروفين تقليدياً باضطرابهم لصالحي،كان انتصار أنصاري كاملاً. كان الشعب حسب البريد، يتأجج شوقاً لرؤية ملكه الجديد. وكان من غير المعتاد في تاريخ العائلة ألا يكون قائد التمرد على رأس أتباعه.

ـ ماذا عن عمّي أبي عبد الله؟ ـ كنت قد سألتُ.

كان قد وصل في وقته من مالقة ليحضر هزيمة والدي، لا ليشترك في المعركة. وكان الأخوان قد لجآ من جديد وعلى وجه السرعة إلى مالقة، مدينة عمّي المفضلة، والمفضّل عندها أيضاً، وكان لابدّ لي من العودة.

دخلت البيازين محاطاً بالهتافات. كانت أمي تنتظرني في باب فحص اللوز، وهي أكثر تألقاً من أي وقت مضى، حتى إنها كانت تبدوجميلة: ربما السلطة تُجَمِّلُ « لكنها لاتُجَمِّلُني أنا» فكّرت. لكن مريمة استقبلتني دون مبالغة وبطبيعية وقورة. كانت عيناها السابرتان تبحثان عن عينيّ. قبّلتها على أهدابها فحنت هي رأسها قليلاً على كتفي.

ـ كل شيء يجري نحوالخير ـ هَمَسْتُ ـ كائناً ماكان.

تحت أقواس من الأزهار دخلنا الحمراء. وكانت أمي وابن كماشة قد سَمَّيا من سيكونون رجالي الثقاة في المستقبل. الذي كان يتباهى بأكبر سلطة بعدهما هويوسف بن عبد البر، رأس بني سراج. قبلت: لم أكن أرغب بمعاكستهم، لم يكن ذلك ليجدي شيئاً. الشرط الوحيد الذي فرضته، رغم أنني أعتقد أنه لايمكن أن أسميه شرطاً، هوأن أسكن قصر يوسف الثالث، بدلاً من القصر الذي كان يسكنه والدي، قصر آخر السلاطين، عانيت كثيراً حتى حصلت على موافقة ابن كماشة، الذي كان يعتبر أن القصور الأفخر أكثر دلالة على الجلالة. وبينما كنت أعرض له تصميمي على عدم التساهل إلى هذا الحد، رأيت بجانبه نسيماً الخصي، الذي كان يحييني ويشجعني بعينيه.

ـ نسيم هومن سيهتم ببيتي منذ الآن ـ قلتُ وفاجأني سماعي لنفسي أقول ذلك.

وتقدم هو، كمن بوغت، قَبَّلَ ذراعي ودعاني للحاق به إلى قصر يوسف الثالث.

ـ بما أنني كنت أعرف ماتؤثره، فقد أمرت بأن يعدوه لك.

وعند هبوط الشارع الملكي. أعلن لي بعد تردد:

ـ كلبك زين مات منذ يومين. كان قد كبر كثيراً: لم يقاوم فراقك. شيء محزن أنه لم يصبح كلب السلطان.

ـ لم تكن تهمّه هذه الترهات. أين قبروه؟

ـ كانوا يريدون حرقه. وأنا منعتهم. ليس بعيداً عن المكان الذي كان لي شرف تعميدك فيه. ـ أجاب مبتسماً بطريقة غامضة.

موت كلبي بَيَّنَ لي أكثر من مبايعتي أن مرحلة من حياتي قد طويت، ربما كل حياتي. لكن، دون شك، ذلك الجزء منها، غير المسؤول والبهيج، استطاع فيه طفل مسلم أن يقنع خصياً بأن يعمّده.

نسيم، الذي فهم كتمان الحقيقة، حنى رأسه بوقار. قضيت بقية ذلك النهار جالساً إلى جانب قبر زين. بشق النفس غفرت له هجرانه لي.

كانت المساجد قد بدأت تذكر اسمي في الخطب. طلبت أن تُقَلَّصَ احتفالاتُ التتويج بسبب الظروف. عندنا ـ كنت أتذرّع ـ الكثير كي نعمله، الكثير من المراسلات والوثائق للتوقيع، الاتفاقات، الاستقبالات، وقضايا كثيرة يجب أن يُبَتَّ بها بسرعة. لم أكن أعرف إلى أي مدى كانت الذريعة صحيحة.

وما أن بدأ شهر آب حتى دمّر فرناندو الغوطة وأضرم النار بالمحاصيل والقرى، تحميه الفوضى التي أحدثتها بوادر الحرب الأهلية. تناهى إليّ أن والدي حصل على نجدات غير كبيرة من بعض المتطوعين المغاربة، الذين نزلوا في مالقة خادعين بذلك سفن النصارى في المضيق. طاف والدي في بداية الخريف مع عمّي ـ هو أيضاً: كان قد حسم موقفه ـ في سيتينل وقانيت، كي لايعترفا بأنهما هُزِما كلياً، مخربين دفاعاتهما. وفي الحال احتل مقدم الأندلس بيدرو انريكث قانيت وأهّلها بالسكان، على العكس من سيتينل، التي بقيت في أيدي النصريين، رغم مهاجمة مركيز قادش لها. «لكن لم تعد جميع الأيدي النصرية تنتمي إلى الجسد نفسه» ، قلت هذا لنفسي عندما أعلنوا لي النبأ.

انسجاماً مع مايحدث في الطبيعة، التي من المؤسف أن الإنسان نادراً مايحترمها هدّأ الشتاء أوأخفى التوترات، ومنحنا الوقت كي ننظم المملكة تنظيماً سيئاً أكثر مما هوجيد. كان شتاءً طويلاً وقارساً جداً. غرناطة الملفعة بالثلج خرساء. حرمني الجهد المضني خلال هذه الأشهر حرماناً كلياً تقريباً من ممارسة ماأحب: القراءة، سماع الموسيقى غير القريبة جداً، التنزه ببطء دون أي هدف محدد، تأمل تبدل الأنوار، الكتابة

دون استعجال. قليلة جداً هي اللحظات التي استطعت فيها أن أملص، خلال هذا الشتاء، من انطباع ماكنت أمثله.

ـ السلطان مجبر على أن يكون سلطاناً، لا على أن يتظاهر بأنه كذلك ـ كانت مريمة تصر عليّ فجأة، لامحة ماكان يجول في خلدي ـ . كُنْ، ياأبا عبد الله، أنْت، سلطاناً أوغير سلطان، لصالحك ولصالح شعبنا، كن أنت. وستحقق ذلك إذا ما قاومت قليلاً. حاول الآن مجرد محاولة واعتمد عليّ عندما تحتاج إليّ. أنا على قناعة بأنه لامبرر لوجودي غير ذلك.

أشكُرُها كما يشْكُرُ الناقِهُ عصاه، وهو يجرجر قدميه قليلاً ليطلّ من النافذة ليرى النهار يزداد أَلَقاً فيزداد هوأملاً. أحاول، وأجهل ما إذا كان بنجاح، أن أقوم بدوري كسلطان، لكنني لست قادراً على أن أمحو مالقة من رأسي. فهي فيّ حارة ودافئة، بقصبتها التي تسمق بين الأزهار والدغل، بجبل الفار مثل نورٍ فوقها، والميناء السعيد والأزرق ودار صناعة سفنها ومصانع الحبال. ولا يغادرني أبوعبد الله ـ ماتراها طهارتُهُ ترى فيّ؟ ـ الذي كانت مساعدته ستخفف عني عبء الحكم (هذا إذا كان من الممكن أن نسمي اتباعي *لإرشادات* ابن كماشة وأميّ حُكماً.)

تأخر الربيع هذا العام كثيراً في المجيء، لكنه ما أن جاء حتى تفتحت البراعم على مداها.

اجتمع النصارى في أواسط آذار في أنتيقيرة. وقد وفد إليها خيرة نبلائهم، بدءاً من بونش ده ليون وحتى أستاذ شنتيقب الكبير. كان يساعدهم بيرناردينو، مرتد أسونا، الذي سيقود حملة على جبال مالقة: رأى القادة أنني في وضع أفضل من السلطان المعزول. قرروا مهاجمته. وانضم إليهم عامل إشبيلية قند ثيفونتس، السيد الكبير ألونسوده أغيلار ومقدم الأندلس: كل الأسماء الأسطورية الحدودية ضد والدي. هل عليّ أن أُسَرَّ؟ وإذا كان كذلك، فلماذا لم أُسَرّ؟ في اليوم التاسع عشر من آذار تجاوز عدد الذين توجهوا إلى الشرقية ثلاثة آلاف فارس وألف راجل. وحسب ما أخبروني فإن قوات مجالس البلدان وعلى رأسها السادة اجتمعت على حدودنا، أوبالأحرى على حدود والدي، صباح اليوم العشرين من آب. وكان سكانها، الذين أُنذروا مسبقاً، قد غادروا قراهم ولجأوا إلى أعالي الجبال أوالى بروج الاستطلاع وحملوا معهم أفضل ممتلكاتهم. شعرت حين سمعت بالإجلاء، بألم أولئك الناس وحزن عمي أبي عبد الله الأعزل، أمير يكاد يكون بلا جيش. توغّل النصارى في الجبال دون مقاومة تذكر،

محقوا القرى والضياع، أحرقوا الأشجار المثمرة، ووصلوا إلى الشاطيء من الداخل عند بزميليانة. تابعتُ على الخارطة تقدمهم ساعة بساعة، ضائعاً بين المحنة والابتهاج. هل كان ذلك العدوان يطال المسلمين جميعاً أوسلطة والدي الآفلة فقط؟.

في اليوم الحادي والعشرين بزغت الشمس في داخلي: تبدلت الأدوار بدورة هائلة وعنيفة. ناظراً الخريطة، كنت أرى يد عمي الرهيفة تشير لي نحو التدرجات والقرى والهضاب. وعندما توغل النصارى تماماً في الجبال، في تلك الأرض الصخرية المتكسرة والوعرة من جبال مالقة، اندفع أتباعنا ـ آه، بلى، عرفت أخيراً، أتباعنا كائناً من كان على رأسهم ـ على الجيوش المعادية، فمزقوها ودمروها، وكمنوا لها في المنحدرات، أنهكوها في أعماق الوديان، وقضوا عليها من قممهم. انقضّوا عليها في الفجاج والمضائق والوهاد وأعملوا فيها ذبحاً محكماً وناجحاً. جرى النصارى منهكين ومطعونين إلى مشارف مالقة، المدينة التي كانوا يحلمون بها، ورأوها يعوقهم عنها دمهم. الخميس وصباح الجمعة، ليلة لن ينسوها أبداً. أتصوّر هذه الليلة كما أتصوّر عمي منتقماً ورائعاً. حوّل الرعبُ وسط الظلمة وسياط الشياطين الصائتة وغير المرئية النصارى إلى أعداء لبعضهم بعضاً. يهربون لا يدرون إلى أين، مخلفين وراءهم كل شيء، الحياة نفسها، أوالحرّية في كل الأحوال. الأخبار الأخيرة ـ والفرح الذي منحتني كان عليّ أن أخفيه أمام أمي ووزرائي ـ كانت تقول إن أكثر من ألفي نصراني، معظمهم من النبلاء، وقعوا في الأسر، وإن الشرقية كلها مغطاة بالخيول، والمطايا والأسلحة والمؤن، وإن المالقيين كانوا ينادون بأعلى أصواتهم عمي *بالزغل، أي الشجاع*. لم يكن النور الذي يدخل من رافدة نافذة غرفتي بنقاء فرحتي حين أخبروني بذلك. ربما فهم المخبر أن صمتي الطويل سببه الانزعاج: كم نجهل بعضنا بعضاً نحن البشر. *الزغل*، أبوعبد الله، *الشجاع*، هكذا سأناديه أنا أيضاً من الآن فصاعداً.. حتى ولوبقي في حزب والدي، أوربما لهذا السبب، حتى ولوقاتل في مملكة صورية، بين واديار وألمرية، حتى لوافترضت أن هذا الجزء من الشاطئ سيقع عند المواجهة تحت سلطتنا. لأنني لا أعرف بالتأكيد ما هي سلطتنا. ولا أستطيع أن أقول «نا» إلا عندما تكون ذراعي مع ذراع عمّي، *الزغل*.

سارع الملك فرناندوإلى تزويد الحمة بالمؤن، كي لا نُعِدَّ أنفسنا، نحن الغرناطيين، لاستعادتها، معتمدين على هزيمتهم في الشرقية.

الصحيح هوأن هذه الامكانية قد طرحها ابن كماشة في المجلس. لكن المجلس قرر أن السياسة الأكثر حذراً تكمن في بقائنا داخل حدودنا وفي تحصننا لمواجهة ما قد يأتي. ما حدث بالفعل: دخل نصارى مرسية المملكة عبر بيرة في أوائل نيسان وأتلفوا الزرع. وكانت أمي هي التي رأت أن الخطر الأعظم يحيق بنا: ليس في أقرب الأراضي إلى مرسية وإنما في ألمرية، مقر الأمير يحيى، ابن سليم. لم يمض أسبوع حتى تأكدت شكوكها: فالملك فرناندو كان سيستخدم ضد غرناطة الخيانة نفسها التي استخدمها وهوأمير، كان سيدخل بين النصريين فريقاً آخر ثالثاً وشقاقاً ثانياً، أكثر عمقاً من الأول، بيني وبين والدي. تابع النصارى طريقهم من بيرة إلى ألمرية، التي وعد الخائن يحيى بتسليمها لهم. أرسلنا جيشاً محدوداً ليمنع الخيانة. وما كنا لنستطيع تحقيق ذلك لولا أن أمطاراً أخرى فظيعة وعجائبية، قررنا أن نعزوها إلى رحمة الله، ساهمت معنا. أعتقد أننا استطعنا أن نتنفس مؤقتاً من جهة ألمرية. ومع ذلك فلديّ أخبار تشير إلى أن فرناندو قد وضع سفناً في المضيق كي يمنع والدي من إرسال الأسرى النصارى، من القصبة المالقية إلى شمال افريقيا مقابل النجدات. وفي الأسبوع الماضي أرسلت واضعاً خاتمي على رسائل لسلطان مراكش أرجوه فيها بأنه إذا كان يريد أن يرسل جنوداً عليه إرسالهم إلى صاحب الحمراء وليس إلى صاحب مالقة. تعذّبتُ وأنا أختمها.

كانت قد انطلقت قبل أيام من هنا حملة تأديبية، تحت مظلة الفوضى في الشرقية. توجهت يرأسها حامد بن سراج، إلى أراضي ألونسوده أغيلار، وإلى لوقة وبيانة. وقد احتفل أهل غرناطة منذ يومين بعودتها بالغنائم الضخمة، إلى حد أن أمي، التي أصابتها الغيرة من نجاح حامد، جاءت لتراني في الليلة الفائتة.

ـ لا مناص لك من أن تنتزع نصراً، يا أبا عبدالله. فوالدك وعمك غمرتهما الشهرة أمام أعين الغرناطيين. الشعب لا يمكن اللعب معه إحماءً وتبريداً. منذ أسبوعين وهم يتساءلون ما إذا كانوا قد فعلوا خيراً. يجب أن نقنعهم بأنهم اختاروا الأفضل. ألا يغلي دمك أمام الفرصة التي يقدمها لك نجمك؟ هل سنقتنع ببعض القطعان من الثيران أوالماعز؟ ونجاح حامد سينساه الغرناطيون قبل أن ينتهوا من تناول لحم القطيع، تذكر كيف سخروا من والدك بسبب قطيع البقر الذي جاء به من طريف.

درسنا البارحة بالتفصيل أين يمكن أن نوجه ضربة صائبة: أين تقع

المنطقة الأقل حماية، أي تجمعات سكنية، قادتها غائبون، أسرى، موتى أوجرحى في الشرقية. أي المناطق تعرف خططنا الحربية أفضل من غيرها. إنها الحملة الأولى التي سأقودها شخصياً، وبالتالي عليّ أن أعود طافحاً بالغار والغنائم. أمي تطالبني بذلك باسم غرناطة حسبما تقول.

أشار عليّ العطار بسبابته الغليظة والحازمة إلى اللسانة على الخرائط أمامه ـ قلت لمريمة بعدها إنها سبابة بائع توابل أكثر مما هي سبابة قائد كبير في البيت الملكي ـ. واللسانة مدينة قريبة من الحدود، لها ماض يهودي نيّر وأسطوري. لها حظار مسوّر وربض ليس فسيحاً وهي لا تؤوي أكثر من ثلاثمئة نسمة، حسبما يبينون لي. صاحبها دييغو فرناندث له صلة قربى بآل أغيلار، له عمري تماماً وهوقائد آل دونثليز وأحبُّ أن أهزمه. واذا ما أحسن استخدام هذا النصر فإنه يمكن أن يكون مفيداً ليس للغرناطيين وحسب وإنما للقرى الحدودية التي تُقدِّرُ الآن حجم قوّاتنا. يضمنون لي أنه ما من خطر إطلاقاً، إذ لو وجد لما شرع بالحملة. الناحية التي سنذهب إليها يسمونها في المملكة «بستان علي العطار». فهويعرفها ويسيطر عليها تماماً. وهذا ما يسهل كل العوائق.

ترافقني زهرة شباب غرناطة معطرين أنيقين. أخاف أن نبدو وكأننا نذهب إلى مبارزة أكثر مما إلى حرب ـ ذلك هو الاعتقاد العام ـ فشباب غرناطة عندما يتبدون يحبون أن يرتدوا أفخر ما عندهم. وإن شاء الله، وطالما أننا نذهب بهذا الثراء، نعود أكثر ثراء وهذه كما يقول النصارى عمادتي الأولى وهو بجانبي.

أستعد قبل أن أسير على رأس قواتي لأنام بضع ساعات.

II . طيور الرحمة

لا إرثَ لورثتك: لا زغردة،
لا رياحيَن، لا ظلٌّ نظيف، ولا ماءٌ فرح
من الأسفل تبدولك الغربانُ
طيور الرحمة.

أبوعبد الله الصغير
« مرثية المعتمد».

كان الربيع ـ وقد قلت ذلك ـ قد تأخر كثيراً هذا العام، وكان من الأفضل ألا يصل.

أنا سجين. لا يوجد كلمة تتسع لكل هذا الكرب، ومن لم يكن سجيناً لا يستطيع أن يفهم ذلك: جريان الوقت شديد البطء، اختلاط النهارات والليالي، الوحشة الخارجية، التي كنت أشعر أحياناً بالرغبة فيها، وأعاني الآن من طوق الذكريات التي تتشابك حول رأسي دون انقطاع... ملك سجين: يفضل الكائن البشري أن يفكر بأن بعض الأشياء لا تحدث. في تاريخ السلالة الوعر لم يحدث هذا من قبل. وحبذا لويكون هذا هوالشيء الوحيد الذي سيحدث للمرة الأولى، تنتابني مخاوف لا أستطيع تحاشيها بأن أموراً كثيرة ستحدث. قلمي ويداي ترفضان كتابتها.

طلبت هذه الأوراق، غير القرمزية، كي أجبر نفسي على التركيز على شيء ما، كي يكون لإرادتي وعينيّ ما تركزان عليه، وربما أملي أيضاً: لاأدري ما سيحل بي إذا ما نزفت. والآن هذه الأوراق الهشة، كاتمة السر هي مرساتي الوحيدة التي تمسك بي. المرآة الوحيدة التي أستطيع أن أرى

نفسي فيها (التي يجب أن أرى نفسي فيها، لأنني لا أرغب بذلك). وأقترح على نفسي تمزيقها إذا ما عدت يوماً وأصبحت حراً. الإحساس بالحرية (حتى الإحساس الناقص والمنقوص الذي نتمتع به نحن البشر) إحساس بدأت ألمحه، في غير أوانه، كما يحدث دائماً... إذاً أيُّ جحودٍ يكمن في تمزيق هذه الأوراق، فوحدها صديقتي التي أستطيع أن أحاورها اليوم، وآمل أن أُفْهَمَ من خلالها، لقد كلّفني الحصول عليها، كما يحدث عادة مع الأصدقاء، كثيراً من الجهد والوقت: النصارى يمقتون الكتابة، ويتشاءمون ممن يكتب.

الاختلاف الكبير بيننا وبين النصارى ليس في الدين وإنما في طريقة فهم وعيش الحياة. يمكن لبعضهم أن يرى أنّ هذه الطريقة هي نتيجة لديانتنا، وأنا أرى العكس تماماً: كل شعب ينتهي الىأن يلائم ديانته وتفكيره مع مواقفه ومفاهيمه، وآدابه في الحب والحزن، في الاستمتاع وانتظار الموت. النصارى أكثر خشونة وفظاظة مما كنت أعتقد. ربما ليس لأنهم نصارى، وإنما لأنهم يعيشون في مناخ مختلف تماماً عن مناخنا. أرى هذه الغرفة التي تحتويني: مربعة، خشنة، وحادة، بمدخنة هائلة وجدران عدائية من الحجر، دون أن يكون لها النعومة الأخاذة والهفهافة التي لغرفنا. ربما كانوا يجدون في الغرف المماثلة لهذه تناسقاً رقيقاً وأكثر ديمومة وكثافة ومقاومة: وهذا لا عمل له إلا أنه يؤكد لي أننا متعارضون. ما لنا آنيٌّ ومباشر، وما لهم ذو ديمومة غير محددة، مجاز صعب البرهان.

ما يلفت انتباهي، للوهلة الأولى، هو إن النصارى لا يتسلون بالماء، لا يستخدمونه إلا للشرب وقليلاً، بينما نحن نجلّه، ربما لذكرى متوارثة وجماعية عن الصحراء، فترفنا يقوم على الإعجاب به، الاستماع إليه يجري، الذهول أمام النوافير، على تأمل النور يخترقه ويرسم قوس قزح، على رؤية حدائقنا ووجوهنا تنعكس في البرك الخضراء، على تدبّره في مزروعاتنا، على التنبؤ به تحت عبق الازهار. النصارى لايشمون (من الأفضل القول إنهم لا يملكون حاسة شم). نحن نستحم ونتعطر، وهم يعتبرون هذه العادات خطيئة، كما لوكان الأمر يتعلق برخاوة خاصة بالخصيان، بضريبة للجسد تضعهم على طريق الهلاك، وبيوت الاستحمام بالنسبة لهم قاعة انتظار الجحيم أوربما الجحيم نفسه.

كل شيء عندهم خشن وبدائي. يأكلون عندما يستطيعون وما يستطيعون، سواء أكان نجساً أولا. يؤمنون بالمُثل أكثر مما يؤمنون بالأفكار، يتمسكون بالأرض وفي الوقت نفسه يحتقرونها، يتعبدون لإلههم دون أن يغسلوا أيديهم وأظافرهم مُهْمَلة وقذرة، وعندما يذهبون إلى الحرب فجنودهم يذهبون ليشبعوا جوعهم، وليس للدفاع عن شيء (ربما لأنهم لا يملكون هذا الشيء، وطريقتهم في الحصول عليه إنما هي الحرب). إحساسهم بالحميمية، التي ينغلقون حولها مثل قنفذ البحر، فظ أيضاً. لم أشعر قط بالعداء تجاه جسدي مثل الآن. أشم، وأنا في ثيابي الثقيلة والقاتمة ودون أن تتاح لي فرصة الاغتسال باستمرار، كما نفعل نحن حتى بغرض ديني، روائحَ أنا مصدرها، لم أشمها من قبل: روائح إبطيّ، وقدميّ وعرقي، ومنيي الرطب والجاف، شعري وفسوتي ونَفَسي. هذا ما يهينني ويصالحني في آن معاً مع نفسي. دائماً أتذكر ـ ولم يمر عليّ سجيناً سوى عدة أيام ـ بخارَ الحمامات، الرطوبةَ التي تتقطر فوق الزليج، رقّة الموسيقى والضوء الملون عبر الكوّات، صفاء الجلد وقد اخترقه الحر والمّسادات، عبق الدخان الخارج من العتبات المثقبة من مباخر الديماس، فتتشبع بها ثيابنا الخفيفة. أتذكر هذا الغنى وأعرف أن ظلمة اليوم تمنحني معرفة أعمق ـ وبالطبع أقذر ـ بنفسي، بجزء مني، ليس من الضروري أن يكون الأسوأ، لكنه بالفعل الأكثر تواضعاً وحيوانية، وبالتالي الأكثر احتقاراً...

مهما يكن فإن النصارى ربحوا هذه المرة. وها أنا هنا بين أيديهم. لا أدري ما إذا كان للأبد، لا أدري...لكم من الوقت، إذا كان الوقت ـ قياساً وطولاً ـ يفيد في شيء في الأسر.

وعدوا بألا ينتزعوا مني حياتي،ربما كانت الشيء الوحيد الذي لن ينتزعوه مني. إذ ما فائدة الحياة دون مقوماتها وما يحيط بها؟ ما الحياة تحت التهديد الواضح والمستمر بفقدانها؟. ليست الحياة فقط عدم الموت. إنها أكثر من ذلك بكثير. لوكانت عدم الموت لأصبحت مجرد شيء مؤقت وسلبي، وبالنسبة لي يجب أن تكون شيئاً إيجابيّاً وساطعاً. فتأججها، وبهاؤها هو ما يفرقها عن الموت. وأنا لا أخاف الموت إلّا كغياب لما أفهم أنه الحياة بكل تمامها، ليست تنفساً ولا مجرد تفكير. ربما كان حب الحياة، في النهاية وبعكس ما كنت أفكر، هوأن يكون المرء مستعداً

للموت من أجلها، وليس أن يحب فكرة الحياة العارية والمجردة، بل الطريقة التي يستهلكها بها، كما استهلكها ـ وأنجزها ـ أسلافه: حياتنا في مواجهة حياة الآخرين. إذ من الأفضل لنا أن نموت قبل أن نفقد طريقتنا في الحياة.

هذا هوالموت الذي أقصده، والذي أنا خاضع له منذ الآن.

البارحة أجبروني ـ بأدب، لكنهم أجبروني ـ على أن أطل من نافذة الدور الأسفل من هذا البرج، كي يراني سكان اللسانة من الساحة. كانوا يتحرقون رغبة بمشاهدة الملك المسلم. أثقلوني بالسلاسل، التي لا أحملها عادة في سجني، ووضعوا لي في عنقي طوقاً من الحديد وعرضوني كتذكار صيد. سادت لحظة صمت قسمت بوضوح الصباح إلى قسمين. ثم كان صياح وشتائم الدهماء، كما لوللخروج من الذهول. وكانت هتافاتهم الذليلة لقادتهم، الذين لا أعرف من هم بعدُ.

كانت المعاملة حتى الآن، معاملة احترام بشكل عام. قرون كثيرة وهم يرون في الأندلس الجنة المفقودة والكافية لأن تجعلهم يتطلعون إلى امتلاكها بشعور تختلط فيه الكراهية مع الأعجاب والحسد المضمر. في مخيلتهم تحيط بنا أساطير مرعبة، شجّعها حكامهم منذ البداية: قساوات فظيعة، عادات منحطة، تخنّث، تجسيد لكل ما علموهم أن يكرهوه ويخافوه في الوقت نفسه، لكننا أيضا ما يحدسون أنهم سيكونون إذا ما استسلموا للحياة. لذلك هم بحاجة لأن يقضوا علينا: لأننا نمثل خورهم الأخلاقي وخروقاتهم وكذلك فضولهم وأعلى تطلعاتهم السرية.

أحسست اليوم بثقل هذا السجن ينهار فوق كتفي بقسوة لا تحتمل. رفعت عيني إلى الله، الذي هوفوق كل الديانات، وأيضاً تحتها وفينا. «لا تقتصّ مني لنسياني لك وسقوطي في الخطيئة. ولا تحملّني ما لا طاقة لي به، أواعطني القوة الكافية لتحمل العبء الذي تفرضه علي. واصفح عن ذنوبي التي لم تكن لعصيانك، وامنحني العفووالسلام وبلسم رحمتك. فأنت ربي وملاذي. أنت رجائي لأن قلبي خلا منه» . وبينما كنت أصلي، تأملت فيما قالوه وكرّروه علينا: «لا يُحَمِّل اللهُ نفساً إلّا وسعها» ،

ربما كان الله قد قال هذا يوماً لم يخطر له فيه شيئاً أكثر إراحة. واليوم، ببساطة، لا أستطيع أن أؤمن بذلك.

نتكلم بسطحية عن الحياة والموت، لكن ما الذي نعرفه عن الواحد أوالآخر؟ إنهما وجهان لعملة واحدة، وكنزنا يقتصر على هذه العملة وحدها، نتأرجح، كما بين أسيل وكاربيديس، بين الملكتين المُطْلَقَتَيْن، مختلفتي الألوان، واللتين تحكماننا، وتحكمان الملوك أيضاً، غير مباليتين بموافقتنا. نحن في الحياة نقيم على الأقل، لكن ما الذي نعرفه عن الموت؟ منذ طفولتي رأيت جثثاً، هل يعني هذا معرفة شيء عن الموت؟ (تخطر ببالي الآن جثة صبح، أول جثة رأيتها، أين أنت الآن يا صبح؟ ألم تكوني لتفضلي الموت على أن تري «*حياتك*»، «*زغيبك*» عرضة لسخرية الأعداء، ألم أكن أنا، برائحة الورد، من كان سينهي الحرب؟) هل تَفَسَّخَ ما كان يوماً جميلاً ليقول لنا شيئاً عن الموت؟ بلى لقد رأيت يَدَهُ الشاحبة والوخيمة تفك رباط الحياة الباهر، رأيت ضحايا العدالة الإنسانية وضحايا ظلمها. جَرَحْتُ وجُرِحْتُ. تعديت على حياة الآخرين وتعديت أيضاً على حياتي. فالحياة والموت متعانقان بحيث يصعب القول إلى أي حد هما كذلك...ألم أشعر، خلال علاقتي مع غالب، بأنني أموت بشدة أكبر مما شعرت به عندما جاءت مريمة لتقول لي إنه قد مات؟ أليس من الكمال في حياتي،ألم يأتِني منها أكثر الإبادات قتامة؟ أم إن تلك الاحتضارات القاتلة كانت التعبير الأقوى عن الحياة؟ ربما كان القنوط من خواصها واليأس من خواص الموت. لكن أليس يأساً ما أشعر به الآن؟ ألست الآن ميتاً بشكل من الأشكال؟

في كل يوم أندفع إلى هذه الأوراق بلذة أكبر، كما يندفع الجائع إلى الطعام،أوالظمآن إلى النبع. أنظر إليها عند كلّ استيقاظ، كما ينظر العاشق إلى عيني من يحب، لأنه حسبما تكونان يكون نور كل صباح يبدأ. إنها دعامتي الوحيدة.

ألمحُ من خصاص الباب عيني السجان حين يترصد خطواتي، حركاتي البطيئة أوالعصبية، جهودي العبثية للحفاظ على كرامتي عالية.

هاتان العينان اللتان تتقاطعان مع عينيّ وتتجنبانهما إنما هما في الوقت نفسه، خصاص العالم بالنسبة لي. فأنا، من جهة في عزلة لم أتصورها من قبل، ومن جهة أخرى فإن عزلتي تتشظى مثل بلّور في كل مرة تترصدها هاتان العينان الملاحقتان، الغريبتان تماماً علي. الغريبتان لكن الضروريتان أيضاً. ترى هل الله مثلهما؟

هناك لحظات يحضرني فيها جسد مريمة، لحمها الأسمر والمتناسق، عبقها الذي يكاد يكون رناناً، بشكل أنني لوأغمضت عيني لاستطعت مداعبته. لم أشتهها قط بمثل هذا الاحتدام، ولا قلته كما أقوله الآن. أرى آخر نظرة لها إليّ بينما كانت تستوقفني بعناقها، وهي تحاول أن تمنعني من الانطلاق، فجراً، إلى اللسانة، كما لوأنها أحست بحدسها أنها ستحرم من زوجها ومن والدها.....

وتهاجمني أيضاً ذكريات ميتة ـ لا، الذكريات لا تموت، يموت من يحدثها ـ بفعالية الذكريات الحية نفسها التي للأحياء أوربما أكبر. غالب ميت، لكن كيف أنسى شططنا في غرفة قصر يوسف في تلك الليلة حيث كان كل شيء ممكناً وكان الكون بكامله يدور حول جسدينا. تحاصرني ذكريات ما كان لي يوماً وما لن يكون بشدة قاتلة. ذكريات مختلطة وملتبسة، لكنها خالصة إلى حد أنني أحس ـ رغم الضباب الذي يلف به الحب الحواس عندما يستحوذ علينا ـ بدقةٍ متناهية بأنملة إصبعٍ خفيفةٍ، بأذنٍ بشحمتها البضّة بحلمة الثدي اللذيذة، بزغب العانة الأجعد، بالأبْضِ الحريري، الركبة التي كبرتقالة، شامة الظهر، ذكرى اليدين كيف تنزلقان على جسد المحبوب، وكيف يموت المرء ويحيا تحت يديه: بدءاً من الفخذين وحتى العنق، على الكتفين، على الخاصرتين المتوترتين، على زاوية الإبطين الحارة، على الأخاديد التي تنشقّ بين الثديين أوالإليتين.

في هذه اللحظات ينتصب عضوي ويطالب بسعادته. عليّ، أن أستند إلى الجدار الذي ينفتح فيه الباب كي أتجنب أن يشاهد السجّان استمناء المراهقة المخجل. لا،لا، لأن المراهق يهجس دون أن يشعر، وأنا شعرت. لذلك أبقى، بعد الحركات البائسة، فارغاً وتعيساً.

بعدها أستعرض استعراضاً ذابلاً الأماكن التي كنت فيها سعيداً ـ هل كنت سعيداً؟ ـ ويتولد عندي انطباع بأنني أحشر نفسي في حياة الآخر، الآخر الذي يقصّ عليّ سعادته على مراحل متلجلجة. أوربما كنت آنذاك

آخر ـ ثملاً، مختلجاً، متهوراً ـ ، وليس الذي أنا الآن. ما أغرب أن يضيّع السعيد وقته في التفكير بأنه سعيد، إذ ربما كانت السعادة في شلّ التفكير، أوالسبات، أوفي راحة العقل اللحظية. أوربما الكائن الذي كان سعيداً يبقى حتى الحاضر هناك حيث كان سعيداً، متروكاً للحظة مع من لم يعده. وأنا الذي تكّونت لا أدري أين، لم أتمتع بالسعادة، عن وعي، ساعة واحدة، إذ عندما كنت على وشك الانتباه إلى أنني أملكها، انتابني رعب من أن أضيعها، فضاعت هكذا.

دائماً أعجبتني فطنة خليفة الإزدهار الأموي ذاك الذي حرّر شهادته بعناية متأنية. في البداية عرَّفَ عن نفسه بموجات متألقة: «عشت خمسين عاماً مَلِكاً في أجمل مدينة في العالم، وبنيت بجوارها أخرى خوفَ النقصان: مدينة الزهراء الجوهرة المتلألئة. أحببت أجمل امرأة على الأرض (زهراء الرائعة) وأحبتني. ضم بلاطي أعمقَ الفلاسفة وأرقّ الشعراء وأسمى الموسيقيين....» وتابع بهذا الشكل بافتخار ومبالغة، كما لوأنه خلق سماء وسكن فيها. إلى أن ينتهي تعريفه بنفسه بجملة مقتضبة «ولم تصفُ لي إلا أربعة عشر يوماً» . ولكنه وأمام اندهاشه من هذه العجرفة الأخيرة، أضاف: «ولم تكن متتابعة» .

هل أستطيع أنا أن أعلن إنني عشتُ سعيداً أربعة عشر يوماً، حتى ولوكانت غير متتالية؟ هل يمكن للمرء أن يعارك بأظافره وأسنانه من أجل شيء هومن المجانية بمكان مثل السعادة؟

إننا نتحرّك بين الحاجة والطارىء، بين *إذا شاء الله* و *لو أراد الله*، بين القدرية والشكية، بين *لم يحن بعد* و *فات الأوان* مع يقين واحد هوأنه ومهما كان اختيارنا، فإن كلا الطريقين يؤديان بنا إلى الموت. على كل الأحوال، ولنتكلم عما نتكلم، فإن السعادة دائماً شيء آخر، أوعلاوة على ذلك شيء آخر. وأكثر الناس حظاً لا يصله منها بين الحين والآخر إلا عطرها، ودائماً عندما تكون قد اختفت.

من هذا السبات أجوب الآن، في دوارات، اللحظات القريبة من السعادة التي بددتها تطلعاً إلى ما هوأكثر، كما لوكان هناك ماهوأعلى، وكيف تُصَحَّحُ الأخطاء التي حوّلها الماضي إلى حجارة؟ نحن لا ننتهي من ارتكاب الأخطاء أبداً. الدروس التي أتلقاها لن تفيدني بشيء، إذا ما أعادوا لي ـ إن شاء الله ـ حريتي ذات يوم. إذ إن الإنسان لايتعلم من الآخرين وحسب، بل لا يتعلم من نفسه أيضاً.

القوة، في حالتي، غير مجدية: لا تفيدني إلا في محاولة البقاء على قيد الحياة. مثلي مثل المريض الخطيرالذي يوقف الحياة كلها في البيت الواسع والمأمون، على أمل إطالة خيط حياته المهشم، بينما جميع سكانه، في الأعماق، يرغبون بأن تنتهي هذه المعركة غير المتكافئة. لقد توصّلت، في هذه المرحلة والمستوى، إلى أننا ـ أقصد أنا وسلالتي وطريقة الحياة التي مثلناها ـ مثل خنجر الزينة، شفرته لا تقطع وحدّه لايطعن. إذ ما يراد منه ليس الدفاع وإنما البريق والزينة فقط. خنجر لاتكمن قيمته في حدّه وقطعه وإنما في مقبضه: في ذهب وحجارة المقبض الكريمة، في شغله المتقن والدقيق وفي الغمد المنقوش والغني الذي يغمد ويخفي ما يجب أن يشكل الخنجر ويحدده. أتصوّر أن أحداً عنيفاً ووحشياً سيزيّن خصره، قريباً، بالخنجر المزيف والباهر، الذي صرنا إليه.

«كيف يمكن لملك غير وطني أن يصبح ملكاً؟»هذا ما أستنتجه، لكن هل على الملك أن ينكر الحقيقة؟ وأكثر من ذلك، هل الملك أكثر من مراوغ أورمز؟ حتى ولوانتهيت أنا هنا، فإن الحرب لن تنتهي. لأنني لست من أعلنها، ولا من سينهيها. والملك لا يمكن أن يكون المملكة: لحسن الحظ أنّ الثانية تدوم أكثر من الأول (أوهذا ماأفضل أن أعتقد به، إذ إلامَ سأصير، وأنا الذي خلقت لأكون ملكاً؟ أم أنَّ هناك ملوكاً دون عرش، حتى دون أن يُخْلَعوا؟) الحرب بين النصارى وبيننا لن تتوقف أبداً: منها جوهر تاريخنا. غرناطة حتى ولوتَمّ اجتياحها، فإنها لن تُحْتَل أبداً، يقولون إن الحب يتأخر حتى يُنْسى ضِعْفَ الزمن الذي دامهُ تماماً. الحرب تتألف من معارك عديدة، ليست مرئية كلها، وليس رابِحُها من يبدو في الظاهر رابحَها. المنتصر يجب ألا ينتصر في واحدة منها وحسب: عليه أن ينتصر في الأخيرة، التي لا بد من وصوله إليها دون أن يعرف متى، منتقلاً من نصر إلى آخر. لن تنتهي حربنا أبداً، وأنا مثل أسلافي، فيها ولدت وفيها أموت. أيّ تعذيب تسبب لمن هومثلي ليس محارباً كبيراً ولا صغيراً؟، تنتابني رغبة بالاستسلام حتى بعد إحراز النصر، بأن أقول: «سأبقى هنا، ولن أتابع.» وتزداد رغبتي بقول ذلك في جحيم هذا اليوم، وأن أضيف: « ليعد التاج إلى والدي أوالى عمّي *الزغل* أو الى أخي» هذا إذا لم يكن قد عاد وأنا ماكث هنا دونه...لكن لا، هذا غير مسموح لي به.

من الممكن أن أكون أنا مَنْ على النصارى أن ينتصروا عليه نهائياً (داخل أوخارج هذا السجن، لا أدري.) وأمام هذا المصير، هل كان يهمُّ أن أخرج منتصراً في اللسانة من أجل أن أُهْزَمَ نهائياً؟

ها أنا غارق هنا، يحاصرني قلق أن يكون قدري قدر الخاسر الأعظم: الخاسر الذي بخسارته يخسر الجميع.

لم أعتد أن أحلم، لكنني حلمت في الليلة الماضية بعد أن استمنيتِ وغرقت في النوم. أوربما إنني لم أحلم وإنما تخيلت، وقد سَبَخت، أني أحلم. يؤكد بعضهم أن تفاهة الأحلام هي نتيجة لأحداث سابقة، أوأنها تُفسَّر فيما بعد في اليقظة وفيها تتأكد. استحوذت على حلمِ بُغْضٍ ويُتْمٍ، أوأن الحلم استحوذ عليّ. كان هناك بحر ساكن مثل قصدير جامد، وحصن من رماد وثلج في حديقة ورد وجرح لايتوقّف عن النزيف ويتكلم. وحلمت أخيراً أنني متّ. ولابدّ أنني أرقت ساعتها من جديد، لأنني استيقظت أكثر وهناً من البارحة ومبتلاً. ربما أن نهاية الاحتضار ليست شيئاً آخر غير الرعشة اللاحقة، كما يقولون بأنه يحدث للمشنوقين...

إنني أحلم في اليقظة بكل الأسرى الذين مررت بهم دون تمعن، بنصارى أقبية الحمراء، الذين كانت ظروف موتهم - أرفض أن أكتب ظروف حياتهم - لاتشغلني إطلاقاً، بمئات الطيور الغريبة المسجونة في أقفاص من فضة، يلتهم بعضها بعضاً كل ليلة وقد أفقدها صوابها تناقض أنها تملك أجنحة غير ذات فائدة (وكانت بتغريدها وريشها تفتنني وتأسرني: الأسيرة تأسرني)..... اليوم، وأنا لاأرى السماء إلا من خلال كوة هذا البرج الضيقة، كل شيء عندي كوابيس وليس حلماً.

هذا الصباح دخل دوريّ من الكوة، كان يخفق مذعوراً ويرتطم بالجدار، يُقدم لي مثلاً لما يجب أن أفعل. استطعت، بصبر السجين، الذي يتمطى وقته ولايجري، ويشكر أية تسلية تبعده عن نفسه. أن أتعبه وآسره (أنا الأسير) كان قلبه الصغير يخفق، وقد أضاع إيقاعه، بين أصابعي. تسرب الخوف إليّ أيضاً. ذُعرت من حياةٍ لاعلاقة لها بحياتي، وأستطيع أن أقضي عليها، ومن خوفه مني، المنعكس في عينيه الدقيقتين، اللتين كان يطلب بهما مني المعذرة لأنه حيّ. صوّبت بدقّةٍ وقذفت به، مع خطر أن

يتكسر، مثل حجرٍ عبر الكوة. «موتُك ـ قلت له ـ أفضل من حياتك المظلمة هنا. اخرجْ. حاوِل. فمن أجل أن تعيش لابدّ لك من تمرين الموت هذا» . ومرّ دونما أي احتكاك بين جانبي الفتحة الضيقة. استوقفتني فرحتي الأولى بعد أسري.

وأحلم ـ مستيقظاً ـ بالمخلوقات التي رافقتني بصمت حتى البارحة نفسها، والتي ليس من المستبعد أن تشتاق إليّ. كلاب صيدي القلقة وصقوري، التي تحوّل البراقع نهارها إلى ظلام. يد مختلفة تقدم لها طعامها اليومي، إن فعلت. ألن نشتاق إليّ؟ ربما أخفى الطعام عنها اليد... والأزهار التي ستهتف بعطرها في حدائق الربيع، الضاجة حيوية. وأحلم بنزهات الرياحين وبزهر الليمون وقد انفكت براعمه (ليس عند الأسرى فصول: بالنسبة لهم في حرية الخارج دائماً ربيع)، وأحلم ببساتين البيازين النضرة، وبأشجار اللوز وقد أزاحت عنها غطاءها الأبيض أوالوردي، وراحت تصلب ثمرها تحت قرابها، وأحلم بالشمس التي باحتدامها وبدغدغتها الحارة سوف تبدد ثلج الجبال شيئاً فشيئاً.

لكن ربما كنت أحلم بكتبي أكثر من أي شيء آخر، بكتبي المخلصة المطيعة التي طالما توجّهت إليّ بأصواتها الجاهزة، حين كانت الوحدة بين يديّ مثل طحلب، ولم يكن يسعفني غير المحرومين بينما الباقون نبذوني، وحين أشاح الحب بوجهه عني مرة تلوالأخرى،ولاحقني والدي، وحاصرتني أمي، عندما كان الجميع، ربما باستثناء مريمة يطالبونني بما لم يكن عندي قط.... هي، الثابتة، كانت سندي ويقيني. لذلك أشتاق إليها في ساعة الكرب هذه، التي أمد فيها يدي ولا أطالها.

البارحة تجرأت على أن أسأل نفسي: كيف سأهرب من هنا، إذا لم يطلقوا سراحي؟ وهل يُفتدى الملك؟ ألن يدفع بقيّةَ حياته ثمنَ تعثره وتركه لهم يأسرونه حياً؟ قبل أن يَتَعَرَّفَ إليَّ النصارى كان قد أبلغني بعض القادة بعض ما تناقلته الألسن عن علي العطار. فقد دخل العجوز الذي كان الهجوم على عاتقه في نهر شينل، بعد أن أيقن بهلاكنا، على جواده، وعندما وصل إلى حفرة قفز عن السرج فغاص من ثقل درعه. لا

بُدَّ أنه فكر أن قائداً يفشل في أول معركة من معارك مَلِكِه، عليه أن يَتَحَمَّلَ أن تكونَ الأخيرة بالنسبة إليه. أم فكر إنَّه من الأفضل له أنْ يموت اختناقاً في وحل نهر من أن يقع في أيدي الأعداء الذين طالما تغلّب عليهم؟ سواء أفكر بهذه الطريقة أم بتلك فإنني أعطيه الحق: إنّه لمن الصواب أحياناً أن يفتح المرء أبواب الموت لنفسه بيد باردة، قبل أن يفتحها له الموت. أليست هذه هي الفكرة التي تحوم حولي، مثل نعرة عنيدة، وتضايقني؟

لأن مملكة، ملكها أسير، تترنّح وتتوقف، مَثَلُها مَثَلُ شخصٍ يوقف نشاطه إغماء. كثيرة المسائل التي تغمّ غرناطة حتى يُضافَ إليها أسر سلطانها. أليس من الممكن أن أستخدم هنا كأكثر الأسلحة هلاكاً لها؟ أليس من الحكمة أن يغلق متطوّع انتحاري الفقرة الأخيرة من التاريخ التي أنا هي والتي من الملائم اختصارها لضررها؟

تحت النور الباهت ـ للشمس أوللقمر، ماذا يهمني؟ ـ الذي يهبط دون تبدل من الكوة، أتساءل كيف أمكن حدوث ذلك. ألم يكن النصارى فقدوا معنوياتهم؟ ألم تكن اللسانة مدينة عزلاء؟ ألم يكن من الواجب أن يكون هجومنا مباغتاً؟ ألم نخرج، جيشي وأنا، من غرناطة مسرورين كما لوكنا في رحلة صيد؟ روى لي هرناندو ده أرغوته، قائد اللسانة، الذي يزورني برفقة سيده ـ وهوشاب غير ذي طول شديد، ممتلىء وذونظرة حادة ـ شيئاً بلغتي (أنا لم أقل لأحد إنني أتكلم لغتهم، مما يسمح لي أن أسمع مرتين، وأن أتمتع بزمنين للإجابة وأن أتأكد ما إذا كان الترجمان يخطىء في ترجمته لي.) وبهذا، ومن خلال ما رأيت وما سمعت خلال الأيام التي قضيتها بين القادة، استطعت أن أعرف كيف عاكست الأحداث حظي.

هل عليّ أن أولي الفأل والخرافات انتباهاً في المستقبل؟ بينما كنا نعبر باب البيرة فرحين، وحولنا حماس الغرناطيين، تعثر جوادي وانكسر مقبض رمحي على إحدى قائمتي الباب. نظرت، أنا الذي أعرف رعيّتي، إلى أقربهم مني، فرأيت الذعر في وجوههم، فطلبت ضاحكاً رمحاً آخر. وصرخت بغطرسة كي أشجعهم: «أعرف كيف أنتصر على القدر» ، ثم همزت مطيتي. لكن على بعد قذيفة منجنيق من غرناطة وبعد أن اجتزنا رملة بيرة أخرست ثعلبة براقة الشعر كثيفة الذيل، الذين كانوا يغنون، اخترقت الصفوف وراحت تجري إلى جانبي. ولم تتمكن السهام ولا النبال

منها واختفت سليمة، بالسرعة التي ظهرت بها. اقترب مني بعض الوجهاء وطلبوا مني، بين المزاح والجد، أن أؤجل الهجوم على النصارى. فسخرت منهم في لحاهم، ولعنت فألهم المشؤوم الذي كان يضع الشباب من رجالنا في موقف الخطر وتابعت خبباً. وصلنا ليلاً إلى لوشة حيث هدَّأت رباطة جأش حميّ الجميع.

كان الجيش مؤلفاً من ثلاثة فيالق: واحد بأمرة حامد بن سراج، وآخر بأمرة علي العطار، والثالث بأمرتي. وقد أرسلت، بعد استشارة حمي، حامداً مع ثلاثمئة رجل في عملية إنهاك وإلهاء إلى أرض دون ألونسو ده أغيلار، الذي كان ما يزال مشغولاً بتضميد جراح هزيمة الشرقية ونُدُبِها. وعليه أن يحصل من هناك على صيد وغنائم. كان ذلك يوم 20 نيسان. سيمر زمن طويل كي أنساه.

انطلقنا أنا وحميّ بجيشنا المسرور نحواللسانة. كانت دهشتنا كبيرة عندما رأينا أنها كانت محمية جيداً ومزودة بالمؤن، فانهار أثر المباغته. عرفت أن أسيراً لسَّانياً في غرناطة، هو بارتولومي سانتشس هورتادو، دريَ بهدفنا فأخبر أبناء بلده بواسطة بغّال من أولئك الذين عندهم تصريح بعبور الحدود ويعملون دون استثناء تقريباً جواسيس مزدوجين. فارتفع من أبراج الطريق الدخان يعلن عن تقدمنا، وأطلقت من أبراج الاستطلاع خمس حزم مشتعلة باتجاه اللسانة، مما دل على أنني أنا من كان يقود الهجوم. ثم إن رابضي أغيلار، الذين كان قد هيَّجهم حامد بن سراج، زرعوا الاستنفار في جميع أنحاء المنطقة هكذا وجدنا الحواجز مقامة في الشوارع من الخشب وحزم الحطب، والميدان مزوداً بالزاد والمؤن، والحامية الضعيفة مدعمة بفرسان جاؤوا على وجه السرعة من قرطبة مما جعل من المحال علينا الدخول من الربض وإشعال أبواب المدينة، كما كانت تقتضي خطتنا. أخيراً أقمت الحصار وأمرت بقطع أشجار الزيتون والكرمة.

في اليوم التالي، وأمام صعوبات الحصار، وعملاً برأي حامد الذي لم يستطع أن يهيمن على عدو حذر ومدعم كما لم يدعم من قبل بعد مالقة، اخترت رفع الحصار والتراجع إلى تخومنا. ومع ذلك وضعت تصوراً لمحاولة سريعة جداً، خوفاً من وصول الدعم النصراني من المدن القريبة. كان حامد قد تناقش مع قائد آل دونثلير، الشاب صاحب اللسانة، عندما لجأ إلى هناك في بيت عمه من آل أغيلار، هرباً من مذبحة بني سراج التي أمر بها والدي، فقد أرسلته ليقابل القائد ويقدم له شروطاً مقبولة

للاستسلام التام. ومع ذلك شككت بأن تلقى قبولاً.

بدأت المحادثة قرب أحد أبواب السور. قام بالترجمة هرناندوده أرغوته، إذ راح الذي أتكلم عنه وكان قائد آل دونثليز يناقش بإسهاب كل واحد من اقتراحات الاستسلام بهدف أن يكسب الوقت ـ حسب ما عرفت فيما بعد ـ ويمنحه لمن كان بانتظار نجدتهم. أولهم نجدة عمّه صاحب بيانة، سميه في الاسم والكنية، والذي كان قد أخبره بوضعه في اليوم السابق. تجاوزت المناقشات الساعة. عندما أخبرني طلائعي بأن جيشاً غير محدد الحجم يقترب من جهة قبره أمرت، وقد اكتشفت الخديعة، بقطع المقابلة، وجمع أدوات القطع وتجميع الجيوش الثلاثة للانسحاب نظامياًعبر الطريق نفسه الذي جئنا منه. وبينما كنا نبتعد كنا نسمع أبواق وطبول قوات الدعم والطبول والأبواق التي كان المحاصرون يستقبلونهم بها.

بعد أن خلصنا إلى أن الحادث انتهى، وكنا منهكين، توقفنا نحومنتصف النهار في حقل مفتوح من أجل توزيع الطعام. ليس بعيداً عنا كان هناك جدول يسمونه جدول مارتين غونثالث. كنت أناقش مع علي العطار وحامد اتجاه الأحداث وأنظر إلى الجيوش ورغم أن النهار كان ضبابياً، بدا لي حسب حالتهم النفسية، وكأننا خرجنا بهم من غرناطة لندعوهم لاحتفال ريفي. عند ذلك سمعت صيحة: «ياسنتياغو، سنتياغو، عليهم، فاليوم يومنا» . وضّحَ لي العطار، منخفض الرأس، أنها كانت صيحة حرب صديقه القديم قند قبرة وصاحب بيانة. ورغم المباغتة فإن جنودي قد استعادوا وضعهم في اللحظة. وضعنا الجيوش الثلاثة في حالة المعركة وقررنا أن نواجه من تحولوا من مهاجَمين إلى مهاجِمين. أمرت بجمع خمس كتائب من الفرسان، من أصل سبع كتائب في طابور واحد، وتركت أخرى مع ثلاثمئة فارس، منفصلة على بعد ثلاثمئة خطوة للنجدة، ووضعت كامل المشاة على جانبي المعركة الضخمة، أحميهم بدورهم بصفين من ستين فارساً كي يتماسكوا، وأتجنب بهذا الشكل أن يتأخروا. إنها خطة أعتقد أنني رأيت أنهم ينصحون بها في أحد الكتب، وأسعدت حميّ، كنا وجهاً لوجه مع العدووالضباب بيننا، وقريبين منه إلى درجة أن بعضاً من رجالي العصاة، لم يستطيعوا أن يقاوموا خيلاءهم وخرجوا من الصفوف بحركات وأصوات وإيماءات يواجهون بها أعداءهم ويعيرونهم بمذبحة مالقة. كنا منتشرين على امتداد منحدر في أسفل العقبة وتشغلني الحالة وعدد الذين يطاردوننا. وعند مراقبتهم وجدت فوقهم راية أجهلها، فسألت علي العطار الذي كان خبيراً بها.

ـ من هنا يبدولي كلباً، يامولاي. وهذا هوشعار عبيدة وبياسة. ربما كان من صالحنا أن نتابع المسير بكل سرعة. فقد تجمع، حسب ما أرى، قسم كبير من الأندلس ضدنا، ربما لأنهم يريدون أن ينتقموا منا لكوارثهم الأخيرة.

(علمت، بعد فوات الأوان، أن إشارة الراية لم تكن كلباً وإنما عنزة، وهي لاتكاد تكون معروفة لأن صاحب بيانة لايقاتل عادة بشعار مقاطعته وإنما بشعار إقطاعته، وقد مضت سنوات كثيرة لم يخرج فيها بذلك الشعار، لكنه ونتيجة السرعة التي حاصرته نسي أن يخرج شعار بيانة المعتاد. وعند مروره في قبرة أخذ شعاره).

لم يكن اقتراح حميّ، وقد وصلنا إلى هذه النقطة، مقبولاً دون عيوب. أمرت أن ينفخ بالأبواق والنفير وتطلق الصيحة المعتادة بيننا. فردّ النصارى بأخرى ليست أقل إحماء، مما جعل الحقل كله يردد الأصوات. خرجوا هم بخطوات حثيثة خارج الجبل الذي كان يسترهم، تقدموا بانتظام. كنا نتمتع بموقع أفضل للمعركة منهم، وفجأة أداروا لنا ظهورهم. اعتقدت أنهم يهربون. أمرت بالهجوم. ومع ذلك فما كانوا يحاولونه إنما تسلق الانحدار، بشكل يستطيعون به أن يعادلونا، عند الاندفاع ويكون جهد خيولهم أقل. وحدث الصدام الأول عادياً. وتوقّف الزمن بين الغبار والصياح، أعتقد أن هذا يحدث دائماً في المعارك. ضاع المنظر الأخضر والمزهر والعطر. لا الضباب ولا الغبار كانا يسمحان برؤية العدو، الأكثر عدداً في الظاهر منا. وكان العدو يهبط سريعاً من مواقعه التي فتح فرجتها أكثر وحاصرنا. تملكني هاجسٌ، رفضته. الارتباك كان رهيباً، ورغم عدم خبرتي، حدست أننا نخسر. لاأدري كم كان قد مضى علينا ونحن نقاتل عندما عادت لتُسمع أبواقٌ غريبة. هُرع نحوي علي العطار.

ـ أعتقد أن هناك قوات أجنبية، يامولاي. فهنا لايستخدم هذا النوع من الآلات. سأغطي انسحابك. انجُ بنفسك.

لكن كان قد فات الأوان. تراجع رجالي دون نظام ولاتناسق. فصرخت بهم، وقد فقدت صوابي، لكي يتوقفوا.

ـ توقفوا لنعرف أولاً ممن تهربون. إنهم ناس انتصرنا عليهم دائماً. لم يولوني اهتماماً. راحوا يهربون. ليس الجميع، لكنهم كانوا يهربون.

ـ الخلاص في أيديكم ـ كنت أصرخ ـ وليس في أرجلكم ولا على مطياتكم. توقفوا.

كان الذين بقوا حولي يقاتلون بنبل. بينما تهبط من العقبة قوات دعم جديدة للعدو. إنهم المتأخرون: ألونسوده أغيلار، قائد لوقة وقائد دونيا منثية، مشاة سانتيا، النجدات القادمة من رملة مونتيلا، وكاسترودل ريووجسر دون غونثالووحتى من أنتيقيرة. كانوا قد استجابوا لشرفات المرابط. جميعهم كانوا على استعداد لأن يسقطوا عن كاهلهم خراب جبال مالقة، بحقد وحزم. ضلّ فرساني الأوفياء وجرفوني معهم في هربهم.

ـ ألن تدافعوا عني؟ عودوا من أجل سمعتكم. توقفوا، توقفوا ـ بقيت أصيح بلا جدوى.

بقيت وحدي. صمّتني القعقعة. كنت أسمع صراخاً، أنيناً، تهديدات، كفراً، هي في كل مرة أبعد. كانت المعركة هي التي تبتعد عني ولست أنا من يبتعد عنها. إلى جانبي كانت تجري مياه جدول مارتين غونثالث. كان جوادي سحر (الذي يعني *فتنة*) قد ساخ في وحل الضفة. لم يتمكن من التقدم ولا من التراجع. أصابه سهم في صدره، وراح ينزف متخشباً ويشخر محدثاً صوتاً موجعاً. انتبهت إلى أنني كنت راجلاً وسط الأعداء. لقد انهار كل شيء: الحرب، الحياة، الموت، المخاطرة، وأنا أيضاً، أنا الذي لن أكون بعد الآن نفسي. لم أر بعدها إلا عينيّ سحر. كانتا تدوران دون اتزان، تتوسلاني أن أخرجه من ورطته كي يستطيع بدوره أن يخرجني من ورطتي. ربما كانت تلك هي اللحظة من حياتي التي وجدت فيها نفسي، قبل هذا السجن، أكثر وحدة وعجزاً. لم أكن أعرف ماذا أفعل. كان جوادي ينتظر مني بنظرته العالقة بنظرتي، أن أخرجه من الوحل إلى الأرض الصلبة. ونحن جميعاً مثله، طالما كان هناك من نتوجه إليه بتوسلنا، وهذا ما كان ينقصني. استجمعت قوتي من ضعفي، بلا حماية بين الضباب وفي الوقت نفسه محمي به، ورفعت سيفي مجهشاً ونحرت جوادي بضربة واحدة. نظر إلي بعينيه المليئتين بالدهشة، لكن دون أي عتاب، ثم تخثرتا. ارتعش عدة مرات ثم ارتاح من المعاناة. كان دمه قد لطخ وجهي وبلل ذراعي. شعرت بالغثيان. تقيأت بين بعض شجيرات العوسج. «خيانات وكذب ـ كنت أقول لنفسي ـ كذب وخيانات. ضدّ كَمْ من الأعداء على الإنسان أن يقاتل؟ هل هذه حربي؟ هل كان هناك من ينتظر مني أن أفعل ما هو أكثر ضد كل هذه القوة؟ ما الذي كان ينقصنا؟ هل هي خطيئتي؟ من أقود؟ إنني وحدي. إنني وحدي. من مات لأجلي إضافة إلى جوادي؟» هكذا كنت أفكر عندما تلقيت ضربة حجر أغشت على عقلي. ومع ذلك لم يُغْمَ عليّ كلياً. رأيت ثلاثة أو أربعة مشاة يقتربون مني بخناجرهم وعصيهم ورمح. كانوا يحاولون الإمساك بي. دافعت عن نفسي بالخنجر

وجرحت واحداً. حامل الرمح رفعه يريد أن يطعنني به. استسلمت. كان كل شيء وكأنه لايحدث. سمعتهم يقترحون قتلي والاستيلاء على ثيابي وسلاحي. كانوا على وشك أن يفعلوا ذلك عندما ظهر جنديان من بيانة: هذا ما كانوا يقولونه، الآخران كانا من اللسانة. كانا مكلفين برعاية المتأخرين ومنع الجشعين من قتل الجرحى للاستيلاء على سلاحهم، أحذيتهم وهذا اللثام أوالسرج، وهرع جنود أكثر وراحوا يتجادلون مع من كانوا قبلهم حول ملكية شخصي. تشاحنوا ضرباً ودفعاً. ولم يكونوا على اتفاق إلا على قتلي و «السلام هنا وبعد ذلك المجد» هذا ما كانوا يرددونه. خلال ذلك كانوا قد جرّدوا جوادي من سرجه. وعندما رأى الثلاثة أوالأربعة الأوائل أنهم ينتزعون منهم صيدهم، صاحوا ملء حناجرهم: «اللسانة! اللسانة!» . وصل فتى ذو رفعة وهويخبّ. إنّه قائد آل دونثليز يلاحق القليل المتبقي من جيشي. حكى له كل واحد المشاجرة على طريقته. سألني من أكون. كثير من الجنود كانوا يعرفون ما يكفي من الكلمات العربية للتفاهم معنا عندما يناسبهم ذلك. ترجم واحد منهم كلماتي.

ـ أنا ولد ابن الحجار، وزير غرناطة ووجيه المملكة.

تفحصني القائد بعينيه الصغيرتين والباردتين. ترجّل. فكّ أحد أربطته وربط به، دون أن يتوقف عن مراقبتي، إبهاميّ. ثم التفت إلى واحد ممن كانوا يرافقونه:

ـ خذ عشرة رماح واحمله إلى القلعة. سأتبع القند الذي يلاحق المسلمين، فأنا لاأثق به ولا أريد أن يتركني دون أن أحصل على شيء.

كنت أجهل ماهي المعركة ولماذا يحارب الناس إلى أن رأيت ما رأيت في الطريق إلى اللسانة. ليست المسألة مسألة ديانات ولامُثل ولا حتى إرادة فرض ديانتنا ومُثُلنا بالقوة، إنها مسألة خِسة وفاقة: الاستيلاء على ما يتمتع به الآخرون، الاستيلاء على خيراتهم وممتلكاتهم، وانتزاع حتى حياتهم كي لايستطيعوا الدفاع عنها، جر الجثث بينما تنتزع منها أحذيتها، قطع أصابعها لانتزاع الخواتم، قلبها لانتزاع هماييها، تعريتها لسرقة ثيابها الداخلية. الحرب ليست من عمل المصادفة، كما كنت أعتقد حتى اللحظة وإنما من عمل الجيفة. المنتصرون هم النسور الأولى يفسحون الدور للآخرين عندما يرحلون بالغنائم. لاأحد يقوم بالحرب لأنه يؤمن بهذا الشيء أوذاك وإنما لأن العدو يملك شيئاً يرغب هو بامتلاكه وهو لهذا تماماً يُسمى عدو. كل ما عدا ذلك كذب، ماعداه أقنعة. لم

أستغرب أمام خسة ما كان يدور حولي أن يدير جنودي ظهورهم له.

حملوني مع بقية الأسرى. كانوا كثيرين جداً. الكارثة كانت كُلّية. ألف فارس بين قتيل وأسير، من أنبل أهل غرناطة، وأكثر من أربعة آلاف من المشاة. أي ثلثا جيشي. استمروا يأتون بالأسرى. الذين كنت آمرهم بالإشارة ألا يأتوا بأية حركة يمكن أن تفضحني.

في صباح اليوم التالي وبعد أرقٍ أخرس ومجهد ابتعد فيه قوادي عني وهم خجلون من سلوكهم، دخل قسّ جهم ومتبجح.

ـ الرب ـ قال للنصراني الذي أوكلونا إليه ـ دائماً مع أنصاره، حتى لو بدا ظاهرياً أنه تخلى عنا.

وأضاف رابتاً على كتفه:

وسينسينا هذا ماحدث في مالقة. *الرب هوالذي يجرح وهوالذي يشفي، يداه تجرحان ويداه تشفيان.* صبر أيوب يفيدنا نحن أيضاً. الرب يعمل القرحة ويشفيها: يداه تجرحان ويداه تشفيان.

ثم أشار إليّ بإحدى غلاظه ونبّهه:

ـ لابد أن هذا شيءٌ مهمّ: ملابسه تدل عليه. احذروه.

وخرج، موجهاً إلينا قبل ذلك نظرة شزر وقرف كما لوكنا حيوانات حقيرة.

«هكذا فكر الناس جميعاً بإلههم ـ فكّرت ـ . لوكان هناك إله واحد أحد (كما نعتقد جميعاً، وهوإلهنا)، لكان من الصعب التفاهم، إلا إذا توصلنا إلى النتيجة القائلة إنّ خلافاتنا باسمه لاتهمّه إطلاقاً. أوربما إنّه يدرك، أفضل منا، بأن خلافاتنا ليست في الحقيقة باسمه وإنما دائماً باسمنا» .

لم يمض يومان حتى جاؤوا بأربعة أسرى جدد، كان واحد منهم ابن فقيه ذائع الصيت. انفجر بالبكاء عندما رآني، قبل أن نستطيع تفادي ذلك، وسجد وقبّل يديّ.

ـ أنت هنا، يامولاي. أنت هنا سجين، يامولاي ـ وكان يجهش دون أن يفلت يديّ وثيابي.

أخبر الحراس رؤساءهم بذلك على جناح السرعة، لقد انكشف أمري، كما كنت أخاف منذ البداية. ولم يتأخر في المثول قائد آل دونثليز، الذي رجاني أن أرافقه، وأحلّني في هذا البرج الذي أكتب فيه الآن.

ـ مرتاح ـ قال (ومراقب، كما أفترض) ـ كما يليق بسموّكم وحسبكم.

ربما كنت أُفضّل أن أبقى قريباً من رفاقي في المصيبة، لكنني لست متأكداً من ذلك.

كانت فرحتهم بأن يكون ملك غرناطة بين الأسرى كبيرة إلى حدٍّ يصعب فيه إخفاؤها. كل من شارك في المعركة من قبل ومن بعد من السادة جاؤوا واحداً واحداً لزيارتي. حتى صاحب لوقة، قريب أبي القاسم بنيغش، العجوز والأعمى. الذي اضطر لأن يرضى بتمرير أصابعه على وجهي، حامداً الله الذي منحه شرف أن يلمس ملكاً مسلماً مهزوماً قبل وفاته.

ـ صار باستطاعتي أن أهتف بما قاله سيمون الراهب العجوز: *يا إلهي، تستطيع أن تأخذني الآن.*

ركع ورسم إشارة الصليب وامتلأت عيناه بالدموع، وهما لاتفيدانه، كما يبدو، إلا للبكاء.

كذلك جاءت أم القائد، دونيا ليونور ده أريليانومن قرطبة لتراني. أعتقد أنها اكتأبت لأنه لم يكن لي قرنان على جبيني تحت العمامة. لاحظتُ شيئاً من عدم الرضا عندها، عندما حامت حولي من الخلف لتفتشني: ربما يعود هذا أيضاً إلى أنها لم تلاحظ وجود ذيل طويل يطل من تحت العباءة.

ومع ذلك فإن وجودي حمل معه بعض الهموم وليس الفرح فقط. كان صاحبا بيانة واللسانة يتنازعان فيما بينهما على شرف أسري ـ وكذلك على نتائجه الاقتصادية ـ . وكان الجنود قد استولوا على المنهوبات المجمعة: العباءات، البرانس، المروط، الخناجر، الدروع، المدى، الريش. لكن كلاً من قند قبرة والقائد وقعا وثيقة أطلعاني عليها. يتعهدان فيها: «بجمع وإحضار كل الأشياء الحية، مسلمين وجياداً ودواباً وحميراً، أياً كان من حصل عليها وكانت للمسلمين في هذا النصر، لمنحها وتوزيعها على كل الفرسان والمشاة الذين تواجدوا في المعركة حسب ما يعود لهم وما يمكن بحسب قوانين الحصص واستعمالات وعادات الحرب، مقسمين بما يرضي ضميرنا وشرفنا وبالله ومريم العذراء وبكلمات الأناجيل المقدسة وبهذه الإشارة✝مرة وثانية وثالثة إننا سنصون وننفذ دون غش ولاخداع ماجاء في هذا التحرير» .

ـ والآن ـ قال لي صاحب اللسانة بواسطة أرغوت ـ يطالب عمي، فقط يطالب بأن أرسلكم إلى بيانة، كي تراكم زوجه وتبقوا هناك محروسين

منه إلى أن يقدمكم للملكين باسمنا نحن الاثنين، وهذا بالنسبة إلي شيء عادل تماماً ولايكتفي بهذا، بل يريدكم أن تمثلوا بين كومة الأشياء المتفق عليها، بما أنكم شيء حي مثل بقية الأسرى.

ـ ومثل الدواب والحمير ـ أكملت.

ـ لكنني أعدكم بأن هذا لن يحدث، على القند أن يمر فوق جثتي أولاً. لقد أرسل إلى مدريد، لويس ده بالنثويلا حامل مفاتيحه ليخبر الملكين بالحدث ويأتينا بقراره. خلال ذلك سوف تبقون في عهدتي. كونوا مطمئنين إلى أنني سأحرسكم بشكل أننا سنسخر من رغبات القند.

لاأدري إلى أي اطمئنان يشير، إذا لم يكن إلى أنني لن أدخل في التوزيع مع الجنود الآخرين والحيوانات.

حضرت، من نافذة الطابق السفلي الذي حملوني إليه كما لو إلى احتفال، مَزادَ الأشياء الحية التي عَدَّدَها التحرير. بعضهم أبقى على ما أصابه، وآخرون باعوه في الحال أونادوا بصوت عال لبيعه في مكان آخر. كل شيء كان مباركات وفرحاً ونبيذاً وسكراً. كل شيء كان شتائم وبذاءات وشجارات وصلفاً كما يحدث دائماً عندما توزع الغنائم بين الدهماء، خاصة إذا كانت توجد إمكانية دفع الفدية.

ـ هذا السجين لي ـ قال القند البارحة أمامي، كما لو أنني غير موجود، مُستغِلاً اعتقاده بجهلي للغة. ـ لأنّ مارتين كورنيخو، أحد جنودي، هو الذي أسره. وكذلك عملاً بقوانين الفروسية التي من بينها، سواء عرفت أم لا، قانون الامتنان. فلولاي لما كنت خاطرت وخرجت من وراء أسوارك وراء المسلمين.

ـ سيدي وعمّي: جنديَّ مارتين هورتادو هوالذي أسره قبل أن يتدخل رجالك، الذين شدهم منظر السلطان. هذا هوالموضوع وهكذا سيكون.

كنت أنظر إلى هذا وذاك متظاهراً بالفضول والارتباك، مفكراً ماذا يهمني أن هذا الـ مارتين أوذاك هوالذي ألقى القبض عليّ إلى جانب جدول أيضاً يحمل اسم مارتين. ومع ذلك رجواني أن أحدد آسري، من بين عدد من الرجال وُضِعُوا في صفٍ. أشرت دون طويل تمعنٍ إلى اثنين منهم، لكن بمهارة كانت من الدقة بحيث كانا الـ مارتينينِ المختلف عليهما.

ـ لا أعرف تماماً من منهما يكون ـ نبّهت.

وبذلك بقي الشك دون حل، وبقي السيدان ساخطين فيما بينهما ومُقتنع كل منهما بحقه.

انتقلت أسلحتي وملابسي إلى ملكية من كنت في مأواه، قائد آل دونثليز (أتذكر شيئاً ـ في أحد أعياد النصارى الربيعية لا لم يكن عيداً، لأن الجميع كانوا يبكون ـ إنني سمعتهم يناقشون شيئاً مما هتف به النبي يسوع وهوعلى وشك أن يُصلب: « قامروا بعباءتي وتقاسموا ثيابي.»). رايات أبواب غرناطة العشرون إضافة إلى بيرقي الملكي وبيرق حميّ استولى عليها قند قبرة، وهو يحملها معه في كل لحظة ويتباهى بها كدليل لا نقاش فيه على *المأثرة*.

ـ سأزين بها قَبْرَي والِدَيَّ وستكون من الآن فصاعداً مفخرة وعهداً لورثتي.

أعرف أنه حملها في موكب مهيب، بين الصلبان والأناشيد الدينية، إلى بيته في بيانة.

اليوم جاء، كما في كل صباح، صاحب القلعة ليراني. جلب لي ثياباً، أتخيل أنها بدلاً عن ثيابي التي استولى عليها.

ـ إنها لا تليق بمقامكم، يا سيدي، لكن علينا أن نبدأ بعلاج هذا.

سألني ـ وهويفعل ذلك عادة ـ عما إذا كانت خدمتهم لي جيدة. من الواضح أنه لا يريدني أن أموت جوعاً، ولا عطشاً ولا فاقة، ومن الواضح أنه يريد أن يقدمني إلى ملكه في وضع جيد. يهتم بي هووأمه بجد. ليس بمقدوري أن أشكرهم إلا بالكلام، لأنهم لم يتركوا لي حجراً كريماً واحداً أكرِّمُ به هذه السيدة المتعصبة لنصرانيتها، المترددة وثقيلة الظل.

عندما ودعني دون دييغو سألني:

ـ هل ستستقبلون قريباً لي؟ إنه دون غونثالو فرناندث القرطبي. لقد أبدى لي اهتماماً خاصاً بمعرفتكم. ولن تحتاجوا لترجمان، فهو يستطيع التعبير بلغتكم.

في حالة الملل التي أنا فيها لا أزدري أية فرصة أتعرف فيها على نصارى جدد، مع أمل بعيد بأن أجد أحداً مُهماً أكثر مما هومصلحي. أعتقد أنني وقعت اليوم على نموذج كريم.

عرفته عندما دخل إلى غرفتي قبل أن يرفع رأسه بعد أن انحنى احتراماً. ليست المسألة أنه يحتفظ بنفسه تماماً كما كان منذ ـ كم؟ ـ أربع أوخمس سنوات. قست شفتاه، ما عاد لفمه الشره والطفلي، الذي طالما لفت انتباهي في وجه المقاتل، بريقه. أنفه صار حاداً قليلاً، ووجنتاه برزتا وتعدلتا، جبينه تجعد. لكن عينيه ما زالتا تحتفظان بالحدة والبريق اللذين كانا لهما أمام والدي، في ذلك الصباح الذي حضرت فيه أول سفارة في قاعة العرش. «إنه دون غونثالو فرناندث القرطبي» همس المالح في أذني. والآن نحن وحدنا أنا وهو(وأقول وحدنا لأن وجودنا مع الصبي قائد آل دونثليز، كما لوكان دونه). وجهاً لوجه، يقيس كلٌ منا الآخر باحترام ولطف متبادل وربما بليد لا مفرّ منه أيضاً.

جلست وبقي هوواقفاً. كانت صورة القائد تتلاشى بجانب صورته. فكرت: «الفتى يودُّ أن يكون مثله عندما يُصبح بعمره، لكن لا بد أنه بدأ يصبح ما هوعليه في عمر سابق على عمر الفتى. ثم، كم عمره؟ لا أعتقد أنه يكبرنا أنا والقائد بأكثر من عشر سنوات، ربما بأقل: فالحرب، عندما لا تقتل الرجال، تهرمهم.»

ـ تستطيع أن تتكلم ـ قلت له.

ـ الأخبار التي أحملها إليكم، يا سيدي، لن تسركم، لكنني أعتقد أن على الملك أن يكون على اطلاع تام على ما يجري في مملكته، مهما كان وكانت الواسطة. أعدكم بأن كل ما سأقوله لكم صحيح وأول ما سأقوله لكم هو إنني حزين من كل قلبي.

ارتعشت، لكن دون أن أظهر ذلك.

ـ أحتاج أن أعرفه قبل أن أشكرك على حزنك.

ـ لقد احتل والدكم غرناطة، وعاد ليقيم في الحمراء.

ـ هذا أفضل بالنسبة لأتباعي، فلن يُؤخذ عليهم أن ملكهم أسير.

ـ عرشكم يتقلقل، يا سيدي.

ـ ربما عرشي، لكن ليس عرش النصريين. لقد كان والدي ملكاً عظيماً.

برقت عيناه بشيء من الخبث، أوهذا ما بدا لي.

ـ إنه كذلك، يا سيدي.

تابعت بارتعاش في صوتي سرعان ما سكّنته، لأنني عندما سألته، إنما سألته عن جميع أنصاري:

ـ وماذا حلّ بوالدتي؟

ـ حسب معلوماتي، وآمل أن تكون صحيحة، تحصنت في ألمرية، مع أخيك يوسف وابن كماشة.

تنفست الصعداء: لم يضع الكل. رغم أنه ربما كان أبسط لي ألا يحسب أحد حسابي.

كانت المحادثة تتم بعربية محطمة، لكنها مفهومة. كان القبطان يلفظها جيداً. يلاحظ أنَّه رجل وُلد في منطقة الحدود: هذا ما شدني إليه. كان يتلعثم أحياناً، فأمرر إليه الكلمة المناسبة. لا شكّ أنه اكتشف أنني أتكلم القشتالية تماماً كما يتكلم هولغتي، لكنه لم يشر إلى ذلك: وهذا ما كان يشدني إليه أكثر.

ـ وماذا عن عمي *الزغل*؟ أعني عمي الأمير أبا عبد الله.

ـ حسناً قلتم، *الزغل*، ليس في الإسلام سيفٌ أفضل منه. إنه مع والدكم.

كان ينظر إليّ بقوة.

ـ هكذا يجب أن يكون. ـ قلت له.

ورد إلي تفكيري سرعة عمي عندما رأيته قبل حادث الحامة: ممشوقاً، قوياً، جذاباً وقاسياً في الوقت نفسه، بوجه صارم جليل وشاحب تماماً، يرتدي ثوباً طويلاً من وبر الجمل تحت دثار من الحرير الأسود، وعمامة من الكتان الأبيض تؤطر تقاسيمه التي لا تُعَكَّرْ.

ـ هكذا يجب أن يكون. ـ كررت.

ـ لقد قرّر ملكانا، يا سيدي، إنهاء حالة الحرب الدائمة.

ـ هل يريدان أن يوقعا هدنات؟ معي؟

ـ تماماً كما في ذلك الصباح في غرناطة، عندما أكد والدكم: «انتهت الخراجات» ـ هل كان يذكرني؟ ـ وأنا اليوم أقول لكم: «انتهت الهدنات» .

ـ وقتها ملككم هددنا أيضاً بقوله: «سأفرط غرناطتكم (رمانتكم) هذه حبة حبّة.»

ـ لا أدري ما إذا قال ذلك. المؤرخون أصدقاء للجمل. شيء موحٍ أن تُلَخَّص بها حالة الأشياء، موحٍ ومعبر. لا أدري ما إذا كان قد قاله، لكنه مستعد لتنفيذه.

ـ منذ قرون كثيرة والمحاولة قائمة، بتفاوتات كبيرة.أسبانيا، نحن

جميعاً أسبانيا، يا دون غونثالو. أنت تتكلم عن أراجون وقشتالة، أنا ملك الأندلس: لم أستطع أن أرغب بأكثر، ولا أستطيع أن أرضى بأقل.

ـ جملة أخرى، يا سيدي. الحروب لا تكسب بالجمل.

ـ وبماذا تُكسب؟

ـ بالمال ـ قال بعد أن فكر لحظة وأضاف ـ : أنا أيضاً أندلسي. وُلِدت في مونتيلا.وأجداد أجدادي كانوا أندلسيين لقد تبدل الوضع: فالأندلس منذ مئات السنين لم تعد خالصة لكم. ملكانا شابان وقويان، أنتم أيضاً، مع فارق أنه لا شاغل آخر عندهما، ولا مشكلة أخرى غير السيطرة على غرناطة. ليست هذه هي الأزمنة التي كان يأتي فيها القشتاليون الجشعون ليأخذوا الغنائم على حسابكم. نحن اليوم نقاتل مثلكم من أجل أرضنا.

ـ سنرى في النهاية لمن هي.

ـ النهاية قريبة.

ـ إذا كان هذا فقط ما تريد أن تقوله لي...

قمت بحركة من يريد أن ينهض.

ـ عفوكم ـ رجاني بإيماءة أن أبقى جالساً ـ عفوكم، ليس هذا تحدياً، كما أنه ليس خيلاء فارغاً، ما كنت لأسمح لنفسي بها في هذه الظروف.إنني معجب بكم ـ رفعت حاجبيّ دون إرادة مني، مبرزاً دهشتي ـ إنني معجب بصلابتكم التي تقبلون بها مهمتكم الصعبة. لكن مقابل قوة قشتالة الجديدة ودمها الجديد يغزوكم فتور قديم، ومقابل وحدتنا لا يوجد غير تشتتكم وأمام بدرنا هلالكم.

ـ جملة أخرى، يا دون غونثالو.

يبدو أنه لم يسمعني.

ـ أوروبا بكاملها تتوق لأن تنطفئ شعلة النصريين في غرناطة. ومن صالحنا أن تتوق أوروبا لذلك. منذ زمن طويل ونحن ننظر إلى الداخل: حانت ساعة فتح النوافذ وأن نطل وأن نتنفس. البحر المتوسط ينادينا ولكي نصل إليه لا بد لنا من أن نصلح شؤون البيت الداخلية. كفى اعتبار أسبانية ذيلاً لأوروبا لا يسلخ عنها.

ـ مبارك هذا الذيل: كل ما أهدته أسبانيا، على امتداد قرون لأوروبا من فن وعلوم أوفلسفة مدينة لنا نحن به.

ـ هذا صحيح: وأسبانيا لن تستطيع أن تفهم نفسها أبداً دونكم. لكن التاريخ لا يتوقف أبداً، وبدل أن يَنْغَلِقَ (ومملكتكم منغلقة مثل رمانة لا تنضج إلا لتسقط) يَنْفَتِحُ...

ـ أليست هذه جملة أخرى، يا دون غونثالو؟ ـ قاطعته.

ـ ممكن، لكنها توضح بشكل رائع الواقع ـ ابتسم وكانت ابتسامته جيدة ـ . فبدل الانغلاق يجب الانفتاح. لقد أرسل الملك فرناندو سفارات له إلى أوروبا. سيساعدنا مشاة سويسرا ضدكم ورجال مدفعية ألمانيا وأبطال انكلترا، مزدهون أكثر من أي شيء ـ أضاف باحتقار ـ. لقد حصل الملك لتوه على براءة من البابا كي يقدم له جميعُ أساقفةِ ورؤساءِ الرهبانياتِ والولاياتِ الكنسيةِ في أراجون وقشتالة الإعانات بالفلورينات. أخيراً، تم الحصول على براءة أخرى منحت الحملة بجدية صفة الحملة الصليبية، (وهوما تسمونه أنتم بالحملة المقدسة) وتُمْنَحُ لمن يتعاونون في ذلك غفرانات سخية.

قال الكلمة الأخيرة بالقشتالية.

ـ وما هي الغفرانات؟ ـ سألته.

ـ أنتم تحصلون على الجنة إذا متم في الحرب ونحن على الغفران وهو عندنا الصفح، من خلال الصدقة على العقوبات التي تنتظرنا بعد الموت.

ـ لم أكن أعلم أنَّ اللهَ يمكنُ أن يُرْشَى.

تظاهر بأنه لم يفهم.

ـ كل ذلك سيسمح لدون فرناندو بأن يكون عنده جيش ثابت لم يُرَ من قبل: ستة آلاف فارس وأربعة آلاف راجل كحد أدنى.

ـ لا بأس، ومع ذلك فالعدد ليس كل شيء.

ـ إضافة إلى القضية الصالحة والحماسة واليقين بأنها ستكون الحملة النهائية. ليست المسألة متابعة حرب يائسة ومتقطعة في كل شتاء، إنها شكل جديد للصراع، مرحلة نهائية تبدأ. لديّ أفكاري، يا سيدي: أعتقد أن الفروسية لن تكون بعد الآن الأهم وإنما المشاة: مشاة شجعان، جيدو الإعدادِ ومُجَمّعون في أطر صلبة وسهلة المناورة، ومدعومة بالمدفعية ـ تردد ـ المموّهة.

ـ ولماذا تقول لي هذا؟ أليست من أسراركم؟ أم أنكم ستبقون عليّ هنا حتى يُحَلَّ هذا الصراع الجديد ـ شدّدت على العبارة ـ نهائياً؟

كانت السخرية الآن في عينيّ، بينما عيناه تقدحان شرراً. أضفت:

ـ لست صاحب خطط حربية،أيها القبطان. أنا مجرد ملك.

نهضت. فهم من ذلك أنني أغلقت الجلسة. حنى رأسه الكريم. ظَنَّ القائد، الذي حضر المقابلة دون أن يبدي فضولاً زائداً، أنه لاحظ شيئاً شاذاً في الوداع. سارع إلى القول:

ـ يا دون غونثالو الملك سجيني أنا. لقد تماديتم كفاية مع صبره، آمل ألاّ تكونوا قد تماديتم مع حسن ضيافتي.

ـ اعذروني ـ أجاب دون غونثالو.

عاد وانحنى أمامي. خرج الإثنان. وأنا تمشيت مطرق الرأس في مساحة الغرفة الضيقة.

أفهم أن القبطان دون غونثالو فرناندث القرطبي يقول الحقيقة ويقولها باتزان وأنه ليس مغروراً ولا متبجحاً. وأستخلص، نظراً لصراحته، إن إعتاقي سيتأخر كثيراً أوإنهم يريدون أن يزرعوا القلق في قلبي. وأستخلص أيضاً إنني سألتقيه، إذا ما رأيت نفسي حياً، هنا أوخارج هذا المكان، مرّات أخرى. وإن الترقُّب لايزعجني: بل إنني أفضله كعدّوٍ على الاخرين.

على كل الأحوال، سيان أكانت الحرب قديمة أم جديدة. وسواء أكنت في الخارج أم في الداخل هنا، فلن أستطيع أن أحكم. ولن أحكم شعبي في السلام وهوأقل ما يمكن وما يجب أن يتطلع إليه ملك: سأجد نفسي طوال حياتي في حالة إقامة جبرية: الحالة الطبيعية فيها ستبقى مؤجلة، والرغد سيترك دائماً للغد، لوقت سعيد وهادئ لا يصل أبداً. سأضطر لأن أرضى بشيء قد لا أستطيع أن أدركه: الدفاع عن حقي في العرش في مواجهة الداخل والخارج، في مواجهة من لا أستطيع حتى أن أسميهم أنصاري، وفي مواجهة من يسمون أنفسهم بأنفسهم أعداء؟ لكن من سيحكم عليّ من خلال ما لا أستطيع فعله؟ لن أكون بالنسبة للأجيال القادمة إلا ملكاً لم يفهم متطلبات الأعراق والديانات، لم يتعلم كيف يميز بين دم وآخر ولم يكن واثقاً إلا من شيء واحد: إن ما يُطالبُ به أيُّ دم هوألاّ يُسْفَك.

جاءني القائد اليوم بثوب من القطيفة، السوداء بالطبع. كان يكلمني بتأثرٍ واضح.

ـ لقد تلقينا أوامر الملك. غداً سننطلق من اللسانة. سنلتقي في اقطاعَتيٍ اسبيخو مع عمي القند. سنرعاك سوية، بكل جلالة، في الطريق إلى البلاط الموجود في قرطبة.

نظرت غريزياً إلى الأعلى، كانت تلمح من الكوة قطعة من سماء زرقاء تماماً.

ـ هل سأرى الملك؟

ـ ملوكنا لا يرون أسراهم عادة، إلا كي يُطلقوا سراحهم بحضورهم.

ـ تريد أن تقول إنني لن أراه.

استغرقت الرحلة يومين. كان المنظر مناسباً. الأرض خصيبة وسخية، لكن أحداً لم يكن يطلب من كرمها شيئاً. كان يخيم عليها الإهمال. تكوّراتها تكوّرات امرأة لا يغطي خصوبتها أيُّ رجل. النصارى يكرهون أن يكونوا فلاحين، وأتساءل لماذا يريدون أن يحتلوا الأرض بكلٍ هذه الحماسة؟. عندما ظهرت لنا قرطبة، اتخذ القائد والقند موقعيهما كُلٌ على جانب مني. وعلى بعد ما يقارب ربع فرسخ من المدينة خرج الوجهاء وفرسان البلاط لاستقبالي. كان كل واحد يقترب مني ويُقَدِّمُ لي، دون أن أنزل عن الجواد، مراسمَ الاحترام، بينما حارساي يُعدِّدان رتبهم ونسبهم: مطران إشبيلية ومطارنة وأساقفة كثيرون من ديانتهم ورؤساء الرهبانيات العسكرية في قلعة رباح وشنتيقب، دوقة ناجرة وبرقونة وخمسون سيداً وشريفاً ونبيلاً آخرون أوأكثر. كنت أرد على تحياتهم بحسب رتبة نبالتهم التي كنت أقدرها حسب أعرافي. بعدها قدم حارساي للوجهاء، بحركات مراسم مهذبة، شرف نقلي. فرفض الوجهاء باللطافة نفسها وتقدموا جميعاً معاً باتجاه قرطبة.

لم يكن الطريق ليُرى من كثرة الناس. والحقل المزروع بالإهمال وحده كان يغص بالحشود الهائلة، ونظراً لخشونة النصارى ولغتهم لم أعرف ما إذا كانوا يشتمونني أم يهتفون لي. نزعت إلى الاحتمال الثاني وإن كان ذلك لمجرد احترام موكبي. وكانت تنبثق من بين الجماهير أيد ممدودة كما لوأنها تريد أن تلمسني، وكنت ألاحظ في عيونهم ارتعاشة مبعثها تحقيق شيء طال التوق إليه. وفي لحظة نقلت فيها نظري من الحشود إلى النهر، الزيتي والوديع، شعرت بتأثر غير منتظر: على جانبٍ

منه كان جامع الأمويين، الفريد المشاد من حجارة وحلم في الوقت ذاته «الكمال ليس حلماً أبداً» هكذا أفهمني قبل أيام دون غونثالوالقرطبي. صحيحٌ: إنَّ الكمال حقيقة ساهرة دوماً، إنّه أكثر الحقائق سهاداً. وهكذا رأيتُ الجامع متأثراً وهادئاً، سليماً بليغ الجرح، مهاناً، ثابت الجنان، متسولاً وعجيباً.

توقَّفتْ الخيول أمامه، إنها بيوت مطران المدينة دون ألونسوالبرغشي، حيث سأحل ضيفاً. فالملك لم يبغ أن يمنح هذا الامتياز لأي من النبلاء، كي لا يقلل من شأن الآخرين، لأن النصارى من ناحية الكرامات مفرطون جداً في الغيرة، وأكثر من الجميع النبلاء. افترضت أن تلك البيوت، ونظراً لموقعها، تشغل مكان قصر الخلافة القديم. هناك، وبعدل صارم، كان يجب أن يبيت الملك النصري.

المطران رجل متقدم في السن، متكلف وهش وله حركات مطنبة ومقتضبة في آن معاً. ولّد عندي الانطباع نفسه الذي طالما ولّده عندي رجال ديانته: كان يتكلم كما لوكان على جوادين: فالنبرة تمضي في جهة، والمضمون في جهة أخرى، يستطيع أن يتكلّم عن أكبر الفظاعات بنبرة عذبة وشفوقة.

ـ القتل عندنا ـ قال في اليوم نفسه وكبرهان أنقله هنا ـ ليس إيقاع ضرر، إنه مجرد استباق للعدالة الإلهية. بل إنه ممارسة لهذه العدالة، إذا كنت تفضل ذلك. يُرْسل الجسد إلى الأرض، فهو تراب والروح تُرْسَلُ لتستمتع بالرب أولتحرم منه في الجحيم. أما فيما يتعلق بالكفار فإن القضاء عليهم فرض من فروض ديانتنا المقدسة، لأنهم يُعارضون الرب الذي وحده يملك القوة والمجد، إلا إذا تحولوا فالحياة تكمن في التحول.

ـ لكن إذا كان يوجد عدد من الآلهة ـ أجبته دون رغبة وبنوع من اللطافة ـ فهذا يعني إنه لا يوجد أي واحد. وإذا كان يوجد واحد أحد كما نعتقد نحن وأنتم، فهذا يعني إنه إله الجميع. لم أفهم قط لماذا يتأله الإنسان إلى حد أنه يدعي واجب الدفاع عن الله. كما لوأنه لا يملك الوسائل الكافية.

ـ بلى يملكها، طبعاً يملكها. والإنسان، بالضبط هوإحداها، الأخرى هي المعجِزة. ونحن، يا صاحب الجلالة نملكُ الإثنتين وكذلك القديسة مريم ـ رغْم ـ .

ـ نحن أيضاً نجلُّ مريم، أم النبي يسوع ـ وضحت له ـ عندما أمر

نبينا محمد بتبييض جدران بيت الله في مكة، كوسيلة لإلغاء الأوثان المرسومة عليها وضع يده على تصويرة لمريم وابنها كي لا يُخلط بينها وبين الأخريات من التصاوير وليجنبنا نبذهم من احترامنا.

ـ لن يفاجئكم إذاً أن تخصص هذه الكنيسة التي أمامنا لاسم مريم المقدسة.

ـ هل تقصدون المسجد؟

ـ أقصد الكاتدرائية. لم يعد يوجد مسجد هناك، يا بني. لقد عاد الرب وكتب من جديد خطوطاً، كانت معوجّة، بشكل مستقيم.

زارني في صباح اليوم التالي كل من القند والقائد. جاءا ليودعاني. كان الملك قد قرر أن يسلمني إلى عمه أنريكه أنريكيز، مشير المملكة والحاسب دون رودريغو ده أوليوا وذلك بسند تسليم واحتجاز عام. أمام كاتب بالعدل وشهود وفي احتفال غير مفهوم بالنسبة لي، استلمني الفارسان كما لوكنت غرضاً ثميناً، سلامته عرضة للخطر وكسره يمكن أن يجلب أوخم العواقب. ولكي لا يعقدوا الحياة بكل هذا الخطر وضعاني بدورهما تحت حراسة صاحب رهبانية قلعة رباح دون مارتين ده الأركون، قائد برقونة، الذي استلمني متشرفاً ومفتخراً، ومتعهداً بي.

«لا شيء جيد يمكن أن يأتيني من اسم مارتين» هكذا فكرت عندما علمت من سيكون حارسي. لم أستطع أن أتجنب الابتسامة «تراني أنا أيضاً ـ سألت نفسي ـ هاوي طيرة وشؤم؟» لكن الأكيد أنهم مارتينات أكثر من اللزوم.

ـ سنخرج خلال أربعة أيام، إذا سمحتم، يا صاحب الجلالة، باتجاه رهبانية عسكرية ـ قال ده الأركون هذا.

بعد أربعة أيام تماماً غادرنا قرطبة، لكن ليس قبل أن يسمح لي المطران بتأمل المسجد من الداخل.

دخلت في بركة جليلة، دخلت في بحرة استُبدل فيها الماء بالظل الساكن. بعيداً عن كل شك، كان المكان مقدساً: بجانب التيار الكثيف للنهر العظيم، بين الجبال والحقول المتصلة ببعضها. هناك تعبّد كلُّ البشر الميتين، ليس الرومان وحدهم، بل من هم أقدم منهم بكثير، الفينيقيون والإغريق والقرطاجيون والطرطيشيون. حضارات لم يبق منها حتى الاسم

الذي أطلقوه على آلهتهم. أوربما إلاهاتهم: الزنجيات، مثل إيزيس المصرية، اللواتي خلقن من دبال الأرض وكل العناصر الإنتاشية الداكنة، أوالبيض المضيئات العذراوات المختبئات تحت شتاء العالم يترصدن الربيع المستمر.

قرأت كثيراً عن هذا الصرح في كتب الحمراء، خاصة كتب سلفي محمد *الفقيه*، التي قرأها كثيراً قبل أن يحكم، لكن ما رأيته لم يكن في تلك الكتب. لأن المقدس في حيّزه ليس في عمارته الأثيرية والثقيلة في آن معاً. إنه سابق عليها: جوّه الكثيف والحار، مثل غرفة يمارس فيها الحب، ومثل مفتاح الحياة المشع. لم يخطر لي إطلاقاً أن أسجد السجدة التي توصي بها شعائرنا. كأن يد الله استراحت منذ البداية بأثرها الهفهاف على تلك الضفّة. كنت أستنشق الهواء المقدس ببطء، يكاد يخنقني استنشاقه، كما لوأنني أستنشق ماءً مباركاً، ماءً طهوراً يقيني من الأذى والموت الأخير.

سمعت علماءنا، أي العلماء الذين لايضطرون للإطراء على نجاحات ملوكهم، ولا للتغطية على إخفاقاتهم وتلميعها، يقولون إن درجات انحطاطنا تهبط بشكل مرئي عبر مواد عمارتنا. فخلفاء قرطبة بنوا بالحجارة، وملوك الطوائف بالآجر، ونحن زينا جدراننا الواهنة، في مرحلة الغروب، بملاط الكلس والمرمر كي نستر فقرنا. لكن في ذلك الجو لم يكن يوجد ما يجب أن يستر. فتلك الجلالة سابقة على جلالة الأمويين بل إنها كانت دليلهم في العمل. كانت الشرق، لكنها لم تعد الشرق، وإنما شكلاً آخر أرقى من العظمة. هناك تلاقى جميع العبّاد مع كل ثروتهم يقدمونها للعليّ القدير، كائن ما كان اسمه. ما كان هناك لم يكن ثروة وحسب وإنما يقيناً ماحقاً أيضاً.

كان المطران والرهبان يرنمون في الظلمة الرطبة أناشيدهم المفرطة في المهابة. لقد أنزل النصارى عيثهم على الرواق الأوسط، حيث يجلس مساعدوالكاهن، يقيمون طقوسهم الدينية الرتيبة. كنت أرى من مكاني الذي أنا فيه مقاعدهم، رموزهم الصعبة، ثريات الفضة، بريق صور قصصهم العاتي والباهت. خفق قلبي، بعد أن تنصلت منهم، خائفاً أمام الزوايا المظلمة، جفلاً، مثل طفل، من حضورات غريبة، لاعلاقة لها بالجثوّ ولا بتراتيل الأبهة النصرانية الفخمة، تشدني وترعبني أصداء الخطوات غير الملحوظة والأصوات التي لامصدرمحدداً لها وتتهامس تحت الأناشيد... كنت أحس بنور شمس أيار التي لاترحم وتسوط

الخارج، منسولاً على رخام الأرضية، وأنا غارق في هذه البحيرة الغامضة الراكدة. غير متأثر بالاحتفال الفخم، الذي لاشك بأن دوافعه هي الشكر لله على أسري، وكان لاشك أيضاً ثقيلاً على قوة الله، الذي هودائماً أكثر أثيرية وحيوية، كانت عيناي تهربان عن التقاطع المرتجل الذي يخرق المعبد، بحثاً عن الأعمدة الشاهدة، مثل عريشة. أي رجال تعبّدوا هناك بكل هذه الكلية، بكل خبايا روحهم وجسدهم الداخلية، ليرفعوا فرحة ألوان الأعمدة إلى مستوى الابتهال، هذه الأعمدة الموضوعة بحسب ألوانها، وتيجانها، رُتّب المركّب منها فوق الأبدان الزهرية، والكورنثية فوق الأبدان الزرقاء؟ وهل رفعت ـ كنت أتساءل ـ هذه الأعمدة لتتعبّد بروعتها لإلهي؟

هناك كان يتدفق إحساس بألفة قديمة مقتلعة، لكنها غير مقتلعة كلياً، وإنما متبقية لتكون سنداً للتعصبات الحالية نفسها، كما لو لم تكن بدورها نشازاً. يقينُ سرٌ متناقض، شيء يتبدى ويختفي، رغم، أو ربما بسبب التصرفات المألوفة للكائن البشري، أياً كان، الذي خرق دائماً القاعدة في هذا المعبد في الوقت الذي وضع أخرى، لكنه على عكس ذلك أصاب دائماً عندما تعبّد هناك، مهما كان الإله الذي عبده.

أخيراً سكتت الموسيقى الدينية الغريبة. «كل موسيقى تسكت ـ فكّرت ـ لتفسح المجال للموسيقى الصامتة» فضلت ذلك الصمت، تلاشي الصور الإنسانية، السّعَر الديني المتواضع. الدين هنا ليس إلا الغياب والصمت السابقين على هذا الاعتقاد أوذاك، احتمالات طرق الإيمان المتعاقبة، التي لاتنضب، هذا الغياب المريح والأمومي، هذا الصمت الفاعل والنابض البعيد والحاضن في آن معاً. هنا يكمن مصنع الحماية، واللامبالاة في الوقت نفسه، المقيت والمكفهر، الصامت والمدوي، الدائم والميت: خالد، خالد. كانت رسالات الماضي الخفية تعبر بين التيجان، لأن التقدم أحياناً عودة، ويخاطر الإنسان عادة في معارك الله، التي ليست معاركه جلّ وعلا. لكن هل يستطيع الإنسان أن يختار، أم أن عليه أن يخضع دائماً ليكون المختار؟ نحن ما رحنا نصيره، وليس ما كناه ولا ما نطمح حتى الآن بأن نكونه، ولا ما نحن ظاهرياً. وحقيقتنا هي نتاج كل ما أشيد وما هدّم وأعيد تشييده: كهذا الصرح، نتاج المبادرات التي لا تحصى والاخفاقات الكثيرة. تاريخنا هنا أطول بكثير. الأندلس ـ والذي يكتب هذا ملك أندلسي ـ كان حاضراً في داخلي كما في داخل هذا المعبد. الأندلس انصهار المتناقضات الأبدي، مُحَرَّرٌ قبل أن يَقَعَ في العبودية بزمن طويل. هكذا كنت أراه، كائناً من كان قاطنه: بموقف هذا المسجد المفتوح إلى

اللانهاية. في الأندلس كما في هذا المكان، أعمدة كثيرة من حجارة نادرة حملت سقفه: بعضها أجمل من بعض، بعضها يحمل أسطورته منحوتة علي بدنه، معظمها جاء من معابد وكنائس وكنس وباسيليكات سابقة، أووَصَلَ من أماكن قصية، بل ومنصوبة أيضاً بعيدة عن الدقة والعظمة الشموخة التي لأخوتها...أعمدة كثيرة، أعمدة مختلفة، لكنها جميعها جميلة، وجميعها تحافظ على البناء منتصباً، جاهزة لمن تصله شجرة عائلتها وجمالها، المختلفة والمتضامنة. أشياء قليلة خالدة، وأخرى سريعة الزوال مثلنا، مثل سطوعنا ورمادنا، مثل انتصاراتنا، وأيضاً مثل هزائمنا. لأنه في هذا الصرح يتعلم المرء بسرعة كبيرة أن الموت نفسه لا يدوم. هذا هو مبرر كل هذا الرسوخ. عندئذ اكتشفتها: موجودون نحن الذين كنا موجودين، والذين سنوجد، موجودون من قبل. كل ما نعمله، وكل ما يحيط بنا هو ما عملته تلك الأيدي وأحاط بها وبتلك الأفواه وتلك العيون، التي تراقب اليوم بهاء هذا العالم، وَتُقَبِّلُ صباحاتِ هذا العالم الزرقاء بعيوننا وأفواهنا وأيدينا. لا،لا أستطيع أن أعتبر نفسي مهزوماً. نحن خالدون مثل هذا المعبد الذي أنا فيه،مثل الإله نفسه....

تساءلت فجأة: «لكن أين محراب هذا المسجد؟» هل هدمه النصارى؟ تراهم سحقوا لوزتنا الصوفية، ليقيموا محلها مذبحهم، تراهم أتوا على قشرتها الذهبية الموشاة كي يلتهموا ثمرتها؟ ما الذي يحصل عليه الإنسان بالهدم؟ ألايقوم التاريخ على الاضافة، على الكتابة في صفحات مكتوبة، على استخدام سطور خطتها أصابع فنيت، كي يستطيع الإنسان أن يؤلف فقراته الخاصة به؟ أين المحراب هنا؟ فتشت عنه بلهفة ووجدته مختبئاً. وعندئذ اكتشفت سبب اكتشافي السابق: اللغز الذي تقوم عليه ركائز بيتِ اللهِ والبشرِ هذا. اللغز لكن ليس حله.

أي مسجد هذا الذي لا يتألق محرابه ظاهراً أمام أعين المؤمنين، ولا تسمح فيه غابة نخيل الأعمدة برؤية حركات الإمام، التي عليهم أن يقلدوها؟ لماذا أعلن عبد الرحمن الداخل، الأموي الأول، عن استقلاله بين هذه الجدران قبل أن تخصص لإلهنا؟ نصارى اليوم لا يحتاجون لرؤية كاهنهم وهويقدم أضحيته الرمزية. ما الشعائر التي أقيمت هنا وما الآلهة التي سكنت هذه الأبهة قبل أن يوسع عبد الرحمن وسَمِيُّوهُ.هذا المعبد إجلالاً لإلههم، الذي هوإلهي؟ إذا كان هذا المكان مقدساً قبل انشائه بل ومنذ الأبد، فمنذ متى ولمن رفعت هذه الأعمدة؟ هذا السكون الجميل والفاتن ليس وليد حرب، ولا نصر، ولا ثقافة مستجدة، بل وليد سلام راسخ وروحانية قصوى، ليس من عمل شخص، ولا أشخاص كثيرين،

وإنما وليد فكرة أساسية للعالم. أيُّ لاهوت أقام كل هذه الغابة ليلف نظرة المؤمنين، ليرفعها دون أن تتوجّه إلى أيِّ مُحتفلٍ، بل إلى مُحتفلٍ به واحد مقدس؟ أليست موجودة هنا الفلسفة الاسكندرانية وعبقرية يعقوب الذي يعبد يهوه؟ لا بدَّ أن عقولاً وأيد يهودية أقامت هذه المكيدة، وفي واحد من عهود أسبانيا الموزونة والحتمية، لم تعد فيه أسبانيا صهيون، ربَّما أيدي أريوسية ورثته حينما بدَّل الإلهُ الساكنُ والبعيدُ اسمه مرة أخرى. ربما أقام النصارى الآريوسيون، التوحيديون، قبل أن يدخل التثليث التعددية، شعائِرَهم الصامتة، التي بدلها، فيما بعد، ريكارديرو عندما ارتدّ إلى الشعائر التثليثية، بعدها ومع الحرب الأهلية بين القوطيين، التي فتحت باباً صغيراً وضيقاً - بطيئاً، بطيئاً - لثقافتنا وديننا، عاد هذا المعبد بهيجاً الىالنصرانية التوحيدية، المشابهة تماماً للعقيدة المحمدية، المشابهة إلى حد أن هذه القاعة، الطهورة والصامتة، المقدمة كذريعة كي يسجد الإنسان، راحت تتحول إلى مسجد. وانتصرت الذريعة الجميلة على حاجات أخرى بجمالها نفسه، وبمعنى القدسية، الواحد في كل الديانات، والسابق عليها فَجُلَّ جوُّ الورع هذا واحتُرِمَ، وهبطَ الربُّ الواحد الأحد ذات يوم، واستقر فيه وما زال. إذ حتى ولوكسرت الأعمدة وأُسْقِطت التيجان، فجذر القداسة موجود في كل ما أراه، وهذا هوما يعضّد أساس هذا الواقع...

ركعت دون إرادة ودون مقاومة مني على البلاط المصقول من كثرة السجود، وصليت لله، صاماً أذني عن ضجة النواقيس، بينما احتك بي أحد كان يطفىء الشموع.

وضع مطران قرطبة، الذي لم أسمعه يقترب مني وكان قلقاً لتأخري، يده على كتفي، ربما معتداً بأن إيماني بربي وهن، ومتوهماً تحول ملك مسلم أمام عظمة النصرانية، التي عادت واستقرت هنا بخفاياها، وهمس قرب أذني:

- الله أكبر من قلوبنا.

- هنا تكمن الحقيقة الأولى - أجبته وأنا أنهض.

عندئذ رأيت أن نسيج دثاره الذهبي قد حاكه أحد المسلمين، لأن عليه كتبت الآية الثانية والعشرون من سورة الحشر في القرآن: «هوالله الذي لا إله إلا هوعالم الغيب والشهادة هوالرحمن الرحيم».

فكرت: «إذن كل شيء في مكانه.»

دون مارتين ده ألاركون رجل بدين. وجهه الذي يميل إلى الاستدارة والحمرة ينم عن رجل أكول وشروب. مشهور أيضاً بأنه مقاتل جيد، رغم أن الجميع في الأندلس مشهورون بذلك، وإلاّ لأعادوهم إلى برغش وشيقوبية. أكثر ما يلفت الانتباه فيه يداه، المرهفتان والبيضاوان، كما لوكانتا لامرأة. يشبكهما بكثرة، وبنوع من الهوس يرفع اليمنى، وهويتكلم، إلى صليب رهبانيته، الذي يتباهى به فوق قلبه، وكأنه فخور به ويريد أن يلفت الانتباه اليه.

ـ ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلكم، يا سيدي الكريم، إضافة إلى نصحكم بالصبر؟ ليس مسموحاً لي حتى أن أدعو ربّ الرحمة، الذي نضع بين يديه ـ ويشبك يديه ـ مصير أسرانا، من أجل حريتكم.

تنتصب قلعة برقونة فوق صخرة، تفيد أطرافها الحادة كأساس لها. في برجها المثمن أعدوا لي استضافتي وسجني.كانت معاملة فرسان قلعة رباح ودية وقلبية، إلى حد أنني أكرهت نفسي على التفكير بأن سجني عندهم سيدوم طويلاً. بودي لوأعامل بطريقة أسوأ لكن لوقت أقل. من نوافذ البرج أرى جبال لوقة وفي البعد الأول أشجار زيتون ولاذن، إنه منظر جهم وسط الطريق بين جنائن غرناطة المدللة وصخور البشرات الأردوازية الوعرة، بمصاطبها ووديانها الرمادية كثيرة الحجارة، بوهادها القاسية، مفتوح أكثر من هذه وتلك ويقدم للروح سكينة يتلقاها السجين بكثير من الامتنان.

لا بدّ أن اجراءات فديتي قد بدأت وربما تُسَرِّع بها أمي وابن عبد البر وابن كماشة. أقول ذلك لأنني عندما طلبت، إلى جانب عدة النظافة والملابس، بعضَ كتب الحمراء وبعضَ رزم الأوراق من أمانة الدولة، جيء إلي بها بأسرع مما كنت أنتظر ـ هذا إذا كنت أنتظر. ذلك أن أمي هي التي تحكم هناك ـ لذلك أستطيع أن أستمر بالكتابة على هذه الأوراق القرمزية، التي اعتدتها.

ما اقترحته على نفسي، كي تتوضح حالتي، وثيقةُ الارتباط بحالة شعبي، وبما أنني أملك كل الوقت للتفكير، هوأن أحكي لنفسي باختصار

قصة السلالة التي أنتمي إليها. ربما أنار لي هذا لأعرف كيف أتصرف في ظروف، لم أر فيها أياً من السلاطين السابقين، ولن تكون مناقضة إلى حد لاتسمح لي به أن أستخلص بعض المساعدة. وفي النهاية أكون قد قمت بعمل مفيد لولديَّ ـ مهما كانت الأحداث اللاحقة التي سأرى نفسي غائصاً فيها ـ إذا رويت لهما بنبرة مألوفة ما هومتناثر اليوم ومشوّه، بأسلوب خال من التنميق الذي يرفع به المؤرخون الرسميون من مكانة الذين يفسدونهم. لن يكون سيئاً أن أقول ما أعرف بصوتي نفسه بعد أن تعلمت من ابن خلدون ما هوتاريخ البشر وكيف يجب أن يقرأ. بطريقة قريبي، ابن الأحمر، ابن يوسف الثاني وحفيد محمد الكبير، الذي كانت كتاباته بين الأشياء التي طلبتها. ولكي أكون أكثر صراحة، ربما كان ما أتطلع إليه هومجرد التسلية في أيام فراغي هذه، فلا أقنط وأنا أنتظر بلا أي أمل. لأن عظمة النفس في الأعماق إنما هي في أن يأخذنا الليل ونحن ننظر ممعنين في الشمس الغاربة. وأجمل المدن، بما فيها غرناطة، فيها ضواح همجية، ومن المحال أن يحكي المرء تاريخه الخاص دون أن يحكي تاريخ الآخرين، ذلك لأن التاريخ بحرف كبير ـ إذا وجد ولم يلفق بعد أن يكون قد مضى ـ يتألف من الحروف الصغيرة، مثل غطاء خيمة ملكية، تتألف من قطع ورقع متواضعة.

في الثلث الأول من القرن الثالث عشر كان لنا، نحن الأندلسيين، عدوّان من طبيعة مختلفة تماماً: النصارى، الذين كانوا يُصعّدون من هجماتهم وهم في الخارج؛ والموحدون، الذين كانوا يضعفون، لكنهم موجودون في الداخل؛ الموحدون بتعصبهم المؤذي دائماً، وادعاءاتهم بالنقاء الديني، الذي لم نكن معتادين عليه في الأندلس ولن نعتاد عليه ابداً.

جميع المدن التي كانت تملك نوعاً من الكيان، ومع أنها كانت مفككة ولا رابط بينها، كما هوحالها آنئذ، ثارت. هذا هومرضنا، منذ سقوط الأمويين، إن لم يكن هو الذي سبب هذا السقوط. وما زال إلى اليوم وسيبقى في حال وجوده. كانت المدن تبحث عن قادة أشداء وتختارهم ممن يعرفون كيف يدافعون عنها ويمنحونها الأمان وأسلوب الحياة السابق على غزوالموحدين. (لقد وطأ الموحدون والمرابطون من قبلهم أرضنا كحلفاء، لكنني لا أدري بأي قدر رهيب يتحوّل الحلفاء بيننا إلى

أعداء، كما يتحوّل القصب عادة في اللعب إلى رماح) قائدان توزّعا الهيمنة على الأندلسيين، لشدّتهما وكراماتهما: واحد من أسرة هود، وكان سيداً على كل البلد تقريباً، والآخر من آل مردنيش، الذي انتفض ضده وكان يسيطر على بلنسية. كان الأول يقول إنه يتحدر من ملوك سرقسطة القدماء ورفع بيده راية ملوك بغداد العباسيين، أولئك الذين ثاروا على أمويي دمشق وقضوا عليهم هناك. نحن البشر نحاول دائماً أن نتّكئ على من هوأمكن منّا فينتهي إلى أنه يعيقنا عندما نُقدِّر ـ بشكل عام قبل فوات الأوان ـ أننا مكينون تماماً [شيء من هذا يبدو أنه حدث هنا، حسب ما استطعت أن أقرأ فيما بعد. أحد قادة عبد الرحمن *الداخل* المظفرين ويدعى ابن عمر بن هود. كرّمه الأمير الأمويّ، على انتصاراته، بعد أن استقل عن دمشق بأن أعطاه حكم سرقسطة، التي اعتقدوا آنذاك أنها تدعى سنبسوينية. وقد شوّه المؤرخون النصارى اسمه فنادوه عمر فيليوس ده عمر، أفضى بدوره إلى مرسيليوس، أومرسيليو. وهوالاسم الذي عبر به إلى التاريخ. هكذا حكم أسلافه في سرقسطة إلى أن طردهم منها الملوك الأرجونيون، وعادوا إلى موطنهم الأصلي غرناطة. أحد أعقابهم المعروفين الذين يمثلونهم هوابن هود هذا الذي أتحدث عنه في كتاباتي عن برقونة. يستخلص من ذلك: إن ذلك القائد، ذراع بني أمية المهم، أنجب حامل راية أكثر أعدائهم لَدَدا: العباسيون. من غير الممكن إطلاقاً معرفة كيف سينتهي تاريخ من التواريخ. تلك هي المسألة فما يشغل الإنسان السعيد، يرضي الشقيّ].

كان صعود ابن هود، كما هي العادة بين الأندلسيين، سريعاً: كان حسن المظهر شجاعاً، باسلاً وقوياً، يُحمِّي النفوس. استولى بسرعة فائقة ـ أوبالأحرى استسلمت له ـ على معظم مدن الأندلس. (قليلة هي الأمراض التي لها عدوى الأمل، ربما كان اليأس واحداً منها) لكن الأندلسيين ـ الذين يفتقرون للمبادرة ـ لم يكونوا مستعدين إلا للطاعة، طاعة شخص ملموس، حاضر، أوجيد التمثيل ومع ذلك فإنَّ تنظيماً يوحي بالثقة والطاعة لا يُرْتجَل. من هنا فإن البناء الذي يشاد على عجلة، على عجلة يتقوّض. انتصر ألفونسو التاسع ملك ليون وابنه فرناندو، المُلقَّب *بالقديس*، في مريدة وشرش، بقية المدن الخاضعة لهود لم تكن تبحث ـ وقد أصيبت باليأس والعجز ـ عن تعزيز نفسها بنفسها، إلا عن الوسيلة للخروج من تحت حمايته المزعجة والقاسية. كانوا يفكرون، كما يحدث للشعوب عندما تفكر، أن الشيء الوحيد الذي حصلوا عليه هو استبدال الطغيان بطغيان آخر، وأن ذلك السفر لم يكن يحتاج لذلك الخرج، ولذلك استعدوا لاكتشاف

طاغية آخر. قدَّم لهم الفرصة، قبل ما هومتوقَّع، دليل جريء وطموح، كان يبحث بدوره عن فرصته. فتقدمت المدن الأندلسية، كما في مزاد علني - وهل اليوم لا؟ - إلى أفضل مزايد. من هذا الدليل أنحدر أنا.

كل شيء بدأ مساء يوم جمعة معتدل من شهر رمضان في أرجونة، غير بعيد عن جيّان. لم يكن الليل قد خيم بعد على التلال، وأشجار الكرمة لا تكاد تتحرك تحت الهواء الرقيق العليل. لم يذهب أحد، بعد الخروج من الصلاة في الجامع غير الكبير كثيراً، لتناول حسائه في ذلك اليوم. استمروا، يأكلهم الحماس والجوع، يهتفون بأعلى أصواتهم منادين سلطاناً برجلٍ كان ينظر إليهم بعينيّ أسد يتركهم يفعلون ذلك متظاهراً بالازدراء. لم يكن وسيماً ولا طويلاً ولا شجاعاً، كان فظاً ويعرف كيف يأمر ببسطوة، والأهم من ذلك أنه يعرف كيف يكون مُطاعاً. وكان يملك، على الأخص، بين يديه كهبة من الله القدرة على قياس إمكاناته. كان اسمه بسيطاً جداً: محمد بن يوسف. وكان يقول عن نفسه - أوقال عنه المادحون فيما بعد - إنه من أسرة بني نصر (لذلك ندعى بالنصريين) ومن بني الأحمر (ولذلك ندعى ببني الأحمر.) وقد طالب جميع الذين تأكدوا من عدم أهلية ابن هود لحمايتهم بالقائد الجديد، الذي صار معروفاً بعبقريته الحربية وبمزاجه الشخصي، وبأنه لا يقصر في عمل. لذلك لقبوه في الحال بأبي الفتوح - ولم يكن هذا قليلاً في ذلك الزمن، اللقب الذي يُعَرِّفُه كمسيطر وكغريب عن الموحدين. فتحت له جيان ومن بعدها قرطبة أبوابهما. لكنّ أياً منهما لم تكن أهلاً لأن تتحمل لزمن طويل نظامه الصارم. قالوا «خيرٌ لنا أن نراوح مكاننا من أن نمضي من سيء إلى أسوأ» . عادت قرطبة وذيلها بين ساقيها، مثل كلب جائع وعجوز، إلى ابن هود، الذي قمعهم أكثر من قبل. أمام هذا الدرس فضلت اشبيلية الإعلان عن استقلالها عن الموحدين وعن ابن هود واستمرّت على هذا المنوال إلى أن وصلت إلى نهايتها المؤلمة، التي لم تتأخر.

كان الهدف واضحاً تماماً بالنسبة لسلفي فَعَمِل أخلاقاً وقدراً متوافقين معه. عمل كأي واحد يبدأ مساراً فسيحاً ومعقداً باتجاه هدف يمكن أن يكون المجد الشخصي وخلاص الشعب في آن معاً، هذا إذا كانا قابلين للفصل ولا يقود واحدهما على الدوام إلى الآخر.. تحالف محمد مع الموحدين ضد ابن هود، الذي وَقَّع، عندما وجد نفسه محاصراً، هدنة مع النصارى، يدفع بموجبها جزية عالية قدرها ألف دينار يومياً مما

أضعفه كثيراً. تعمّمت المسائل الشخصية، كما يحدث دائماً، رغم أنه يمكن تأكيد العكس: التيارات دائماً تعثر على رجل. هُزم ابن هود في حصن الفرج ودخل محمد اشبيلية بالترحاب. كان انتصاره قصيراً جداً. فاشبيلية لم تكن يوماً محاربة جيدة وحبها للحياة كان واضحاً فلا تضحي بنفسها. عادت بعد شهر، وقد أرعبتها مطاليب محمد والقسوة التي انتقم بها من الخونة، لتقع تحت سيف ابن هود. لقد لعب سلفي منذ البداية بأكثر من قوّته وأكل أكثر مما تستطيع معدته هضمه في ذلك الوقت. كان نجمه ينوس. قرر، لا أدري ما إذا كان من منطلق المناورة الماكرة، أوالوسيلة القصوى، أن يصبح تابعاً لابن هود، الذي كانت كفته هي الراجحة يومذاك في ميزان الأندلس، مقابل أن يمنحه مملكة جيان مع أرجونة وبرقونة (برقونة التي أكتب فيها هذا. كان بودي ألاّ أفكر أنه هناك حيث بدأت تحكم السلالة بقدرتها الذاتية ـ انتهى مؤسسها إلى أن حُصر في حدودها الأولى بعد رحلة ذهاب وإياب متواضعة ـ ستنتهي. حبذا لوتكون برقونة وحصنها، كما في تلك المناسبة، استراحة عابرة لي ولما أمثل. فجأة وبعد قرنين ونصف، أجد نفسي سجيناً في القلعة التي رممها سلفي. قال الرومان «*هكذا يمر مجد العالم*» . الأزمنة تتبدل، تغيم، تهيم ـ أونتبدل نحن والزمن ينظر إلينا نمر وهوثابت ـ وتبدل المدن أصحابها وقدرها، أويتبدى لنا أنها تبدل، لأن حياتنا قصيرة بالنسبة لحياتها. كم هي نسبية الأشياء: فالجنائني بالنسبة للوردة خالد، وبالنسبة للحديقة زائل. ربما وإن كان القدر دائماً نفسه: الشعور بالحزن، بقليل منه، قبل الموت فقط. مع فارق واحد بين المؤسس وبيني: إذ بينما كان الأول يستجمع قواه للوثوب قبرت أنا وثبتي حتى قبل أن أبدأها).

انطلق فرناندو *القديس* لاحتلال قرطبة. اتبع لذلك فكرتين: طريق الوادي الكبير المائي، وانطباعه الشخصي القائل إن النهر، إذا كان حكيماً في ركوبه له، سيحمله حتى مصبه. لم يكن الوادي الكبير في يوم من الأيام حصناً دفاعياً، بل مجرى للاتصال، ولم يكن حاجزاً، وإنما رابطاً. السيء والصالح اللذان زارا الأندلس من الشمال هبطا عبره، لكنني لا أدري ما إذا كان أسوأ أوأفضل من الذي جاء من الجنوب. سأقول الآن شيئاً ربما أثار فضيحة، ومن الأفضل قوله بكلمتين: لقد ساعد مؤسس سلالتي فرناندو الثالث على احتلال قرطبة. بالطبع كُتُبُ أخبارنا تمتنع عن ذكره، ربما ليس خجلاً، وهوشعور غير معروف في السياسة، وإنما ببساطة لأنها لم تعرف شيئاً عن الأمر. وقد أبقي على المعاهدة في غاية السرية تحسباً للخصومات والمصالح اللاحقة، لكنني وجدت وقد عملت مع بعض الأمناء

في محفوظات الحمراء، مكافأة لي على هوايتي ومتابعتي، نسخة عن بعض معاهدات الصلح، التي يتحالف فيها مؤسس السلالة مع الملك النصراني في مواجهة المسلمين، بعد سقوط قرطبة. والنص، الذي بدا لي في البداية نسخة خاطئة، يسمح باستشفاف تلميحات إلى تحالفات أخرى سابقة. المسلمون الذين وقّعت المعاهدة ضدهم، هم بالطبع أتباع ابن هود، الذي استمر في ازعاجه للجميع، وفي خسارة الأرض. من غير الممكن مناقشة أن الغاية ـ فالوقت صار متأخراً ـ تبرر الوسيلة، ـ والآن لا؟ ـ عليّ أن أعترف بشيء مما يرشح مما أقرؤه في هذه الأيام: إن شعبنا ـ وقد يكون على حق في ذلك ـ ليس نزّاعاً للبطولات، فهويتطلع لأن يعيش في كل لحظة بأفضل ما يمكن، ويتجه من أجل هذه الغاية إلى من يخدمه في ذلك وينسى بسهولة. ربما كان التعقل أكثر من هذا بقليل.

أمَّنَ *المؤسس* بهذه الدسائس خاسراً من جانب رابحاً من جانب آخر دعماً مثمراً في غرناطة واستسلمت له جيان طوعاً من جديد. رقّ مزاجه من خلال الحياة العائلية اللطيفة، فأحبه الأندلسيون الشرقيون برايته الحمراء. مات ابن هود في ألمرية في مؤامرة لا أستطيع أن أؤكد أن سلفي كان غريباً عنها. وإذا بدا هذا قليلاً فإن الذي قتله إنما كان أحد زبائنه، سأكتب اسمه هنا كذكرى للخيانة، التي لم تكن شيئاً نادراً بيننا وكانت شائعة بين الكبار: اسم الخائن هذه المرة ابن الرميمي. كان المؤسس قد سيطر منذ زمن على بسطة ووادي آش واستولى على ألمرية، عاصمة بني صمدي القديمة وذات المكانة الرفيعة، الغنية والمرغوبة، ذات الصناعات المهنية والبحرية، التي سينادى بي ملكاً في قصبتها ذات يوم، إذا خرجت من هنا. مالقة التي أنهكتها التقلبات وتتلهف للاستقرار طاعت له تلقائياً وفوراً وهكذا راحت المملكة تدرك حدودها التي لا تختلف كثيراً عما كانت لها فيما بعد وأرحب قليلاً مما هي عليه اليوم.

كان النصارى خلال ذلك يتكشفون أيضاً، فلا تاريخنا له معنى بمعزل عنهم، ولا القنوط والجرائم تحدث فقط بين الأندلسيين. كان خايمه الأول ملك أراجون وفرناندوالثالث ملك قشتالة يتقاسمان بلاد النصرانية: شيء مماثل تقريباً لما جرى لنا، مع بطلينا. احتل الأرجوني بلنسية، إضافة إلى بنيشكولة وشاطبة وشيرة، وكانت مرسية ما تزال تحت سلطة أحد أولاد ابن هود، وهو اشبيلي هارب من الموحدين، ابن محفوظ الذي استولى على لبلة. أما شرش فقد كانت تشكل مملكة صغيرة لأبي خالد... هكذا هي الأمور، شعر القشتاليون للمرة الأولى بالشغف بغرناطة: شغف مُدمِّر دام إلى اليوم. ولكي يحصلوا على حبها تطلعوا أولاً إلى حب جيان،

وبما أنَّهم كانوا مُتلهِّين بمناوشات من أجل مرسية، استبقهم محمد الأول وهاجمهم في أندوجار ومرتش وهَزم وليّ العهد رودريغو، أخا ملك قشتالة. لكن ما أن استعادوا قوتهم حتى ردوا عليهم بعنف وحاصرهم نونثيث غونثالث، الذي صار فيما بعد صديقاً لنا وانتزع منهم في أقل من شهرين أرجونة. أرجونة بالذات، مهد السلالة، التي كانت مثل طفل صغير، لم تكد تنفصل عن ذراعي أمها. قرر الملك فرناندو، كما لوكان ذلك الرد قليلاً، أن ينتقم من جيان، دافع عنها المؤسس. حاصرها القشتاليّ بالجوع، قطع الطرق التي تربطها بغوطة غرناطة وجلس ينتظر مصلياً. قاوم المؤسس سبعة أشهر، ثم استسلم خوفاً من الشروط الوحشية التي فرضت عليه في مرسية. من الضروري القول، تبرئة له، إنّ خيانة حصلت في الداخل: استولى النصارى، بإرشاد من جواسيسهم على أكثر من ألف وخمسمئة دابة مع المؤن، مما جعل المقاومة محالة. كم كان سهلاً، في تاريخ السلالة المتعرج، شراء المساعدات بالمال: بشراء الأصدقاء والأعداء كان الأخيرون دائماً أكثر إخلاصاً. وتمّ السلام لعشرين عاماً، لكن شروط الملك *القديس* كانت من القسوة بحيث أنني لم أر وثيقة واحدة تنقلها، ربَّما لم يكن من التعقل نقلها بالنسبة للذين وقّعوها: توضع الوثائق كي تنفذ على أفضل وجه. وهناك مرات يُنْتَوى عدم تنفيذها حتى قبل توقيعها. في آذار عام 1246 دخل النصارى جيان بين الأناشيد. وذات ظهيرة أُقيمت آخر صلاة في مسجدها الذي تحول في المساء إلى كاتدرائية. ومع جيان مدينة أخرى لا تفتح فتحت: يحدث هذا عندما تكون قوة المهاجمين كافية عدداً وعدة لإسقاط أسطورة. أمام الذين احتلوها، بدلت منطقة جيان اسمها: سُمِّيَتْ المملكة المقدسة.

لم تضف هذه الفاجعة أي شيء غير أنها أكدت ما كان مكتوباً. بعد معركة شعاب طولوز سنة 1212 صرّت وصرفت مفاصل أبواب الأندلس لتبدأ بالانفتاح. المملكة المسلمة التي بقيت ـ غرناطة ـ لم يكن باستطاعتها الاستمرار إلا إذا أصدرت حكمها على نفسها بالموت: الخضوع. ما من شيء كان له علاج، وجميعنا كنا نعرف ذلك. عاجلاً أم آجلاً كان متوقعاً أن الانهيار ينتظرنا. كنا نعيش على الاقتراض، بأجر عال أكثر مما تتحمله جيوبنا بكثير وكل ما كنا نقوم به كان يحدث لأنه موافق عليه. فإذا ما اتفق النصارى ذات يوم ـ وأخاف بعد أن سمعت ما سمعت من الرئيس دون غونثالو فرناندث القرطبي في اللسانة أن يكون هذا اليوم قد حان ـ لن يبقى لنا إلا أن نحزم متاعنا. كنا المُتَسَاهَل معنا، والتسامحُ ـ مع كل التقلبات والحروب الصغيرة ـ كان العلامة التي ميزت السلالة. وأكثر من

ذلك سمح النصارى بنموها لارتياحهم لوجود عدو وحيد ينشغل بالقضاء على الباقين. الآن، وليس غير الآن، هوالوقت الذي ستدور فيه المعركة الحقيقية، الآن وليس غير الآن، وقد اتحد ملوك النصارى ليس بالتحالف وحسب وإنما بالزواج أيضاً، سيمثلون أمام غرناطة قائلين: «جئنا من أجل ما لنا.» وبماذا سيجيب من سَيُمَثِّل وقتذاك دورَ صاحب الحمراء؟ هل سيعتقد أنه أكثر من دور؟ هل سيكون الأخير، هوالأول الذي يجبر على أن يأخذ بمأخذ الجد دور الشخصية، الأول الذي يجبر على القتال حتى الموت، حتى موته وموت مملكته، من أجل ما لم يفعل من سبقوه غير أنهم دفعوا الجزية؟

البرهان على ما أقول هو إنه في ذلك الوقت وفي الأيام الأولى للسلالة تقاسم خايمه الأول وصهره ألفونسو العاشر ابن *القديس*، ما يسمونه *لاريكونكيستا*، الأرض المستعادة، وكأنها أرض صيد. كان الأمر بالنسبة إليهم شأناً عائلياً، رسموا خطاً في مملكة مرسية، من شاطبة وحتى نغيرة وتوزعوا المناطق. منذ تلك الساعة سمحوا لنا بأن نقاتل وكأننا المالكون الحقيقيون للمملكة، بينما كانوا يهبطون بين الحين والآخر يوسعون أقاليمهم ويعززون قوتهم بأموالنا، يربون أولادهم ويتهذبون بعاداتنا. تركونا نزرع الأرض، وندفع لهم الضريبة التي بها نحصل على الأرض. تركونا نكذب على أنفسنا ونحلم. لكننا كنا مؤقتين وأي مالك جريء أوأقل تفهماً يستطيع أن يرمي بأثاثنا في عرض الشارع. لقد تسلوا بنا كفاية، اصطادوا وجروا كفاية، وسئموا من الصيد والجري، بدلوا نغمتهم. ربما كان هذا لا يرى إلا من هذا الجانب هنا، من هذا المنظور الذي يقدمه مرور القرون البطيء، حتى ولوشوهد يوماً بيوم كما أشاهده أنا الآن، ما الذي يستطيع أن يفعله شعب إلا أن يستمر منتصباً على قدميه، أن يحاول الاستمرار منتصباً على قدميه ما استمرت حياته؟

دخل محمد *المؤسس* غرناطة. جعل منها عاصمته. أراد أن ينظم المملكة. كان يعرف أنها مهمة بطيئة. وأنا أعرف الآن ذلك: الحقل يمكن أن يُستولى عليه في صباح واحد، بعدها يجب زراعته وانتظار الموسم بحسبان الشمس والمطر، الصقيع والبرد، الحرائق والفيضانات. احتاج محمد الأول من أجل الهدوء والسلام، وكان عليه أن يدفع ثمنهما، إلى طاعة كبيرة اضطر لفرضها. لحسن الحظ أن أعمال التنكيل شكّلت له شعباً مستعداً للطاعة. عرف كيف يستخدم التهديد النصراني كسلاح، لم يبتدعه لكنه أحسن استخدامه. ثبّت النظام العام، الذي يتضرر كثيراً بعد

الحروب، بحزم. احتفى باللاجئين من المدن المهزومة: فتح لهم أبواب غرناطة وأسكنهم حيّ البيّازين، كي يضعهم في مواجهة السبيكة، تحت نظره ومراقبته الجيدة، لأنهم كانوا يضاعفون أذرعة الشعب، وفي الوقت نفسه وكرَ الدبابير. كانوا يأتون أفواجاً من مرسية وبلنسية. يبكون حيواتهم الضائعة ويصبون إلى إعادة بنائها. عادة ما كانوا ناساً مجدين - أكثر من أهل غرناطة - ويذهب بعقلهم جمال مدينتهم الجديدة. [رأيت فيما بعد كثيرين مثلهم يصلون: يجففون دموعهم بمآزرهم الخشنة، يحملون ذكرياتهم في سلالٍ معلقة إلى أذرعهم، ونساؤهم على حميرٍ مختلطاتٍ بعدّة عملهن، وخلفهن قافلة من الأولاد الصامتين. عيونُ المهزومين، سيان الفريق الذي ينتمون إليه، دائماً مبللة].

كان *المؤسس* صارماً، على الأخص في تحصيل الضرائب. فقد شكّلت إلى جانب الغنائم مصدر دخله الوحيد: لم يستطع أن يهملها. فرضها على مواطنيه كثمن للأمن الذي كان يبيعه لهم: شرط لحمايتهم لا يمكن إسقاطه. ومن أجل تحصيل الضرائب غير المدفوعة من السنوات السابقة أوقف وعذّب مُحصّليها، الذين اعترفوا بالأسماء والشركاء والسقط. كبير محصلي ألمرية مثلاً، أبومحمد ابن عروس مات نتيجة هذا التعذيب. كان القرار المتخذ لا رجعة عنه: إدارة مملكته بدقة ويد من حديد، كمن يدير مزرعة خاصة، بالحق المطلق نفسه والحب نفسه وبالمسؤولية المماثلة أيضاً. صعد ذات ظهيرة إلى حصن الملوك الزيريين، الذين انتهوا نهاية سيئة جداً، ذلك الحصن الذي بناه اليهودي الذي حدثني عنه الطبيب ابراهيم. صعد إلى هناك وقال: «سيكون هذا بيتي» . نام، بانتظار أيام أفضل، على تخت قاس، فيما يسمى اليوم ببرج التكريم.(مثلي اليوم في اللسانة وفي برقونة، لكنه كان الملك هناك). بين عقودها البيضاء والقاسية وتحت قبابها البدائية، غذّى قدره وتغذى بالسلطة، التي نادراً ما تغذي من لا يشعر بها. راح يبني المملكة من حوله، على قده، كمن يفصل ثوباً. أما فيما يتعلق بالخارج واتقاءً مِنْ سيِّدِهِ نفسه - ملك قشتالة الذي كان بالطبع يكرهه - وبالأمل البعيد بأن ينفضه عن كاهله عند أول فرصة، فقدَ مال إلى أخوته المسلمين في المغرب. أي إنه وضع الإيمان فوق الجيرة، آمن بالدين، لكن دون تعصب، ما لم يكن التعصب لصالحه، لقد فهمه واستخدمه كشيء مناسب وعقلاني يطلب مساعدته عندما يتطلب الأمر. لأن الدين، عندما لا يكون طقس حب داخلي، يصير سراباً خادعاً،

صيحة نجدة أوصيحة حرب، هكذا استُخدم وهكذا هو وهكذا سيبقى بالنسبة لكل السياسيين.

وضع الملك فرناندوالثالث اشبيلية نصب عينيه كهدف تال وتطلب حصارها واختراقها كامل قواه. اقترب منها براً ونهراً، حتى الأميرال البحري البشكي هبط من الشمال. كانت لقمة تستحق العناء. وكان *المؤسس* آنذاك يشكل جزءاً من قوى *القديس* الكاملة: ساعده في احتلال اشبيلية. وبالتالي فإن الدين في هذه الحالة انتقل إلى المقام الثاني كانت هناك ضغوطات أكثر إلحاحاً. في رمضان آخر (معروف أن النصارى ميالون لاستغلال صيامنا)، استسلمت مدينة الجيرالدا بعد حصار دام سبعة أشهر ـ بالنسبة لهم كان شهر كانون الأول من عام 1248 ـ وعندما عاد *المؤسس* إلى غرناطة، هتف له مواطنوه: «غالب! غالب!» لكنه أجاب مرة أخرى وهوالعارف تماماً لما يقول: «لا غالب إلا الله» ،: وصار اختصار هذه الخطيئة بعدها شعار سلالتنا.

لكن *المؤسس*، المرتاب من قوة قشتالة، عاد ووضع الدين في المقام الأول: أُجْبِرَ على مبايعة خليفة بغداد، خضوع بخضوع، فاختار الخضوع للكبير البعيد، ومع ذلك فالعلاقة لم تدم طويلاً فما أن رأى أن الموحدين يعيدون تثبيت أنفسهم في شمال افريقية، حتى التفت إليهم بعينيه ومبايعته، انضم إلى سلطان مراكش، الرشيد. لكن هذا مات في الحال فلم يتردد لحظة في التوجه إلى أمراء بلاد البربر وتونس الذين كانوا أعداء للرشيد. هكذا هي الأمور: إن الإذعان، بالنسبة للضعفاء بل وبالنسبة للذين يشرعون بالخروج منه، هوالأكثر فعالية، وما يجب أن يتطلعوا إليه هوالفعالية وليس المآثر ولا الملاحم. فلكي يصير المرء رأس فأر من المفيد أن يمارس لعبة أن يكون أولاً ذيل أسد. وأن يملك فكرة دقيقة عن قيمته الخاصة، وكلما صغرت هذه كلما كانت الأولى أكثر دقة.

لم تدم، كما كان متوقعاً، أعوام الهدنة العشرون إلى النهاية. لكنها دامت أكثر من المتوقع: الوقت الذي استغرقه *المؤسس* في أن يدوس بثبات في أرض غرناطة ويسمع صدى خطواته. تجددت العداوات بعد ثمانية عشر عاماً. تؤكد بعض الوثائق أن السبب كان الدعم الذي قدمه *المؤسس* لمدجني اشبيلية الذين تطلعوا إلى اغتيال ألفونسوالعاشر، وتؤكد أخرى أن الكمين الذي نصبه النصارى لاغتيال محمد الأول. عندما يغلي الدم ويُقَدِّرُ المتحاربون أنهم جاهزون، تصبح أية ذريعة صالحة. وأنا أعتقد أن جميع الوثائق هنا على حق. النقض قام لكلا السببين، مع أنني أجهل

أياً منهما وقع قبل الآخر، أوما إذا تزامنا. المسألة أن سلفي أدخل الدين مرة أخرى: استنجد ببني مرين في مراكش، فحلوا محل الموحدين نهائياً، أرسلوا إليه متطوعي الإيمان الأوائل، وكانوا في آخر أنفاسهم. سنوات السلام كانت قد قوّت محمداً: صار وقتها الأمير المطلوب بلا منازع. ثارت عطيرة ولبريجة، على غرار المدن الأخرى بتحريض من الأمير، ضد النصارى. فراحت الأندلس تلتهب مثل منارة، وكان الأمير القوي والماهر هوالذي أشعل الفتيل. كثير من القرى الحدودية انضوت تحت لوائه. كانت غرناطة (الرمانة) تتكور حبة حبة.

خلال وقت قصير، حاصر الحمو والصهر النصرانيان مرسية وقلصوها، قلصوها في كل المعاني وأسوئها. وتجرأ ألفونسوالعاشر على مهاجمة غرناطة دون أن ينجح لكنه تجرأ وكثيراً، إلا أنه نجح في شرش ومدينة شذونة. غرناطة بدأت تنفرط وتتقلص إلى حدودها المنطقية قبل أن تنعقد حبّاتها. إضافة إلى ذلك فإنّ محمداً الذي وقع في مشكلة هي من الخطورة بحيث أنها تؤثر على وجود السلالة واستمرارها، كان سيتصرف بطريقة أكثر حزماً لوأن الظروف مختلفة، فقد وقع في مشكلة خطيرة جداً. كان محمد قد دشن تجارة السياسة في أرجونة مع أحد أخوة زوجته، الذي قدم له الوعود والامتيازات. وكانت للمتحدرين من هذا، بني أشقيلولة، ذاكرة أفضل من ذاكرته. عندما اتخذ قراراً ـ مع نفسه، كما هي العادة ـ بتعيين ورثته في العرش من أبنائه أنفسهم، وعندما زوج إحدى بناته إلى أحد أبناء أخوته، من غير بني أشقيلولة، أي إلى ابن أخيه اسماعيل، الذي كان خلال حياته حاكماً لمالقة، رأى بنو أشقيلولة، ليس دون حق، أن هذه المدينة، التي كانت تحت سلطتهم، سوف تنتزع منهم، فدخلوا دون أي تأخير تحت طاعة ملك قشتالة المباشرة وتحصنوا في مالقة. شعر الملك ألفونسو بالسرور باستخدام سياسة النصارى القديمة «فرق تسد». أعترف أنا بأن أي سلاح، مهما كان قذراً، يمكن أن يستخدم من أي كان.. أسلافي أيضاً لم يفضلوا بهذا المعنى أسلوباً على آخر. وسلاح زرع الشقاق كان السلاح الأمضى ضدنا والأكثر إثماراً. فما أن يوضع بين أيدينا حتى نتكفل نحن أنفسنا بأن ينزل فينا أكبر الأضرار. صحيح أيضاً أننا نحن الأندلسيين لم ننقطع عن استخدامه ضد النصارى إلا عندما لم يعد عندنا إمكانية لاستخدامه.

لكننا ملكناه في حالة بني أشقيلولة. لقد استطاع ابن محمد الأول الأكبر الذي كان سيرثه أن يفصل بين أبناء أخواله وألفونسوالعاشر. فَوَقَّعَ سلاماً معه في قلعة ابن زيد (اسمها الآن القلعة الملكية). كان سلاماً

غالي الثمن: مئتا ألف مرابط في العام، والتنازل عن شرش ومرسية (كانت هذه مع إشبيلية عينيّ الملك) ومهلة عام كي يخضع بنوأشقيلولة. سلام غال لكنه مريح إذا ما نفذت شروطه. ومع ذلك فإنَّ الشرط الأخير، الذي من أجله وقع، لم ينفذ. وألفونسوالعاشر، الذي لم يكن مجبولاً على الإيفاء بكلمته، سواء أكانت مكتوبة أم لا، هز كتفيه: فالمسألة بحسب رأيه، مسألة عائلية. لكنه هزّ كتفيه تماماً إلى حد أن أثرياء قشتالة، الذين ضاقوا ذرعاً بقوته المفرطة، كادوا يهزون له رأسه.(من الواضح أنهم يطبخون الفول في كل مكان) كان على رأسهم نونيوغونثالث ده لارا، الذي كان سابقاً شديد المعارضة لنا، عرض مساعدته على محمد ضد بني أشقيلولة، ومع ذلك لم تفد مساعدته. لذلك اختار محمد، الخائف من انتقام قشتالة لتحالفه مع المتمردين، أن يتصالح مباشرة مع بني أشقيلولة، وكان الوسيط الطهورتي، أحد الورعين المراكشيين المنقطعين للجهاد بإيمان أفضل أوأسوأ. من جديد كان من المناسب استخدام الدين، تغييب العيون، والابتهال إلى الله، إله الجميع، برفع القلوب والأيدي إليه وتوقيع الاتفاق بين التهنئة وقراءة القرآن. وما أن تم التوصل إلى هذا الصلح، الذي هدّأ بني أشقيلولة، حتى استعان محمد الأول ـ هذه المرة حصراً ـ بالدين، هذا إذا كان الدين يتخطانا، وليس مجرد شيء من هذا العالم، استعان بالسماء لأنه لا يعرف كيف يضع قدمه على الأرض من فوق الجواد الذي كان يحمله في غارة عقاب قريباً جداً من غرناطة. كان الجواد أصيلاً، عصبياً وأسود مثل غراب، جمح والأمير الذي كان يمتطيه لم يعرف كيف يترجل. مات بعد صلاة الظهر يوم 12 شباط من عام 1273 عن عمر يناهز السبعين عاماً. وأسست المملكة بين شد ورخي. يقول ابن خلدون إنها شملت المنطقة ما بين رندة والبيرة، بمشي عشرة أيام من الشرق إلى الغرب وعرض مسيرة يومين من البحر إلى الشمال...

عملت ساعات كثيرة ـ مساءات وصباحات بكاملها ـ في تحرير تاريخ السلالة. راجعت بدقة المراجع التي أرسلت إليّ من غرناطة. قابلت بينها وأضفت ما سمعته في طفولتي، وما أوحى لي به تفكيري وأملته عليّ تجربتي القصيرة، بل إنني سألت القائد أيضاً، الضليع كفاية بالقرنين الأخيرين، رغم أنه يميل، كأي نصراني، إلى البناء حول محوره. وصل بي الأمر إلى أنني صرت أحلم، متشرباً تماماً بِسَمِيّي محمد ويوسف واسماعيل، الذين سبقوني. وضعت نفسي أحياناً محلهم بتركيز وصل بي

إلى أنني استطعت أن أفسر ردود فعلهم، غير القابلة للتفسير عند المؤرخين: بعضهم عرف كيف ينتظر طويلاً نتائج عمل من الأعمال غير المنطقية ظاهرياً، التي لم تظهر إلا بعد سنوات، ربما حين لم يعد بعضهم موجوداً على العرش. لقد شغل هذا العمل كثيراً من الأوراق القرمزية العزيزة عليّ، والتي تمثل هنا حضوراً هشاً للحمراء...

أحرقتها اليوم. كانت تطلق فوق الجمر لهباً أزرق. بدا لي أنني بحرقها حرقت أشياء كثيرة، ولم يكن باستطاعتي وأنا أراها تلتهب، أن أقول لنفسي ما إذا كنت أشعر بالرضى أوبالكآبة. قبل أن أكتبها، كنت أفكر متأملاً: «من يضمن المؤرخين؟ إذ ربما اختار أحدهم منذ زمن طويل واشياً وحمّله المسؤولية، فينقل الآخرون الخطأ واحداً عن الآخر، كمن ينقل إرثاً ثرياً. والتاريخ يكاد يقبله دائماً لأنه من الأيسر عدم مناقضة ولا تحريف النظام غير المنظم الذي وضعه شخص ما ربما ليتهرب من اتهام ما أو لزيادة فائدته.» لكنني بعد أن أنهيت روايتي، وقرأت ما كتبت فهمت أنني تحولت إلى مؤرخ آخر، آخر يسهب كي يتخلص من المهاترة أوالمشاركة فيها، استطعت أن آخذ على نفسي المآخذ التي أخذتها على الآخرين.

التاريخ الذي كنت أرويه ـ تاريخنا وتاريخ النصارى ـ مجموعة هائلة من الخيانات، من الغدر ومن استغلال الثقة، والكلمات التي لم توفَ، ارتكبها جميع شخصياته وعانوا منها، سلسلة رتيبة من الحروب المقطوعة بسلسلة من معاهدات الصلح وكلها غير حاسمة، مثل جولات مباراة اتفق مسبقاً على تأجيل نهايتها... ما الذي كان سيتعلمه أولادي من مثل هذه الشهادة؟ لماذا وصف ميزات السلاطين الزائلين ومدة حكمهم التي لم تدم إلا أياماً قليلة، أوتاريخ أولئك، الذين على العكس منهم، عادوا ليحكموا بعد خلعهم عن العرش مرتين وأحياناً أربع مرات؟ لماذا الإصرار على التمرين الصيفي البليد، الذي يحركنا في كل عام، نصارى وأندلسيين لنحتل أونفقد أونعود فنستعيد أو نعود فنفقد ضياعاً وموانئ وأبراجاً ومدناً؟ هل أدخلت عنصراً ما جديداً، هل استخلصت نتيجة ما تغير فعلاً مجرى الأحداث، أوتبيضها أوتباركها. اللجوء إلى الحرب المقدسة التي طالما امتهناها نحن في شبه هذه الجزيرة، شماليين كنا أوجنوبيين، هل كان أكثر من بحث يائس عن تحالف؟ كان أسلافي يعرفون جميعاً ـ هذا شيء واضح ـ أنه ما من شيء عبر من أفريقية وجاء بنتائج حسنة: من عَيّنَ في الحياة كلها ذئباً راعياً للقطيع؟ كلما لجؤوا إلى المغرب عاشوا من جديد رعب الأخطاء التاريخية ـ طلب المساعدة من المرابطين ثم

الموحدين ـ ذهبنا فيها نحن الأندلسيين طلباً للصوف فرجعنا مجزوزين.(ومع ذلك سلّاني أن أعرف، حالة بحالة، متى خاف السلطان الذي جاء دوره، مثل الطفل الذي يستدعي الأشباح أولاً، ثم يصرخ، أويتظاهر بالخوف، كمن يشرب خمراً ليبرر معرفته لِما سيفعله عندما يسكر). على هذا الجانب من المضيق كانت على امتداد القرون قلوبنا وقوتنا وما تزال. من هنا ـ وليس من السهل عليّ التسليم به أو الاعتراف به الآن ـ كانت ألفتنا للنصارى في شبه الجزيرة أكبر من ألفتنا لمسلمي أفريقية: فالتعايش، مهما بلغ من المرارة والعنف، يخلق دائماً جواً عائلياً.

تبيَّنت، لصالح هذا الرأي، أنه إلى الأعلى من هذه الحدود المتحركة وإلى الأسفل منها انعكست، على امتداد تاريخ السلالة، الحالات نفسها، كما في مرآة. فإذا دخل النصارى في مراحل من الخور، دخلناها نحن أيضاً، وإذا دخلوا في شقاق دخلناه نحن أيضاً. عندما تمسك القشتاليون في بداية هذا القرن المشؤوم بالحرب، كمثل أعلى للفروسية، قارنا أنفسنا بهم بالتعزيز الموازي والباهي لبني سراج (شكَّل هؤلاء، في مرحلة الملوك الأخيرين جسراً بيننا وبين قشتالة، حافظوا، وما زالوا، على علاقات معها على هامش العلاقات الرسمية، من هنا جاءت قدرتهم ومهارتهم في أن يخرجوا من كمُّهم طامحاً للعرش تربيّته قشتالية أكثر مما هي أندلسية بكثير، في الوقت الذي لا أحد يتوقعه.) ألم يضاعفوا، في وقت السلم، الثوراتِ والتذمرَ، في غرناطة كما في قشتالة، إلى حد أنهم جعلونا نتوق إلى أزمنة الحرب؟ وعندما لم يكن الموت ضرورياً عندنا لتبديل السلطان (لا أتكلم عن الموت الطبيعي، طبعاً، رغم أن الموت التحريضي وصل عندنا حدَّ أنه أصبح طبيعياً فعلاً) كان ذلك لأن تنظيمنا الديني والاجتماعي والعائلي أقل تماسكاً وانسجاماً من مثيله عندهم وطريقتنا في وراثة العرش اعتباطية. لذلك لم يكن الملوك القشتاليون، الذين يتوالون على العرش بصرامة شديدة، يبالون بمن يكون سلطان غرناطة: إنهم لا يتطلعون سوى إلى ألاّ يكون أيٌّ منهم راسخاً، وذلك كي يغذوّا، من خلال أبناء أسرته الطامحين، الخلافات ويدبروا المكائد.

لكن من الأفضل أن نسأل ما إذا كان قد همّ الغرناطيين من يكون السلطان الذي يحكمهم. كان الصالح عندهم هوالذي يمنحهم الأمن، ويخفض الضرائب، ويباعد بين الغارات: لا يريدون أن يعرفوا أكثر من ذلك. باستثناء بعض الومضات وبعض الفترات، متشابهين جميعاً وخاصة من بعيد. عندما توج النصارى فرع آل تراستمارا النغل، دشن اسماعيل الأول الفرع الثاني من سلالتنا، ما الذي استجد؟ قيل ـ وهذا كثير ـ إن

سلاطين هذا الفرع طبقوا ببساطة صرامة أخلاقية ودينية أكبر. ومع ذلك فالأصح هوأننا لن نكون، نحن سلاطين بني نصر، بعد الآن شعراء ولا فلكيين: لم يبق عندنا وقت لذلك، فعلينا أن نستولي ونحن على رؤوس الجيوش، على القلاع والمدن. لكن هل كان التبديل جوهرياً إلا بالنسبة للملوك؟ ألم يبقوا، رغم ما كتب، أعمدة للدين، وسيفاً لله، على الأقل بالكلام؟ ألم يستمر محورا هذا النزاع الذي لاينتهي: الصراعُ على المضيق، الذي يمكن أن يسهل أو يعيق النجدات الأفريقية الغامضة، والهدفُ الوحيد من الهدنات التحصن للحروب القريبة وتبديل الحلفاء؟ إن سلاطين الفرع الثاني قاموا، كما فهموا من الله، بوظيفتهم: شرّعوا كل ما هومفيد لليهود وسعوا إلى أكبر قدر من الحشمة في العادات: تلك هي رغبات أسلافي القديمة. ومع ذلك أعتقد أنه ما من شيء مما ذكرت يميز فعلاً الفرع الثاني، وإن ما يميزهم هوطريقة موت سلاطينهم: استُخدم الماء أوالسُمُّ ضد الفرع الأول واعتباراً من اسماعيل الأول لم يُستخدم إلا الدم، الكثير من الدم، المسفوك باستمرار وحماسة، ملطخاً البلاط وأفاريز الأعمدة على يد أكثر أعضاء البيت حميمية ما أمكن ذلك...

كيف لا أفرح لأن النار أتت على مثل هذه التطلعات الضارية، التي لم تتمكن من إخمادها إلا ضراوة النصارى ـ الأعظم من ضراوتنا ـ وجوعهم وتعصبهم الكاذب والحقير وتلهفهم للنهب. يستخلص من المعلومات التي أديتها للتاريخ إن البطولة كانت دائماً أقل مردوداً من سلب القرى والمحاصيل وفدية الأسرى، ومن التجارة (التي بقيت دون أن تُمس، فمنها كان يستفيد العدو كما نحن.) لأنه إذا كان ما يسميه العدواستعادة استمراراً لا يكل لصراعات دينية ـ لا من جهتهم ولا من جهتنا ـ فليُحرَّم عليَّ دخول الجنة. فالأوراق التي تثبت ذلك أحرقت تماماً.

ألخص اليوم بسرعة الريح ما يتعلق بالسنين الثلاثين الأخيرة لسلالتنا، وهي تعنيني أكثر من غيرها.

سأشير في المكان الأول إلى حدث هام. في عام 1452 أرسل جدي لأمي محمد الأعسر، عبد البر، قائد المرتزقة إلى مملكة مرسية مع ما لا يزيد عن مئتي فارس وستمئة من المشاة. انتصروا في مرسية وأريولة، لكنهم تعثروا في طريق العودة ببيدرو فاخاردو، ابن يانيث الشهير، الذي

انتصر عليهم في معركة البورشونيش. وكانت هزيمة غير محزنة وغير ماجدة، لكن الشعراء الجوالين النصارى تبنُّوها ورفعوها إلى مستوى الملحمة. في هذه المرحلة، التي أصبحت مرحلتي، لا يوجد مثل الشعراء لتخليد النصر كما الهزيمة، بحسب ما يدفع لهم، أوربما بشيء أكثر من ذلك، فأنا لست متأكداً، رغم أنني أخاف أن تأتي فرصة أتيقنه فيها.

منح خوان الثاني محمداً هدنة لخمس سنوات، لكن الذي ربحها بقوة ذراعه لم يستثمرها. ففي مطلع 1454 مات *الأعسر* ميتة طبيعية، ما من شيء آخر كان يستطيع أن يقضي عليه وهوالمجرب في الانبعاثات، إذ إنه خلع من العرش ثلاث مرات وتربع عليه أربعاً. خلف محمدٌ الحادي عشر *الصغير*، زوجُ أمي الثاني، حَمَاهُ، لكن بني سراج لم يكونوا يريدونه وعارضوه من جديد بمرشح آخر، تربى أيضاً في المنفى في بلاط خوان الثاني. إنه أبونصر سعد، قريب يوسف الرابع، المدعوسيدي سعد ويسميه النصارى سيريسا. أي جدي لأبي.

في ذلك الوقت، كان ألباروده لونا قد أُعدم في بلد الوليد: لم نكن نحن الوحيدين الذين نرمي بالرؤوس من أعلى مكان إلى أخفض مكان. كان الدور فيما سمي بحماقة بالاستعادة من نصيب أنريكه الرابع. وكان جدي سعد قد أرسل إلى والده، خوان الثاني، مبعوثين يطلبون منه التدخل في صراع الغرناطيين على العرش. كان على رأسهم أبوالحسن علي، والدي، الذي احتجز في شيقوبية كرهينة، لا أحد يدري لماذا. كان برفقته موكب بهي من مئة وأربعين فارساً وثلاثين راجلاً وانضم إليه في الطريق آخرون من أنصار جدي، أي ما مجموعه ثلاثمئة رجل، نزلوا في الربل، ربما ليمنعوهم من حق الدفاع عن أحد. لأنه كان في المملكة النصرية في ربيع 1455 ثلاثة ملوك يتقاسمون السلطة (وهذا يعني إن وضعي ليس جديداً تحت الشمس): الملك *الصغير* (الذي كانت تتبع له غرناطة ومالقة وألمرية ووادي آش) ومحمد *الأعرج* (الذي كان يرفض الانسحاب ويملك تحت سلطته أليورة ومقلين مع قلاعهما إضافة إلى جبل طارق)، وجدي (الذي كان يقيم في أرشيذونة ويحكم في رندة ـ التي كانت حاميتها الأفريقية مخلصة له ـ ، ويؤيده بعض الوجهاء في ألمرية). [كانت أمي زوجة لاثنين منهما وكنّة للثالث. انطلق أنريكه الرابع، منتفعاً من حالة الخلل في حربه الصليبية ضد غرناطة].

أحرق في دخوله الأول الذي استمر أربعة أيام أراضي مقلين وأليورة ومنع المناوشات، لأنه أراد أن يركز بجرأة وتباه هجماته على

القوى الحيوية، كي يبهر رجال بلاطه. في دخوله الثاني الذي دام أسبوعين، دمر، في طريقه إلى مالقة، أليورة وأرشيذونة، التي كان يقاوم فيها عبد البر وابن كماشة، وقابل في ضواحيها والدي، الذي كان على تفاهم جيد معه فتعهد له بألاً يسرق المحاصيل ولا يهاجم المدن المفضلة عند جدي. في دخوله الثالث هاجم الغوطة من جهة القلعة الملكية فأسلم المزارع والقرى التي كانت في طريقه للسلب مدة ثلاثة أسابيع، لكنه رفض التورط في معركة كبيرة على عكس ما كان قد عقد العزم عليه في البداية. تهامس النبلاء القشتاليون المتأججون وتململوا، وإن كان كما أعتقد ظاهرياً، من نهج ملكهم الجديد، القائم على إنهاكنا بمكائده واعتداءاته الكثيرة ضمن حملة متواصلة غير ماجدة. وعندما انسحب ترك لحاكم القلعة مهمة توقيع الهدنة مع محمد الحادي عشر *الصغير*، ممثلاً بعبد البر. كانت الشروط باهظة للغاية وفي غير مكانها، كأنها مقترحة للنشر في قشتالة. الاعتراف بالتبعية من خلال الجزية الباهظة، تحرير ألفي نصراني خلال أربع سنوات، التخلي عمّا احتل منذ موت خوان الثاني والتعهد بتقديم خدمة عسكرية لقشتالة. تركت الأشياء على حالها أمام سياسة التبجح والصلف.

دخل جدي غرناطة يساعده أبناء المدينة، وما أن أصبح في داخلها حتى تابع المباحثات مع المريشكال دييغوفرناندث القرطبي، قند قبرة [والد الذي استولى على الرايات فيما بعد في معركة اللسانة] وكان صديقاً جيداً له وفي بعض المناسبات رفيق سلاح، فالأمر كان ما يزال معتاداً في تلك الفترة حيث يتقاتلون كعادة قديمة وثقيلة وحيث صارت الحرب، ككل الأشياء الحتمية، جزءاً منا ومن حياتنا كلها. لكن توترات الوضع - الداخلي أكثر من الخارجي - شغلت جدي سعد. استدعته مجموعة قوية من أنصار *الصغير*، الذي صار عجوزاً، لإدخاله إلى غرناطة. شرع بالسير عبر الجبال، لكن والدي الذي تنبه للأمر نصب له كميناً وقاده إلى الحمراء، دعاه للعشاء في قصر الأسود وذبحه بسيفه بالذات. في الوقت نفسه أمر بخنق جميع أولاده بمناديل العشاء. لم يتأخر في الزواج من زوجته، التي أنجبتني منه.

وعندئذ تحقق الدخول الرابع لأنريكه الرابع. تذرع بأن جدي قد خرق الهدنة الضمنية، كما لوأنها موجودة في الوقت الذي تخترق فيه الهدنات المكتوبة والمصدقة. استولى على قلعة شلير، واحتل استبونة وزرع الخراب في الغوطة. استطاع في طريق جبل طارق أن يجبر المدافعين عن فونجيرولة على اللجوء إلى القلعة فحاصرهم. بالقرب من الصخرة خرج

ابن كماشة على رأس قوة صغيرة، وقدم له مراسم الاحترام ـ بشكل مفاجئ: فابن كماشة كان دائماً يملك مخارج كثيرة ـ ودعاه لصيد الأسود في أفريقية (يبدوأن الصيد كان الهواية الوحيدة لهذا الملك، إذا استثنينا صيد الرجال.) أساءت قبائل الريف، كما كان منتظراً، استقباله، فعاد إلى جزيرة طريف ومنها إلى إشبيلية. تقدم جدي، الذي كان منكباً على المناوشات، خلال ذلك حتى جيان. خربت الغوطة من جديد خلال شهر آب. مع عودة المناوشات في تشرين الأول وجد جدي نفسه، مدفوعاً لقبول هدنة لخمسة أشهر مقابل دفع خمسة آلاف دبلونة من الذهب وتحرير ستمئة أسير (كان ما يسمى بالاستعادة يختفي كمثل سياسي أعلى ليتحول إلى تجارة يمكن أن تكون، بحسب من يشرع بها، مدمرة أومنعشة).

في عام 1457 حوّل أنريكه الرابع جيان إلى ساحة سلاح، وقام بدخوله الخامس. احتل أليورة ووشقة ولوشة، لكنه اضطر إلى التراجع أمام خمود همته وهمة جيوشه. بينما كانت معارضة النبلاء في قشتالة قد نقلت حرب غرناطة إلى المقام الثاني، حتى فاخاردو نفسه تمرد. ومن جديد وصل الغرناطيون إلى أبواب جيان نفسها، فأوفد الملك قند قبرة لتوقيع هدنة حتى عام 61 .

بدأ عام 62 ببعض الرجحان لصالح القشتاليين، لكن سرعان ما انتصر والدي في معركة مدرونيو، غير البعيدة عن أستيبة، على بونش ده ليون، ابن قند أركوش، الذي سيصير فيما بعد مركيز قادش وعلى لويس برنيا حاكم أشونة. هاجم مشير المملكة المقدسة ميغيل لوكاس ده ايرانثو قلعة أريناش وهُزم، لكنه وضع في تموز ألديرة والقلعة الحرة بين النار والدم وعاد إلى جيان محملاً بالأسرى والغنائم، لكن ليس قبل أن تقوم مواجهة قاسية بينه وبين من سيصبح حماي، الذي كانت تربطه به صداقة جيدة واحترام متبادل [في هذه الحملة كان ميليان أثواغا الرسام، وأعتقد أنه كان فخوراً بنفسه وبعشيقه، الذي كان يتقدم بدوره بخطى حثيثة نحو ميتته الوخيمة. كل إنسان يبني بيته على حافة هاوية دون أن يدري. للبرهان على ذلك يكفي أن أقول إنني ولدتُ في ذلك العام نفسه]. استولى دوق شذونة وقند أركوش، بواسطة خيانة أحد المرتدين، على جبل طارق، بينما استولى دون بيدرو خيرون، رئيس رهبانية قلعة رباح العسكرية على أرشيذونة. شكلت هذه الخسارات انتكاسة خطيرة في المعنويات. حاول بنوسراج، الذين أخذتهم الخيبة واليأس، [وكانوا قد اقتلعوا من العرش زوجَيْ والدتي الأولين] أن يخرجوا إلى النور طامحاً آخر مدهشاً. اتخذ جدي سعد في غرناطة الإجراءات المناسبة كي ينجو من مقرعتهم:

أعدم أبرز عضوين في العائلة، الأول كان وزيره مفرّج. هرب وجهاء بني سراج الذين كانوا يقطنون في الحمراء إلى مالقة وتمردوا هناك، دون أن يملكوا الوقت لارتجال مُتَطلّع آخر للعرش، فأعلنوا عن خضوعهم ليوسف الخامس، الذي كان قد أصبح سلطاناً لعدة شهور منذ خمس سنوات مضت، وغذّته قشتالة من جديد، كما في عهد مشير لونة. استولوا على مالقة وغرناطة والمنطقة الشرقية من المملكة بالمكائد والرشوة والاغتصاب. وكانت حالة جدي تسوء مؤقتاً، فوجد نفسه مضطراً لأن يوقع هدنة باهظة من تشرين الثاني وحتى أيار، مع أنريكه الرابع، ليتخلص من الخطر الداخلي. أخيراً طُرد بنوسراج من غرناطة في تشرين الثاني عام 1463 بشكل دموي. في كانون الأول توفي يوسف الخامس ليترسخ جدي.

قام أنريكه الرابع بدخوله السادس في شباط من عام 1464 . اقترب انطلاقاً من استيجة مع البرد بحثاً عن فرض أعباء ومباحثات جديدة تُحسّن كنوزه. وقّع في جيان معاهدة مع جدي سعد لعام واحد تُحتَرم من خلالها حرية التجارة، لكن والدي تحالف في آب مع بني سراج - الساخطين بسبب الامتيازات التي منحها جدي للنصارى، أومتظاهرين بالسخط - وحاول أن يحيي عصوراً مجيدة، ربما هي ميتة منذ البداية. خَلع جدي من العرش وأرسله أسيراً إلى سالوبرينا [أو ربما إلى حصن مقلين، لم أعرف ذلك قط بالضبط.] سرعان ما عارض بنوسراج والدي ورفعوا راية عمي، الذي لم يطلبوا حتى موافقته، تلك كانت سياستهم المجرَّبة. أتساءل اليوم ما إذا لم يكونوا في السنوات الأخيرة بالحقيقة إلى جانب النصارى باستمرار محرِّضين ومشجعين التشرذم الذي كان يمزقنا، ويتطلعون إلى مشروعهم الخاص، الملتوي والمجهول بالنسبة للمملكة التي عمل فيها الآخرون أوعملنا نحن مثل أدوات وديعة أوأننا أبِدنا.

لم يتأخر جدي حتى توفي. نقل والدي باحترام ملكي متأخر جثمانه إلى غرناطة. أتذكر أنني حضرت وأخي يوسف مواراته التراب في روضة الحمراء ممسكين هو بيد مرضعة وأنا بيد صبح. كان الوقت قد مال للغروب، وأعرف أنني خفت، لا أدري ما إذا برداً أومن الحالة. كانت المراسم قصيرة جداً وتمت دون أية أبهة. حضرها والدي وبعض الأمراء من العائلة، بينهم الباسق والجميل أبوعبد الله، لكن البدين يوسف اعتذر عن الحضور. قربوا الجثمان على نعش مصنوع توّاً، تفوح منه رائحة الخشب وزيت الزباد الذي دهن به. كان المؤذن قد نادى قبلها من باب

الجامع للجنازة بصوت عادي، وصلى عليه القاضي، استثنائياً. ثم قام الفقيه بتبخير الجسد والنعش بمبخرة، اختلط عطرها بعبق الزباد والخشب الجديد. أذكر هذا الخليط من الروائح بشكل خاص. أيضاً أمي، التي ربما كانت الوحيدة التي أحبت جدي لأنه ضمها إلى السلطة التنفيذية للسلالة، لم تحضر. أوعلى الأقل لا أتذكرها في ذلك المساء المكفهر. ومع ذلك ليس غريباً أن تكون حضرت ولا أتذكر، رغم الأهمية الأساسية التي لها في تاريخي - فهي لم تمنحني الحياة فحسب، وإنما وضعتها في خدمتها - إنني أتذكرها باختلاط استثنائي. وكأن ذاكرتي، بشيء من غريزة الدفاع، ترفض أن تؤويها أمام عجزي عن تحويلها إلى أم مختلفة.

كان واضحاً أن القائد ألاركون لم يكن يجد الوسيلة التي يقول لي فيها الأمر. في الحقيقة دائماً لا يجد الطريقة التي يقول لي فيها الأشياء ببساطة، وليس عنده أي احساس باغتنام الفرصة. يبدأ الأحاديث وينهيها متحدثاً عن مآثره ضد *المسلمين*. يخطىء بالتواريخ وبأسماء رفاقه في الحرب وبالقرى. لا أدري كيف يتدبّر أمره حتى ينتهي بطلاً في كل المعارك. رغم أن عنده واحدة مفضلة، معركة أستيبة، التي قاتل فيها عمي، في شروط غير متكافئة، وسط عاصفة، وتحت البروق والرعود، وخرج منها مكللاً بالمجد. الحقيقة إنني لم أسمع أحداً يتكلم عن هذه المعركة غيره. رغم كل شيء فإنني أتساهل مع إسهابه وأبدأ أفكر بشيء آخر، خاصة وأن عربيته غير المفهومة تساهم في ذلك. ليست المسألة أنه يبدولي كاذباً، بل ببساطة مضجراً، فنبرة صوته وهويفتح ويطبق ويعود فيفتح يديه تُسَبِّب لي أرقاً يزداد مع حر تموز في برقونة.

في المناسبة التي أتحدث عنها اضطررت أن أدفعه كي ينهي حديثه ويتركني بسلام. كانت ساعة القيلولة غير المناسبة. بدأ يحدثني عن ابنة أخيه منثيا: وهي فتاة جميلة، لكنها ترى بشكل سيء، إلى حد أنها اصطدمت بي عندما جاؤوا بها لأتعرف إليها. يؤكد القائد بأنها تشعر نحوي بجاذبية كبيرة، ومن المحتمل أن يكون ذلك صحيحاً، أنا أيضاً أشعر بالشيء نفسه تجاهها، أوعلى الأقل بشفقة كبيرة: إنها هنا وحيدة مع عمها المضجر، لا عمل لها غير تنظيم القلعة، دون أن يكون عندها شباب بعمرها ولا رفيق آخر غير القسيس - الذي تقعقع مهاميزه أكثر من

أي شخص آخر ـ وهي في العمر الذي تكون فيه الفتيات ما يزلن يلعبن بجدائلهن ويبدأنَ يكتشفنَ أن هذا اللعب لم يعد يسليهن فيحلمن بألعاب أخرى أقل عفة. تحدث القائد بعدها عن أجداده، عن قونكة، عن قلعة ألاركون الصخرية، عن تولّيه منصب رئيس رهبانية عسكرية، عن أستيبة السابق ذكرها، كما كان متوقعاً. كنت أهزّ له برأسي هزات لا مفر منها. ثم فجأة، وقد أمسك يداً من يديه الماهرتين بأخرى، انفجر أخيراً ليعرض ما كان قد جاء من أجله:

ـ الملك فرناندو يحبكم حباً عميقاً.

ـ أتصور ذلك، يحبني كما أحبه أنا.

لحسن الحظ لم يلتقط السخرية ولا من بعيد.

ـ أرسل لي رسالة كي أطلب منكم...أوبالأحرى أرسلها لرسام. يريده أن يرسم لكم صورة وجهية، بما أنه لم يتمكن من معرفتكم في قرطبة...

ـ تولد لديَّ انطباعٌ بأن هناك من يتجسس عليَّ من ثقب الباب في بيت المطران ـ قلتُ، لكنه لم يسمعني.

ـ جلالته يرغب بأن يكون عنده صورة لكم. أعرف أن مبادئكم الدينية تمنع عليكم تصوير أية صورة إنسانية ـ أعلن مبتسماً ابتسامة حذلقة، كنت ساضحك لها مقهقهاً لولم أشفق عليه.

لم أبغ أن أخرجه من وهمه. فلماذا سأقول له إن الأشكال ليست ممنوعة عندنا، لأن الله خلقها لمتعتنا وتعلمنا، وإنَّ المالكيين هم الذين بالغوا بتصلبهم في كل شيء، وهُم يُعادِلون عندنا محاكم التفتيش عند النصارى ومن المحتمل أن يعادلوا قائد الاركون أيضاً. ولماذا ساقول له إنه منذ خمسة قرون عندما كانوا هم يرضون بفن فظ وملتوٍ، نُحِتَ تمثالٌ لحبيبة الخليفة بكامل جسدها في أبواب مدينة الزهراء. لماذا ساقول له إن التماثيل الجميلة لمن زاروا الأندلس سابقاً يغرم بها الناس في حماماتنا. لماذا ساقول له إنّ الحمراء مليئة بصور السلاطين والنبلاء والزعماء.

ـ إن الملك فرناندو يكرّمكم بصورته هذه مقدَّماً كي ترسلوا له الصورة التي يطلبها منكم.

ناولني منمنمة، يظهر فيها وجه ممتلىء ووجنتان دائريتان وشفتان منحنيتان بتباطؤ خبيث، يحيط به شعر مسترسل وقصير. شكرته.

ـ رغبة الملك بالنسبة لي أمر. أحضر لي هذا الرسام، متى ترغب.

لا بد أنه كان على الجانب الآخر من الباب. لأن القائد خرج وعاد به في الحال. ارتبكت عندما رأيته.

اسمه ميليان أثواغا. لم أتمكن من معرفة ما إذا كان من لاريوخا أومن استريمادورا، لأنه يشير إلى الاثنتين بالمقدار نفسه من عدم المحبة. إنه قصير القامة، يوشك أن يكون قزماً، صغير اليدين، اللتين تبدوان أكثر من اثنتين لأنه يؤشر بهما دون انقطاع، غائر العينين،ناعسهما.

ـ يقولون إنَّ لي عينين عربيتين: هل يعتقد سمّوكم ذلك.؟ ـ سألني في اليوم الأول.

ـ منذ زمن أكد لي شخص أن لي عيني جارية ـ قال في اليوم التالي، بينما كان يراقبني بلهفة.

ليس كبيراً في السن، لكن شعره قليل جداً ويديره بتصنع كبير: يقوم نظراً لطوله بلفه كي يغطي المنطقة المكشوفة التي لم يعد فيها شعر.

ـ هكذا، يا سيدي ـ اقترح عليّ القائد كما لوأنه يريد أن يعوّضني ـ تتسلون في أوقات فراغكم. رغم أنني على علم بأنكم تقرؤون وتكتبون وتتأملون ـ أضاف بنبرة الحارس الوفي الذي لا يفوته شيء، بين المتواطىء والمحذِّر.

بالفعل كان الرسام يسليني في وقت فراغي. لا يتوقف عن الثرثرة لحظة واحدة. فيه ظرافة، ولا يكلفه الكلام بالعربية ـ يلفظها باتقان مدهش ـ قصّ شعرة (ربما لوكلفه ذلك لما تكلم).. يحب أن يُتابَع حديثُهُ كما يُتابَعَ عصفور، لكن ليس عصفوراً صادحاً يُسْمَع، وإنما عصفوراً يحوّم، يقفز، يخفق بجناحيه، يهدأ لحظة، ويعود ليطير من جديد، يتوقف ويعود للهواء ثم يعود ويتوقف. ينتهي بالواحد إلى قليل من الدوار، لكنه إذا تماسك برهة طويلة وكانه يريد أن يختار طيرانه، يصير تعليمياً. أنا، على الأقل، أتسلى معه، رغم أنه يملك مثل القائد موضوع حديثٍ مفضل. أخاف أن يكون هذا ما يحدث لنا جميعاً.

ـ كنت رساماً في بلاط المشير ميغيل لوكاس ده ايرانثو.

اعتقدت في البداية أنه يبالغ في موضوع البلاط، لكنني أعتقد الآن أنه يقصر.

ـ بعدها، عندما حدث ما حدث، وضعت نفسي في خدمة عدد من سادة الحدود.(ليقولوا ما يقولون، ما زالوا مثل الكلب والقط.) إلى أن

استقر بي الأمر في قرطبة. إنها مدينة تعجبني. هي أكثر جدّيّة وأقل فجوراً من إشبيلية، هذا صحيح، لكن أين هي من عظمتها... لأن سموكم يعرف ما جرى. العالم كله يعرف. أعني المشير. ونظراً لأنه كان ينظم، شخصياً، الحفلات الكثيرة والمسرح وألعاب الخاتم، والمواكب والمهازل، والهزل والمرح في عيد المرافع، لم يكن الناس يستطيعون رؤيته ولا حتى في الصورة، رغم أن هذا يبدو كذباً، تصور أن الذي يقول الكلام رسام. شرقوه مثل عظم. لأنه لم يكن يميز بين المسلمين واليهود والنصارى. وهذا ما لا بدَّ أن سموكم قد لاحظه. وهوأمر غير مقبول هنا، ولا بشكل من الأشكال. هكذا وفي أحد أيام عيد جسد المسيح (عيد جسد المسيح هواليوم الذي يحتفل فيه بـ...، من الأفضل ألا ندخل في اللاهوت، كي لا ننتهي إلى الاختلاف.) في عيد الجسد، في الكاتدرائية، في الصلاة الكبرى، وكنا نتكلم في غرفة الأشياء المقدسة، بأنَّ عليَّ أن أرسم هبوط السيد المسيح عن الصليب، وبعد نصف ساعة، وقانا الله... في البداية حجر (سوف أضفي على سمّوكم قليلاً من الحركة، فالنور تبدل.) حجر، في البداية، بعدها آخر ثم خمسة عشر وخمسمئة وعشرة آلاف. رجموه، سحقوه، طحنوه. أطاروا دماغه أمام المذبح الأكبر نفسه. يا للفظاعة. ما زلت أحلم به، لن أقول لكم أكثر. المسألة إنه كان يحبني كثيراً. وأنا أيضاً. هناك بقي مسحوقاً. والقندة كأنها ميتة، لم تستطع أن ترفع عينيها عن تلك المعمعة من الدم والثياب. ماتت. حسناً هي لم تمت. لكنها بقيت شاحبة ومتخشبة كما لوكانت كذلك. ما أقل احترامهم للمقدسات. كل ذلك لأنهم مثل البرابرة. أهل الشمال، معروفون. لا قشتالة القديمة، ولا قشتالة الجديدة: كلاهما واحد. في الريف، يتساوى الجميع. لذلك جئت إلى الأندلس كغلام، حيث الأشياء مختلفة. مشيري الذي كان ملاكاً، كان يردد هذا في كل لحظة: «الناس يهبطون، من برغش وبلنسية، كأنهم ذاهبون إلى عرس ملكي. وإن كان لمجرد نفض البرد والجوع عنهم. إنها الجنة على الأرض.» هذا ما كان يقوله المسكين، فعلاً لقد كان...كان ملاكاً من السماء. لا بدّ أن سموكم يعرف ما هي الملائكة، ففي دينكم توجد ملائكة أيضاً، أليس كذلك؟ الأديان كلها في الأعماق متشابهة. كما الأشخاص. لا ليس كما الأشخاص، لأن بعضهم سيء للغاية... ملاك! هل يصدق سموكم بأنه نام مع زوجته ليال كثيرة دون أن يلمسها، إلى أن سهروا عليهما. كما كان يقول: «سيكون لدينا الوقت الكثير للسهر وسيفيض عنّا.» المسألة إنهم في قشتالة يحولون كل شيء للحديث عن اللواط. إنهم لا يفهمون أحداً، أوإن الواحد يكون رقيقاً أكثر، وفناناً أكثر، فيسمونه

لواطياً، يرتقي الواحد، ويريدون أن ينزلوه، لواطي. فيما بعد يوضح لي سموكم، إذا أمكن ذلك، لماذا كل هذا الصخب..!.. ان عصرنا، كيف أقوله لك، عصر نزق...مثل امرأة حامل. تحدث أشياء لم تحدث قط. هناك رغبات واختلاجات في الهواء... لقد لاموا، منذ زمن، دون خوان الثاني، أبا الملك أنريكه الرابع ودونيا ايسابل، لأنه *كان محباً لكل أنواع اللطافة*. أنا لا أقول إنه لم يكن محباً لدون ألبارو ده لونا، لكنني لا أقول أيضاً إنه كان كذلك. ما من شكّ بأن *موشحات بروبنثيال ومينغوربيبولغو* تغنّت بذلك بصوت عالٍ. لقد تغنّت بكل شيء عند الجميع، لأنه يجب أن نرى...ففي مراهقة الملك أنريكه الرابع كان مركيز بلبينة ينّومه معه. ألم يكن مربّيه؟ هل من شيء أكثر طبيعية... العادات العربية (وليعذرني سموكم، فأنا متفق تماماً معها) كانت راسخة (أم إنه لا يقال هكذا؟) في البلاط، خاصة بين الطبقات العليا. ولم تكن فاضحة... لا أدري ما إذا كانت هذه العادات عادات عربية: يقال هذا دائماً عندما لا يريد المرء أن يواجه، أوعندما يريد أن يظهر شيئاً آخر... النتيجة الآن أن العالم، وحسب ما يسمع الإنسان، مليء بأولاد الحرام، وبالأزواج العنينين واللواطيين. فلماذا كل هذه المواربة وكل هذا النفاق؟ ألم يتبدل الناس والعادات؟ وستتبدل أكثر، كما كان يقول المشير. هذا ما رأيته بين سادة الجبهة، الذين يجب أن يضع المرء يديه على عينيه كي لا يرى ما يفعلون. لماذا كل هذه المراوغات والحركات بدل أن تقبل الأمور كما هي وبفرح؟ فالأمور كلها طبيعية. لذلك أنا في الأندلس. فأنا تماماً كما لوأنني ولدت من سلالة من هنا، إلى حد أنهم يعيبون عليّ أن عاداتي عربية. هل هم على حق، ياصاحب السمو؟ فأنا أتعطر وأغتسل، وأضحك وأعيش... كانوا يلقبون الملك أنريكه *بالعنين*. عنين مع من؟ كما كان يقول المشير. لا شك مع الملكة، لأنه فيما يتعلق بعلاقته مع غومث ده كاثرس أو فرانشيسكو بالديس أومع بلتران ده لا كويبا... حسناً منح هذا لقب دوق، وعمل لأجله كل شيء، حتى مهرجاً. لأجله أسس سان خيرونيمو دل باسو في مدريد، لروعته وشجاعته التي أظهرها وهويصيد دببة في ذلك المكان. لابدّ أنه كان مجنوناً. صاهره مع آل مندوزا ورفعه إلى أرقى دم. لكنه كان يخونه في كل مرة شاء. ولن أقول غير إنه لم يقف إلى جانب *لابيلترانيخا*، سواء أكانت ابنته أم لم تكن، كان عليه أن يفعل ذلك ولومن أجل الاسم فقط. يقولون إنه كان يدخل إلى القصر ليلاً لأنه عشق الملكة. على هامان يا فرعون، كل القطط بنية في الليل. كانت قملة عادت إلى الحياة. تطفح المجوهرات حتى من حذائها. ولم تكن علاقتها جيدة مع مشيري. لكن ما يتعلق بالملك أراه طبيعياً. كان يحب الموسيقى والصيد،

ويحب رفاقه في الموسيقى والصيد: شيء طبيعي. لم يكونوا من طبقته؟ طيّب، لكنهم كانوا أمناء وشكورين وأوفياء أكثر من غيرهم. على الأقل من حيث المبدأ. الأعيان كانوا فاسدين مثل الملك وكانوا نهاية سلالةٍ مثل الملك. قشتالة كانت تتطلب دماً نظيفاً ونقياً. قشتالة وهوأيضاً. أم أن سموكم لا يعتقد ذلك؟ السلالات تنفق، شيء معروف. من المفروغ منه، آه، إنه ليس من الضروري أن يتجاوب الطرفان في الحب، أو ليس دائماً يحدث التجاوب. الحقيقة، يكاد لا يكون هناك تجاوب اطلاقاً. ربما ما لا نحصل عليه كلياً هوأكثر ما ينتمي إلينا... سمعت أن بلتران ده لاكويبا، مركيز بليينة وميغيل لوكاس كانا في شجار دائم، غيورين ليس من حب الملك وإنما من فضائله وعطاياه. أنا لا علاقة لي بالأمر. لا أدخل ولا أخرج. فقد جئت من الشمال كي أتنفس بعمق. فهناك لا يستطيع، يا صاحب السمو، أن يفعل المرء شيئاً آخر غير رسم القديسين. هنا يوجد بيوت وسادة وملابس أكثر أبهة. وهنا النور، الذي أعرف جيداً أنه ما من أحد قادر على رسمه لكنه قادر على رؤيته. وخضرة الحقول والأزهار. كلُّ شيءٍ هنا. وأنا، مع المعذرة من سموكم، لا أستغرب أنهم يريدون امتلاك غرناطة. لا أفهم بالسياسة، كما أنني لا أحبها. والحروب أيضاً لا أفهمها. أما بالنسبة للذهاب إلى الحرب فأنا لم أذهب إليها قط. ماذا أرسم في الحرب؟ أنا أرسم، كما أفعل الآن في السلام. وفي الصفاء. لكن ما يتعلق بغرناطة أفهمه لأن غرناطة جنة. إنها جنة الله يا صاحب السمو، العالم كله يحبها. إذا كانت جيان، بجبلها البنفسجي الذي تبهج رؤيته، قد سبتهم فأكثر ما ستسبيهم غرناطة المستسلمة، (غذراً، أريد أن أقول المتكئة)، التي يبدو وكأنهم أطّروها كي تبدوأكثر جمالاً. أنا لم أرها، لكنني لا أريد ولا بشكل من الأشكال أن أموت قبل أنْ أراها... حسناً، حضرت مرة معركة، في قلعة حرة، في منطقة يسمونها الزناتة، لكنني لم أشترك فيها. المشير أصر على مرافقتي له. بما أنَّ زوجته لم تذهب معه... سيسألني سموكم: وما علاقة أن زوجته لم تذهب؟ المسألة أنني لا أعرف حتى ما أقول... (إذا خرجت هذه الصورة سيئة، ياصاحب السمو، فالذنب ليس ذنبكم، بل ذنبي. ذنبي أنا وحدي. لأنه يجب أن يرى المرء أية ملامح وأية نظرة وأي فم، كل ما فيكم رائع. ياللون جلدكم بين لون سنبل الطيب ولون الزيتون: إنه صعب، غريب، لكن يا له من لون. لا أدري ما إذا كنت سأنجح في درجة اللون التي تتدرج من الأخضر إلى الأسود، يذهب، لكنه يعود، أتكلم عن عينيكم.الآن، هذا هوالنور.) أفضل، إذا كان لا يزعجكم، أن أتكلم وأنا أعمل. رغم أنني لا أسهوعن عملي. ماذا؟ عملي

هوالرسم. ما عداه تسلية، شكل من أشكال ألّا أبكي، أوشكل من أشكال البكاء. ما أدراني. إذن المشير، كما كنت أقول لكم، كان دائماً مخلصاً ووفياً لصاحب السمو دون أنريكه. يقولون إنه كان يتذمر: «بالنسبة لسموّي بلى، أما بالنسبة لي، فليس كثيراً.» هوالذي عمله مشيراً للمملكة المقدسة، وهوالذي كان يقدم له الطعام حبّاً وأمام رجال البلاط فيقف شعر رؤوسهم لمجرد التفكير بالأمر، فما الذي يجري اليوم لوأن أحداً فعل ذلك.... لكن المشير كان يذله ولا يحب رؤيته. كان ينفر منه. كما لوأنه يمقته. والمسألة أنه مقته، صار في كثير من الأحيان يجرح نفسه كي لا يلبي دعواته. هذا وعندما ظهرت أنا، كان الملك ينظر إلى جانب آخر. في البلاط كانوا يغتابونه. ومن الذي لم يكوّنوا يغتابونه في البلاط؟ يقولون إن ميغيل لوكاس كان قد أهدى غلامه مارتين ميرونس الرداءَ الذي أهداه له الملك يوم دخلا معاً إلى ليون، أوإنه وقد أصبح مشيراً، استقبل القس خوان ده فوكس، سفير فرنسة، الذي كان جميلاً وفتياً، بسعف النخيل وباقات الأزهار. ثرثرات وشائعات مغرضة. هناك من يشار إليه لمجرد أنه يعزف على القانون ويغني... أنا وَلَّيْتُ الأدبار. تَبَخَّرْتُ. فالأمر بالنسبة إليّ سيان. جئتِ كي أرفع عن كاهلي الهموم. على كل الأحوال لا أعتقد أن الله يريد أن يجعل العالم وادياً للدموع. آه، ما أسوأ معرفة من لم يعش التاريخ بالتاريخ، حتى الذين عاشوه لا يعرفونه على حاله... صار الأمر سيان. لقد انتهى هذا. كم هو مريح أن يستطيع المرء فِعْلَ ما يخطر له دون أن يزعج أحداً أويزعجه أحد. لذلك أقول ما أقوله عن غرناطة. ليس لأنها مدينة جميلة في منظر جميل، بل لأنه يعاش فيها كما يجب أن يعيش البشر. وهنا السلام وفيما بعد المجد. المجد، أوأي شيء، لكن فيما بعد... لا أدري ما إذا كنت أوضح. لا أدري ما إذا كنت قد قلت لكم إنني كنت رسام بلاط مشير ايرانثو. عادة ما كان يقول لي يا صغيري (لأنني عندما تعرفت عليه لم أكن أرسم بعد.) كانت نوعاً من المداعبة، مداعبة مجاملة. كان يناديني، ياصغيري... طبعاً كان لي آنذاك حضور آخر، كنت حلواً، حتى ولوبدا ذلك لسموكم كذباً. الحياة مثل سكران يمسك بذراعنا: يسير شقلبة، ويدفعنا إلى حيث لا نرغب الذهاب... ما أطلبه من سموكم هو ألّا تحكوا ما أحكيه لكم لأحد... رغم أنه لا شيء بالمقارنة مع ما يمكن أن أحكيه لكم... عندما مات المشير (كنت قريبياً منه بحيث أن دمه لطخني) بعد أن مات، ماذا كانوا سيفعلون بي؟ أعتقد أنهم لم يرجموني لأنهم لم يروني. فقد أعماهم الحقد، وإلا... خرجت من جيان مقنعاً بلباس فلاح، ماذا سنفعل. ذهبت أولاً إلى بياسة وبعدها إلى عبيدة، التي لولا البرد

لبقيت فيها، لأنه يوجد فيها وقار أيضاً. إضافة إلى أنني كنت لا أرغب بخدمة سيد ثابت. المشير كان سيداً بكل معنى الكلمة، وصار عندي ما يكفيني... كان يناديني يا صغيري... لقد رسمت قندات أركوش ومركيز قادشٍ ودوق مدينة شذونة، المزود بعبقرية في غاية الخطورة. لكنه ليس جميلاً، يجب قول الحقيقة. رجل متكبر يتباهى بنفسه، يعتقدون أنهم ملوك لأنهم لم يلتقوا بملوك حقيقيين، مثل سموكم أنتم حيث يظهر عن بعد مئة فرسخ أنكم ولدتم ملكاً لكي تكونوا ملكاً. وستموتون (لا سمح الله) وأنتم ملكاً كما لا يوجد غيركم.

تتقدم الصورة ببطءٍ شديد. يمكن القول إنها لا تتقدم. ربما بسبب من مصلحة الرسام، الذي كان يفرّج عن نفسه معي. يخلط القشتالية بالعربية مثل سلطة خضراء وريانة يرسمني في قندورة مغروزة بالأحمر. وسترة مفتوحة قليلاً، رسم عليها أزهار زنبق في جانب وفي الجانب الآخر زهرات ورد صغيرة، بَدَلَ الحروف العربية التي لا يعرفها، متقابلة هندسياً تقليداً لذوقنا. ووضع لي على رأسي قلنسوة ما كان ليخطر لي في حياتي أن أضعها. لكنني أعتقد أنها ستكون جيدة للغاية التي ترسم من أجلها الصورة (نظراً لمكر دون فرناندو فإنني لا أعرف الغاية منها، لكنني أخاف ألا تكون الود). لقد عمل لي ميليان المسكين معروفاً كبيراً حين رسم لي تاجاً ـ لم ينهه بعد ـ من النوع الذي يتفاخر به الملوك في النقود النصرانية واللوحات والتماثيل الجنائزية، والذي لا يخطر لنا نحن أن نضعه في منتصف الجبين لأسباب الراحة الأساسية.

كنت اليوم غافياً في الساعة الأولى من المساء بعد الغداء. وقد انزلق من يدي كتاب لجلال الدين الرومي. أجهل الذريعة التي استطاع بها ميليان ده أثواغا أن يُسمح له بالدخول. تظاهرت بأنني ما زلت نائماً. لأنه لم يكن عندي حماس لسماع ثرثرته. كان الحر يثقل عليّ مثل غطاء ثقيل، واللهب الذي يدخل من النوافذ العليا مثل بخار فرن والستائر لا تحركها أدنى نسمة.

ناداني الرسام بصوت منخفض جداً، لا أدري ما إذا كان ليوقظني أم ليتأكد أنني لم أستيقظ.

ـ يا صاحب السمو ـ تمتم ـ ياصاحب السمو.

اقترب بحذر من المتكأ. عاشر قدمي اليسرى التي كان قد سقط خفّها، أحسست بلمسه الناعم كما لوأن روحي خرجت. وعندما تصورت،

تعابيره، عينيه، شفتيه، كلفني كثيراً إمساكي عن الضحك، أوربما عن البكاء. داعب قدمي بلهفة كانت تزداد مع ثقته بنومي. قبّلها، شعرت برطوبة قبلته على جلدي. سمعت تنهده الخافت، الذي يكاد يكون نحيباً. تحرّكت كي ينتبه إلى الخطر الذي كان يحدق به، ليس مني وإنما من الحراس. تمتم بشيء قليل ومولع لنفسه. استدرت نحوه فرأيته من خلال أجفاني، واقفاً، يتأملني بنوع من العبادة وقد أمال رأسه. كان خفّي بين يديه يضغطه على صدره. جلس دون ضجة إلى الكرسي الصغير، الذي لا يستخدمه إطلاقاً عندما يرسمني.

ـ لا أسمح لنفسي بالجلوس أمام سموكم ـ يقول ـ حتى ولوسمحتم لي، أنتم الملك التام، بذلك.

جلس وضغط فخذاً على فخذ. صار مثل لفافة. كان يداعب الخف ويقبله وهو ينظر إليّ، ينظر إليّ دون أن يراني، لأنه لو رآني للاحظ أنني أراه. من شفتيه يخرج لهاث متقطع. أحسست عنده برغبة هائلة بجسدي الذي هيّجته خفقات القلب، كمن يحضر خطراً حاداً يحدق بآخر قريب جداً منه. أطلق بعد مضي لحظة لاتنتهي، تنهيدة عميقة، أعتقد أن ذلك كان عندما أراق. أرخى بعدها رأسه البائس، رأسه الأصلع إلى الخلف، وترك كتفيه اللذين كان قد شدهما يسقطان وانزلق الخف من بين يديه. بقي للحظات بلا حراك، بعدها عاد وتنهد تنهيدة كربها لا يوصف. نهض، أخذ الخف من الأرض، وضعه حيث وجده، وخرج من الغرفة على رؤوس أصابعه دون أدنى ضجة ملتفتاً ليراني مرة أخرى.

في صباح اليوم الماضي جاءت منثيا، ابنة أخي رئيس رهبانية ألاركون العسكرية لزيارتي وبين ذراعيها جرو كلب صغير. كلبة في القلعة ولدت تسعة جراء، وضعوها جميعاً باستثناء هذا في كيس وخنقوها في جدول قريب. إنه بطين وأشقر. يرنح رأسه باحثاً بمخطمه عن حلمة الأم، لأنه ما يزال أعمى. تقريبياً مثل صاحبته، التي تنظر إليّ بعينين شاحبتين حولاوين قليلاً، ولا تعرف أين أنا بالضبط حتى تسمع صوتي.

ـ ما اسمه؟ ـ سألتها من خلال المترجم.

لقد استطاعت في ثلاث أوأربع مناسبات أن تجعلني أنسى بمزاجها المسالم، ودون قصد منها، جهلي المزيف بلغتها، التي بالمناسبة أتكلمها في كل يوم أفضل، وإن كان بيني وبين نفسي.

ـ ليس له اسم بعد. لم يعمَّد.

احمرت جبهتها عندما فكّرت أن ذكر التعميد، يزعجني، أوعندما فكرت بأنها تقصد الكلب.

ـ *مرنان* اسم جميل لجرو ـ قلت لها.

ـ *مرنان*، كما لوكان شخصاً؟

ـ لا أعتقد أن ذلك يهمه، لأن الكلاب ليست حقودة.

ابتسمت منثيا، ورفعت الجروعالياً بيد واحدة وداعبت بالأخرى مخطمه الدائري والوردي.

ـ *مرنان، مرنان* ـ قلت له بغنج، فحرك رأسه الدائري في إشارة تأكيد منه.

ـ أرأيت،؟ لقد تَعَلَّمَ اسمه.

وعندما لاحظت استلطافي للجرو أهدته إليّ كي يرافقني. أظن أنها إذا كانت أعطته لي، ربّما باللاشعور، فإنها فعلت ذلك بقصدِ إيجادِ ذريعةٍ كي تستطيع أن تأتي إلى هنا وتسأل كيف حاله، وما إذا كان يتصرف بشكل جيد، وما إذا كنت ما أزال أريده.

ـ كم هو محظوظ *مرنان* ـ هتفت بينما عيناها تحاولان باللمس أن تجداني.

ـ طبعاً أكثر من أخوته الثمانية.

ـ ليس لهذا السبب ـ تمتمت وأضافت محمرة خجلاً. ـ ليس العيش دائماً طيباً. هذا بحسب مع من نعيش...

أخمن أنها عشقتني، شيء منطقي،. ليس لأنني جذاب أو لطيف، وإنما لأنني الرجل الوحيد الذي يسمح لها أصلها أن تعشق. وما لاأضعه أنا من جانبي تضعه هي بزيادة.

ـ دونيا منثيا شبه بلهاء ـ قال ميليان ده أثواغا عندما رأى الجرو، الذي ما يزال يرضع من أمه التي يحضرونها لي بين الحين والآخر. سوف يوسخ لسموكم الغرفةَ هذا الكلبُ. لا تعرف التعيسةِ دونيا منثيا ما تفعل كي تلفت انتباهكم. كما لوكنا نحن الآخرين عمياناً ولا ننتبه. يجب أن يكون المرء أعمى مثلها، هي التي تقضي النهار متعثرة بالأبواب وبالخدم... قال لي عمها إن علي أن أرسمها قبل أن أذهب. وبما أن الأمر كذلك، أفضل ألا أذهب. لأنه ليس طَبَقاً مُفَضّلاً أن يرسم المرء امرأة لا يعرف أبداً إلى أين تنظر. سيرى سموكم كيف سأرسمها جانبياً.

ـ إن هيام هذا الرسام أثواغا بكم ـ قالت لي منثيا ـ يصل إلى حد أن كلمة سمّوه لا تسقط من لسانه. يتكلم وكأنه يعرفكم طوال حياته. «سموّه يحب هذا الطعام» ، «سمّوه يمقت الضجيج في الساعة كذا» ... لم يمض عليه شهر في هذه القلعة ويأمر ويخوّل نفسه باسمكم أكثر من خدمكم. الناس، الذين ليسوا أغبياء، يعرفون القدم التي يعرج منها.

ـ وهل يعرج من إحدى قدميه؟

ـ أنا، كما تعرفون، لم ألاحظ ذلك.

ـ طبعاً ـ قلت قاصداً بصرها.

ـ لكنني سمعت كل من في القلعة يقول إنه يعرج من إحدى قدميه.

هكذا تمر الأيام والليالي والأسابيع مع هذه الرفقة الغريبة، التي أفضل رفقة *مرنان* عليها. تمضي برتابة قاتلة وإجبارية. لحسن الحظ أن *مرنان* يكبر ويتغير ويبدأ يعض دون أدنى احترام....

أجهل تماماً ما الذي سيقرره بحقي من هم في الخارج: أتباعي وأعدائي، هذا إذا لم يكن أتباعي أعداءً أيضاً. هناك ساعات تخمد فيها همتي وأود لوأموت على أن أستمر أَعْبُرُ الزمنَ كمن يسبح في الفراغ. ساعات أسأل نفسي فيها لماذا أعيش، ماذا أعني ولمن؟...بدأت القراءة كي أتسلى وأتعلم الكثير مما أجهل، بدأت أكتب لأولادي بأمل مجاني ولجوج. والآن لاأعرف لماذا أفعل هذا أو ذاك. الآن صار سياناً عندي قرأت أم لم أقرأ، كتبت أم لم أكتب. فالأمل مات قبلي.

صار عمر «هرنان» عدة أشهر.طلبتُ منهم البارحةَ أن يتركوه يقضي الليلَ معي، وطلبت أن يضعوا له وسادةً عند حافةِ السرير. ربما هي الليلة الأولى التي يقضيها بعيداً عن أمه، كان ينتعظ بعناد لايكل. كان يشعر بالوحشة مثلَ ألم غير معتاد وغير محتمل ولا يَخفُّ. لم أبغِ إبلاغ الخدم. كان ينظر إليَّ مِن الأسفل عندما أشعلت الشمعدان، ساكناً وحزيناً، وفي عينيه يظهرُ قمران ناميان. لم أشهد قط يتماً ولا عزلة، ولا مخلوقاً حياً وقريباً، وأعزل بعدي مثله. *زين* كان يتصرف بثقة أكبر.

جلست القرفصاء مقابل *مرنان* الصغير، رحت أداعبه كي أبرهن له عن تضامني معه فاستدار فجأة. بقي وبطنه إلى الأعلى، بلا حول، ثميناً،

بائساً، كامشاً أرجله وقمرا عينيه بدران أكبر من أي وقت مضى. الإنسان حيوان مثل الحيوانات الآخرى، إذا فكر كفاية استخلص إنه حيوان مثل الحيوانات الآخرى. وهذا هوالاختلاف الوحيد. الذي يحدث هوإن الإنسان يكاد لا يفكر قط كفاية. تملكتني رغبة ملحة بأن آخذ الكُلَيِّبَ بين ذراعيّ وأحتضنه، لكن كان من الضروري تربيته منذ اللحظة الأولى. كانوا يسحبونه من جانبي كل ليلة، باستثناء تلك الليلة التي أيقظني فيها لاعقاً، لأنه قرر أن يستعيدني فلا يفلت من سيطرتي... *زين* ، والآن *مرنان*. بقية الكلاب التي كانت عندي كانت كلاب صيد، ممسوكة دائماً بحبالها. لكن هذا وحيدٌ هنا. مثلي. «وحيد رددت وأنا أطفيء الشمعدان» ما أصعب الاعتياد» ثم وبصوت عالٍ، مكلماً *مرنان*: «إذا أردت أن تتعايش مع الآخرين فعليك أن تكتسب عادات جديدة، فالبشر يطالبونك بما لا يفعلون أبداً. لا أستطيع أن آخذك. جميعنا نعتاد الوحدة، سترى ذلك بنفسك. ألم أعتد عليها أنا منذ أن كان لي عمرك أوأكثر قليلاً؟» كان *مرنان* يتآنن بقوة أكبر. وأنا المحزون، أقوم بواجبي الحزين بِصَمّ نفسي عنه، إلى أن أخذني النوم.

فجأة أيقظني الصمت. «لقد تعلم بسرعة، إنه ذكي جداً» فكرت. أشعلت الضوء. كانت وسادة *مرنان* فارغة. لم أتمكن من منع نفسي من الضحك. وذكي جداً: *مرنان* المرتاح بجانب مخدتي كان راضياً ونائماً أخيراً. بل وتنهد قليلاً. تركته. إذا كان احتكاكي به يؤنسه، فكيف أستطيع أن أنكره عليه؟ ألم أقبل به من أجل أن يؤانسني؟ ألا يحدث الشيء نفسه بالنسبة للبشر؟ طريقة أيٍّ كان في المؤانسة هي في طلبه لها منا، في أن نجعل من أنفسنا شيئاً لا غنى عنه له، أن ننهض بالحب أباً وأماً وإلهاً. نمت مقتنعاً بأنني خسرت معركة الآداب الحميدة، معانقاً الجرو. كلانا نام جيداً.

بدأت مساعي فديتي. لايخفى عليّ أنها ستكون أضعف مما أرغب. لقد تلقى القائد، رئيس الرهبانية العسكرية، أمراً بإخطاري عنها دقيقة بدقيقة. لا أدري مالذي يريده الملكُ من هذا: أتصور أن يضعني في صورة ما يحلو له هو.

الخطوات الأولى كانت على ما يبدو خطوات والدي. قام بها مبعوثان

الخطوات الأولى كانت على ما يبدو خطوات والدي. قام بها مبعوثان متتاليان. كان أول ما فعله صاحب غرناطة وسيدها أن أرسل فارساً إشبيلياً أعتقه لهذا السبب، وهوحسب ما يقولونه لي دون خوان ده بيندا. مَثُلَ أمام الملك فرناندو بحجة البحث في عملية تحرير أسرى آخرين، ليعرض عليه واحداً من المطلبين التاليين: تمديد أسري، أو، وهذا هوالأفضل، مقايضة شخصي وشخصٍ أبرزِ أتباعي بقند ثيفونتس، حاضر إشبيلية، السجين في غرناطة الذي أُسِرَ منذ حادث الشرقية مع فرسان آخرين يختارهم الملكان. كان المبعوث الثاني الذي حمل المقترحات نفسها التاجر البندقّي فرانشيسكو ثنتوريون، الذي هوعلى علاقة مع البلاط النصراني من خلال تجارته. لا شك أن أقصى ما يتطلع إليه والدي هوالإبقاء عليّ أسيراً عنده، وهذا ما يقدم له ضمانات أكثر من وجودي أسيراً عند العدو، رغم أن أفضل ضمان له ـ وأخشى أن يكون ذلك قراره الأخير ـ هوألا يحتفظ بي على الإطلاق، لا حراً ولا أسيراً. فأفضل منافس هوالمنافس الميت.

وأرسلت والدتي من جهتها ابن كماشة مع علي الأعسر ووجهاء آخرين. تقترح مقابل تحريري دفعَ اثني عشر ألف زيان سنوياً ـ تعادل، كما يقول لي ألاركُونْ أربعة عشر ألف دوكادو قشتالي كجزية وخضوع لسيادة المَلِكَيْنْ (بمعنى إنها تعترف بالتبعية، وهذا بالنسبة لها إعلان حب جارف)، وتسليم أربعمئة أسير، من الموجودين في مطمورات الحمراء، إضافة إلى تحرير ستين أسيراً سنوياً على مدى خمسة أعوام (وبهذا تُؤمِّنَ بدهاءٍ أن يُعيدني الملكان إلى العرش ويُبْقِيَا عليَّ فيه.) مع عشرة رهائن شباب من أبناءِ خيرةِ الوجهاء من أنصار بيتي. وتلمح أنه من المحتمل رفع عدد الأسرى المُسلمينَ، بحسب درجتهم وأهميتهم وكذلك الفدية المالية. لكن يبدوأن الملكين يطالبان إضافة إلى الرهائن العشرة بابني أحمد الذي لم يبلغ أكثر من سنتين وأخي يوسف. لا بد أن هذا الشرط الأخير سيقلق والدتي. فهي، أينما كانت، تستطيع أن تجعل أنصاري يبايعون، من دوني، أخي يوسف بدلاً عني وفي أفضل الظروف، إذا رأت نفسها في موقع التأثير الكافي، أن تُمنحَ لها ولايةُ عرشِ ابني. إن اللعب بهذين الاحتمالين مقابل احتمال واحد، سيبدو لها مخاطرة أكبر من اللازم.

الخلاصة التي وصلت إليها ـ وأخاف أن يكون الملكان قد توصلا إليها أيضاً ـ هوأنني سأستمر حالياً في الأسر، وليقولوا ما يريدون، فإن وجودي هنا أكثر فائدة للجميع.

لم يكن هناك حاجة لأن تكون قد وصلتني أخبار أخرى من مصادر لن أذكرها. فالملكان كانا قد طرحا موضوع الفائدة من تحريري أوالإبقاء عليّ في السجن حتى قبل أن ينظرا في العروض. رأيان سيطرا بين كبار المجلس. على رأس الأول دون ألونسو ده كارديناس، رئيس رهبانية شنتيقب العسكرية، الذي يرى أن الاستمرار بالحرب مع الإبقاء عليّ في برقونة، بمعزل عنها، أكثر فائدة، فهم سيعملون بهذا الشكل ضد سلطان عجوز ومريض وغير محبوب من رعيته، بدل مواجهة قائد شاب، محاط بأنصار متحمسين، شجاع ومحبوب جداً. بوجودي طليقاً ـ يرى رئيس الرهبانية مُبالِغاً أكثر مما هو مُتصوَّر فيما يتعلق بي ـ سيكون الاحتلال شاقاً وأكثر دموية.

على العكس منه دون رودريغو بونش ده ليون، مركيز قادش المؤثر، الذي يرى أنه ما أن يتم الحصول على الشروط الأكثر إرضاء لهم حتى يتوجب عليهم إطلاق سراحي. فإطلاق سراحي ـ يقول ـ سيكون ذا فائدة كبيرة لإضرام نار الفتنة بين والدي وبيني، بين أنصاره وأنصاري، فالصراعات الداخلية سوف تستنزف مملكتنا وستبعثر قوانا في الحروب المدَنيَّة وحقدِ الأحزاب، فيقودوننا بهذا الشكل سريعاً إلى دمارنا بأنفسنا.

من المُسَلَّم به أن مركيز قادش، المولود على الحدود والمتمرس بها، يعرفنا أكثر من رئيس رهبانية شنتيقب العسكرية. ورغم كل ذلك، ماالذي سيقرره مكر فرناندو، الذي يفوق خبث الجميع؟

بينما كان يلمح مرّة أخرى إلى معركة أستيبة التي كان فيها رئيس الملائكةِ ميكائيل؛ عَدَّدَ لي القائد الجوائز التي رأى الملكان منحها عن جدارة لقند قبرة وقائد آل دونثليز مكافأة لهما على أسري.

حلَّ البرد دون سابق إنذار. طلبت، إضافة إلى المدخنة، التي ما تزال تسبب لي الرعب، فهي من الضخامة بحيث أستطيع ودون مارتين أن نتحادث فيها، مجمرةً، أجد نفسي بجانبها أفضل وأكثر أماناً. وضعني القائد في صورة ما جرى في بيتورية، المدينة الموجودة في شمال شبه الجزيرة، حيث يقيم الملكان الآن، كما لوأن الأمر يتعلق بخرافة قشتالية ـ من تلك التي يحكونها ليخففوا من ضجرهم في الليالي الطويلة حول الجمر

ـ الحب الوحيد الذي يتمتعون به ـ . فالملكة ترتب هناك عرس الأمير دون خوان مع أميرة من بيت فرنسا.

[لم يتم العرس. فقد زوّجوا الأمير البائس من إحدى الأرشيدوقات الآشتوريات النهمات في متع الجسد، النهمات إلى حد أنها استنفدت صحة زوجها وحياته. وكانت الملكة، القادرة على رجم سطحها نفسه بالحجارة مقابل انتصار إرادتها، تردُّ على الأطباء وكهان الاعتراف الذين كانوا يصرون على الفصل بين جسديهما، لأن كثرة الوصال تقضي على الزوج الشاب. «ما وحّده الله لا يفصله الإنسان» . وبذلك بقي العرش دون وريثٍ ذكر. ليست كل النساء متشابهات. إلا أن دونيا إيسابل وأمي تتشابهان كثيراً. بالنسبة إلي لم تتردد الملكة في الفصل بيني وبين مريمة، معروف أن العدو يقاس حسب مبادىء إله آخر: إله الحرب القاسي].

وصل العم وابن الأخ كل بمفرده إلى بيتورية، وكانا قد قطعا كل أنواع العلاقات بينهما منذ مجادلة اللسانة. استقبلا ـ العم بشكل أفضل على ما يبدو ـ من قبل سادة آخرين ومن قبل كردينال أسبانيا. وقادوهما إلى حضرة الملكين بين نفخ الأبواق وقرع الطبول، كما هي عادة النصارى. منحوهما امتياز الجلوس أمام أعضاء الأسرة الملكية، وهذا شيء كثير، ودعوهما للعشاء. قدموا لهما اثني عشر طبقاً، وفي كل مرة كانوا يأتون فيها بصحن جديد يقرعون الطبول والنفير. ثم أقيم لهما احتفال حضرته ولية العرش دونيا إيسابل، خطيبة ملك البرتغال وثلاثون سيدة ونيف، مزينات بالدمقس والاستبرق. [هذه الأميرة هي التي أطلقوا عليها فيما بعد *الملكة القديسة*. ترملت وهي في حملها الأول ومات بعد ذلك بقليل ابنها الذي كان سيرث عرش اسبانيا والبرتغال. عادت وتزوجت من ملك البرتغال التالي، الزيجة التي كانت قد اتفقت عليها مع أختها، لكنها تزوجت بالشرط الصارم القاضي بفرض محكمة التفتيش في تلك المملكة، التي لم تتمتع بها بعد. مبارك الغصن ـ كما يقولون هنا في فاس ـ الذي يشبه جذعه.] رقص الجميع، بما فيهم الملكان: أزواجاً، سيدة مع سيدة، ورجلاً مع رجل، الأمر الذي لا أدري ما إذا كان مسلياً، مع أنه مخجل. لم يوضح لي القائد ما إذا كانوا قد تناولوا عشاء آخر، بعد أن تعبوا من الرقص، أم أنهم دعوهم في اليوم التالي أيضاً. عند هذا المستوى فضل دون مارتين أن يعود ويحدثني عن معركته، معركة أستيبة الغامضة، ماعداها كان بالنسبة له في غاية البساطة، وكان يحب أن يعود في حديثه إلى *المرحلة الذهبية* لحرب الاستعادة ـ وهذا التعبير له ـ حيث لم تكن المآثر تلقى ما تستحق من أموال..

ـ طبعاً إلا إذا حالف الحظ هؤلاء الفرسان وأخذوا ملكاً مسلماً من شعره.

ابتسمت، لكن دون أن أرد عليه أوأقاطعه، أوأذكر شعري، لأنه كان يتمتع من حكايته بالجانب المتعلق بحظ آسريَّ أكثر من الجانب المتعلق بالعصر الذهبي. في نهاية الأمر منحوهم امتياز أن يصوروا بين شعاراتهم الحربية، من الآن فصاعداً، رأسَ ملك غرناطة مكافأة لهم على انتصارهم وأسري.

ـ المأثرة التي تظهر لأول مرة بين النبلاء النصارى. ـ أظهر دون مارتين دون مبرر.

وأضيفت من حوله ـ أي من حولي ـ مثل كنار، الرايات الإثنتان والعشرون التي انتزعوها منا في المعركة.

بحسب القائد، الذي يؤكد أنه رأى ذلك البارحة صباحاً، يظهر في شعار القند الجديد النصف الأعلى لسلطان مع تاجه وعمامته، وقد أحيطت رقبته ـ أي رقبتي ـ بسلسلة، دليلاً على العبودية الدائمة، وسط هالة دائرية من الرايات مشعة وجديرة بالذكر.

رفعت يدي إلى حلقي بتعبير ينطوي على كثير من البله، وأنا أظنُّ بأن تحريري مازال بعيداً: أن يشكل المرء جزءاً من شعار عند هؤلاء الناس ليس شيئاً تافهاً. حضرت المقابلة ابنة أخِ القائد، التي حاولت بعذوبة أن تخفف من عنف الحكاية.

ـ لا تنزعج يا صاحب السمو. فلا هم عظماء قشتالة، ولا هو يضع اسمك على الشعار.

فكّرت أنهم حتى لووضعوه، فإنها لن تستطيع أن تقرأه ببصرها القصير أبداً. وأنهم لو كانوا عظماء أسبانيا لوضعوا نصف جسدي الأعلى في شعارهم. وما من واحد من التفكيرين أراحني. لم يرض القائد لي أن أستمر بالتفكير.

ـ العم وابن الأخ، اللذان تمسّك كل منهما ببطولة المأثرة، وكأن البطل لستم أنتم، عادا ليتمسكا بالشعار الذي كتبه كل واحد منهما تحت الترس، اختار ابن الأخ آية من الرسالة التي أرسلها الرسول بولص إلى الكورنثيين (إنه واحد من كتبنا المقدسة) تقول Haec omnia operatur unus والتي تعني: «*واحد أحد عمل كل هذا*» . كي يكون واضحا أنه هووليس غيره من قام بأسركم. لكن ما أن علم العم بذلك، حتى اختار فقرة من الإنجيل للقديس

يوحنا تلخص المغامرة: «Sine ipso factum est nihil» ، التي تترجم على الشكل التالي: « *ما من شيء حدث بدونه* » كي يعرف العالم بأسره أن مشاركته كانت حاسمة. ألم يكن عليَّ أن أضعه في شعاري بعد مذبحة أستيبة المجيدة؟

سهوت وأنا أسأل نفسي ما إذا كان العالم بأسره متوقف على كيف ومن ومتى أسروني. لا أجرؤ ولا حتى على أن أنقل ما أجبت به نفسي.

بما أن الحملات ترتاح شتاءً، فقد لجأ إلى القلعة عدد من فرسان قلعة رباح. بعضهم يافع. احتفل النصارى بمولد السيد المسيح والسنة الجديدة احتفالات جليلة وأقاموا ولائم كبيرة. بدوا لعدة أيام، سعداء فوق العادة، رغم البرد، الذي ينفذ من شقوق الأبوا ب والنوافذ مثل السكاكين. جميعهم كانوا سعداء باستثناء ميليان ده أثواغا، الذي جاء لوداعي بوجه طفل جعد غزاه الذعر.

ـ ليحدث ما يحدث، فأنا لن أنساكم أبداً، يا صاحب السمو ـ قال مفترّ الفم.

انحنى على ركبتيه ليقبل يدي. فربتُّ باليد التي بقيت طليقة على رأسه مشجعاً: ما يكفي لكي ينهار. انفجر بالبكاء وراح يصيح مردداً:

ـ أنا بائس يا مولاي، بائس جداً، بائس جداً.

أخرجه أحد الحراس من الغرفة بعنف حقيقي.

ـ لن أنساكم، وداعاً، لن أنساكم أبداً...

كان يئن بينما الحارس يجرُّه وقد أمسك بيديه الصّغيرتين بإطار الباب.

بلغ وداعه من التأثير والقسوة بحيث أنني اهتممت بمعرفة الدوافع. روى لي أحد الخدم أن ميليان ده أثواغا بوغت بينما كان يلوط به ابن النجار؛ حملوا الإثنين إلى قرطبة، حيث سيحاكمان. من المحتمل أن يموتا حرقاً بالنار، ليكونا عبرة للآخرين.

ـ يجب أن يكون المرء في غاية الحذر ـ قال لي رئيس الرهبانية ـ فتفاحة واحدة يمكن أن تفسد المحصول بالكامل. إذا لم يعاقب الإثم الفاحش، إلى أين ستنتهي هذه الحروب التي نقوم بها على شرف الرب؟.

حاولت أن أتدخل، لكنه قطع المحادثة بشكل قاطع.

ـ لن تكون لي من الآن فصاعداً أية علاقة بما قد يحدث. كل ما له علاقة بالآثام المرتكبة صار من صلاحية الذراع الديني، ومن خلاله يعاقب الله مرتكبيها. ما من شيء في هذا العالم يجعلني أتدخل في مسألة مشينة ومقرفة كهذه.

يقشعر بدني عندما أفكر كم هي قوية الرغبة أوالحب عند النصراني كي يعرض حياته للخطر ـ بما فيها حياة آخرته ضمن إيمانه ـ من أجل الاستمتاع بجسد اوامتلاكه. إنهم يحولون مداعبات الجسد إلى شيء مخيف إلى أقصى الحدود ومورط، إلى حد يجعلني أميل إلى الاحساس بالإعجاب بالمحبين منهم. تبدو لي جرأتهم وهم يخاطرون من أجل قبلة شيئاً مضحكاً وجليلاً في آن معاً. إنهم محقون عندما ابتدعوا ما يسمّونه سر التوبة، السر الذي يبدوأن كهنتهم يجبرون على الحفاظ عليه، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يتحملوا هذه الحياة التي لا تعوض وحوّلوها إلى ثمن مشؤوم ومرابٍ للأخرى. إن فهمهم شيء لا يدرك بالنسبة لي.

كم هي مختلفة عقيدتنا، أوعلى الأقل إرادتنا، وكم هي مفضّلة لعينيّ، فالإنسان عنده من الآلام فائض لا يسمح بأن يزيدوا عليه مفهوم الخطيئة المعقد، الذي يعتقد بشر آخرون أنه حق يغفر أويلقى عقابه هنا. الخطيئة الشخصية، إذا وجدت يجب أن تشخّص داخل كل واحد منّا.

طبعاً من الصحيح أن المعيار النصراني يضاعف الشهوانية بجاذبية المخالفة المشؤومة. لكنني أتساءل ما الدين الذي يملك الحق بأن يحكم أو يدين خطيئة الحب، هذا إذا وجدت. ذكّرني حظ ميليان ده أثواغا ونجاره، السيء، بقصيدة بقيت في ذاكرتي دون أن أدري السبب. كتبها منذ أكثر من ثلاثمئة سنة شاعر بلنسي يدعى الرصافي:

تعلّم نجاراً فقلت لعلّه تعلّمها من نجر مُقلته القلبا
شقاوة أعوادٍ تصدّى لجهدها فآونةً قطعاً وآونةً ضربا
غدت خشباً تجني ثمارَ جنايةٍ بما استَرَقته من معاطِفِه قُضبا

يؤكدون أن هذا الشتاء فريد في برده، يبدوأن هذا صحيح. على كل الأحوال البُرد في غرناطة أشد عندما تغيب الشمس. أنا هنا، أرتعد برداً، لمجرد تصور البرد الذي لا يحتمل في شوارع وفناءات الحمراء، مع أنني محشور في المدخنة ومتلفع بالدثار الذي أرسلته لي

مريمة: («خِطته بيدي» تقول لي في الرسالة غير المنمقة التي أرفقتها معه، والمبتذلة إلى حد ما، أتباهى قائلاً كما لوأنني أود تفادي فضول الحراس). وإذا كنت قد اخترت قصر يوسف الثالث فذلك لأنه محمي أكثر، نظراً لوقوعه إلى الأسفل من قصر يوسف الأول وقصر محمد الخامس.

كتب أحدهم:

غرناطة ما لها نظيرُ ما مصرُ ما الشامُ ما العراقُ
ما هي إلاّ العروس تُجلى وتلك من جملة الصَّداق

لقد أصاب فعلاً. لكن شاعر شنترين، ابن صارة، أصاب أيضاً عندما توجّه إلى الغرناطيين مشلولاً ومذعوراً[1]:

ياأهل هذا البلد اتركوا الصلاة
واقترفوا المحرمات لتحرزوا مكاناً في سقر
فالنار تُشتهى حين تهب ريح الشمال

كان ابن الحاج على حق ـ فاليوم وأمام الريف المقفر، يمضي قلبي مع الشعراء، ـ عندما قال:

رعى الله من غرناطَـةَ متبَوَّءاً يسرُ كئيباً أويُجيرُ طريدا
تبرَّم منها صاحبي عندما رأى مسارحَها بالبرد عُدنَ جليدا
هي الثغرُ صان الله من أهلة به وما خيرُ ثغر لا يكون برودا

إن من يحسدون سلاطين الحمراء يجهلون أن قصورها أكثر نظافة مما هي قابلة للسكنى، لأن الذين أشادوها فكّروا، عند بنائها بالصيف والربيع. يُفضِّل في الشتاء الانتقال إلى مناخات أكثر اعتدالاً، لذلك تعتبر المنكب وسالوبرينا مدينتيّ المفضلتين: أنا برود. لم أفهم قط لماذا كان خلفاء قرطبة يعيشون براحة فوق غرف الأفران، التي كانت توفر لهم جواً لطيفاً وحاراً، بينما نحن سلاطين غرناطة فضّلنا أن نكتفي بالمجامر التي لم تكن دائماً طيبة الرائحة، وبسط النظافة المربكة والنوافذ البلورية التي لا تمنع مرور الريح.

ومع ذلك أتذكر أنه في يوم كهذا اليوم، ساطع وقارس صعدت ظهراً إلى ربوة الشمس. خلفي كانت جبال مَجينة جهمة بيضاء. وتتصاعد من الغوطة عشرات الأعمدة من الدخان، فضيةً وذهبيةً بفعل أشعة الشمس.

---

(1) لم أعثر على هذه الأبيات في المصادر العربية (المترجم).

دونها إلى يميني أعمدة أخرى داكنة كئيبة فوق السهوب المحصودة باتجاه جبال البيرة وبراباندا. رأيت ـ يبدولي أنني ما أزال أرى ـ في البعد الأول هضبة البيازين المتعددة الألوان مغطاة بالثلج عجيبة. فجأة بدلت الشمس وَضْعَ حجابِ غيومها وأضاءت قَطّاعاً آخرَ من المنظرِ. فاشتعلت الأدخنة الداكنة وانطفأت الأخرى، متحولة إلى مطيةٍ من نور وجمال. آه، فعلاً إن غرناطة مدينة لا تماثلها مدينة أخرى. أشتاقها اليوم اشتياقاً عميقاً جداً ـ لا كسلطان، وإنما كمجرد ساكن من سكانها ـ إن قلبي ليتمزق لهفة إليها.

مرنان الذي صار كلباً ظريفاً وضخماً، دون أن يكون من سلالة نقية تماماً، هوالآن ملاذي الأفضل. يدفئني كما لا يدفئني أحد آخر. لا أتركه ينفصل عني، الشيء الذي بدوره لا يرغب به. مطواعيته تريحني وتضايقني في آنٍ معاً ما من صديق شعر بي مثله. وأخاف ألاّ أستطيع يوماً أن أردَّ له جميلَهُ. هناك لحظات يكون فيها معبراً بشكل خارق: يلعق يديّ، يضع ساقيه الأماميتين على ظهري، يبحث بمخطمه عن وجهي، يحاول أن يجرني إلى لعبه. فأتساءل ما به، لماذا تنتابه هذه العاطفة المفاجئة، أي حاجة له بي... إلى أن أنتبه إلى أنني أنا المحتاج وأنه حدس هذا قبل أن أحدسهُ أنا. كان يواسيني بحدس غامض وعلى طريقته في حزني أوفي حنيني اللذين لم ألاحظ أنهما استحوذا عليّ بعد. أشكره، لكن ليس دون قلق، أداعب رأسه الخشن والناصع، وأنظر إلى نفسي في عينيه البريئتين.

وصل ابن كماشة إلى حصن برقونة دون إعلام مسبق وبقي معي صباحاً واحداً. سببت لي زيارته قلقاً لم أستطع حتى الآن أن أخفف منه. قدم لي توضيحات لا تطمئنني. فقد جاء، حسب قوله، ليقابل الملك فرناندو ـ الأمر الذي يضاعف عدم ثقتي ـ كي يبحث في الشروط الفعلية لفديتي. أذنوا له بلقائي كي يتأكد ـ حسب قوله، من أنني لم أهرب، وهذا ما يفاجئني، وأيضاً من أجل تكريمي. يكمن التكريم في زوج من المحظيات، والأدثرة والمجامر ـ الآن وقد صار الوقت ربيعاً ـ وأطعمة من أطعمتنا، وعطور، وبعض الخدم الغرناطيين الذين يخففون من وحدتي. هذه الوحدة التي، كما يبدومن هذا، ستكون طويلة.

الأخبار التي يقدمها لي عن الخارج تُولِّد عندي إحساساً مكدّراً بأنني داخل حلم لست قادراً على السيطرة على تأرجحاته. الرتابة الساحقة لحياتي في الأسر تتعارض تماماً مع ما يقول عَمّا يحدث في الخارج، حتى إنني أرى نفسي مثل سقيم محبوس في غرفته وفي مرضه، مريض فقد أيَّ احتكاك بعالمه السابق، ابتعد عنه إلى حد أنه يُفضلُ ألا يعود إليه أبداً كي لا يضطر إلى تَعلُّمِهِ من جديد ويشارك في تياره المسبب للدوار.

يؤكد لي ابن كماشة ـ ولا أستغرب ذلك كما يجب ـ أن الملك فرناندو جعلهم يطلقون شائعة في الأيام الأولى من شهر أيلول الفائت تقول إنه قد تم إطلاق سراحي، بل وأكثر من ذلك إنني فضلت التحالف مع جيوش النصارى لمحاربة مغتصب عرشي، أي لمحاربة والدي. ويضيف ابن كماشة إن عدداً من الغرناطيين يؤكدون بالفعل أنهم رأوني إلى جانب قند قبرة ومركيز قادش أصدُّ الغارات التي نظمها السلطان: بالتحديد في الخريف الأخير، في أراضي طيبة وفي ضواحي أنتيقيرة. وإنه عندما عاد واستولى بونش ده ليون على الزهراء انتقاماً، كنت على رأس القوات النصرانية. (تعتبر الزهراء بطريقة من الطرق رمزاً، لأن احتلالها كان إعلاناً للحرب وخرقاً للهدنة التي وقعها والدي منذ ثلاث سنوات).

ـ ما المبررات التي قدمها لك الملك لمثل هذه الأكاذيب، أكاذيبه وأكاذيب الغرناطيين.؟

ـ لم يقدم أي مبرر ـ أجابني ابن كماشة ـ بل ولم يخطر لي أن أسأله. ولوفعلت لكان غير مجد ولكان اكتشف لعبتنا.

ـ أية لعبة؟ ـ سألته.

ضحك ابن كماشة.

إذا كان الأمر كذلك أفهمُ الآن إصرار الملك على الحصول على صورتي. فقد كان هدفه أن يجد أحداً ـ مرتدياً بالطبع ـ تشبه ملامحه ملامحي، أحداً يحل محلي من بعيد أمام عيون من ليس معتاداً على رؤيتي من رعيتي. إنها حيلة أخرى من حيل الملك النصراني المقرفة. فقد وفر بذلك على نفسه مأزق الأخذ بواحد من الحلَّين اللذين طرحهما عليه قادته. هكذا أخذ ببساطة بالإثنين معاً: فأنا ما أزال سجيناً وفي الوقت نفسه عاملاً فاعلاً في شقاق مملكة غرناطة القاتل.

لكن ليس هذا وحسب: هناك ما هو أكثر بكثير، هناك ماابتسم له ابن

كماشة. أمي القلقة من التأثير الفوري الذي كان يحدثه ظهوري «المزيف» بين أعداء السلطان الشاب - أي أنا - في معنويات أنصاري، والمشغولة والقلقة لأن مثل هذا الظهور لم يُكذِّبهُ السلطان العجوز لأنه يُعزِّز فقدان الثقة بي، تَبيَّنت حلاً بطولياً بالمعنى الأسوأ للكلمة. فقد أطلقت من جهتها كذبة أنني هربتُ وأنني موجودٌ إلى جانبها، وهيَ تُعِدُّ، وقد أخذها الحماس أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، هجوماً مضاعفاً: ضد والدي وضد النصارى. استطاعت والدتي بضمان كلمتها والثقة التي يضمنها حضورها، أن تجعل شخصاً ثالثاً شبيهاً لي أيضاً يعترف به سلطاناً في وادي آش، آخذةً بالحسبان الثمرة التي يقدمها لها هذا العمل، في حال أنه كان أكيداً. لا أدري ما إذا كانت قد وضحت حيلَتها وحقيقة نواياها لزعماء وقادة الأنصار.لكن الفائدة التي تحققها كبيرة بحيث أنني لا أتردد في قبولها.

هذا يعني، إنَّ هناك أبوي عبد الله، اثنان يقودان الغارات، يهاجمان المدن بنجاح أوبعدم نجاح، يُحمِّسان الجنود، يتقاسمان الطعام والفراش مع قادة النصارى ويتخذان أخطر القرارات السياسية، بينما أنا في هذه الساعات واهنٌ في هذه القلعة، أكاد لا أهوى المعارك، تماماً كما كنت قبل أن أسجن فيها. هذا ما يحكيه لي ابن كماشة، بصوت خافت وسخرية تُقوِّس شفتيه، وأنا واثق من سروره لاندهاشي. إنه يهوى الدسائس بحيث لاأحد يحكم عليه غريباً عن هذه الأخيرة.

- الحرب - قال لي - تشكلها وجوهٌ كثيرة جداً. إنها هيكل هندسي قاس ومقاوم. من يدري ما الوجه الرئيسي بين هذه الوجوه كلها؟ ربما ليس القوة، ولا الأسلحة، ولا الشرعية، ولا المثل. ربما كان الوجه الرئيسيُ في هذا الزمن هوالكياسة الحاذقة.

ويتسلى ابن كماشة بأن يروي لي مغامراتي نفسها. فأنا كنت مساعداً لدون ألونسو ده أغيلار. قدتُ جيشاً مع رئيس رهبانية قلعة رباح العسكرية، وهوقائد حارسي نفسه، هنا في برقونة. قدمتُ يد العون لدون لويس بورتو كاريرو في عدد من الغارات الحدودية حسنة النهاية (لكن، حسنة النهاية لمن؟) وعلى العكس من ذلك تمَّ صدي في هذا الربيع نفسه، أي منذ مالا يزيد عن اثني عشر يوماً في كرديلة مع مركيز قادش وفي حصن اللوز إلى جانب رئيس رهبانية آخر كبير. بينما كان الملك فرناندو يحل مسائل منطقة روسيليون، الوحيدة القادرة على إلهائه عن الهجوم النهائي على غرناطة، ورافقت يوماً بيومٍ رئيس رهبانية شنتيقب العسكرية

في أراضي أليورة والموجية وجبال قرطمة، وانتظرت بصبر التموين الذي يجب أن تحضره بعض السفن من إشبيلية للحملة الموجهة ضد شريانا وبوبيانا. وحاصرت برايتي القرمزية قوين والحورين، قبل أن أبدأ الطريق إلى أنتيقيرة والوصول إلى الوادي الكبير باتجاه قرطبة. حركاتي جميعها يعرضها النصارى لصالحهم وينشرها للسبب نفسه رجال والدي.

ـ إذا سمحتَ لي أن أُلخِّصَ لك كلَّ هذه الحكاية، من وجهة نظر النصارى، فسأقول لك إن ما يفعله أبوعبد الله (طبعاً أبوعبد اللهِم) هوأنه يشارك مشاركة خطرة في الحصار الخطير الذي يُدبَّرُ ضد مالقة.

عندئذ سألت نفسي، دون أن أتمكن من أن أبعد السؤال عن رأسي، ما رأي عمي الأمير أبي عبد الله، وهوبالضبط في مالقة، بكل هذا.

ـ لحسن الحظ ـ أضاف ابن كماشة ـ نحن عندنا أبوعبد الله آخر.

أبوعبد الله ثالث، هوأنا أيضاً، رغم أنني بدأت أشك بأن أكون حتى الأول. ما أن تمَّ الإعترافُ بي في وادي آش حتى استقر بي الأمر، مع والدتي وزوجتي وأولادي وكل أسرتي، في ألمرية، حيث استقبلنا الأمير يحيى، عدوٌّ والدي منذ البداية، بحرارة واحترام. تحصَّنَ بعد أن ضمن حضوري، ضد عصابة السلطان الجديد ـ السلطان العجوز ـ ونصَّبَ نفسه مدافعاً عن حقوقي. هذه الحقوق التي تنتعش بمجد أنني هربت من سجن النصارى دون مقابل من الرهائن أو الفدية، أو الجزية، أو التبعية. أظن أن الأمير يحيى لا يعمل على عماها، ويعرف أن الذي معه في ألمرية لست أنا، وإنما نسختي الثانية. وهذا ما يمنحه متعة الانتقام استهزاءً من والدي وسلاحاً فعَّالاً جداً ضدَّ أمي إذا ما قُرِّر نشرُ هذا الزيف كله.

ـ اطمئن من هذه الناحية، إذ مهما بلغ مكر يحيى ـ «مثلك أنت» فكرت عندما سمعت ابن كماشة يتكلم بهذا الشكل ـ فما من شيء يحميه من تأثيرات حلولك الزائف، ليس من صالحه أن يشي بذلك بعد أن أيَّده.

يؤكد ابن كماشة أن الحالة ـ ولم تُحرِّض عليها أمي، التي وجدت نفسها مجروفة فيها بسهولة ـ كانت وما تزال في غاية الخطورة. لا يمكن القتال فيها إلا من أجل الحاضر، واستغلال جُريْعات النصر التي يمكن تحقيقها يوماً بيوم والمقاومة، المقاومة. فإذا وضع القدر بين أيدينا فرصة ما، مهما كانت، ليس من التعقل ولا النزاهة أن نرفضها.

ـ ما السلطان في النهاية؟ ـ خَتَمَ ـ : جنديٌّ منتصر، شخصٌ يُتبع ـ وأضاف باستهتارٍ خاطىء ربما انطوى على تهديد خفيف ـ : باستطاعة

أي إنسان أن يصبح سلطاناً. شبيهك في نسختك الثانية (فالأول لم أره) هوسلطانٌ بحيث يستطيع أن يحلَّ محلَّك زيفاً حتى في أكثر الظروف تعقيداً ومعاكسة.

امَّحى التهديد من عينيه، وحلَّ محله الاستهزاء.

أشك بالجميع. أشك إلى حد أنني لا أشك بأن هذه الظروف المعقدة لا يمكن أن تقع. بل وأنه سيُحَرِّضُ عليها إذا تطلب الأمر ومن أمي نفسها. فروابط السلطة بالنسبة لها أقوى من روابط الدم. إذا كانت قد وجدت رجلاً وديعاً يعير نفسه ويقدم جسده وملامحه مطيعاً أوامرها فمن الصعب أن تتنازل عنه. إن عدم تعثرها بأي عائق في الحكم سيُعوِّضها عن غيابي في كل مرة أكثر.

ـ السلطانة أمك حذرة. فلكي لا تتمادى في وضع يمكن أن يصبح خطيراً قررت أن ينسحب «أبوعبد اللهها» مع مريمة، إلى بيرة. مهمته هناك الدفاع عن حدود مرسية وتوجيه تحركات الجيوش، بمراسيم تكفلت هي بنقلها رسمياً.

الحقيقة إن ما تفعله هوأنها تحكم كل شيء بالتواطؤ مع ابن كماشة وعبد البر. تابع ابن كماشة بمكر:

ـ ولكي تبرر السلطانة انسحابك وتغطي عليك تعللت بأسباب صحية: صحية عندك. حالتك الصحية تدهورت بسبب الأسر وبهذا ينضاف إلى بطولة الفرار بريق الألم يواجه به أبوعبد الله السلطانة أبا عبد الله النصارى المرتد والخائن ويتفوق عليه.

أستطيع أن أقول، كما علمني النصارى، لقد تساوت الأمور عندي، لكنني أخاف أنه عندما تدق ساعة فك خيوط هذه الورطة، هذا إذا دقت، أن تكون شاقة بشكل مؤلم، أوربما يكون محال البرهان على أنَّ أبا عبد الله الوحيد، موجود هنا في قلعة برقونة، حيث كان مولد سلالته، ساكناً بين جدران برج تكريم صغير، بينما نسختاه تعملان لصالح أوضد ـ أوالاثنين معاً ـ رأسَهُ وقلبَهُ.

جاءت المحظيتان، اللتان أتى بهما ابن كماشة مبرقعتين بشكل صارم. في اليوم نفسه الذي رحل فيه الوزير وبعد أن حررتُ الأوراق السابقة، ناديت الاثنتين إلى غرفتي. كانتا تمانعان، ضاحكتين، نزعَ

برقعيهما. كانت تطل من فوقهما أربع عيون رائعة: اثنتان زرقاوان تكادان تكونان فيروزيتين، أما الاثنتان الأخريان فداكنتان برّاقتان. مررت بيدي على كل من الجسدين. وبدافع ما شددت جسد ذات العينين الداكنتين إلى جسدي فاستسلمت لملاطفاتي بطريقة جعلتني أتنهد. ثم فجأة تراجعت خطوة إلى الوراء، منسحبة منها. كشفت يد لم تكن غريبة عليّ عن الوجه، سمعت قهقهة، رأيت شفتين ثمريتين حبيبتين. كانت مريمة. كان لقاؤنا لذيذاً ومطولاً بحيث أنه منعني من التفكير بموضوع النسختين. الآن لا أنا ولا هي، كشخصين مجهولين وكليي الحضور، موجودان حيث يجب أن نكون.

مريمة، التي من المفروض علي أن أناديها مريم، كي لا أكشف أمرها، وجدتني سميناً بسبب عدم الحركة والتمارين.

ـ كل أنواع التمارين ـ تقول وتضحك وهي تقبلُ إنني في ما يتعلق بأمور الحبِّ أكثر جرأة من قبل، ولا يُشقُّ لي غبار.

ـ الماضي ـ علقت في هزيع الليل المتقدم ـ ليس على عجلة من شيء: ينام، الشيء الوحيد الذي يمكن فعله معه وله هو روايته. ربما لهذا السبب أكتب الأوراق التي ترين. لم أعرف قط كما أعرفُ اليوم إلى أي حدٍ نحن مكعبات في لوحة الفسيفساء الدقيقة التي لا إرادة لها، وكيف أنه من الواجب الابتعاد عنها كي نتمكن من رؤية صورتها بوضوح. تختلط داخلها المكعبات، غريبة عن معناها الخاص، تنفيذاً لوظيفتها المتواضعة. معها يتم التوصل إلى تمام الخطوط والألوان التي يقررها أحد ما أعلى، أوربما لا أحد، لكنها لا تعرف ما الوجه أوالجسد أوالمنظر أوالجانب الذي تساعد على تشكيله.

ـ إن أعِنّةَ ما يجري في الخارج كله ـ أجابتني مريمة ـ ما عادت يا عزيزي، في يديك. لا تحزن. إن تاريخ شعبنا سيعفيك من المسؤولية. ربما كنت ستختار هذا لوكان بيدك اختياره.

ـ لن يعلم التاريخ أبداً ببلبلة أبي عبد الله هذه. ليس من صالح أحد من الخارج أن يوضحها. ثم إن ملكاً دون خصائص ليس ملكاً.

ـ عش وتمتع إذن كإنسان ـ وأضافت بخبث ـ : بخصائص الإنسان التي لم ينتزعها أحد منك.

ـ لكن دون حرية.

ـ ما الحرية التي تعتقد أن الآخرين يتمتعون بها؟ أنيا بنت عطار أو

كنت، يا أبا عبد الله. وأنت رفعتني إلى هذا المستوى. وقد وصل والدي إلى كلّ ما وصل اليه بكفاءته، لكن الذي رفعني أنا إنما كان حبك وحده. رفعني إلى الأبد. مهما بدا لك أنك سقطت فأنا لن أسقط أبداً. حتى ولوماعدت تحبني فإنك لن تستطيع أن تنتزع مني امتياز حبك، إنني قد أحببت. من الآن فصاعداً سأذهب إلى حيث تذهب. وما يصيبك يصيبني. هل سيُبدِّلُ روحي أنَّ في بيرة أبا عبد الله آخر ومريمة أخرى، إذا كنت معك هنا. من هي مريمة الحقيقة إن لم تكن التي تحبُ أبا عبد الله ومن هوأبوعبد الله إن لم يكن الذي تحبُهُ مريمة؟ لا تدع الأسماء تجرحنا.

ما أبعد اليوم الذي اقترحت عليّ أمي أوأمرتني فيه أن أتزوج من امرأة بلا وجه بالنسبة لي. آه كيف عمل القدر بوشيعته المعقدة لصالحنا، رغم الخطوات التي بدا أنها تجرّنا إلى الخلف، ورغم الحوادث التي كانت تدير ضدنا. الحب هوهذا الانتصار، هوهذا التبادل الشجاع الذي لا يطلب إلا ما يعطى، يقول نعم في كل صباح ويسارع لقضاء اليوم، طوع من يحب بأكبر قدر من الفرح يستطيعه.

تابعت مريمة كلامها لي:

ـ الشيء الوحيد الذي يحزنني، ليس إلى الحد الذي يمنعني من مباركة حياتنا، هوأننا فقدنا، أنت كما أنا، مَنْ أحببناهم خارجنا، نحن الاثنين، خارج الكائن الوحيد الذي نشكله معاً.

ـ من تقصدين؟

ـ ومن سيكون؟ ـ أزهر استنفار في عينيها، تابعت بعدها ببطءٍ أكبر ـ أنا فقدت أبي، وأنت فقدت أخاك.

ـ أخي يوسف؟ ـ صرخت، خارجاً عن القاعدة التي وضعناها بالتكلم بصوتٍ متخفض كي لا نوقظ حساسية الحراس.

ـ ابن كماشة لم يَحْكِ لك شيئاً، تصورت ذلك. فمن المريح له أن أقول أنا لك. ياله من ثعبان. لذلك جاء بي: إنه العمل الوحيد الصالح الذي قام به رغماً عنه.

حكت لي ما حدث ببطءٍ شديدٍ مثل أُم تُهوِّدُ لطفلها، تسرّح لي شعري، وتجفف لي دموعي، تتركني أبكي على صدرها.

مات يوسف. يوسف اغتيل.

كان عمي «الزغل» قد حاصر، بناء على طلب والدي، ألمرية، التي جمع فيها أحد المدعين الانتماء إلى البلاط الملكي بعض المقاومين حول أمي وولديَّ وأخي يوسف. هذا ما أخبرني به ابن كماشة، لكن بصيغة مختلفة جداً. فقد لجأت أمي، عندما رأت أن مشاريعها تترنح وترغب بالاحتفاظ ببعض الميزات في يديها، ومعها ولداي، إلى بيرة، حيث بلاط أبي عبد الله المزيف. كان الأمير يحيى، أخوزوجة *الزغل*، دون حامية. وعَلَّمَتْ خياناته المعتادة سلاطين غرناطة، أيّاً كانوا، الحذر منه. قرَّر تسليم المدينة. تابع، من القصبة، المباحثات المناسبة مع *الزغل*، لكن ولخوفه من انتقام عمي حين لن يجدنا أنا وأمي، أراد أن يبرهن أنَّ خضوعه تام وأنه ينضم إلى حزبه. كان حسين الذي ينتمي إلى مدرسته نفسها، وكَسِبَ تقديره، موجوداً إلى جانبه. أمره دون أن يفكر بالموضوع مرتين، بأن يقتل أخي ويقطع رأسه ويحمله، ملفوفاً بالكافور، إلى أبي عبد الله. أيُّ عَمَىً جعله ينسى أن أبا عبد الله هوعمٌ وحموأخي؟ هل اعتقد بأنه سيتزين على الأقل بمأثرة بقطع أمل نصف المملكة؟ هل اعتقد بأنه يقوم بخدمات جديدة لصاحب الحمراء؟

ذهب حسين في طلب يوسف، الذي عرف عندما رآه الهدف من مجيئه، خاصة عندما رأى كيف كانوا يمدون سجادة على الأرض ويقربون له خنجراً مسنوناً.

ـ هل أرسلك السلطان، والدي، كي تقطع رأسي؟

ـ هوكذلك يايوسف ـ كذب حسين.

ـ لم أسمع ولم أقرأ قط أنَّ والداً فعل شيئاً مماثلاً بولده ـ أضاف بعدها ـ اسمح لي بأن أغتسل قبل أن أسلمك جسدي.

خرج إلى فناء فيه بركة، فكَّ ثيابه وطهر جسده الفتيَّ العاري، طلب ثياباً نظيفة وارتداها. ثم فتح ذراعيه وهوينظر إلى حسين الذي لم ينقطع عن مراقبته وقال:

ـ فليكن.

نفذَّ حسين الأمر. حوى الصندوق الذي أُودِعَ فيه رأس يوسف رقعة حمراء مع إهداء: «الى السلطان الحقيقي، من ابن خاله يحيى» . الكتابة كانت خاطئة: هل كانت موجهة إلى والدي، أم أنَّ حاكم ألمرية كان يدعو *الزغل* إلى التمرد؟

تأمّل عمي، أخرسَ، الرأسَ المبكي والرقعة. أعرف، كما لوأنني

أراه، أنه نظر إلى حسين بإمعان جعله يخفض عينيه، وأنه جمَّد البسمة المتملقة على شفتيه. أغلق بعدها صندوق الجوز والصدف الدمشقي الذي سُلِّمَ فيه الرأس وأمر حسيناًهذه المرة، دون أن ينظر اليه، أن يحمله في الحال إلى غرناطة. ثم احتلَّ ألمرية، بعد أن منع الصياح، بصمت كبير. في القصبة أمر يحيى بأن يُقْسمَ على القرآن، إذا كان لا يريد أن يموت هناك على يديه، إن خضوعه لأوامره أبديٌّ. أطاعه يحيى المجبر على القسم الكاذب كما على التراجع. ولا أدري ما إذا كان قد قال له - رغم أنني أعتقد أنه لم يفعل، لأن من صالحه ذلك - إن أبا عبد الله الذي كان ضمن أسوار ألمرية لم يكن الحقيقي.

صعق والدي، حسب قول أحد الجواسيس، عندما استلم رأس أخي، رغم أنه كان قد حبسه وهدَّده بالقتل، بل وسقط على الأرض مختلجاً. الجاسوس الذي لا أدري لصالح من يعمل ولا من يراقب، قال إنها كانت نوبة صرع، لم يشف العجوز منها تماماً في السنوات الأخيرة، وأضاف: إن هذه هي الغاية التي توخّاها عمي حين أرسل إليه الصيد المريع. عندما تعافى والدي كان قد فقد بصره، ولم يستطع أن يستعيده أويستعيد عافيته. من هنا - يخلص المخبرون - إن العلماء في غرناطة كانوا مضطربين في البحث عن حل لايكون لصالح والدي أو لصالحي.

- منذ زمن - يعظون - وأنتم منقسمون بين ملكين ما من واحد منهما يملك السلطة المطلوبة لتخليصكم من آلامكم. الأب أخرق، بسبب عمره وأمراضه، والابن مرتد، ومغتصب للعرش وشقيٌ بقدره. ما من أحد جدير بالصولجان إلا ذاك الذي يعرف كيف يشهر السيف. وإذا ما بحثتم عنه فلن يكون من الصعب عليكم أن تجدوه.

وهم يلتقون في هذا مع تحذير ابن كماشة الضمني ومع إشارة يحيى المكتوبة مع الهدية المرعبة. كل ذلك يشير إلى عمي *الزغل*.

كثيراً ما فكرت أنا نفسي، هنا في برقونة، بالتنازل عن حقّي بالعرش. لكن من سيحترم إرادة من يسمونه اليوم مغتصباً له، ثم ما مصدر هذا التنازل. وإذا ما استثنينا بعض الأشخاص المعدودين، الذين يعلمون بأنني سجين وليس لهم مصلحة بتأكيده، ما عداهم يجهلون هذا. إن مريمة على حق حين تقول إن أعنة ما يجري في الخارج ليست في يدي.

كتبت في الأيام القريبة الماضية، وقد خبلني اتجاه الأحداث، بعضَ العبارات التي يسعدني أن يطلع عليها عمّي الزغل ذات يوم، لكنني أعرف أنه لن يطلع عليها إطلاقاً.

أعلنت، وأكرر ما أعلنت الآن
أيها الظافر، يا من بعثك الله إلينا
ويكفي ذكر اسمك ليزرع الرعب في قلوب النصارى
لا صوت عندك يعلوعلى صوت الطبول لمواجهة العدو:
«تابع، لا تتوقّف بعد الآن،
فلا أحد منا يعرف يومه ولا ساعته
سارع، لا تتوقّف أيها الجموح،
ارفع ذراعك، أيها المقدام، وامض
كلنا ننتظر صوتك
أتمم ما خطّه لك القدر ظافراً وضّاء
أشهر سيفك.
ادع الناس المشتتين إليك، اجمعهم،
جاهد، جاهد أكثر،
فلا أحد منا يعرف يومه ولا ساعته،
فننتصر جميعاً بانتصارك على الجميع.
وحدك القادر على المثول أمام الله»
كم صرخت في سجني وداخلي وصحت: «برهن عن شجاعة لم أملكها،
عن شجاعة لاتكلّف فيها عندك.
احرز النصر تلوالنصر، دعنا نحن مهزومون،
دونك لن تبقى المملكة،
وسيضيع كل شيء إن لم تنقذها.
دونك يتساوى الليل والنهار،
الحياة والموت،
ذِل عنّا، فانا ما عدت أهلاً للذّود عن أحد
بعد أن أضعت الفرصةَ والاتجاهَ
بكيتُ وأنت لم تبكِ

إنها ساعتك لتبرهن عن ذلك.
اطعن بي، أيها الزغل
لستُ جديراً بشيء: انسني
فمنذ أن خلطت بينك وبين البحر، من يومها ما عدت أجدي
بل وقبل ذلك.
اطعن بي وأخلص لذاتك.
انسني، ولا تنسَ غيري
وسنشكرك الشعب وأنا.»
كم صرخت في زنزانتي وصحت:
ليأت من ياتي.
لا شيء عندي أفعله هنا
انتهى كل شيء.
حتى ولوجاء أسلافي جميعاً، بصرامتهم وعلى صهوات جيادهم،
سينتهي كل شيء.
ليس المطلوب أن يحدث شيء مختلف
فسلسلة الأحداث بلغت نهايتها.
بعدها سيظهر ـ إنس ذلك، يا زغل، لا تتوقف عنده ـ من يقول:
«أنت من أضاع كل شيء.»
لكن أحداً لا يعرف ما أضعت وما لن أجهر به أبداً .
فعندما يخسر المرء الكثير، يسكت عليه
ويضيع معه الكلمة والحنين، والحق بالشكوى
تضيع قامتُه ونوره، أمه وماؤه، تعطشه وبصره، بل والحياة أيضاً
فتتساوى عنده الأشياء .
كنا شعباً عريقاً وجديداً في آن معاً
لكن ما نحن الآن؟
لا شيء، لاشيء: مجرد شاهد، لا فرح عنده
ويتلاشى شيئاً فشيئاً
عبد لايهزم، لأنه لايقاوم
مجرد بضاعة معروضة للبيع بثمن بخس ...
كُنّا شعباً يملك المعارف
ونحن الآن شعب لا يتعلم ،
شعب لا عراقة عنده ولا جدّة ،

شعب بائس .
لن نبكي على موتانا، لأننا عصيناهم
ولن نبكي على آبائنا، إذ من هم؟
وداعاً نقول لمن كنّاهم، وداعاً لمن لن نكونهم
والآن وداعاً ثم وداعاً لموتانا الذين تمنوا أن نكون مثلهم.

عندما قرأتها لمريمة بكت، دون أن يتعكر وجهها، بكاءً غزيراً. الدموع تنزلق على خديها طليقة. كانت تنظر إليّ دون أن ترف أجفانها وقد قاطعت يديها في حضنها. عندما انتهيت قبلتني بعذوبة على شفتي.

ـ لا أدري ما إذا كان صحيحاً ما قلته، أو أنه سيكون حقيقة ذات يوم. ما أنا واثقة منه هو أنك عملت ما يجب أن تعمله، وأنني أُحبُّكَ.

حلّت صحبة مريمة محل صحبة *مرنان*، الذي يخرج في كل ليلة بالإكراه من هنا. مع ذلك تظهر لي صورة يوسف وسط الأرق مع أنَّ رقة مريمة تسبقه.

لا أتمكن أبداً من رؤيته حياً أو مرحاً أو ضاحكاً كما كان، كما لا أراه طفلاً بشعره الفاتح، ولا كبيراً، عندما أصبح شعره داكناً. دائماً أراه ميتاً. أوفقط أرى رأسه في الهواء، لا يكلمني، ولا ينظر إليّ. أشم الكافور الذي يحيط به، أحس كما لوأنَّ أحداً ينشر على وجهي القماش الملطخ بالدم، الذي لفوه به.

لا يهمني ما إذا كان أخي في الجنة أوفي النار، ما يهمني هوأنه ليس معي هنا، حيث كنت أتمتع بفرصة رؤيته ـ البعيدة تقريباً بل وغير الموجودة ـ وعناقه. وينتابني القلق الذي كان يحدثه المطر عنده والخوف الذي لا تفسير له من البدر، كما لوأنني أنا نفسي في العراء. (كان في طفولته يغطي عينيه بالقلنسوة كي لا يراه، أويشيح بوجهه متظاهراً بالضحك، كي لا أرى خوفه.) وأتساءل أين ووري جسده التراب ـ جسده مقطوع الرأس وحده، مثل نخلة قُطِعَ رأسها ـ بعيداً عن أجدادنا، بعيداً عن رياضنا العائلية، عن الحدائق التي كنا نلعب فيها. وأشعر بقطرات المطر الكبيرة التي تسقط على قبره تسقط عليّ مثل السهام، وكذلك ضوء القمر الكثيف والشرير. فيكبر في داخلي الغثيان والنفور والرعب الذي كان يكبر فيه، كما لوكنت أنا هو. أعرف أن زمن الورد وزمن الشجرة المئوية لهما

الدوام نفسه، وأعرف أن هذا وتلك لهما العمر نفسه، لكن ربما الأمر ليس كذلك عندما يستبق الموت، عندما تقطع الوردة من شجرة الورد بلا رحمة وفي غير أوانها.

أستطيع أن أقسم إنني كنت مستيقظاً تماماً ليلاً عندما تلقيت مداعبة. هبطت عبر جبيني وخدّي وتوقفت عندما وصلت إلى لحيتي. التفت لأرى ما إذا كانت مريمة قد استيقظت، لكنها كانت نائمة. وعرفت بيقين، أكبر من أي شيء في العالم، وبثقة أكبر بكثير مما يمكن التعبير عنها، أنها كانت مداعبة يوسف. وأنها كانت من يد يوسف اليمنى، من يده المشوهة والمبتورة، لكنها القوية والثابتة إلى الحد الذي تملؤني فيه برباطة الجأش وتقنعني أنه لم يذهب بعد، وأن أحداً لا يذهب، وأن ما يحدث مرة ـ كما تعدني مريمة وأفكر أنا عن الحب ـ يستمر بالحدوث إلى الأبد. إنه الانطباع نفسه بالتواضع وبالعظمة، بالكمال وبالفراغ الذي شعرت به في مسجد قرطبة: كل موسيقى تتوقف لكن كي تخلف الصمت الضروري الذي ترتفع فيه الموسيقى الحقيقية، التي لا تتوقف أبداً.

أنا ومريمة مثل زوجين عجوزين رضيين، غادر أولادهما المنزل بحثاً عن قدرهم ـ كما لوأنه ليس هومن يبحث عنا ـ نقضي السهرات يحكي كل منا للآخر الحكايات أونلعب الشطرنج. عادة هي التي تغلبني. البارحة بالذات هزمت ملكي ببيدق بسيط. أحياناً تعمل حيلاً كي تجعلني أربح، كي لا يباغتني الضجر من الخسارة الدائمة تقريباً. أحياناً أخرى أكون أنا من يقوم بالحيل في محاولة لأربح، وإن كان دون نتيجة.

ـ خذي العود، يامريم، كمحظية وديعة تمثلينها هنا ـ طلبت منها هذه الليلة ـ وسلّي مولاك.

غنت بصوتها الكثيف والحار قصيدة قديمة:

أجوب السماء بعيني ،
عساني أرى النجم الذي تتاملين .
أسال المسافرين في كل الطرقات ،
عساهم استنشقوا أطيابك ،

وأسلم وجهي للريح حين تهب ،
عساها تأتيني بأخبارك .
أهيم في الدروب تائهاً ،
عساني أسمع أغنية تذكرني باسمك .
أنظر خلسة إلى كل من ألقاه
عساني ألمح ملمحاً - يذكرني بجمالك.

أجبتها بعد أن قبلتها بقصيدة أخرى:

لا ترمني بالخلاعة
لأن قلبي أسير صوت يغني
فأحياناً يجب أن نكون صارمين
وأخرى أن نستسلم للعاطفة
مثل الخشب منه قوس المحارب
ومنه عود المغنية الجميلة(1)

ثم أنشدتها، وأنا أعانقها بكل قوة حبي، قصيدة ابن حزم التصريحية على أنها لي:

وَدِدت بأنّ القلبَ شُقَّ بمُديةٍ ... وأُدخِلتِ فيهِ ثمّ أُطبِقَ في صدري
فأصبحتِ فيهِ لا تحلّين غيره ... إلى مُقتضى يوم القيامةِ والحشرِ
تعيشين فيهِ ما حييتُ فإنْ أمُتْ ... سَكَنْتِ شغافَ القلبِ في ظُلَمِ القبرِ

كانت أيدينا ملمومة، غارقين في صمت مشترك، ولم نتابع لعبة الشطرنج فيما تبقى من الليل.

اليوم جاءت لوداعي منثيا، ابنة أخ رئيس الرهبانية العسكرية. كانت عيناها الشاحبتان محمرتين من البكاء. فقد أصبحت في الأسابيع الأخيرة صديقة حميمة لمريمة. كانتا تتبادلان الهدايا الكثيرة المشتركة وتدرب الواحدة منهما الآخرى في أعمال الخياطة والتطريز.

كان *مرنان* قد أخذ عادة الدمدمة في كل مرة يدخل فيها أحد غرفنا، كما لو أن أحداً كلَّفه بحمايتنا من أيٍّ كان. (الحقيقة إن *مرنان* اتخذ مزايا لم تكن جميعها غير مفيدة لنا: لايكاد يشعر بخطوات لم نشعر بها نحن بعد

---

(1) اضطررنا للترجمة لاستحالة العثور على الأصل.

حتى يفزع ويقلق ويهمهم، فينبهنا لما كان سيفاجئنا لولاه). ودّعتنا المسكينة منثيا اليوم. فغداً مع الفجر ستخرج إلى قونكة. ستذهب لتعيش في بيت عمة لها عجوز، في ضيعة ضائعة على ضفة ويكر. منثيا يتيمة، وكانت تأمل أن تجد فارساً حدودياً يتخذها زوجة. ولم يحدث هذا. اليوم لاتفعل منثيا شيئاً غير البكاء.

جاء القسيس بوجهه القاسي وجلبة مهمازه الذي يعلن عن ذلك، ليأخذها، وحملها غارقة في نحيبها، دون روية.

ـ أعتقد أنهم نقلوها كي يجنبوها الاحتكاك بنا، والودّ المفرط الذي كانت تبديه نحوكِ. ألم تري جهامة القسيس؟

ـ بلى، لكنهم حملوها لسبب آخر. ما أبلدكم أنتم الرجال.

ـ لا أفهم ـ اعترفت لمريمة.

ـ منثيا حامل.أغراها أحد رجال قلعة رباح في أعياد الميلاد، أوربما هي أغرته. ومنثيا ترفض أن تقول من يكون ذلك الفارس، ربما لأنه متزوج. والآن يعيدها عمها إلى قريتها كي تلد خفية، متظاهرين ولاشك بأنها أرملة حرب مكروبة.

ـ كيف استطعت أن تبتدعي مثل هذه الكذبة. يمكن أن نكون نحن الرجال بليدين لكن أنتن النساء ألسنتكُنَّ سامة أكثر مما هي رشيقة.

ـ إذا كانت منثيا ابتدعت هذه الكذبة، فأنا لا أدري، لكن هذا بالضبط ما حكته لي.

لن يعرف الرجل روح المرأة أبداً. ما يستشف بينهن بوضوح جلي من رفرفة أهدابٍ وطريقة في الجلوس أوفي إدخال الخيط في الإبرة يشكل بالنسبة لنا سراً لا يُسْبَرُ غَوْرُه.

ومن جديد يخرج رفيق آخر من رفاقي في القلعة ولأسباب ليست مختلفة تماماً. بقيتُ دونَ ميليان ده أثواغا البائس ـ الذي أحرق بالفعل في قرطبة ـ والآن دون منثيا. لحسن الحظ أن قدري جاءني بمريمة.

من حين لآخر يرسل إليّ الخصي نسيم رسولاً. لا أدري كيف يتدبر أمره ليقوم بذلك خلسة عن وجهاء الحمراء وعن حراسي في برقونة

أيضاً. لن تقدّر حيل خصي متفتح أبداً حق التقدير. فنسيم يملك مهارة أن يبقى سالماً في الحمراء وأن يرضيني هنا. أعرف أنه ليس مخلصاً لأيّ من الطرفين، بل هو خائن للاثنين، ومع ذلك فإن إكرامه لي يغذي أوهامي القائلة إنه لم يَضِعْ كلُّ شيء. جاء رسوله حاملاً أخباراً مكتوبة عن كل ما يحدث، ليست كثيرة. أتصور أنها تخفف مما يمكن أن يكربني. ومع ذلك أسدُّ النقص وأحمِّل الحبر بما يبدولي منطقياً، حتى وإن كان ضدي، فتساعدني رسائله على تحمل هذه العزلة.

الأخبار، أقول ذلك لأن علي أن أسميها بطريقة ما، التي أرسلها إليَّ في شهر أيلول، مشجعة. أرى كيف أن الأشياء تستقر، محمولة على أفضل وجه إلى غايتها، التي ربما كانت غايتنا.

منذ الربيع والنصارى لم تنزل لهم قدم عن ركاب، أويُخْفُوا استعجالهم في السيطرة على كامل البلاد. الوقائع تتعاون معهم، فمنذ بداية العام فوّض والدي عمي *الزغل*، الذي يلمع نجمه وتتعزز مكانته باضطراد، بكل سلطاته نتيجة تدهور حالته الصحية.

بدأت الحملة القشتالية في شهر نيسان ببعض العمليات الثانوية: احتلال موقعين محصنين، قوين وقرطمة، والاستيلاء على قلعتي المعرة وشطنين. وبعد ذلك بقليل استسلمت مدينتان على مسافة قليلة من مالقة، مطمع الملك فرناندو العاجل، بسبب الحصار الشديد عليهما: قمبنيلا وشوريانة تفتحان الطريق فعلاً إلى ميناءنا الأساسي، الذي حصّنه عمي وعزز حمايته جيداً، مما جعل فرناندو يتخلى عنه مؤقتاً. لكن ليس إلا كي يدبر شركاً جديداً: خطّط بذكاء لهجوم مزيف على لوشة، المدينة المهمة جداً لأنها مفتاح الطريق إلى غرناطة، وتمكن من جعل عمي يتوجه إليها مع جيوشه. وهكذا وقع في الفخ، فحجم الجيش النصراني الأساسي الذي كان يرابض في رندة، التي تسيطر وتعزز جميع المدن حتى الساحل، لكنها أيضاً المدينة التي كان قد كتب ابن الخطيب ان الأعداء قد أخذوا بخناقها.

لكن رندة كان يحميها سكانها كثيرو العدد، يدعمهم بنوغيمر وموقعها بخاصة. لمحت الطلائع القشتالية، التي يقودها مركيز قادش، يوم الثامن من أيار، المدينة، المنتصبة على هضابها، البيضاء والمغلقة، جذابة كما لا يمكن أن توجد مدينة مثلها، بالنسبة لأيِّ محتل نظراً لتاريخها الطويل من المحاولات الفاشلة. هدَّم قصف المدفعية المتواصل الأسوار التي لم تكن مستعدة له، يوم السابع عشر. وفي اليوم التاسع عشر

قطع المهاجمون إمدادات المياه فأضيف للحصار التهديد الرهيب بالعطش في شهر أيار الحار. بعد يومين أرسل الوزير ابراهيم الحكيم موفداً باقتراح الاستسلام. كان إصرار النصارى وتصميمهم الراسخ هما اللذان أثرا في همة المحاصرين. عمل الوزير بحكمة كي يتجنب موتاً غير ذي جدوى. رغم أن كثيراً ممن ليسوا من سكان رندة، وبالتالي في مأمن عن ضيقهم، كانوا يرون غير ذلك. في اليوم العشرين من أيار استسلمت رندة. وبالتالي استسلمت قرى سرانية ومربلة. وبهذا تكون المقاومة النصرية قد انتهت في هذه الناحية وهذه الساعة على الجبهة الغربية.

بأية سطور مختصرة يمكن أن توصف سقطةٌ قاتلةٌ، لاتُضمَّنُ رعب الناس من مستقبلهم، ولا جوع وبكاء الأطفال، لاالدم ولا ترمل النساء الأسود، لا نَكَد الرجال وقنوط المسؤولين، ولا انهيار كل شيء. ستقول الأخبار «احتلت رندة» ، أو «ضاعت رندة» بحسب من يكتبها وبهاتين الكلمتين يُلخَّصُ كلُّ ألم العالم.

دمّر عمي *الزغل*، الذي أشاطته الخديعة غيظاً ولم يملك الوقت لتشجيع المحاصرين، فصيلة كانت في طريقها لتموين الحامة ورفع رؤوس النصارى على أسنة الرماح انتقاماً وإلهاباً لجيوشه التي خمدت همتها لضياع رندة وكلِّ مدلولها الهائل. توجّه بعدها إلى غرناطة التي استقبل فيها استقبال المنتصرين. ومع ذلك يعرف هوأكثر من أيٍّ كان حرج اللحظة. لكن كثيراً ما يضطرُّ الحكام لقبول الغار والاستصواب كي لايحبطوا رعيَّتهم، وهم على علم تام أنهم بهذا يجعلونهم يتصورون أوهاماً مشؤومة. لكن أيها أفضل بالنسبة لمريض محكوم بالموت: أن نعلن له بصراحة قاسية نهايته، أم أن ننعشه إلى أن تحين ساعته المشؤومة؟ الحقيقة ليست دائماً هي السلاح الأفضل.

في الحمراء كانت ثريا أيضاً على اطلاع تام بالصراع. قبل يومين، أرسلت، متحسبة وصول *الزغل*، زوجها السلطان سراً إلى سالوبرينا، لعل صحته تتحسن قرب البحر والمناخ اللطيف وبعده عن المضايقات والضغوط. أبوالقاسم بنيغش كان قد حرّض على بعض التمردات الشعبية التي موّلها لتكهنه بقصر حياة والدي وحكمه. كان يطالب فيها بتنازل السلطان عن العرش، استرضاءً لمن سيخلفه منطقياً. ومع ذلك فإن عمي لم يكن يتطلع ظاهرياً إلى العرش، رغم أن المملكة كلها كانت تطالب بملك شاب وفعّال، حازم وقادر على أن يتقدم الجيوش شخصياً إلى الجبهة.

قامت ثريّا، وهي ترى أن طموحها على وشك أن يجهض، بمحاولة

يائسة. أجبرت والدي، قبل أن ينزوي في سالوبرينا، على أن يتنازل عن العرش لابنها الكبير، الذي ما يزال طفلاً، تاركاً لها الحكم بالوصاية. لكن بعض مندوبي أبي القاسم بنيغش صعدوا، متظاهرين بجهلهم بغياب السلطان، ليبلغوه حالة الوضع المؤسفة. أرادت ثريا أن تلهيهم، وأشارت إلى وعكة عابرة يعاني منها السلطان، الذي احتجزته في غرفتها وطلبت تأجيل المقابلة. لكنها أمام إصرار الزائرين وانكشاف أمرها، كادت تشتمهم.

ـ ما يزال الملك الشرعي حياً، يزينه مجد الأمارة، فخوراً بأنه عمل من أجل غرناطة أكثر من أي كان من السلالة. إنه مريض على الساحل، مريض وليس ميتاً، أعلنوا الآن ابنه ملكاً. وثقوا أنكم بهذا تخدمون السلطان الذي أمدكم به الله: بطل سيستعيد عافيته على الشاطىء وسيعود والسيف في يده (لا تنسوا ذلك) ليجلس على عرشه.

وبعد اجتماع دعا إليه بنيغش وأنصاره، توصل جميع الرجال الذين كان لهم دور في غرناطة إلى اتفاق متوقَّع: ما من أحد يناسبه ملك محتضر ولا ملك طفل.

ـ إننا نملك بين أيدينا ـ صرخ المتقلب بنيغش ـ من يستطيع أن يقدم منافع أكثر لهذه المملكة. وهوساجد في هذه اللحظات لله في مسجد الحمراء.

هرع المجتمعون ووصلوا في الوقت المناسب ليروا *الزغل* يخرج ويمتطي جواده، يتهيأ للخروج إلى سالوبرينا ليواسي أخاه. وهناك، دون أن يتركوه يهبط السبيكة، أعلنوه سلطاناً.

قبِلَ *الزغل* بوجود ثريا وابنيها في الحمراء، رغم أن مكانها يجب أن يكون إلى جانب المريض. ولم يتأخر في فهم أن قصد ثريا كان اغراؤه وعقد قرانها عليه، حتى لو تطلب الأمر سم السلطان المحتضر. وكانت مستعدة أكثر من أي وقت مضى لمتابعة طريقها. أمام هذا الموقف المشين. أرسلها مع ولديها إلى سالوبرينا. ثم وبعد أن اقتنع بأنه ما من شيء يعيد للسلطان صحته، وبناءً على نصيحة الأطباء الذين كانوا يرون مناخ مندوجار أصحَّ له، أرسله إلى هناك مع عائلته. [يؤكد لي أحد أنصاري، الذي أرفض أن أصدقه، أنه إذا كان قد سمح لثريا أن تبقى في الحمراء، بل وأن يتكلم هو ـ وليس هي ـ عن زواجه منها، فذلك كي يكتشف أين كانت قد خبأت الكنوز الملكية، التي لا غنى عنها لاستمرار الحرب].

وانفجرت الحمراء بفرح عامر لتباشير استلام سلطان شجاع محبوب وغير مفروض بالمناورات القذرة، إلا أن قسماً من البيازين بقي مخلصاً لي. أسعد استيلاء *الزغل* على العرش الملك فرناندوأيضاً، فهويرى بهذا أن مملكتنا تزداد انقساماً. الشك الوحيد الذي بقي عنده هوما هي اللحظة الدقيقة لتحريري، وتكون أكثر ضرراً لنا، وإطلاقي للصراع مع عمي ومع الشرعيين من أنصار والدي.

بردت فرحته مع أول مأثرة لعمي وبرّر بها الآمال التي وضعت فيه. قرر الملك فرناندو، عندما شَرَعَ بحملته الصيفية وإن كانت متأخرة، أن يبدأ بها في الغوطة. أرسل مقدّماً طليعة بقيادة قند قبرة، الذي اختار طريق مقلين. لكن *الزغل* تكهن بحركته وسارع إلى معالجة الوضع بسرعة على رأس فرقة قوية من الجنود. كانت هزيمة القند رهيبة بعد معركة قاسية، قضي فيها على القسم الأعظم من النصارى في وهدة أطلق عليها أهلنا المجزرة، وذلك بعد أن تمزّق تنظيمهم، وخرج منها القند نفسه جريحاً وطليقاً بأعجوبة. إضافة إلى ذلك ملك عمي الشجاعة على تحدي الملك النصراني نفسه والتخييم يومين في مكان انتصاره، فلعل فرناندو يحاول أن يقبل التحدي وينتقم للفشل الذريع لواحد من أفضل القادة عنده. الحقيقة إن الانتقام لقند قبرة كان أنا.

يخبرني نسيم ـ وأنسخ رسالته حرفياً تقريباً ـ أنه لوكان الأمر عائداً لفرناندو لأجّلت الحملة النصرانية إلى الربيع التالي. أضيف إلى هزيمة مقلين الموت الهائل، الذي سببه الوباء في إشبيلية، حيث يقبرون الناس أكواماً، وتذمر بلاد النصارى وحزنهم. لكن الملكة إيسابل استنهضتهم، حسب ما يقال، كي تقوي عزيمتهم وتلهب قِلَّتهم، ممتطية جوادها أمام الجنود:

ـ أبنائي، قشتاليين وأراجونيين، أريد أن أضع سعادة مملكتينا في أسلحتكم. من الآن وصاعداً لن تكتفي قشتالة ولا أراجون بالهدنات المقلقة ولا بالخراج الذي يمكن أن ينكر علينا عند أول فرصة. لذلك نقرر الملك ونحن، وأنظارنا على إرادتكم وأسركم، راكعين أمام الله، استمرار الحرب دون تراجع إلى أن نطرد الكفار من هذه الأرض التي هي أرضنا.

وهكذا بثّت، كامرأة وملكة، الحماسة بين الجيوش. وبنباهة ارتاح الزوجان في صحني ميزان واحد. المؤشر بالنسبة إليها هوالاحتلال، عندما يكل أحدهما، يتحسن الآخر وينهض، مدفوعاً بالقوة نفسها التي

تنهك الأول. من هنا الحكم باستحالة هزيمتهما.

لكن ما يجهلانه ـ وسيبقيان يجهلانه مادام في يدي ـ هوأنني اتخذت بالاتفاق مع مريمة، قراراً ليس أقل ثباتاً من قرارهما. سيعتقد الكثيرون أنني اتخذته بمحض أنانية مني ولراحتي، لكنني أقسم إنني اتخذته بعيداً عن أي اعتبار شخصي ولفائدة المملكة. فمصيرها يهمني أكثر من مصيري بكثير، وإذا كانت أيامها معدودة، فإنني سأحاول ما أمكن أن تكون هادئة وساطعة وسعيدة. حتى ولوتطلب ذلك أن أضحي بحياتي، التي تعادل التضحية بحقوقي في العرش.

قضى غونثالو فرناندث اليوم معي. تناولنا طعام الغداء معاً. عملت مريمة كخادمة. لم تكد تلتقي عيوننا مرتين، لخوفنا من أنَّ نظرةً واحدةً قد تفشي سرنا. تناقشنا أنا ومريمة، بعد أن ذهب، حول رأيينا بتلك الشخصية.

يظهر غونثالو أكثر تماسكاً ورجولة من المرة الأخيرة. وبرز عنده بعض الوقار إلى جانب الطلاقة، وبعض الصرامة إلى جانب الظرافة. ملامحه جدِّيَّة ونقيَّة ومتناسقة. ربما قدم ابتسامته بحذر مفرط. لذلك فإنه عندما يبتسم ويظهر أسنانه البيضاء يبدوكما لوأن الشمس انسكبت على منظر لم يبزغ عليه الفجر بعد. يداه جافتان، عليهما آثار العنان والسلاح، لكنهما في الوقت نفسه تتمتعان بأناقة لاتخفى. جسمه رشيق وحسن التشكيل، ليس مفرطاً في الطول، لكنه يعطي انطباعاً بأنه أطول من كل الذين يحيطون به وذلك للجلالة السليمة التي تنبع من هيئته. أعتقد، إذا استثنيت عمي *الزغل*، أنني لم أر قط من وُلِدَ تماماً ليقود ووُلِدَ مؤهَّلاً لذلك مثله. أنا واثق من أن دون غونثالولا يحتاج لأن يرفع صوته كي يُطاع ولا أن يهتاج كي تُمتثل أوامره. أشك أن يحدث له ذات يوم ما حدث لي في اللسانة عندما تفرق رجالي من حولي. إنه لا يحتاج لأن يخطب كي يوقف جنوده، الذين يفضلون الموت على نظرة احتقار منه. بكلمة واحدة إنه مجبول كي يقود شعبه إلى النصر. إنه القائد المسيحيُّ الوحيد الذي أخافه والوحيد الذي أحبه. لأن كلماته ومواقفه تشي بالكفاءة النظيفة، بالمثابرة الباردة، وهي لا تنطوي على كراهية، فهويتقدم كأداةٍ مفيدةٍ وصلبةٍ لشيءٍ يجب أن ينفَّذ، لا دخل لقلبه فيه.

بدأ خلال مكوثه معي كلاماً عن الأسلحة والحرب، كان من التماسك

والبراعة بحيث أنه سيحزنني ألّا أنقله بأمانة. رسم على أوراقي القرمزية تصاميمَ واختراعات مدفعية، كتب أرقاماً، ووزع فصائل الجيش كما لوكان قائداً أمام معركة، بلياقةٍ ومودةٍ هما لحليفٍ أكثر مما لخصم. يفهم منه أن الملكين يثقان به، رغم يفاعته، ثقة لا تعلوها ثقة أخرى. إنهً أفضل القادة الجدد عندهما: جميعهم على صورته ويشاركونه مُثُلَهُ، ولم تفسدهم الصراعات الشخصية والمصلحية للسنوات السابقة التي طالما أفادتنا. يستخلص من الاستماع إليه نتيجتان: الأولى مفهومه المجدَّد للعمل طويل المدى والمرحلي، معرفته العسكرية، التي يمكن أن يقال في بعض المناسبات، إنه موحى له بها، خاصة انسجامه مع الملكين في المشاريع، في الجَلَدِ والتصميم، الأمر الذيْ يحوله إلى تابع تام. النتيجة الثانية، التي تُستخلَصُ، لاأدري ما إذا كانت رغماً عنه، أوربما أيضاً لجهله بها، هي: إنه عاشق للملكة بطريقة متحفظة أو إنها ما تزال في لاوعيه. مريمة ترى ذلك بوضوح أكبر: فآراؤه الذاهلة ومديحه لها، عندما يتكلم عنها، تدل على أنها بالنسبة له أسمى معجزة وجدت، وأعظم مكافأة التقاها في هذه الحياة.

- يرتبك المرء عندما يرى امرأة - يقول - تنشغل مباشرة بخطط الحملات، تدلي بصوتها بين أقدم القادة وأكثرهم تجربة وتكلمهم وجهاً لوجه دون كلفة وتوجه الاستعدادات بمعرفة يصعب على محاربي العصور القديمة إدراكها. هذا هوالمستجد الذي يحدد، بطريقة محسوسة تماماً، ما يقترب أوما أصبح الآن موجوداً بيننا، هذا هوالشيء الذي لن يسمح لنا بالفشل، يا مولاي، إذا سمحتم بأن أقوله لكم. وبعد كل شيء - يعتذر - النتائج بيد الله، الذي سبله غامضة علينا وقضاؤه لا يمكن كشفه.

يدهشني كيف تجتمع فيه الملاحة والسلطة وأحسده على ذلك.

- الشجاعة العمياء - يضيف - لن تقود بعد الآن العمليات الحربية، كما كان يحدث حتى الآن، والقوة لن تكونٍ إلاّ أداة للتبَّصر والذكاء. إن حرب غرناطة، وهذا أمر أنا مقتنع به تماماً، افتتحت مدرسة سيدرِّس فيها فن الحرب ويعلِّم من أجل مهام أخرى أصعب تُعدٌ لنا. هنا سيشكل جنود سيكونون مرآة للجميع وزينة لفن الحرب الكوني. إذ لن يترك شيء للمصادفة، وسيكون الحظ عدونا الأول. توجد خطة مدروسة جيداً ستُحترم،ستقودنا، إضافة إلى عمل الملك الكيس في السياسة الخارجية، إلى النصر. أعرف، يامولاي، أنه صعب عليكم أن يأتي قائد نصراني ليكلمكم عن هذه المسائل، لكنني أقدر أنها أكثر الأمور أهمية لكم، كما أن

الرفاقية والأدب ليسا خاضعين للمناصب، ومنصبكم أعلى كثيراً من منصبي في الصراع الذي نخوضه. افهموا هذا كبرهان على احترامي لكم وثقتي بكم، فأنتم مختلفون عن السلاطين السابقين. ليس لحضوري هنا ولمضمون حديثنا هدف آخر.

ثُمَّ وبناءً على أسئلتي ـ التي لم تكن فضولية وحسب وإنما مذعورة أيضاً من أجوبته ـ عرض عليّ بطبيعية، أفكاره وطموحاته.

ـ يتعلق الأمر بتطبيق القواعد نفسها، التي تفيد في احتلال مدينة قوية، على احتلال مملكة غرناطة. أولاً يجب قطع طرق مواصلاتها والنجدات الخارجية المحتملة، كي نقلص العدوالى حدود قوته وموارده الخاصة. مرة أخرى أطلب معذرتكم ـ قطع حديثه بابتسامة خفيفة ـ نحن، يامولاي، نتمتع بميزة أننا نخوض المعركة في ميدان غريب: فهوالذي سيعاني أكثر، بالمقابل يطلب منا، أولا يطلب، ألا نرتجل، وإنما أن نحتاط مسبقاً، إن تقليص ما بقي للغرناطيين من خيرات في أرضهم نفسها مسألة جوهرية بالنسبة لنا، خاصة وأنَّ بلدكم كثير السكان وكثير الحاجات. (اعذرني لأنني أتكلم عن الغرناطيين كما لوكنتم أنتم غريبين عنهم، أفعل ذلك لمزيد من الراحة: فبهذا الشكل ستكون نبرة تأملاتنا أقل مرارة.) إن مهمة التدمير التي كنا نقوم بها ضرورية، لكنها ستكون الآن حسب قواعد وبنظام: يجب قطع الغابات، الطواحين والمحاصيل، ردم الآبار، وتدمير كل وسائل العيش الضرورية. ومنذ حملتنا الثانية يرافق الجيش ما لا يقل عن ثلاثين ألفاً من المشاة مفوَّضين بهذه الأعمال. لأن الحرب لم تعد مسألة مناوشات وحروب عصابات، وإنما حرب استقرار وحصار، يجب أن نأخذ عاصمة المملكة، كما لوكانت الركن الأساسي في الميدان، لأنها كانت تعادل في السابق بالنسبة لنا المملكة كلها. دفاعاتها الخارجية هي المدن الأخرى، والقرى المأهولة، القلاع والحصون، الطلائع والبروج. يجب أن نمضي في كسبها كي نقترب تدريجياً من الهدف النهائي، أي المعقل، وهوهنا غرناطة نفسها وقلبها، الذي هوالحمراء.

أمام دقته فضلت أن أرتاح لحظة فسألته عن الملكة. ابتسم.

ـ الملكة تتعهد بتجهيز المؤن، وجمع البارود والخشب وما يتعلق بإدارة الإمدادات والتموين، وتجنيد الجيش واستقرار جانبنا في الجبهة، الذي يجب ألا يعيق مسيرة الحرب. وهذه المسيرة يجب أن تكون بشكل أوبآخر بطيئة، لكن غير منقطعة. أيضاً نعمل فيما يتعلق بالسرعة في الاتصالات، التي أمرت من أجلها بإقامة نظام من المحطات. كما أنها، إذا

بدا لكم هذا قليلاً، أصدرت، عندما كنت في بيتورية بمناسبة الجائزة التي منحت لآسريكم، قراراً حول الطريقة التي يجب أن يقوم عليها التعاون مع القوات البحرية لاكتساح السواحل الافريقية ومنع نزول الرجال والمؤن. ومن أجل ذلك أمرت بانتقال أسطول بيشكاية إلى البحر المتوسط وبإقامة محطات بجانب المضيق، متناثرة، لكنها وفيرة وعلى امتداد الشاطىء. إنها سفن يقوم عليها أفضل البحارة: مارتين دياث ده مينا، شارلز ده باليرا، الهولاندي، غارثيا لوبث ده أرياران، القس ريكيسن، ألبارو ده مندوزا وأنطونيو برنال.

ـ وما الأسلحة التي سيستخدمونها يا دون غونثالو، ليلبوا الحاجة ـ؟ إذا لم تكن جديدة تماماً، فهي أكثر مما هومطلوب حتى الآن ـ وكنت من ابتسم وأنا أطرح السؤال هذه المرة.

ـ أسلحة نارية أقوى بكثير، يامولاي. المسلمون يوكلون دفاعاتهم إلى المواقع التي يتواجدون فيها، ولذلك، لايحفرون عادة خنادق ولاحفراً ولا يشيدون أسواراً قوية وإنما سياجات ضعيفة من الطوب قائمة على مخططات غير مدروسة، لن تقاوم، ولا تقاوم عملياً طلقات مدفعيتنا الحجرية الهائلة. نحن نستخدم المدفعية إضافة إلى المنجنيقات السبطانات والطبنجات واختراعات أخرى. وهكذا فإن الغرناطيين، الشجعان في الدفاع عن مدنهم سيدب الذعر والفوضى بينهم عندما يثبت لهم أن مدفعيتنا ستمحق بسهولة تحصيناتهم بعد أن يستسلموا للحرمان والجوع والعطش. هذا ما سيمنحنا ميزة، ليس فقط من خلال الأضرار المادية التي سنسببها لهم، وإنما من خلال فقدانهم لمعنوياتهم أيضاً. وإذا ما ارتكبت، يامولاي، قلة الاحترام وأنا أكلمكم بالطريقة التي أكلمكم بها، فذلك لأنني أقدر أن قائداً أسيراً وبعيداً، كما هوحالكم، عن ميدان المعركة، له الحق في أن يعرف ما يعرفه، في الوقت الحاضر، من يحلون مكانه في الخارج.

ـ أشكركم وأرجوكم أن تتابعوا.

ـ معظم قادة المدفعية هذه مصدرهم إيطاليا وفرنسا وألمانيا. ومع ذلك سمّيَ في تورو، منذ أكثر من ثماني سنوات، المشير دومينغو زكرياس، قائداً أعلى للمدفعية وألونسو توماس بربارا قائداً أعلى لقاذفات القنابل في إشبيلية منذ ست سنوات. القائد العام هو فرنشيسكو رودريغث ده مدريد، الذي عينه الملك، صورياً، فارساً. ومعامل البارود والطلقات الحجرية تصنع في المعسكرات نفسها. يسافر مع الجيش

النجارون والحدادون مع كورهم، والمهندسون، والحجارون الذين يبحثون عن المقالع وكرات الحديد. يوجد نشّارون وحطابون وصهّارون ومعماريون وفأّسون وفحّامون، بل وحتى نساجو حلفاء. والمعسكر، أنتم تعرفون، مثل مدينة. من هنا كان أن العائق أمامنا في نقل الحرب إلى بلاد غريبة هو أنه علينا أن نتزوّد بالخيال والوسائل المأخوذة بالحسبان للدقائق المباغِتة. ورغم كل شيء فإن الاستهلاك من البارود كبير بحيث يأتون به من برشلونة وبلنسية كما من البرتغال وصقلية وفلندة، إضافة إلى الذي يعمل بالمدقات الحجرية في المعسكرات. لأن حرب غرناطة، وكما قلت لكم في المقابلة الأولى، تجاوزت حدود شبه الجزيرة. وأوربة متوقفة علينا.

كان يحكي عن الحرب بالهدوء والسهولة التي من الممكن أن يصف بها منزله نفسه. لم يكن ممكناً عند الاستماع إليه تصور الموت والنهب والدم والمكر والإبادة. ولو لم أكُنْ قد عرفت انتصاراته، لكنت تصورت أنني أمام مُنظِّرٍ كبير لم ينهض قط من وراء مائدة دراساته، بل ولم يجتز باب داره. شيءٌ ما من حوله كان يؤكد لي أن العالم صار مختلفاً. شعرت دون أن أفسر السبب، أنني توّاق للمناهج التي تعلمتها والمعرضة للخطر ولابدَّ أنني سأنساها.

ـ وماذا فعلتم أيها القائد، بالآلات القديمة فأنا أسير منذ سنوات وسرعة عصرنا...

ـ الطبنجات والآلات الأخرى لم تلغ كلياً. نقذف بها الحجارة كما في السابق، ونقذف بها أيضاً القنابل، التي هي كتل حارقة مخصصة لإيقاع أضرار لامجال لإصلاحها في مخازن البارود وأنبار التبن.

ـ فهمت ـ قلت وتمتمت، كي أضيف شيئاً ـ : ومع ذلك فالنقل...

ـ معكم حق. إنه معقد ومكلف جداً. يجب أن يحسَّن. لقد وصل عدد المركبات المخصصة لخدمة المدفعية إلى ألفين أحياناً. فهي تجرُّ بالثيران وتقسم إلى مجموعات، كلُّ مجموعة مؤلفة من مئة. إن نقل هذه الأمتعة يتطلب طرقاً مناسبة، وهي غير متوافرة دائماً في بلد كثير الأوحال والوعورة. من أجل تمهيدها هناك جنود الهندسة وعمال المعابر. معلومة: في اثني عشر يوماً فتح ثلاثة آلاف جنديٍّ هندسة طريقاً طوله ثلاثة فراسخ، في هذا العام نفسه، لتقريب المدفعية من كمبيل. وقد اضطررنا لأن نزيل تلالاً ونرفع ودياناً ونفتح سبلاً في أراض غير صالحة للمرور، بل وعدوة، وقطار المدفعية يملك عربات مهمتها نقل الخشب

الذي لا غنى عنه للمعابر التي تعبر السواقي والجداول ولتهيئة الممرات فوق الوهاد والأنهار. بعدها سيجرّون عبر هذا الطريق المفتوح عربات المنجنيقات التي ستدمر بروج قلاعكم القوية. عفوكم،... عفوكم، يامولاي، فقد استفضت.

- تابع، تابع. أولاً وأخيراً هذه هي هوايتكم.

- شكراً، يا مولاي. عندما لا يكون هناك عذر، فإننا نقوم بأعمال تطويقٍ كبيرةٍ قادرة على عزل الميدان الذي نحن بصدده كاملاً، خنادق بالأطوال والأعماق الضرورية، مع قلاع من الطوب واستحكامات بين الواحد والآخر ثلاثمئة أو أربعمئة متر، وكذلك قلاع من الخشب قابلة للفك، تركب في المواقع المناسبة كي تُبْنَى بحمايتها أُخرى أكثر صلابة. طبعاً كل ما أحكيه لكم وكأنَّهُ حكايةٌ لتسلية الأطفال - وأنا لم أستطع أن أتجنب الابتسامة، ولو كان بمرارة - يَتَطَلَّبُ عدداً مرتفعاً من العمال والجنود يبنون أولاً ثم يحافظون ويحرسون ثانياً. هناك حالات لا تتطلَّبُ، وهذا ما نحن مستعدون له، أَقَلَّ من ثمانين ألف جندي وخمسة عشر ألف فارس - يستشف منه غرور مفهوم، يشبه غرور المراهق الذي يكتشف العالم، أويبتدعه - . لاستضافة هذا الحشد الهائل هناك الملكة. وقفت نفسها لإدارة الإمداد والتموين ومشافي الحمْلَة (وهي ستُّ خيام كبيرة تحتوي على الملابس والأسرة الضرورية، كما على الجراحين والأطباء والأدوية والرجال الذين يخدمونهم، ما من شيء فيها يكلف شيئاً، لأن سيدتنا هي التي تدفع كل شيء) أقول لكم، سيدتنا تعمل أيضاً في بناء المعسكرات، هذه المدن المحمولة، التي ما من شيء من ضرورات الحياة ينقصها، ولها شرطتها الخاصة وحراستها الخاصة ولها نظمها الصارمة التي لا تُمس.

- أعترف، على الرغم من شهرة الحمراء بالغنى، إنَّ تاجَيْ أراجون وقشتالة يَمْلُكان مواردَ أكثر منا. هل يوجد خزينة في العالم حقيقية تستطيع أن تتحمل نفقات كهذه؟

- ربما لا. النفقات تغطى مبدئياً من إنفاقات الخزينة العادية، لكن هناك أيضاً النفقات الاستثنائية التي تتحملها المدن وكذلك هناك أموال النبلاء (الذين انتفعوا خلال سنوات بل وقرون دون أن يشاركوا في النفقات العامة) وهناك القروض التي يغطيها اليهود، ونقابات التجار، وهناك - أضاف بإيماءة ساحرة - رهائن مجوهرات الملكة الشخصية، التي ترقد في الوقت الحاضر في صناديق اليهود في بلنسية. وهناك

ظروف معلومة، كما هي الحملة التي أخذت فيها أليورة، حيث منح البابا براءة بابوية صليبية للذين حضروها أوساعدوا فيها بالصدقات.

ـ براءة بابوية صليبية؟ ـ سألت مُقَوّساً حاجبيّ.

ـ بلى، مقابل الأموال المتبرع بها أوالمشاركة في الحرب تقدمُ الكنسية غفرانات محددة (عندما تحادثت معكم في اللسانة سخرتم منها.)، أوإعفاءات محددة مثل إمكانية تناول اللحم خلال الصوم الكبير.

ـ أفضل أن تستمروا بالحديث معي عن الحرب، فعندما تتكلمون عن دينكم لا أتمكن من فهمكم.

وبعد لحظة من التردد أطلق ضحكة قصيرة عفوية.

ـ لكم ما تقولون. سألتموني عن مصادر الدخل. كنيسة روما واحدة من أكثر المصادر غنى عندما ترضى. منذ فترة قصيرة مُكّن قداسةُ البابا التاجَ الأراجوني، هوأراجوني، من أخذ مئة ألف فلورين حمّلها على كنائس وأديرة مملكته. لكن عليّ أن ألفت انتباهكم، يا مولاي، بأن الشعب النصراني غير مجتهد وسهل الإقناع، ككل الشعوب، ويعاني كثيراً من الضرائب، يصل به الأمر أحياناً إلى استخدام العنف مع جامعيها ـ ضحك الآن دون حد ـ . الشهر الماضي، ونتيجة ندرة الموارد نصحَ الخازنُ الملكةَ بأن تفرض توزيعاً جديداً للضرائب على البلدان القشتالية، فرفضت الملكة قائلة له بكل صراحة: «إنني أخاف عجائز مملكتيّ أكثر بكثير مما أخاف المسلمين.»

باللطافة نفسها والبداهة نفسها التي ضحك بها توقف عن الضحك.

ـ حيث تكون جيوبنا تكون قلوبنا ـ قلت وأكملت بسخرية ـ كائنة لمن كانت هذه الجيوب. العجائز متشابهات في كل مكان. قولوا ذلك للملكة عندما ترونها.

نظرت إلى عينيه العميقتين المتكبرتين. ثمَّ:

ـ هكذا إذن أنتم مقتنعون أيها القائد قناعة قاطعة بأنكم ستكسبون دفعة واحدة هذه الحرب التي دامت قروناً.

ـ بلى مقتنع، يا مولاي، بأننا سنعمل كل ما هوممكن بشرياً لكسبها ـ كان يودعني ـ آمل ألا أكون قد أتعبتكم وأنا أتكلم دون مهادنة (يبدوأنه لن يكون هناك بعد الآن مهادنات لشيء.) عن الموضوع الوحيد، أوعلى الأقل عن أحد الموضوعات القليلة المشغوف بها وربما الوحيد المشترك بيني وبينكم، وإن كنا على طرفي نقيض.

ـ شكراً، أيها القائد، لاعتباركم لي أهلاً لأسراركم. من جهتي، آمل أخيراً ألا يخيفني صدق معلوماتكم. لأنه وإن كان كذلك لن يفيد في شيء: فأنا هنا عاجز عن أن أنقل خوفي أو تفاؤلي إلى أحد.

ـ أتمنى ألا يدوم هذا العجز طويلاً، يا مولاي. وأنا لم أطلب زيارتكم من منطلق الشفقة وإنما الأخوة. أرى أن أكبر شر يمكن أن يحدث لي هو أن أرى نفسي فيما ترون فيه أنفسكم: مقصوراً على الانتظار، ومستنداً إلى قرارات غريبة، جاهلاً بما يحدث في مملكتكم، وعاجزاً عن القتال على رأس جنودكم، أي عن المشاركة في تطورات مصيركم. لقد قلت لرئيس الرهبانية العسكرية إن من الرحمة زيارة الأسير، لكنني أقول لكم بلغتي العربية الركيكة إنكم بالنسبة لي أكثر بكثير من أسير، وأكثر من ملك: أنتم رفيق سلاح أتمنى أن ألقاه وجهاً لوجه في ميدان المعركة. بارك الله فيكم وجعل غيابكم قصيراً.

علمت أن القائد غونثالو القرطبي تمكن من زيارتي، بعد أن أذن له الملكان دون شك، بسبب الهدوء الكبير الذي خيم على جبهة الأندلس طوال الخريف. فمنذ بداية أيلول كانت الأمطار جارفة في كل المنطقة ـ أستطيع أن أضمن ذلك بالنسبة لبرقونة ـ والوباء يلحق أضراراً في غاية الخطورة في إشبيلية، حيث الوفيات ما زالت تزداد باضطراد. لا شيء آخر يحدث في جانبنا: في كل مرة يزداد عدد الذين أضناهم التعب، وفقدان الهمة تَمَكّنَ منهم، يحلمون بأن يسندوا رؤوسهم إلى وساداتهم نفسها وأن يناموا مع نسائهم ويضموا أبناءهم. كل الذين يقاتلون ينتابهم حنين لا يقاوم للمنزل، الذي يطن في آذانهم نداؤه لهم.

قالوا لي إن بعض قلاع الشرقية، التي كانت وما تزال وفية لي انتقلت في تشرين الأول إلى حزب *الزغل*. وأعرف أن أمي تسكن الآن مع نسخة أبي عبد الله في وشقة حيث تحصنت ليس بعيداً عن بسطة. أعتقد أنها بعد أن تخطت خطر أن تُكتشف خديعتها في وادي آش أوالمرية، صارت تفضل ألا تمر به في المدن الكبيرة، التي يمكن لسكانها أن يملكوا أخباراً عني: طريقتي في السير، في الحركة، نبرة صوتي، طريقتي في الشرود بينما هم يطرحون علي مشاكلهم، غياب عيني لعدم اهتمامي بما حولي. من الواضح أن هذه الحرب ليست شيئاً واحداً بالنسبة للجميع. الحكام يبحثون عن أنفسهم فيها، والنبلاء عن توسيع نبالتهم، لكن ما الذي يُبْقي

علَى الشعب فيها؟ الرهبة المتأججة الناتجة عن الخطب، أو الخوف من الذين في الأعلى، أوالامتياز الذي يمكن أن يحصلوا عليه، أو الانتقام من عدوملاصق، إذا كانوا يعيشون على الجبهة: ما من سبب من هذه الأسباب قادر على الإبقاء عليه لأكثر من شهر في حملة.

الملك فرناندو، الذي لم يهدأ رغم السلام الناتج عملياً عن الإنهاك، نشر توّاً، من خلال جواسيسه والناس الذين يدفع لهم، خبراً عن أبي عبد الله أمي. فقد طلب أبوعبد الله الصغير وهوفي مقر إقامته في وشقة، حسب قوله، نجدة من المؤن من مجلس مرسية الأراجوني للهجوم على الأمير أبي عبد الله وقد منحت له. أي إن الملك النصراني وبينما يخفي الآخر الذي يستخدمه على هواه، يحاول أن يحقر لعبة النسخةِ الثانية التي تستخدمها أمي، أيضاً على هواها، ويفتري عليه بتهمة الخيانة. لم يكن أمامي وأمام مريمة من وسيلة أخرى إلا الضحك، بالرغم من كثرة خيانات الطرفين المتحاربين، ورغم التهيج والسأم الذي تسببه لنا الأمطار المتواصلة. إن التفكير بغضب أمي وهي تتلقى في وشقة بعضَ الحمير المحملةِ بالمؤن النصرانية، التي ربما كانت علاوة على ذلك مسمومةً، قد سلاّنا في ذلك المساء.

إن الأمطار الوفية، والصماء بالنسبة لمشاجرات البشر، لا تتوقف ليلاً أو نهاراً.

ظهرت في حصن برقونة حالةٌ من حالات الوباء، فقد مات واحد من الجنود في كتيبة كانت ترافق الأسرى منقولة من جيان إلى قرطبة. أُخلينا أنا وبلاطي المُضحك منها على مسؤولية رئيس الرهبانية العسكرية، الذي لا أدري إذا قام باستشارة ما سريعة.

نقلونا إلى قلعة كاسترو، لصاحبها قند قبره، رافع شعار «*واحد أحد عمل كل هذا*» . استقبلنا المضيف، الذي لم يكن قد شفي تماماً من جراحه في مقلين وأحد ذراعيه أُسند إلى حمالة من نسيج. إنه خشن، أجشّ الصوت مُوَقِّعَهُ، لكنه منفتح وحميم. جلده محمص ومنهك من تعرضه

لعوامل الطبيعة، ووجهه نقش بتجاعيد غير كثيرة لكنها عميقة. يبدوشخصاً متديناً جداً، لأنه إذا تصادف أحد معه عند الظهيرة أوفي المساء يوقف المحادثة عندما يسمع قرع النواقيس ويرتد إلى نفسه ويتمتم بصلوات قصيرة يسميها صلوات *التبشير*. شرح لي أنه بهذه الصلاة يُحيي ذكرى اللحظة التي هبط فيها الملاك جبرائيل من السماء ليبشر مريم بأنها المختارة لتكون أماً للنبي يسوع. وصارت كذلك دون أن تفقد عذريتها قبل أو بعد الولادة. يبدو لنا أنا ومريمة هذا الحدث معجزةً مبالغٌ فيها بقدر ما هي غير ضرورية.

ربما كانت هذه هي ميزات المعجزة: المبالغة واللاضرورة، كما لوكانت شيئاً إضافياً أوترفاً من الطبيعة، كي يُمَيَّزَ تَدَخُّلُ ما وراء الطبيعة دون أن يُتْرَكَ مجالٌ لأدنى حد من التردد. ومع ذلك فإنني أمقت المعجزات التي تتناقض مع الوضوح، بل ومع العقل. وليس تلك التي هي فوق العقل وتقوم على إظهار أقصى القدرات والقوى، سواء منها الطبيعية أوالبشرية. أمقت اللاعقلاني منها بل والأسوأ من ذلك المعادي منها للعقل. أن نفرض على الإنسان الركوع دون أي سبب يبدولي تعسفاً: إن إلهاً يفعل ذلك ليس جديراً بالاحترام. هذا ما يحدث لي مع العقيدة النصرانية التي تفصل بيننا أكثر: التثليث. إنه بالنسبة إلي شكل بشرى بائس لرسم شيء من غرائب الطبيعة، من الفظاعة. ليس من الضرورة تفسير الألوهية، لكن أيضاً ليس من الضروري أن تكون غير قابلة للتفسير. بالطبع يجب أن تكون فوقنا لكن ليس ضدنا فنحن من عملها. إنها تتخطانا لكنها لا تشطبنا.

القندة امرأة متفرّغة بشكلٍ وَرِعٍ لزوجها ولصلواتِ زوجها أيضاً، كما أعتقد. إنها صغيرة الحجم ، باهتة اللون، لكنها ورغم مظهرها الهش، لا بد أنها حديدية، لأنها في كل مكان، تتدخل وتعد بيتاً لم يكن جاهزاً لاستقبالنا. من الوقت القصير الذي تعاملت فيه معها وصلت إلى قناعة بأنها هي المرأة الناهية هنا. كل شيء، حتى زوجها، رغم ضخامته وانتفاخه، يتحول أمامها إلى كلب كبير غير مؤذ.

(على ذكر الكلاب: جاء *مرنان* معنا بناء على طلبي. وقد بلغ الخوف والحزن غير المحدودين اللذان رأيتهما في عينيه وأنا أمتطي جوادي حداً بدا لي غير إنساني فصله عني. كانت المرأتان ـ مريمة وزاهرة المحظية ذات العينين الزرقاوين ـ تسافران على تخت، وبين الفينة والأخرى كان يسافر معهما *مرنان* أيضاً. لكنه كان يتعذب ويخرج رأسه بلا كلل كي

يتأكد من أنني لم أهجره، وأنني أسافر معه، أمامهما أوخلفهما أوعلى جانبيهما، كان من الضروري إنزاله عن التخت ليخب إلى جانب جوادي لاهثاً وسعيداً. أنا واثق من أن *مرنان* يؤمن الآن بالمعجزات أيضاً).

ذكرتُ، بشكل عابر أمام القند، وجودَ نسخة عني في الجيش النصراني. نظر القند عَبْرَ النافذة دون أن يؤكد أوينفي.

ـ في الحرب كل شيء مباح ـ قال في الحال.

هؤلاء الرجال الأتقياء، كما أرى، أعداء سيئون. وأضاف بإعجاب في غير أوانه:

ـ ملكنا فنّي عظيم في أمور الحرب.

ومع ذلك أفهمني فيما بعد أنه كان يعرف بوجود النسخة الثانية عني عند أمي. إذن هوعلى اطلاع تام بما يجري في مملكتي، وهذا ما يبرهن على تَمَرُّسِ وفاعليةِ جواسيسه. لكنني لا أعتقد أن تقاريره من الصحة إلى حدٍّ أن تكون صادرة عن قريبه غونثالوالقرطبي. أولاً لأنني لا أثق بالقند وثانياً لأنني أزعم أن مصادره المباشرة أقل.

على كل حال ما يقوله يكتسي بعض الاحتمال. يقول إن أبا عبد الله، أبا عبد الله أمي كسب لقضيته من خلال أنصاره قسماً كبيراً من أهالي البيازين، وهم من المتعلمين والفلاحين، أيْ بكلمةٍ واحدة من المواطنين الراغبين بالعيش بسلام، كائناً من كان الذي يقوم على السلطة. على العكس من أهل أحياء المدينة، فقد استمروا في وفائهم *للزغل*. ولقد وقعت، حسب القند، سلسلة من المشاحنات بين هؤلاء وأولئك. والغرناطيون قذفوا النار بلا رحمة من مرتفعات القصبة القديمة على البيازين. أمر يقشعر له بدني أن يكون اسْتُخْدِمَ أقدم حصن، سابق حتى على بني نصر، من أجل هذا، أن يكون قد استخدم كي يسحق أخوةَ إخوتِهم. أشعر بكابوس لا يوصف حين أفكر أنه باسمي يسفك دمنا نفسه.

يخبرني القند بأن المعركة لم تكن متكافئة: أنصار أبي عبد الله كانوا أقل بكثير، وقوتهم أيضاً أدنى بكثير: لا يملكون سوى أيديهم وبعض الأسلحة البيتية المرتجلة. وكان أبوعبد الله ـ أي أمي ـ قد وعد بالحضور لتشجيع أنصاره. لكنه اكتفى بإرسال رسله باستمرار ليشجعوا المقاومين بينما بقي هوفي لوشة، التي يقيم فيها في الوقت الحاضر. يقنطني أن أخيب آمال من يحبونني حتى من خلال بعض الممثلين المحتالين.

صارت المحادثات بين أهل البيازين وأهل غرناطة أمراً حتمياً كما يبدو. عهد بها إلى الفقهاء الذين يعتبرون المدافعين الرئيسيين عن عمي في غرناطة، رغم أن قسماً صغيراً جداً ما زال يحمل رايتي. والنتيجة إن أمي ـ أعني أنا أوبالأحرى أبا عبد الله المزيف ـ التي عجزت عن فعل أي شيء آخر، اعترفت بعمي سيداً على الحمراء وغرناطة. وعززت بالمقابل، حسب الاتفاق، سلطتها ومواقعها في القسم الشرقي من الإمارة، وعلى رأسها لوشة التي لا يتحرَّك منها مثيلي، بينما أمي وابن كماشة خرجا إلى بيرة. أعرف أمي وأعرف أنها في الأعماق حققت ما كانت تسعى إليه. فهي تعي أنها كانت ستخسر حرب الأخوة القاتلة، لأنها لم تكن إلا وسيلة كي تعزز مواقعها في أحد قطاعات بلدنا. يعذبني بطلان الدم الذي يراق وما من دافع له إلا إرواء مؤامرة.

في كل مكان أرى وترى مريمة أيضاً مناورات. كل شيء يتحول إلى أخبار يلغي بعضها بعضاً. نجهل أَيْنَ تكمن الحقيقة، هذا إذا كان هناك حقيقة ما. لا أفهم ما الذي يريده ابن كماشة وأتساءل ما إذا كان يعمل في مساع خاصة مع عمي كي يواجهوا مجتمعين النصارى. (وهذا ليس سيئاً، لكن أشك بأن توافق أمي عليه، لا بد أن يقوم ذلك من وراء ظهرها.) بل إنه من الممكن أن يكون متعاملاً سراً مع النصارى.

أستخلص مما يقول لي القند، الذي غاب عدة أيام، ومن رسالة من ابن كماشة مؤرخة في بلش ما يلي: حاصر الملك فرناندو، على رأس جيش قوي، لوشة. قوة صغيرة من البيازين خرجت وهي على يقين بأن سلطانها سيكون هناك لتنضم إليه وتقوم بواجبها في الجهاد. أنصار *الزغل* سواء في غرناطة أوضواحيها لم يخرجوا لنجدة المدينة حذراً من أن يكون حصار لوشة مجرد حيلة من العدو، كما كان قد حدث في رندة، لكن الحصار ويا للفاجعة كان صحيحا، هذا إذا كان يوجد شيء صحيح في هذا. شَدَّدَ النصارى الحصار بخط من التحصينات والخنادق وسرث بين المحاصَرين شائعاتٌ مقلقة مفادها: إن كل هذا كان مسألة متفق عليها بين ملك أراجون وأبي عبد الله أثناء وجوده في الأسر. في الحقيقة لم يكن هناك أي شيء مزيف: فأبوعبد الله اللوشي كان بالفعل مزيفاً، لكنه ليس الذي يخدم النصارى. كان سقوط ربضٍ في أيدي الملك، وتسوية قسم كبير من الأسوار بالأرضِ، وموتُ أكثر المدافعين عنه ببسالةٍ ثم عدم حضور السلطان المزيف والاقتناع بأن غرناطة لن تنجدهم لأنّهم من جناح الأمير أبي عبد الله، كل ذلك دفع سكان لوشة للاستسلام. هذا ما فعلوه يوم التاسع والعشرين من أيار بعد مقاومة باسلة وعقيمة، الأمر

الذي عذّبني كما لوأنهم كانوا يقتلعون شعري. وقع الاستسلام على أساس الأمان للسكان والأولاد والخيول والدواب وكل ما يستطيعون حمله. هكذا بقي الجميع أحراراً باستثناء أبي عبد الله الذي احتُفِظَ به سجيناً عند الملكين النصرانيين ـ للمرة الثانية وأنا لم أتحرك إلا من برقونة إلى كاسترو ـ بهدف إخضاع الأندلس كلها من خلاله.

أقنعت هذه الأعمال أهل غرناطة التي لاذ بها كثير من اللاجئين اللوشيين، بأن سقوط لوشة لا هدف له غير تنفيذ ما اتفق عليه بين الملكين والسلطان، كجزء من ثمن تحريره، الثمن الخسيس المعيب الذي يتضمن تسليم بعض المدن بعد صعوبات مُخْتَلَقَة إلى هذا الحد أوذاك تغطية لماء الوجه.

ترك فرناندو فصيلاً في لوشة وأذاع أنه ينسحب مع أسيره أبي عبد الله إلى قرطبة. لكنه هاجم بعد أيام قليلة قلعة البيرة ودمر بمدفعيته نصف جدرانها إلى أن استسلمت حاميتها بشروط لوشة نفسها. ثم نقل معسكره إلى مقلين، التي كان قد هُزم فيها، في حملته الأخيرة، مُضيفي، قنذ قبرة، الذي أقدر من مدة غيابه أنه ذهب لمرافقة الملك ليعوّض عن هزيمته. أقدر ذلك من روايته لي بأنه بعد محاصرة الحصن حاربوه بمدفعيتهم، وكان بينها مدافع تطلق كرات نارية ـ هذا ما يحكونه لي فأفهم الآن بشكل أفضل شروحات غونثالوالقرطبي ـ : كرات ترتفع في الهواء وتقع على المكان المختار فتحرقه. سقطت واحدة منها على مخزن البارود فأجبرت جماعتنا على الاستسلام. يلجأ سكان المدن التي يحتلها فرناندو ـ ينزع عن عيني النوم تصورهم بلا حماية، محاصرين ومنهكين في ميادين صارت للكفار ـ إلى غرناطة. فيزيدون بذلك عدد أنصار *الزغل*.

الشيء نفسه حدث لمسلمي قلميرة وشلير وأليورة، الذين سلَّموا، بعد ما حدث في القلاع المجاورة، قلاعهم دون مقاومة. وكذلك فعل مسلمو مونتفريد الذين احترقت مستودعات مؤنهم وأسلحتهم، ومسلمو الدهى وشغرة والقلاع الأخرى على طريق العاصمة التي استولى عليها الملك، وأمدها بالرجال والمؤن والمدفعية بهدف إحكام الخناق ـ المحكم في كل مرة أكثر ـ على غرناطة.

أخيراً سيتوجه الملك فرناندو فخوراً وراضياً إلى قرطبة. يقول لي القند، إنه لن يتأخر هذه المرة، ومعه دائماً أسيره أبو عبد الله، الذي لم أعد أعرف ما إذا كان أبا عبد الله لوشة، أي أبوعبد الله أمي، أم الآخر الذي كان عنده، كما لا أدري ما إذا اختفى الزائدُ أم أُعدم. أوربما أن أبا

عبد الله الزائد هوأنا وليس غيري.

نقلوني وحدي إلى قرطبة على جناح السرعة. تم السفر ليلاً. قادوني، مجهولاً إلى قصر المطران مباشرة. [علي أن أنتظر هنا وصول الملك]

في كل مرة أستنشق هواء هذه المدينة، التي تفوح فيها رائحة لابدّ أن تكون رائحة الجنة مثلها، وفي كل مرة أتصور فيها عظمتها، التي ما تزال آثارها باقية، وفي كل مرة أكون شاهداً على صفائها وأتصور معنى الكونية الذي لا يفارقها، وأشهد اندفاع ثقافتها التي لم يتعدّ عليه سكانها المتعاقبون، يتعزز رأيي. إنه رأي صادر عن شواهد وفيرة، رغم أنها ليست طنانة كثيراً وعن إشارات موجودة في كتب مكتبة الحمراء وعن استنتاجاتي الجريئة، أيضاً. هنا في قرطبة لم يدخل العرب، كما لم يدخلوا أي مكان من شبه الجزيرة، على جيادهم، وإنما سيراً على الأقدام وواحداً واحداً. أريد أن أقول إنّ العرب لم يغزوا شبه الجزيرة عسكرياً إطلاقاً، كما جعلنا نعتقد مؤرخو هذا الجانب وذاك.

إن إسلام شبه الجزيرة ـ أتسلى بالكتابة إلى أن يعلن لي أحد ما سبب إحضاري ـ لا يعود إلى احتلال عربي قادم من أفريقية. وقد كلفني التوغل في النصوص، دون أحكام مسبقة، ومقارنة المعلومات والتواريخ ومحاولتي ألا أسمح لنفسي بأن أستسلم إلى فكرة مسبقة أريد البرهان عليها، جهداً كبيراً. إذ هذا هوخطأ الإخباريين الذين لم يكن لديهم في الغالب من برهان على تأكيداتهم غير الذي سبقهم إليه الآخرون.

في العام 711 للميلاد لم يكن قد مضى مئة عام على التاريخ الهجري (عرضياً: أيّ عُتُوٍّ في أن كل دين يتطلع إلى أن يبدأ معه تاريخ البشرية الفرور). طبعاً لم يكن شمال أفريقيا قد صار إسلامياً بعد ـ وكان دائماً يتبع ولا يتقدم التطورات الأندلسية ـ فكيف عربياً. أي حضور يمكن أن يكون للعرب وللغتهم وهم على هذا البعد المدهش عن دمشق. كيف سيحتلون، وهم قبائل رُحّلٌ قليلة العدد، إمبراطورية مترامية الأطراف وفي فترات قصيرة جداً كما يقولون: تونس في خمسين عاماً، مراكش في عشرة أعوام وشبه الجزيرة الإيبيرية في ثلاثة أعوام؟ وبأية وسائل؟ لم يكن ممكناً نقل الخيول ولا الأسلحة عبر هذه المسافات. وكيف استطاعت

سلالة ليست بحرية أن تعبر المضيق، الذي لم يكن عبوره سهلاً؟ ثم في كم من السفن؟ وكم من الأسفار؟

وأتساءل من يكون هؤلاء *المسلمون* الذين ظهروا هنا فجأة دون سابق إنذار. من كان ملكهم؟ ما أصلهم؟ ولماذا لم يدافع الأسبانيون، المشهورون بشجاعتهم وبعشقهم للاستقلال عن أنفسهم ضدهم وهم عشر مئة ألف وأولئك خمس وعشرون ألفاً نزلوا من سفنهم ودمروهم في ثلاثة أعوام؟ لكن هل دمروهم؟ لا أحد يدري. لا أحد يقول شيئاً عن هؤلاء الإشبان[1] الرومانيين الذين كانوا يقطنون شبه الجزيرة. لا يذكر بعد ذلك بكثير إلا أقليتين: اليهود والقوط، أي إنه على أرض اسبانية قاتل القوطيون مسلمي كتب التاريخ الغامضين: وهكذا اختصروا كل شيء بمعركة بين طرفين أجنبيين أمام حشد من السكان الأصليين، لا رأي لهم.

دائماً لفت انتباهي اسم طارق ـ الذي ورثه *جبل طارق* ـ الغريب جداً عن لائحة الأسماء العربية، والقريب من الأسماء الجرمانية، أسماء الملوك القوطيين لها نهايات مشابهة: بدءا من لزريق الدريك، وأَمَالاريك وتيودوريك وحتى رودوريك أودون رودريغو. من تراه يمكن أن يكون هذا القائد؟ كان للقوط الأشبانيين مقاطعات، إضافة للمقاطعات في شبه الجزيرة، في ما وراء جبال البيرينيه ـ سيبتيمانية ونربونة ـ وأخرى في شمال أفريقية تينجيتانة حول طنجة التي كانت تسيطر عليها. آخر ملوك القوطيين غيطشة كان قد عين حاكم هذه الأخيرة. وعندما ثار القند لزريق على أبناء غيطشة في بيتيقة طلبوا مساعدة من أخوتهم في تينجيتانة. جاء على رأسهم طارق: طبعاً على رأس القوطيين وربما مع بعض الدعم البدوي (دائماً كان هناك مرتزقة أفارقة ساعدوا ـ وأحياناً العكس ـ أحداً ما في هذه البلاد.) وهذا ما يفسر الانتقال من عدوة إلى أخرى من المضيق (الأمر الذي لم يكن استثنائياً بين أبناء الأمة الواحدة) ويفسر أيضاً الانتصار المبالغ فيه لعدة آلاف من الرجال (لأنهم لم يحتلوا وإنما أقنعوا. إذ بتدخلهم في معركة السلالة الحاكمة تدخلوا في معركة البيت الواحد.) ومعركة وادي لكة حدث محلي، ليس فيه أية ميزة قتالية، ذلك إنها قامت في أرض مستنقعية تسيطر عليها مضائق جبلية مرتفعة. ومع ذلك أُريدَ فيما بعد أن يُصْنَع منها نصر حاسم، نصر حاسم ليس على قسم من

---

(1) تعمدنا استخدام هذه الكلمة للدلالة على المرحلة التاريخية التي تدور فيها أحداث الرواية (المترجم)

الأندلس أو على كامل شبه الجزيرة وإنما على أوروبة كلها، أي إن الغرب كله أخضعه بعض البداة الآسيويين الذين وصلوا من أفريقية منهكين. إنه أمر لا يُصَدق إطلاقاً.

المحتمل هوأن الاشبان الرومانيين وقد ضاقوا ذرعاً بالخضوع للقوط وبالصراعات الدينية التي كان يتغلب التثليث فيها على التوحيد، أسقطوا الملكيَّة وتفرقوا إلى طوائف لارابط بينها تقريباً ـ وهوأمر معتاد بيننا ـ . لا بد أن محاولة إعادة الملكية الوحيدة التي حرضت عليها مجموعة من الشمال هي التي بدأت فيما بعد ما سُمي زوراً بحرب الاستعادة. ولماذا من الشمال؟ لأنهم كانوا الأقل تأثراً بموجة التحرر التي عمت بقية شبه الجزيرة، نظراً لصعوبة المواصلات بين الأخيرة وأشتوريش وبلاد البشكنش.

لكن ما الموجة التي أقصدها؟ الغالبية العظمى من السكان في ذلك العصر كانت إشبانية رومانية ونصرانية توحيدية، تتبع آريوس، كانت ملاحقة آنذاك بتهمة الهرطقة. كانوا ما يزالون يميزون بحاسة شمهم المرهفة عبق ثقافة روما، ويحتقرون ويخافون، في آن معاً، القوطيين الذين فرضوا عليهم حكومة أرستقراطية. إذن كانوا مهيئين لأن يفتحوا أبوابهم وقلوبهم لتيار يقدم لهم هَبَّةَ التجديد: ديانة هي أقرب إلى ديانتهم، وتجارة أوسع وأكثر إثماراً، وثقافة أغنتها بلاد فارس وبيزنطة، مُهَلْينة ومُرَومَنة من خلال سورية وأفغانستان والهند، ولغة ستحل محل اللغة الخاصة، أخت اللغة اللاتينية وقريبتها، لكنها ليست اللاتينية، التي لم تتمكن قط من النفوذ وفقدت امتيازها لأنها اللغة المستخدمة في الكنيسة التثليثية.

ومع ذلك فإن هذا التحول قد تم بالصبر المُدَوِّخ الذي يعمل به التاريخ. في الغزو لا ينتصر الأفضل بل ينتصر، دائماً وبسرعة، الأقوى وهودائماً أقل ثقافة ويقف فيما بعد إلى جانبه الشعب المستكين. ما حدث هنا كان العكس. تبنى الشعب الإشباني الروماني الثقافة الإسلامية مُبعداً من خلالها بربرية القوط، التي كانت تغتصبهم وكانوا كثيراً ما ينتفضون ضدها. وقد دخلت هذه الثقافة بشكل غير محسوس عبر التجارة والعلماء والمفكرين المؤثرين، وعبر السفارات الأدبية والفنية التي تتقدم إليهم مثل مرآة جَذّابة تنعكس فيها ـ وعلى الأخص الأندلسيون ـ أزمنة الازدهار الفينيقية والطرطيشية.

لم يحدث غزو ولا جاء العرب، فعلى امتداد تاريخنا كان هناك عرب

قليلون جداً. وسيقال لي في هذه الحال من هوإذن موسى؟ لكن، هل وجد؟ حسب قراءاتي كان عمره أكثر من سبعين عاماً عندما جاء، أي قائد بهذا العمر يُخاطر بمثل هذه المهمة؟ من أين جاء بجيوشه، حتى بعددها المحصور كما يؤكدون؟ أليست البطولات التي تعزى له هي نفسها التي تعزى إلى أي رئيس، مرات ومرات مع تغيير الإسم فقط؟ إذا كان قد وُجِد موسى فلا بد أنه كان شيخاً أو داعياً مبشراً. ربما أرسله الخليفة آنذاك أوالروابط الدينية الإسلامية القريبة لكي يتدخل لصالح الإسلام في الحروب الدينية بين التثليثيين والتوحيديين، لكن حتى هذا بعيد عن التصديق إلى حد أنني أرفضه.

ومن كان عبد الرحمن الأول، *الداخل*؟ يُقال إنه واحد من الأمويين الذين هربوا من مذابح العباسيين. ومع ذلك لا أحد يشير إلى القادة الفاتحين السابقين عليه. ما من بطل باسم عربي قبله، لا أحد شارك في معارك أوانتصارات كيف يكون ذلك، إذا كانوا يقولون وبحق إن العرب يحبون الخيال والمبالغة؟ وإذا لم يكن هناك فتح عربي، فماذا كان يصنع أموي في أقصى الغرب؟ لماذا جاء؟ هل من معنى لإنسان يهرب؟ ماذا تمثل شجرة عائلته،؟ حسب ما يقول هو يعود نسبه إلى محمد، وأي خليفة مسلم ليس كذلك؟ إننا نميل كثيراً لأن نضيف فروعاً ترتبط بهذه الشجرة المقدسة: عائلتي برهان ماثل على ذلك. إذا كان قد نُسب عبد الرحمن إلى الأمويين فلماذا اضطر أن يقاتل خلال ثلاثين عاماً ضد *الفاتحين العرب* جميعاً دون أن يسقط أحد مذهولاً أمام دمه وذريته؟ جميع الذين يصفونه يصفونه كجرماني: شَعْر ضارب للحمرة، بشرة بيضاء، عينان سماويتان، الصفات نفسها التي نقلها إلى وَرَثته. ولكي يُفسر ما لا يفسر خطر لأحدهم أن أمه من العرق البربري، لكن ماذا كانت تفعل بربرية عندها أولاد أمويون في دمشق؟

ببطء شديد استقرت الثقافة العربية، وببطء أشد اللغة العربية. عَبيد الرحمن (جمع عبد الرحمن) الأوائل لم يتكلموا العربية، كما لم يتكلمها وزراؤهم ولا المحسوبون عليهم، وكانوا يُسمون من يتكلمها عرباً دون أن يكونوا كذلك، وهؤلاء استقروا ببطء أشد من الاثنتين، إذ حتى عهد عبد الرحمن الثاني لم ينتبه الناس لوجود الإسلام فايوجينيو مطران قرطبة لم يعرف من هو محمد إلا عام 850 م وفي دير لير في نابارة. ثم إنه أعطي للإسلام في الأندلس تفسير مختلف تماماً، منفتحٌ ومُتفهمٌ مصدره خليط من الأَسْلَمَة والأَرْيَسَة وكان سلسلة من تعاليم التكامل الإجتماعي، الذي زعزع توازنه وصول المرابطين الأفارقة، الذين أجبرت الهجومات النصرانية

الأندلسيين على استدعائهم: كان وصولهم بداية الانحدار الأندلسي ورفع عقيدة التعصب، عدوة الجمال والعلم. (على سبيل الإضافة، بكم من السهولة يستخدم المؤرخون تعبير عرب *أفريقية*! فالقائد المرابطي يوسف - من القرن الثاني عشر - لم يكن يتكلم بعد العربية، إذ عندما استقبله شعراء بلاط إشبيلية بالمديح والأشعار لم يفهم عليهم، وكان جوابه واضحاً: «لا أفهم ما تقولون، لكنني أعرف ما تريدون: خبزاً، أطعموهم». هذا مثل محزن لكل ما أقوله).

ومع مضي الزمن وجد مؤرخو كل طرف من المناسب لهم أن يعتقدوا ويجعلوا الآخرين يعتقدون بفتح حاسم: فهوبالنسبة للنصارى يُبرر انهيارهم «بآثامهم» ، وبالنسبة للمسلمين تُعلي من شأنهم سرعة الفتح الهائلة. لكن هذا لا يكتب إلا في القرن التاسع، إنها معلومات مختلقة: بعضها مصدره الجنوب، مصر، وبعضها الآخر الشمال، تاريخ ألفونسو الثالث، الذي من بين حماقاته التي يرويها أنه مات في كوبدونغا، موطن أوّلِ مقاومة، قرابة ثلاثمئة ألف عربي بمعجزة من الله، الذي راجع نفسه: فعلاً إنها لمعجزة، إذ لا عرب كان هناك ولا الوادي يتسع لأكثر من خمسة آلاف شخص. ما أخرق الإنسان أو كم هوأعمى عندما يقرر قبول الخرافات التي تلائمه ويحطم البراهين التي تكذبه. كل هذه المسيرة الطويلة جداً من التمثُّل والهضم أنجزت، حسب هذه الخرافات في ثلاثة أعوام، ورغم ذلك فإن الهجوم المعاكس عليها دام ثمانية قرون وإن شاء الله يستمر أكثر.

كي نعرف من نكون، علينا أن نحسن النظر. فالثقافة والعمارة الأندلسية - كما يبرهن على ذلك مسجد قرطبة هذا - سابقة على الإسلام مع تأثيرات مااعتُبر الأفضل فيما بعد: ما هوشرقي، وريث التراث البيزنطي والفارسي. العرب، أهل الصحراء، كانوا يجهلون الملاحة والتفتن والعمارة الجميلة (سكان خيام على الرمل) ومهمتهم تحويل وليس نقل ثقافات كانت تتفوق عليهم. هنا في الأندلس، حيث وُلِدنا، نحن بني نصر، وُجِد الطرطيشيون الشعب الذي كتب قوانينه شعراً، ولم تُحَضِّرْهم روما نفسها بل على العكس: فالأندلس أعطتها خيرة أباطرتها وصقلت جنودها، تماماً كما منحت الإسلام فيما بعد أعظم عمارته ومعرفته الأدبية والعلمية، وأعطت أوروبة الزجل والخرجات والموشحات كي تُلهم شعراءهم الجوالين. في الأندلس - التي تأسر آسريها وتأسر زوارها الولهين أكثر - تعايشت جميع الثقافات وفيها أخصبت هذه الثقافة وتلك وأنجبت. وبسبب غلوالنصارى من جهة وغلوالمرابطين من جهة أخرى،

انطفأت نار شبه الجزيرة الرائعة، التي كانت بفضل الأندلسيين منارة باهرة.

إنها الأيام الأولى من شهر تموز. الحر في المدينة شديد جداً، إلا أنه لا يكاد يلحظ في مقر الخلافة القديم. فغرفه الواسعة محمية ومرطبة بالجدران السميكة، والسقوف العالية، الضوء المدروس ونوافير الفناءات. من نوافذه يبدوكل شيء أبيض: فالشمس تمتص ألوان الحجارة والواجهات والحيوانات والملابس. بين البياض ورعشة الضباب قرطبة مدينة شبحية. لكنَّ حرَّها ليس خانقاً وإنما ـ كيف أستطيع أن أُعَبِّرعنه ـ صحي: مباشر ورنان، مثل علامة من علائم الحياة.

أرى وأنا جالس في إحدى شرفات سجني، ليسموه كما يشاؤون، الجبال الداكنة ترتسم على صفحة الأفق وأرى جبل العروس. منذ زمن ليس طويلاً عرفت لماذا يدعى هكذا. فقد قام عبد الرحمن الناصر ـ مدفوعاً بحنين حبيبته الزهراء للثلج، ذلك لأنها ولدت في البيرة ـ بزراعة أعداد لا تحصى من أشجار اللوز في هذا الجبل كي تشبه، عند إزهارها، أفقاً من الثلج في شهر كانون الثاني. أمام ذلك البياض الفواح كانت زهراء تزداد يقيناً بأن براهين الحب يمكن أن تكون مطلقة. وكانت تبكي من السعادة في المدينة التي منحتها اسمها: الزهراء.

أحس بأن شيئاً ما سيحدث. لا أعرف بالضبط ما هو ولا لماذا. ربما لانعدام الأخبار اللافتة للنظر ولأنهم أحضروا معي أوراقي وكتبي، أوللتحفظ الذي يبديه المطران عندما يشير إلى مستقبلي. لا يكلمني إلا عن الدين، أوعن طيبة الرب، بينما تَخْفُقُ يداه الغليظتان والمثقلتان بالخواتم. أجاب على سؤالي عما إذا كان الملكان سيستقبلانني ـ وهوسؤال مخادع ـ بقوله:

ـ سيكون ما يجب أن يكون ـ وغَيَّرَ الحديث.

بدا لي جوابه تعريفاً للقدرية الجبرية التي يصموننا بها.

أخيراً أعرف شيئاً. فقد ظهر اليوم ابن كماشة في القصر بموقِفٍ خاطئ وطبيعة مدهشة، كما لوأننا التقينا منذ يومين فقط. أعرف أنه لن يحكي لي ما حدث بالتفصيل لا الآن ولا في أي وقت آخر. يجب عليّ أن أكتشفه بنفسي شيئاً فشيئاً. عليّ أن أستخرج أجزاء الحقيقة الموجودة

في روايته وأتصور الباقي.

أخبرني آنيّاً، بين إطراء على أمي وإطراءٍ على نفسه، بأن شروط تلك الفدية الأولى البعيدة المقترحة قد قُبِلت مع بعض التعديلات. وتقوم على دفع اثني عشر ألف زيناً سنوياً كجزية وأعترف بالخضوع الذي يجب أن يُقرّ، مع إعادة ألف أسير بالتدريج ممن ما يزال يحتفظ بهم أنصاري، إذ لا أعتقد أنه تم أسر أحد في المرحلة الأخيرة، وبالطبع تسليم الرهائن المتفق عليهم مع ابني أحمد، الذي سيكمل السادسة من عمره، هذا إذا لم أنسَ حساب السنوات التي قضيتها دونه. ويفرض علي أيضاً الإقامة في بلش في شرقية مالقة، التي ما تزال حاميتها مخلصة لي، بالمقابل يخولونني بحكم منطقة تمتد من وادي آش وبسطة وحتى بلش البيضاء والشقراء ومشقر مع شرط لا يطاق هوأنه عليّ أن أستولي عليها بجنودي، طبعاً بدعم منهم، خلال ثمانية أشهر محسوبة منذ سقوط لوشة، وهو الوقت الذي وقعت فيه من جديد على مرأى من الجميع في أيدي العدو مرّة أخرى. لقد مرَّ أكثر من شهر.

هناك شرط سري يمنعني من التدخل لصالح أبناء ديني عندما يهاجم النصارى مدناً تابعة *للزغل*. واضح أنهم يبغون تعميق الشقاق بيننا بإقامة إمارة مستقلة في القسم الشرقي من المملكة، يقدمون لي حكمها ويعفونها من طاعة غرناطة. سياستهم واضحة: يتعاونون معي كي أكونَ أنا من يخلصهم من عمي.

النتيجة من هذا الافتراض، إنه علي أن أختار بين حريتي المرهونة بالخيانة وبين الاستمرار في الأسر والمُعَرَّض فيه أيضاً إلى كُلِّ أنواع الخيانة والمصائب. لا تَشُكُّ أمي وابن كماشة بأنني سأقبل الأول، إلى حد أن الوزير جاء إلى قرطبة ممسكاً بيد ابني أحمد. بالتالي لا أدري إلى أي حد أنا مستقل في اتخاذ خيار مقر مسبقاً. ماذا أستطيع أن أختار بعد ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر من الأسر غير حريتي وبأي ثمن كان؟ ويظهر التواء الملك فرناندو واضحاً مرة أخرى.

يرفض ابن كماشة الحديث عن النسختين مني.

ـ شيء مضى. لم يعد هناك أي منهما. أجهل ما يمكن أن يكون قد فعل الملك بهما، لكنني أتصوره معك حراً. ليس هناك أبوعبد الله غير أبي عبد الله ـ ويضيف مبتسماً ـ تماماً كما أنه لا إله إلا الله.

ـ وهل ابن كماشة الآن رسوله؟ ـ أسأله بقصد خبيث.

ـ وابن كماشة رسوله ـ يجيبني ـ أنت قلتها.

ثم تابع بنبرة أقل حسماً:

ـ قال أعضاء المجلس الملكي بما أنك ستوقع اتفاق إعلان التبعية، عليك أن تُقَبِّلَ يديّ الملكين. اعترضت صراحة، فتوقيع المراسم، على عكس ما هو مُحتَمل، مهمّ جداً. قرر الملك بشهامة بأنه كان سيقدم لك يده لتقبلها لوأنك حر وفي مملكتك، لكن وبما أنك في مملكته يجب ألا يُقَدمها لك. هل هو ماهر أم لا؟

اليوم، 7 تموز، وقعت الاتفاقيات.

جاء رئيس الرهبانية العسكرية مارتين ده ألاركون إلى القصر ليأخذني. يلاحظ عليه موقف جديد فيه تراجع ولطف، فقد أصبحت أكثر من سجينه بكثير.

ـ كل شيء يصل، يا صاحب السمو ـ قال لي ـ . أنا سعيد لأنني حرستكم ولأنني أنا من سيسلمكم للملك.

ثم أضاف دون أي تعقل:

ـ لا أدري ما إذا كنتم تعرفون أنني كُلِّفت بحراسة ابنكم أيضاً.

كانت الشوارع والنوافذ والمشربيات والشرفات والساحات مليئة بالحشود المتنوعة. أحضر لي ابن كماشة ملابس مفرطة في ألوانها بالنسبة لذوقي، لكنني أتصور أنها الثياب التي ينتظر الشعب النصراني أن يرى فيها ملكاً مسلماً. وكان السادة وأصحاب المؤهلات يظهرون في ملابس فاخرة ليست أقل ألواناً من ملابسي: جعلهم ملكاهم يعتقدون أنَّ عظمة الأمراء تكمن في ثراء ونوعية أتباعهم. كان يسير حولي الفتيان الذين سيحلون محلي في الأسر، وكل الذين جاؤوا من مملكتي ليشهدوا إعتاقي لا يقل عددهم عن خمسين شخصاً. كان الموكب بشكل عام بهياً ولا أعتقد أنه سيخيب أمل الحشود التي خرجت لتتأمله.

الليلة الفائتة نمت نوماً سيئاً. استيقظت مبللاً بالعرق تماماً. لا بد أنني عانيت من كوابيس، نسيتها عندما استيقظت، فقد كنت أشعر بضيق وضغط شديد على صدري. أفَقْت هذا الصباح جاف الفم ورأسي كأنه حُشِيَ بالقطن، وكأنني قضيت ليلة طرب ورقص وخمرة. منعني الإنهاك الجسدي من أن أضفي أية جلالة على الاحتفال. كنت أرغب بالانتهاء وأرى نفسي وكأنني شُطرت شطرين (بإرادتي هذه المرة ولحسابي دون مكائد سياسية): فمن جانب أقوم بالحركات التي حذرني منها

المستشارون بشكل آلي، ومن جانب آخر أنظر إلى حركات الآخرين من حولي بعقل حزين ودونما رغبة. لم أشعر في أية لحظة بأنني، كما كان يقول ابن كماشة بتشامخ، أعيش *لحظة تاريخية*، وحتى لو عشتها، كان همي الأكبر أن تمرّ، لأستحمَّ في ماء بارد، أغمضَ عيني، أريح رأسي على مخدتي، وأفلت من كل الذين يجهدون أنفسهم بلمسي والسلام علي بين لمص وتملق.

أصابني، عند خروجي من القصر، في العتبة تقريباً، نزيفٌ أنفيٌّ، لكنه كان والحمد لله خفيفاً. تذكرت النزيف الذي أوقفه لي عمي أبوعبد الله، يوم لم تكن متوقعة كل هذه الأحزان. بلغ التفكير به عندي حَدَّ أَنَّ عينيَّ ابتلتا بالدموع، بينما كان طبيب الملكين، الذي وقعت عليه مسؤولية لم تخطر بباله، يزرع الغرفة جيئة وذهاباً، يتعرق ويضع كمادة باردة على أنفي. مريمة (أنا طلبت حضورها من كاسترو مع مارتين ده ألاركون، ولا أدري ما إذا جاءت معه أو مع قند قبرة). هي التي أوقفت النزيف بطريقة بسيطة جداً: وضعت حد الخنجر على غضروف الأنف ورأسي ملقى إلى الخلف. طبعاً مع احتجاج الطبيب الذي كان يحرك رأسه غير مصدق، كما لو كنا أنا وزوجتي مجرد متوحشين مسكينين. يجهل أنَّه إذا كان يعرف شيئاً عن هيبوقراط وجالينو، إنما بفضل أطبائنا ومترجمينا.

في هذه الظروف غير المؤاتية، لم أستطع أن أتعرف جيداً على الملكين، اللذين رأيتهما للحظة في غشاوة. بديا لي أقصر مما كنت أنتظر. والملك يشبه بشكل مدهش المنمنة التي أرسلها إلي. عينا الملكة زوراوان قليلاً وفاتحتا اللون، جاحظتان وكثيرتا الحركة، أصابتني متابعتهما بالدوار، وجهها دائري، وخداها سيتهدلان قريباً، توحي بأنها شقراء، لكن ليس كثيراً. أعترف أنها خيبت أملي بعد أن تَشَرَّبْت بالاحترام الذي كان يحدثني به عنها دون غونثالو القرطبي.

رأيت دون غونثالو بين قادة آخرين. كان متميزاً عنهم. وجه إلي تحية رفاقية بيدِيه، فسّرت أنه يقول لي بود «إلى اللقاء» . عرفت فيما بعد أنه كان قد عُينَ تواً قائداً للوشة، فلم أستطع أن أسعد بذلك.

على يميني كان يسير مارتين ده ألاركون، الذي ركع على ركبته ـ تراها اليسرى؟ ـ أمام الملكين. أما أنا فقد انحنيت ومددت يدي دون أن أتذكر جيداً ماذا كان يُنْتظَرُ مني أن أفعل. قالوا لي إن حركتي فُسرت من النصارى على أنها علامة مذلة وخضوع: الشروع بالركوع وطلب يدي الملكين لتقبيلهما. بينما فسرها أتباعي على أنها مجاملة بين ندين.

ومهما يكن فإن الملك أخذني بين ذراعيه، كما لوأنه يريد أن يرفعني، زيفاً لأنني كنت قد استويت.

بعدها ألقى ترجمان تافه، مطنب وفصيح، خطاباً كتبه ابن كماشة. كان المديح الذي ترنم به لرحابة صدر الملكين وأريحيتهما من الغرابة والرنانية بحيث أن الملكة رفعت أصابعها إلى فمها تأمره بالسكوت. قال الملك بعد المقاطعة ما لم يكن بحاجة لأن يترجمه أحد:

ـ أنتظر من طيبكم أن تقوموا بكل ما يجب على الرجل الطيب والملك الصالح أن يفعل.

فكرت بيني وبين نفسي أنني لا أستطيع أن أقول الشيء نفسه: فأنا أنتظر دوماً أن يفعل العكس.

أخيراً أقسمت على القرآن بأن أنفذ بنود الاتفاق الذي كان قد وقع، وانتهى الاحتفال بهدية مكونة من مجموعة من الرِّحال والملابس والخيول قدمها لي الملكان. أمرت دون أن أنظر إليها بأن توزع بين مرافقيّ.

ـ ولدي العزيز (اسمحوا لي بأن أناديكم هكذا نظراً للتقدير الذي أحفظه لكم) في يدكم أمر انتهاء هذه الحرب التي استمر بها أسلافكم وأسلافنا قرابة ثمانمئة سنة، وإيقاف استنزاف الأرواح والممتلكات التي ضيعت الممالك. لقد عيَّننا الله ملوكاً كي نقود شعوبنا على طريق السعادة وليس الضياع. فكروا في الأمر جيداً. لنا الشرف أنا والملكة أننا اخْتُرْنا كأداةٍ كاثولكية يُنفذ بواسطتها ربنا غايته القديمة بتحويل إسبانية إلى أكبر أمة في أوروبة. وعلينا أن ننجز هذا الشرف، بعيداً عن المطامع والمشاعر الشخصية. لأن المملكة مملكته والشرف والمجد له. فإذا رضيتم معنا بما نقدم لكم، لن تخرجوا أقل ربحاً.

هذا، أوما شابهه، ما قاله لي الملك في القصور الملكية عندما كنا نودع أنا ومريمة ولدنا وحضر الملكان دون سابق إعلام. كنت أشعر ـ بينما الملك يتكلم ـ بأن عيني ابني أحمد الكبيرتين، البريئتين والجميلتين جداً مغروزتان فيّ وتوجعاني. ولم تكونا مختلفتين عن عيني الكلب *مرنان*. لذلك أجبت:

ـ ما من حرب تدوم ثمانية قرون يا سيدي. ما كان بيننا طوال هذا

الزمن شيء ولا شك مختلف.

عندما انحنت مُرَيْمَةُ لتُقبل أحمد خفت أن ينهار الإثنان. لم يحدث هذا. قالت له، وهي تداعب وجهه المليء بالذهول، بصوت متحشرج قليلاً لكنه هادئ:

ـ كن وديعاً وقم بواجباتك كمسلم صالح وتذكرنا دائماً. أنا ووالدك لن ننساك أبداً.

التفت الطفل إليَّ بعينيه من جديد.

وضعت الملكة إيسابل يدها غير النظيفة تماماً على ذراع مريمة.

ـ تأكدي انني سأسهر على تربية هذا المُسيْلم بنفسي، وسيعامل كما لوكان أميراً قشتالياً. اذهبا وأنتما مطمئنان.

شرعنا في الحال الطريق إلى بلش بصمت، كي لا نضاعف أحزاننا فيما بيننا. لم أعد ملكاً منفياً، ولا ملكاً أسيراً، ربما لم أعد ملكاً. لم أكن أدري ما أنا.

عرفت ذلك تماماً عندما دخلتُ أراضينا، فالأشخاص أنفسهم الذين كانوا يسمون عمي *الزغل* ـ أي *الشجاع* ـ كانوا يسمونني *الزغيبي* ـ أي *الشقي* ـ وبحسب نبرتهم كنت استطيع أن أميِّز ما إذا كانوا يقصدون الشفقة أو الاحتقار.

في الليلة الأولى في بلش، بعد الاستقبال الحار بكت مريمة دون ضجة ولا عزاء. لم أسألها عن السبب: فقد كان عندها أسباب كثيرة. قرأت لها معانقاً لأسَلِيَها وأسلي نفسي قصيدة أهداها الملك المعتمد، ملك إشبيلية، وكان في شبابه لا يهوى السلاح كثيراً، إلى الرضي، ابنه المفضل، الذي كان كثير الشبه به. كان قد كلَّفه بحملة على لورقة، لكن الرضي، الذي لم يكن للكبرياء الحربي عنده مكان، تظاهر بعدم الاستعداد: لم يتردد الرضي في الاختيار بين هول المعارك وجاذبية الدراسة والقراءة. قبل الوالد العذر عن معرفة وكلف بها الابن الأصغر، ربما لأنه كان يفهمه، وربما لأنه، هونفسه، لم يتأخر في التأكد من عدم جدوى أسلحته في مواجهة أعدائه. لكنه ولكي يسخر من الأمير الشاب والمثقف ويلقنه درساً، خصَّه ببعضِ الأبيات الموجَّهة، دون قناعة كبيرة بكثير من السخرية، إلى أجيال الأمراء الجدد، الأندلسيين كآبائهم أوربما أكثر:

الملك في طّي الدفاتر   فتخلّى عن قود العساكر
طف بالسرير مسلما   وارجع لتوديع المنابر
وازحف إلى جيش المعارف   تقهر الحبر المقامر
واطعن بأطراف اليراع   نُصِرْتَ في ثغر المحابر
واضرب بسكين الدواة   مكان ماضي الحد باتر
أوَلَشت ارسطاليس إنْ   ذُكِرَ الفلاسفة الأكابر
وأبوحنيفة ساقط   في الرأي حين تكون حاضر
وكذاك إنْ ذكر الخليل   فأنت نحوي وشاعر
من هرمس من سيبويه   من ابن فورك إذْ تناظر
هذي المكارم قد حويت   فكن لمن حاباك شاكر
واقعد فإنك طاعم   كاس وقل هل من مفاخر

ثم قرأت ردّ الرضي، الذي تأثر بالنبرة الفكاهية والمرة للقصيدة، على والده:

مولاي قد أصبحت كافر   بجميع ما تحوي الدفاتر
وفللت سكين الدوا   ة وظللت للأقلام كاسر
وعلمت أن الملك ما   بين الأسنة والبواتر
والمجد والعلياء في   ضرب العساكر بالعساكر
لا ضرب أقوال بأقوال ضعيفات مناكر
قد كنت أحسب من سفاهٍ أنها أصل المفاخر
فإذا بها فرع لها   والجهل للإنسان غادر
لا يدرك الشرف الفتى   إلا بعسال وباتر
وهجرت من سمّيتهم   وجحدت انهم أكابر

فرددت ببطء شديد البيت ما قبل الأخير:

لا يدرك الشرف الفتى   إلا بعسال وباتر...

بقيت الكلمات مرتعشة للحظة في الهواء. رفعت مريمة رأسها. كانت قد توقفت عن البكاء. نظرت إليّ وجهاً لوجه، مدركة عظمة رسالتي إليها. خفضت عينيّ خامدَ الهِمة. غاصت برأسها في صدري كانت تبكي من جديد. تمتمت:

ـ ليكن ما يريده الله، يا أبا عبد الله، لكن ليكن للإثنين معاً.

هناك أكثر من بلش: بالنسبة لي لا يوجدُ إلاّ بلش واحدة لا تنسى: تلك التي تقع أمام البحر، واتخذت فيها، في وحدة داخلية مطلقة وليلة من ليالي تشرين الأول والقمر هلالُ، أخطرَ قرارٍ في حياتي.

اليوم تلقيت خبر وفاة والدي. في الأسابيع السابقة على وفاته عانى من أكثر الهلوسات رعباً وأكثر الكوابيس هولاً: فَقَدَ عقله قبل أن يفقد حياتَهُ. ها قد أصبحنا وجها لوجه أنا و*الزغل*، أحب الناس إليَّ وأكثرهم احتراماً في هذا العالم. *الزغل* ليس قادراً على الصلح مع ملكي النصارى: سيدفع شعبنا إلى الموت مفتوح العينين، وحتى آخر رجل وآخر دينار. وأنا قد وصلت إلى نتيجة مفادها: إن أحداً لا يستطيع أن يغمض عينيه، وأحداً لا يستطيع أن يقول: «أنا مستقل ومختلف» ، ففي حياة كل إنسان لحظة، عليه أن يقرر أنه سيقف مع هذه القضية أوتلك. إنها لحظة الاختيار القاسية. [وكان أنَّ الحياة هي التي اختارت: بسرعة كبيرة وبعكس ما كتبت تماماً].

فوق كل اعتبار أحب السلام وأرغب به. فالسلام هوالأرض التي يكبر فيها أبناؤنا، ونكون فيها حقيقة نحن أنفسنا، إنه الوردة التي تتسع لكل الرباع وهوحلم الله الحقيقي، البستان الذي نشتغله بعرقنا ونزرعه، وزرعنا فيه الأمل. إذن لماذا الحرب؟ إنها موجودة دائماً، كبيرة وصغيرة، هذا إذا كانت هناك حروب صغيرة، لأن أي حرب تدمر أي إنسان، هي بالنسبة له الأكبر. وحيث ما وضعت عيني تكون موجودة: تنظر بمحاجرها الغائرة، تمدّ جذوعها المبتورة، سيقانها المبتورة، مرعبةً بلا حراك. الحرب أرهب من الموت، لأن الموت طبيعي، والحرب لا، رغم أنها تبدو للإنسان بفعل العادة، كذلك. «إذا أردت السلام فاعمل الحرب» هكذا يقال وهذا كذب. ذلك كان تاريخ كل امبراطوريات هذا العالم القاسي: الحرب بحجة السلام، وتحويل الأرض إلى مقبرة وإعلانه سلاماً. بهذا الزيف يمتلىء فمنا. وكل هدنة هنا استراحة كي يلعق المتحاربون جراحهم ويستعدوا لهجوم أكثر وحشية. ترتعش الأرض ملطخة بالحروب والفواجع تماماً كما يرتعش الفضاء هذه الليلة مرشوشاً بالنجوم. ودون انقطاع، دون انقطاع.... ومن يريدها؟ تراهم الرجال الذين يغادرون بيوتهم وأسرهم وقلوبهم تلتفت نحو ما تركوا؟ تراهم الرجال المتحمسون الملتهبون بوعود الجنة الأبدية، التي تمحو من حولهم جنة هذا العالم

المتواضعة والقصيرة؟ تراهم الرجال الذين يقنعون بأن الله يطالبهم بأن يقتلوا أمثالهم باسمه؟ أم أنهنّ النساء، المتلفعات بالحداد والمترملات اللواتي يُضعن نصف حياتهن في الحروب، هذا النصف الذي دونه لن يكنّ كاملات؟ أم الأطفال، الذين كل واحد منهم هونفسه ولايتكرر، المقطوعون بالحروب مثل دودة قطعها أحد ما قسمين، خمسة، سبعة أقسام، قبل أن تتابع غير مبالية.؟ لا. لا. لا. إن الذين يريدون الحرب هم أنفسهم الذين عليهم أن يستأصلوها وينهضوا بحياة شعوبهم ويحسنوها ويتوجوها بالسعادة والنور والازدهار...... لكن للخبز الذي يطعمونهم طعم الدم، والرفاهية النادرة التي يمنحونها لهم تقوم على عظام الرجال الآخرين. نحن أكلة لحوم بشرية، مثل أولئك الذين كان يحدثني عنهم مولى، بعضنا يلتهم بعضاً. والنصر يقوم دائماً على القضاء على الآخرين: النصر تدمير. من يتكلم هنا عن السلام؟ لماذا لايمكن تحقيق السلام إلا بالسلاح؟ لماذا لاتستطيع أجمل القضايا أن تدافع عن نفسها بنفسها؟ المسالمون من عليهم أن يدافعوا عن السلام، لكن من هم المسالمون؟: المتواضعون، العزّل الملاحقون، الرحماء، الصرحاء، الصغار، أي من ليسوا نافعين. غير النافعين من أمثالي، الذين يسمحون بأن يخدعوا عن معرفة، ويحلمون بالسلام في لياليهم المنبترة. لأنني لست من ابتدع العالم. لأنني لاأستطيع أن أتجاهل الواقع. لأنه ليس مسموحاً لي أن أغوص في الكتب من جديد، ولا في الرغبات الغامضة. هذا ما كتبه برأيي المتنبي:

وإنْ عَمَرْتُ جعلتُ الحربَ والدةً والسَّمْهريَّ أخاً والمشرفيَّ أبا

إذن عليّ أن أتظاهر أنني مازلت كما أنا، حتى ولوقررت، من الآن فصاعداً، أن أصير آخر. عليّ أن أقوم بدوري كرجل بلا عزيمة ترضي أحداً، لأنه إذا وصل الأمر بأحد إلى الرضى عني، فهذا يعني أن كل شيء قد ضاع. ومن الضروري إنقاذ ما يمكن حتى الآن إنقاذه.

سأخدع الملكين النصرانيين، متظاهراً بتنفيذ البند السري من معاهدتي معهما. سأخدع أمي متظاهراً بأنني أطيع أوامرها بالوداعة نفسها التي طالما رأتها فيّ. سأخدع ابن كماشة الذي لايعيش إلا لخداعنا جميعاً في بحثه عن مصالحه الخاصة. سأخدع *الزغل* بالتظاهر بأنني أشرع معه، إذا لم يكن هناك من وسيلة أخرى، حرباً لن أستطيع أن أشرع بها أبداً، لأنني أفكر أنه «أنا» أكثر مني نفسي: ما رغبت أن أكونه. سأخدع شعبي، متظاهراً بعكس كل أمل، كيلا يغرق في اليأس. سأخدع

نفسي، متظاهراً بأنه ما زال هناك معارك نخوضها وانتصارات نحرزها. الوحيدة التي لن أخدعها هي مريمة: فدونها لن أكون قادراً على الشروع بطريق التظاهر.

أنظر إلى النجوم هذه الليلة فأستنتج أنه لابد من وجود عوالم أخرى يزهر فيها السلام. وأشعر بأنها تنظر إليّ مثل عيون الموتى الذين قاتلوا من أجل ما عليّ أن أقاتل من أجله دون أية قناعة. أنا مثل جواد أضاع في السباق فارسه ويسمع صوتاً يقول له: «خبّ» . لكن إلى أين؟ أين الغاية؟ يأمرونه: «أنت خبّ» ويخب في العماء، دون سؤال عن السبب أو الغاية، دون أن يدري من ينظر إليه، أو من يكلمه، أو ما يُنْتَظَرُ منه.

أترك هذه الأوراق، التي ليس عليّ أن أستمر بالكتابة عليها، هنا. خارجها عليّ أن أقوم بجهد كبير. لاأدري ما إذا كانت أعمالاً خطرة، الشيء الوحيد الذي أعرفه هوأنها ليست غريبة عني. حانت ساعة الشهامة، الكرم، التي - أتوقع - ستقودنا إلى المكان الذي تقودنا إليه الأنانية: كل الدروب متقاربة ولاشيء يتبدل، أياً كان الذي يقع عليه الاختيار. كرم متعارض ظاهرياً مع العقل، لكن ما العقل إن لم يكن شيخوخة البراءة. اليوم، وقد توفي والدي في وحشة الجنون، أتذكر عيني ولدي أحمد في قرطبة: كان ينظر إليّ فخوراً بي، ففخر الطفل أب فخور. عليّ أن أتقدّم منذ الآن، مثل طفل - بدافع التخيّل، لأنني لست طفلاً - محاولاً تجاهل ما تمليه عليّ الفطنة: محاولاً إرضاء شعبي، وهوبدوره طفل آخر، كي يثق بي ويرتاح إليّ. كما لوكان عندي من القوة ما يكفي كي أتحمل عبء تحريره من القلق....

في هذه الليلة من هلال شهر تشرين الأول وقد وهن إيماني وضاعت ثقتي، يرعبني الخوف من ألّا أخدع أحداً: لا النصارى، ولا أمي، ولا *الزغل* ولا حتى نفسي. يرعبني الخوف من أن تكون مريمة الوحيدة التي سأتمكن من خداعها.

سأترك هذه الأوراق التي لم تُجْدِ نفعاً هنا.

مع انقضاء النهار تقريباً أنتبه إلى أنني أكملت الرابعة والعشرين من عمري.

III . عالية وتتلألأ

- ما تلك القلاع؟
عالية وتتلألأ
- الحمراء ياسيدي
والأخرى هي المسجد...

نشيد ابن عمار

ست سنوات مضت منذ أن توقفت عن الكتابة على هذه الأوراق القرمزية. صار عندي الآن متسع من الوقت للعودة إليها. لم يبق لي غير الوقت.

عندما يُفرض على إنسان، منذ ولادته مهمة، مجيدة كانت أو بائسة، فإن على حياته أن تنتهي بانتهاء هذه المهمة. وإلا فما يفعل بما يفيض؟: هل يرتب ذكرياته في صندوق الذاكرة المبلبل، ينقلها، يركبها، ويعيد تركيبها، يحاول أن يحدد مواقعها، يحاول أن تشكل فيما بينها قطعة متماسكة؟ لكن هذا مستحيل، لأن الواقع لا يشبه ما يُروى منها ولا من بعيد. فكل واحد يروي ما رأى، أوتصور أنه رأى، أورغب أن يرى، وإذا ما أراد آخر أن يرويه، فإنه يرويه بطريقة مختلفة، بل وبطريقة متناقضة، حسب انطباعاته، أوغاياته. يحدث هذا حتى ولوفعل الجميع ذلك بأمانة (الشيء غير المحتمل) حتى لوفعل الجميع ذلك بإنصاف، ودون أية غاية لعرض ما كانوا قد خمّنوه قبل أن يبدؤوا (وهذا مستحيل) .

كنت مجبولاً بالشك، والملكان النصرانيان ليس عندهما أدنى شك.

كانا يواظبان على قضية محددة ومعقولة، بينما كل ما باستطاعتي أن أفعله هوأنني أغلفها بالغموض، والإرباك والتأجيل.

ما كان *الزغل* ليستطيع عن طريق الحرب إلاّ أن يحقق دمارنا في زمن أقصر أوأطول. فالنصارى يملكون إيرادات أكثر منّا بكثير، إضافة إلى التصميم القطعي في اللحظة الأفضل، لحظة الحماسة والنهضة. وكان المقطع الشعري التالي يمزّق نياط قلبي ويحتويني مرّةً وأخرى: «ما من شيء يجدي، كلنا يعرف ذلك». لا مكان إلاّ للاحتمال ـ لا مكان لليقين ـ وإطالة العذاب يوماً آخر، شهراً آخر، عاماً آخر، في القنوط المقنّع الذي نعيش فيه. فاتفاق استسلام قرطبة ولوشة قد مهّد الطريق إلى غرناطة، وأنا وقّعت بوعيي على نهايتها، التي هي نهايتنا.

مُنِحَ أتباعي في شروط الاستسلام صفة المدجّنين، وحقّ أن يستمروا في بيوتهم والتصرف بممتلكاتهم وأن تكون لهم مساجدهم وبيوت عبادتهم، وأن يُعفَوا من الضرائب وإيواء الجنود ومن الخراج لمدة عشر سنوات، وكذلك الحق شبه اللاحق بالرحيل إلى أفريقيا دون أن يتعرضوا للعقوبات، وأن يكون ذلك على حساب بيت المال الملكي. أي إنه ونظراً للتسليم بأن القضية خاسرة، كان هذا يخفّف من مأساة الخاسرين. على العكس من أتباع *الزغل*، الذين لم يُمنحوا أي حق، ويستطيعون، لمجرد الرحمة بهم، أن يقطنوا في أحياء المدن التي يسكنونها كأحياء للمسلمين.

لم يعد تطلعي الأقصى هوالانتصار، فذلك غير معقول، وإنما أن أكون مهزوماً بأقل ضرر ممكن. لكن أيضا من غير المعقول ألاّ تدخل تلك *السخاءات* حيّز التطبيق إلا بعد أن أكون قد سلّمت غرناطة مع كل أراضيها، وطردت عمي قبل كل شيء. قبلت، متنازلاً، دهاء فرناندو، لكن ليس بحماسة أن أكره نفسي على ذلك، وإنما بحماس أن أواجة هذا الاستسلام في كل فرصة تتاح لي. في شروط الإستسلام هناك بنود مثل: «عندما تُفتحُ مدينة وادي آش، فإن جلالتهما سيتابعان الحرب ظاهرياً ضد أبي عبد الله الصغير كما يفعلان الآن مع *الزغل*، كي يتمكن أبوعبد الله من تنفيذ ما تعد به هذه الاتفاقية، وكأنّه حمل على ذلك بالقوة». إذن كانت تقدم لي فرصة أن أخون قومي بذريعة حمايتهم، مما يسوّغ أية خيانة أرتكبها بحق من يجبرونني على الخيانة بهذا الشكل. تلك كانت غايتي من كل خياناتي وكل تمرداتي، ومن خلال كل الهفوات وكل الخدائع.

قليلون هم أخوتي في الحرب، الذين صدّقوا وعود سلام النصارى. كانوا مقتصرين عملياً على أهل البيازين، وكنت بالنسبة لهذا السلام مثل

مجرى وحيد له، ولتحقيقه تحولوا إلى أنصار لي غُلاة. يهينون في كل يوم أهل غرناطة، أنصار *الزغل* بالشتائم فمهَّدوا بذلك الطريق لما كان الملكان الكاثوليكيان يعملان للوصول إليه: التنافس والشقاق. ومع ذلك لم يتأخر الطرفان في الوصول إلى شيء مشترك بينهما: يقينهم بأنني كنت خائناً لكليهما. كان عليَّ للوصول إلى ما كنت أنشده ـ وأنا بعيد عن معرفة ماهيته معرفة أكيدة ـ أن أغامر كتدبير أوَّلي، وأضحِّي بذلك.

كان في غرناطة مملكتان، يفصل بينهما نهر دارة، وكان الناس يتشاجرون في الشوارع والميادين والساحات الصغيرة يومياً. كلّ حزب يتطلع إلى الإمساك بالمدينة والقضاء على الآخر. أردت أن أُسرِّع وقف النزف. تركتُ بلش ومثلتُ ذات ليلة في البيازين. كان ذلك في 14 تشرين الاول من عام 1486 . مثل أنصاري عندما رأوني شخصياً بعد الخروج من صلاة العشاء، وتُوِّجت في تلك الليلة للمرة الثانية بين المشاعل التي تروح وتغدو مجرجرة شعرها الأحمر في ظلمة الخريف التي صارت رطبة. رفعتني مجموعة من الشباب على أكتافها وصعدت إلى أعلى أحد الصهاريج. مكثت هناك مرة أخرى وحيداً، دامع العينين تلفني الهتافات المتألقة للذين طالما انتظروني. كانوا يصرخون :

ـ رعاكم الله العلي القدير وأدامكم ذخراً لنا.

ـ شكراً يا أبنائي ـ أجبتهم والسيف بيد والدرع بأخرى. شكراً لكم لأنكم خاطرتم بحياتكم لإنقاذ حياتي ولأنكم وثقتم بي بشرف ودون حدود وعرفتم كيف تنتظرون هذه اللحظة بلا قنوط. أعدكم بأن حُميَّاكم لن تذهب هباءً.

لم أكن أؤمن بشيء مما كنت أقوله لهم، لكنني حاولت ولصالحهم أن يصدقوني. أمرت بأن تُتلى معاهداتي من قبل المنادين في ساحات الربض. قدَّمت حمايتي لكل الذين التفوا حول قضيتي. وكان الشعب على الطرف الآخر من نهر دارة يعيب عليَّ، وهويتذكر ما حدث في لوشة، بأنني بعت نفسي للنصارى وكان لا يثق بي، لكن الصحيح هوأنه كان يتلهف للسلام بحماسة أهل البيازين أنفسهم.

رفض عمّي *الزغل*، الذي كان يحتل الحمراء أن يستمع للرسائل التي كنت أقترح عليه فيها أن يقابلني. كنت سأعرض عليه براءتي وحججي وغايتي، بل وكنت سأقدم له تنازلي عن العرش، إذا هوأدرك الدوافع التي حملتني على توقيع شروط الاستسلام، بهدف عدم تنفيذها. لكنه أعار اقتراحاتي كلها أذناً صماء. بعد يومين أعلن الحرب عليّ.

كان صباحاً عميقا وصافياً. تلقيت الخبر كمن يتلقى دفعة. ترنحت، أسندت يدي إلى حافة إحدى النوافذ التي تطل على الحمراء الشامخة، تقطعها خضرة السبيكة، بجمالها الذي لا يعكره شيء. ضد عميّ، وكان بالنسبة لي رمزاً لكل شيء، كان علي أن أقاتل. كبحت علامات انهياري، وصرفت رسل *الزغل*. أمام الهضبة الحبيبة رحت أفكّر. شيئان يجب أن يكونا عندي واضحين: إن الأمير أبا عبد الله كان يعتبرني تابعاً في خدمة النصارى، وإن ابن كماشة كان على حق عندما نبهني إلى أن الانتصارات الآن يجب أن تكون جزئية ويومية، لأرسّخ لنفسي في كل حالة جزءاً من النجاح. كان عليَّ أن أنسى الكلمات العظيمة والأفكار الكبيرة: فقد ماتت للأبد. الحقيقة إن ما كان يخبِّئه لي التاريخ لم يكن قدر البطل ولا المنقذ. وكان عليَّ أن أنفذ، بأفضل طريقة ممكنة، عمل النملة الحاسبة، المزدراةِ والمحتقرةِ، التي تعمل في الصمت والظلمة على استمرار قريتها.

أرسلتُ بالتالي أعلن السلامَ على امتداد الجبهة. واستدعيت هرناندو البيّاسي ثم حاجبي وكاتب أخباري. كان يعيش في الكاوديت، التي كان ذهب إليها فارس مدجن، يدعى بوعبدالله. أرسل معه صديقي ابراهيم ده مورا، مترجمي منذ تتويجي الأول في وادي آش، رسالة يطلب منه فيها أن يأتي إلى البيازين كي يأخذ على عاتقه محادثاتي مع الملكين الكاثوليكيين، التي كنت أتوقع أنها ستكون في كل مرَّة أكثر تعقيداً. رأى هرناندو البيّاسي الدخول إلى البيازين في غاية الخطورة فلم يقبل. أسفت له لأنني كنت قد تعرفت عليه عندما دعوت كبار أنصاري من الفرسان الأندلسيين بعد تحريري للاجتماع في الكاوديت. ولم يأت أحد تقريباً فكلمني رئيس حرسي الحاج، كي يسليني، عن أحد معارفه ويدعى هرناندو بيّاسي ويعرف العربية، تقاسمنا معه في تلك الليلة الحزينة العشاء والمسكن، اللذين قدمهما لنا بكرم في بيته.

وبما أن عنان المعركة بيني وبين عمِّي قد أفل، كان من الأفضل حسمها بأسرع وقت ممكن حرصاً على توفير الأرواح والأموال. لهذه الغاية قبلت مساعدة قشتالة، وحاولت أن أنسى أن الذين كان عليهم أن يموتوا لهم أسماء وكنى وأمهات، فالشيء الوحيد المهم إنما كان تقليص عددهم. ضد عصيان *الزغل* الذي كان يستعد لقتالي حتى آخر نصير له. بالفعل أعلن علماؤه أن كل من يتحالف مع النصارى ويساهم في خططي خارج على *الله ورسوله*. هكذا حوَّلوا الشجار إلى جهاد والدينَ إلى سلاح فتَّاك بين الأخوة في الدين الواحد. حتى أن *الزغل* قرر أخذ البيازين عنوة بجيش يرأسه مع قائد قواته، رضوان بنيغش. استدعى لذلك أهل غرناطة

وسكان النواحي. قال لهم:

ـ دم وأموال هؤلاء الناس الموجودين هناك أمامكم هي لكم. والذين ينضمون إلى النصارى لا يستحقون غير السيف والاحتقار.

زوّر موقفي وشوّهه، واتهمني جهراً بالارتداد عن الدين وبالفساد وأثار ضدي أنصاره، الذين لم يقتصروا على أهل غرناطة وإنما كانوا أيضاً أهل بسطة ووادي آش وضواحيهما.

كان قد أحاط هؤلاء الأخيرين علماً بمخططه: إذ بينما يشق الغرناطيون طريقهم عبر باب الحديد وباب الهنيدة وقشتر وباب برطل وباب البنوس وبوابة البيض وباب أبي فاس، عليهم أن يصعدوا عبر الفرجة ويهاجموا باب فحص اللوز، كي يحاصرونا نحن الموجودين في البيازين من كل جانب. وهذا ما فعلوه. في اللحظة الحرجة التي كان سيحدث فيها العدوان، جمعت أنصاري، خطبت فيهم كي يثقوا بي ثقة عمياء، إذ إنَّه لم يكن باستطاعتي أن أكلِّم حتى هؤلاء بوضوح كامل.

ـ العائق الرئيسي أمام السلام ـ قلت لهم ـ هوالآن أبوعبد الله وقواته المجنونة، إنهم يكرهوننا أكثر مما يكرهون النصارى ويرمون إلى قتلنا ذبحاً بالسكاكين وإغراق شوارع البيازين بدمائنا، وليس غير دأبهم على القتل والدم ما فرّق بيننا كأخوة. أقسم لكم بالله وبنفسي إنَّه لا يوجد أي سبب آخر.

واتجه أبناء البيازين، بمساعدة غونثالوالقرطبي، ـ وليس العكس كما كان يتهمني *الزغل* ـ إلى أبوابهم حسني الانتظام وأتوا على أعدائهم ـ آه وأسمِّي من كنت أشاركهم الإيمان والله والتاريخ والمدينة وكل شيء بهذا الشكل ـ ففرّقوهم. كنت أرى من موقع قيادتي كيف كان نصري الأول يتم على أبناء رعيتي أنفسهم وكيف كان القدر يلعب ببواعث البشر. تراجع المنهزمون بفوضى وقد فقدوا الثقة بقواهم فأحكموا إغلاق أبوابهم وثغورهم. فلم يبق لهم أية امكانية للتواصل، حتى المادية منها.

بينما كانت المشاجرات الجزئية تتواصل، والشتائم والضرب بالحجارة يومياً، استدعى سلطان الحمراء قادة مالقة وبسطة ووادي آش وبلش والمنكبّ وأنحاء أخرى. تعاهدوا بصوت واحد على أن يعملوا ويقدم بعضهم المساعدة لبعضهم الآخر، إذا ما هوجم من قبل أعدائنا بالدين. حاولت أن أرسل ممثلين عنّي إلى ذلك الاجتماع كما حاولت أن يلتقي فقهاء كلا الطرفين كي يوقِّعوا على السلام، راغباً أن أقنعهم بنواياي، وهو مابدا لي وقتها أسهل مما لوهزموا. وما من جدوى:

انفجرت حنقاً من صمت *الزغل*، فأرسلت أبا القاسم، المالح، الذي كنت قد سميته وزيراً، إلى قلاع بلش والموجية ومالقة لإحاطتهم علماً باتفاقيات السلام مع فرناندو وكيف أننا سنثير غضبه فيما لولم نرعها. انضمت مالقة والموجية إليَّ. ولم تفعل بلش الشيء نفسه، وكان قائدها أبوالقاسم بنيغش، معلمي في السياسة.

ـ الخائن دائماً يلقى دعم خيانة الآخرين. قل لمولاك أن يتذكر دروسي. يا ليت أباه اكترث بحديث النجوم. ـ كان هذا جواب بنيغش.

كم تكرر منذ ذلك الوقت أنني رأيت الحكام يؤخذون بعناد رعاياهم، التي ما أن تفلت حتى يكون من المحال لجمها. كم تكرر ورأيت منذ ذلك الوقت أن ما يرغب به المرء يطفح كثيراً حتى لا يعود بالإمكان التعرف عليه، وأن العاطفة التي كثيراً ما نستثيرها ببرود تتملكنا بهذيان أكبر مما لوكنا نشعر بها حقيقة، مثلها مثل النور المنعكس في مرآة، يبهرنا ذلك النور الذي أشعلناه ليتأمله الآخرون وليس نحن. هذا ماجرى لعمِّي *الزغل*. ربما كان باستطاعتنا أن نتفادى ذلك لوأننا التقينا على انفراد، بعيداً عن تشدد من يسمِّيهم كلٌّ منَّا أتباعه.

أمام رفض بلش التخلي عن التزاماتها مع *الزغل* زحف فرناندو إليها وحاصرها: ستكون بلش بوابة الوصول إلى مالقة. كان ذلك يوم العاشر من نيسان 1487 . وعندما وصل الخبر إلى غرناطة جمع *الزغل* أناسه الذين تحالفوا ضدي،. معاهدته معهم كانت تتطلب إيفاءً أكثر خطورة وسرعة مما هومتصور. طلب منهم المثول فقرروا الخروج لنجدة بلش عملاً بما أقرَّ قبل أسابيع قليلة. وأمر عمِّي كبير الفقهاء أن يمسك القرآن مع غمده بين يديه وقال للقادة:

ـ أقسموا بالكلام المكتوب هنا إنَّهُ ما من أحد منكم، حاضراً كان أم غائباً، سيفعل شيئاً أويقول شيئاً أوينصح بالقيام بأي عمل ضد قضيتي ولصالح قضية ابن أخي مادمت على رأس هذه الحملة لإغاثة أخوتنا.

خرج من غرناطة، التي ترك فيها حامية قليلة، يوم التاسع عشر من نيسان. عندما تبدت له بلش كان حصار النصارى لها قد تأكد براً وبحراً. خيَّمَ في قلعة ابن تيمز. كان على عجل من أمره في خوض المعركة والعودة، وبالتالي قام بالهجوم على العدو دون تروٍ. وارتفعت صيحات حربهم بين كروم العنب الخضراء.

سيطرتُ في هذه الأثناء على غرناطة دون إراقة دماء تقريباً. حدث ذلك يوم التاسع والعشرين من نيسان. وصعد مسلم عجوز متسوِّل

وخنزير، كان يبيع العطر للنساء في مدخل الحمامات العامة في الأعلى، إلى برج باب مزدل القريب وأغلق على نفسه فيه. ربما كان قد دفع له أحد أتباعي: لم أعد أؤمن بمجانية السلوك. في الأعلى رفع العجوز عمامته عن رأسه، فكّها وربطها على عكازه الذي كان يتعكز عليه وبدأ يصيح:

ـ حمى الله أبا عبد الله! حمى الله ابن مولاي الحسن! فهومن يعمل لصالحنا. لنكن أوفياء له، حماه الله.

ردت عليه أصوات أخرى وارتفعت صيحات تأييد واستنكار من الأسطحة والأسوار، حتى لامست مسمعي في البيازين. لم يكلفني كثيراً إقناع أهل غرناطة، الذين كانوا عزّلاً، بتأييد قضيتي. استوليت على الطلسم، الذي هوالحمراء، وصرت سلطان غرناطة الوحيد. كان صباحاً حزيناً، رغم الزغاريد التي كان الموالون لي يكسرون بها نور الحدائق الخالص ويهزونه. كان الخصي نسيم بانتظاري أمام قصر يوسف كما لوكنت قد استدعيته، حيّاني بالابتسامة نفسها التي رأيتها على وجهه في الفجر الذي خرجت فيه إلى اللسانة. اهتم بمريمة وأبنائي. أراني الغرف المزينة، والبرك النظيفة، والحمّامات التوّاقة للاستخدام. لم يكن ضرورياً التلميح إلى آرائه ولا إلى أيٍّ من الفريقين ينتمي. فهو لم يختر بيني وبين عمّي، لم يكن عنده دافع لذلك: فموقعه كان الحمراء، ووفاؤه له، وسهره لمن يشغله.

عندما وصل الخبر إلى جيش *الزغل*، تراخى في المعركة وتراجع دون نظام قبل أن تتسع العمليات. النصارى، الذين كانوا قد رفعوا الحصار ليتوجهوا ضده، وأحكموه باندفاع أشد، وعندما وقع الربض في أيديهم ضيّقوا عليه الخناق فانحلّ جيش عمي، وعاد الجنود إلى بيوتهم، معتبرين أن بلش قد ضاعت. طلب المحاصرون أمام قرار العدو بالدخول عليهم بقوة السلاح، وانعدام إمكانية النجدة، الاستسلام. وجلوا عن ميدان المعركة يوم 3 أيار.

تراجع *الزغل* إلى ألمرية، التي كان يحيي النجار مايزال يحكمها. هزمه خائن، حسب قوله، فلجأ إلى رمز الخونة. لم يكن قدره ليغفر له مثل هذا الخطأ.

مع استسلام بلش استسلمت قراها والمناطق الواقعة إلى الشرق من مالقة، بما فيها حصن قمارش، وبهذا انتقم النصارى لهزيمتهم المفجعة في الشرقية، مستخدمين عمي كأداة، وهوالذي كان قد تلقّى فيها لقب الشجاع، كما تلقى فيها آسري في اللسانة، قائد آل دونثلير، هذا إذا كان

هو من أسرني، لقب مركيز قمارش. إن التاريخ يغطي أو يكشف أوراق اللعب على هواه كما يفعل عادة.

في غرناطة اتخذت ثلاثة قرارات. القرار الاول أن أعود بأسرتي إلى الحمراء. أقامت أمي، التي طارت فرحاً، في قصور والدي. أخذ نسيم على عاتقه أن يأتوني *بهرنان* من الشرقية. رأيته يصل مقيَّداً ذات صباح. لابد أنه حلم مرات كثيرة بلقائي واستيقظ على الوهم مرات كثيرة، فقد نظر إليَّ بحزن، متخشِّباً غير مصدق. لم يقطع الحبل ويقفز نحوي إلاّ عندما سمع صوتي ينطق باسمه. فوجَّه إليه الخادم، الذي كان يرافقه، ضربةً، لأنه اعتقد أنَّه هجم عليّ، اعترضتها بذراعي، فجرحتني. اكتشفت فيما بعد أن *مرنان* بال على ثيابي من فرحه.

كان القرار الثاني توقيع اتفاقيات جديدة مع فرناندو، كي أرى كيف تطورت مطالبه وما التبدل الذي لحق بها. من أجل ذلك عدت وأرسلت المدجن بوعبد الله الدويدي إلى الكاوديت بهدف أن يأتي معه بهرناندو البياسي، وهومثلي قليل النزوع إلى الحرب، بعد أن ضمنتُ الهدوء الداخلي للمدينة (رغم أنه كان هدوءاً نسبياً، كما تبين في الحال). يشترط عليَّ في الاتفاقيات الجديدة تسليم غرناطة «عندما تحين الظروف المناسبة» ـ الشيء الذي لم أكن مستعداً لقبوله إطلاقاً ـ وأن أتلقى بالمقابل إمارة مكونةً من المدن المشار إليها في لوشة، إضافة إلى كامل شنيت ووادي المنصورة والقسم الشرقي من جبل البشرات. وكان تأييد وزيري الجديد المالح ـ الذي عبثاً حاولت معه تبديل ابن كماشة الملتوي ـ قد كوفيء بناحية أندراش، وخصصت خيرات أخرى لأشراف آخرين. ويسمح فيها لأهل البيازين أن يسكنوا في منطقة غرناطة بكل حرية، مع إعفائهم من الضرائب لمدة عشر سنوات. بالمقابل نحن مجبرون على الوقوف إلى جانب النصارى لقتال *الزغل*.

القرار الثالث الذي يتناقض مع الثاني، كان إرسال سفير إلى سلطان مصر المملوكي قايتباي أتوسله النجدة ضد أعداء ديننا. فكتب السلطان لمطران كنيسة القيامة في بيت المقدس، التابعة لسلطانه، يحثه أن يكتب إلى ملك نابولي ليكتب بدوره إلى ملك قشتالة طالباً منه الاّ يتدخل في أمور الأندلسيين وأن يغادر أراضينا. [كلام، ليس أكثر، ظهرت آثار طلبي بعد سنتين ـ عندما كان الملكان يحاصران بسطة ـ إذ جاء فرنسيسكيان من بيت المقدس، يحملان رسائل من ملك نابولي والبابا انوسينسو الثامن

ينصحان الملكين بإنهاء حرب غرناطة. وكانت العبارة غامضة إذ لا يعرف ما إذا كانا يطلبان منهما أن يتخليا عن الحرب أم يسارعا في كسبها. علمت فيما بعد أن الملكة منحت الفرنسيسكيين مرتباً سنوياً قدره ألف دوكادو لمدى الحياة وكسوة فاخرة جداً، اشتغلتها بنفسها، ليغطيا بها قبرالسيد المسيح. كانت تهديدات قايتباي بالانتقام ضعيفة، إضافة إلى أنها كلامية فقط تماماً مثل التحذيرات البابوية، لأن فرناندو طلب في العام 1488 اذناً من البابا، منحه له، ليبيع قمحاً للمملوك، كي يضع حداً للمجاعة في سورية. وقد غطى فرناندو بثمن القمح نفقات حرب غرناطة. إن هذه الصفقة ـ قال الماكر في طلب الاذن ـ تساعد مصر ضد تركيا «التي هي من تهددنا في الحقيقة بقوتها المتنامية». كان هناك، وكما يلاحظ، مصالح أكثر من اللازم وكلها خاصة ومعاكسة بطريقة لا تسمح لأحد أن يساعدنا، نحن الاندلسيين].

لم يكن فرناندو ليبالي بأن يصبح الطين أكثر بلّة فيما يتعلق بخياناته. فقد اعتقد، بعد أن أخذه التكبر لسهولة حملة بلش، بأنه قد حان يوم استيلائه على مالقة، لكن مالقة ونظراً لأنه قد أخضعني له، كانت خارج مداره ومشمولة بسلامي، فتظلمت أمامه بواسطة ابن كماشة ـ الذي كان يحكمها باسمي ـ وبواسطة قائد شرش القشتالي، وكانت خاضعة لنا منذ ما حدث في الشرقية. أجابني فرناندوالذي كان يجري الاحتيال في دمه بأنه إذا كانت القصبة فعلاً إلى جانبي فإن حصن جبل الفار تابع *للزغل*، ويقوم عليه أحمد *الزيري*. وأضاف بشيء من السخرية، إنني وعملاً بمواد الاتفاقية الاخيرة، مجبر على أن أرسل له قوات تتعاون مع قواته. كانت سياسته بعيدة المدى تقوم على الرد على أية مطالبة بمطالبة مُلزمة. أرسلت له خمسين أسيراً نصرانياً واعتذاراً بأن لديّ من الاشغال ما يفيض عني للبقاء في غرناطة. وفي الحال أصدرت أوامري لابن كماشة لأن يضم قواته إلى قوات *الزيري* ـ الذي وبعدد أقل بكثير من الجنود كان قائداً أفضل بكثير من الآخر ـ متظاهراً بأن هذا استولى على المدينة وحاميتها بتخطيط سري ومباغت.

كانت مالقة مدينة الاستمتاع بالنسبة إلينا، فقد أحسن الذين سبقونا اختيار مستقرهم على المنحدرات الساحلية من الجبال المليئة بالكرمة واللوز والتين والزيتون وسهل خصيب تحميه الجبال نفسها، على حافة البحر، والحصنان، السابقان علينا كثيراً، كانا يرتفعان مسيطرين على الكفر، واثقين وفريدين، تصل بينهما ممرات تحت الارض، ويتباريان بمناراتهما وراياتهما أمام البحريات الذاهلة. وقد حولتها تجارتها الهامة

ورسوخ حصونها إلى مدينةشامخة ومطمئنة إلى نفسها بين المنخفض الذي يرويه وادي الحرص والشرقية الوعرة. تذكرتها في ذلك الصيف الحار، كما رأيتها في مراهقتي، زرقاء بيضاء، مستطيلة بربضيها، يزينها حزام من البساتين والجنان، تحت سماء شفافة دافئة. تذكرت الابراج الجديدة التي كانت تحرس حيَّ أهل البندقية، أسوارها العريضة، صرَّتها، أبراج دور صناعتها السامقة، التي تلعق أقدامها الأمواج، أحياءها المتسلقة والمسالمة، تلالها الناعمة وغوطتها الغاصة بأشجار البرتقال، ربيعها الذي لا يتبدل، حياة أهلها السعيدة... وحدها مملكة، فكيف يمكن ألاَّ تثير الطمع؟ هذا ما حدث لها على امتداد تاريخها..

دخل كبار أغنياء مالقة ـ ليس للمال دين ولا مثل غير نفسه ـ في محادثات سرية مع فرناندو، لكن حاكمها أمر بقطع رؤوس من يوقعون على الإستسلام، بمن فيهم أخ ابن كماشة. وأجاب على عرض جديد للملك:«لا يوجد في أراجون وقشتالة من الكنوز ما يكفي لشراء ولائنا»وما كان من فرناندوأمام هذا الرفض إلاَّ أن شد رحاله من بلش وتوجه إلى مالقة. كان ذلك في اليوم السابع من أيارمن عام 1487 . وجاء باثني عشر ألف فارس وخمسين ألف راجل. تقدم عبر نزل بزميليانة، بينما أغلق فصيل بقيادة القشتالي غارلثران ده ركيسنس الفجّ. [بعدها أرسل إلي بهذه السوابق مع مارتين ده ألاركون لتكون لي درساً.] كانت هذه القوات تكفي لتحيط بالمدينة، لكن فرناندو كان يبحث عن نصر سريع وأكيد: كان يخاف عراقة التمرد والجلد في مالقة. وبناء عليه زاد من امدادات الحصار: أُنْزِلَتْ من السفن المدفعية الصغيرة، بينما اندفعت المدفعية الثقيلة قادمة من أنتيقيرة، ومن فنلندة وصلت سفينتان أيقظتا الشواطيء الحالمة، أرسل فيهما ملك الروم [الذي سيصبح حما ابنه] مدافعَ من عيارات مختلفة، وكمية كبيرة من البارود ورجالَ مدفعية وصيانة مُجَرَّبين. سارع إلى هناك أيضا الألماني مايسترو بيدرو وسانثيومانسة ونيقولا ده بيرنا، والبرتغالي البارو ده براغانثا وسبّاكون فرنسيون كثيرون وعدد لايحصى من المرتزقة من أماكن أخرى من أوروبا.

كان وادي العبور مُرَاقَبَاً من جبل الفار ومن جانبٍ آخر هضاب الجبال الشمالية. أستطاع ذلك الجيش العرمرم، رغم خسائره الكثيرة، أن يطل على المدينة ويغلق حلقة الحصار براً وبحراً. وقد رد المالقيون بشجاعة ووضعوا الفسطاط الملكي هدفاً لرماياتهم مما اضطر فرناندو إلى التراجع به إلى ما وراء أحد التلال. كانت الايام الاولى تجريبية بالنسبة للمحاصِرين وكانت قواته تتفتت مثل ملاط سيء الخلط، فطلب،

كإجراء معتاد منه، حضورَ الملكة التي كانت في قرطبة. دب موكب إيسابل، الفاخر بمهارة، الحمِيَّةَ في الجيوش وقرر الملك تحت ضغط زوجته استخدام أثقل مدفعية عنده، ولم يكن قد استخدم حتى ذلك الحين إلا المدفعية الخفيفة لاحتلال المدينة بأقل الاضرار: كان الخراب كبيراً وعددالقتلى لا يحصى. ساعد تشديد الحصار بالاضافة إلى ذلك، على دقة الرماية، وزاد احتلال أحد أرباض المدينة العالية من قدرتهم على التدمير.

أرسل عمي من عدرة مجموعة من المتطوعين، حاولت أن تقوم في بلش بمناورة تضليلية، اخترقت المراقبة ونفذت إلى الميدان، فساعدت على إيجاد مخارج جديدة، رغم أنها كانت في كل مرة اكثر صعوبة. لم تجد أي نفع. كان الجوع يزداد مع كل دقيقة، نفذ القمح واستبدل بالشعير. مما اضطر إلى استخدام إجراءات صارمة، صودرت جميع الاغذية وخزنت، وصار يُمنح للمقاتلين أربع أوقيات من الخبز صباحاً وأوقيتان ليلاً، وتقلّصت التعيينات حتى اختفت. فالتهم المالقيون وقتها حميرهم ودوابهم، ثم خيولهم وبعدها كلابهم، وقططهم ثم الفئران وكل أنواع الحيوانات النجسة. وهم بهذا لم يفعلوا أي شيء سوى تأجيل موتهم. لجؤوا إلى نواة النخيل المطبوخ والمطحون وقشور الاشجار، وإلى ورق الكرمة والدوالي المفروم والمتبل بالزيت. لم يبق في المدينة من الأشياء التي لاتؤكل إلا وأكل. انتشرت أمراض سوء التغذية والتسمم وتضاعفت الوفيات ومع ذلك تابع الشعب مقاومته العمياء. الذين كانوا لا يقومون بأعمال الرماية ـ النساء والشيوخ والاطفال ـ راحوا يرممون بعزم جهيد وقلب شجاع الدفاعات ويجهزون المؤن، يجففون عرق الجنود ويخففون من تعبهم إلى أن كانوا يقعون هم أنفسهم محتضرين، منهكين من الوهن. استغاث المالقيون الرائعون طالبين نجدة لم يمنحها لهم احد، [أرسلت لهم سرية من الخيالة المتطوعين سراً، لم تتمكن من دخول المدينة]. كنت أرى، وأنا أعض على قبضتي، مساءات غرناطة تدمى، وكان دماً مالقياً ما أراه.

حاول مركيز قادش أن يشتري *الزيري* بناء على طلب الملك. قدم له مدينة قوين وأربعة آلاف دبلة ذهبية وعطيات أخرى لوكيله وقائد قواته وضباطه. بصق *الزيري* في وجه الوفد. وبما أن الحصار كان يطول أمام العناد اليائس فقد انضم إليه انتهازيون ومغامرون جشعون، تواقون للثروة من جميع أنحاء شبه الجزيرة ومن خارجها. وصل عدد الجيش النصراني إلى تسعين ألف رجل وانتقل مجد *الزيري* من لسان إلى لسان. لكن نقطة ضعف ذلك الحصار كانت شيئاً آخر أصابني ذلّه. فقد استُدعي

ابن كماشة إلى المعسكر النصراني. استجاب لأمري بعد ان هُدِّدَ بالموت إن رَفَضَ، وبعد ثلاثة أشهر من المعاناة نظّم بين صفوف الذين انهارت معنوياتهم، حركة تمرّد ضد *الزيري* وسقطت المدينة.

في الثامن عشر من آب من عام 1487 في شهر رجب وفي عزّ الحر، دخل قومندار ليون ـ وهونفسه أول من دخل الحمراء أيضاً ـ من أبواب مالقة على رأس فرسانه. في التاسع عشر منه سقط جبل الفار بعد أن مات المدافعون عنه. وأرْسِلَ *الزيري* ـ له المجد ـ مكبلاً إلى مطمورة بائسة في قرمونة. وكانت آخر الكلمات التي قالها في وداع بلده: «أقسمت بأن أدافع عن وطن وشريعة وشرف من وضع ثقته فيَّ. لقد أعوزني من يساعدني على الموت في المعركة. ليس ذنبي أنني بقيت حياً».

كان قد مات في مالقة عشرون ألف أندلسي، أما الخمسة عشر ألف المتبقون فقد باعهم الملكان النصرانيان بستة وخمسين ألف ألف مرابط. وبقيت المدينة مثالاً في التنكيل لما تبقى من مدن لم تسقط وفيها نكث فرناندو بكلمته الأخيرة وما قبل الأخيرة. سطا على كل الممتلكات، استدعى شوكته النقيب ألونسو يانيث فاخاردو ليأخذ على عاتقه أمر البيوت التي يجب أن تأوي اليها جميع نساء المدينة الشابات. [ومنحت له بشكل خاص جميع بيوت القوادة التي تقوم في مملكة غرناطة، وحصل من خلالها على ثروة باهظة، عند هذه المكتسبات ينتهي سيف الشجعان]. وبذلك تحولت المدينة الميسورة والسعيدة ثم البطلة إلى مدينة للدعارة والرق، صار إلى ذلك جميع سكانها، دون استثناء، حتى الاطفال. وكانت بليتهم بقدر بسالتهم. لأجل مالقة اعتصرت القلوب جميعها ألماً وتألمت الأرواح كلها وذُرِفَ دمع لا ينتهي. ولم يبق عند أية مدينة أو مكان في الغربية رغبة بالمقاومة، وعبثاً حاول أهلها المطالبة بالسلام المبرم: فقد حُوِّلوا إلى عبيد وأخضعوا للطاعة دون قتال، ولا حصار ولا عناء. وعانيت عذاباتهم ووجدت نفسي، كما كانوا يجدونني، مسؤولاً عن المأساة.

لأن ماحدث في مالقة، بعد الوعود التي أعطيت لي ونقلتها بنفسي، دَفَعَ المسلمين للتمرد عليّ والمطالبة بالقيادة *للزغل*. الغرناطيون عادوا إلى غيِّهم، بينما أصاب التردد حيَّ البيازين، ولم يُبقِ على رأسي وسلطتي إلا تعزيزات غونثالوالقرطبي. وهكذا فإن مساعدة فرناندو لم تمنح لي لوجه الله: إذ كان علي ان أسلم غرناطة بعد ثلاثين يوماً من احتلال القسم الذي حافظ عليه *الزغل* من المملكة. وبهذا وجدت نفسي من جديد في

مفترق الرغبة بأن يقاوم عمي بقدر ما يستطيع، وأن أهيئ نفسي للقتال عندما يتوقف هوعن فعل ذلك، فأرسلت إليه من وراء ظهر الجميع، سفارة تعرض عليه رأيي فعاب عليَّ بأنني غشّاش ونذل، ولم يتكرم بالاصغاء إليها، حذرني من جهته، فرناندو المرتاب، بأن أي محاولة للمصالحة بين *الزغل* وبيني تعني خرق ما تم الاتفاق عليه واتحاد ضد قشتالة، التي ستطلق الزمام لحرب لا هوادة فيها. شكوت لغونثالو القرطبي، خلال حفل غداء، من تشدد ملكه غير المتفهم.

ـ يا صاحب الجلالة ـ أجابني ـ لقد مضت الأزمنة التي كان يرفع فيها الفرسان مثلهم باليد نفسها التي يرفعون بها السيف. ومضت الأزمنة التي يتصارع فيها بطلان ليتقرر بعدها مصير الممالك التي يمثلونها. الحروب صارت مختلفة اليوم. وهي تربح في المستشاريات أكثر مما تربح على أرض المعركة. أنا لا أفهم بالمستشاريات، ولا أحب أن أفهمها، وأؤكد، كما قلت لكم في برقونة: أن مكانكم هوآخر ما أرغب باحتلاله. لأنه إذا كان ملكنا غامضاً في سلوكه، فهوواضح جدا بإعلان هدفه بالقضاء على سلطتكم مهما كلفه الأمر. ثم إنه يقاتل أيضا أولئك الذين لا يظهرون استقامة في نواياهم وأساليبهم، وهؤلاء يجب أن يأسفوا لبلادتهم أكثر مما لكونهم خدعوا. المتضررون من ملكي، يا صاحب الجلالة، ليسوا كذلك لأنهم أكثر وفاء، وإنَّما لأنهم أقل ذكاء. ستأتي الأيام التي تتذكرون فيها ما أقوله لكم في هذه الساعة وستعطيني الحق، هذا إذا كان ضرورياً أن يمر الوقت كي تعطيني الحق.

إذن جاء ليقول لي بأنه يفهم أنني أنا أيضاً لن أتقيد بما وقَّعنا عليه. لأنه عندما يتعلّق الأمر بمصير مملكة، فإن أية حيلة تستخدم مقبولة. رغم أن قانون الفروسية يرفض ذلك.

تتالت الاعتداءات على شخصي في غرناطة. فلم يكد يمر يوم لا يتجرأ فيه أحد المتعصبين، المعبئين بعظات رجال الدين عند *الزغل*، على الصراخ بي مهدداً بل وشاهراً سلاحه عليّ. كانت مريمة تعيش في قلب الرعب، وتتوسل إليَّ في كل صباح ألاّ أخرج من القصر، أما والدتي فكانت على العكس منها تحثني ـ هذا إذا كان بالإمكان أن يحث أحد بالاحتقار ـ على الوقوف في وجه عمِّي كما في وجه النصارى، وكان قتل السفراء بالنسبة لها، بداية جيدة، وأولهم غونثالوالقرطبي. كانت ترفض أن تتفهم انعدام امكانياتي، أو تقبل أنني تحولت إلى ملك مسخرة، منهجه منهج القصب ينحني أمام الريح كي يعود، وينتصب بشق النفس بعد مرورها.

أريد أن أشهد بأنني لم أقاوم إلاّ من أجل شعبي، وليس لأي طموح شخصي. ذلك لأنَّ الخدمات المقابلة لاستسلامي كانت تقل كلما ازداد تأجيله. لوكانت فكرتي هي خيانة أبناء رعيتي لكان خيراً لي وأكثر راحة أن أقبل عروض الملك دون الاستمرار بالقتال..

هكذا هي الأشياء، الزمن الذي كان عدوّاً لي هوأيضاً حليفي الوحيد. عليَّ أن أنتظر حتى يعيد الدور لصالحنا، أوأن تصل مساعدة من المساعدات المطلوبة، أوأن يأتي *الزغل* ليتصالح معي ونوحد جهودنا، أو تشغل السياسة الدولية قشتالة كما أراجون فتضع نظرها في مكان آخر، أو يصدر قرار عن الباب العالي التركي يجعل أوروبا بكاملها تتحد ضده فتحرف جيوشها نحو الشرق. لكنني لن أستطيع خلالها عمل أي شيء غير تجنُّب الاعتداءات والحفاظ على نفسي حياً. رغم أنه مرت بي لحظات فضَّلت فيها أن أنتهي أوأُنهى. وكانت ساعات القلق تزداد يوماً بعد يوم. في الحمراء كانت الليالي تطفح بالضيق والوحشة، إلى حد أن الشعور بالهزيمة يمكن أن يتحول إلى أمر رتيب، وكل صباح كان يأتي بهمومه الخاصة، المختلفة عن هموم الصباح السابق واللاحق.

ومع ذلك فإن العام 1488 سمح لنا بأن نتنفس الصعداء، كما لوكي نستجمع قوانا. كان تنفساً نعرف أنه عابر، لكنه حمل شيئاً من الهدوء لروحنا،، الهدوء ـ ونحن نعرف ذلك أيضاً ـ الذي يسبق الكوارث الأخيرة.

يعود ذلك إلى تراكم الظروف: الإنهاك الذي حلّ بالإشبيلين، بعد سلسلة طويلة ولا متناهية من الحملات، انتشار بعض الأوبئة في الأندلس النصرانية، تفاقم الهرب من الجندية، رفض شعوبهم تسديد الضرائب التي أصبحت تنهال عليهم بتواتر سريع جداً، ولم يكونوا قادرين على تغطيتها، التنافس الذي برز مع فرنسا على روسيليون وسردانية، رفض البابا تمديد السماح بالحرب الصليبية إذا لم يحصل ـ بنوع من المفهوم الروحي الغريب ـ، على نصف ما يحصلون عليه من غنائم.

لكن حتى خلال الاستراحة جرَّب فرناندو إمكانية احتلال ألمرية. أرسل بعثات استكشافية أمام يحيى النجار، الذي كان قد أوكل إليه *الزغل* حمايتها. وبما أن *الزغل* كان قد حصَّن بسطة ووادي آش لصد الهجوم القشتالي المحتمل، فإن فرناندو توجَّه إلى جهة أخرى. في بداية حزيران احتل ماركيز قادش ووالي مرسية بيرةً بما يشبه المباغتة. وقد جرَّ استسلامها إلى استسلام مناطق أقليمها المشقر ووادي المنصورة، وجبال فيلابرة وكلا البلشين ونِزار، أي المنطقة التي عُينت لي في معاهدة لوشة.

كان التفسير الذي قدَّمه فرناندو بسيطاً جداً: كان عليَّ أن أكون قد انتزعتها من *الزغل* خلال الأشهر الثمانية التي تلت ذلك التوقيع، ولم أفعل، وكان المحتل في هذه المرة كريماً، إذ ولأن الأمر كان يتعلق بأمارتي المستقبلية: استطاع أهلها البقاء في مناطقهم على أساس قانون التدجين. ما كان يبغيه الملك، في الحقيقة، من هذا هوالتأكيد على علاقات الصداقة التي تربطني به والدعوة بلطف لاستسلام بلدان وقرى أخرى، وهذا ما حققه فعلاً: فقد انتفض عليَّ أتباعي، واستسلمت ضواحي بسطة، وشقر، اورشة، غليرة وبني عموري.

حافظ النصراني فيما تبقى من العام على الحصون التي احتلَّها في حزيران وموَّنها ووقَّع معي، كي يشلّني تجديداً للهدنة لمدة سنتين.

خلال ذلك انطلق *الزغل*، الذي استشاط غيظاً أكثر من أي وقت مضى، من وادي آش إلى ريف قلعة يحصب، واستولى على خيرات وقطعان وماشية. ثم استعاد نزار، وفيلابرة ووادي المنصورة وهاجم المنكّب، استولى على نرجة وطرش ودخل المرج نهائياً واستولى على همدان والبذول. من فوق جدران الحمراء كنت أرى جيوشه. وشعرت ذات صباح رائق، وأنا أستند إلى الاستحكامات، بقشعريرة، عزوتها إلى المتعة الحمقاء بتأملي كيف كان عمي، الذي لا يكل، يستعرض جنوده. اهتزّت الأرض تحت قدميّ، لكنها كانت هزة أرضية، من تلك المعتادة في غرناطة. صعدت مريمة وطفلها الصغير بين ذراعيها مستشاطة غضباً.

ـ حتى الله والأرض ضدنا ـ كانت تنتحب.

معاً كنا نراقب حركة قوات *الزغل* عند حافة قلعة همدان البعيدة والقريبة في آن معاً. فكّرت أننا تقاسمنا على الأقل الهزة الأرضية.

علمت في مساء اليوم نفسه أن فرناندو قد أوكل إلى بونش ده ليون، وهوأكثر أعدائنا متابعة، القيادة الموحدة لقلاع الثغور. تردد في داخلي صدى طرقة أقوى من سابقاتها كلها: كان القدر يطرق بابنا بإلحاح.

بعدها حُدِّدَتْ بسطة هدفاً مباشراً، وكان فرناندو يَتَطلَّع إلى تفكيك أوصال *الزغل* قبل الإقدام على غرناطة. كانت بسطة نظراً لموقعها في متناول اليد أكثر من ألمرية، تسهل وصول الإمدادات للمهاجمين براً من قصادة وأعالي الوادي الكبير، وبحراً من بيرة وشواطئ مرسية. كل شيء كان قد وضع بحساب دقيق، يشف عن عقل غونثالو القرطبي الرياضي. *الزغل* من جهته كان قد أعد الرد: أرسل قوات دعم بقيادة يحيى النجار إلى قائد بسطة محمد حسن. فارتكب بذلك أكبر خطأ في حياته.

من هذا الرجل المشؤوم؟ ففيه يلتقي دم قائدي الصراع ضد الموحدين: ابن هود الذي هوأحد أبناء النجار، ومحمد الأحمر مؤسس سلالتنا. كانت الأسرتان على امتداد قرون كاملة خصمين سراً وعلانية. من قرابة جاءت عبر يوسف الرابع، برز فرع ابن سليم بن ابراهيم ابن يحيى الذي تآمر منذ ذلك الزمن مع فرناندو ملك أراجون ضد جدي وقد ورث يحيى عن أبيه حب البيع: عاد واتفق مع الأمير الأراجوني على تسليم ألمرية. توجس والدي بعد أن صار سلطاناً من السهولة التي كانت تستسلم بها القرى، في الطريق إليها من مرسية دون مقاومة. فمثل شخصياً في المدينة، عززها ومدَّها بالقوات ونفى يحيى الذي فقد شرفه وأراضيه. تلقفه جيش النصارى لكن بصعوبة. لأن فرناندو كان يناسبه، رغم اقتناعه بعكس ذلك، كان يتهمه بالغرارة أوبالخبث في التعامل إلى أن طرده من صفوفه. وعندما تيقن والدي فيما بعد من رغبته بالانتقام أعاده كحاكم لألمريَّة. والآن سيبرهن أن من يخون مرة لا يتخلى عن الخيانة إلّا استثناء.

لكن يحيى، ولكي يعزز موقعه، تزوج من جهة أخرى بابنة خاله مريم بنيغش، أخت أبي القاسم ورضوان صاحبي المقام الأعلى عند *الزغل*، وتزوج هذا بدوره من أخت يحيى. كما كان من رجال البلاط، محباً للنساء وشجاعاً جداً. تاريخه الحربي لا يقارن إلا بنجاحاته في السلم مع النساء. كان شعره في غاية الشقرة وعيناه سماويتين ويقظتين، وأنفه بارزاً ووجنتاه بارزتين ضاربتين للحمرة. له ذقن حادة وفم ضاحك. كان طويل القامة، مظهره حربي ومتسلط، وأي شخص يكون له حليفاً سيكسب رجلاً عظيما لصالحه.ومن يكون له خصماً يكون له عدواً قاتلاً. *الزغل* كان يعرف محاسن ومساوىء قريبنا. أخطأ في الرأي فرجحت كفَّة المحاسن. اعتبر أن كراهيته لفرناندوالتي أثارها تُلاشي غاياته، والحالةَ الحرجةَ للإسلام كله، قضيتان لن يرفضهما يحيى. وهنا أرسل الأمير يحيى إلى بسطة فعززها بأكثر الحاميات التي ملكتها الأندلس خبرة وتدريباً. جاءت من ألمرية والمنكّب والبشرات ودعمها بأفضل الآلات الحربية التي كنّا نستخدمها.

في الجانب الآخر شددت الملكة إيسابل أكثر على اقطاعييها. فرضت ضرائب جديدة على سكان الجنوب الذين كانوا يمانعون، وتعاونت مع أصحاب قشتالة، حيث سرى همس مفاده أنه من الأفضل أن تأخذ الملكة أملاكها وتشتغلها بنفسها وتريح الناس: كما فرضت ضرائب فوق العادة على الكنائس والإكليروس والأخويات وخزانة الدولة بل وحتى على

الهراطقة واليهود لضرورتها للنفقات التي على الأبواب، وجمعت جيشاً لا يقل عدده عن ثلاثة عشر ألف فارس وأربعين ألف راجل، إضافة إلى الذين كانوا يسيرون مع الجيش لمساعدته. على رأسهم أكثر رجال الحدود بسالة من الحائزين على الأوسمة وتردد الأناشيد الشعبية والغزلية أسماءهم: صاحب قادش القائد الأول، المنتصرون في مالقة، ورندة، والذي دافع عن الحامة بالصور المرسومة على النسيج لإظهار دفاعات غير موجودة، قند قبرة وحفيده، هرناندو دل بولغار، وسجاني مارتين ده ألاركون الذي سيشارك في عمل حقيقي أكثر من أستيبة ومعه غونثالو القرطبي.

لم يكتف فرناندو بهذا بل طلب مني كتابع له المساعدة بالمال والرجال.

ـ ليس عندي ذهب ـ أجبته ـ على العكس تماماً إذ يجب عليّ أن أتلقاه، لأغطي به النفقات الدنيا في بلاطي المتواضع. نزلت ذات مساء مع زوجتي مريمة إلى القاعات حيث رأيت في فتوتي كنز النصريين فلم أجد إلا القاعات وبعض العناكب في الزوايا وهذا الخفاش أوذاك. خلال سجنكم لي استهلك المحتلون المتتاليون للحمراء كلّ ما رأيته لتغطية العجز المالي والحروب. إلى حد أنني في كل مرة طلبت فيها مساعدتكم لإعادة النظام إلى غرناطة، اضطررت لدفعها من الأموال المصادرة من رؤوس الفتنة التي كنتم تخمدونها. أما بالنسبة للرجال فلا يوجد غرناطي واحد يقاتل أبناء دينه. وعلى جلالتكم أن تكتفوا مثلي بهؤلاء الأسرى النصرانيين الخمسين الذين أرسلهم لكم، من بين القلّة المتبقية في غرناطة.

في حزيران توجّه الجيش الكبير إلى بسطة. استولى أولاً على زخر كما على الحصون والقلاع المحيطة بها، ثم حاصرها. في سلسلة المعارك الأولية، كان أنْ جنى المحاصَرون الحظ الأوفر وأنزلوا خسائر كبيرة في الأعداء، الذين وهنوا دون أن يستطيعوا المدافعة عن أنفسهم إلّابالمتاريس والخنادق. أقاموا بعد أن يئسوا من الاستيلاء على المعقل بعيداً عن الأسوار بل وترددوا فيما إذا كانوا سيرفعون الحصار ويتركوه لمناسبة أخرى مواتية. في هذه الأثناء كان أهل البسطة يخرجون ويدخلون دون مضايقات وبقوا على هذه الحال شهري تموز وآب. العدو يخيّم على مسافة منهم يمنعونه من تقريب مدفعيته وآلاته ويصدون هجماته.

زارت الملكة ـ التي كثيراً ماكانت تُسْتَخْدَم لهذا الغرض ـ المعسكر في أيلول وعابت على الجيوش جبنهم. ضيّق النصارى الذين أخذهم الحماس، الحصار. أعاقوا بسورهم الخشبي وخندقهم الكبير، اللذين يقوم على حراستهما الحراس والمشاة، خروج المحاصرين ووصول من كانوا يأتون بالنجدة. ورغم الاقتراب من المدينة بآلات تدميرهم فقد استمر أهالي بسطة بالخروج من الثلمات ومن فوق الأسوار يهاجمونهم في معسكرهم نفسه موقعين بهم خسائر معتبرة، ومستولين على تموينهم. ساءت حالة المحاصَرين في تشرين الأول والثاني لنفاد الأغذية، التي عندما تفقدها القادة وجدوا أنها لا تكفي إلاّ لأيام قليلة ومع ذلك عزموا على عدم الانهيار مؤملين تراجع العدومع اقتراب فصل الشتاء، وكانت المفاجأة عندما رأوه يقطع الحجارة ويؤسس لأبنية تحميه منه فغمر اليأس قلوبهم.

لم يكن النصارى أحسن حالاً فقد هبط الشتاء على المعسكر: كان الجنود يموتون برداً وجوعاً، والشرث والتجمد يمنعانهم من استعمال الأسلحة. وأمام الحملة التي خسر فيها كثيراً، انكب فرناندوعلى فنّه المفضل: المكر والرشوة. دخل في احتكاك مع يحيى عبر غوتييره ده كارديناس، فارس رهبانية ليون الذي كان من نصيبي أن ألقاه عن قرب أكثر مما كنت أرغب. أحتفظ برسالة من الرسائل التي تمت بينهما ـ أرسلها لي كي أخفف من غلويّ ـ يقترح الملك على القائد استسلام بسطة مقابل عطاءات ومنح، والقائد يرد أنه لا يثق على الإطلاق باقتراحات الملك لأنه لا ينسى نكوثه بالعهود وغدره به، ويرد عليه الملك بأنه سيعمل على أن يكون منفذاً أفضل لكل ما يعرضه عليه الآن، ويُظهِر له أنه نادم على كل كلمة لم يف بها في المناسبة المذكورة، التي لم تكن غير خيانة ألمرية المضاعفة. وهكذا استمرت المباحثات والوعود وضمانات الوعود. لا الملك ينسحب منها بسبب ريبة القائد المثيرة للأعصاب ولا القائد ينهيها بل يؤجلها. كانت غاية يحيى من هذه المناورة الماكرة والمطولة بين مَكّارَيْن أن يحصل على اتفاقية أكثر فائدة له، وغاية فرناندوأن ينهك أهل بسطة. أرسل أحد عيونه بحجة المباحثات ليقف على حقيقة الوضع التمويني عندهم. لكن الموجودين في الداخل الذين أحيطوا علماً بنواياه جمعوا المؤن المتبقية عندهم ـ البقول، الثمار، أكوام القمح، وضروف الماعز المحشوّة بالتبن ـ ووضعوها في الأسواق حيث سيمر المبعوث بهدف البرهنة له بأن المقاومة يمكن أن تستمر زمناً طويلاً. فالحرب وكما قرأت عند سلفي الزيري عبد الله ليست إلاّ خداعاً وكيداً وسياسة

يحيى المستقبلية أعطت نتائجها، فقد وقع الملك في الفخ الذي نصبه بنفسه، وحسَّن القائد من ثمنه إلى حد أن الملك منحه كل ما طلبه.

ومع ذلك زاد يحيى من طلباته، وكانت طلبات عالية إلى حد بدا من المحال وجود طريقة لقبولها، فكمية المنح والأراضي والامتيازات والالتزامات كانت قيمتها أكبر من قيمة المدينة التي كانت ستستسلم، واستمر النصارى يحاولون الهجوم ويموتون. القادة يخططون لعمليات جديدة والملكة تبحث عن المؤن والموارد في قشتالة، وفرناندو يحرر رسائل فيها أَيْمَانٌ مُغَلَّظة وعروض متنامية ولم يتراجع أمام عجزه وقاد المسألة بمهارة واقترح على القائد إمكانية أن يمنحه كل ما يطلبه بل وأكثر بكثير بشرط واحد فقط: أن يسلم مع بسطة اقطاعة *الزغل* كاملة.

كان هذا يتطلب من الأمير يحيى أن يخدع من كان ابن خاله وأميره وصديقه وصهره ومن كان هو عنده ثقة وقائداً عاماً لقواته وذراعه الأيمن ومستشاره، فحسب كخبير بالخزي ما سيربحه من ذلك، وبينما استمر في الدفاع عن بسطة ليزيد من قيمته في عيني فرناندو رسم خطته مع *الزغل* وخرج بالتواطؤ مع النصراني خفية ليتقابل مع ضحيته في وادي آش، وطالباً منه أمام مرؤوسيه بمن فيهم محمد حسن، إما النجدة الكافية وإمّا السماح له بتسليم المدينة: كان هدف الرحلة مختلفاً.

لا أحد مثلي يستطيع أن يفهم حقيقة وزيف حجج يحيى لعمي: حقيقة زيفه والزيف الذي يدير به الحقيقة. وصف له القائد وضع المدينة المحاصرة، الحقيقي والمروع: بلا مؤن ولا أسلحة ولا موارد، والشتاء فوقها مثل بلاطة من الرخام الأبيض، وسكانها أهلكهم الحصار والوباء والجوع. الأطفال يموتون تضوراً وفاقة، الأمهات يطالبن بالاستسلام بأعلى أصواتهن والرجال يرفضون الصعود إلى أعلى الأسوار والجنود الواهنون وغيرالانضباطيين يرفضون القتال. وما هو وضع المحاصِرين أمام هذا؟ عازمون على احتلال المدينة بأي ثمن. بنوا معسكراً من الحجارة، يملكون أسلحة أكثر تطوراً بكثير بل وما زالوا يجمعون منها أكثر، ومؤنهم تسيل لعاب المحاصَرين، في كل ليلة يغنون أغاني الحب والفرح حول النار. الملك فرناندو قرر معاقبة بسطة لدخولها في مقاومة غير مجدية تميِّع مشاريعه وتعكرها. من يبقى حياً يكون مصيره العبودية والبيع. وفي المدينة المخربة سيزرع الملح. هذه هي حقيقة الوضع وما عداها تمويه وهمي لمأساة لا يمكن تفاديها ـ هذا ما يؤكده القائد الذي يعرف الوضع جيداً ـ إلاّ بالاستسلام السريع الذي ينقذ حياة الناس

وحريتهم وشرفهم.

ويطلب *الزغل* المنهك رأي بعض مستشاريه، المستشارون الذين اشتراهم يحيى مسبقاً بالذهب القشتالي. و*الزغل* يتنحى إلى أكثر زوايا القصبة ظلمةً. يفكر مصطدماً بعجزه، يتناقض قلبه ورأسه، يعاني الاحتضار الذي لا يعرفه إلاّ الحكام المسؤولون في أحلك اللحظات، يصاب باليأس، ينقضي يوم، يومان، ثلاثة ولم يظهر ويحيى لا يراه إلا ليضايقه ويستعجله باتخاذ القرار. وذات صباح والبرد يسيل على الجدران، نادى *الزغل* يحيى:

ـ افعل أقل ما يجرح أهل بسطة ـ يقول له بصوت مخنوق ـ ولتكن مشيئة الله، لولم يشأ الله ضياعها لاستطاع ذراعي وسيفي، وحدهما، أن يدافعا عنها.

نسي *الزغل* أن الأشياء التي يكتبها الله قليلة، وأن إرادته لا تختار دائما وسطاء كراماً لتتبدى، كما أغفل أن عمل يحيى الظلامي لم يكن إلا في بدايته. وبما ان الجرح قد انفتح فلا بد من غرز الخنجر حتى المقبض. *الزغل* مضنى ويرتجف، يده أراقت ماء الكأس الذي كان يشرب منه، عيناه أرقتان مفعمتان بالاحمرار، المحجران اتسعت زرقتهما، لا تتحملان الأهداب، يضع يحيى يده ذات الزغب الأشقر والخط الناعم على كتف الأمير.

ـ دعني أكلمك كما أكلم أخي الذي أنت هو، بالطريقة نفسها التي كلمت بها نفسي في ليالي صقيع بسطة. إن روحك، يا عزيزي وموضع احترامي، يا أبا عبد الله، ليست هي أكثر من على عاتقها يقع التصدي لهذه الحملة، المنهكة أكثر من صحراء، والوعرة أكثر من جبال سوليرا، وأوكد لك أن كل خطوة نخطوها بهذا الاتجاه ستعود وبالاً علينا. القوات النصرانية هائلة ومواردها لا تنضب. جيشهم يكلله الحماس. كل واحد من رجالهم يساوي عشرة من رجالنا اليوم. نحن عاجزون عن مواجهتهم. مُدَمَّرون ومُصَغَّرون ومُحاصَرون بخيانات ابن أخيك أبي عبد الله. هوفي غرناطة مجرد واجهة للنصارى وغرناطة رأس المملكة. عندما نسلّم بسطة فإنَّ الملك فرناندو سينتقل لمواجهة وادي آش أوالمرية، وسيدمر قبل مضي وقت طويل كل معاقلك. أنا الذي أكرهه أعرف ما هوقادر على فعله، لذلك أكرهه. لا تنس أن قواتك ومستشاريك من أنصار الاستسلام حفظاً للكرامة. وأنت قمت بما فيه الكفاية من أجل شعبك: يسمونك *الزغل*، وتبعوا راياتك بإيمان، تبعوها حتى هنا. ولكن ولا خطوة أكثر. رأيي

يا أبا عبد الله بأن لحظة إغماد السيف، التي كنا نخافها كي لا نقود الشعب إلى غياهب العبودية أو إلى برد القبور قد حانت. لكن عليك ألاّ تطلب منه لمجرد الخيلاء، تضحيات أكثر مما طلبت منه حتى الآن. اتفق مع النصارى، أيها الأمير، فإنهم سيمنحون رعاياك الشروط المشرفة المعاكسة تماماً لتلك التي ستثيرها حرب طاحنة، وسيبقون عليك في المقام الذي يليق بنسبكم وعظمتكم. ليست الساعة ساعة معارك وإنما ساعة اتفاقات، يقول لك ذلك من لا يعرف الاتفاقات وإنما القتال، يقوله لك من يحتقر موته، لكنه لا يحتقر موت جنوده، يقوله لك من يحبك جيداً ويعرف كيف يميز متى يكون الدم مفيداً ومتى يُهدر في دفقات عقيمة كما في مذبح.

لا أحد يستطيع أن يفهم أكثرمني ـ أكرر ـ ما هوالصحيح وما هو غير الصحيح في تعليلات يحيى.

أخيراً نادى *الزغل*، المحاصر بشكوكه، دون أية فرصة أمامه، أمين سره الأول. وبتعبير مومياڻي أمره أن ينشر رسالة تفويضية تخوّل يحيى بالتفاوض مع النصارى باسمه. وباجتماع مكر فرناندو، طويل الأناة، مع استغلال المُتَمَادي في غدره للثقة انتصر فرناندو مرة أخرى.

تظاهر فرناندو بأن امتيازات الاستسلام لا تطال إلّا سكان بسطة وبالتالي لا تطال الذين جاؤوا للمساعدة من وادي آش وألمرية والمنكّب ومناطق جبل البشرات، وبأنه يجب طرد هؤلاء من المدينة قبل توقيع العقود. رُفِضَ هذا الاقتراح فأوقفت اللقاءات لعدة أيام. في النهاية قَبِلَ الملك النصراني لأن ذلك الموقف ليس إلاّ مناورة للمساومة وإرضاء صغيراً للمحاصَرين. كُشِفَ بعض شروط الاستسلام المتبادلة وبقي بعضها الآخر سرياً، اطّلعت عليها لأن الأراجوني أرسل لي نسخة موثوقة منها، ليضعني في صورة الأمر وتكون درساً لي.

سمح النصارى للفرسان والمشاة الذين كانوا يشكلون الحامية بالذهاب إلى وادي آش مع خيولهم وأمتعتهم. في يوم 3 كانون الأول سَلّمَ قادة المدينة القصبة للملك دونما علم من الشعب. وقيل لهذا بأن جميع الذين يريدون أن يستمروا في المعقل سيتمتعون، حسب الاتفاقية، بالسلام والأمن وإن الذين يرغبون بالإنتقال إلى مكان آخر يستطيعون ذلك بأسلحتهم وممتلكاتهم. كثيرون هم الذين غادروا إلى غرناطة، أما الذين بقوا فقد طردوا بعد وقت قليل خارج المدينة خوفاً من ثورتهم وأُجبروا

على العيش في ضواحيها.

اتُفِقَ على أنْ يُسلِّمَ *الزغل*، في مدة لا تتجاوز الشهرين، جميع المدن والبلدان والأماكن والقرى والقلاع والحصون في قضائه. وهوكل ما كان قد تبقى من إسلام الأندلس، باستثناء حظار غرناطة، حيث كنت أمارس ظلاً من السلطة بالتبعية لقشتالة.

وبالمقابل فإن *الزغل* يتلقى نواحي لكوين وأندراش ولانجرون بكل مناطقها وعائداتها واقطاعييها الذين يقطنونها ونصف أملاح المَلاحَة ومبلغاً يعادل قيمة النصف الآخر: عشرون ألف دوبلة قشتالية. ومن الشروط الأخرى: أن الأمير، الذي ماعاد أميراً يستطيع أن يقيم مع أهله وأُسرته في أية بقعة من أرض النصرانية، التي لا يمكن لكافر أن يدخل حدودها دون إذن، وإذا أراد بيع أملاكه فإن الملكين سيشتريانها منه بثلاثين ألف دوبلة، أما إذا أراد الرحيل إلى أفريقية فسيمنح تذكرة السفر هو وأهل بيته مجاناً مع كامل ثروته وأسلحته باستثناء النارية منها، وأنه ما أن يدخل الملكان النصرانيان غرناطة حتى يعيدا إليه ولأقربائه وخدمه ولقواد حزبه ولثريا وولديها، كاد ونصر، جميع أملاكهم التي كنت صادرتها منهم.

وفي ملحق إضافي يتعهد الملكان، «مقسمَينِ بالآب والروح القدس ألاّ ينقض هذه الامتيازات، لا الأساقفة المبجلون ولا الفرسان ولا أي أشخاص أياً كانت طبقتهم ووضعهم» [وبحصوله على هذا الملحق كان حظ عمي أفضل من حظي، رغم أنه لم يفده في شيء].

كما مُنِحَ أبوالقاسم بنيغش وقواد المدن، والشيوخ والقضاة والوزراء والوجهاء أملاكاً وأموالاً وحلياً، كل حسب أهميته. الأمير يحيى غيّر دينه بعد فترة قصيرة. وصار اسمه الجديد دون بدرو ده غرانادا بينيغش، وجعلوه فارساً في رهبانية شنتيقب وسيد مرشانة ألمرية، وخصصوا له أكثر من ستين ألف دوبلة من الذهب القشتالي، ومنحوه ألقاب شرف قرَّبته من عظماء اسبانية، وامتيازات لا تحصى وله الحقّ بأن يقود مئة وأربعين رمحاً تدفعها قشتالة. وحفر على ترسه شعار «*من يخدم الرب يصير الملك*» إشارة إلى تطلعاته إلى عرش بني نصر. ولكي ينال رضى الملكين النصرانيين، اللذين كانا ينظران إليه بالتحفظ الذي يستحقه الخونة، استعد لمساعدتهما لاحتلال العرش.

توجه فرناندوالى ألمرية. ولم يجد في طريقه قلعة أوضيعة لم تخضع له. كانت الحاميات القشتالية تحتل المعاقل مباشرة بعد مغادرة قوادها لها ودفع المتفق عليه. واحد فقط رفض.

ـ أنا، أيها السيدان ـ قال مخاطباً الملكين ـ أندلسي، من سلالة أندلسية، وقائد برشانة. وضعوني فيها لحمايتها. وأنا قادم اليكما لا لأبيعَ ما ليس لي، وإنما لأسلمكما ما جعله الحظ من نصيبكما. وصدقاني أنه لولا الضعف، الذي أجده فيمن عليهم أن يُقَوُّوني، لكان الموت هوالثمن الوحيد الذي أقبله دفاعاً عن برشانة وليس الذهب الذي تقدمونه لي لبيعها. استلموا هذه البلدة التي جعلها الحظ لكم. ولا أطلب منكم إلاّ أن تحترموا الأندلسيين الذين يسكنونها وكذلك سكان واديها. وأن تأمروا بأن يُحتَرَموا في شريعتهم وأملاكهم، في دينهم وعاداتهم. وأن تعطوني الأمان كي أستطيع مع فرساني وأسرتي أن نعبر باتجاه أفريقية.

لم يتصرف كل الأندلسيين مثله.

قبل أيام كان *الزغل* قد انطلق بهدف لقاء الأراجوني وتقديم الطاعة له وتسليمه كل ما كان في طاعته. وما أن انتهت الاجراءات حتى سافرا معاً إلى وادي آش وسلّم *الزغل* المعقل الذي بويعت فيه سلطاناً للمرة الأولى، وقرر هوأن يتخلّى عن كونه كذلك. وبلمح البصر تغير كل شيء، فأنا لم أعد الخائن.

خلَّف الملك في القصبات قائدا نصرانياً يدير أمر سكانها الذاهلين، المدجنين بفعل وبفضل التوقيع. منذ تلك اللحظة صاروا مثل الكثيرين، مقبولين في بلادهم نفسها. وكلّف أتباعه، بهدف كسب إرادة الرؤساء والأدلاء، بأن يعاملوهم بكل أنواع اللطف ويكونوا معهم كرماء. ولكي يرد *الزغل* وأصحابه له الجميل تطوعوا لمساعدته في الحملة التي طالما تحرَّق قلبه رغبة بها: دخول غرناطة. كان أتباعي على حق ـ أستطيع أن أكتب ذلك الآن، دون أن تتمزق روحي ألماً ـ حين فكروا، رغم أنهم لم يقولوه لي خجلاً، أن *الزغل* باع أملاكه انتقاماً مني، وأنني أيضاً لن أتأخر في الوقوع في أيدي العدو، رغم وجودي في سلام معه وبهدنة موثّقة.

حبّات الرمانة انتزعت حبة حبة. بكم من الحزن كنت أتذكر الأشعار التي خصصتها للزغل خلال أسري:

سارع، لا تتوقف أيها الجموح ،
ارفع ذراعك، أيها المقدام وامض ،

كلّنا ننتظر صوتك ،
أتمم ما خطّه لك القدر ظافراً وضّاءً ،
أشهر سيفك
ادعُ الناس المشتتين إليك، اجمعهم .

هكذا انتهى، لسوء حظي، العام 1489 ومعه أشياء أخرى كثيرة.

بدأ العام التالي أسوأ من سابقه. فقد استولى فرناندو، خارقاً العهود، على الملاحة وهمدان، حسّن دفاعاتهما ووضع حامية فيهما وأمدّهما بالمؤن الوفيرة، طعاماً وسلاحاً. ونظراً لقربهما الشديد فإنهما سيكونان الموقعين الفاعلين حين يجيء اليوم المشؤوم لحصارنا. كنت بين الجدار والسيف: فانعدام شعبيتي تزداد كلما اقترب النصارى أكثر. ارسلت لِرَجُلي الثقةِ، الوزيرِ المالحِ أن يشرع من جديد بالمفاوضات. فعاد ومعه ضابطان نصرانيان، أعرفهما من قبل: مارتين ده ألاركون وهو الآن قائد مقلين وغونثالوالقرطبي، قائد أليورة الآن. لا أنسى عيني الأول وعيني الثاني المنخفضتين وهما يعرضان عليّ طلب ملكيهما: الاستسلام الفوري.

ـ دون غونثالو.... ـ ألمحتُ

خفض عينيه أكثر. فتكلم مارتين:

ـ استعدادات عظيمة تقوم الآن في جميع أنحاء الأندلس، وأنتم وحدكم هنا. وإذا ما سحبنا مساعدتنا لكم فإن رعاياكم أنفسهم سيقضون عليكم: تعرفون أن دون غونثالو اضطر لتخليصكم منهم في عدد من المناسبات.

عدت بعيني إلى هرناندو البياسي، الذي يحضر المقابلة. فخفض عينيه أيضاً. ودعني القائدان دون أن يكون عليهما إضافة أي شيء آخر. منحاني يومين لإبلاغهم قراري. ودون أن أدري السبب طلبت يومين إضافيين.

في اليوم الثالث عاد من اشبيلية ابن كماشة الذي أرسلته للتفاوض، مع علمي بأنه كان متورطاً في التعامل مع الملكين لحسابه الخاص.

ـ ضع قدميك على الأرض، ياأبا عبد الله. فبحسب ما اتُفق عليه في قرطبة وفي لوشة يطالب الملكان بتسليم غرناطة دون أية مماطلة.

ـ هذا غير صحيح. فها هي معي هنا شروط الاستسلام ـ أجبته وأنا أريها له.

ـ احتاطوا لهذا. لقد أبلغاني أنه إذا ما تذرعت بهذا، فإنهم سيرفضون احترام أي التزام سابق يتعارض مع أوامرهما.

طلبت الفارسين النصرانيين قبل انقضاء الأيام الأربعة.

ـ عملاً بالاتفاقيات السرية القائمة بين ملكيكما وبيني، واستناداً إلى إرادتي وحاجاتي وحاجات شعبي، قررت تسليم مدينة غرناطة وضواحيها حسب الشروط التي سَنُوَقّعُ عليها عبر مندوبيهما ومندوبيّ. اذهبا إلى الملكين وقولا لهما هذا.

لاحظت بريقاً في عينيّ غونثالوالقرطبي، لاأدري ما إذا كان استخفافاً، فرحاً أوألماً ولم ألحظ أي شيء في عينيّ مارتين ده ألاركون ورأيت في عينيّ هرناندو البياسي دهشة كبيرة.

لم يكونوا قد خرجوا من غرناطة عندما استدعيت وزرائي القليلين جداً، وقادة الجيوش والفقهاء الأعيان ونقباء النقابات والعمل والأحياء. كلمتهم بصوت رنان:

ـ عندما دخل عمي، الذي تسمونه بحق *الزغل*، في قاعة ملكي النصارى أبطل معاهدات السلام التي توصلت إليها معهما.لم يبق أمامنا إلا أن ننصاع أوأن نلجأ إلى السلاح. ليست في نيتي، كما تقول افتراءً الشائعات المغرضة، أن أقدم للكافر حصن الحمراء ولامدينتكم. استدعيتكم إلى قاعة قمارش هذه، التي ضمت فيما مضى السفراء بكبرياء، كي تعبروا لي عن آرائكم. أعرف أن كثيرين منكم تآمروا عليّ لاعتبارهم أنني بعت نفسي لذهب وقوة الملكين النصرانيين. ـ أسكتُ بيدي همهمات احتجاج كانت قد بدأت ـ أعرف أنني بالنسبة لكم *الزغيبي* ـ وكررت الحركة بحزم أكبر ـ لكن ربما لم أتمكن حتى الآن أن أظهر لكم كيف أنا. كنت دائماً أعتقد أنني سأصل إلى اتفاق مع *الزغل*، الذي كنتم تتبعون وبه تعجبون ـ كررت الحركة للمرة الثالثة ـ رغم أنكم أقل مني إعجاباً به، ولم أستطع ذلك. *فالزغل* خاننا، أنتم وأنا ـ لم تخرج العبارة من حنجرتي بالرونق المطلوب ـ والآن وقد دارت عجلته، قلب الحظ المواقع وصرت السلطان الوحيد المتوفر لديكم، أجيبوني: هل ستقاتلون إلى جانب *الزغيبي* لحماية غرناطة، أم أنكم تفضلون أن يقوم *الزغيبي*، مستجيباً لشعاره، بتسليم غرناطة للنصارى؟ هل ستجبرونني على أن أقبل

قدراً يناديني وقراراً لكم يدميني؟

امتلأت القاعة بهتاف واحد، الجميع يلتزمون بأن يكونوا يداً واحدة معي لقتال العدو. كان صوت ابراهيم القيسي أول ماسمعته. أغمضت عيني غامزاً بامتنان. لاحظت أن نظرات ندم كثيرة كانت تتقاطع، لكنني لاحظت أيضاً أنه مامن أحد يتجرأ على معارضة الاجتماع. وقطعاً للشك أصررت:

ـ أتقسمون؟

ـ بلى ـ الموافقة ارتفعت إلى قبة القاعة وهبطت منها على الجدران.

ـ لنقم بالجهاد إذاً، مثل أسلافنا، مادام الله في عوننا.

وقبل أن ينفضّ الإجتماع جاؤوني ليقولوا لي بأن الشعب قد انتفض في نواحي ابن موردة ويطالب بالحرب بأعلى صوته. صعد وفد منهم عبر باب الساحة. خرجت للقائهم محاطاً بالأعيان دون تردد ووعدتهم بالحرب وذراعاي في الأعلى كمن يعد بجائزة طال انتظارها.

كنت ـ وربما الجميع ـ واثقاً من أنها ستكون آخر حروب الأندلس. توسلت الله العلي القدير بكل الورع الذي كنت قادراً عليه أن أموت قبل أن تنتهي.

حين كنت في طريقي لئلا أعود سلطاناً، في وقت بشكل أوبآخر قريب ـ حتمي على كل حال ـ شعرت بنفسي سلطاناً. كان أول قرار لي هوتنظيم أمانة الدولة. فبالنسبة لنوع السلطان الذي كنته كان الكتاب أفضل لي من الأسلحة. أول ما كان عليّ أن أستخدمه قبل أي شيء آخر هو المهارة والدقة والفرصة. الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع أن أكسبه هو الزمن. لذلك كان علي أن أطيل المفاوضات مدركاً إلى أين ستقودني. ولماذا الزمن؟ كي أطلب المساعدات يمنة ويسرة فأوراق مستشاريّتي القرمزية يجب أن تغرق الأرض الأندلسية وأية أرض أخرى يُعبد فيها إلهنا. كل ذلك في آن معاً وبسرعة البرق لأن علي أن أكسب كثيراً وبوقت قصير. استدعيت وزيري المالح وكبير حجابي ابن كماشة وابراهيم القيسي كانوا ما يزالون يحافظون على علاقات تجارية مع النصارى كانت تهمني، ومع القسم الأكبر من المسلمين الذين كنت سأحتاج إليهم. (أريد أن أوضح أن القيسي كان في غرناطة باسم من كان النصارى ينادونه ابراهيم ده مورا) أبلغتهم البنود السرية لاتفاقية قرطبة ولوشة، فلربما

كانوا يجهلونها، مع أنني أشك بذلك. وهل كنت مؤمناً بإخلاص ابن كماشة؟ لا. لكن كان يناسبني أن أتظاهر بذلك: فبالنسبة للذي يعيش الشك بالإخلاص أوعدمه تعتبر الريبة دفعاً يدفعه إلى الخيانة. كان الثلاثة على وفاق بأن من الضروري تفادي تنفيذ المعاهدات. عينتهم سفراء سريين، سلمتهم رسائل تثبت ذلك وأرسلتهم إلى بلاط قرطبة كي يحاولوا أن يجدوا حلاً مقبولاً. كانوا رجالاً شديدي المراس في المساومة والتسويات، ولن يستطيعوا أن يضعوني في ظروف أسوأ من التي أنا فيها.

كانت معارضتنا تقوم على أسباب كثيرة، مرفوضة جميعها من الملكين، لكن كان من الضروري الإصرار عليها وتكرارها والالتفاف عليها وتزيينها. ففي المقام الأول هدنة السنتين الأخيرة لم تنتهِ بعد. وفي المقام الثاني وعملاً بما ورد في المعاهدات فإن لحظة تطبيقها لم تحن بعد، ففيها يُتّفق على أن تسلم غرناطة «عندما يكون ذلك ممكناً»ولم يكن بإمكاني ذلك: فالأفواج العسكرية والمؤمنون الغرناطيون والشعب الذي تهيجه عظات الشيوخ سيقطعون رأسي لمجرد إعلان الاستسلام وهكذا سيفشل تسليمها. كان عليَّ خلال ذلك أن أمهد الأرض وهذا ما يتطلب عدة أشهر. لأنه إذا كان باستطاعة الملكين أن يسلما بسطة ووادي آش فلأنهما ملك لهما، أما أنا فلا أستطيع التصرف بغرناطة، العاصمة والمملكة في آن معاً، دون أن أثير ثورة. ولم أكن أطلب إعفائي من تنفيذ الاتفاق وإنما تمديده بشكل يسمح لي بتنفيذه بطريقة سليمة. تلك كانت رسالتي.

وخلال ذلك وجّهت نداءً إلى كبار ممثلي المسلمين في المناطق التي سلّمها *الزغل*. أستحثهم بواجباتهم الدينية وأحرضهم على الثورة والجهاد، وأعدهم بأن أحافظ على استمرار الإسلام وحياتهم وأموالهم في الغرب، وأقترح عليهم أن يستلهموا أمجاد أجدادهم وألَمَ أن نترك - لأننا جبناء - بهاءً وثروات أخرى تضيع، وأخيراً أعلمتهم بما كان سيحدث لهم عندما ينكث الملكان كعادتهما بالتزاماتهما، ويتحولون هم إلى ضيوف ثقلاء في بيوتهم نفسها. بالنتيجة كنت أحضهم على المقاومة وعلى أن يتعاملوا معي بواسطة ممثلين سريين وأن يتآمروا فيما بينهم لينهضوا بصمت بالسلاح ويهجموا على حصونهم وقلاعهم مستغلين أية غفلة من المحتلين.

عاد السفراء الثلاثة من قرطبة يحملون إنذاراً من فرناندو. لم يترك

مجالاً للاقتناع، يمنحني الإقطاعة الدوقية المتفق عليها مقابل تسليم غرناطة الفوري: هذا كل شيء. وإلا فإنه سيلجأ إلى القسر: سيلغي الشروط التي لصالحي وسيطبق بأقصى درجات الشدة قوانين الحرب المريعة، وأصبح أنا نفسي عبداً تحت رحمته. وينتهي بـ «وقد أعذر من أنذر».

في الوقت نفسه تقريباً وصلت الأصداء الأولى لدعوتي للثورة. كانوا متحمسين أكثر مما كنت أتصور. كنت بحاجة للزمن، الزمن، الزمن... فوق كل ماعداه. أرسلت مفوضيّ إلى مركيز بلّيينة، الذي كان يمارس عمل القائد العام للجبهة في الحامة في غياب فرناندو. فتعلل، وكما كنت أنتظر بعدم الاختصاص لكنني كسبت بعض الأيام. عدت وأرسلت ابن كماشة إلى بلاط قرطبة، باقتراحات أخرى مماطلة وفيها جعلت أمر التسليم «الذي كنت أتوق إليه مثل جلالتهما» يتعلق بظروف الشعب الغرناطي التي تبدو بتقديري غير مؤاتية إطلاقاً. كان استقبال الملك لمفوضي رهيباً، لم يستأخره ساعة واحدة، أعاده لي مع رسالة، يهددني فيها بأنه سيجعل مئات النسخ من البنود السرية تدور في غرناطة، كي يعرف الجميع من هو ملكهم وكيف باعهم مقابل مساعدته ضد *الزغل*. لم يبد لي مناسباً أن أشعر أنني مجروح في كرامتي. عدت وأرسلت إليه هذه المرة المالح، مشيراً إلى أن انتفاضة الشعب هذه ضدي، وبالتالي ضده، هي تماماً ما يجب تفاديه قبل أي شيء في العالم. اقترحت عليه، للتباحث شخصياً حول كل شيء، أن نلتقي في قلعة يحصب، وأكدت له أننا سنتوصل إلى مصالحة ودية. قَبِلَ فرناندو، لكنه وهو العارف بواسطة جواسيسه ـ من يكونون، يا إلهي، من يكونون؟ ـ بكل ما كنت أحيكه، حضر إلى قلعة يحصب ـ الشيء الذي عرفته من جواسيسي ـ ومعه جيش احتل الضواحي والحظار. اعتقدت، أنا الذي كنت أقترب من البلدة متخفياً بزيّ مُكارٍ في قافلة القيسي، أن من الأفضل لي أن أرجع وهذا يفترض ما كنت أخشاه: الإعلان الرسمي للحرب. وبشق النفس حصلت على هدنة لمدة شهر.

صار نهجي السكوت بدل الرد. دخل فرناندو من قلعة يحصب إلى المرج وراياته منشورة. كان قواده يتجادلون حول من سيكون له شرف أن يطأ الحمراء أولاً. كنا نسمع صيحات جنوده، خبب فرسانه البهيج وصهيل خيولهم. أمرت بتربسة الأبواب والبوابات السرية ورتج المداخل، وإغلاق قلعة الفقار، التي تمثل قوتي الوحيدة خارج الأسوار. منعت خروج أيّ كان من داخل السور المحاصر أو إطلالته من الشرفات. لاأحد يجب أن يطلق النار أو يرد على التحريضات. رأيتهم من برج القصبة القديمة يقطعون

أشجار الحقول ويعبثون بالزرع، ويخربون الطواحين ويحرقون القرى، يحركون جندهم مثل جائحة جراد في عرض المرج الأخضر والخصيب. لم يترك النصارى شجرة ولابرجاً واقفاً، لكنهم لم يتعثروا بأندلسي واحد يقتلونه أويلاحقونه أويهزمونه.

وغرناطة لا يمكن أن تستسلم إلاّ بهجوم أوحصار. وكلا الشيئين كان يتطلب عناصر كثيرة من المحال ارتجالها. وقد عرف أسلافي الزيريين عندما نقلوا العاصمة من البيرة إلى غرناطة، أين يركزون أمنهم. كان النصارى، كي يحتلونا بحاجة للوقت مثلي. ولم يكونوا جاهزين قبل الربيع: ذلك كان أملي. وليس النجاة المفقودة: أملي الوحيد هو أن أستطيع الانتظار. هكذا كان: فبعد تدمير بعض الحصون، كحصن غابية وإصلاح قلعتي همدان وملاحة، اضطروا للتراجع. عاد الملك إلى قرطبة وهويعض على أصابعه غيظاً. وأنا لم أبن أوهاماً: فقد كنت أعرف أن القدر واقع، لكن اليد كانت يدي.

رفض بعض القادة، بعد أن رأوا غرناطة عن قرب كبير، السفر الذي كانوا يعرفون أنه ذهاب وإياب، واختاروا البقاء في إحدى مدن الحدود يتدربون طوال فترة صقيع الشتاء. وقام نزاع بين هؤلاء النبلاء ورجالي، نزاعات وشجارات شخصية وتحديات أقرب إلى المبارزة منها إلى الحرب والى المنافسة منها إلى الفعالية. وتمت مآثر فردية، أعتقد أنها كانت في كثير من الحالات تنطوي على مبالغات أوأنها مبتدعة من شعراء مرتاحين ومشتاقين للنصر، منها مأثرة هرناندو دل بولغار، الذي وبحسب ما يروون سمّر رقاً عليه صلاة نصرانية على باب مسجدنا الكبير. أنا لم أر الرق ولا الخنجر ولا الصلاة النصرانية، ولا أعتقد أن أحداً في غرناطة رآها. على كل الأحوال منعتُ استنفاد قوانا، التي سنكون بأمس الحاجة إليها، في التبجح والافتخار. ومن جديد كان غونثالو فرناندث القرطبي على حق حين قال: حروب الأناشيد انتهت.

جاء شهر آذار. وفي مساء كان نهاره صافياً، وبدأ يغشاه الضباب، هاجمتُ بشكل مباغت قرية بدول. كانت آخر ما احتله فرناندو. واستوليت على قلعتها، قضَيتُ على حاميتها وعلى المرتدِين الذين كانوا يرافقونها ذبحاً بالسكين. كانت كراهيتي للمرتدين، هؤلاء الخونة الذين ينصحون النصارى ويدلونهم ويوجهونهم إلى أضعف الأماكن حراسة، قد تضاعفت. عندما عدت إلى غرناطة سلموني رسائل كثيرة من قرى البشرات يطلبون فيها النجدة التي ينفضون بها عنهم النير، وَعَدْتُ بذلك

دون أدنى فكرة عن كيف أوفرها لهم. خرجت في اليوم التالي مع قواتي في طريقي إلى لانجرون. كنا واثقين على صهوات جيادنا ـ أعتقد أن الأمر لم يتعد ذلك ـ بشكل جعلنا فيه مجموعات نصرانية عدة، صادفناها في بعض الأماكن، تلوذ بالفرار. لم يكن يبدوأن لحملتنا هدفاً محدداً، لكنني أعرف تماماً إلى أين أمضي. كنت ذاهباً إلى قلعة أندراش، حيث علمت أن *الزغل* موجود فيها مع عدد كبير من أتباعه. أرسلت مُقَدَّماً مجموعةً من الجنود لتقطع طريق ألمرية، واثقاً أن *الزغل* سيبتعد دون قتال. نبهت رجالي أن يراقبوا مثل أوشاق، مخافة أن يهرب متنكراً. لابد أن رجالي سيطيعونني مدفوعين برغبة الانتقام، فقد راحوا يفركون أيديهم مسبقاً.

لم يكن في حاجة لأن يتنكر. فعندما جاؤوني به بين عدد من المرتدين جهدت كثيراً حتى تعرفته. وحدهما عيناه فضحتاه، لأنهما كانتا تتهربان أكثر من اللازم من عينيّ. كان يرافقه حسين، الذي تنكر فعلاً. كان الليل صافياً. ونسمع خبلاً وهذا الكلب البري أوذاك يرد على آخر. صلاءات المعسكر اللذيذة كانت متناثرة على المنحدر. اقترحت على نفسي أن أنذكّره كيف كنت أرى الأشياء كلها، وأن أسجل كل شيء في داخلي للمستقبل، لكنني لم أتمكن من ذلك. ترجّل *الزغل* عن جواده، تبعه حسين. كان ما يزال يحتفظ بشيء من الرشاقة. أول ما دلّني عليه كانت طريقته الصارمة قليلاً في السير. لكنه سمن وشاخ. كان يتلفع ببرنس بني لا ظرافة فيه. تقدّم مني مرفوع اليدين. قلّد حسين طريقة الخضوع نفسها. أوقفت بعض الجنود الذين أرادوا أن يوثقوا يديه. تبادلنا النظرات طويلاً. همست:

ـ أبا عبد الله، أبا عبد الله...

أشرت دون أن أرفع نظري عنه، إلى مرافقه وقلت لرجالي:

ـ لا أريد أن أرى هذا. اقطعوا رأسه.

ـ مولاي! ـ صرخ حسين راكعاً.

عندما حمله الجنود جرّاً، قلت صائحاً

دون أن ألتفت وأنا ما أزال أنظر إلى *الزغل*:

ـ تذكّر أخي، فأنا لم أنسه.

لم أكن قد نسيت شيئاً، لا الليلة الماطرة التي عرفته فيها، ولا كلبي زين، ولا غالب ولا أي شيء. فلا شيء ينسى، لكن اللحظة لم تكن لحظة تذكّر.

همست ويدا *الزغل* ما زالتا بين يديّ:

ـ عندي عتابات خطيرة أعاتبك بها. كان علينا أن نلتقي منذ زمن طويل.

ـ فات الأوان الآن على كل شيء. ـ أجابني.

ـ هل تفهمني أنت؟ إنني بحاجة لكي تفهمني!.

ـ فات الأوان الآن على كل شيء، بما فيه فهمي لك، ثم إن الأمر سيان: إذ كأنني ميت.

ـ انضم إليّ وسنبدأ من جديد.

ـ لا، فالآن أنت *الزغل* وأنا *الزغيبي*. لا حاجة لأحد بي. تعلم هذا ياأبا عبد الله، هذه ساعتك، تعلّم بي.

وأفلت يديه من يديّ متبرماً.

ـ دعني أذهب ـ قال وكان أمراً أكثر منه توسّلاً ـ. قدرانا افترقا منذ زمن بعيد، أنا لا أتذكر شيئاً. هذه الليلة لا وجود لها. لا وجود لي، ما تركته يسقط موجود هنا، في يديك هاتين. دعني أذهب.

ـ ما زال بمقدورنا أن ننتصر، معاً، أنا وأنت، كما حلمتَ دائماً. مازال باستطاعتنا، أنت وأنا، أن نجعل شعبنا ينتصر. انظر اليّ، يا أبا عبد الله، حتى ولواضطررنا لأن نلجأ إلى صخور جبل البشرات. ابق. ابق.

ـ فيّ تتجسد الهزيمة. و*الزغيبي* لن يأتيك بالحظ. وداعاً، يا أبا عبد الله. اقتلني أنا أيضاً، وأرِ جنودك رأسي، مرفوعاً على سن الرمح. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن أكون فيها مفيداً.

عدت وشددت على يديه، فعاد وأفلتهما من يديّ.

ـ إذا كنت لا تريد حياتي، مثل حياة حسين، دعني أذهب. نصرك الله. لكن تعلّم منّي.

أمسكت بزمام الجواد بينما كان يمتطيه. لم يمتطه بالرشاقة التي كانت له من قبل. وضع يده المفتوحة على رأسي.

ـ وداعاً يا أبا عبد الله ـ أمال وجهه قليلاً كما لوكان سيبتسم ـ وداعاً مرة أخرى، تفاءل.

ـ لن أنساك أبداً ـ صرخت.

لم يسمعني. فخبب الخيول غاص في الليل. وأنا غصت فيه أيضاً. نظرت حولي. كنت وحيداً. فجأة شعرت بالخوف. على كفل جواده كان

يحمل أكثر مما ينبغي، كان يحمل دون أن يدري، حياتي. لم أصدق أن كل ما جرى بيني وبينه وما كان من الممكن أن يجري انتهى بهذا الشكل: خبباً يضيع في العتمة.

في الأيام التالية عادت البشرات وداليا وبرجة لتدخل في طاعتي. عيَّنت القواد لحصونها وعدت إلى غرناطة. لكنني ما عدت الذي كنته حين خرجت منها.

في شهر نيسان أصابني خور. استنفدني تعب. كان عليّ أن أتخذ يومياً قرارات كثيرة مستعجلة. كنت وحيداً لأنه وبحكم أنني لا أريد أن أشغل مريمة. تخليت عن الاعتماد عليها، خاصة لأنني فهمت ما أشار لي به *الزغل*: المحال المطلق، الذي كانت مواجهته عقيمة وخرقاء. أجَّلَ الملك فرناندو، المشغول بالتوترات في فرنسا، حملته. بدأت أترك الأيام تجري بين التواني والكتب. في حدائق جنة العريف كان الربيع يكسب معاركه، البعيدة تماماً عن معاركنا. أتسلّى بأزيز النحل ورائحة الورد. أجهد نفسي كي لا أنشغل إلاّ بما هوفي متناول يدي. كنت أتنهد، قلبي يطالبني بحقوقه: أحن، بعيداً عن إرادتي، إلى جوائح الحب الجميلة، التي لا تؤجّل. أردع نفسي وأوبخها، فاللحظة لم تكن مناسبة، لا لما كان شعبي يطالبني به ولا لما كنت أطالب نفسي به. لكنني أغرق بين هذه التناقضات. حتى نزهاتي في الحمراء علاها الحزن.

والحمراء كالجسد، مثلنا جميعاً، له موسيقاه وعبقه اللذان يتبدلان بحسب الطقس والساعات. فيه ـ وهذا ما لم أحس به كما في ذلك الوقت ـ الخفق الدائم، دليل الحياة. مع رفيف زوج من الفراشات، كان الضوء والماء يتلاحقان. الترعاتُ، التي لا تنقطع في الجدران مثل عروق من طين، وشرايين السواقي توزع دمها النقي والرقراق. كل شيء في السكون الظاهري حركة. الماء أنّى شئت يصدح بغنائه الذي يؤكد صوته البلوري المرئي. الجدران بأبيات أشعارها المتكررة حتى اللانهاية لا تسكت أبداً. الملاط المرمري وبحرات السقوف، الملونةُ لتضفي انطباعاً بالرشاقة، تصيب بعدوى اهتزازاتها زخارف سقوف العاج والأرز. تسقط ألوان البلور على ألوان الجدران فتهيِّجها أكثر. بهاء النهار المتبدل، وفتائل الليل المرتعشة تثير ظلالاً مضطربة تحرك القصور من أعلاها إلى أسفلها. في غرفة الأسود كانت التوريقات المضاعفة، مع فراغ في الوسط حيث

تعشش العصافير، تنبضُ بالحياة ومن خلالها يسمع خرير المياه كما في لب الحلزونات. كل شيء هناك شفيف، دقيق وهام مثل وشم بدوي ... من بطانات السقوف العميقة، التي تكاد تكون غارقة في عتمة قاعة قمارش، كثيراً ما سمعت اسم المجرات. وشاهدتها تتردد، ترتعد، تتلجلج في الأعلى حين يتسلقها النور، وقد راحت العتمة تعلوالزخارف، حتى يصل اليها، فيلعقها ويجعلها تتلذذ لثوان. كم هي مختلطة ومضات الواقع التي تقدمها لنا الحمراء. ترى الله وهوالنور فيه. ربما الله كان النور. وكنت أقول لنفسي: «لكن الحياة هنا». كل من سكن الحمراء، أياً كان العصر الذي عاش فيه، وعشنا فيه تقاسمنا معه القناعة بأننا زائلون، فالمسألة كانت مسألة وقت. لذلك اختار الذين أشادوه ألاّ يختاروا بين الحقيقة والوهم. الأسوار تنبض متأملة من الأسفل، راشحة من تجاويفها بهاءً متردداً، وإذا بدا ذلك قليلاً، فإنها حين ترتسم في رعشة البرك أوفي البحرات المتموجة تضفي على الحلم حياة أكثر من اليقظة. وحين تتأمل دواخلُ العقود نفسها في الماء ترى كما يجب أن ترى. من الأعلى إلى الأسفل وليس العكس. ربما في هذا كان يكمن سر هذ المدينة الجسدية والمغمورة، المدعوة للاختفاء حتى قبل أن توجد، كالحب، مثل الحب، شيء هفهاف وزائل حيث لا يعرف المرء أبداً ما يختار: المادة الهشة نفسها أم تقليدها. أيهما البرج الحقيقي: الذي يبنيه الإنسان أم صورته التي تغوص في الجب؟ ما الذي يدوم أكثر المادة أم صورتها؟ ما الذي يشد من عضدنا: الشعور أم الهاجس؟ أم ذكراه؟ لأن الواقعي في حياتي وفي الحمراء كان دائماً أبعد من انعكاس ما هوواقعي. فالحياة والحب ربما لم يكونا غيرَ الماء الذي يترقرق، النور الذي يرتعش. وهذه الرقرقة وهذا الإرتعاش أقل ملصاً مما هوفي متناول اليد.

هكذا تودعت، في شهر نيسان ذاك، من كل ما كنت قد أحببت. وربما من كل ما كان باستطاعتي أن أحب. ورغماً عنّي كنت أقرأ وأنا جالس في مشربية أمام هضبة البيازين، وكأنني أستبق أن يلف الحداد كل شيء، أبياتاً حارة لجلال الدين الرومي:

«النصيحة لا تفيد العشّاق،
والعشق ليس سيلاً يستطيع أن يوقفه أيّ كان....
والملوك سيحتقرون ملكيتهم إذا ما اشتمّوا
بخار الخمرة التي يشربها المحبّون في اجتماع القلب.

باردة الحياة التي تجري دون هذه الروح العذبة،
وفاسدة اللوزة التي لا تنصهر وتضيع
في عجينة اللوز الغامضة...»

شعرت وأنا أنظر حولي بأنني مختلط بالموت، ثم شعرت وأنا أتنزه في الروضة، بين القبور، بأنني مختلط بالحياة والموت. اعتراني وسواس الهرب: الرغبة النهمة بكل شيء والنفور منه في آن معاً، مثل نَاقِهٍ يمورُ حيوية ثم يخمد، مثل شبح أعمى، عاد من العالم الآخر، يجوب القاعات تلمساً والحديقة التي كان فيها سعيداً في الحياة فيجهش حباً. ذلك الشبح الذي كنته، كان يبكي بعينين ماعادتا تصلحان إلاّ للبكاء، مثل عيني ايغش بنيغش في اللسانة. لأن الحياة بكاملها تحولت إلى يوم قادم منيع. لأنني في كل الساعات فهمت ما كان أعطانيه لأفهمه عمي أبوعبد الله، حتى ما لم يكن قد فهمه هونفسه. فيم كان يفيدني إذن اضطرام الأشعار؟.

«أيها المحبُّ، لا تكن أقلَّ من فراشةٍ ليليةٍ .
وأين الفراشة الليلة التي تنجو من اللهب؟
قالوا لي: غير موجودة، نحن أيضاً بحثنا عنها
وما أرغب به هو هذا الذي لا يمكن العثور عليه...
الحديقة حائرة لأنها لا تعرف الورقة من الزهرة.
والعصفور قلق لأنه لا يعرف المصيدة من الفخّ...
اصمت، لا تُمَزِّق الحجابَ واشرب كأسَ الصموتين .
أغلق كل شيء وغشّهِ .
واعتد على رحمة الله الواسعة» .

كانت مريمة التي لفها صمتي بالحزن، ترافقني ورفقتها نفسها تضايقني، لأنني لا أستطيع أن أوضِّح لها دون خجل ما كان يقتل روحي ولا أن أكلمها عن شيء آخر.

أخلت، هي غير القادرة على مساعدتي، مكانَها لرجال واضحين وكتومين، أجهل من أين خرجوا، لا يبدوعليهم أنهم مسلمون، أو يهود أو نصارى. ليسوا شباباً أو شيوخاً. ينظرون إلى العالم بعيون شفافة لا تستقر على شيء ويبتسمون دائماً. يعطون انطباعاً بأنهم يعرفون سر ألغاز، لم نكن قد طرحناها على أنفسنا، أوبالأحرى، كانوا على معرفة بكل الألغاز، وكأن الحل يكمن في ألا تطرح عليهم بعد معرفتهم بها. في الأيام التي ترددوا فيها عليّ كثيراً لم أتمكن من التكهن بما كانوا يريدون

مني. ربما لم يكونوا يريدون شيئاً. وهذا ما جعلهم غامضين، ويعاملونني بالاحترام الأخوي نفسه الذي كانوا يعاملون به *مرنان*، كلبي أوالأشجار.

ـ مخلوقات ـ كانوا يجيبون على كل ما أطرحه عليهم من أسئلة ـ نحن هنا لمساعدتك، لمساعدة أنفسنا في الوقت الذي نساعدك فيه.

ويستمرون بالابتسام. يعيشون على ما يبدوفي صومعة ـ أوعدد منها، لا أدري ـ في منحدرات جبال شلير. وقد نزلوا استجابة لنداء أحد ما. أوربما لم يطلب أحد منهم أن يأتوا. طبعاً لم تكن مريمة قد طلبتهم. لايبدوعليهم أنهم عرفوا بأنني السلطان. أجسادهم مثل شيء نسيَ روحه منذ زمن بعيد، لكنهم أيضاً كانوا روحاً: لاأدري كيف أعبِّر عن ذلك. لا يتكلمون، ينظرون نصب أعينهم ويبتسمون ـ لا عمل للزمن عندهم ـ وكان ينمو حولهم مثل ناقوس شفاف من النقاء يعزلهم وفي الوقت نفسه يقربهم. في إحدى الظهيرات في ظل شجرة كانت تحوم ذبابة، طيرانها الرنان يُلهيني عن ابتسامة أولئك الرجال. فجأة رأيت كيف وقفت الذبابة في الهواء. لا، لا، لم يكن في الهواء وإنما في بلور الناقوس النظيف الذي أتحدث عنه. بقيت هناك وأرجلها تستند على بعد شبرٍ عن أي سطح، ساكنة راضية تحت شمس أيار. وبقي أولئك الرجال، الغائبون والمفعمون بالحياة، يبتسمون. خطرت لي عبارات ابن عربي، شيخ الشيوخ، الصوفي الجليل الذي كان يمارس فضيلة التفاهة.

اختبأت من الزمن تحت جناحيه عيني ترى العالم والعالم لا يراني

إذا ما سألتم الأيام عني ردّت بأنها تجهله وتجهل مني مكاني[1]

وذات يوم لم أرهم. فكرت:« ربما لم يوجدوا قط». ثم علمت أن ابن كماشة طردهم. أوربما لم يطردهم وإنما أشار إليهم من جديد بإيماءة منه إلى طريق الجبال: كان سيكفيهم ذلك: فالهواء يحملهم. استبدلهم بنادم متعصب، لا ينقطع عن ذكر الله ورسالته بصوت عال. شيخ مشهور، كان والدي في مرحلته الأولى يستشيره من حين لآخر.

ـ رغم أن النور لا يهمك ـ كان يقول لي ـ فإن النور موجود. الشخص الذي لا يبالي بالموت هوالذي يجيء بالحياة. إنك تقاوم القيام بما يجب عليك، ليست بعيدة الساعة التي سينهار فيها كل شيء حولك: ستراه ينهار على جانبيك مثل عباءة استخدمتها زمناً طويلاً.... تقدم! ـ كان يصرخ ـ

(1) لم أستطع العثور على هذه الأبيات (المترجم)

أخرج خارج الأسوار. لا تختبئ في داخلك ولا في داخلها. لا تحم نفسك وإذا ما أخذت طرف ثوبك كي لا يبتل بالماء فإنك ستغوص في البحر أكثر من ألف مرة. حان وقت أن تجرب دواءك نفسه. لن يأتيك العلاج من الخارج. اذهب وابحث عنه. تقدم. لا حاجة لك ولا حتى لأن تستيقظ. اخرج الآن. تقدم!

لا أعتقد أنه كان بتأثير من أحد، وإنما لأنني قبلت شيئاً فشيئاً في داخلي ما كان يفرض عليّ. قبلته مثل من عليه أن يحمل حملاً يجب أن يحمله إلى المكان الذي يستطيعه دون أن يسأل أكثر، لأنه، بين أسباب أخرى، غير قادر على التحرر منه، أوربما لهذا السبب وحده. وفهمت أخيراً، دون أن يفهمه عقلي، أن الصراع مع المحال لم يكن عبثياً ولا دون جدوى. أعرف أنني لم أوضح ما جرى لي في شهر نيسان ذاك وبداية أيار، لكنني أعلم أن من يوجد في ظروف مشابهة سوف يفهمه. بل إنه لن يحتاج لأحد كي يشرحه له، ومن ليس كذلك فإنه لن يفهمه أبداً.

عندما بدأت أخرج من خمولي دفعني مهماز لذيذ على الهرب منه. كان *الزغل* قد انتزع مني أندراش وبعث إليّ رسولاً:« قل للسلطان إنَّ أندراش، ستكون، بفضله، بأمان في يدي أكثر مما في يديه (وهوسيفهم ذلك). ولديه انتصارات أكثر ألفاً سيكسبها.»

في ذلك اليوم دعوت جيشي القليل إلى السلاح. وبحثاً عن طريق إلى البحر خببت إلى عدرة واستوليت عليها بمساعدة بعض المتطوعين الأفارقة. ما همّ أن تعود بعد أسابيع قليلة إلى أيدي النصارى. فها أنا مرة أخرى على صهوة جوادي، حيث يجب أن أكون.

ومع ذلك كان ما يزال هناك زاوية مني ما تزال في الظل. كان ذلك حين بدأت تظهر لي الكوابيس الأولى مع طيور سوداء. وراحت تتكرّر في أحلامي، لكنها تكتفي بالتحليق حولي أوبالتحويم فوقي. وأنا لم أكن موجوداً في تلك الأحلام، فقط كنت أنظر. أريد أن أقول أنني لم أكن أرى نفسي بل أرى منظراً تسكنه هذه الطيور المشؤومة، أوفي بعض الحالات في الغرفة نفسها التي أنام فيها حيث كانت تدخل خافقة بضجيج أوخشونة. ومع ذلك وبتكرار هذه الكوابيس راحت الليالي تصبح أكثر إجهاداً. ربما لأنني كنت أحاول خلال النهار أن أطرد أوأبعد عن عقلي كثيراً من الدوافع الخطيرة للخوف أوالقلق، فكانت وقد نُسِيَت ولم تمُت تعود لتظهر من تلقاء ذاتها ليلاً على صورة هذه الطيور الكبيرة السوداء التي تندفع عليّ على شكل حرب، تضربني بأجنحتها وتشق الهواء بعنف

حول رأسي وتنقض تريد أن تنقر أذنيّ وعيني، تصطدم بجسمي وتجرحني، ثم تجرحني... إلى أن أستيقظ لاهثاً، كما لوأنني ركضت، لأهرب منها، مسافة لا تنتهي.

مضى شهر حزيران، الذي كان قائظاً، دون حوادث تذكر غير هذه المناوشات أوتلك التي بدأناها نحن ضد جيش، أنهكته الحملات السابقة، يحاول أن يفرض حضوره فقط. كان يقوم على مقدمته فرسان شجعان يتحرقون رغبة للشروع من جديد بحرب حقيقية، وقد تعبوا من التبختر أمام جنودهم أوبعض السيدات، بأسلحتهم اللألاءة وعماماتهم البراقة. أراد الملك فرناندوأن يسم تلك الأيام باحتفال مهيب، نُفِّذَ في صباح عذب في الهواء الطلق. وكان هذا حفل تقليد ابنه الأمير دون خوان البالغ إذ ذاك اثني عشر عاماً مرتبة فارس أمام أعيننا. حضره رعاياي، متظاهرين بالسخرية، لكنهم ذهلوا من أبهة المراسم. كان عرّابا المستجد خصمين عنيدين: دوق ومركيز قادش ودوق مدينة شذونة. كنا أنا ومريمة نتأمل المشهد الباهي والمشرق من برج السلاح، ملاحظين كم كانت مختلفة تلك الظروف عن التي كان يعيش فيها ولدنا، الذي لا يبعد كثيراً عن عمر الفتى النصراني.

بدأنا، محاولين عدم الاكتراث بالتحديات، المضمرة والعلنية والاستعراضات السامة، عَمَلَ الأرض الذي سمحت لنا به التحصينات السابقة، أدخلنا إلى المدينة مؤناً ليست كثيرة لعدم معرفتنا بالوقت الذي سيستمر فيه الهدوء، وتابعنا علاقاتنا مع فلاحي جبل البشرات، الأشداء بسبب الطبيعة الجغرافية عندهم، المشتعلين إيماناً، المغمومين من التبعية والنهب. سمعنا وقتها بمحنة وقعت في برج رومان القريب، حيث كان يلوذ مزارعوالمرج، توجهت إليه ذات ليلة مجموعة من أهل غرناطة طلباً للحماية من النصارى الذين كانوا يلاحقونهم. فُتح لهم الباب بفرح أخوي، وما هي إلا لحظات حتى جرَّدوا خناجرهم واستولوا على البرج. جاء على رأس المجموعة الأمير يحيى. بهذا أراد أن يؤكد إخلاصه ـ كما لوكان يتسع له ـ للملك فرناندو. اهتزت المدينة كلها غضباً. عندما علمت بالفعلة فكرت أنا نفسي وقتها بأن الانتقام هوأعظم متعة.

في هذا الشهر، خطَطْت على الخارطة خطة للاقتراب من البحر. كنت بحاجة إلى نقطة للنزول إلى البر. كانت الحجة التي تذرع بها سلطان مراكش رافضاً الدعم الذي طلبته منه، هي أنه لن يخاطر بإرسال

المساعدة إلى شاطئ معاد. خططت للاقتراب من الموانئ التقليدية لمملكتي، المنكّب وسالوبرينا عبر همدان. كان الطريق إلى البحر، إن لم أحتلها، محالاً.

انتشر خبر الحملة، رغم أنني قدتها بكثير من التحفظ، مثل البارود. عبر منحدرات جبال شلير، التي كانت ما تزال تحتفظ بالثلج رغم الحر المتصاعد، تَدفّق شعب تواق للقتال، وتوقه يزداد مع ازدياد الإذلال. شباب ثائرون، يتحملون بأنفسهم مسؤولية مستقبلهم، رعاة غريبوالمظهر، مجهولون وضوار يجاهدون كي لا ينحنوا، مؤمنون صيغوا في عزلة الثلوج الدائمة، لم يعرفوا حتى ذلك الوقت بأن الركن الوحيد المتبقي للإسلام في أسبانيا كان غرناطة. جاء هذا الحشد التابع لقادته وفقهائه ليزيد من حجم الجيش غير اللامع، الذي خرج مرة أخرى عبر باب البيرة وكان مساء أطول يوم في السنة. ناهضاً على ركابي جوادي قلت لهم بجلالة:

ـ مجد الله في أيدينا. من يسقط منا فوق هذه الأرض، التي نطؤها الآن وانتزعت منا، سيرى فجر الجنة غداً.

كانت همدان محمية بقلعة منيعة ومزودة بالرجال والمدفعية. حاصرتها، رغم أنني حكمت أمام تماسكها وارتفاعها أنها عصية، لكن لم يكن للحكم أي عمل هناك. لأنني كنت على علم بما أعرض نفسي له، أوبالضبط لهذا السبب أصدرت الأوامر. هدمنا جدرانها، فتحنا فيها ثغوراً بإمكانياتنا المتواضعة وهجوماتنا التي كانت على شكل أمواج لا يمكن مقاومتها قضى كثيرٌ من رجالي نحبهم فيها. كان الليل لا متناهياً، ربما لأن الزمن قد توقف. كان العرق والدم يتصبب منا عندما استطعنا أن نستولي على ثلاثة حظارات ونهدم البروج التي تحميها.تراجع المدافعون إلى أكبرها، الرئيسي بينها، إلى قصبتها. ولكي يحمي رجالي أنفسهم من قذائف الشرافات، كانوا يقتربون من قاعدتها تحت دروع من الخشب والجلد الطازج. فيلغمونها ويضعفونها. أخيراً ـ تأكدت فيما بعد أنه كان اليوم الخامس من المعركة ـ وحين ثُقب البرج وكان على وشك الانهيار ليُقبر فيه من تبقى من حاميته، استسلم قائده دون ميندو ده كيخادا مع رجاله ومؤنه وأسلحته وأمتعته. وسقطت في أيدينا، بعد همدان عدة قلاع في البشرات ووادي لقرين، الذي نسميه نحن وادي السعادة.

احتُفل بعودتي إلى غرناطة كما لوكان الأمر يتعلق بتنصيب جديد.

وتحوّل التحامل والحقد عليّ إلى حماسة وامتنان. في اليوم التالي أرسلت منادياً يعلن، في كل الساحات، التجنيد العام: عالون ودانون، أشراف وعامة، أغنياء وفقراء، الكل مدعو لمرافقتي إلى المنكّب. وتطوّعوا فخورين متفائلين، على عادتهم، مستعدين للحاق بي.

كان قد انتصف رمضان عندما جاءتني مريمة، بعد صلاة الجمعة الثانية، لتودعني آخذة الطفل يوسف من يده. كانت عيناه بنيتين مذهبتين، مختلفتين عن عيني أخيه أحمد، الذي لم أكن أنساه. شفتاه مكورتان مثل نوريتي زهرة. أخذته بين ذراعيّ، وبينما كان الطفل يعبث بلحيتي، كنت أشد من عزيمة أمه.

ـ كنت جرواً مثل هذا وكبرت. أنا واثق الآن أن الأسد سيستعيد مملكته.

قبلت الإثنين. كان يوسف يبكي، لأنه لا يريد أن ينفصل عني، ويمسكني بيديه الصغيرتين من ثيابي. أدرتُ لهما ظهري وغصة في حنجرتي. امتطيت الجواد وخببت أمام الجيش، الذي كان يغني ويصخب. في الطريق خرّبنا برج بدول، الذي كان النصارى قد احتلوه من جديد. وبالاندفاع نفسه استولينا على سالوبرينا باستثناء القصبة، حيث عانى أمراء غرناطيون كثيرون السجن والموت وعاش بعض المعزولين عن العرش مع أشجانه. وكانت حاميتها قد عززت بقوات وصلت بحراً عبر مالقة وبراً تحت أمرة هرناندو دل بولغار. كان واضحاً أن القصبة تقاوم مقاومة مستميتة. حاصرناها من جميع الجهات وقطعنا عنها المياه. كان الحر قاسياً. أسراب الطيور آكلة الجيف دلتنا على الوقت الذي ماتت فيه الدواب والخيول من العطش. تلقيت بعد خمسة عشر يوماً، شابهت الأعوام، بينما كانت تعزف استسلامها بأصابعها، خبرين: وصول النجدات النصرانية الأكيدة وتوجه الملك فرناندوالسريع إلى غرناطة، التي تركتها دون حماية تقريباً. كان قد وصل الإنهاك مني حداً لم أكن أدري ما إذا كنت كرهت أوشكرت بعض الأخبار التي تسمح لي ـ بل وتفرض عليّ ـ أن أغادر بكرامة ذلك العذاب الذي لا يحتمل، ذلك الهواء الكثيف من الغبار، ذلك الطين في الفم وفي العيون. رفعت الحصار وسرت بسرعة الطير إلى العاصمة، التي كانت أكثر ما يشغلني.

لمحناها عند الغروب. دخلناها في أول ساعات الليل. كان الصمت صمت مدينة مهجورة. على الحجارة تسمع حوافر كل جواد. مهيبة كانت

الأبواب الموصدة، الستائر المسدلة، المشارف الخالية، السطيحات بلا متفرجين، الشوارع الموحشة. المدينة التي تجاهلت جنودها انكفأت على نفسها. كانت النقيض للمدينة المتأججة التي استقبلتنا بعد النصر في لقرين. راح رجالي، المطرقون والمنهكون يترجلون عن مطاياهم دون أن يجدوا يداً صديقة أوعاشقة تساعدهم. ورغم أنني تأقلمت مع مزاج أتباعي فقد بدا لي غير عادل هذا الاستقبال، بعد شهر متواصل ورهيب من الأحلام المتواصلة في العراء، من المخاطر والعذابات، من الحرمان والضيق. كانت الجداجد والأزهار قد كست الليل في الحدائق. دخلت الحمراء كمن يدخل في النسيان.

في الحملات الأخيرة كنت قد أقمت صداقة مع أحد الرؤساء الشباب. كان لاجئاً من بسطة لا يزيد عمره عن العشرين سنة إلا قليلاً، وكنا ندعوه فرج البسطي. انبثقت صداقتنا، مثل الحب أحياناً، فجأة. عند قاعدة برج الحراسة في همدان، دفعني بعنفٍ ورماني على الأرض وسقط فوقي. فكرت أنها محاولة لاغتيالي إلى أن رأيت حجراً ضخماً موجهاً إليّ، يسقط في المكان الذي كنت أشغله. شكرته وتابعنا المعركة سوية. منذ تلك اللحظة لم ينفصل عني. كانت صداقتنا تتوطد وتعطي نتائجها المستمرة سهراً وعناية.

كان عليه ـ حكى ليَ بخجل وتحفظ ـ أن يتزوج من فتاة ميسورة الحال. وبضربةٍ من القدر الفظيع، أثناء ضياع مالقة، حيث كانت في زيارة لأسرتها، أُخذت عبدة. ولم يسمع بعدئذ كلمة واحدة عن الفتاة، التي كانت تدعى وداد، ويعني الألفة. ولم تُجْدِ التحريات ولا التأثيرات. لم تجد محاولات الافتداء والتقصي، فودادهُ، الفته، اختفت كلياً وإلى الأبد... وانتصب في قلب فرج شعوران متناقضان: واحد فاعل وهومقت الكفار الذين دمروا غاية حبه، والآخر، سلبي وهوالألم الذي كان ما أن يخرج من المعركة حتى يخثّر عينيه من البكاء. هذا الشعور الثاني هوالذي كان يدفعه دائماً ـ أكثر من الأول ـ إلى أكثر الأماكن خطورة، هوالذي أيقظ فضولي. فحزن فرج ذكرني بأحزان أخرى، أحيا على أنقاضها.

كنّا أنا وفرج في ليالي الحرب التي يحل فيها الخوف محلّ النوم ويخفف الخطر من درع الإرتياب الذي يعزل بعض الرجال عن بعض، نتبادل وجهات النظر والرأي حول قضايا ليست دائماً مرتبطة بالكوارث

أوالنصر. اكتشفنا أننا متماثلان أخوياً. كان هوفتى رشيقاً، أبيض البشرة، لاتختلف ابتسامته، التي تظهر على شفتيه حين يسلو ألمه، عن ابتسامة أخي يوسف البهية والحيوية. رحت أغوص في أعماقه ببطء شديد، وكذلك هو. عندما انتبهنا، كان قد مضى عليه أسابيع لا ينفصل عن يدي اليمنى، ليس تعييناً، وإنما عملياً، كان قد تحول إلى رئيس للأوامر أستشيره في طابع المعركة، ينقل القرارات التي كان يساعدني بنفسه على اتخاذها. أجهل ـ لم أسأل نفسي هذا السؤال ـ ما إذا كان إصراري على بقائه إلى جانبي، لا ينفصل عني، عائداً إلى فائدتي منه، أوحرصاً مني لمنعه من أن يخاطر بحياته في الصف الأول. لأن عزمه الأساسي كان، كما يبدو، الموت على يد النصارى أكثر من الانتقام منهم.

حتى ليلة العودة تلك، لم يكن قد قام بيننا أي احتكاك خارج المعارك. في غرناطة ذهب هوإلى ثكنته وأنا إلى القصر. كبيرة المرارة التي أثارها في نفسي نفور الغرناطيين، إلى حد أنني دعوت فرج إلى حفل في بيتي. كان كما لوأنه يسحب مني الحياة فجأة وبشراهة، بعد احتكاك الموت وبأنفاسه الباردة. قمنا بالحفل وحدنا. من الحمام، الذي أخذناه معاً وحتى الضحى المتأخر ونحن نتسامر ونشرب. استمعنا إلى أختين مغنيتين من القلعة، فسرّنا خبثهما المرح. بدا لنا مثل الكذب أن يكون ما يزال في العالم موسيقيات وراقصات رقيقات، وغمرنا تسرّب اليوم الجديد النقي الذي استسلمنا إليه ممددين وسط الحديقة، جسداً وروحاً. ثم عبرنا منطقة الحراسة على رؤوس أصابعنا، مع ساقيين وصعدنا إلى برج التكريم، كي نشاهد الشروق. لا أدري لماذا أستطيع أن أستحضر وبكل دقة، المنظر العام يتقدم مطواعاً من عيوننا وفي الوقت نفسه صورة فرج الجانبية، المنظر المتبدل والهفهاف أيضاً. كان عبق الحدائق الملموس والكثيف، الذي يكاد يبشم، يصلنا مثل مداعبة. الظل ما يزال يوحد أبراج وبيوت الحمراء بينما بدأت السماء تخضرّ وأعتم القصر الريفي في المنية الذي يحرس، إلى الأعلى من جنة العريف، الساقية الكبرى. كنا تحت قبة زرقاء، تضرب إلى السواد باتجاه الغرب، وكانت العصافير الأولى تزقزق في إحساس متلجلج بالنهار وجلبة مختلطة مبهمة ومستجدةٍ ترتفع من المدينة. كان الضوء قد أقام هناك قبل أي مكان آخر بينما بيوت وبساتين البيازين تنوس وتومض بصعوبة في الزرقة القاتمة. كلاب تنبح، أصواتٌ فردية، من تلك التي لم تهتف لنا عندما وصلنا، بدأت تتمايز. كان المرج ما يزال يطفوفي الضباب وثلوج قمم جبال شلير، التي تشير إليها مئذنة جامع الحمراء، مثل سبابة تنبلج خلف تفرعات السلسلة

الأولى، والطيور الجريئة تتصايح وتتهافت ولون الغسق الوردي إلى اليسار من قصر الحراسة ينبلج في السماء، يكاد يكون خبازياً بينما راحت الشمس، التي لم تكن قد ظهرت بعد خلف الربوة التي تحمل اسمها، تضئ البعد الأول من الغرب.

ـ ضوء الشمس يصلنا قبلها ـ همس كما لوكنا في معبد.

انزلقت دمعتان على خديه. مددت يدي وشددت على يده. وبإجهاش بدا شخيراً، لعمقِهِ، شد على يدي، إلى حد أنه آلمني. شعرت بمتعة ألمٍ لا توصف.

بدأ يسار قصر المنية يتأجج وجنة العريف تبيّض. البيازين صار واضحاً، وراحت تتحدد المسافات التي كانت الظلال تخلطها. كان الأفق أمامنا أخضر مثل تفاحة وبيوت الجنود، تحت البرج تُفتح وتُغلق. ازدادت مع قرع على الطبل الجلبة والجري والضحك وكذلك بذاءة ولعب الجنود الشباب والأغرار، الذين ما يزال يسيطر عليهم النعاس، بالماء عند الاغتسال.

ـ لا يعرفون بعد أنهم هُزموا ـ همست.

عادت يد فرج لتضغط على يدي.

ـ لا تقل هذا ثانية، يا مولاي. توكّل على الله الواحد الأحد.

مونتبيت، التي كانت مثل الرضى بين الغرب والجنوب، تحولت إلى ومضة وسط الضباب الرصاصي للجبال التي تحيط بالمرج. هناك وراء ربوة الشمس لم يبق أي لون في السماء: لا شيء غير النور. وكان العالم الذي يكتسي تدرجات ألوانه اليومية، مثل من يرتدي ثيابه المعتادة عند الفجر.

كل الطيور كانت تصدح للنهار الجديد متداخلة ومجتمعة. أمامنا منظر من اللؤلؤ والبيازين تحت ضياء كامد وجليّ. ارتفعت الشمس تُرنم نشيدها الذهبي. ومع ذلك انفجر فرج بالبكاء. عانقته. وكان بكاؤه بين الفواق والإجهاش مرتعشاً مثل بكاء طفل. ربتُّ على كتفه وحدثته بصوت خافت عن أشياء لا معنى لها، حاولت تهدئته. قبّلني بشفتيه، المنتفختين من الخمرة والألم، على خدي. هبطنا، متعانقين، أدراج البرج الضيقة. متعانقين ومترنحين قليلاً وصلنا إلى قصر يوسف، ومتعانقين نمنا كما لوكنا تحت الخيمة نفسها أوالعراء نفسه في ليالي الحرب المتطاولة والمرتعشة.

لم يتأخر العدو - أخبرني بذلك الجواسيس. - مَثُلَ في ذلك المساء في المرج، يرافقه كثير من المدجنين، الذين يستخدمهم كمستشارين. أحرق أوقطع في ثمانية أيام المزروعات والقمح والدوالي وهدم الأبراج. مثل برج الملاحة. لم يحاصر غرناطة حسبما عرفت، لأن الحمى كانت قد حلت بالملكة، التي أمرت مركيز بلّيينة وقند تنديلة وألونسوده أغيلار وبورتوكارّو أن يضعوا، ودون تأخير ولا تفكّر، حداً لغاراتنا، وألّا يسمحوا بانتزاع أي من المواقع التي احتلوها. توجه، بعد ذلك، الملك فرناندو إلى وادي آش فدمّر القلاع وطرد المدجنين انتقاماً. فلم يبق فيها ولا في رباطاتها مؤمن واحد. وأمر في الحال بهدم قلعة أندراش وبإجلاء المرتدين، الذين كانوا يقطنونها. وطبق الأمر أيضاً على عميّ *الزغل*، الذي سحب منه، دون توضيحات، التقدير والمرتبة. فلماذا يحترمه بعد أن استخدمه؟

منكمشاً في برج قمارش، حيث ارتجفت في طفولتي خوفاً، فكرت في محن *الزغل*، الذي انهالت عليه نبال الرزايا، وهوغير قادر على أن يمسك بالقليل الذي تبقى له من أتباعه، خجلاً من خيانته، واهن الروح مكروبها. غير ماهر في أن يكون تابعاً حيث كان ملكاً... لم أستغرب ما جاؤوا ليقولوه لي. طلب - وقد سلّم بأن حياته وجهده ما قبل الأخير إلى ضياع - من فرناندو أن يتركه يعبر إلى أفريقيا حسب الشروط الموضوعة. وفي اليوم الذي عهد من لا يُغلب بنفسه إلى رحمة هازمه، كسر ترسه - الذي كان يُقرأ عليه شعار:«الحب هوالسلطة»، وقاده إلى ساعته المشؤومة - نصفين. لم يملك *الزغل*، الذي جسّد شجاعة الجميع، أية شجاعة، كان يتطلع فقط لأن يعيش، معزولاً ومجهولاً من الجميع في مكان لا أحد يعرف فيه كم كان عظيماً هذا الذي لم يعد شيئاً. توصلت في برج قمارش، المنتصب فوق العرش النصري، إلى النتيجة القائلة بأن الذي يعرف كيف يختبئ جيداً هوالذي يعيش أفضل، وأن الولادة بجانب العرش مثل الولادة على حافة الهاوية.

باع *الزغل* - بعد أن مُنح اذناً بالانتفاع، وكأن المرء يحتاج كي يموت لأن يطلب الموت - جميع أملاكه لملكي قشتالة. في بداية الخريف وقبل أن

تهب عواصف المضيق، ابتعد عن الأندلس من كان باستطاعته أن يكون ملكها دون منازع. من يتصور ما يعني هذا؟ أن نبدأ حياة جديدة في الوقت الذي تدير فيه الحياة الحقيقية لنا ظهرها، ونتيقّن أنَّ الأرسخ والأكثر ألقاً وعاطفة في قدرنا قد حدث ولم يتبق إلا ما هورتيب وأحادي الوتيرة ويسميه العاديون حياة. ما أظلم ألاَّ يموت الأبطال في قمة بطولاتهم. فالعظمة عندما تبلغ تمامها يجب أن تلتهم صاحبها، لأن هذا سيتكسر ويستهلك نفسه ويصغر بعدها، ولا يبقى منها إلا الذكرى المضنية والقاتلة. مَن كان ملحمةً ونموذجاً، أبحر، وقد جُرِّد مِن نفسه، من ألمرية مع عدد قليل من أتباعه الذين طلبوا اللحاق به. أخذ الطريق إلى وهران ليتخفى وينتظر بلهفة الموت، الموت الذي نسيَ قَدَرُهُ كمحارب وكملك أن يُقدِّمه له في اللحظة المناسبة.

انتقل فرناندو، وقد وثق من تلك الأحداث إلى الحدود الشمالية لمملكته حيث كان ينخسه الفرنسيون. في غيابه ذهبت، أنا الذي أحمل *الزغل* في قلبي، لأجله ولأجلي، مع جنودي، كما لوفي رحلة حج، إلى أندراش. إنني واثق من أن هناك لحظات في الحرب والسلم، يكون فيها أي انسان غير قابل للترويض، وإذا ما مارس إرادته المطلقة، فإنه يحقق ذلك، دون أن تجدي التداخلات ولاالعوائق التي تحاول أن تردعه. لاحظت إعجاب وحماسة فرج اللذين انعكسا في عينيه عندما هاجمت، على رأس جيش متواضع، ودون خطاب ممل ولاتردد، تلك القلعة التي آوت المحنة ماقبل الأخيرة والهزيمة الداخلية للرجل الذي كان موضع احترامي منذ طفولتي. لم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئاً لأجله إلا أن أنتصر في المكان الذي هزم فيه. استوليت في نهاية أيلول على أندراش ودخلت في طاعتي الأماكن التابعة لذلك الإقليم، وشعرت عند احتلالي لها أن قوتي ويديّ مندوبةُ *الزغل*. «هذا أفضل ـ قلتُ لنفسي ـ لأ نه كان قد نبهني، في رسالته المتأخرة، إلى أنّ يديه ستحافظان على تلك الأرض بثبات أكثر من يديّ.»

وبينما كنت أفكر بهذا الشكل،وضع فرج يداً مناسبة غلى كتفي.

ـ أنت عليك أن تتبع نجمك الخاص بك، يامولاي. فليرشدك نوُرُه وَلأرافقكَ أنا.

أجبته مفعماً بالامتنان:

ـ لوكان كل رجالي مثلك،لكانت إطاعتي لنجمي أسهل بكثير.

تلت استعادة أندراش استعادةُ برشانة، حيث انتقمت باسم الشيخ

الشموخ الذي رفض أن يبيع نفسه. وقعت حاميتها في الأسر عندي وعاد سكانها، الذين كانوا قد ارتدوا، إلى ديننا وطاعته. وانتفض أهل فينيانه،الذين ألهبهم مَثَلُ برشانة، على مُخْتلِيّ قَصَبتهم،لكن قائد وادي آش الذي نُبِّه إلى ذلك، انقضّ عليها بشكل مباغت وقطع،بمساعدة الذين كانوا يهبطون من القلعة، والسيوف في أيديهم،رؤوسَ من استطاع من السكان، وأسر من بقي حياً وحمل معه كل ماوجده في طريقه.تَوَسّلني سكان قرى شينت، الذين ذعروا، أن أساعدهم بالجنود والدواب التي سينقلون عليها أمتعتهم وأقواتهم فكان لهم ذلك. كان أيلول ينتهي والغابات لم تكتسِ بعد بلونها الذهبي. أمرت بالبحث عن الخيول التي تنقل الحبوب من تلك الأرض الخصيبة كما أمرتُ بأن يلجأ سكانها إلى غرناطة،وَجْهَةِ كل الذين كانوا يعارضون في داخلهم الكفار. أمام عدم التأكد مما كان ينتظرنا في الشتاء القادم، سررت لأنّ كمية القمح والشعير والدخن كانت من الكثرة بحيث يصعب نقلها. في شرش وصلني خبر مفاده أن النصارى يستعدون لغزونا فعدت إلى غرناطة. في اليوم نفسه الذي أتممت فيه الثامنة والعشرين سنة عرفت أن النصارى قَدَّموا، عندما رأوا قرى شينت مهجورة، الأمانَ لكل من يرجع إليها. كثيرونَ وثقوا بكلمتهم وعادوا في الحال، بعد اسبوع كان قد عاد الجميع تقريباً. ولم يبق إلا عدد قليل في أراضي المسلمين. هدية عيد ميلادي الفاخرة قناعتي الأكيدة: كم هي متقلبة عهود ورغبات البشر.

بقيت العناية الإلهية رحيمة حتى الربيع. سمحت لنا أن نتسلى بتصوّر أننا نشكل فيما بين الجميع مملكة صغيرة. خدّرَتنا بسعادةٍ هشّة وواهنة، هذه السعادة التي يتقنّع بها انقطاع الشقاء. كانت الأيام ـ الأولى والأخيرة التي تمتّعت فيها بسلام نسبي ـ تجري باتساق لذيذ. أقضي بالعدل الذي يُخترقُ كثيرا ودائما في أوقات الحرب، إذ ولأن الحرب هي أكبر الشرور والفوضى، يبدو أنها تغفر بحضورها الشرور الصغرى. كنت أجهد نفسي بأن أقضي في الجرائم والاغتصابات والسرقات باتزان كبير، كي أقنع رعيتي بأن النظام ـ الذي نعرف جميعا بأنه مصطنع وزائل ـ هوالخير الأسمى، وعلينا أن نرعاه جميعا. أحضر بورع ومواظبة الصلوات التي كانت تقام باسمي. أقيم الحفلات في القصور لكبار أعيان البلاط القليلين إلى حد أننا جميعاً كنا نعرف بعضنا بعضا، وأكثر من اللازم. أستقبل صادقاً، إلى هذا الحد أوذاك، أولئك الذين يأتون لاجئين إلى غرناطة من المناطق التي كان نير المنتصر فيها يزداد ثقلاً في كل مرة أكثر. أستقبلهم

محاولاً أن أمحو من عيونهم ومن قلوبهم جراح الخسارة. بعد الانتهاء من عملي كنت أرتاح مع فرج ومريمة. يحاول كل واحد منا أن يُنسي الآخَرَيْنِ مالاينسى بالنية الطيبة التي لافائدة منها، كمن يقدّم لمحتضر قارورة من العطر ليشمها. أتسلى في كل مساء وأتأكّد بجلاء أكبر أن *مرنان*،كلبي، بعد زمن التآلف مع ابني يوسف، صار يفضله بكل. وقاحة عليّ فأردّ عليه بالوقاحة نفسها. كنت إذن أحاول أن أترك انطباعاً عند الجميع بأنه مامن شيءغير طبيعي يجري وأتستر على خطر معلق إلى شعرة، مثل سيف دمقليس،يترنح فوق رؤوسنا.

مالا بد منه كان قابعا على أبواب بيوتنا، لم يكن ضرورياً أن يُرى. لكن الانسان الذي اعتاد أن يعيش موقنا بموته الأكيد هوأكثر المخلوقات قدرة على التكيف. كان الشعب يتجاوب بوداعة مع تملصي المكشوف، ويتسلى بالنظر إلى الجانب الآخر، ويبالغ بالاهتمام بالتفاهات والتي غادة ماتتوج نهاراتٍ من يعتبرهم المبتلون بالمحن سعداء: وكأن هناك من هو سعيد. يتعايش المتألم مع ألمه ويتآلف معه إلى حد أنه لو اختفى اشتاق إليه. مَن يَعِشْ في مدينة سيئة الطقس أومخرّبة بالرياح، يعتبرها له، إلى حد أنه سيرفض مغادرتها حتى ولوسنحت الفرصة له بذلك. هكذا هم الغرناطيون، عندما يقارنون أنفسهم بمسلمين آخرين أكثر شقاء -قادمين من الأراضي المحتلة بل وأكثر منهم أولئك الذين لايجرؤون على مغادرتها. -كانوا يعتبرون أنفسهم من أصحاب الحظوات ويخدع بعضهم بعضاً، وهم يرون أنفسهم محاطين ببيوتهم وأولادهم ونسائهم. يغنون عندما يخرجون للعمل في الارض التي ببعدها عن شر البشر كانت تتفتح للزرع الجديد، ويغنون عند العودة من العمل. هبط علينا وعلى أرضنا من السماء غطاء من الرحمة والحنو: القساوة الضرورية التي يثلم بها الكائن البشري حدّ أرقه وهوسه كي لايموت.

ومع ذلك لم يخرس النصارى كلياً. فقد فعّلَ قند تنديلة في القلعة والآخرون في مواقعهم الحدودية، جواسيسهم وخبراءهم بالأرض. كل واحد منهم يحاول مدفوعاً بحماس فارغ للمجد، أن يوقع أكبر ضرر ممكن بمن كانوا بيننا ويشعرون أيضاً بأنهم مدفوعين بحماسة أكثر فراغا للمجد. كان الشتاء قد حل، على سبيل المثال، عندما أسروا لنا مئة وعشرين فارساً تركتهم بإذن مشكوك فيه وبالإكراه يذهبون لينقضوا على النصارى الذين كانوا في غفلة أكبر. لكنّ جندياً مسلماً خائناً أحاطهم

علماً بذلك. وعند منتصف الليل والبرد ينخر في عظامهم، فاجأهم، غافلين، دون غونثالوالقرطبي وَمَنْ أصبح صديقاً ودوداً له، مارتين ده ألاركون، في موضع حراجي. انقضوا عليهم خارجين من مكامنهم المنتشرة في الممرات الدقيقة،بصخب عال، من أمامهم ومن خلفهم. أسقطوهم واعتقلوهم وقادوهم إلى قلعة يحصب.

بعد وقت قصير عزّز مركيز بلّيينة القوات الحدودية بقواته، وقد جاء لزيارة صهره تنديلة وأخته القادمة من برج دون خيمينوحيث كانت تقضي الفصل، مما زاد من جرأتهم فقاموا بغارات وصلت حدود غرناطة نفسها وأحرقوا لنا أكوام التبن والمواسم على البيادر حيث كانت مكومة هناك منذ جمعت.

رأيناها تحترق من نوافذنا بين صيحات النساء ودموع الغضب. لكنني منعتهم من الخروج، تحت طائلة الحكم بالموت، لأنني توقعت أن مثل هذه الإثارة إنما هي خديعة.

وكان غونثالوالعارف الجيد للأرض يكثف كمائنه، وينقض مع فرقه على جنودنا ورعاتنا، يسلبوننا قطعاننا، كما كنا نفعل نحن في مناسبات أخرى، تسلية منه وكأنه كان يرسل إليّ بغاراته تحياته. بهذا الشكل كان الشتاء يمضي بين كرّ وفرّ، بين ربح وخسارة،بين مغامرات صغيرة، تُقلّص عددفرساني ببطء لكن باستمرار.

خلال ذلك كنت أنظم، مع أقرب مساعديّ، ماكان سيشكل الحملة المرتقبة دون تبصر. وكنت أطلب من الله أن تطول خلافاتهم مع الفرنسيين لتبتعد جيوش النصارى عن بلادنا، لكن دعاءاتي كان يفسدها يقينُ أنه مامن معجزة من المعجزات، التي أعتبرها مقبولة، ستبعدهم نهائياً عنا. تتالت هجمات النصارى أمام أسوارنا، تماماً كما تتتالى الفصول بدقة، ولم يبق غير هجوم واحد.أدرت ـ بوعي للأمر وبثبات دهشتُ له أنا نفسي،، إلى حد أنني شككت فيما إذا أصبتُ بعدوى التفاؤل الذي كنت أغرسه في الآخرين ـ التموينَ، التوزيعَ، وتخزينَ المؤن، والإحصاء والنظافة، وإصلاح الأسلحة وتدريبات الجيش، وكلّ الأعمال اليومية المعتادة، لكن بالتحفظ نفسه الذي نعطيه مظهر اليوميّ ونحيط به اللحظات الأخيرة لمن نعرف أكثر من غيرنا، بأنّه يموت. بل وكان يفيض عني شيء من الوقت، قبل أن تنتهي أيام الشتاء القصيرة، لأستردّ من كتبي سكينةً عاثرةً أقنّعُ بها هذا الاحتضار.

ما من شيء حدث في تلك الأشهر الستة جدير بالذكر الخاص، أي أنها كانت أشهراً سعيدة. لا حبُّ مريمة أدركَ فرط قساوة برقونة ولا صحة الصغير يوسف أقلقتنا. فقط في الظروف القاهرة، عندما كانت تنهال علينا بحرابها، كنت أسمع تنهّد مريمة، فأفهم دون أن تقول لي شيئاً أنها اشتاقت لنظرة أحمد وضحكته. ومسألة أن أحمد، إبننا البكر، في حوزة من نلقى منهم الأمرّين في خبزنا ومائنا وهوائنا، كانت فاجعة جلية. ومع ذلك فإنني أكرر بأن الإنسان يعتاد كل شيء، حتى غياب أحب الناس إليه. البرهان الحي على ذلك كان يقدّمه لي فرج. فقد كان يستل نفسه من الحزن، يستجمع حياته كذكرى لشبابه، ويروّح عن نفسه بالتدريبات. يستعيض بصداقتي واستسلامه لي عن كل شيء. المرة الأولى التي رأيته فيها يضحك مقهقها كانت في يوم من أيام كانون الأول حيث تدحرج ابن كماشة، عند خروجنا من قاعة المجلس. كان يهبط درجة فداس طرف ثوبه وهو يتحدّث مع القيسي الذي كان خلفه، حتى وصل البركة نفسها، وسقط هناك وقتاً طويلاً. بقيت قهقهة فرج عالقة وقد فوجىء هونفسه بها ناظراً إليّ بارتباك.

ـ مبروك ـ قلت له ـ فأنت لم تنس الضحك.

حاول أن يستجمع حزن وجهه، لكن شيئاً جوهرياً قد تبدل. اعترف لي ذات مساء:

ـ أنت ملكي في كل المعاني. فإلى جانبك استعدت باضطراد كل ما كان قد انتزع مني. لك انتمائي، يا مولاي.

ـ هناك معنى لاأحب أن أكون فيه ملكك: تماماً هوالذي أنا فيه ملك بالنسبة للآخرين.

فكرت في غالب، فغشت الصباح غيمة خفيفة. لم تتأخر في الانقشاع.

جاء الربيع واستنفدت حلاوته إمكانية الاستمرار بخداع أنفسنا. فحيثما وجد الغرناطيون، تابعوا، فجاة، النظر إلى الأفق. يصعدون إلى المشارف، يطلون على الأسوار، ويرقبون ليروا ما إذا كانت تقترب عجاجةٌ، أويصيخون السمع ليروا ما إذا كانوا سيسمعون ما يخافونه. فالربيع بالنسبة لشعب ينتظر عدوه، فصل قاتل.

كان ذلك يوم 22 نيسان. مع اخضرار القمح دخل فرناندوالمرج قادماً من قلعة يحصب. ثم وبعد أن أتلف الأرض ومحق القرى سار إلى وادي لقرين، الذي كان يتألق مثل مرآة متلألئة، فهدم وقتل وأسر كل من كان حياً فيه. وعندما رأيناه يعود إلى المرج عرفنا، دون أن نتفق على ذلك، بأنه عاد ليبقى. نصب خيامه الملكية في قرية الغسق وجاء معه بجيش لايقل عن أربعين ألف راجل وعشرة آلاف خيال، محتاطاً تماماً بما هوضروري للنصر السريع.

أخرس ظهوره غرناطة.

كان المعسكر الذي ملأ الحقول هناك أمامنا مثلاً شاهداً على ضعفنا. توبيخ على أخطائنا، رسول لم يقرر بعد أن يعرض رسالته. فسطاطاتٌ مختلفة الحجوم والألوان، خيامٌ، أكواخٌ، اسطبلاتٌ، مخازنُ هائلةٌ، راياتٌ، أعلامٌ: مدينةٌ لم تبنَ إلاّ للنصر، للانتظار دون سرعة. فالطريقة الأنجع لاحتلال مدينة مسورة هومحاصرتها بالجوع. الضواحي دُمِّرت، المحاصيل أُتلفت، الآبار جُفِّفت، السواقي هُدِمت، صار يكفي إغلاق أبواب غرناطة، وقطع الطرق الهابطة من البشرات، وإيقاف من يمكن أن يمدوا لنا يد المساعدة. دون سرعة، للانتظار شُيِّدت تلك المدينة من الخيش والأغصان، المدينة التي عُمِّدت بالاسم الفعّال: الإيمان المقدّس (سانتافِهْ)، ترسيخاً للعملية وإلزاماً للناس فيها. وفي الليالي، التي لم تكن تدعو غرناطة أيام زمان إلاّ إلى الخمول والحب، في الليالي العطرة، كان الغرناطيون يرون من الأسطحة آلاف الصلاءات تشتعل، يسمعون، أويعتقدون أنهم يسمعون قهقهات الجنود، الأناشيد التي يحيون بها ذكرى أوطانهم، والرقص والموسيقى. يسمعون أويعتقدون أنهم يسمعون تلك الموسيقى الأخرى الناعمة واللطيفة للاستقبالات الملكية، التي كانت ترتفع تماماً كما في القصور، ليشبعوا الجميع بجدية وثبات الانتظار. يسمعون جلبة الاحتفالات في أيام الأعياد والمبارزات والتسليات الصاخبة، ويسمعون أصوات الحراس وصراخ الخفراء، ليذكرونا بأن ذلك كان لأجلنا، يقظاً ومترصداً مثل حيوان ضار قابع يتظاهر بأنه غافل قبل الانقضاض.

لم يكن أيار قد انتصف، عندما تحول الليل كله من جهة الغرب إلى صلاء هائل. كان الضوء من القوة بحيث بدا من بعيد شروقاً أحمر. هزّ الغرناطيون المستيقظون النائمين منهم معتقدين أن الأمر يتعلق بحيلة. أمرتُ بألا تُزعجَ مريمةُ وهرعتُ مع فرج إلى برج الحراسة. كانت قد

سبقتني أمي إلى هناك، قرب الشرافات.

ـ المعسكر يحترق يا ولدي، يحترق! ـ كانت تصرخ وقد فقدت صوابها من الفرح ـ الله معنا.

كان هواء الليل يزيد من حجم الحريق. وكان يصل إلى سمعنا صهيل الخيول التي جُنَّت وصياح الناس الذين أخذهم الحريق وهم في عزِّ نومهم، وانفجار البارود، الذي كان يضاعف الدمار. كان أبناء رعيتي يصفقون للمشهد، كما لوكان تسلية من النيران الاصطناعية عملتها لهم إرادة أكثر حتمية من إرادة البشر. وحرَّكت بلوى المهدِّد مرَّة أخرى الراحة عند المُهدَّد وأيقظت حلم الأمل الواهن: سيُؤجَّل الحصار من جديد، والحظ والله، كما كانت تصرخ أمي دون توقف، مالا إلى جانبنا، والنصارى سيضطرون للتراجع، ليجدِّدوا مؤنهم ومساكنهم، وأسلحتهم وحنقهم المدمّر. كانت النار تشبُّ، دقيقة، مدمّرة كل ما كان يرتفع أمامها أويعترضها. مثل دمية هائلة تركها طفلٌ غافل تشتعل، كان يحترق كلُّ ما كان يجعلنا نَجبنُ حتى تلك اللحظة، تحترق رفرفة الأعلام، وجلالة الفسطاطات والخيامُ، الأكواخُ، الكهوف، الأجسام. «كل شيء ما عدا الحقد»فكرت:«كل شيء ما عدا الحقد» كان الهواء يأتينا برائحة اللحم الشائط.......

انتابتني قشعريرة. الفجر كان رطباً. تصورت الحر الذي يشعر به النصارى في ذلك الجحيم. تمرمر فمي. خطر لي ربما في لحظة غير مناسبة تفاهةُ كل ما هوبشري وسرعة زوال القوة، بطلان كل أنواع العظمة. وكأن النيران شبَّت كيما آخذ درساً من محنة الآخر.

طيور مذعورة كانت تهرب من النيران، وخيول تجمح طليقة في منتصف الليل.

ـ إنها لحظة مناسبة للهجوم عليهم ـ قال ابن كماشة ببطء ودون أن ينظر إليّ.

ـ وماذا سنجني من هذا؟ ـ سأل عبد البر ابن سراج.

ـ تدميرهم! ـ صرخت أمي التي كانت تنتقل من شرافة إلى أخرى ـ تدميرهم!

ـ ألا تقوم النيران بهذا نيابة عنا؟ ـ تمتمتُ ـ المعركة لايمكن أن تُرتجل.

ـ تُرتجل؟ ـ كان الغضبُ يُحمِّر وجه أمي أكثر من الحريق ـ ثمانية

قرون ونحن نقاتل. أعلن النفير، يا أبا عبد الله. مرهُم بأن يدقوا النفير، وليخرج رجال غرناطة لينهوا ما بدأته النيران. في الحرب لايوجد قانون.

تمرمر فمي أكثر. انتابتني قشعريرةٌ أخرى.، وبادرة الندم. فكرت بابني أحمد وبالفتيان الذين بقوا رهائن في قرطبة. نظرت إلى اللهب الذي كان يطاول السماء. قدّرت الانتقام الرهيب للباقين أحياء. نزلت بعينيّ إلى المدينة، عدت بهما إلى البيازين، رأيت شعبي الذي كان يغني ويرقص في دروب الأسوار، منارأ كما لوبنيران الغروب، لكنه كان يغني ويرقص ذاهلاً من دمار المعسكر، الذي كان حتى هذا المساء يرعبه، المعسكر العامر بالناس، ولا يقهر. «إذا كان الله إلى جانبنا ـ فكّرت ـ فسيبقى إلى جانبنا».

ـ معك حق، يا عبد البر ـ قلت.

ـ هل خلت غرناطة من الرجال؟ ـ صرخت أمي مغتاظة.

ـ بل لم تخلُ ـ أجبت بحزن ـ ما يزال فيها مئة وخمسون فارساً. لا أدري ما إذا كان من الممكن ارتجال معركة، لكن جيشاً لا يمكن أن يُرْتَجَل. انسحبت إلى القصر. هدّأتُ مريمة التي جمّلها وهج النار. أقنعتها بالعودة إلى غرفتها. تملّكني إنهاك كبير. سقطت في النوم مثل حجر. لم يكن قد طلع الصباح حين أيقظني فرج.

ـ النصارى يعيدون تنظيم أنفسهم، يا أبا عبد الله ـ ناداني باسمي.

ـ وهل انتهى الحريق؟

ـ بلى. لقد التهم ما كان عليه أن يلتهم. لكن الجيش يتجمع في ترتيب قتالي.

قفزت من الفراش. كان صحيحاً. هذا ما أكده لي جاسوس وصل لاهثاً. لقد قرر فرناندوأن يستفزنا بمناوشة كي يجنب قواته فتور الهمة. خطته كانت أن يبعدنا عن الأسوار قدر ما يستطيع، وأن يواجهنا لا ليجرحنا أويقتلنا وإنما ليدخل من أبواب المدينة حتى ولواختلطوا بنا ومات من مات. كان اسم الجاسوس أبا القاسم، لا أدري لماذا أتذكره: إنه مثل اسم وزيري وكبير حجابي. كان النور قد بدأ ينزلق على جبال شلير. كان نوراً رمادياً، يسمح لنا بأن نرى الحقل، الرمادي أيضاً، الذي صارت إليه، مدينة الإيمان المقدس (سانتافه). كانت ما تزال ترتفع بعض هبات الدخان، ورائحة اللحم الشائط لا تختلف عن رائحة المعارك المغِرة.

فجأة عرفت بوضوح ما كان عليّ أن أفعله، أوما كنت سأفعله.

ـ لا أدري، يا فرج، ما إذا كان من المحال ارتجال المعركة، لكننا سنعرف هذا قبل الظهيرة. عندما تشرق الشمس تماماً سنخرج من باب البيرة. ليستدعوا رجالي. لنغافلهم! ميزة الجيش الصغير كجيشنا أنه يجتمع بسرعة. الآن أعرف أن النهاية اقتربت.

ذهب فرج للقائي في حمّامات داري، بعد أن انتهى من تبليغ أوامري. تعرى ببطء. كنت في قاعة الموقد. دخل بريئاً، وقوياً، ناحلاً وصلباً، وعندما اقترب صَبَغَت أنوارُ الكوى الملونة جسده بالأخضر والأحمر والأزرق. لم يرفع عينيه عني، وكأنهما مُغْبِطتا بعينيّ. جلت بعيني في جسده الجميل ثم بيديّ. تحاببنا بشراسة في قاعة الاستراحة. لم يحدث أنني مارست حركات الحب بمثل تلك المتعة الماحقة وتلك الشراسة. بدا وكأننا نمارسه، نحن الاثنين، للمرة الأولى. أم أننا كنا نمارسه للمرة الأخيرة؟

دهننا المسادون بالدقة الصارمة نفسها التي يقومون بها عادة قبل خطر مرتقب. طلبت بعد ذلك ثياباً نظيفة لي ولفرج وأمرت بأن تؤخذ أسلحتي إلى قصر أمي وأن يستدعوا النساء إلى هناك: لم تكن المرة الأولى التي نودع فيها بعضنا بعضاً بينما أرتب سلاحي.

كان الصباح يشي بأنه مشع وحار. « ستتلألأ الشمس قريباً في هذه البركة » فكرت. كان قصدي أن أنزع الأهمية عن الكلمات والحركات. تصورت، والمِغْفَرة في يدي قبل أن ألبسها، الحر الذي ستسببه لي. « لكنه لن يدوم ». قلت بنبرة غير مكترثة:

ـ اعذُرنني لكلِّ ما سببته لَكُنَّ من سخطٍ، وهوكثير، أعرف ذلك. اعذرنني.

انكمش وجه مريمة. وانفجرت في بكاء صامت. اذهلتني وداعة ذلك النحيب. جذبتها بذراعي الأيسر نحوي. قاومت مثل طفل يريد الواحد أن يسترضيه بعد عقوبة بالسوط لايستحقها.

ـ ماهذا الذي استجد، يا أبا عبدالله؟ ـ سألت أمي بصوت مضطرب.

ـ لم يستجد أي شيء. اتركي الأمر.

ـ بحقي عليك بالطاعة، قل لي ماالذي تريد أن تفعله والى أين أنت ذاهب؟

ـ ذاهب إلى حيث تتطلبه طاعتي لك. ليلاً سألت في درب السور، ماإذا

كان لم يبق رجال في غرناطة. بلى يوجد. ونحن ذاهبون لنقوم بواجبنا.

وعرضت عليها بأقصر مااستطعت خطتي: لن نبقى مكتوفي الأيدي بانتظار الهجوم، من الأفضل التخفيف منه متحملين الصدمة الأولى. عندما يلحقنا النصارى، الذين سنجذبهم باتجاه الأسوار، سيلتقون عندها بالغرناطيين الباقين، الذين سيمزقونهم، وسنعود ليلاً. لكنّ هذا ليس حقيقة.ليس هذا ـ أولم يكن هذا فقط ـ ماكنت أدبره. أمي التي كانت تتابعني بعينين هما في كلّ مرة أكثر انفتاحا،عرفته بحدسها، فقد سمعتني أقول مالم أقل. وكذلك مريمة التي كانت تبكي وقتها بإجهاش. راحت النسوة اللواتي كنّ يراقبنهما يطلقن، واحدة واحدة، أنينهنّ. تعقدت الأشياء أكثر مما افترضت. قمت بحركة رحيل غاضبة. أوقفتني أمي مُعْتَرِضَةً طريقي.

ـ تبحث عن مخرجٍ لا وجود له، يا أبا عبدالله. فأنا أعرفُكَ. تحاول الخروج من باب مرسومٍ على الجدار رسماً فقط. ـ شعرتُ بنفسي شفافاً أمام عينيها. ـ فكِّرْ إلى من ستتركنا وتترك ولديك، هذه المدينة وهذا الشعب؟ للخراب ستتركنا: فإذا ما اختفيت سيصير من لا يموت منا عبداً. النصائح العظيمة للمناسبات العظيمة.

ـ لاأفهمك.

ـ بلى تفهميني ـ كانت عيناها تطلقان شرراً.

ـ خير للمرء أن يموت مرة من أن يموت حيّاً مرات كثيرة.

ـ شرط أن تموت وحدك وينجوالآخرون. حتى في موتك ستكون أنانياً؟ استيقظ. فيم سيفيدنا موتك، ياأباعبدالله؟

كانت ذقنها، غير الخالية تماماً من الزغب، ترتعش، لاأدري ألماً أم غضباً. تأكدت مرة أخرى أنّ أمي لن تكون أبداً على وفاق مع ماأفعل.

ـ اتركيني ـ قلت لها متخلصا منها ـ فالجنود ينتظرونني.

ـ لن أتركك ـ عادت لتمسك بي ـ مالم تقسم بأنك لن تجازف بنفسك ولن تسمح لرجالنا بالابتعاد عن الأبواب. ـ كانت تمسك بالقرآن في نجاده وتضعه في وجهي ـ اقسم، اقسم بالقرآن!

ـ لماذا سأقسم؟ هل يسمعنا الله؟ هل يرانا؟ ألا ترين إلى ما وصلنا إليه؟ ـ قلت لها ذلك بصوت خافت وشديد كي تسمعني وحدها ـ وداعاً، ياأمي.

قبّلت يدها. وقبّلت خديّ مريمة التي كانت تستند بجسمها إلى جسمي: شعرت بطعم الدموع. ومن فوق كتفها رأيت فرجاً في الباب الرئيسي، يومىء لي بأن أسرع. ودّعت، ويدي يغطيها قفاز الدرع، النساء اللواتي اشتدّ نحيبهنّ كما لوكنت ميتاً أمامهنّ، وخرجت من الحمراء. في باب المدينة كان الجنود ينتظرونني صاخبين وغير منتظمين تماماً. تحققت من أنّهم كانوا قليلين.

ـ كلّمهم، ـ نصحني عبد البر ـ شجّعهم، فإنّهم سيحتاجون إلى ذلك تقاسيمي دلّته إلى أنني أرفض فعل ذلك. ـ كلّمهم، ياأبا عبد الله. انها العادة. خاصة في المعركة الأخيرة ـ تَوَسّل.

ودونما جهد وجهت إليهم بعض الجمل ردّدها قوادهم:

ـ أصدقائي الجنود. أنتم لن تقاتلوا اليوم إرضاءً لطموحات السلطان. اليوم لن تقاتلوا من أجل استقلال وطنكم. كما لن تقاتلوا لمجد الله، ولا لنشر الإيمان أو للدفاع عنه، ولاللوصول إلى الجنة. فمن أجل كلّ ذلك قاتل أسلافكم. حظكم اليوم أن تقاتلوا من أجل أنفسكم: من أجل بيوتكم، من أجل مدينتكم، من أجل البستان الذي تحبون، من أجل أملاككم التي كلفتكم عرقا. ومن أجل ماهوموجود داخل بيوتكم: شرف النساء، حبكم لزوجاتكم،عذرة بناتكم. اليوم ستقاتلون من أجل الحياة. وإذا مامتم فإنكم ستموتون من أجل الحياة. فلتباركنا الحياة جميعا.

فتحوا الباب. عبرته خبباً. كان فرج يتبعني وعبد البرّ إلى يساري.

ـ أوصدوا الأبواب بعد آخر جندي يعبر. ولاتفتحوها إلاّ بأمر مني.

ـ هل تريد أن تقودهم إلى المجزرة؟ ـ سألني عبد البر.

أوقفت الجواد. التفت ونظرت إليه دون أن أجيبه.

ـ لاتفتحوا الأبواب إلّا بأمر مني ـ أكّدت، ثم تنحيت جانباً لأترك القوات تمر، وصحت بهم: ـ لاتنفصلوا بعضكم عن بعض مهما كان السبب. لاتنفصلوا فبانفصالكم تذهب حياتكم.

ـ قليل ماتبقى لهم منها ـ سمعت عبد البر يتمتم.

رفعت يدي دون أن أكترث به. لم أنظر إلى الخلف: كنت أعرف أن فرجاً هناك. نبهته:

ـ أنت، معي.

خببت إلى مرتفع قريب من السور. منه كنت أرى الغرناطيين الذين بقوا في المدينة ـ أطفال وشيوخ وعجّز ـ ومعهم النساء، مستعدين لأن

يهزموا النصارى ما أن يقتربوا. فكّرت: « بلهاء »، « بل غير واعين ». شعرت بالشفقة عليهم. وبشيء مشابه من الحنو. «أراهم الآن وبعد قليل جداً لن أراهم أبداً. ابني أحمد في مُقلين يجهل مايجري هنا، ومريمة ويوسف عبثاً سينتظرون عودتي.» رأيت جيش العدو قلقاً، كادفاً مثل خيوله، منتظماً. ورحت دون أن أنتبه، أبحث بعيني عن غونثالوفرناندث القرطبي فلم أجده. كنت أفكر: « لسنا غير لُقيمة أمام هذا الحلقوم الهائل، وكلما أسرع في ابتلاعنا كان أفضل.» أمرت بالتقدم قليلا: « ماأشبه ذلك بمصارعة الثيران، يؤتى بالحيوان، يتحرك المصارع أمامه كي يندفع ويهجم. بالتأكيد هذا مايخططون له. ونصرُ الذي يصارع الثيران جيداً يكمن في عدم إضاعة المبادرة. النصارى يريدوننا أن نبتعد ماأمكن عن الأسوار كي يجروا بعد ذلك أسرع منا ويمنعوا عودتنا ويلووا ذراعنا في المداخل.»

ـ انتظروا! توقفوا! صار يكفي ـ أمرت.

ـ إنهم يقتربون ـ كان ذلك صوت فرج.

التفت. كان جاسئاً، منذهلاً بجيش العدو، ناهضاً على الركابين، ماطّاً عنقه بطريقة غيرمعقولة. كان طفلاً يقظاً لمهمته.

ـ سوف يهاجموننا. إنهم يهاجموننا ـ قال وكأنه يحدث نفسه.

وبالفعل كانوا يهاجموننا.لكن وبدل أن يحتشدوا راحوا ينفتحون مثل مروحة. تراهم يبغون حصارنا؟ كانوا يحيطون بجبهة أكبر من جبهتنا. انقسموا إلى مجموعات عديدة، يتقدمون دفعة واحدة، واثقين من أنفسهم وخفيفين، قبل أن أملك متسعاً من الوقت للفهم واتخاذ القرار. كان عبد البر قد نزل المنحدر خاباً. ألهاني قراره المفاجيء، الذي اتخذه دون أن يستشيرني أويوضحه لي. كان هذا الإلهاء كافياً. عندما نظرت ثانية كان رجالي ينقسمون أيضاً، يحاولون أن يردوا على كل المجموعات المهاجمة، مترددين واحداً واحداً بلا نظام ولا انسجام. كان عبد البر يوزّع الأوامر اليائسة. لا شيء يجدي. أوربما يجدي، ربما وللغرض الذي أرغب به كل شيء كان يجدي.

ـ سأتركك، يا مولاي ـ صرخ فرج جامحاً.

ـ آمرك بالبقاء ـ قلت له ملء حنجرتي، إلى حد أن صوتي سمع فوق كل ضجيج الالتحامات المحتدم في الأسفل.

كان الغبار يزداد كثافة، ولا يكاد يسمح لنا بالتكهن، لكن بأس

رجالي برز حتى وهومدثر بالغبار. اعتزاز مفتعل جعلني أتنفس بعمق.

ـ لله درّكم! لله درّكم! ـ قلت ملتفتاً إلى فرج ـ لكن، لماذا؟

وفرج المنفعل أكثر مما يمكن أن يوصف، لم يسمعني. كان يضرب بسيفه في الهواء، يهزّ رأسه، يضحك ويبكي في آن معاً. كان طفلاً متحمساً للعبة يرى آخرين أكثر حظاً منه يلعبونها.

تضاعفت الالتحامات الجزئية. ورجالي يبذرون فعاليتهم. أربعة، عشرة، عشرون نصرانياً مقابل كل مسلم معزول عن جماعته. وفجأة رأيت غيمتين من الغبار تقتربان من الجانبين. ما كنت أخشاه وقع: كانوا يلتفون حولنا. جاء جناحا جيشهم، المختبئان حتى ذلك الوقت، بالاحتياط ضد رجالي المنهكين. وها هو فرناندو يهزمني من جديد بحيلة أخرى. وقلبي الذي كان يخفق، حتى ذلك الوقت، بإيقاعه المعتاد، دون أيّ تسرُّع، انهار. شعرت في الوقت نفسه بالكراهية والغضب. كراهية وغضب أعميان ضد أولئك الغرباء، الذين يتفوقون علينا بشيء وحيد هوالقوّة: أقوى منا، أكثر كراهية وأكثر غضباً. لوأن الرغبة تقتل، لكانوا قتلوا أمامي في هذه اللحظة جميعاً. النجدات ـ التي تخيّلت أنني أرى على رأس إحداها، دون غونثالو ـ مزقت رجالي أكثر. كان مشاتي يتراجعون. ليس لأنهم اتفقوا على ذلك، ولا لأيّ أمر أطاعوه: ببساطة كانوا يحاولون النجاة. نظرت إلى فرج وإحدى يديه أمام عينيه.

ـ تقدّم، يا فرج!

قفز، وكأنه تلقى ضربة بمهماز.

ـ حانت الساعة.

توغّلنا بين الذين كانوا يقاتلون. يحرسني بعض الزنوج فقط: ما تبقى من الحرس الملكي. حاولت أن أجمع الفرسان المبعثرين، فلم أتمكن. كان المشاة يتراجعون باتجاه الأسوار.« في المعركة لا أحد يعرف من يكسب حتى النهاية: كل شيء كان مختلطاً. وطالما هي مستمرة فالخاسر الوحيد هوالذي يموت » ودار مشاتي أمام دافع الغريزة، وكأنهم سمعوني، ودفعة واحدة راحوا يجرون بلا تحفظ، مديرين ظهورهم هذه المرة للعدوّ وليس للسور. وفرساني الذين لم يتأخروا في التقاط الحالة، وهنوا. سمعت صوت فرج:

ـ افتحوا الأبواب! افتحوا الأبواب!

ـ لا، لا ـ صرخت، لكنني عرفت أنهم سيفتحونها، فقد كان حامل

أوامري.

ـ إما أن نعود وإما أن تكون غرناطة لهم هذه الليلة ـ قال لي.

ـ لا! ـ عدت وصرخت.

كانت حراستي قد انفصلت عني. شعرت بضربة على الخوذة، لا بالألم، فقط بالضربة. لا أعرف من جرحني ولا ما إذا جرحته عندما رددت عليه. ففي المعركة لا يعرف المرء، إذا كان في داخلها شيئاً. برّرت عصيان قواتي: وحدهم المتمرنون والمجربون في المعارك يعرفون مايجب أن يفعلوا. ما عداه ضوضاء، فوضى وتشويش.«هذه ليست معركة بل إهانة.»

ـ هيا، يا مولاي، هيا. أسرع! ـ كان ذلك عبد البر، الذي يكبح جواده إلى جانبي.

ـ اذهب أنت، اذهب. أنا ذاهب.

بعض الحمامات الرمادية كانت تحوم في السماء الزرقاء، فوق الغبار والوحشية .«بلاهة. ما الذي تفعله هذه الحمائم هناك في الأعلى بدلاً من النسور؟ ما الذي نفعله نحن في الأسفل؟» تركت التفكير. همزت جوادي. اندفعت إلى الأمام. إلى جانبي كان لا يوجد غير زوج من فرسان حراستي وفرج. كان بودي لوتعثرت بغونثالوالقرطبي. وليكن هوعلى الأقل من...لكن كان الأمر قد صار سيّان. كائن من كان. إلى الأمام. فوجئت أنني أقول وداعاً بصوت عال. لم يكن قد بقي أحد من رجالي بالقرب مني. حتى ولوأردت تفاديه الآن لما استطعت. حسن. كان الأمر حسناً. لم أفكر. لاأتذكر بالتحديد والتمييز شيئاً، كان كل شيء كأنه ملفوف بضباب الحلم الذي يغرقنا ويهزنا، حيث لا يوجد عنصر من عناصره لها مبرر حازم للوجود. إذا ما أجهدت نفسي اليوم رأيت عيناً خارج محجرها، عباءة ممزقة يسيل منها دم، يداً بلا جسد، مرمية على الأرض، وجه فتى ملائكياً وأشقر، فماً يتقيأ دماً، تعويجة فم ساخرة ـ أوربما ـ ابتسامة. لم أكن أعي إلا أنني كنت أهمز جوادي. ووسط الضجيج الصاخب، والصراخ، والأنين، والصليل والجري والأوامر ودوار الموت، سمعت بكل وضوح، خبباً ورائي.« لماذا أسمع هذا الخبب؟» كنت أسال نفسي، حين قطع شخص ما لجام جوادي بضربة سيف. ثم وبعرض السيف ضرب رقبته، وجعله يدور نصف دورة. ثم وبوخزة في ردفه جعله يقمص. وطرت، مثل الصاعقة بعكس إرادتي، باتجاه غرناطة.

رأيت ما كان قد تبقى من جيشي ـ «وأسمي هذا جيشاً» ـ يجري

أمامي. كانت الشمس تغرب. «تغرب؟». لاأدري. ربما العرق، الغبار، دوار الالتحامات، بعجة ما ضاغطة.... لست أدري. الحقل يمضي من جانب إلى آخر مني. الحقل هوالذي كان يمضي ولست أنا. وكان جوادي يمضي مندفعاً بشدة. كانوا قد فتحوا الأبواب على مصاريعها. هل كنت آخر من عبر؟ سمعت:«الآن!، تمام! تمام!» سمعت دويّ طرقة الباب، نزول المرتاجات الهائلة، الضربات الغاضبة على الخشب المصفح. سمعت الصخب في أعلى الأسوار. لم أميز ما إذا كان من الألم أم من الفرح.«المهزومون يحبون الحياة أيضاً، أحياناً...» راح جوادي، الذي لم آلفه بَعْدُ تماماً وبالتالي لايطيع صوتي، يصعد، حبّاً بالمكان رغم الإنهاك، مثل البرق، عقبة السبيكة في الطريق إلى الحمراء.

- عفوك - كان فرج، وقد صار على مستواي، لم أبغ النظر إليه.

- كنت أنت، أليس كذلك؟

- عفوك.

- الكل خانني: أنت والموت.

- عفوك.

- اعتقدت أن الموت أسهل بكثير من ذلك.

- عندما تحين ساعة كل واحد، يكون ذلك.

تراجع فرج عدة خطوات، وألح بصوت متوسل:

- عفوك، يا مولاي.

تركت عدة لحظات تمر:

- هذا الصباح ناديتني بأبي عبد الله.

تقدم من جديد إلى موازاتي، وعبرنا معاً باب الحمراء.

رأينا نحن الغرناطيين في صباح اليوم التالي من فوق الأسوار العالية، حركة استثنائية في المكان الذي كان فيه الفسطاط الملكي النصراني. فرحنا في البداية إذ اعتقدنا أنهم كانوا يستعدون ليرفعوا الحصار وينسحبوا. في المساء عرفنا الحقيقة. فالملكة وصلت باكراً مع أبنائها من قلعة يحصب، حيث كانت تقيم. تحادثت مع زوجها انفرادياً ثم أبلغا قرارهما لرؤساء الرهبانيات العسكرية والرؤساء: لم يكن من الحلم أن يترك ذراعه تلوى، لم يكن من الحلم تأجيل المهمة. والقرارات يجب أن

تتخذ والحديد حام.« محال أن يكون أكثر إحماءً مما بعد الحريق» مزّحت الملكة. ومنذ ذلك اليوم ـ أي من الآن ـ سيبدؤون ببناء معسكر لايمكن أن يحترق: مدينة مبنية من الحجارة الحقيقية بشوارع حقيقية، كلما طال الحصار، كبرت وترسخت. سيسمونها لأسباب أخرى كثيرة «الإيمان المقدس». وسنضطر نحن المسلمين أن نشرب بعيوننا استفزازات النصارى الجاثمة. سيشيدون أمامنا برهاناً ملموساً، هوالأفضل، على أنهم لن يرحلوا: برهان يتحدى المطر والنار، وخمود الهمة والتردد. فالملكة كانت قد قالت ذلك:

ـ لا أريد جيوشاً مسدلة الأيدي. وريثما يستسلم الكفار، سنقوم بعمل شيء نافع: ثكنة، بخندق حولها، مثل مدينة، تدوم أكثر منا وتجعل من سيأتي بعدنا يتساءل ما إذا كنا مجانين.. بفضل مدينة الإيمان المقدس هذه سوف نصعد إلى الحمراء. إلى العمل، أيها الجنود! فإلهنا ليس فقط إله المعارك، وإنما أيضاً إله المعسكرات الجميلة بأبراجها وخنادقها وجدرانها وأبوابها واسطبلاتها. إلى التصليب والعمل، أيها الجنود.

زال الشك عنا، نحن الغرناطيين والنازحين عن ضواحيها، بعد أن رأينا كيف كانوا يحفرون الخنادق ويخطون بالكلس المحيط الشاسع، وبعد أن رأيناهم يغرزون ساريات الرايات ويوزعون المعارك، وبعد أن رأينا العربات تصل من القرى المهدمة، تحمل المواد لبناء له صفة الديمومة. في تلك الليلة نمنا باكراً. عندما لم نعد نلمح المركز النصراني ذهبنا إلى بيوتنا بصمت، خلت الساحات من الناس. ورغم أن الشهر كان أيار لم يكن عند الناس رغبة بالغناء. كانت مياه الصهاريج والينابيع تجري موحشة، لا يسمعها أحد. من غرفة نومي ـ كان فرج نائماً منذ الليلة السابقة ـ سمعنا أنا ومريمة بلبلاً يغرد. فكرت بأن ذلك التغريد الجريء والمجيد كان في غير مكانه. كنت على وشك أن أرسلهم ليقتلوه.

إنّ رواية ما جرى في الأشهر اللاحقة ليس عملاً بسيطاً. سأحاول ـ طالما أنني أستطيع ذلك الآن ـ أن أنسى نفسي، سأحاول أن أبقى على الهامش، رغم أنني دائماً كنت على الهامش قليلاً، أوأنهم نجحوا بأن أكون كذلك. سأحاول أن أكون موضوعياً، وألا أخلط في الرواية مشاعر فشلي وإحباطي، التقلب، بل وحتى انعدام التوازن، التي كانت تتملكني وتدفعني

إلى أن أتنقل بين الحمراء وقصبة البيازين وبالعكس. كما سأحاول جرد الأحداث بطريقة منظمة، هذا إذا كان من الممكن تعداد الفوضى بانتظام ودون تزوير: كي نصف الأشياء التي تتآلف منها كومة بلا شكل، يجب أن نستخرج منها الأشياء واحداً واحداً، نفردها، نفهرسها رغم أننا سنعود لنخلطها كما كانت.

بعد كثير من التفكّر حول الأحداث الأكثر خطورة في حياتي العامة (تلك حاصرني بها القدر، ولم ينتظر مني غير الخضوع لحكمه)، وصلت إلى نتيجة أن المباحثات مع الملكين النصرانيين تم الوصول إليها عبر ثلاث طرق وثلاثتها تقود إلى الغاية نفسها، لكنها ليست دائماً متوازية. من خلالها أطرح عرض الأحداث برؤية اليوم، الأكمل والأوضح من تلك التي كانت آنذاك. والمؤرخون ـ حتى أكثرهم إخلاصاً مثل هرناندو البياسي ـ لن يأخذوا بعين الاعتبار إلا هذه أوتلك بينما الثلاثة متزامنة.

الأولى كان وضع المدينة الكارثي في كل يوم أكثر ولايغيب عن النظر، رغم أن أصوله ومفاقماته تغيب في حالات كثيرة عن النظر. الطريق الثانية لم تكن مادية إطلاقاً ولا ملموسة من المواطنين الغرناطيين أبطال الأولى المساكين ـ وليسوا عواملها بل ضحاياها ـ وقد جاب هذه الطريق خفية وكلاء وملوك قشتالة. الثالثة، غير مرئية ليس بالنسبة للغرناطيين فقط وإنما بالنسبة لي أيضاً، كانت ورطة ملتوية من الخيانة والخديعة والمراوغة، استفادت منها شخصيات محددة من كلا البلاطين ـ مؤلم الاعتراف أنهم كانوا في الغالب من بلاطي ـ على حساب مملكتي. أخيراً، لن يكون من الضروري التأكيد على أن الواقع دائماً أكثر تعقيداً من رواية الواقع. مثل تلك الكومة عديمة الشكل من الأشياء التي أشرت إليها، التي هي أكثر تعقيداً من مجموع أوتعدد كل الأشياء. لأن هذه الطرق الثلاث التي أتحدث عنها ليست مستقلة فيما بينها ولا حتى مرسومة بوضوح، فهي وحسب من يستخدمها تتصادم أوتلتقي، تتقاطع أوتتراكب. فمصالح الأشخاص المتبدلة والتفاصيل المتراكمة للجوالعام هي التي كانت ترسمها وتحكمها.

منذ حزيران صارت غرناطة مدينة أضاعت رأسها، لا أشير إلى نفسي فقط، إذ بقيتْ رأسها الاسمي أكثر من رأسها الفعال. فقد راح يسيطر عليها، بشكل ملموس، لكن بتدرج وسرعة، إحساس قاتم بالكارثة. في البداية كانت ردة فعل الشعب نوعاً من الاستسلام العنيد: كما في تلك الحالات التي يُسلّم فيها بأن المأساة حتمية، فلا تذكر في الأحاديث. صار

الناس يحاولون ممارسة، ليس حياتهم المعتادة، بل على الأقل ما يريدون أن يبدوعادياً فتوصلوا، باستثناء الخروج خارج السور - هذا المانع الذي كان قاتلاً بالنسبة للفلاحين - إلى محاكاةٍ مقبولة للحالة الطبيعية. لكن ما كان مزيفاً في ذلك التعايش راح يُسخط النفوس شيئاً فشيئاً. ولم يكن الانعزال وحده وإنما وعيه والحرمان الصامت والمتبادل للاعتراف به علناً، هوالذي خلق التوترات وأثار المشاجرات وفاقم النزاعات. أعلنت بعض الأحياء بأنها مهملة مقابل غيرها، بعض النقابات اختلفت مع جيرانها - الشيء الذي لم يحدث من قبل - وهدّد بعض المواطنين بإلغاء ما كانوا يصفونه بأنه امتيازات الغير. وبطريقة غير ملموسة، أولا تكاد تكون ملموسة راح فقراء غرناطة، الذين كانوا يتميزون بفرحهم الخاص، الذي طالما حسدهم عليه الأغنياء، يتمردون عليهم بعد أن فقدوا فرحهم، وهم، يقول الفقراء الحزانى الآن، لم يخسروا في يوم من الأيام شيئاً ولن يخسروا حتى ولوضاعت المدينة. التجنيد، الذي أثر على هؤلاء وأولئك، كان يُثقل على الفقراء أكثر وهم الذين كانت معيشتهم مرتبطة بأيديهم المدعوة لخدمة المملكة، فمن أجل مصلحتها العامة تخلوا عنها أوأبعدوا الخاص، ولكنَّ الضرائب التي لا غنى عنها للتسلح وإعالة الجيش وبناء الدفاعات التي نواجه بها الحصار، تؤثر بشكل أساسي على الأغنياء. وبهذا فإن تكاليف الحرب - ولم تكن حرباً، وإنما مقاومة - تزعج الجميع. خاصة عندما يعتبرون، كما كانوا يفعلون، أنه لاجدوى من الاستمرار فيها. كان الأمل شيئاً لا يستعاض بالنسبة للأغنياء والفقراء بينما الإنهزامية تخنقهم بالتساوي.

أمام الأرض البائرة غرق الفلاحون في ذعر قاتل. ما أن يطلع الفجر حتى تراهم متكئين على أكواعهم فوق الأسوار، يقدرون بعيونهم المبللة بيادر المرج، المنيات، البساتين، الجُذامات الداكنة التي صارت إليها مزارعهم الغنّاء. من المحال أن يشعر من لا يحب الأرض كما يحبها فلاحونا، ومن لم يعمل في فنها الدقيق والمدلل الذي لا يقهرون به الطبيعة بل يداعبونها ويجمّلونها، يزيّنونها ويحولونها من وحشية إلى وديعة بمساكبها وسواقيها وريها دقيق الموعد، أقول أن يشعر كما كانوا يشعرون في كل صباح بصوت تلك الطبيعة، التي كانت تنادي كل واحد باسمه، تطالب به، وتشتاق إليه بمعزل عمن يكون أصحابها لأسباب سياسية، المسألة التي لا تعنيهم وانتهوا إلى كراهيتها. إلى حد أن الحقد والكسل حملهم على أن يتآمروا ويدبروا الانتقامات وأن يسيروا في أقصر الطرق التي تقودهم إلى لقاء الأرض.

غابت التجارة التي كانت تتمطى في كل فجر وتزداد غنىً في أسواقنا وتوفّر الرخاء والرفاهية لصناعنا، الذين كانت تخرج منتجاتهم من غرناطة بأيدي من كانوا يجلبون منتجات أقاليم أخرى، ويخلقون روابط وثيقة، هي الوحيدة التي لا تقبل القطع من حيث المبدأ، في الجبال والبحار. كانت المدينة تستهلك ما تنتجه بنفسها، لكن ليس كل ما تنتجه ولا بموازاة له. كثير من التجار، العاملين في مجال الرفاهية، صاروا بلا عمل، والباقون تخلوا أمام نقصان أواختفاء الطلب، عن إنتاج الكميات التي كانوا ينتجونها من قبل. أُلغيت العمليات ذات المدى الواسع وتبادل العملات والتصدير، والتجارة الدولية والبحرية. ولم يجد المتضررون سبباً عقائدياً أو ودياً يعوّضهم عن خسارتهم.

أما الجنود، فإنهم كانوا في وضع متدن، لا يحظون إلا بالقليل جداً من عطف المواطنين، يثيرون الشفقة بدل الإعجاب والاحترام. والجندي في زمن الهزيمة مثله مثل الفقيه في أرض الكفار.. ثم إن زهرة جيشنا قضت نحبها في الأشهر السابقة القاسية، في الغارات التي باشرنا بها حفاظاً عليه معافى ومتوقداً. ففي أراضي الفقار وبليانة ومرسينة وفي طفية ويحمور ويرغوي وأرميلة وربيط ومنيل مات خيرة مقاتلينا أوعادوا وقد عطّلتهم جراحهم. تلك كانت حقيقتنا، رغم أن خسارة النصارى كانت ضعفي أوثلاثة أضعاف خسارتنا، فهي لم تكن كبيرة أبداً، ورغم أنه، لكي لا نسلّم بأننا مهزومون قبل أن يهزمونا، بدت لنا هذه البركة من دمهم حيوية.

كان الوضع المعنوي في الحضيض وهوكذلك قبل أن يظهر للغرناطيين بهذا الوضوح بكثير.

أما فيما يتعلق بالمؤن، فعوزنا لم يصل إلى حد أنه يمكن أن يقارن بما عانته مالقة أوبسطة قبل استسلامهما، لكن الأكيد أيضاً أن الغرناطيين واللاجئين ما عادوا يستطيعون أن يلصقوا انهيار الإسلام بأحد: فاستسلامهم لم يكن كأي استسلام آخر ولا تسليمهم كأي تسليم آخر، وإنما تسليم وانتهاء لكل معتقداتهم ولما كانه أجدادهم، وعلموهم أن يكونوه وحثوهم على الدفاع عنه منذ قرون. ما همّهم أن غرناطة لا يمكن أن تسقط بهجوم أومباغتة، وما إذا كان سقوطها سيكون فقط بحصار يطول جداً وقد يسمح ببعض الخيارات؟ ماذا يهمهم ألا يكون العزل الذي يضربه النصارى كلياً وأن تبقى معفاة منه أحواض دارة وشنيل العليا ومعها منتجات البساتين ومراعي مروج زينة ودودر، قنطار وبياس،

صنوبر شنيل إضافة إلى الطرق الوعرة والسالكة في الوقت نفسه لقرى وضياع البشرات، التي ما يزال قسم كبير منها مسلماً؟ رغم أن الغرناطيين لم يكونوا ليعترفوا، فإنهم كانوا يتحرقون رغبة للتخلص بأية طريقة كانت من ظروفهم التي لا تحتمل وكان الخروج منها، بأية وسيلة، ولمجرد الخروج، أمراً لا يقدر بثمن.

كذلك لم يكن يهمّهم أن يكون عندهم دفاعات هي أيضاً خير لا يقدر بثمن: فمقاومة الفقار، مثلاً، لم تجد كل الاندفاعات النصرانية على حصنها، أوأن يكون عندهم، داخل الأسوار أفضل وأكبر قلعتين في أوروبا حسب معلوماتي: قصبة البيازين والحمراء (اللتان كنت أتردَّد بينهما مع مريمة وولدي يوسف برفقة فرج، دون أية مناسبة في الظاهر، أما في السر فالسبب هوالتهديدات والتعديات التي كان يجب تفاديها).

كان الغرناطيون يبدون أيضاً غير مبالين بالمآثر البطولية، التي كنت أتسامح معها، كي أشجعهم، أقصد العمليات العسكرية، الخاطفة والفعالة، التي كان ما يزال يقوم بها فتيان بواسل كانت تزرع الذعر حتى في معسكر الإيمان المقدس. لقد وصلوا أحياناً إلى أسواره وقتلوا حراسه وباغتوا خفراءه وسلبوا قوافله. كان الغرناطيون ينظرون إلى وضعهم السيء وليس إلى ما يجب أن يخفف عنهم، ولا إلى الوضع السيء لأعدائهم، وهو بطريقة ما مريرة كان يثقلهم.

أم أن النصارى كانوا في ظروف أفضل؟ فالقذارة والدنس، والقمل والبق والبراغيث أنزلت بهم سلسلة من الأوبئة الحقيقية التي تسببت بوقوع ضحايا وهرب كثيرين. كانت تنقصهم الأموال التي لم يتمكنوا دائماً من جمعها، حيناً لأنَّ القرى كانت ترفض دفعها وحيناً آخر لأن جامعيها كانوا يختلسونها، أولاستغلال الرهبانيات العسكرية للبابوية فيبخلون بها، فالجميع يعاني من ثقل تمديد الحملات: لا الرعية ولا الحلفاء يمكن أن يطُلب منهم جهد كبير ومتواصل.فالإنهاك الذي أصاب المجالس وجهل قشتالة لماهية غرناطة، ومملكتها، وكيف كانت تسير عملية الاحتلال وما الذي تحصل عليه من أموالها كل ذلك كان يضر بهم. حاجتهم للرجال كانت تتزايد مع تزايد هجوماتنا، فقد اضطروا لأن يقيموا في المرج مجموعات من الرمّاحين تتناوب ليلاً ونهاراً، وخنادق ومتاريس ودوريات جوالة يقوم بها الجنود بنشاط لا ينقطع، وكانت هذه الهجومات تنال من همتهم لتحويلها المحاصِرين إلى محاصَرين. وكانت عجلة الملكين كبيرة إلى حد أنه كان عليهم أن يُسرِّعوا باستسلام غرناطة،

طالما أن احتلالها ليس ممكناً، وأن يتدخلوا بحزم، من خلال اجراءات ملتوية، لِيُفاقموا الأوضاع المادية والنفسية للغرناطيين فيستعجلوننا بهذه الطريقة على المفاوضات. كانت تصلنا أخبار عن قلق النصارى الذين يرون كيف أنَّ الزمن يمر وخزائنهم تنزف، وهوامش تعويضها أيضاً، دون أن يتقدموا خطوة واحدة. كما كانت تصلنا أخبار الرغبة التي تُحاصر فرناندو، ويعاني منها، لإزالة الخيام وترك حامية كشاهد، وتأجيل الهجوم الأخير إلى العام القادم، الذي ستكون فيه غرناطة قد تفككت. كانت تصلنا من خلال جواسيسنا ـ الذين كانوا في ذهاب وإياب في معظم الحالات ـ الأخبار غير السارة التي يتلقاها الملكان من الخارج: حريق مدينة الكامبو، وهي إحدى أغنى مدن قشتالة وأفضلها تجهيزاً وولاءً لزوجته الملكة، موت ولي عرش البرتغالِ، الذي لم يكن قد مضى على زواجه من ابنة الملكين الكبرى إلا زمنٌ قليلٌ، ففتحوا لها أبواب مدينة الإيمان المقدس (سانتافه) التي تحولت إلى بيت للعزاء، حتى أنهم اضطروا لإرسالها إلى أليورة مع دون غونثالوالقرطبي، ليواسيها، ذلك أن الجنود كان عندهم ما يكفيهم من الإحباط الخاص. لكن الغرناطيين ومنذ أن رأوا النصارى يبيضون المعسكر، يطلونه بالكلس يومياً تقريباً كي نراه ونُصْعَقَ، وكانوا يعيشون موسوسين بجراحهم الخاصة لا ينقطعون عن تأملها وتضخيمها من أجل تهييجها. هكذا ومع تفاقم هذه الجراح عند الجميع ـ محاصِرين ومحاصَرين ـ واقتراب الشتاء، وصل الإكتئاب عند الغرناطيين إلى أوجه ووقع الانفجار.

وما أن أعاقت الثلوج والصقيع الاتصالات مع البشرات حتى نقصت المؤن وتضاءلت إمكانيات الأسفار المثمرة وأتقن النصارى، الذين أصبحوا أكثر خبرة من ذي قبل في الطرق والمسالك الوعرة، منع الدخول والخروج. وبذلك حدثت تمردات عند ذوي النفوذ الأكبر، الذين رأوا بأن أموالهم وبيوتهم وممتلكاتهم غير محمية بما يكفي من قبل العدالة. حدثت عمليات نهب حاول الفقراء من خلالها الحصول على طعامهم على حساب الأغنياء، عمليات سلب مستعصية وصلت حد قتل المالكين وتدمير المنازل أوالإقامة فيها بالقوة. خرّبوا حدائقها، معسكرين في قاعاتها الفاخرة، طاردين النساء من بيوتهن. النزاعات المدنية التي كانت ترتكز في الماضي على التباينات السياسية، صارت ترتكز على الفروقات الاقتصادية العميقة، التي صار من الصعب تخطيها وأصبحت أكثر حدّة. ظهر الجوع، في هذا الجو كناصحٍ فاقدٍ للرشد، دافعاً من كان يعاني منه إلى نوع من الجنون. كان الجيّاع يُطلّون من الأسوار وقت الطعام

ويتصورون كيف كان النصارى يُتْخمون بالأغذية التي تنقصهم. ما عاد أحد يتذكر أنه ومنذ وقت ليس ببعيد، عندما كان يغنم جنودنا الأبقار والخرفان من قطعان النصارى، كان هناك وفرة من اللحم في غرناطة إلى حد أنه صار من الممكن شراء الرطل منه بدرهم، فالجسم بعد القيام بعملية الهضم ينسى ويطالب بطعام جديد. وكانت رؤية النساء وأطفالهن بين أذرعهن، يعلن فقرهن وعوزهم، ورؤية الشيوخ يجلسون إلى الجدران البيضاء، مستسلمين لموتهم المبكر، لايجدون له أي علاج وسماع صراخ العديد من الفصائل، التي لا عمل آخر لها غير المطالبة بالوصول إلى تسوية مع النصارى، أوأن يسمح لهم بفعل ذلك بأنفسهم، وسماع أكثرهم غلوّاً يطلبون أن تفتح الأبواب كي يسمح لهم بأن يذهبوا إلى الفسطاط الملكي للأعداء ليستسلموا لهم، ومشاهدة التحديات المستمرة للفرسان النصارى جيدي التسلح والغذاء، ولوفي الظاهر فقط، يقتربون بريشهم وراياتهم لاستفزازنا وتحريض الرعية على التمرد، كل ذلك كان قيوداً تخلق فينا نحن الذين كنا نحكم - رغم أنه وكما سأقول فيما بعد، ليس في الجميع - تردداً خطيراً في قراراتنا.

وما تراها كانت؟ أظن، أنّ قراراتنا وقرارات أعدائنا كانت غير إرادية وتحرّكها الأسباب نفسها. فإصرارنا على عدم التنازل كان يرتكز على الشيء نفسه الذي يرتكز إليه إصرارهم على حصارنا: كلانا كان مقتنعاً بأن الشتاء سوف يجعلهم مجبرين على رفع الحصار، كما حدث في الحملات السابقة. لكن الزمن كان يجري، والظروف تسودُّ، ولا هم ولا نحن نذعن لها، رغم أن أنصار المقاومة كانوا في كل مرّة أقل: قسم صغير وليس الأغلبية من الجيش والفقهاء وأهلي وأنا: ربما كنا أكبر الخاسرين، هذا إذا كان قد بقي شيء لم نخسره. كان من المحال عليَّ أن أعبّر عن مدى الشدة التي أعاني منها أمام الأمل الغرير برفع الحصار، كي لا ألقي بالاً لدواعي الشعب، الشعب المذعور من أنه إذا حدث الاستسلام نتيجة الحرب، فإن ما ينتظره هوالموت والعبودية. كنا بحاجة إلى فطنة كبيرة وذكية لاقتناص الفرصة كي نعرف يقيناً في أيِّ لحظة يمكن أن تتحسن شروط الاستسلام، ومنذ أي لحظة ستكون مدمرة. وكنت بالضبط من عليه أن يتخذ، في النهاية، هذا القرار، الذي لا يطاق بالنسبة لرجال مثل رجالي، لم يخلقوا لمثل هذه الأحمال.

تلك كانت الاعتبارات التي تستبد بي في الليالي، ودفعتني فوراً للبدء باحتكاكات غير واضحة تسهّل، إذا ما حانت الحالة والساعة، الإجراءات المناسبة. هذه الاحتكاكات شكلت الطريق الثانية التي تكلمت عنها.

لقد ورّط نفاد الصبر فرناندو. إذ لم يكد يبدأ ببناء المعسكر الثاني حتى أرسل إليّ رسولاً، ليس إلي مباشرة وإنما من خلال ابراهيم القيسيّ. هذا الرسول هوخوان ده بَثّان، الذي استلمت عبره منذ أشهر، وقبل أن تنقطع الاتصالات الأخيرة، عدداً من الرسائل من الملك، يلح فيها - إضافة إلى تكرار تأكيده على حبه الكبير لي ورغبته بالتفضل عليّ، واعتذاره للأضرار التي كان يسببها لنا ويعزوها إلى ضعف الرغبة عندنا، أنا وغرناطة، لخدمته وإلى سعينا للشقاق والنزاع - على تنفيذ الاتفاقات، دون أن يشير ولا في أيّ منها، إلى نكوثه الواضح بها. بقي خوان ده بَثّان، في هذه المناسبة التي أنا بصددها الآن، عدة أيام في غرناطة. أنزل في البيازين، في بيت تحت قلعة الزيتون، بحذر شديد جداً. وقد أعلمني الحراس الذين وضعتهم له أن كثيرين من رجال القصر ووزرائي - كثيرون بالنسبة لما كان عندي منهم - كانوا يأتون ليلاً مقنعين ليقابلوه. وبما أنني كنت أعرف كيف كان يستهلكهم الملك النصراني، تصورت العروض التي قد يقدمها لهم لقاء خيانتهم أوإقناعهم لي. ولكي ألقنه درساً، لا شك، متهوراً، رفضت استلام الرسالة. والقيسي الذي كان على اتفاق معي، أعادها مغلقة إلى حاملها، وقد تكفّل أحد حجابي بإغلاقها وختمها من جديد، بعد قراءتي لها.[كان يكرر فيها العروض المعتادة، وربما زادت قليلاً، إذا ما سلّمت المدينة دون مماطلات جديدة، لكنه لم يكن يشير إلا إلى منافعي الشخصية. استخلصت من الرسالة ومن موقف الرسول نتيجتين: الأولى استعجال الملك، رغم تبجحاته، في حل موضوع التسليم بأسرع ما يمكن، والثانية محاولته أن يحصد العشب من تحت قدميّ، مستخدماً كل أنواع الخداع].

كانت بيننا، أنا والملك فرناندو، مراسلات قبل ذلك، من خلال أشخاص وسطاء. فقد توجّه مركيز بلّيينة بوعود، مُلَمّحِ إليها، إلى بعض وجهاء بلاطي الذين يفتقرون إلى الدقة، أوالبارزين في عداوتهم لي. نبلاء نصرانيون آخرون - ليس منهم دون غونثالوفرناندث القرطبي ولا دون مارتين ده ألاركون، أقرب الناس إليّ - لوّحوا بتهديدات متحفظة، مبطنة أكثر مما هي معلنة، أمام آباء أولئك الفتيان الذين كانوا ما يزالون رهائن في قرطبة. ابراهيم القيسي نفسه، وتحت غطاء أسفاره التجارية، كان قد حمل بعض رسائلي، التي أفتح فيها، - أوأترك مفتوحاً - إضافة إلى اهتمامي بولدي البكر، باباً صغيراً على محادثات مستقبلية متوقعة (حتى أنه جاءني برسالة من أحمد في مقلين، أفرحت تلك الرسالة مريمة إلى حد أن بكاءها منعها من قراءتها فقرأتها لها. أرسلنا له مع الوسيط نفسه،

بعض النقود الذهبية وبعض الأمتعة لكي يلبس على طريقتنا في عيد الفصح. كانت مريمة تقبل القماش الذي سيلامس لحم ابنها وتأملت أنا الورقة وقتاً طويلاً وفكرت بأن ولدي يكبر وصار يكتب الأحرف بظرافة، جمله القصيرة جداً دوت في أذني كما لم يدوّ شيء في العالم.) ومع ذلك لم يكن باستطاعتي أن أحيط الشعب علماً بهذه الرسائل لأنه سيضيع علينا الفرصة، من يدري ما إذا بالتمرد أوبتعظيمها. جوهرها كان السر وقيمتها المميزة أنها كتبت باليد اليسرى بشكل، أن اليد اليمنى لاتستطيع أن ترضى تنفيذها وحسب وإنما أيضاً الاعتراف بوجودها.

بالطريقة نفسها، وبشكل غير رسمي حافظ كبير الحجاب ابن كماشة ووزير غرناطة المالح على علاقات مسهبة ـ أوهذا ما كنت أفكر به ـ مع البلاط النصراني، الذي كنت أعرف بعض أمنائه من المفاوضات الصريحة السابقة. وقد وجدا في المجال النصراني مرآة في غاية الوفاء لهما، هرناندو الصفري، وكان يتبادل مع المالح وعود صداقة صريحة وودية، أشك في أن يثق بها أي منهما، لكن الصفري سرّع كثيراً المساعي ودفع رجليّ لأن يطرحا المسائل معي بوضوح وبشكل حاسم. وكان رجلاي، حسب ما أعرف، وما اقترحته عليهما، يمانعان، يتلعثمان، ويجعلان النصارى يتوسلونهما. كانت أوامري أن يؤجلا المباحثات دون أن يقطعاها، وأن يؤكدا على أن قراري في عدم الدخول في المفاوضات كان حقيقياً وصلباً، وأن يجادلا في مواجهة أي استعجال للصفري ولم يكونا ليجرآ على مواجهة استيائي إذا ما أثارا، ولوبهدوء، إلى تسليم المدينة. ولكن الصفري كان أكثر مكراً من ملكه، ربما لأنه خرج من طبقة أدنى. (كان نادماً لأنريكه الرابع، ثم أميناً من درجة دنيا للملكة، وتدرج بمطواعيته وصبره حتى وصل إلى منصب كاتم أسرار فرناندو ومستشاره. وعندما اتضح هذا، بعد أن تبخر تفاؤله، لتأجيل حل الحصار إلى الربيع القادم أقنعه وتعهد له بالقيام بعمل الرفتن البشع، هذا ما كان الملك قد قام به شخصياً في بسطة، التي أنهكته كثيراً). مع هذا الوغد الذكي الذي ما من شيء يمنعه من التمرغ في سبيل الوصول إلى ما يرغب، أقام أهم وسطائي مفاوضاتهما التي اعتقدت أنها مقصورة عليهما.

ما كنت أجهله ـ على الأقل في تفصيلاته ـ هو أنه ومنذ شهر نيسان

لم يقتصر التعامل مع العدوعلى ابن كماشة والمالح، فقد طال أيضاً كثيراً من أعيان بلاطي. كل شيء كان غامضاً، كل شيء كان افتراضياً، كل شي كان كلاماً في الهواء، لأن كل ما يتم من وراء ظهري كان يجب أن يحصل على موافقتي، لكنه في هذه الأثناء كان قائماً. ربما الطرف الآخر كان يثق بأنني أعرف أكثر مما عرفت، وبأنني ضمنياً رخّصت وأقررت هذه المساعي، مثلها مثل مساعي كبير الحجاب والوزير المعروضة أعلاه. في مسائل السياسة الخارجية تكمن المهارة في اكساء الافتراضي والمختلق بالحقيقة، وفي تزيين الخداع وفي تقديم الخيالي على أنه حقيقة، اعتماداً، بين أشياء أخرى، على توق المخدوع إلى أن يكون كل ما يلمّح إليه راسخاً. وهكذا وباختلاط الخطوات الرسمية بشبه الرسمية وبالخاصة للأسف بأنها خاصة بالمعنى الدقيق للكلمة ـ المتعارضة أحياناً مع مصالح غرناطة ـ كان شاقاً على أي كان ـ دون أن أستثني نفسي ـ أن يميز ما هي الحدود بين الواحدة والأخرى. أسرى محررون يحملون، دون موافقتي، اقتراحات أجهلها إلى الايمان المقدس (سانتافه) خونة، جاهزون دائماً لبيع أنفسهم يذهبون ويعودون برسائل، وحدها الجهة ذات المصلحة ـ الملك فرناندوفي هذه الحالة ـ تكلّف نفسها عناء الرياء بها.

[لكن كيف كنت سأفترض، قبل أن أقرر المفاوضات بكثير، بأن أولئك، الذين هم أكثر من أثق بهم يقومون بها في الظل؟] كيف كنت سأفترض بأن المالح الذي اعتبرته ـ وما أزال ـ وفياً، يعارض ومنذ شهور مضت أن يتدخل ابن كماشة في المحادثات. كان يتهمه في رسائله إلى الصفري بالأبله والشحيح ويطالب بأن تحصر به، الشيء الذي يلتقي فيه مع ابن كماشة، الذي كان بدوره يرى أنه يجب أن تقوم بها يد واحدة: يده في حالته بالطبع؟ كيف كنت سأفترض أن الشخصيتين كانتا قد حدَّدتا مع العدو سعر تدخلاتهما الدقيق: عشرة آلاف قشتلاني ذهباً لكل واحد بالاضافة إلى التمبل مع كل قراها هبة يجب أن تسجل إرثاً قانونياً مع السيطرة التامة على العامر وغير العامر منها في الأعلى وفي الأسفل، مع كل العهود والمواثيق والأعشار، والضرائب والحقوق والقضاء الخاص؟ كيف كنت سأفترض بأن المالح، بعد أن تورّطت فيما بعد في المراسلات، كان يسلمني الرسائل محتفظاً ببعض الوريقات التي يضمنها الصفري في المغلف نفسه، ليقرأها خلسة عن كبير الحجاب وعني أنا نفسي؟ هل أستطيع أن أصدق المالح ـ ومع ذلك صدقته ـ عندما وضح لي أن هذا أفضل لي وأنه هوأيضاً كان يرسل للصفري وريقات سرية، إذ لم يكن

مستحسناً إغضاب الملك أكثر، أو أن توضع كرامته الملكية في خطر، أوأن يعلم بالصغائر والخسائس التي يعمل بها رعاياه خدمة له، أوأن يطلع على كذب ونفاق رعاياه الضروريين تماماً فلا يفقد ثقته بهولاء الرعايا المخلصين، رغم أنهم ليسوا دائماً نظيفين؟ حقاً إنني كنت أعرف أكثر مما كنت أظهر، لأنه لم يكن من المناسب إخافة الأرنب برمية قوس مبكرة. ولأن أعيان بلاطي لم يكونوا محترمين إلى حد ألا يشي لي بعضهم ببعض، لكن من هنا وحتى يعرف الوضع الحقيقي للأشياء، كانت توجد، للأسف، مسافة كبيرة جداً.

تأخرت زمناً حتى انتبهت إلى أن أعمال التمرد التي كانت تقوم في غرناطة، يثيرها عملاء، مكشوفون الىهذا الحد أوذاك، للملك فرناندو- بأمواله - هذه الأموال التي كانت تثير حتى الفقهاء، ببطء لكن بثبات. كما أثيرت أعمال النهب (الأولى، ثم تتالت مترابطة بعضها ببعض، لأنه لا يوجد ما هوأسرع انتشاراً من أعمال التخريب المدفوعة) لبيوت الأغنياء، التي أدّت، بسبب انعدام الحزم، لأن يقف المنهوبون ضدي تلقائياً.

تأخرت كثيراً حتى انتبهت إلى أنهم كانوا يشجعونني كي أكون قاسياً مع المتمردين بشكل خاص، مصرين على أنَّ الانتقام منهم سيجلب لنا الموارد الكافية للاستمرار في المقاومة، إضافة للهدوء: كيف كنت سأفترض بأن الذين ينصحونني بهذا هم بالضبط الذين يتطلعون إلى توقّف المقاومة؟ وهكذا بقيت بين فتن الطبقات العليا ضدي وأعمال الانتقام الفظة التي أُدفَعُ للقيام بها وبين عمليات السلب التي تقوم بها الدهماء، صرت شيئاً فشيئاً بلا أغنياء، بلا تجار، بلا مؤثرين بارزين في الدهماء، وبشكل عام بلا احترام الغرناطيين الذين كانت تقدم لهم رواية للأحداث مناقضة تماماً لتلك التي تقدم لي.

يجب أن يضاف إلى كل ذلك أن أمي كانت عادة ما تنحاز ضدي، تحرّكها ضغينتها الأبدية وصداقتها لابن كماشة، وهو من كان يقترح استخدام القسوة ضد المتمردين. لم تكن أمي لتنسى أن طبقة النبلاء كانت أميل إلى الوريث الشرعي للعرش ووقفت دائماً إلى جانب والدي ثم إلى جانب عمي. وأمي لاقت دعم الأغنياء وقسم كبير من الجيش، أي الأكثر استياء وتمرداً الآن: كلاهما صار قوة في أوج الانحدار. لقد تفاقمت عداوتها لطبقة النبلاء، التي لا تثق بها وتعتبرها خطرة، بتأثير كبير الحجاب. تدافع عن الحاجة لتوجيه ضربات قاصمة على الرأس، بل وحتى الاستغناء عنها بتصفيتها.

ـ لا تستطيع أن تسمح لنفسك، وقد وصلت الأمور إلى هذا المستوى، بترف أن تؤوي أعداء في غرفة نومك. إنهم أوباش يبيعونك عند أول منافسة ترضيهم. إذا كانوا يجرؤون على الصراخ أمامك، الآن، تصوّر ماذا سيفعلون من ورائك.

ـ إن ما لا يمكن فعله (وقد وصلت الأمور إلى هذا المستوى، كما تقولين، يا أمي) هو تشطير المواطنين. كل القوى ستكون ضرورية. يجب ألا نتصرف نحن كما لو كنّا أسوأ أعدائنا. مخلصين أو غير مخلصين، هم بالنسبة لي غرناطيون، يا أمي، هم مسلمون يا أمي. ربما لا يدخل في رأسك ـ بدأت أستخدم أمامها تعابير فظة جداً، كما لم تحلم في عمرها ـ انني لا أدافع عن نفسي، كما لا أدافع عن العرش الذي يترنح وينهار: إنما أحاول أن أحمي غرناطة. لنكن صريحين: إذا نجت المدينة قليلاً ما يهم أن يستلم العرش أو الاسلام. وإذا لم تسلم المملكة فلا العرش ولا الإسلام يمكن أن يسلما.

أرفض أن أنقل ما أجابتني به أمي. فبالاضافة إلى اتهامها لي بالخائن لدمي وبالكافر، عابت عليّ أنني غدرت بالتقاليد وبالمبادىء التي جسدها الأمير الأول منذ بداية السلالة.

ـ شقائي الأعظم ـ رمت في وجهي بين أشياء أخرى ـ انه لا غنى عنك. الأمير مالك، وكمالك عليه أن يحمي مملكته ورعيته، فقط كمالك: وإذا ما تخلى عن ذلك فالمدينة وأهلها عليهم أن يحموا أنفسهم.

فالتفريق، بل وحتى التعارض، الذي قمت به بين المدينة وبيننا نحن ـ هي كانت تقول نحن ـ كان غشاً. فنحن وغرناطة، نحن والاسلام كنا شيئاً واحداً. وما كان لواحد كان للجميع. ومسألة أن فرناندو كان هناك أمامنا جالساً مثل طاغية تستنبح الديك، أو ربما نبحته وانتهت وتنتفه دونما عجلة من أمره وتنتزع أعضاءه واحداً واحداً، الجناحين، الرجلين، الذنب، العرف، الرقبة، المنقار، هذا الأمر يبرهن عن ذلك بكل وضوح. وماذا كان الديك في آخر المطاف؟ أين يقيم الكائن الحقيقي للديك؟ وأين كان ينتهي؟ ومتى لا يعود الديك المنتوف والمقطع ديكاً؟ غرناطة، بلا قرى، بلا حصون خارجية، بلا أبواب، بلا أسوار، بلا سكانها تبقى غرناطة ما دمنا نحن في الحمراء والحمراء فيها مسجد.

ـ أذكرك ـ قلت لها ـ انني أقيم الآن في القصبة المقابلة.

ـ أعرف ذلك. هذه حماقة أخرى من حماقاتك.

ـ إذا كنت أعيش من حين لآخر في القصبة فذلك لكي أتدرج في

التخلص من عادة العيش في الحمراء: هنا دائماً يتملكني انطباع بأن أحداً ما سيصل في أية لحظة ومعه حكم بالإخلاء.

- ذكي جداً - أجابت وهي تتكئ على أسنانها - هذا الشعب واثق من أن سيد الحمراء هو سيد المملكة. إن إهمالك وقلة احترامك للرموز يجبرانني على العيش في القصر الذي تركته أنت وحظيتك، وهذا ما لا يروقني.

كنت أعرف أن هذا ليس صحيحاً، لكنني لم أناقضها: فضلت أن أصب جهودي في اتجاهات أخرى.

- أخاف أن يكون العنف الذي علمتُ به من خلال متابعات خاصة جداً - أكبت على التعبير - الذي تصديتما به، أنت وابن كماشة، لأعمال التمرد، التي يولع بها كثير الصالح أولاد الحرام، كان دولاً متهوراً. لقد استطعتما أن تتركاني بلا شهداء ولا أغنياء ولا [illegible] يقويانهم على [illegible] المحنة القريبة جداً: الوحيدون الذين كانوا سيساعدونني. على من سأعتمد الآن؟ على شعب تكلف أجر ما يجعله يفلت جام غضبه على وبطون الأعيان ويسلب الأقوياء؟ على الأشراف الذين نجوا وهربوا من المدينة، متقنعين بزي الفلاحين كي ينجوا بحياتهم في الضياع والمزارع؟ الذين يشترون أنفسهم على الذين يتلهفون لدخول النصارى إلى هنا ليزرعوا النظام والأمن اللذين انهارا؟ على المباعين والبائعين الذين وبحجة أنهم يعملون لصالحي، عزلوني كي لا ينكشف، بهذا الشكل، أمرهم أمام من كانوا يقدمون لي عفتهم ودعمهم ونصيحتهم؟ على من؟ قولي لي، يا أمي، لأنني لا أعرف.

كانت حقيقة. لم يكن من أحد معي. وصل بي الأمر إلى أنني صرت أحذر الجميع والشعب يحذر مني. في كل مرة أكثر عزلة مع نفسي، قلصت عدد الخدم عندي؛ وكانت هناك أيام تطهو لنا فيها مريمة طعامنا. ولم ننم قط أكثر من ثلاث أو أربع ليال في مكان واحد، خائفاً من أن أغتال، دون أن أعرف، ولا من بعيد، اليد التي ستسدد لي الضربة.

- لا تكلميني، يا أمي، عن الجوهر الفلسفي للدنيا. لأن عندي خبرة أكثر منك عن النتف والتقطيع. منذ شهور كنت أستقبل في بيت الأصدقاء في جنة العريف عشرات الأشخاص الغرناطيين، فأسرهم غرناطية تماماً كما يمكن أن أكون أنا: وزراء، أبناء عمومة بسيطين، أصحاب قلاع، رؤساء أحياء، أو شيوخ، أو قواد، أو وسطاء. وكنت أستغرب كيف راحوا

ينقطعون عن اجتماعاتي واحداً تلوالآخر. كان عليّ أن أتكهن أن الذين لم تطرديهم أوتقتليهم أوتدينيهم بدؤوا ببساطة يزورون بيتاً آخر للأصدقاء: يقوم عليه فرناندو الأرجوني. ريشة فريشة وعضواً فعضواً بقيت دون ديك. كان الآخرون يقولون لي:«انه مغضوب عليه» أو«انه مشغول» أو«ذهب ليوقع عقد بيع» أو«زوجته في حالة ولادة» إلى أن وقفت على الخديعة ورحت أفكر وأنا أستمع إلى المعتذر:«غداً تكون أنت من لن يأتي». وبالفعل كان لا يأتي. والآن أنا وحدي، يا أمي. وستغرق السفينة، لقد ألقيتم بطاقمها من جانبها، وحولي لا توجد غير الجرذان ومعروف ما تفعله الجرذان عندما تصبح السفينة في خطر. هل تحبين أن نتكلم أيضاً عن الجوهر الفلسفي للجرذان؟ أين يبدأ الجرذ وأين ينتهي، من يعيله، ما الذي يجب أن يقتلع من الجرذ كي لا يعود جرذاً؟

ـ لا أستلطف سخرياتك. كما لاأسمح لك بها. إذا كنت تريد أن تعرف رأيي، وأشك في هذا، فإنني أنصحك أن تدعوالأشراف والمستشارين إلى اجتماع وتستمع اليهم. أعرف أنهم يفكرون مثلي، لكنك تفضل أن تستمع إليهم قبلي، كما فعلت دائماً.

ـ سأفعل هذا ـ قاطعتها.

وبالفعل دعوت بعد يومين القادة والولاة والفقهاء والوجهاء والتجار ممثلي النقابات إلى الاجتماع. وكان بالطبع في قاعة السفراء (قمارش) الشاهدة على أمجاد السلالة. وفيها التقت أخيراً الطرق الثلاث التي كتبت عنها قبل عدة صفحات. ولا أدري ما إذا كان لسوء الطالع أولحسنه أن الجميع كانوا على اتفاق تام. في تلك القاعة وفي ذلك النهار ظهرت، كاشفةً الخفايا، الخطوطُ الرئيسية التي رسمت، بأكثر الألوان سواداً، الواقع الحزين.

من خلف طبق من السفرجل والرمان رأيت مساءً نهاية أيلول يصطبغ بلون الذهب. ذاهلاً تركت الوقت يمضي. أخبرني نسيم بأن الساعة قد حانت.

ـ سوف يترطب الجو، يا مولاي.

وضعت على كتفيّ دثاراً قاتماً. وعندما مررت بمرآة، نظرت، عرضاً

وبشكل لا إرادي إليها، فوجدتني ذا وجه مزرق وناحل. تعذبت حتى عرفت أنه وجهي.

خارج قصر يوسف الثالث كان فرج يلعب مع ابني والكلب *مرنان*. كان الطفل يمتطي الكلب الصبور محركاً يديه تساعده يدا فرج القويتان. وكنت قد كلفت صانع كراس - للحذر لم أختره من أسرة بني سراج، التي تدل كنيتها على مهنتها[1] - أن يصنع ليوسف كرسياً صغيراً. كان يتوازن عليه برشاقة وظرافة. توقفت لحظة. ولفت ابني انتباهي صارخاً. فكرت: «إنه رغد الطفولة الصادم والصاخب».

- هيا بنا، يا فرج.

هل كان يعرف إلى أين نذهب؟ سيان. فقد كان سيتبعني إلى أي مكان في العالم. وضع الطفل على الأرض، أخذ برنسه واستعد للحاق بي. كان المساء هفهافاً وحميمياً: كثير ما كان عليّ أن أفعله. كان يسرني أكثر أن أتنزه مع فرج في الحدائق، بصمت، نحضر سقوط الأوراق الأولى، هروب الضوء وتبدلات السماء العجيبة تكتسي جمالاً خاصاً إلى أن تنتهي الزرقة العميقة بدخول الليل، في تلك الأيام. سرت باتجاه المخرج. تردد الكلب بين أن يتبعني وبين أن يبقى مع الطفل. الكلب يربكه دائماً الفراق، ربما الكلاب تفكر - تفكر أولا تفكر لكنها تصيب - بأن أي فراق يمكن أن يكون الأخير. كان *مرنان* يلتفت برأسه الذهبي من واحد إلى آخر، متردداً وربما ممزق القلب، أردت أن أساعده:

- ابق، يا *مرنان*، احرس الصغير، سأعود في الحال. لابد أن في قاعة السفراء [قمارش] كلاباً كثيرة - عرفت دون أن أنظر أن فرج ابتسم - أسوأ منك بكثير. عندما دخلت إلى الصحن كانت الشمس ما تزال تتألق على أحد جوانبه، في الجانب الآخر كانت الظلال تمتصها، البركة ساكنة وتبدوأعمق مما هي بكثير. سواقيها الرخامية تصب فيها الماء الرقراق. لونه الأخضر القاتم أصابني بالكآبة. « سكون مشؤوم » كانت تُشم عطور المباخر المحروقة، تتقدم منا عبر الهواء الساكن، أمي الخارجة من غرفتها أخذت مكانها إلى جانبي. دخلنا. حياني المدعوون بحرارة غير منتظرة.الى جانب المقصورة المركزية كان ينتظرني كبير الحجاب ووزير غرناطة. انحنيا. جلست على الطنف ودعوت الجميع للجلوس. لا بد أن ذلك

(1) بما أن كلمة سراج وكرسي في الاسبانية واحدة، يعتبر المؤلف أن سرّاج تعني صانع كراسي (المترجم)

فاجأهم، فقد تأخروا بالقيام به. كانوا في حالة ترقب. قررت ألا أمنحهم أية تسهيلات. لن أقبل شيئاً غير الإصغاء إليهم.

لتساعد [illegible] قلت: [illegible]

لم أشر إلى [illegible] الاجتماع: لم أحدد [illegible] لم [illegible] لأحد. جميعنا كنا نعرف ماذا نفعل هناك. [illegible] يستقبلون لتوله. وبعد تردد، أعتقد أنه مصطنع تشاور خلاله [illegible] مع بعض بهمس خافت، بعض واحد، اعتقدت أنني [illegible] مهمة في سوق المدينة، ربما كان صاحب السوق نفسه، لكنني لم أتذكر في لحظتها اسمه. بدأ يخطب. افترضت أنه سيخطب زمناً طويلاً. رأيت المساء يفرد جناحيه بين السبيكة والبيازين. «ربما لم يبق لي مساءات كثيرة في الحمراء كي أبحث واحداً منها في شيء مفقود». [illegible] أمي [illegible] [illegible] بأيام البين [illegible] [illegible] بحثت بعيني عن فرج. كان رهن اشارتي. لم يبدل ملمحه، وكأنه، مع أن نظرتينا التقتا، لم يلاحظ أنني كنت أنظر إليه. قبلت أن تتركه عيناي. كان نور الصحن يرفع أشرعته، وفي الداخل يلفنا شفق رقيق: هل كان النور يذهب، أم أنه ودون أن يذهب قبلُ أن يتقاسم القاعة مع الظل، الذي ينبعث من الزوايا، أشعلوا الشمعدانات. نور النهار سيواجه نور النار. انتصر الأول، الناعم والشهواني، في البداية، ثم استسلم للثاني، الأقل تناسقاً وتبدلاً، المرتعش والساكن في آن معاً. «لابد أن نجمة القطب تظهر الآن في شمال الله فوق هذه السماء المقرنصة، تماماً في مركز البرج الأعلى من البقية، تلتقي فيها وعوزاة جميع التناسقات، صديقة أوعدوة حسب من ينتظر إليها، مرشدة ومزدرية».

— هم — كان الخطيب يصرح — يعيشون في الظروف نفسها التي يستطيعون أن يعيشوا فيها حتى ولو استمر الحصار سنوات. جنودهم لا يحصون. لقد أشادوا، كما لو بفعل السحر، المدينة التي نراها من مدينتنا: بأسوارها ودفاعاتها المنيعة، بشوارعها المستقيمة والسمية، [illegible] واسطبلاتها. عندهم أسواق تتوافر فيها الأغذية، الملابس الرقيقة والملابس الواقية. لا ينقصهم أي شيء كانت تنعم به غرناطة في أفضل أيامها. [illegible] البلدان [illegible] [illegible]

والأمل. [illegible]

- تعطي انطباعاً بأنك كنت هناك [illegible]

احمرٌ أو ذاننته احمر.

[illegible] الأسقف [illegible]
[illegible]
كانوا [illegible] بالعنابل [illegible] أنداءه
[illegible]
[illegible]
[illegible]
سحكم بأننا [illegible]
يسمح لنا بأن نطلق [illegible] قليلاً [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الأطفال بقسوة وربما العصافير أيضاً.
كل ذلك يتعلق بحجم الأعداء. [illegible]

- لاتوجد امكانية للمقاومة. فالمؤن التي في الصوامع والمخازن، حين تختفي الطرقات تحت الثلج، لن تكفي اشهرين، لخمسين يوماً [illegible] أقصى. الآن يوزع الطحين على الأفران كي يأخذ الناس الخبز الذي يريدون، وقريباً لن يأخذوا إلا الخبز الذي يعطى لهم.

شرد ذهني مرة أخرى. كان نور الشمعدان في طرف القاعة، يقع على جلة واحدة مزينة بشرائط الذهب فيجعلها ترتعش، بارقة وذابلة في الظل. لا، لم يشرد ذهني لعدم المبالاة بما كان يعرضه القاضي، أو أي كان. المسألة أنني سمعته يقال مئات المرات وكررته أنا نفسي على نفسي منذ مئات الأيام.

والخطيب ربما أنهى كلمته وقد أخمد استهتاري همّته، قبل ما هومتوقع. فكرت، دون أن أستطيع تفاديه، رغم أنه لايوجد ما هومنافس لإرادتي مثله، في الطريق التي قطعتُ للوصول إلى هنا، ليس بالفرد [illegible] قطعتها أنا، وإنما أسلافي. عصور مجيدة حسب [illegible]
هزت عرى سلسلة، كالجسر، تأتيننا مربوطين إلى [illegible]
رنانة، «لا [illegible] إلا [illegible]
[illegible]
[illegible]

أنفض عن كاهلي المسؤولية، متهماً بعمى القلب من جلسوا قبلي حيث أجلس أنا الآن؟ هل حقاً أن كل شيء مكتوب؟ هل أنا مجرم حتى يسوطني هذا القطيع من الكروش الأنانية بكل هذا الكم من الشكاوى؟ ما الذي قاموا هم به ويستحق التقدير؟ دافعوا عني ـ دافعوا عني! ـ في مواجهة *الزغل* أم دافعوا عن مصالحهم الموجودة في غرناطة رائحين وغادين حسب منافعهم، مغيرين رأيهم حسب من يحكم في الحمراء؟ ومالذي يبغونه الآن؟ أن يبدلوا مالكهم، أن يرموا بمن كان مالكهم لقرون ويستبدلوه بآخر أغنى، أقوى، أرسخ، لتزدهر بنظامه تجارتهم. هل أنا من كان خائناً؟ أأنا من كان غير مبال؟ إنهم هم، الذين يمضون ومعهم النجاد الذي يحملون فيه القرآن متظاهرين أنه يؤثر عليهم بشيء جوهري، بلى هم، الذين قلبهم حيث كنزهم وإيمانهم، حيث كنزهم، والله وكل شيء عندهم. نظرت إليهم واحداً واحداً تقريباً. زلقت عيني على ملابسهم التي جرّدوها من التوشيات والتطريز كي لا يثيروا الشعب، على خدودهم المتوردة، على كروشهم البدينة التي لا تشبع. كنت أفضل أن أجد أمامي شعباً صارخاً، مؤمناً، رث الثياب وجائعاً. يقول لي بدقة واختصار ما الذي يريده فعلاً: أن يعيش، على حساب أي شيء كان «إن الله لا يهدي القوم الكافرين». «والله لا يهدي القوم الظالمين «هكذا يقول الكتاب الذي يحملونه معلقاً إلى أعناقهم أوالى خواصرهم.» هل ما وعدنا به الله والرسول كذب ـ كنت سأسأل هذا الشعب ـ أم أننا لانستحق أن يكون الله معنا؟ ما الذي فعلناه؟ قاتلنا الأخوة، قتلنا الأخوة، نهشنا أنفسنا ونزفنا مثل الضواري. والآن ننتظر من العلي القدير أن يحمينا «أن نعيش ـ سيقول الشعب ـ هذا ما نريده» اذ حتى التقية الدينية يقبل بها الرسول، لأن الحياة هي أعظم خير وهبه لنا الله، وحتى مشروع الارتداد ظاهرياً عن الدين ـ فكيف سيحرم علينا أن نستسلم ونسلم أنفسنا من أجل أن نعيش؟ هذا ما قد يقوله لي الشعب. لكن أما كان سيكفيني أن أحدثهم بحماسة وبصوت جهوري عن الله وجنته، عن شرفهم وأجدادهم، كي ألهبهم من جديد؟ الشعب ربما، لكن لهؤلاء قلت:

ـ نحن في المكان الذي ازدهر فيه الإسلام كأجمل زينة لألاءة في العالم. اقرؤوا أبيات الشعر من حولكم. فالسلاطين من سلالتي بنوا الجدران التي تضمنا وزينوها، كي تنبسط بينها عزّة ديننا، وحكمة شعبنا وروعة فننا. جئتم من بيوتكم إلى هذا القصر الذي به أورثنا رجالٌ ـ ما عادوا أحياء الآن، لكن من المحال أن يموتوا ـ أفضل ما عندهم كي نغنيه نحن.. غرناطة أكثر من مدينة بكثير وأكثر من مملكة بكثير: صيغة ما

كنَّاه، وصيغة ما نحن، وصيغة ما سنكونه. واليوم، وفي هذا المكان في قلب غرناطة (الرمانة) ليس عندكم غير الأفكار المتشائمة.

كنت أعرف أن كل ما أقوله كان سفسطة، سقطاً تافهاً، لكن لا يمكن قط السيطرة على تفاصيل الخطاب ونبرات الصوت الفعالة والعاطفة المفتعلة. كان بودي أن أشتمهم،أن أبرهن لهم أنهم ما عادوا قادرين على الحفاظ على الوطن، على مدِّه بالحياة والشعور بأنهم له. وطنهم كان طمعهم، وما كنت لأسمح بأن يقلبوا الموضوع ويبرروا عيبهم بالحب القاتل للشعب وإشفاقهم عليه. لكنهم لن يقبلوا مني ولا حتى أن أبصقه في وجوههم: مجتمعون ـ وكانوا جميعاً ومعاً ـ يستطيعون أكثر مني. رأيت أن عيني فرج، الوحيدتين اللتين تدعمان عينيّ، تلمعان بورع مطلق. ختمت:

ـ هل أنتم مقتنعون بما صرح به الناطق باسمكم؟

وانخفضت جميع الرؤوس، وكأنها مكروبة، أكثر من قبل. تركت الصمت يسيطر على القاعة، قاطعاً وثقيلاً. التفت إلى ابن كماشة، ثم إلى المالح، فنقلا إليّ، واحد بشفتيه وآخر بحاجبيه رسالة رفضت أن أفهمها.

ـ أنا، لا. الناطق باسمي ليس هذا ـ كانت تلك أمي، بنبرة وقورة وغاية في الرخامة، في أفضل مداخلاتها ـ أنا الناطقة باسم نفسي، وصوتي دمي. وبإرادة الله كنا نحن بني نصر الأمناء على الدين. وقد أوكل إلينا، منذ مئات السنين أن ننقل إلى ورثتنا هذا الجامع الكبير، جامع الله، الذي هوغرناطة، كي يورّثوه بدورهم إلى ورثتهم.

هذا ما كنت قد سمعته في قرطبة، منهما بالذات، من الملكين النصرانيين. كل الحكام الذين لا يتألهون يربطون أنفسهم عاجلاً أوآجلاً بالإله: إنها طريقة للديمومة والافتخار. من السهل مصالحة البشر من فوق الأسطحة، بالوعود غير مستحقة الأداء فوراً، بالترهيب بأن قوى أخرى غير محسوسة تتكفل أولا تتكفل بالتنفيذ. فبحسب والدتي:

ـ ألا تستحون من أن نكون نحن من يقطع الأواصر التي تربطنا بالله؟ ما الذي تريدون أن تقولوه عندما تؤكدون أن الحالة لا تحتمل. لم أمُر في حياتي إلا في حالات لاتحتمل، الحياة واحدة منها: من هنا أننا نموت. أي نوع من الغرناطيين أنتم، تتبجحون بأن النصارى يعيشون أفضل منكم وهل العيش بشكل أفضل هوالذي يهم الآن؟ إذا كنتم تقولون بأن عندهم مؤناً وأسلحة فلماذا لا تضيفون الساعة التي علينا أن ننتزعها منهم؟ أتتطلعون إلى تقليد الخائن وبائع المملكة، أبي عبد الله، الذي طالما نودي

بيننا *بالشجاع*؟ ما الذي تريدونه؟ أنا لا أفهمكم. ربما أصبحت الآن عجوزاً. وربما كان موتاي وهم في مجالسهم أعداء يشدونني من أعقابي نحو الأسفل. وربما لم يبق عندي ما أدافع عنه غير شرفي وشرف مملكتي. المملكة التي تريد ملكيتها لأسرتي اقتناصاً: تذكروا ذلك. تذكروا ذلك. لكن مادام فيها رجال يجري الدم في عروقهم، سأبقى الناطقة باسمهم، لأنني أسمع أذني من كل صوت ليس صوت الدم. اعتقدت انه وبعد التطهيرات الموجعة الكثيرة وعمليات بتر الأعضاء المتآكلة الكثيرة، لم يبق في غرناطة إلا أبناؤها الكاملون، الأقوياء. اعتقدت انكم وبعد كل تلك المحن والأهوال، وبعد أن تنقلت مثل الرجل من مدينة إلى أخرى حين عاد ولدي من الأسر، ستولونني الاحترام التي تستحقه الراية. أليس كذلك؟ - انتظرت برهة عدة لحظات، رفعت نبرتها - أليس كذلك؟ - أإلى هذا الحد ستخيبون ملكتكم التي تفصل أكثر من مرة أو مرتين قد ساعدت على أن ترى ما تراه؟ إذا كان شعبنا قانطاً فمن هذا القنوط سيستمد قوته الأعظم. وإذا كان شعبنا جائعاً فمن جوعه سيستمد شبعه. لنمض لمواجهة النصارى، ولينادِ المنادون على الرجال. سأبقى أنا في غرناطة مع النساء ومعاً سندافع عنها. امضوا أنتم لقتال أعداء الدين، أشعلوا معسكرهم من جديد. ومن يعود سيجد مدينة محروسة للسعادة والحياة، والذين يقتلون سيكونون أحياء عند ربهم يرزقون. أم أن أجدادكم كذبوا علينا؟ تراه كذب كل الذي لأجله قاتلنا وبه آمنا؟ أبهذه السرعة صار كذباً؟ أجيبوا! أجيبوا!

لم يرد أحد على تذييلاتها البليغة. حدث كما لو أن السمت المطبق والثقيل الذي سبق خطابها قد رفضه. كما لو أن كلماتها تلاشت في الهواء - صوت صائح دون أن يسمعها أحد، من غير المجدي تكرار ما مل سماعه على من شاح بنظره باتجاه آخر، فالخطر، الذي صار من لحمه ودمه، استبدله بمنظور جديد وغريب. ربما لو لم يكن هناك نصارى لاخترعهم المسلمون الذين كانوا أمامنا. وما كان يبدو للقليلين جداً انتحاراً بدا للغالبية انبعاثاً. «لقد بلغ بهم الضيق منا الذروة، يا أماه - فكرت - لاتبددي طاقاتك البراقة والبائرة. لم يعد هناك ما يمكن فعله» نظر فرج حوله، تقدم خطوة إلى أمام. أوقفته بإيماءة غير مرئية بالنسبة للآخرين. وقطعت الصمت:

- أعرف أنكم تتفحصون الآن ضمائركم. وأنكم تقيسون بلباقة الايجابيات والسلبيات - عرضياً لم يكن صحيحاً - إذا كنتم قررتم أن تقاوموا معي، فسنعيد بناء المملكة فيما بيننا جميعاً، وما يخبئه الله لنا لا نعرفه: من الذي يمكنه أن يتكهن بما ينتظرنا بعد الشتاء؟ ألا يتدفق بعده

الربيع دائماً.

كان تعليلا ضعيفا جدا، لم يكن تعليلا. بل ولم يكن بالامكان أن يكون معقولاً في ظروف مثل تلك. يمكن أن يكون بطولياً، لكن البطولة تستخدم لغة لم يكن الحاضرون يفهمونها. ورعاياي لم يسمعوا قط أحداً يتكلم عن نومانثيا أوشقوند وسيضحكون إذا ما تجرأ أحد وحكى لهم مثل القصص. المعقولون كانوا هم. وهم يجتمعون، لكن من أجل أن يبقوا على قيد الحياة، وسيتضامنون، لكن كي يستمروا، وليس كي يضحوا بأنفسهم. كنت سلطانهم، ونظرياً كان لي الأمر عليهم: مهزلة أخرى ولكي يبقوا أحياء، وكتدبير أول، سيبدلونني، ثم وثانيا، سيقطعون عنقي. ودونهم لم أكن سلطاناً على أحد. ومعهم أيضاً لم أكن كان صمتهم أحياناً يؤكد هذا.

بخطوات قصيرة تقدم رجل قصير جداً. لحيته تغطي كل وجهه، عيناه صغيرتان وصابرتان ويداه مغطاتان بالشعر، وأكبر سناً مما هومفترض. كان فقيهاً أحرز في الأسابيع الأخيرة مكانه كبيرة. جاء من ونجر أومن وجار أوما أبراني. وبالطبع كان يدعى محمد اليقيني.

- مولاي، وسادتي، لا تخلطوا بين مشيئة الله ومشيئتكم. هناك حالات طارئة أحكامه فيها غامضة جداً، لكن هناك أخرى تكتسي وضوحاً لا لبس فيه. إذا كان قد ورد في كتاب الله خراب غرناطة، فلن يجدينا نفع أن نعارض القدر. هو يعرف متى يجزي ومتى يعاقب، ومتى يكون مشرفاً ومتى يكون مذلاً أن يكون المرء بطلاً في سبيله. لا تصروا على إطالة احتضار شعبنا. فاحتضاره لن يقوده إلى النجاة ولا إلى النصر. لذلك وإذا كان المريض يرتاح لتغيير الوضعية، فلنساعده على تغييرها. مولاي ومولاتي: ربما كان في أعماق قلبيكما ليست غرناطة ولا الإيمان ولا الإسلام ما يراهن عليه، وإنما فقط سلالتكم. اسمحا لي بأن أنبهكم أن هذا الشعب، المعذب جداً يلهمنا احتراماً ورأفة أكثر منها. وبين اختفائها هذا واختفائه لن نتردد إطلاقاً في ما يمكن أن نختار.

أعرب اليقيني، الذي يكاد يكون قزماً، تماماً عما كان يفكر به الجميع، ومن بينهم أنا. نهضت بغتة. وبتنهيدة خلاص نهض الجميع منهين الاجتماع. لكنني رفعت، وأنا أبتسم في داخلي، يدي لإيقافهم.

- أهذا ما ترونه؟ هل أنتم متفقون؟ لن يخرج أحد من هذه القاعة قبل أن يقول رأيه.

- لا، أردت أن أسمعهم، أدرك أن آراءهم. كنت أعرف نتيجة الاجتماع قبل أن يبدأ، لكنني كنت متلهفاً لأن أسمعها من كل واحد بصوت عال. لم تكن

تكفيني المواقف المحزنة. والسخاء المنافق، والحركات التهريجية بهزّ الأكتاف والتنازل عن الرأي اللاحق بأنه « كان مكتوباً ». توجهت إلى كبير الحجاب:

ـ أنت. قله.

ـ بلى ـ أجاب ابن كماشة بعد تلعثم.

وقفت أمام الوزير:

ـ أنت.

ـ نعم ـ أجاب المالح.

ثم انتقلت من واحد إلى آخر دون عجلة. كان الغضب يجعلني أرفع رأسي، أنصب جسدي، ربما لم أظهر قط مثل هذه الجلالة. من واحد إلى واحد رحت أسمع موافقتهم، نعمهم دون عجلة. غضبي بالطبع كان نسبياً. لم تسببه أجوبتهم بل وجوههم، أنانياتهم المقرفة التي كنت أحاول كشف القناع عنها. وكلما سألت أكثر، كانت النعم تزداد رنيناً وقوة. لم أتوقف أمام فرج: كان سيقول لا. وعندما واجهت الصف الأخير كنت قد اقتربت من أبواب القاعة. في الخارج كان ليل ممتع ودافىء يهبط أويرتفع. من الحدائق تصل رائحة ياسمين. سمعت انزلاق الماء الخفيف في أطراف البركة. في مكان ما صدح عصفور.

ـ نعم ـ أجاب الأخير.

ـ أشكركم لأنكم جعلتموني شريكاً لكم في الرأي.

هم وأنا كنا نعرف أن المفاوضات كانت قد بدأت منذ زمن. ربما تلقى كل واحد منهم مكافأته أوالوعد بها. كانت تسمع زقزقة العصفور، يضخّمها الصمت.

ـ هل تأتين، يا أمي؟ ـ كانت شاحبة، مفككة، تكاد تكون مخفية داخل قنوطها. ـ هل تأتين، يا أمي؟ ـ كررت.

كان صوتها مثل دفقة ماء يغلي:

ـ لا، أنا باقية. باقية هنا. ولن أخرج. اتركني لوحدي. صحيح، أعتقد أنني دائماً كنت وحدي.

عندما عدنا إلى قصر يوسف الثالث، قال لي فرج:

ـ ليسوا جديرين بك. أنت أفضل سلطان عرفته غرناطة. كنت رائعاً.

ـ لا لست كذلك، لكن حتى ولوكنت. كما استطعت أن ترى، أفضل

سلطان في أسوأ لحظة لا يجدي نفعاً.

أردت أن أدخل إلى غرفة نوم يوسف كي ألمس شيئاً نظيفاً. ابتسمت لي مريمة واصبع على شفتيها.

ـ الصغير والكلب نائمان معاً. جاءا منهكين.

ـ أنا أيضاً قادم منهكاً. وأعتقد إلى الأبد ـ قلت ومررت بذراعي على كتفيها.

ـ ليست هذه ساعة مهاترات ـ حذّرت ابن كماشة والمالح عندما مثلا أمامي بعد يوم واحد.

وعندما رأيتهما ينظران الواحد إلى الآخر شزراً نبّهتهما:

ـ كذلك ليست الساعة ساعة إلقاء التهم الواحد منكما على الآخر: كلاكما متهم. إنها ساعة العمل. والعمل بفن، بشكل نربح فيه أكثر ما يمكن أو من الأفضل القول، بطريقة نخسر فيها أقل مايمكن. أما بالنسبة لهذا الفن فلقد وجدت فيكما وفي الملك فرناندو، معلمين ممتازين، كنت أعتقد حتى هذه اللحظة أنّ هذا من سوء حظنا. أرياني الرسائل التي وجهها إليكما مفّوض الملكين ونسخة عن الرسائل التي وجّهتماها إليه دون استشارتي. لاتردّا ـ همّا بذلك ـ وأرياني الرسائل.

بالطبع أرياني ماكان يلائمهما منها ومسودة عن رسائلهما، ربما معادة الصياغة، كان هرناندو الصفري ينادي كبير الحجاب «سيدي الموقر» وينادي المالح الذي كتب له أكثر بكثير من الأول بـ «صديقي الخاص والعظيم المماثل لأخي». وكان يتسرب من القراءة أنه مضى عليهما في التآمر أكثر مما كنت أتخيل. وأي واحد يقرأ هذه الأوراق سيتساءل لماذا قبلت اذن أن يستمرا في تمثيلي؟. كان موقفي واضحاً إلى حد أنه لم يخامرني التردد.

فيما بعد وعندما تفكرت في الأمر فهمت أنه كان محسوماً مسبقاً. أولاً ـ الأحداث المنجزة نفسها تنطوي على بلاغة كافية ـ كانت الطريق أمامهما، كل بمفرده أومعاً، ممهدة، وهذا جوهري في لحظة حرجة لم يكن باستطاعتي أن أتصرف فيها برقة المراسم، ثم إنهما ولكي يرفعا سعر عملهما، كانا يصران أمام النقيض على صعوبة وعسر إقناعي. ثانيا كانت ثقتي بالآخرين أقل بكثير مما بهما. أولاً وأخيراً كانا يساعدانني

منذ المرحلة الأولى. وكانا معروفين من النصارى على أنهما ممثلان لي في مباحثات أخرى حرجة، خرجا منها مستفيدون طبعاً. ثالثاً وحسب ما يستخلص من الرسائل حصلا على مكافآت من العطايا والرشاوى، وإذا لم يكن هذا قد أرضاهما فإنه بالطبع قد خفّف من طمعهما، وبهذا تقدمنا بعض الشيء.

على كل الأحوال كنت وحدي، والمسؤولية الأخيرة، في اللحظة الأخيرة، ستكون مسؤوليتي. خاصّة إذا ما خرجت سيئة.

وكثيراً ما سألت نفسي ما هو الوفاء، ومن هو القادر عليه في الأيام التي كنا نعيشها، في الأيام التي كان شعارها «لِينجُ من يستطع النجاة». وأنا منذ عرفت نفسي ـ ولاأدري ما إذا عرفتها كليا ـ بحثت عن أوفياء. عندما كنت طفلا قليلون هم من كانوا معي، وجميعهم أضعف مني. والآن لاأستطيع أن أطالب أحداً بالإخلاص في حدوده القصوى، فهذا لايقدمه إلّا الحبّ [بخصوصياته غير العادلة أحياناً]. ورغبة مني في أن يكون لي ولوشخص واحد وفيّ حشرت قلبي بشكل أعمى في مسائلي أومسائلي في قلبي. وكان فرج هوهذا الشخص، وأيضا مريمة من منظور آخر. إنهما المخلصان الوحيدان عندي، ويعود ذلك بشكل من الأشكال إلى أنهما مثلي تماما. لكن هناك يقين مشابه هو أنه لم يكن من الحكمة أن نطلب ذلك ممن يساعدوننا في الحكم، خاصة الذين يحاولون أن يحلوا محلنا. وهل من مرّة يعرف فيها الملك من هوالمخلص له ـ خاصة بوجود معضلة بينه وبين المملكة ـ ؟ ثم ألا يمكن لغير المخلص وغير الوفيّ ولهذا السبب بالذات أن يكون مفيداً للمملكة؟

من جهة أخرى كان عدم الاخلاص الذي يكنه ابن كماشة والمالح لي ـ ومايزالان ـ قد عادله بطريقة مؤسفة، عدم إخلاصهما الواحد للآخر. وهذا ماأبقاني يقظاً، من خلال وشاياتهما وغيرتهما وحسدهما المتبادلة، إذا ما حاك أحدهما أمراً يشكل خطراً فعلياً. علاوة على أنهما سيكونان، أولاً وأخيراً، أقل إخلاصاً للآخرين: للنصارى وأشراف غرناطة. فابن كماشة والمالح سيكنسان للداخل، لداخلهما طبعاً، وكان الموضوع من السعة بحيث يصعب التوقف عند الدقائق المفرطة. على الرغم من أنني كنت واثقا أنهما لو خيّرا بيني وبين الآخرين لاختاروني مع أن هذا لايقدم لي عزاء. ولم تكن ثقتي بأقل من سابقتها بأنهما لو خُيِّرا فيما بينهما وبيني لاختارا نفسيهما.

كان قراري ـ الذي اتخذ باجماع سريع ودعاهما للافتخار والنزول

عند قدمي تماماً ـ أن يبدأ كبير الحجاب ووزير المدينة المفاوضات بشكل رسمي الآن. وأدنى تحرك فيها يجب أن يبقى بيننا نحن الثلاثة، ويحاط بأعلى درجات الصمت صرامة وإطلاقا وصلابة.

أعلماني ـ رغم أنني كنت أعرف مسبقاً وأعتقد أنهما كانا يعرفان أنني أعرف ـ بأن الرسول المعتاد هو حامد العليلي، نصف المرتد ونصف التاجر، والخالي من الحدود الدنيا للأخلاق ـ ربما كان نافعا لأن الصفري هو الذي اختاره. ومع ذلك فإن من المناسب توفير الوسيلة لبعض اللقاءات الشخصية، لأنهما كانا لايثقان ـ يا إلهي هما لايثقان! ـ بالمترجم، وكان يهوديا يدعى شمعون. سألتهما عما إذا كانا لايثقان بالشخص، أم بترجماته، فأجاباني معاً: بكليهما.

كتب المالح الرسالة الأولى، التي أملك مسودتها أمام عينيّ، إلى الصفري بحضوري. كانت جوابا لرسالة له سابقة. تبدأ بـ: *سيدي المخصوص وصديقي الحقيقي*، بسط بعدها تلك السلسلة من المجاملات للصفري وللملكين لم أستطع معها كتمان ضحكتي.

المالح كان يقرأ وهويكتب:

ـ *جلالتهما، اللذان لن أستطيع أن أنساهما حتى مماتي...*

ـ ولاأنا ـ قاطعته.

نظر إلي معاتباً وتابع...:

ـ *لأنني أعرف الخير الذي قدماه لنا.*

ـ لك أنت ـ قلت:

ـ هذا مايجب أن يقال، يامولاي. وإلا فلن أتابع ـ نبهني بين الغاضب والمتواطىء.

وأنا تعلمت الدرس.

ـ *وحق الله وشريعتي لواستطعت أن أحمل غرناطة على كتفيّ لحملتها لجلالتهما، وهذا مايجب أن تصدقوه، أماتني الله إن كنت أكذب.*

ـ لاتبالغ، يامالح.

ابتسم خلسة وتابع الكتابة:

ـ *كما أتمنى الخير الوفير لمولاي، لأنني ربّيته وخيره وفضله عليّ وعلى بيتي وأود أن يخرج بسلام من هؤلاء الناس المجانين، رغم أنهم عاملوني معاملة سيئة* ـ ثم احتاط لاحتراسات الصفري ـ: *لاأريد أن تضعوا درقة أمام كل كلمة أكتبها لكم، ولاتفكروا بأنكم تردون على عدو، وإنما عليكم أن تضعوا*

في حسابكم أنني خادم لكم ـ ويعود فيقلب حجج الصفري موافقا له كي يستفيد ـ *أما فيما يتعلق بما تقولونه عن أعداء الملك وأعدائنا في هذه المدينة وعن أنها* مسكونة *بناس ذوي أمزجة كثيرة، فكل ماتقولونه صحيح، لذلك قرر مولاي ألا يتحدث في أي شيء، لأن الناس لم تنضج بعد.*

رفع نظره عن الرسالة وقال لي:

ـ بهذا بدأنا نؤخر تسليم المدينة ونحتفظ بها في أيدينا. والآن سنحدّثه عن السر، الذي يهمنا كثيراً.

ثم حكى له أن رسوله حامد جاء ومعه بضائع من مدينة الإيمان المقدس وأعطاها لابن عم له ليبيعها في القيسرية، وتدافع عليها الناس وقد قامت تحريات وأنني والناس أردنا أن نعرف مصدرها.

ـ *وأوزيْتُ كثيراً وأراد الله أن أدحض في لقاءٍ مع الناس جميع آرائهم* ـ وتابع ـ *وقال لي مولاي بألا أسلم أية رسالة أخرى لحامد، وأنه إذا أردتم الكتابة، فإننا سنأخذ أسيرا نصرانياً ونتحدث معه وسنعمل أن يُسْلِم ونرسله مع الرسالة*، ولأن أي شيء غير ذلك ليس ممكناً طلبت منه أن يبقي عشرة أوعشرين يوما لايستخدم فيها حامد العليلي ـ «تمديد آخر» قال لي، إلى أن ينسى الغرناطيون ماحدث. وحكى له، كي يعكره أكثر، أن غُماريا أسيراً هرب من معسكر النصارى، ويتباهى في غرناطة بأن لديه أخباراً أكثر من أي شخص وهو يعرف أن الكردينال سيصل قريباً والفسطاط الملكي سيُنصبُ، وأنه إذا لم ينصب حتى الآن فلأن الملك فرناندولم يجد القادة والرؤساء الذين يقبلون البقاء.

ـ سيشغله هذا وسيعرّفه بأننا نعرف مايخفيه عنّا ـ علّق ـ لننتبه:

ـ *مولاي السلطان والسلطانة سروا كثيرا للثياب التي أمرتم بان تعطى للأمير ابنهما، ويرسلان تحيتهما لجلالتهما ويدعوان الله أن تزول هذه العداوة ويعملان، والله،كثيرا لأجلهما وأنا معهما.*

وقّع وختم. نظر اليّ بحذر. وعرفت أنني لم أمارس معه درسا سيئا.

ما أن اكتسبت العلاقات صفة الشرعية حتى اقترح الصفري بأن يتقابل ممثلي شخصياً معه ومع الملكين وكان يَصَرّ على ذلك في جميع رسائله. أجابه المالح بأن من الأسهل والأكثر سرية أن اجتماع الصفري نفسه مع ممثّليّ، إذا كانت تلك هي رغبته. لكنه كان قد وجد فردة حذائه. فقد وضح له الصفري: *لم أكتب اليكم بانني أردت أن أقابلكم، وإنما أن تأتوا أنتم لمقابلة صاحِبي الجلالة لأنه بهذا الشكل سوف يتم التوصل إلى إنهاء القضايا بسرعة وبشكل أسلم وأفضل* (الشيء الذي كنا نحاول أن نتجنبه كي

نطيل جس النبض ونحصل على أكبر مردود). وعندما كلمه الصفري عن حاجاتنا ـ وهي كلمة غامضة ومبهمة ـ وعرض عليه المساعدة، رفضها المالح نافياً حاجتنا لأي شيء كي لايجعله يعتقد بأننا تواقون ومضغوطون. ردّ الصفري طاويا الأشرعة وناشراً إياها في الوقت نفسه: *مايكتب بإرادة طيبة وغاية نبيلة يجب ألا يؤخذ ولايرد عليه بتلك الطريقة. وإذا كنتم على هذه الحال من عدم الحاجة، التي كثيرا ماترددونها، ياأخي، فأفضل ماأتمناه هوألاّ تأتوا وألا تجدوا أنفسكم فيها فيما بعد. وكلما قلّت حاجتكم كلما كانت الفائدة التي سيتلقاها الملكان أكبر* (وكلما كافأكم أكثر، كما يُفهَم من ذلك) *الأشياء التي تُقدَّم بمحبة فبمحبة يجب أن يُردّعليها وأن تُتلَقّى. لندع، إذن ياأخي، كلّ مالايفيد ولنأت إلى مايفعله الواقع. لأن صاحِبَي الجلالة لايسيران بشيء إلا على طريق الحقيقة* ـ يضيف ـ *لأنهما لوأرادا شيئا آخر يستطيعان أن يعدا له، بحيث إذا كنتم لستم بحاجة إلى شيء فهذا أفضل عدة واستعداداً لانتظار أي وقت وأية مفاوضات. وبما أن صاحبي الجلالة راغبان بأن ينتهي هذا في الحال، فالشيء نفسه يجب أن ترغبوا به أنتم وهذا لصالحكم.* واضح كالماء. لكنه وضع في المغلف ورقة صغيرة ليقرأها المالح لوحده. يشكو فيها من أن ابن كماشة *لايسير بوضوح ولاصواب في خدمة وصالح السلطان ولا صالحكم، لأنني أظنّ أنه يرغب بالبحث عن بعض المماطلات ليمضي بها في طريق أخرى* (هذا ليس لصالح السلطان ولالصالحكم يقول صاراً على أسنانه، أنكم ستجدون أنفسكم بلا أجعال.) *والوزير* ـ ينهي كلامه ـ *لاينظر ما أمامه ولا إلى ان ابن مولاه أسير ولا إلى أن شخص سيده وحالته في كل يوم وساعة ولحظة في خطر.* مترجم: ضع هذا في حسبانك واجعله حاضراً في ذهنك تماماً *فأنتم من التعقل بحيث تعرفون لماذا أقوله وتفهمونه جيداً.* ويختتم رسالته بتوضيح أنه *إذا كنا لسنا بحاجة إلى شيء، فإن صاحبي الجلالة حفظهما الله، هما أقل حاجة منا بكثير.*

لا أخفي أنني كنت أتسلى بالمثاقفة بأن كل شيء كان يقال كان يراد به قول العكس، ويحذّر مما لم يقل ويوحي ويعلن عن شيء آخر لم يكن ليقال أبداً. كان المالح بأمر مني يؤجل زيارته للملكين، والتي كان يطالب بها الصفري. كنت أريد التأكد قبل ذلك بأن التمثيل الذي كان الصفري يتبجح بأنه حقيقي، وهذا ما أراد الملكان أن يرياه قد أقرَّ بالنسبة لابن كماشة والمالح. لكننا كنا أكثر صبراً وأكثر مهارة. وبناء على طلب المالح بأنه من المناسب أن يكتب الملكان لابن كماشة ولي كي يليناننا (ما أردت الوصول إليه في الحقيقة هوأن يؤكدا بإيمانهما وكلمتهما، بأنهما سيلقيان عندهما معاملة حسنة، وحماية وأمناً ورضى) وكتب الملكان،

منزعجين، رسالتين: واحدة لي وأخرى لممثليَّ.

رسالته لي كانت محددة تماماً، ومن المؤكد أن الذي حررها إنما كان الصفري. *لم أستطع أن أصدق، ولا أصدق، بحسب الارادة التي وجدتموها فينا وعرفتموها وبحسب ما كنا نعرف عن طيبكم، أن شيئًا مما جرى صدر عن إرادتكم وهكذا ولهذه الأسباب كلها لا نريد أن نرى ضياعكم. طالما عندكم الوقت لخدمتنا، رأينا من الصالح لنا أن يكتب أمين سرنا للقائد عندكم وخادمكم ما نعتقد أنكم رأيتم، ولأن كل شيء صدر ويصدر عن إرادتنا، وكتب بأمرنا، نوافق على أن يكتب لكم كي تكونوا على بيّنةٍ منه.* أي أن الطلب المبطّن فُهِمَ بشكل رائع ولم تكن تلبيتة بأقل روعة.

وإذا كانت رسالته لي واضحة فإن رسالته للآخَرَيْنِ كانت أوضح: *لقد رأينا الرغبة والنية التي عندكم لخدمتنا والتي تتحدثون عنها، الأمر الذي لا نشك فيه، نظراً للإرادة التي دائماً كانت لنا في تقديم الفضل لكم... ونعتقد أنه لتجاوز الماضي وتصحيحه كله بمساعدتكم وبفضل الله فإنكم والسلطان تملكون القدرة الكاملة عليه.. فدخولكم فيما بعد في خدمتنا سيعود عليكم بكل الخير والأمن والراحة ونحن متاكدون من أن سيدكم رهن نصيحتكم وتفكيركم، نكلفكم أن تسرعوا في كل شيء للوصول إلى تلك الغاية والنتيجة التي هي لخدمتنا وخير سيدكم وخيركم، مؤكدين لكم أنكم بالسير بالموضوع بهذا الشكل ستتلقون منا العطايا المشار اليها... وإذا ما عملتم عكس الذي نعتقد فيه ـ الأمر الذي نشك به ـ من الآن فصاعداً في كل الأمور، لن تكون لديكم قضية عادلة ولا حق في التذمر، والذنب في كل شيء سيكون ذنبكم. لا تفكروا بأن إطالة هذا سيعود على شؤونكم بالمنفعة، قبل ذلك كونوا متاكدين بأن أية إطالة مضرة بكم.* يستودعانه ضامنين لهما حقهما أمام منافسة المفاوضين الآخرين: *ولا تظنوا أنه يسرنا أن تأخذ هذه المعاملة طريقاً أخرى ولا جهة أخرى،* لكن بتحذير: *فبهذه الطريقة ستكون النهاية أقصر وأفضل فيما يترتب عليكم.*

في ذلك المساء، اجتمعنا نحن الثلاثة في القصبة لمناقشة الرسالتين والرد عليهما. كيف نستمر بتأجيل المقابلة مع الملكين؟ لأنه إذا كانا قلقين إلى هذا الحد، فكلما قاومنا أكثر استطعنا الحصول على شروط أفضل. قرر المالح أن يكتب إلى الصفري أننا سعيدين جداً بالرسائل الملكية، من كليهما، أضاف: *قبّلنا رسالتهما الشريفة ووضعناها على رأسينا وقررنا بكامل إرادتنا أن نخدمهما ونقوم بكل ما يأمرانا به* ولكي لا يكذب كلياً أجبرته أن يضع الرسالة على رأسه وهكذا فعل ساخراً. أما فيما يتعلق بالمقابلة فقد وضع عوائق كثيرة: يجب أن يقوم بها واحد منهما، لأن إدخال شخص ثالث سيطيل المسألة ويضع السر في خطر، السر الذي سيتعرض للخطر

بذهابهما معاً، *فنحن لانستطيع أن نغيب ساعة عن مولانا، إذ من المعتاد أن يرانا الفرسان والناس باستمرار معاً لنخفف عن جلالته*. وسيداخلهم الشك إذا لم يجدوهما، وإذا ما علم الناس بالمباحثات قبل نهايتها فلن يكون هذا مستحباً. وهكذا اقترح أن تؤجل المقابلة إلى *أن نفرغ من جلالتهما* ويكون *قد صار مكتبكم في حوزتنا ونكون واثقين منكم، حينئذ سنعطي أوامرنا وسنفكر كيف ستقوم المفاوضات وكيف نلين الناس*. ثم يتسامح بمهارة: *على كل الأحوال، ليذهب واحد منا، لكنه سيذهب ويعود في الليلة ذاتها وعند الفجر* يجب *أن يكون في* بيته. يتطلب هذا حصوله على الأمان من جلالتهما في الذهاب والإقامة والعودة وأن يكون الصمت مطلقاً باستثناء جلالتهما والصفري.

أجاب ابن كماشة والمالح الملكين واضعين نفسيهما، مثل سجادة، عند أقدامهما. *إن ارادتنا ورغبتنا هي في خدمة جلالتكما إلى أن تتحقق إرادتكما ومشيئتكما، ولهذا السبب نحن نكتب لخادمكما، أمين سركما وأخينا، هرناندو الصفري*.

كان ردي بسيطاً. فقد أجبت على تصريحات الحب ذات الوجهين مكرراً بضع عشرة مرة كلمة: الموقّر أنا، رسالتكم، هم، أمين سركم، قوادي، ومرّة أخرى رسالتكم، ومرّة أخرى هم. احتججت قائلاً بأن *صداقتنا لم تنقطع قط ولن تنقطع وأننا بناء على طلبكم سناتي قريباً لخدمتكم قبل أن نقع في أية حاجة أونقص* (كي يفهموا أننا فهمنا تهديدهم) وأحطتهم علماً بأنه *إذا كان خادمكم لم يكن في خدمتكم، فإن ذلك كان لحاجة عند أهل المدينة وأنه لن يتخلى قط عن خدمتكم، سواء أكان بحاجة أم لا*، وإنني إذا لم أف *فقد كان بسبب عائق الوقت وما حدث له مع أهل هذه المدينة، الذين كانوا يخرجون عليه، قائلين إنهم أقوياء جداً وإنه ليس بهم أية حاجة* (هذا ما يجب أن يؤكد عليه) *لأنه يوجد هنا ناس كثيرون غير لطفاء مع مولاهم، وعادة ما يثورون عليه في أوقات الانقسامات* (الآن لا) *وهم بحاجة إلى من يلينهم ويطوعهم*. واعترفت في الأخير أن خادميّ يمثلانني. *والسلام ورحمة الله وبركاته على جلالتكما*.

في الليل جاءني المالح ومعه وريقة من وراء ظهر ابن كماشة كان سيضيفها لرسالته إلى الصفري.

ـ الصفري يا مولاي لا يثق بابن كماشة.

ـ إذا كان الصفري لا يثق به فعليّ أن أثق.

ـ إذا كان لا يثق به فلأن الحاجب غير نبيه، وليس لأنه مخلص لك.

ـ عدم النباهة يمكن أن يفيد أيضاً، أنت تتظاهر بها أحياناً، وتكسب

أكثر.

يقول في الورقة للصفري، أن الرسالة لصاحبي الجلالة لم تكن *والله* ضرورية، لكن ابن كماشة أساء التعبير. *هذا أخرق ومن الضروري نصحه. وأنا سأصححه بعون الله مع الآخرين بإرادتي الطيبة لخدمة صاحبي الجلالة. أنا أبلوه كي يذهب هو للمقابلة، ولا أقدر عليه، إذ يبدوأنه جبان جداً* (كذب، هوالذي كان يريد أن يذهب) *ولهذا السبب طلبت الأمان للاثنين* (ألم يتهم الآخر بأنه هوالذي طلب رسالة الملكين؟) *لأنني ذهبت أم لم أذهب فأنا خادم لهما*. بعدها ورط نفسه بالاصرار على أنه كان يكتم السر حتى على ابن كماشة، كي يلمّح للصفري ليفعل الشيء نفسه *وأقسم بالله العظيم أنني أود أن أرى صاحبي الجلالة اليوم قبل غدٍ، وأن اليوم الذي يمر عليّ الآن أحس به شهراً*، لكنه كان قد سقط سقطة سيئة جداً عن الجواد، وأنه كان يتعافى شيئاً فشيئاً *بفضل الله وبفضل رسالة صاحبي الجلالة. ادع الله ألا يكذب تفكيري بك ولا تفكيرك بي وسنكون عامل الخير لسادتنا وسنربح نحن الاثنين* (وهنا لا يريد غموضاً: فقط الاثنان) *الكرامة والشرف والسمعة الطيبة والعطايا في البيت الملكي*.

ورداً على توبيخي له لوقوعه في بعض التناقضات، أجابني:

ـ تناقضاتي، يا مولاي، ستساعد على أن يتناقضوا هم أيضاً. وبين هذه وتلك سنخرج بشيء مفيد.

في الليلة التي ذهب فيها المالح لمقابلة الملكين بكرت كثيراً وانتظرته وأنا أتمشى قلقاً. كان قد طلع نهارٌ رماديٌ وباردٌ من أيام تشرين الأول. بعد ذلك ليس بكثير جاء المالح عارجاً.

ـ لأجلك وحدك فعلت ذلك. لايوجد فضلٌ ولا هباتٌ ولا جوائز يمكن أن تكافىء هذه الأشياء. مرّة أخرى، ليذهب ابن كماشة: فهوأذكى، وأكثر ممارسة وشجاعة مني.

ـ ليس هذا ما تقوله للصفري. هل مررت بخطر؟

ـ إذا كنتم ترون أن السير وحيداً في ليل مدلهم بين الأعداء قليل... آووني في قرية تشوريانة. يا له من طريق يا مولاي. كان الملكان ينتظرانني. لقد كبرا في السن. يلاحظ أن العيش في العراء في هذه الرطوبة لا يلائمهما. ومع ذلك فالملكة قد سمنت، مع أنها في حداد.

ـ ما الذي حدث؟

ـ لماذا سمنت الملكة؟ تعرفون أنني لم أكن لأسألها هذا السؤال.

ـ لا يهمني سمنت أم لا.الشروط، أعني.

ـ آه، فكرت. قرأت الملاحظات والمذكرات التي كتبناها لصالح المواطنين، متطلبات العموم، امتيازاتكم وامتيازات أسركم.

ـ وأعتقد امتيازاتك أنت.

ـ بلى وامتيازاتي. طبعاً وامتيازاتي: فيما بعد ستسألونني لماذا كنت لا أريد أن أقرأها. طيب، حسن، حسن جداً. وافقا دونما صعوبة كبيرة. كان الواحد منهما ينظر إلى الآخر ويوافق. كان الصفري في المجد. دونما مساومات، كانا يقولان نعم برأسيهما وفجأة قاطعاني معاً. كانا يريدان أن يعرفا التاريخ الذي ستسلم فيه غرناطة. حدثت وقفة طويلة خلتها دهراً. قلت بعدها « بأسرع ما يمكن » « ومتى أسرع ما يمكن؟» سألت هي، ومع أنه أذكى منها تركها تسأل وتبدو أذكى منه. «قريباً» أجبت أنا. ضرب هوعلى ذراع المقعد:« قريباً بالنسبة إليكم أم بالنسبة إلينا؟ متى؟» وضرب مرة أخرى. قلت «إذا قمنا بجهد كبير، يمكن أن يكون آخر يوم في أيار القادم». نهض على قدميه، وأتصور أن ذلك كان كي تكون الرفسة التي رفس بها الأرض أقوى. تناقشا غاضبين فيما بينهما. تناقشا وغضبا إلى حد أنني تجرأت على تخفيض المهلة إلى ثلاثة أشهر، لأنني فكرت، إذا لم أفعل ذلك فسيقطعون رأسي هناك في المكان نفسه. عادا ورفضا بغضب مماثل. حاولت أن أتابع قراءة مذكرة الشروط، لكنه قال لي انتهينا وإنه إذا لم تسلم المدينة يوم جمعة (يجب أن يكون يوم جمعة) خلال الأيام الثلاثين القادمة، بقي منها تسعة وعشرون يوماً الآن، فلن نستمر في المفاوضات. فكرت: «هنا ستكون نهايتي» ولكي أحمي حياتي قلت أنني سأستشيرك، وهرعت أسرع من ثور، وأكثر شعوراً بالعار من هدهد دون ذيل. وها أنا هنا.

ولم يمض يومان حتى كتب الملكان والصفري مقرّين اقتراحهم للمالح ومقترحين مقابلة أخرى شخصية. وكان من الضروري كسب الوقت من جديد: ما لم يترسخ الشتاء وتتفاقم ندرة الأغذية فإن الشعب الغرناطي لن يكون مستعداً، ومن جهة أخرى إذا قبلنا بتقليص المدة المقترحة، فإن ذلك سيكون بتحسين شروط التسليم لصالح أتباعي. وأكدت للمالح أننا سنرد على الصفري والملكين، فلا ينشغل. ودعته، لكن لم يمض وقت قصير، رغم أنَّ الوقت كان ليلاً، حتى عاد لمقابلتي وقد تبدل.

ـ مولاي، لقد اكتشفت بمصادفة لا علاقة لها بالأمر، بأنّ الفقيه محمد

البقيني يكاتب الصفري.

ـ لا شك أن هذا حدث لأنك اعترضت طريق مراسله أولأنك تدفع له أكثر ليطلعك على رسائله.

ـ لا علاقة لذلك بالأمر، يا مولاي. المهم هوأنه باعنا.

ـ أنا على اطلاع تام ـ طمأنته ضاحكاً ـ بأن الصفري يتكاتب مع كثيرين لا أعرفهم وآخرين أعرفهم، لكنني لا أعرف ما يكتبون له: فأصدقاء جنة العريف يختفون يوماً بعد يوم..

جمدت ضحكتي. وفي ذلك المساء نفسه بقيت شبه وحيد. أحزنتني الساعة والمكان. صرفت الأصدقاء الثلاثة الذين كانوا يرافقونني وطلبت من فرج أن ينتظرني على طريق الحمراء، تأملت كيف كان المساء ينهار من حولي وفوقي. أحسست بحزن الماء اللانهائي يجري ويصدح في الفوارات ويمضي وهودائماً نفسه وآخر. « مثل الأصدقاء، هذا إذا كان لي أصدقاء ذات يوم.»

«هنا ـ قلت لنفسي ـ أحببت ولم يحبوني ثم أحببت وأحبوني معزولاً عن العالم ومعاركه، عن الخرائب التي تخنقني اليوم أنقاضها. مامن حب يحل محل آخر، وحب هذه الساعة لا أدري ما إذا كان أكثر أوأقل، إنه تطابق، اتحاد كامل من صداقة، يعبر عنها من حين لآخر باتحاد الأجساد. هكذا الأمر مع فرج وهكذا هومع مريمة....»

صارت الشمس بين الحمراء والبيازين، بين التلة الحمراء والتلة المقابلة ببساتينها الزاحفة والمتناسقة. وعندما تسقط الشمس سيكون كل شيء قد انتهى مرة أخرى، مثل لعبة السحر التي نعرف حيلتها. في المشرف كان الهواء يحرك ثيابي التي ربما كانت خفيفة بالنسبة للساعة. كنت أرى حمراء البروج الباسقة، والمتكدسة والشاحبة والشمس من خلفها، الجبال بيضاء وصامتة. استسلمت الشمس للسقوط دون مقاومة غارقة في دمها الضارب إلى اللون البنفسجي أكثر مما للأحمر. في البيازين ارتفعت موسيقى من يد وفم غير ماهرين. خلفي ارتفع أنين السواقي، الذي طالما بدا لي سعيداً في مساءات أخرى وهواليوم أشبه ما يكون بالنحيب. كم كنت وحيداً.« كم أنا وحيد» التفت إلى بيت المنْيَة الذي يكاد يكون في متناول يدي لكنه كان عظيماً وبالياً مثلي الآن...

كان الحصن قد عاد إلى لونه لأن الشمس تغوص، يتورد ويتذهب. « ربما كان ضرورياً أن تغيب الشمس كي يكون كل شيء حقيقياً كما هو. ما عاد يوجد في غابات الحمراء ضوار ولا طيور غريبة تحت برج

قمارش. لم يبق إلا الاسطورة. غابت الشمس. ما زلت أرنى، رغم كل شيء، نضارة المرج العنيدة. جميعنا سواسية بلا شمس، جميعنا أضعنا ظلنا». كانت رائحة بعض المتسلقات ترشح من بين يدي الليل. تصدح الشحارير الأخيرة. كانت السماء في رعشتها الأخيرة صفراء وخضراء مثل ليمونة. «هنا أحببت وأحبوني، كل شيء على حاله إلاّي...»

كنت قد سهوت عن المالح، وكان يترصدني. عدت وابتسمت له.

- لا تقلق للبقيني، فرسائله معي.

- مولاي، لماذا لم تقل لي ذلك؟

- كيف تستطيع أن تسألني هذا السؤال، يا ابن الظلمات؟

- أترينيها؟

أريتها له. قرأ بعض المقاطع بصوت عال وأخرى لنفسه.

- *مايبدو لي مفيداً لصاحبي الجلالة هو أن يُليّنا السلطان كثيراً، ويضعا له العسل وللناس أيضاً، لأن المدن الكبرى لا تؤخذ إلا بالطرق الحسنة والطراوة الجيدة. الملكة، ملكتنا عليها أن تكتب للملكة أم السلطان ولعقيلته كي تلينا.* بتطريتنا سوف نتفكك - قال المالح بازدراء -. *وأنصحكم بأن تخفوا هذه المفاوضات عن المسلمين وعن النصارى إلى أن تنتهي.* لا بد أن المسلمَيْن هما أنا وابن كماشة.

أخذ رسالة أخرى:

- *ضروري أن يكون الحد شهرين على الأقل* (يا لهذا الفقيه من قذر) *وفي هذا الحد سوف تلين الناس وسيفعل السلطان بالناس كل ما يريد، لن يتجاوز طريق شلير، وهي جبال الثلج وسيدخل وقت الزراعة وسيتظاهر الناس.. وسيتكلم السلطان بالقوة، لكنه يريد أن يماطل...* مولاي، ما هذا؟

- تابع - قلت له.

- *لتكتبوا للمالح فقط كي تضغطوا عليه ليذهب إليكم ولا تتلقوا منه كلاماً بالرسائل بعد الآن. وليذهب إليكم مع فقيه لايسميه هو.* أخيرا نطقها: إنه يريد أن يدخل في الصفقة. *لاتترددوا في قطع الكلام معهم لأنهم سيأتون إليكم حكماً.* إنه يفتُّ من عضدنا ويخرب علينا عملنا.

- لا، إنه يتوكل عليهم. أم أنك تعمل بالطرق القويمة؟ البقيني يقترح عليهم حتى ولوتأنوا، وهو مانصبو إليه في أعماقنا، فإنهم لن يكونوا قد خسروا شيئا. اكتب أنت للصفري مؤكداً على الموضوع نفسه، وأنا سأكتب للملكين أيضاً. قل له إنني تألمت لأنهم لم يستقبلوا التاريخ الذي

قدمته لهم بالإرادة الطيبة نفسها وأنني قلت لك:« يكفي الآن، فيما بعد نرى. ستكون هناك جولة أخرى». واضعاً نهايةً للمسألة.

كتبت للملكين أنه إذا كان المالح قد خفض المدة ثلاثة أشهر، فإنه فعل ذلك لخدمتهما ودون تفويض مني، لكنني وافقت عليه. *أقسم لكم أمام الله العلي القدير أن الموضوع كما قلته لكم وأنني لا أستطيع تنفيذه... المهلة ستكون أول يوم في آذار، القريب من نيسان، لذا علينا ألا نطيل الكلام والرسائل. إذا لم تتلقاه جلالتكما بهذا الشكل فإن الأمر سيخرج من يدي، ولن أستطيع أن أفعل أكثر، وستبقى القضية إلى ما شاء الله* ـ وشجعتهما خاتماً وفاتحاً في آن معاً ـ *وبإذن الله سأتكلم مع الناس وسأرسل وراء حجاب البشرات وسأحاول أن أنهي الأمر قبل انتهاء الموعد.*

ـ لا أفهم أول يوم في آذار القريب من نيسان ـ قال المالح مقطّباً حاجبيه.

ـ لهذه الغاية كُتِب. إذ ريثما يتوضح لهم، نكون قد ربحنا شيئاً. يجب التمسك باختلاط تقويمنا مع تقويمهم وباختلافات الأسبوع وخطأ المترجمين. كلما غامت أكثر كان تقدمنا أكبر. اكتب أنت للملكين.

وبأمر مني أبلغهما: *من المحال أن نكون جاهزين في الموعد الذي تطلبونه، وما من عقل يقبل أن يتم أمر غرناطة بهذه السرعة، ونقسم لجلالتكما بشريعتنا، لو أنه كان من الممكن فعل ذلك في الموعد المحدد، لما أجلناه نحن، ووالله ومنذ اليوم الذي قلتما لنا ذلك لا نستطيع أن نأكل أو نشرب وشاغلنا هو كيف نستطيع أن نفي به كي تدرك جلالتكما غايتها.*

ـ حسن جداً. ودِّعهما، قبِّل أقدامهما. وضع التاريخ يوم الأحد.

ـ لكن اليوم ليس أحداً، يا مولاي.

ـ أعرف. ضع أنت الأحد. فكل يوم حصار بالنسبة لهم يعني تضحية ونفقات كثيرة جداً. ومع السنوات تتضاعف أكثر، كما لو كان كل يوم ألفاً. إذا أخرناهم، أو رفعوا الحصار، أو أعطونا ما نطلبه...

ـ أو هاجمونا.

ـ هجوم سيء سيكون ونحن على أبواب الشتاء. يجب أن نسوّف، حتى يقف كل الغرناطيين على أقدامهم ـ وأضفت، بينما كان ينظر إلي ذاهلاً ـ: المكر لا يتطلب جدارات كثيرة.

وهكذا كان. فالملكان على عجلة من أمرهما إلى حد أن هرناندو الصفري طلب مني إذناً بالمجيء إلى غرناطة متنكراً، فأعطيته له. استضافه المالح في البيت نفسه الذي نزل فيه خوان ده بثان.

نزلت بعد منتصف الليل من جنة العريف لرؤيته. كان كما تخيلته: له وجه فأر وخيشوما فأر وعينا فأر. كان ساكناً، وكل شيء فيه يتحرك، يعض على شفتيه، وخيشوما أنفه يهتزان، تتراقص شواربه، تنقر أصابعه الأخرى، وتتحرك عيناه من هنا إلى هناك، وكل شيء رغماً عنه، لأنه كان ما يزال، واقفاً أوجالساً، مثل تمثال.

كانت قضية القضايا هي ميعاد التسليم. لم يكن الصفري مفوضاً بالتفاوض. اقتراح واحد: ثلاثون يوماً. سألته:

ـ أإلى هذا الحد حالة جلالتهما سيئة، أإلى هذا الحد بلغ تمرد رعاياهما، أإلى هذا الحد فرغت خزائنهما، حتى أنهما لا يستطيعان الانتظار لتنضج الثمرة؟ ألم تكتب أنه ليس عندهما أدنى حاجة؟

ـ الحاجة الوحيدة عندهما هي أن تنتهي هذه العملية المنتهية. لأن عليهما تحقيق أشياء أخرى كثيرة: أعراس، ملاحة، معاهدات واحتلالات في أوروبة، وغرناطة هذه حصاة تضايق عيونهما.

كانت عيناه تتحركان كما لوأن الحصاة تضايقه هو.

ـ حصاة غرناطة هذه داخلة في عيون أراجون وقشتالة منذ قرون ـ أجبته ـ ولا أعتقد أنه إذا بقيت فيها ثلاثة أشهر أخرى ستعميها.

ـ تماماً لأنه مضى عليهم هكذا عدة قرون، وكلما حلت المسألة بسرعة أكبر كان هذا أفضل... خاصة لأنها مسألة منتهية، مثل ميت (اعذروني على التعبير) في بيت: فكلما أسرع الطبيب بقول أنه ميت وأخرج الجثمان كلما بكّر براحة العائلة.

ـ على العائلة أن تقتنع أولاً بالموت، وتقيم الحداد وتسهر على الجثمان. لكن إذا كانت العائلة تجهل خطورة المريض، ولا أقول موته، فمن الذي سيقنعها بأنه يجب دفنه؟

ـ سيتفسخ الميت بين أيديكم.

ـ اسمحوا لنا أن نستمر بعاداتنا، فنغسله ونعطره ونحنطه كيلا يتفسخ بين أيدينا، لا شيء يتقدم إذا ما قتلنا المحتضر بسرعة، اللهم إلا أن يشار إلينا بأننا قتلة. والمجنون يعرف ما في بيته أكثر من العاقل في

بيت الغريب. فالطشت والمناشف جاهزة وكذلك البكاء يا سيد، وإذا كان في عيون ملكيكما حصاة ففي عيوننا دموع. لكنني لا أعتقد أنكم ستزجون خيولكم بالقوة في مصنع للفخار، لأنه بهذا الشكل لن يبقى وعاء واحد سليماً.

- لذلك منحناكم يا صاحب الجلالة ثلاثين يوماً كي ترتبوها على الرفوف. وإذا أردتم سيكون عندكم فائض من الوقت. ومساعدتنا هي أيضاً لوضع كل وعاء في مكانه المناسب - قصده صار قاطعاً - بل وحتى لكسر ما يلائمنا.

فهمت أن الحجج التي يستخدمها المرء يلويها الآخر لصالحه. لذلك كلمته على النحوالتالي تقريباً:

- إذا كنا سمحنا لكم بدخول دارنا، فليس من أجل أن تشتمّوا أخبارنا أو لتصطادوا يا سيد الصفري، وإنما كي تصغوا إلى حججنا، التي أملكها وهي كثيرة وأعرفها أكثر من أي شخص آخر، كما تعرفون أنتم حججكم أفضل. لقد أرسلت للملكين مع المالح الشروط التي وضعتها كي يُحتَرم تماماً دين وأموال وقوانين واستقلال رعيتي. نقطة نقطة أردتها أن تُقرأ وتُؤكد، وهذا ما يهمني أكثر من كل الامتيازات والألقاب والأراضي التي تمنح لي. هذه مملكتي وأنا مسؤول عنها. ملكاكما لا يتطرّقان إلا إلى ما يقدمانه لي شخصياً والمهلة التي يجب أن أقبله فيها. أجهل ما إذا كانت رعيتهما تختلف كثيراً عن رعيتي وما إذا كانا يخلعانهم ويضعانهم مثل قطع الشطرنج. ورعاياي يضعون فيء خلاصهم سواء وجدوه بأنفسهم أم لا، أنا من يجب أن يسهر، حتى إذا توفيت أنا (وأنا الجثة التي حدثتك عنها وليس الشعب) بقي شعبي مُصاناً. أيضاً أنا من يعرف متى عليه أن يقول إنني ما عدت سيده وأنه صار له سيد آخر سيحترمه تماماً كما أحترمه. إذا لم يكن كذلك يا سِيد الصفري، فنحن لم نقل شيئاً. انقل إلى ملكيك هذه الرحمة: قبل أن نتباحث بالتاريخ علينا أن نتباحث بما يجب أن نفعل وعلينا أن نوقع عليه، وبالتالي يأتي ما عداه ليس غير وضع الجياد خلف العربة والطلب منها بأن تدفعها.

كنت أُكلِّمُ الصفري فيغلي مثل قرية نملٍ

استُقْبِلَ هرناندو الصفري كما افترضتُ، وتحادث في غرناطة مع أعيان كثيرين، أثقلهم بالهدايا والتملق: استبرق فلورنسي للصُدريّات، قطيفة للفساتين، قماش رقيق للجوارب من لندن. كما لو أنه وبقوة القماش يمكن أن تغطى عورات أخرى غير العورات الحقيقية. دخل الحقير إلى

البيازين متنكّراً بزيّ البغّالين مُحَمّلاً دابّتيه كومةً من الرشاوى يُفسدُ بها الأنفس. لكن ماذا يهمني أن يصير هناك عشر أو اثنتي عشر خيانة أخرى، إذا كانت راحة شعبي أحب الأشياء إلى نفسي؟

وما أن عاد الصفريّ إلى مدينة الإيمان المقدس حتى كتب الملكان إلى ابن كماشة. ربما اعتبرا المالح بحكم الضائع، على الأقل كان عليّ أن أصبر على شكواه: *ستتلقون منا العطاءات التي تستحقونها. لا نستطيع أن نتصور الشيء الذي يدفعكم لإطالة هذه القضية، فبعون الله وبوجودنا هنا ما من خطر شديد على الملك، ولا عليكم في أن تتخذوا فيما بعد القرار الذي يتوجب لخدمتنا.*

وكذلك كتبا لي، يلومانني لأنني لم أفهم مطالبهما: *إذ يبدو، مما كتبتم، أنكم لم تفهموا جيداً ما كتبناه حول هذا، أرسلنا نوضح لكم ما كنا كتبناه حول هذا الموضوع* (كان ذلك هوالدافع لزيارة الصفري، الذي لم يوضح لي كثيراً وأنا وضحت له قليلاً). *إنه ليسرنا، وبتخفيض المهلة التي تطلبون كثيراً، وتمديدها إلى أكثر من مهلة الثلاثين يوماً بقليل، أن يكون لكم ما تطلبون.* إن قبولهما لشروطي بهذه السرعة جعل الريبة المنغصة تنتابني، كما لوأنهما يفكران مقدماً بأن ينقضاها وقد أعطياني عشرة أيام مهلة لأرسل ممثليّ إلى الاجتماع النهائي، ومن جهة ثانية كانا يتهددانني: *وإذا لم تبغوا التنفيذ بالطريقة التي نقولها لكم وكتبنا لكم عنها من قبل، فلا تفكروا ولا تظنوا بأننا سنكون مجبرين على أن نفي لكم بشيء مما قلناه أوكتبناه لكم.*

كانا من العصبية بحيث أنه من المناسب زيادتها عندهما. لم أرسل أحداً في العشرة أيام. فقط أمرت المالح أن يكتب لهم مراوغاً. كانت الرسالة كما يجب أن تكون، غير متناسقة. أخبره أنه تلقى رسالة منه مع الجواز: *وأنني منذهل كيف أن حامد العليلي لم يخبرهم بمرضي* (خيال)، *لأنه ومنذ اليوم الذي غادرتم فيه من هنا لم أنهض من الفراش، وأنني أقسم بالله وبشريعتي أنني في كل ليلة كنت أنهض إلى المرحاض عشر واثنتي عشر مرة، وأعتقد أنني مصاب بالبردية كما أعتقد أن في ذراعي دمامل* (من لايستطيع أن يضحك رغم خطورة الوضع؟) *ولا أستطيع أن أرتدي غير القميص واليوم أفكر بأن الجرّاح سيفتحها لي.* ونظراً لكل هذه الظروف المؤسفة والمتنوعة لم يذهب لرؤية الملكين: *أقسم لكم بالله وبالطلاق من زوجتي أنني خادم لجلالتيهما من قلب وإرادة نظيفة، وأنه وكما ترغبون أن تصير هذه المدينة لكم أرغب أنا أيضاً.* وبما أنهم يلحون على أنه صار يكفي رسائل، ويدعون لمقابلة شخصية وهو لا يستطيع: *تعالوا أنتم، إذا رأيتم ذلك، ولتأتوا وتجيئوا معكم بتفويض من جلالتيهما لإنهائها هنا. أرسلوا لي حامداً وأنا أرسل إليكم ابن عمي والحرس إذا أردتم، لاستقبالكم.* وفي ورقة جانبية سرية عرض عليه

أن يذهب هو، إذا تحسنت صحته، لكنه لن يستطيع أن يبقى في مدينة الإيمان المقدس أكثر من ساعة، وعليه أن يعود في الليلة نفسها: *لأن هؤلاء الناس لا يتركونني أرتاح ويطلبون مني أن أكون في المفاوضات كما لوكنت سليماً: وقد رأيتم ذلك جيداً أثناء وجودكم هنا.*

كنت أتصور الصفري وقد جنَّ جنونه، يرسل الرسائل والمذكرات يمنة ويسرة. في يوم واحد علمت بخمس شخصيات غرناطية حاول إغواءهم. لم يكن يناسبنا أنا ورجالي أن نتمادى: فالمفاوضات يجب أن تتم مع المالح ودون علم من أحد، رغم أنني كنت أعلم أن الصفري لن يرمي، بنشره للسر، سقفه بالحجارة. لذلك عاد المالح وكتب له. اعترف له بأن بطنه تحسَّن: *رغم استمرار ألم الراس. ولذلك كله قررت بعون الله أن أذهب بين يدي جلالتهما، وأرى، إذا بدا لكم ذلك جيداً، أن آخذ معي ابن كماشة لأنني بأخذه معي سنربط الأب وسيعمل معنا*. كان الموعد ليلة الجمعة ليوم السبت، والموافقة تعطى يوم الخميس ليلاً، ويوم الجمعة نهاراً يطلق الدخان كعلامة في قرية شريانة، التي يجب أن يذهب إليها دون غونثالوالقرطبي كي يتواجد هوهناك. كانت نهاية الرسالة ضربة، لا يستطيع أن يبقى غير ساعة واحدة، فالشروط العامة للمدينة والعطايا والرشاوى يجب أن تكون مكتوبة، أما امتيازات الأسرة الملكية فتبقى إلى ما بعد مقابلة صاحبي الجلالة، والريالات الألفان يجب أن تضاعف لتصبح أربعة آلاف في العام، تحياتي إلى دون غونثالو *وإلى الكاتب صموئيل الذي يجب أن يكون قد وضع كل الوثائق باللغة العربية مع التحيات والتاريخ يوم الاثنين*. في الورقة السرية الخاصة يشكره على السترتين الجلديتين اللتين أهداهما له كي يقي نفسه من البرد ويسأله عن نوع التفويض الذي سيذهب به من عندي: *سأطلبه من مولاي، رغم أنني لست بحاجة لشيء من هذا، فما اتفق عليه مع السلطان سوف* يكون. لا أدري ما إذا كتب له هذا كي أقرأه أنا فأرتاح إليه أكثر، كما لا أدري ما إذا كان ضمن الرسالة ورقة ثانية إضافة إلى ورقة السترتين. أفضل ألّا أظن ذلك.

في تلك الليلة نفسها ضبطت رسالة من البقيني لم يُرِنيها. نسختها، وأعتقت سبيله. كان يقترح تحسين الشروط: مهلة شهرين..أوخمسين يوماً، تسليم موقع أوموقعين ـ مندوجار أوأندراش أودالية ـ قبل نهاية المهلة، الأمر الذي *سيليِّن* الناس، ويفيد في معرفة إرادتهم، طلب جواز سفر لمراسل واذن بالزراعة، ما أن *تلين* الإرادات (يا لهوس هذا الفقيه، مثله مثل كل رجال الدين، بالتليين المفاجيء)، إذن بالذهاب والإياب للناس: *الشيء الذي سيلينهم أكثر، أما بالنسبة للأسرى فكلما كثر عددهم كلما*

كان أفضل وكان اللين أكبر، أما بالنسبة لنواحي البشرات فاطلب أن أكون قائدها كما كان مولاي الزليجي ومن الآن لأنني أعتقد أن آخرين سوف يطلبونه، أما بالنسبة لذهابي إلى هناك فيوجد لدي ضيف يعيقني (خيال أيضاً). *واعذرني فإنني أنا من سيذهب في المرة الأولى حين يأتي حامد.* (حامد هو الذي سلمني الرسالة. في أعماقهم جميعاً كانوا مثل بعضهم، خونة في الذهاب والإياب، وباعة جيدون لحمار ليس لهم، ولا يخاطرون في الكشف عن وجوههم، لذلك يختلقون ضيوفاً أوإسهالات.)

عندما عاد المالح فجر يوم السبت من مدينة الايمان المقدس، وجدته منكمشاً ومتفكّراً.

ـ أنا نفسي لا أعرف السببُ ـ وضح لي ـ كل شيء جرى بشكل جيد. كل شيء جرى بشكل جيد أكثر من اللازم. ربما لهذا السبب أنا قلق. لا أتمكن من الوثوق بهذين الملكين. لم يتوقفا هذه المرة عند قضية المهلة. يعطيان انطباعاً بأنهما ينتظران تحقيقه بطرق أخرى، بفضل مؤامرات أخرى. أشتم رائحة. وإذا بدا لك ذلك قليلاً، فإنني في الطريق استعرضت بعض الأبواب العامة وأخرى تخصكم (بل وأخرى تخصني) كانت ناقصة. وبما أن استعداداتهم جيدة فلنضغط على الصمولات، وإلاّ تأخر الوقت. وإذا ما أذنتم لي فإنني سأكتب إلى الصفري في هذه الساعة وليكمل بهذه الدورة الوثائق القانونية.

كان قد جلس ليكتب عندما أضاف:

ـ رأيت دون غونثالو وقال لي أنه سيتقبل دعوتك له لزيارتك.

ما كتبه كان الإعلان عن إرسال طلبات جديدة وإرسالية أخرى فيها بعض النعال لزوجة الصفري، وطلب خاص به أن يكون له سوق السمك مع الحقوق والفوائد أوسوق الحذائين مع فوائد ذبح ماشية الديوانة، *مع أن الفضل الأكبر الذي يجب أن تفعلوه لي هوأن تكون لي حظوة في دار جلالتهما، مع كل خدمهما وليعتبراني واحداً منهم وأن تبقى دار جلالتهما مفتوحة لي لأتوسلهم من أجل كل الذين يأتونني متوسلين، تماماً كما هي الحال اليوم في بيت مولاي، فلا يكون أن يستنفدا ما هوضروري مني ثم يطرداني.* ويرجوالحفاظ على السر مرّة أخرى وأنه للحفاظ عليه يعاقب في مدينة الايمان المقدس من يتكلم مع مسلم آخر وفي أي مكان، وأن يعلن المنع لأنه كان قد سمع ما لم يعجبه في الفسطاط الملكي (بحسب ما قاله لي، نادوه يابن العاهرة). وأضاف بما يشبه الاختطاف، ملاحظة: وصل إلى عدرة سفينتان تحمل كل منهما ألف مكيال من القمح، وهناك أخبار مفادها بأن في بلش إحدى عشر سفينة تنزل قمح الصدقة وخيولاً، *وأنني*

لمنذهل من بحريتكم، وكيف تتركها تمر. ضعوا هذا في حسبانكم وأوصوهم بأن يحرسوا البحر جيداً. وسلام.

ـ هل هذا الذي تكتبه صحيح؟

ـ ماذا نريد أكثر، لكن من الواضح أنه لوكان صحيحاً لما كنا في حال سيئة، ولما كانوا هم محاصرين جيدين. من يضحك أخيراً هوالذي يضحك.

ـ أخاف أن تكون رغبتنا بالضحك قد انقطعت حين ذاك.

البقيني من جهته كان يلحف على الصفري باصراره على أنه يجب أن يرافق المُوَقِّعينَ على شروط الاستسلام فقيهٌ: فهوكرجل دين سيُضْفي صفةَ الشرعيةِ بشكل أفضلَ على الوثيقة، *وسيُلَيِّن* الفقهاءَ الآخرين، ويمنح الاحتفالَ وقاراً أكبر. وبما أن الصفري كان قد اقترح، تحت اصرار المستفيد نفسه، أن يكون هونفسه، يؤكد البقيني: *وأنا أريده أيضاً، لكن المالح لن يحمل معه إلاّ من يعرف أقلّ منه ويُقَدِّر جلالتهما أقل*. والنتيجة كانت أنه وبعكس رغبة المالح اختير البقيني لمرافقته. لكن النتيجة التي لا تقدر بثمن كانت أنه وخلال الأخذ والرد الطويلين، رسالتين أوثلاث أوأربع رسائل يومياً، كان تشرين الثاني يتقدم.

دخل رئيس الحرس يتقدم شخصاً مقلنساً ومغطى بالسواد حتى قدميه. وعندما كشف عن نفسه رأيت دون غونثالو. لم أكن أنتظره بهذه السرعة، رغم أن الليل كان تاماً. وهكذا لم أستطع من المفاجأة أن أتفادى تقبيله يدي.

ـ ماذا تفعل؟ ـ هتفت.

ـ كما ترون، يامولاي، أظهر لكم احترامي.

ونظراً لانهماكي بالتفاصيل الكثيرة والحوادث التي تزيد عني يومياً، لم أجد حتى تلك اللحظة الوقت ـ أوربما لم أكن أرغب بوجوده ـ للتفكير بحجم ما كان يحدث. لكن فجأة وأمام حركة دون غونثالوالمشفقة أكثر من الورعة، فرض نفسه عليّ. حدث لي ما افترض أنه يحدث لشخص مات ابنه الشاب: ينشغل بالاجراءات والاستقبالات وبأن يكون الطعام جاهزاً في وقته والضيوف معتنى بهم، إلى أن يصل القريب الذي هوأكثر من أَحَبَّ

الشاب، فيظهر في هذه اللحظة حجم الفقدان كاملاً ويتذكر فجأة طفولة الصبي الذي لم يكن سيموت أبداً، يتذكر عينيه الحلوتين وأمله الجميل وينتبه إلى أنه حدث ما لم يخطر قط على تفكيره وأنه ما يزال حياً فينفجر بالبكاء بين ذراعي القريب. وكان عليّ أن أخرج بالقوة من ضعفي كي لا أرتمي بين ذراعي دون غونثالو. استطعت أن أرسم ابتسامة بائسة وفتحت ذراعيّ في إشارة لعجزي، دون أن أدري ماذا أفعل بالذراعين المفتوحتين، أشرت له إلى كرسي الطي. انتظر واقفاً حتى أجلس، وجلسَ على الأريكة إلى جانبي.

ـ لا أُمَثِّلُ أحداً، يا سيدي. ولا أتكلم باسم أحد. أشكر لكم أنكم أَذِنْتُم بهذه الزيارة، التي ليس لها أية أرضية أو أي هدف إلا التعبير لكم عن مشاعري.

شعرت بحرقة في حنجرتي، بلعت ريقي مرّتين كي تختفي. شيء ما كان يصعد وراء وجنتي وشعرت بالخجل من أنَّ عينيّ امتلأتا بالماء، كان عليّ أن أتحاشى نزوله. حرفت وجهي إلى الجانب الآخر. وتركت الوقت يمر.

ـ هل أستطيع أن أقدم لكم شيئاً من الطعام أوالشراب؟ ـ سألته بعد أن سيطرت على نفسي.

ـ لقد قدَّمتم ما جئتُ أبحثُ عنه وما كنتُ أتكهنه: درسَ رباطةِ جأشِكم. النصر ليس هوأفضل مقياس للانسان وأقل مقياس بالنسبة للملوك.

ـ يريحني أن أسمعكم تقولونه. أعتقد أنَّهُ لم يخطر لأحدٍ، وبالتأكيد لن يخطر قط لأحد، أن يحكم عليّ كما حكمتم أنتم. هذا إذا لم يكن الأمر يتعلق بتملق أومجاملة.

ـ لم آت إلى هنا متخفياً بهذا الشكل كي أجاملكم فقط. كما لا يهمني ما سيكتب الذين سيكتبون عن هذه الأحداث التي نعيشها نحن. هم سيأتون بعدنا، وبأيد نظيفة سيرسمون مربعاً ومفهوماً وحدوداً لا خلاص منها بيننا. وسيحكون بجمل مدح أومرارة ـ بحسب الطرف ـ كيف انهارت هذه الحدود. على الشعوب والأطفال أن تفهم كتب التاريخ: يجب أن تكون بسيطة جداً وتعلي من لصالحهم الإعلاء. السيء هوالذي يخسر والطيب هوالذي يكسب. ثم إن الذي يربح هوالذي يحكي التاريخ.

ـ في هذه الحال، يادون غونثالو لست من يتوهم، سيلتقي الطرفان

على شيء ما، بالنسبة للطرفين سأكون أنا السيء. فالسيء هوالذي يسمح، مُوقعاً بخاتمه، بالفاجعة، والذي يغادر هوالذي يذهب.

ـ لكنني أعرف ما لا يعرف أخرون، جميع أتباعكم هجروكم مسبقاً واحداً تلوالآخر، ذهبوا بحثاً عن شمس جديدة، تركوكم لوحدكم. أنا رأيتهم في مدينة الإيمان المقدس، يا مولاي: كلما كانوا في السابق أكثر ثراء، وكلما كانوا أكثر قوة كانوا أكثر خضوعاً. لم يبق موثوقون في غرناطة إلا الذين لا يوجد عندهم ما يخسرونه غير حياتهم، وحتى هؤلاء لا. أمام فسطاط ملكّي تَعَثَّرَ بعضهم ببعض من السرعة، وانتزعوا الكلمة بعضهم من بعض، لقد حاولوا أن يبيعوكم دائماً حين يكون هناك امتياز مفترض. لقد وقعوا وثيقة الإيجار مع المستأجر الجديد حتى قبل أن يُخْلي القديم البيت.

ـ أعرف، أعرف، لكن هم من سيروي التاريخ.

ـ اعذروني على ما سأقوله لكم، إذا كان يؤلمكم: بشعب كالشعب الذي عندكم لا يمكن عمل شيء، غير معاقبته كما يُعاقب الطفل دون تقديم توضيحاتٍ له، أوتسليتهِ، كما يُسلّى الطفل ـ كي لا يُزعِجَ ـ أيضاً دون تقديم توضيحات له.

ـ ربما كان واجب الذي يحكم أن يُرَبِّي أولاً.

ـ لا أحد يُربَّى *في الاحتضار*. وأنتم تلقيتم مع العرش شعباً صدر الحكمُ بِحَقِّهِ. واستطعتم تأجيل تنفيذ الحكم وتخفيفه، كي يكون الألم أقل. إن شعبكم لا يعرف أنه يمكن للشيء أن يَتَحَقَّقَ بالجهد الذي لا يكل عبر مئات السنين، لذلك كان النصر الأخير لنا. إن عظمتكم الشخصية، يامولاي، تكمن ربما تماماً فيما يُؤْخذُ عليكم: في أنكم استطعتم ألا تكونوا ضروريين. لقد قاتلتم في هذه الأشهر الأخيرة كي يستمر كل شيء كما كان حتى هذه الساعة، لكن مِنْ دونكم من الآن فصاعداً. ثم إنكم ستتحملون المسؤولية الكنود والغامضة التي يحتاج التاريخ أن يُلقي بها على كتفي شخص واحد.

كان صوتي يرتجف وأنا أهمس:

ـ *الزغيبي* خائن.

ـ من أجل هذا الاستسلام الجليل للمقادير أنا هنا. فعمكم *الزغل* سيبقى دائماً *الشجاع*، وأنتم كانت حصتكم الأسوأ والأخيرة، ستخرجون من الحمراء طارقين وراءكم الباب طرقة ستدوي في العالم، ولهذه

الشهامة تماماً ستُتَّهمون بشكلٍ ظالم. قليلون جداً من يعرفون، ونحن الذين سنعرف أن الضعيف هوالقوي.

ـ من المناسب أن يكون كذلك. من الصعب أن يعتمد المرءُ على فضيلةِ الوداعةِ بعد أن يكون قد لُقِّنَ منذطفولته فضيلةَ التمرد. على كل الأحوال إن الحبكة التي وجدت نفسي ملفوفاً بها كثيفة إلى حد أنني غير قادر على القول أين يبدأ الذنب وعلى من يعود. كل شيء راح يتكدس فوقي بشكل يصعب تفسيره. ربما منحتني الحياة الوقت كي أفكَّ هذه الكبة، لكنني الآن لا أملك هذا الوقت، ربما كان هذا أفضل لي.. الآن عليّ أن أتخلى عن التأسف وأن أرجوكم بعض الأشياء.

ـ اعتمدوا عليّ.

ـ اسمعني. عندما تصبح غرناطة ملكاً لملكيكما لن يبقى أي أمل لأي أسير مسلم، أينما كان. والقواد والمفتون والعلماء في هذه المدينة يرون مثلي، أن الله لن يغفر لنا خطيئة أننا لم نحررهم قبل ذلك.

ـ هذا ما ترونه أنتم، يا مولاي، وليس المُفتون.

ـ الله أيضاً يرى ذلك. لهذا أطلب من جلالتهما تحرير الجميع، سواء أكانوا من غرناطة أم من البيازين أرباضهما وقراهما. فلا يخسرون أكثر مما يخسر الجميع. وليكن جلالتهما من يدفع لأسيادهم الذين هم بحوزتهم، لأن الغرناطيين عندي لا يدخلون في أي حساب غير أن يستقبلوهم أحراراً.

ـ ألا ترى، يا مولاي؟ تماماً كما قلته لكم.

ـ وأطلب منكم، يا دون غونثالوأن تكون كلمتكم هي التي تضمنُ أنه لن يحدث شيء للرهائن الخمسمئة، أبناء وأخوة الوجهاء، المطلوبين مني خلال عشرة أيام كي أضمن الحالة السليمة للمدينة. إن كلمة الملك، التي نكث بها تماماً مع المدجنين، ليست ضمانة كافية بالنسبة لشعبي وسيحاولون أن يثيروا القلاقل والتمرد، التي سأكون أول متفهم لها.

ـ أتعهد بذلك لأجلكم. هل من شيء آخر؟

ـ أن ينعم اليهود بالدرجة نفسها التي ينعم بها المسلمون من فوائد هذا الاستسلام. معاً عشنا تاريخ هذه المملكة، وليس من المعقول أن نتخلى عنهم في هذه الساعة، رغم أن كثيرين من النصارى يمقتونهم. ففي الغرق كل الذين يذهبون في السفينة متساوون ـ توقفتُ ـ ثم اسمعني، عندما يقترب جيشكم... ـ ارتجفت شفتاي فرفع عينيه عنّي كياسةً منه ـ لن

يكونٍ من الضروري أن يدخل جيشكم إلى الحمراء، إلا من الخارج وقليلاً قليلاً، بحق الله. يستطيع أن يدخل من باب الملاذ، الذي هوفي متناول أيديكم تماماً، أومن باب اللمة، الذي تعرفونه، بين الساقية الكبيرة وساقية القاضي، إذا رأيتم أن ذلك أفضل لكم. وأتجرأ أن أطلب أن يحتل القصور أولئك القادة الذين يُحسنون معاملة المُدَجَّنين أكثر من غيرهم: دون رودريغوده أولْيُوا، صاحب ريكوط، أوبورتو كارّيرو، صاحب بالمة أوأنتم، أيها السيد، صاحب اليورة وصاحبي - دمعة متمردة بللت أجفاني، فمررت عليها بيدي بسرعة - وليتمعنوا جيداً في بنود الاستسلام، بنود عامة المدينة، بشكل خاص، والبنود المتعلقة بالسلطانة والدتي، فلا يكون هناك ما يَعترِضُ عليه أيُّ عالمِ أوفقيه، وأن لا يُخلطَ بين أوراق هؤلاء وأولئك أويحدث تعارض بينهما، لأن هذا يعني أننا ننكش الجراح بالسكين. وأثمن لكم أن يشهدَ على ذلك فعلاً، بمسؤولية كاملة، وليُّ عرشكم ووجهاؤكم إضافة إلى مَلِكَيْكم وأساقفتكم وأبيكم في روما. لأن كل الاحتياطات قليلة عندما تُسَلَّم مملكة ويُعهَدُ برعاياها إلى أيدٍ غريبة.

تكسر صوتي وعندما لاحظ دون غونثالوذلك كسر الحديث.

- ولكم، ألا تطلبون شيئاً غير ما هومتفق عليه؟

- بما أن مطياتي نفسها ستكون معدودة - ابتسمت له - أتجرَّأُ على طلب أربع دواب جيدة وبغلين، يكون واحدٌ منها عالياً وعريضاً، كي يستطيع أن يتحمل المالح، الطويل والعريض أيضاً.

ضحك دون غونثالو وقال:

- سيكون للمالح البغال التي تحمله، بحسب ما علمت من الملكين، لكن سيكون له ما قلتم، حتى ولواضطررت لأن أدفع ثمن البغل الذي سيحمل ثقل أكبر خائن.

- بعضهم مع بعض، جميعهم يذهبون إلى هناك. أخيراً، يا دون غونثالو، تكلم مع ملكتك، التي تودونها كما تودكم. إن كلَّ ما تُعُهِّدَ به كُتِبَ كي يُنَفَّذَ في المدة المحددة له، لكن وماذا لولم يتم في المدة المحددة؟ هل سَيُخَرَّبُ ما حققناه بجهودٍ كثيرة؟ ألن نُعطَى ولوسبعين يوماً بدءاً من اليوم الذي يوقع فيه على شروط الاستسلام.

- أنا الذي جئت إلى هنا باسمي وليس باسم آخر، سأعود إلى المعسكر محملاً بالرسائل التي سأقدمها باسمكم.

كان ينظر اليّ ويبتسم.

- قلتَ لي من قبلُ بأن الرجالَ والملوكَ يُقَدَّرون في الهزائم، لكن أيضاً يُقَدَّرون بالطريقة التي يعرفون كيف يكسبون بها. كنت يافعاً عندما

رأيتكم أول مرة. استقبلكم والدي مع فرسان آخرين. كانت الموضوعات يومها مختلفة تماماً، لكن شيئاً في داخلي قال لي أيضاً بأنكم كنتم مختلفين عن الآخرين. في تلك المرّةِ الأولى لم أَنْخَدِعْ... واليوم هذه هي المرة الأخيرة التي نلتقي فيها وحيدين.

ـ من يستطيع أن يؤكد ذلك؟

ـ أي شخص، يا دون غونثالو. كان بودي أن يحضر هذا الحديث جماعتي وجماعتك من خلف هذه الستائر. إن التاريخ الحقيقي لهذه الجزيرة، التي هي جلد ثور، سينتهي الآن، أعرف أنكم لاتوافقون على ذلك، لكن هكذا هي الحالة. ستأتي الآن فصول ذهبية لن نكون فيها نحن. أقول نحن وأعني المسلمين، أما أنتم فستكونون فيها الأبطال.

ـ كيف لن تكونوا؟ ستُحترم كل خصائصكم واحدةً واحدة: أنتم وقعتم عليها.

ـ لن نكون، فملكاكم واثقان أكثر من اللازم بنفسيهما وبما يريدان، والخدم لا يحددون قط سلوك البيت.ودوننا سيكون تاريخ أسبانيا آخر. فالنصارى والمسلمون عشنا ثمانية قرون ومتنا بعضنا من أجل بعض، تراقبنا، تكارهنا، تلاحقنا، تقالدنا، تعايشنا. كيف ستعيشون دون الآخر، في أية مرآة ستنظرون إلى أنفسكم، أي فردوس ستستعيدون؟ إلى أية حديقة خيالية ستشتاقون وسط الشتاء. ستحنون إلينا لأنكم لن تعرفوا ماذا ستفعلون بغرناطة. كل ما يلون حياتنا، حياتنا نحن، سوف يعتبر خطيئة وجريمة: تنوع الحب الجسدي، الحب الجوهري لهذا العالم، الرقة والرخاء، ماذا ستكون غرناطة بدونها، غيرُ نفقٍ حَسَنُ الزخرفة لا يقود إلى أي نور؟ لقد استُجِيبت دعواتُكم، وربما كانَ هذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لشعب محارب، سيكون عليكم الآن أن تبتدعوا مغامرات جديدة، مشاريع جديدة غير متصورة، أعداءً مختلفين. إذ ما هي قشتالة دون أعداء، يا دون غونثالو؟ ـ انفجر ضاحكاً. ـ أنتم وأنا نمثل في هذه الليلة الباردة الحقيقة الجوهرية: برد غرناطة، وفيه عناق الخصمين. وسيبقى للبقية الحرارة المحنَّطة لمدينة بقيتم قروناً تتطلعون إليها كذباً والهجوم والقوة التي تحصلون بها عليها هي أيضاً كذب. بالنسبة للبقية سيبقى الله، وشنتيقب (سانتياغو)، والرايات في الريح، والصلبان فوق المآذن ـ *الماوراء*[1] ـ وألِفُ وفاءُ ملكيكم تُحَطِّم تناسق زلَيْجِنا، تبجحاً واستثارةً. كل شيء هنا قُلِّصَ بعملية قسرية إلى عملية بيع، كي يستمر كل شيء

(1) الماوراء: شعار ملوك أسبانيا والألف والفاء هما الحرفان الأولان من اسمي الملكين إيسابل وفرناندو(المترجم).

شبيهاً ما أمكن بما هوموجود. أنا أختفي، ومع ذلك لن يكفيكم هذا، ستحاولون أن يختفي كل شيء، ستحاولون مخوَنا بأسرع ما يمكن، أن تمحوا حياتنا ودينناً وعلى الأخص عاداتنا التي تُسمونها داعرة، لُغَتَنَا وثقافَتَنا، التي ستُعَكِّرُ الوحدة المصطنعة التي يبحث عنها ملكاكم. لن يتغيّر فقط صاحب الجنة وحسب، بل سيُستأصل الزمن الذي كان لنا من التاريخ. ستُضْغَطُ القرون الثمانية برفة عين، ثم سيصير حتى وقعُ أسمائِنا غريباً وستُلغى، ووجهُنا سوف يبقى مغلولاً من الرقبة على ترس نَبِيْلَيْنِ، كرمز لما كان يجب ألا يكون. كل شيء يجب ألا يعود إلى مجراه السابق، ومن أجل ذلك سيكون اقتلاع الدين واللغة والعادات والقوانين حيطة يجب أن تتخذ... وها نحن هنا، يُودِّعُ واحدنا الآخر، التجسيدان الأخيران للإفراط الذي شكلته هذه القرون. من احتكاك عالمين في هذا الفضاء الذي يسمونه الآن أسبانيا خرجت شراراتٌ عَلَّمت كل العلوم وكلَّ الفنون للغرباء، لكن أحدَ هذين العالمين تلاشى في الاحتكاك. من اتحاد الجسدين في هذا المضجع، الذي صار اسمه الآن أسبانيا انبثق سحرٌ لا يُنسى، لكن دائماً في الحب يخسر أحد الحبيبين. لا تنسوا، يادون غونثالو، على الأقل أنتم. روح الشعب شيء لا يمكن أن يموت، يمكن أن تختبيء أو تذبل مثل وردة، لكنها تستمر، كما يستمر عطرها. قل لي كيف كان الفتيان البدويون المنسيون الآن؟ لا أحد يعرف، ومع ذلك، ففي داخلي، يخفق قلب فتى بدويّ.

نهضت في اللحظة نفسها التي نهض فيها. عانقني. كان يريد أن يبتعد مضطرباً بحركته المتهورة، لكنني عانقته. قال لي:

ـ يا ليت، ويا حبذا لوحضر هذا الاجتماع أتباعك وأتباعي. لما كانوا نسوا أبداً مغامرة الحب والعذاب التي عاشوها.

فقط عندما ذهب دون غونثالو انتبهت إلى أننا استخدمنا العربية والقشتالية في المحادثة دون تمييز، ومع ذلك هوتكلم بالعربية أكثر وأنا بالقشتالية.

أخيراً كنت مقتنعاً بأننا عملنا أكثر مما هوممكن إنسانياً. فقد جاءت شروط الاستسلام، بفضل الكتمان المصطنع، مريحة لرعيتي أكثر من أية شروط أخرى وقَّع عليها ملوك النصارى لاستلام مدينة. أنا كنت الخاسر الأكبر والرابح الأكبر: من ملك إلى تابع. ربحت بالمقابل هذا السلام الذي يكاد يكون جنائزياً، وتُقَدِّمُهُ المأساة بعد نفاذها وحلولها.

ومع ذلك فكرم فرناندو جعلني أرتاب. فلجشعه بغرناطة وعجلته قَبِلَ أشياءً كثيرةً بِخِفَّةٍ. لذلك طالبت بأن يُعَبَّرَ عن كلِّ بندٍ بوضوح، كامتيازٍ قويٍّ لنا، موقَّع ومتداوَلٍ ومختوم. وكما طالبت بتصديق الأمير [الذي لم يكن يعرف وقتذاك أنه سيرث عرش والديه أبداً] وكردينال أسبانيا ورؤساء الرهبانيات العسكرية والأساقفة والمطارنة لما لهم من فائدة في المستقبل، والماركيزات والقندات والولاة وكبار الكتاب الشرعيين. أردت أن تكون توقيعاتهم جميعاً هناك وأن يكونوا على علم وشاهدين وضامنين للمُتَّفَق عليه، وأن تكون كلمة واحدة مُعَزِّزة لكلمات الملكين التي لا وزن لها، بمعنى أن يكون محتوى شروط الاستسلام ساري المفعول وغير قابلٍ للنقض الآن وبعد الآن وفي كل زمان ولأبد الآبدين. ولارتيابي من توقيع كل هؤلاء الرجال طلبت أن يُثَبِّتَ بابا روما بتوقيعه ما اتُّفِقَ عليه، فيه ينجوهذا الاتفاق من آنيَّةِ الكلمات البشرية. كل شيء نفذ تماماً كما طلبت، ومع ذلك لم نحصل على هذا الضمان الأخير: فقد رفض الملكان أن يَزجَّا في شؤونهما رأسَ النصرانية ـ فهما عندما يناسبهما يكونان دنيويين وإلا فإنه من عمل الله ـ. وبذريعة أنَّ أَخْذَ هذا التوقيع سَيُطيل إغلاق هذه الاتفاقيات ـ رفضا هذا الطلب. وأغدقا على رسلي الخيرات والأموال التي وضعوها في جيوبهم وهم على يقين أنهم حتى ولورفضوها فلن يحصلوا على توقيع البابا. وعندما قرأت المخطوطات خطر لي أن غياب هذا التوقيع نذير شؤم.

والأهم، الذي كان ما عداه تعداداً لتقديرات مستقبلية مُنفصلة عنه، يُلَخَّصُ بما يلي:

يستقبل جلالتهما والسيد الأمير دون خوان، ابنهما، وأخلافهم الملك المذكور أبا عبد الله والقواد المذكورين والقضاة والفقهاء والعلماء والمفتين والحجاب والفرسان والخدم ومِلَّتهم صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، من أهل مدينة غرناطة المذكورة والبيازين المذكور وأرباضهما وقراهما والأماكن الواقعة في أراضيها وأراضي البشرّات والأراضي الأخرى التي تدخل في تدوين هذا الاستسلام مهما كان حالهم وظرفهم، كتابعين ورعايا وسكان تحت حمايتهم وأمانهم ودفاعهم الملكي، وأن يُؤَمِّنوا على بيوتهم وأموالهم وأعراضهم وأثاثهم وجذورهم وشريعتهم ودينهم وعاداتهم الآن وفي كل أوان والى أبد الآبدين، دون أن يلحق بهم أذى ولا ضرر يناقض العدالة، ولا يؤخذ منهم شيء مما لهم، فهم لجلالتهما ومن ناسهما المحترمين والمقربين، يعاملون معاملة حسنة خدماً وأتباعاً لهما.

راحة نفسي الوحيدة إنما كانت أنه من الأفضل لنا أن نُعاملَ كخدم وأتباع من أن نعاملَ كأعداء، وقلقي الوحيد ألا يحدث ذلك. وصدق القلقُ.

لم يكن ابنُ كماشة ليقبل أن يرعى المالح المفاوضات. فكتب عشيَّة التوقيع تقريباً إلى قند تنديلة، ولم يمض وقت قصير على وصوله من قلعة يحصب. كانت له معه علاقات جيدة وعرف منه أنه سيُعَيَّن مرجعاً عسكرياً ومدنياً أعلى لغرناطة. وقد تعزّزت هذه العلاقات قبل أشهر عندما أسر القند حفيدةً لابن كماشة كانت في طريقها إلى تطوان للزواج من واليها. كانت مساعي فك الأسر شاقة. عرضتُ تسليم بعض الكهّان النصارى ومئة أسير آخر. أحضر تنديلة الفتاة فاطمة إلى أبواب غرناطة، ناشراً بين النصارى أن تصرفه كان نوعاً من لفتة فروسية، وأنه إذا كان لا يكفيهم، خاصة عندما عَلِمَ بمقامها وظروفها ـ كما لولم يكن يعلم مسبقاً ـ قَدَّمَ لها بعض المجوهرات هدية لعرسها. كل ذلك كان هراء من القند، حقَّقَ به أهدافه، وشهرةً بالكرم والشهامة لا يستحقها.

يحذره ابن كماشة الدنيء في رسالته الآن بشكل قبيح من *أن الأمور لا تسير في المدينة كما كان يقال، وأنه كان من الصعب كبح شعب عظيم إلى هذا الحد إذا ما ثار، وأن الجميع كان يعرف وضع السلطان غير المستقر*. أمام هذه التحذيرات أراد القند أن يقابلني كي يتأكد من الوضع. استقبلته في الحمراء في غرفة الأسود.

وصلت قبل الموعد بقليل، فأمرتهم أن يتركوني لوحدي. كنت أودِّعُ كل تاج عمود، ونور، من الماء ومن نفسي. كان القمر الأزرق الشاحب يتلألأ خلف ستائر الأقواس المطرزة والسميكة مثل مداعبة أو ضحكة. قلت لنفسي: «لا الأقواس ولا القمر يدري بعد». شعرت كما لوكنت محاطاً بحضورات متعددة: حضور الذين عاشوا هناك وتفاءلوا خيراً. فكرت في الكثرة التي طالما شاهدت، عبر المشارف، الحديقةَ تبرق بلون الفضة كما تبرق الآن، أصغيت إلى زئير الأسود السائل، التي تدير ظهرها دائرياً الواحد للآخر، مدافعة عن نفسها من خطر كان حتى اليوم وهماً وصار الآن حقيقة.

يذوبُ لُجَيْن سالَ بين جواهر غدا مثلها في الحسن أبيضَ صافيا
تشابه جارٍ للعيون بجامدٍ فلم ندر منهما كان جاريا

كانت القصيدة التي تزين حافة الحوض على حق.. كان الفناء كله قائماً في الهواء، معلقاً إلى شيء ما ولا يستند إلى الأرض. الحجرات المطلة على الصحن كانت نتاج حلم دقيق وهفهاف: ليس فيها قساوة ولا مقاومة، لا شيء غير الرشاقة. لم أصدق أبداً أنّ تلك العمارة وذلك السحر سيستمر الليلَ كُلَّهُ، فربما تتبخر مع ضباب الليل، وحين تعود لتُشاد في كل فجر لا تعود بالطريقة نفسها...

أحد ما، حارس ربما، كان يدوس الأروقة مسرعاً، يقترب وبين يديه الشاي. اهتزّت المحارس، بدلت أماكنها، تموّجت الأعمدة الناحلة، كما لوكانت غصناً تكسَّر ويهزُّه طيفٌ في الماء. في الأعلى ترسخت النجوم أمام نور الشعلة التي يحملها الدخيل، في الأسفل صار الماء أكثر رقرقة،وكأنه يؤكد سلطته المطلقة. اختبأت في قاعة الظهيرة. ربما كان الحارس يبحث عني، وعندما لم يجدني ابتعد. عاد كلُّ شيء إلى حلمه، إلى وجوده الرقيق، إلى سكون القبر، مثل غابة تغفو وتستيقظ للأبد. انتفضت: بدا لي أن الأسود اجتمعت مترصدة، مقررة الهجوم عليّ، كما في طفولتي.

فيا من رأى الآساد وهي روابضٌ عداها الحيا عن أن تكون عواديا(1)

احترم أيّ أمير؟ زرقة القمر الضاربة للسواد تخثرت مذعورة، التوريقات صارت أكثر قتامة وكثافة. تسارع قلبي. في فسقية فَوَّارة القاعة رأيت فتور قبة المقرنصات المزخرفة واللألاءة تنعكس فيها، وحين تراجعت رأيت أيضاً انعكاس رواق قاعة الشمال.

وإلاّ فـهـذا الـروض فـيـه بـدايـع أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا

هكذا وكما يقول وحده الحسن: بلا سبب ولا هدف ولا نهاية...«لا يمكن». قلتُ لنفسي. « كيف أتمكن من رؤيته في هذا الحوض من الماء؟ فأنا نائم أوميت.» لا، متضايق ليس إلاّ وراكع. لا أدري لماذا ـ أم أدري ـ كيف سجدت، رفعت عينيّ البائستين. فاصطدمتا بشلالات الصواعد والنوازل التي لا تتوقف في السقف، معزّمة في مؤتمر للنجوم. «أعليّ تتآمر؟» أجهشت: إنه الماء، دائماً الماء. أخذتُ منه بيديّ، بللت وجهي.

كمثلِ محبٌ فاض بالدمع جفنُهُ وغضّ بذاك الدمع إذ خاف واشيا

هكذا تقول أبيات النافورة. نشفت وجهي بالدثار. الطقس بارد.

---

(1) في الاسبانية الشطر الثاني يقول: يعرف أن الأمير يلجم هيجانها. من هنا يأتي تساؤل أبي عبد الله الصغير التالي على هذا البيت. (المترجم)

سمعت صوتاً يناديني. توقعت أن يكون قند تنديلة قد وصل. تقدمت ببطء إلى عمق الحجرة، حتى القاعة الملكية.

كان القند مجعداً وجافاً، منطويَ النفس، ضيقَ وعريضَ الوجهِ، كبير الأنفِ، متقارب العينين تماماً وفمه الذي لا يكاد يتحرك عندما يتكلم، بلا شفتين، منطوياً على تصعيرة من ازدراءٍ أوقرف. يداه ناشرتا العظام، باديتا العروق. وكان معنا ابن كماشة والمالح وهرناندو البياسي، الذي كان يترجم لنا كلِ ما كان ضرورياً. والآن كان البياسي يقرأ بنود الاستسلام واحداً واحداً. يرفع نظره عن الورق وينظر اليّ كي يتأكد أنني موافق، يضيف في بعض الحالات توضيحاً أوتعليقاً يوضح المقروء. القند يحني رأسه إشارة بالموافقة. كان واضحاً أن العمل يتعبه وأنه جاء ليطرح مسألة سهلة التكهن أكثر مما جاء لأخذ موافقتي وخاتمي.

أتذكر، مثلاً، أنني طلبت أن يضاف، فيما يتعلق بوجوب تسليم الأسرى النصارى من قبل أصحابهم ما يلي: *إذا كان هناك أحد عنده أسير وباعه إلى الجانب الآخر من البحر، فلن يكون مجبراً على تسليمه، في حال أنه أقسم وأتى بالشهود على أنّ البيع قد تم قبل هذه التدوينات، وأنه ما عاد له، وليس له عليه سلطة.* أوأن اليهود، الذين كانوا من قبل نصارى، عندهم مهلة ثلاثة أشهر بدءاً من 18 كانون الأول القادم كي يبحروا إلى أفريقية. أوأن النصارى الذين أسلموا لا يكرهون على التحول إلى النصرانية ضد إرادتهم. أوأن ريع الروابط والمدارس القرآنية والصدقات تبقى تحت وصاية الفقهاء كي ينفقوها ويوزعوها بما هوضروري دون أن يتدخل الملكان أويأخذاها أويصادراها. أوأن رعاياي لا يُستدعون إلى أي حرب بالقوة، وأنه إذا احتاج الملكان فرساناً بأسلحتهم وخيولهم، يذهبون عندما يُطْلَبُون، لكن ليس خارج الأندلس، وبراتب منذ اليوم الذي يخرجون فيه من بيوتهم إلى يوم يعودون اليها. وكذلك طلبت أن يُثبَّت أنَّ التعيينات في المناصب والمواقع يجب أن تقع على أعضاء من رعيتنا، وأن تكون ساحات وحوانيت القصابة النصرانية بعيدة عن مثيلاتها عندنا، وبضاعاتهم بعيدة عن أسواقنا وأن يعاقب من يخالف هذا.

وعندما انتهى من قراءة ووصف وثيقة الرق وخاتم الرصاص

المعلق إلى خيوط الحرير، علّق القند:

ـ كرمُ جلالتهما أمرٌ مُثبت. خاصة وأنتم الآن تستجيبون له ـ صمت، بانتظار ما كنت أخافه ـ ربما هوأول ما يجب أن يكون قد قرأه دون هرناندو.

ومدّ يده يناوله ورقة مكتوبة. قرأها هرناندو البياسي:

ـ من المثبت والمتفق عليه أن يسلّم ملك غرناطة وجهاؤها وأهلها وأهل البيازين وأرباضها لجلالتهما ولأمرهما، سِلماً ووُدّاً، واقعاً وفعلاً وخلال الثلاثين يوماً التالية محسوبة بدءاً من يوم الخامس والعشرين من هذا الشهر تشرين الثاني، وهويوم تدوين هذا التحرير...

ـ كفاكم قراءة ـ قاطعت هرناندو البياسي ـ معكم حق، هذا أول ما كان يجب أن يُقرأ: كنا انتهينا قبل ذلك بكثير.

وبحركة تنصُّلٍ، حرفت عيني باتجاه القاعة، المتلألئة بضوء المشاعل. رأيت رسوم سقف القبة التي تمثل الماضي الثري والسعيد، رأيت نفسي مرتدياً الأبيض والأصفر، الشيء الذي لم ألحظه من قبل. جعلت خاتم الختم يدور في خنصري الأيسر، حاولت أن يسود الصمت كضيف شرف بيننا.

ـ هل تريدون أن تُفهموني بأنكم لستم موافقين على المهلة؟ ـ سأل القند باندهاش كان من الافراط بحيث بدا مصطنعاً.

ـ هذا ما أقوله لكم.

اعوجّ فمه بازدراء أكبر، بابتسامة كانت تَشتُمنا.

ـ مولاي... ـ بدأ ابن كماشة يقول، لكنني أوقفته بعينيّ.

ـ ما الذي تطلبونه إذن؟ ـ قال القند بعد وقفة وبإكراه شديد.

ـ ستون يوماً كحد أدنى، كي نلين الشعب ـ خطر ببالي البقيني ـ كي نُهيِّئَ للتسليمِ ونتفادى أعمال التمرد المحتملة. إنه شيء يهم ملكيكم بقدر ما يهمني.

ـ كل ذلك يحل في أقل من الثلاثين يوماً التي أعرضها عليكم. في يوم واحد فقط أستطيع أن أجهز المدينة *وأليِّن* أهلها ـ تسلى بكلمة *أليِّن*.

ـ أنت تستطيع أما أنا فلا. أساليبنا مختلفة، وهذا بالضبط ما يقلقني.

تقلّب القند في كرسي الطي حيث كان يجلس (فعندما وصل مال للجلوس على الوسائد، حسب عاداتنا التي صارت عاداته أيضاً: تلك كانت

طريقته تجنباً للوقوع في الإغراء).

- سيدي، لقد جئت بأوامر قاطعة في موضوع طرح المهلة: إمَّا أن تسلموا المدينة في هذا التاريخ أوأننا سنهاجمها غداً صباحاً بالدم والنار.

- لا أدري ما إذا كان هذا هوالأمر الدقيق الذي جئتم به، رغم أنني أستغربه، فلوكان بمقدوركم الهجوم ما كنا جالسين هنا معاً نشرب شراب البرتقال ونأكل اللوز. على فكرة، هل تريدون مشروباً أقوى؟

- نعم - هتف مثاراً - أود شيئاً أقوى بكثير. لوتعلق الأمر بي لكانت انتهت هذه النقاشات التافهة منذ زمن طويل.

- سيدي القند... - بدأ ابن كماشة.

- اتركني بسلام! - قاطعه تنديلة، فعرفت أن الفظاظة كانت موجهة إليَّ.

تكلَّم المالح:

- فيما بعد تجيب، فموضوع المهلة نستطيع أن نؤجله إلى المقابلة القادمة. نحن نذهب...

- لا تأجيل. لويعود الأمر إليكم لبقينا نؤجل التسليم إلى يوم الحساب. الآن أو لا!

- يا سيد - قلت بصوت خافت - أنا سلطان هذه المملكة، وصاحب القرار بأن أعطي أوأرفض. وبالتالي صاحب الحق بأن أحدِّد التاريخ الذي أعطيها فيه. ملكاكم يقترحان شروطاً، أستطيع أنا أن أقبلها أوأن أرفضها.

- ستتحملون العواقب - كاد يصرخ.

- وهل تخليت عن تحملها ولويوماً واحداً؟ أقل ما يمكن أن ينتظر من الأقوياء هوأن يكونوا مؤدبين.

- قالوا لي أنكم شكّاكون ومتقلبون.

- بلى، لست معتاداً على دخول بيوت الآخرين على الجواد. أعرف أنهم قالوه لكم. - نظرت إلى ابن كماشة الذي أشاح بعينيه خجلاً -. أدباً لن أكرِّر عليكم ما قالوه لي عنكم، وأيضاً ما رأيت.

طفح اهتياجه:

ـ إنكم تجبروننا على أن نفعل ما لم نكن نريد. غداً سوف يُطلقُ سراحُ خمسمئة أسير مسلم موجودين عندنا في مدينة الايمان المقدس. وسيأتون إلى غرناطة، وكل واحد منهم يحمل نسخة عن الاتفاقات السرية التي حصلتم بها ومعكم حجابكم ومستشاريكم على امتيازات شخصية عتية. وسيعرف الشعب وقتها كيف بيع بالمزاد.

ـ سأجيبكم، أيها السيد القند ـ رددت مبتسماً ـ، لأنكم في بيتي، ولأنه لا يوجد عندي ما هوأفضل لأفعله.فابني نائم الآن، وإلا لكنت ذهبت لأتسلى معه، معه أضيع وقتاً أقل. إذا كنتم تستطيعون أن تنسخوا في ليلة واحدة خمسمئة نسخة من أي وثيقة فيعني أن الفسطاط الملكي عندكم في مدينة الايمان منظم أكثر مما كنت أتخيل. إذا كنتم ترغبون بأن يقتلني أتباعي، فقد وقعت لكم فرص أفضل لذلك، لأن التمردات التي عانيت منها جميعها حرّض عليها صاحبا الجلالة. لماذا الانتظار، إذن، إلى اليوم؟ ـ صبّ القند قليلاً من العصير في كأسه ـ إنكم تهتاجون أكثر من اللازم. وتهددون أكثر من اللازم: إما هجوم وإما تشهير. بماذا؟ لأنني حصلت على *امتيازات شخصية عتية*؟ أنا لا أتكلم عن مستشاريّ، فما أعطيتموهم من وراء ظهري هوشأنكم وشأنهم، أنا أجهله، ولا أحشر أنفي في ألعاب الخدم. لكن هل حقاً أنكم تُسمّون مبادلة مملكتي كلها ببعض الأراضي القفراء في أندراش وويجار بالصفقة الرابحة؟ هل كنتم ستفعلون هذا أنتم؟ أتُسمّون احتفاظ أمي السلطانة بجزء من مملكتها، التي من حقها كحرة، والتي هي ملكية شخصية لها، وليست للعرش، *امتيازات عتية*؟ تُسمّون خروجي نهائياً أسوأ من أي من أتباعي، الذين سيحتفظون حسب ما تقولون بكل ما يملكون، *امتيازات شخصية*؟ وبالبرهان على سوء هذا البيع تريدون اثارتهم ضديّ، أيها السيد القند، أنت لا تعجبني، ولا يعجبني موقفكم ولا نبرتكم. ـ رفعت صوتي ـ أنا صاحب هذه المملكة. إذا كنتم تتكلمون عن البيع، فأنا أبيع ما هو لي، لكنني لا أبيع شعبي. أعتقد أن هذا واضح فيما قرأناه، وواضح أيضاً في المهلة التي أطالب بها.

ـ أعرفكم، فلقد قضيت حياتي في الأندلس. وأعرف حيل ومكر أبناء عرقكم.

ـ في موضوع الحيل والمكر ينقصنا، نحن الأندلسيين، الكثير لنتعلمه. فمنذ عدة سنوات صرنا نعرف أكثر بكثير. أنا أيضاً أعرفكم، أيها السيد القند، حتى أنني قرأت أيضاً أشعار جدك سانتيليانا، ما لا أعرفه هوما إذا فعلتم أنتم الشيء نفسه، أعرف أنكم حفيد كردينال اسبانيا، لكن

مهما كان ما عشته في الأندلس، وحتى لوكان قد ولد جميع أجدادكم هنا، فإنكم لا تحملون دماً أندلسياً ولن تحملوه أبداً. لحسن الحظ أنكم تقولون بأن الأندلس صنعناها نحن، يا سيد، ونصيبكم أنكم تحملون غار تهديمها المشكوك فيه. تأتوننا بالخيلاء، وألقابكم، التي تبدولكم عظيمة جداً، كسبها جنود محظوظون على حسابنا ـ قام بحركة عجرفة وغضب ـ اهدأ. تحتاجون إلى أجيال كثيرة كي تنسوا أصولكم. وأنا حصل لي هذا أيضاً. لكن سلاطين سلالتي واحد وثلاثون، وعمي *الزغل* كان وحده الثالث عشر الذي سمي محمد: إنه رقم مشؤوم تماماً ـ كانت يداي ترتعشان، شددت بقوة على الخاتم الذي كنت أداعبه من قبل،كي لا يلاحظ أحد ذلك ـ. أنتم فقط القند الثاني لتنديلة، لم يمض إلا القليل على شروعكم في الترقي لذلك أبرِّرُ اندفاعكمَ. تمعَّن، بالمقابل فِيَّ: أنا لست طموحاً، والفضل في ذلك يعود فعلاً إلى أن أجدادي كانوا كذلك. أنا حصلت على كل شيء تماماً، أيها السيد القند، ولا أتطلع إلى أن يكون عندي أكثر. الطموح، في الأعماق، من خاصية الأتباع ـ أشرت إلى ابن كماشة والمالح ـ، من خاصية تابعيّ هذين، لكنه أيضاً من خاصية ملكيك. ومن يبدأ يتحسن هو دائماً مجتهد، ومن يترجل لا يعود كذلك. ـ كان من الممكن أن ينقطع غيظه، وقد شعرت به من حولي مثل زاحفة. غيرت نبرتي ـ سامحني إن أضجرتك بتأملاتي هذه. إذا كنتم لا تملكون السلطة الكافية للتفاوض على المهلة التي أقترحها، فاحملوا اقتراحي إلى ملكيكم. لا أدري ما إذا كانا سيقبلانه، لكنهما على أي حال سيتفهمانه أكثر منكم.

أعطت الاثارة ثمرتها. نَطَّ القند:

ـ هل يعني أنكم تشكون بأنني جئت بصلاحيات تمثيل غير كافية؟

ـ لا أدخل ولا أخرج. إذا كان كذلك، فقرر.

ـ وحده تفكيري بسخاء نفس الملك وإحسان الملكة الأمومي كبحني عند سماع هذه الترهات التي تُسمّونها تأملات، علينا نحن الأقوياء أن نكون لطفاء مع المهزومين.

ـ تأخرت قليلاً في تذكر هذا، يا سيد.

ـ لكي تتأكدوا مرّة أخرى من عظمة تطلعات ديننا، الذي لا يرغب في قتل الخطّاء وإنما في تحوله وفي أن يعيش، ولكي تتأكدوا كم نحن واثقين من تحالفنا مع العناية الإلهية وكيف نحصل على ما نستطيع الحصول عليه بالسلاح، بالعهود الأخوية، وباسم جلالة ملكي قشتالة وأراجون أمنحكم تمديد المهلة التي تطلبون: ستون يوماً بدءاً من التوقيع،

الذي ستكتبونه الآن. اليوم الرابع والعشرون من تشرين الثاني.

ـ بالحوار اللطيف تقدم الليل: صار اليوم الخامس والعشرين.

ـ بهذا الشكل ستكسبون يوماً إضافياً لدسائسكم.

أسَالَ هرناندو البياسي الشمع على الرق الذي قدموه لي. طبعته بخاتمي. انتابتني رغبةٌ جامحة للبكاء، فالجهد وضبط النفس كانا كبيرين ومفرطين. تنهد ابن كماشة والمالح، وتبادلا نظرات الرضى.

ـ أيها السيد القند ـ ختمت ـ يؤسفني أن تكون من سيوكل إليه حكم الحمراء وغرناطة، لكنني أتكهن بأنكم ستخدمون جلالتهما جيداً. على الأقل جلالتهما.

ـ هذا ما أتطلع إليه، وليس إلى أي شيء آخر.

أراد أن يخرج بفجّاجة.

ـ انتظر، يا سيد ـ توقَّفَ والتفتَ اليّ وقد شدّ على حنكيه ـ طاب ليلكم ـ قمت بحركة وداع، في الهواء، خفيفة ـ يجب ألا أؤخركم هنا أكثر، حيث تكونون لآخر مرة كمدعو. آذن لكم بالانصراف.

خرج بصمت بعد حركة احترام تافهة.

في الليلة التالية كان على موفديّ أن يأخذوا قَسَمَ الملكين النصرانيين. اقتربت مساء من قصر قمارش كي أطلع أمي مسبقاً على الأمر. كنا وحدنا. وبينما كنت أعدد لها الشروط راحت دمعة ـ اعتقدت أنني لم أرها ـ تنزلق على وجهها المتجعد الآن. اضطرب تنفسها وخرجت من صدرها تنهدات مكبوتة، تظاهرت بأنني لم أسمعها. انتزعت مني التحرير وانسحبت إلى نور إحدى المشربيات. قرأت خلال برهة طويلة وهي جالسة. ثم طوت الأوراق وبقيت صامتة، تنظر إلى المنظر المُذَهَّب دون أن تراه.

ـ هذا أمر منته ـ همست ـ ما كانت لتراه عيناي.

في محاولة لمواساتها، اقتربت بنوع من التوسل. تجرأت على مداعبة كتفها. فنهضت منتفضة:

ـ ما هي مراسيم التسليم؟

ـ ستدخل الجيوش من الأبواب العليا...

قاطعتني:

ـ أقول بالنسبة لك أنت.

ـ قدّرت السفارتان أنه يجب عليّ أن أسلم مفاتيح المدينة للملك فرناندو شخصياً.

ـ مقبّلاً يده؟ ـ صرخت كمن يرى وكر عقارب.

ـ أعتقد ذلك. ـ تلعثمت.

ـ ولا بشكل من الأشكال! ما زال فينا نَفَسٌ وعندنا إمكانات ورجال كي ننقضّ على معسكر القذارة هذا ونطيح بصلبانهم اللعينة. ولا بشكل من الأشكال! لوكان الأمر بيدي، لكرمتهم بجبل من الرماد والعظام. لوكان الأمر بيدي لفتّتهم عندما كانوا هناك في الداخل وليس عندهم مخرج ممكن. فالله يبارك المكايد ضد الأعداء عندما تكون باسمه. لوكان الأمر بيدي لأرسلت ستة أوثمانية مرتدين يقتلون بحيلة وسكاكين مسنونة هذين الملكين المغتصبين.

ـ أعرف، أعرف ياأماه، أنه لوكان بيدك.

ـ وستركع أنت؟ وتقبل اليد التي تذلنا وتسرقنا؟ هذا ليس استسلاماً، إنه اتفاق بين طرفين بسيادتين متساويتين. حتى ولوبدا كذلك، أنت لست مهزوماً، وإنما أمير ينجز اتفاقاً: اتفاقاً يجب ألا يجعلك تشعر أنه يذلّك. هنا تُحَلُّ الآن دعوى قديمة جداً، لكن عبر صفقة، ليس أكثر. ولتبق الجيوش واستعراضات النصر على الهامش. افعل بشرفك ما بدا لك، لكنني أنا ابنة سلطان وأرملة وزوجة سلاطين...

قاطعتها:

ـ وأم وكنّة سلاطين. موافق، سنفعل المستطاع.

ـ نفعل ما يجب. فأنا ومعي أحد الأوفياء، الذين ما زلت أملكهم سأبصق في وجه الملكين. وسأعمل على أن يقطعوا رأسي وتثير دمائي أهل غرناطة ـ قالت وخرجت من القاعة.

أمليت رسالة حملها ابن كماشة معه إلى الملك فرناندو ساعة القسم. أشرت فيها، رغم أن الموقّع هوالحاجب، إلى توعد السلطانة المحرج تماماً فيما لو نُفِّذ.« فهي ـ أخبرته ـ تفضل الموت على التنازل، وتنقصه النصيحة من يأخذ بتقبيل اليد أكثر مما يأخذ بتسلم مملكة.»

والملك، الذي كان أكثر نباهة وبراعة من أمي تنازل عن الثانوي، وكان قد تنازل في قرطبة. قيل لي أنه لا يتوجب علي إلّا أن أقوم بحركة احترام، كانت عبارة عن إخراج قدمي من الركاب ورفع يدي إلى العمامة فيمنعني الملك في هذه اللحظة من المتابعة ويعانقني كملك آخر. فكرت أنَّ تَعَلُّمَ وتنفيذَ هذه الشعيرة أصعبُ بكثير مما كان متوقعاً: فالحركات المزمع فعلها ونصف المنتهية بدت لي دائماً معقدة جداً. انتابني الشك باللحظة الدقيقة التي علي أن أتوقف فيها وأنتظر مقاطعة الملك، دون أن يتركني خبث هذا معلقاً إلى وضعية بلهاء. فكرت بعدها أنه مضى علي زمن طويل وأنا معلق إلى ما هو أسوأ.

في تواريخ لاحقة اضطررت أن أتغاضى عن بعض الحركات. افترضت ـ وهذا ما أكده لي فرج ونسيم ـ أن الملكين كانا يرسلان، بواسطة الصفري والبقيني والمالح أموالاً وهدايا كي *يكسبا أصدقاء*، كما كانا يقولان، ويدعما بها الرأي المؤيد لهما بين الفقهاء والشخصيات المعتبرة.

وفي اليوم التاسع والعشرين من تشرين الثاني وجه الملكان رسالة ـ أحتفظ بها وأعيد قراءتها ـ إلى *الكبار والصغار* للهدف نفسه لدفعي كي لا أتأخر في إخبار أهالي غرناطة بالأمر، وفيها يقران بعزمهما على الحفاظ على الجيش والفسطاط أمام غرناطة *بإذن الله* وينبهان فيها المواطنين إلى أنهم إذا هرعوا بسرعة إلى خدمتهم وسلموا حصونهم فإنهم *لن يتسببوا بضياع أنفسهم بأنفسهم، كما فعل المالقيون، وإنما سيكونون مُؤَمَّنين على أنفسهم وأموالهم، أوعلى أن يعبروا إلى أفريقية* مجاناً بعد أن يبيعوا أملاكهم لمن يشاؤون ويستطيعون أن يخرجوا لفلاحة مزارعهم وأن يجولوا أينما أرادوا من ممالكهم. لكن المهم هوالأخير: يحددان مدة عشرين يوماً بدءاً من تاريخه كي يرسل العامّة ممثلاً يتعهد بذلك ويقسمان بعقيدتهما أنهما، إذا انقضت المهلة، *لن يقبلا ولن يسمعا أي كلام حول الموضوع محملين الذين وجهت إليهم الرسالة المسؤولية والذنب في ضياعهم*. وعلى عكس ما رمت إليه فكرة الملكين الفظة وقصدهم الماكر أسعدني أن يتفاهما مباشرة مع الشعب.

كانت حالة المدينة المحاصرة بالثلوج المتزايدة في الجبال واحتكارات المؤن تزداد سوءاً. وفي يوم 16 كانون الأول باكراً جداً،

جاءني وفد من الفقهاء وأمناء النقابات والشيوخ والعرفاء والبنائين والعلماء يتوسلونني، دون أن يشيروا إطلاقاً إلى رسالة الملكين وكأنها لم تكن، بأن أستدعي الناس في المدينة دون تأخير ومن خلال المنادين وأن أطرح عليهم الواقع المأساوي الذي هم فيه: الأرزاق المتناقصة والأخطر من ذلك أنها غير قابلة للتجديد نظراً لإنقطاع الطرق وانعدام الزراعة والحماية وخور الجيش، لانعدام الفرسان والمشاة على حد سواء وانعدام الدعم الأفريقي الذي لم نعوّل عليه كثيراً قط. كما اعترفوا بخجل بأن كثيراً من أهل غرناطة هربوا وهم الآن يخدمون النصارى كمستكشفين وأدلاء في غاراتهم.

ـ نحن في الشتاء، يا مولانا ـ أضافوا ـ والنصارى أوقفوا اعتداءاتهم. فإذا ما تباحثنا معهم الآن سيستمعون إلينا. وإذا لم نفعل حتى لواستطعنا أن نصبر حتى الربيع، وهذا غير ممكن، فإنهم سيجمعون جيشاً أكبر يهاجموننا به وعندئذ سنكون نحن والمدينة مكشوفين ودون ضمان من غضبهم. نرجوكم يا مولانا أن تقولوا هذا للشعب.

أجبتهم بأنني أتفهم دوافعهم وأنني إذا كنت أعتبر أنه من الحكمة أكثر أن يكونوا هم، لما لهم من مكانة، من يتكلم مع الشعب، فإنه لا مانع لدي أن أكون أنا من يفعل ذلك شرط دعمهم وحضورهم.

دعوت إلى اجتماع للمواطنين في ذلك المساء نفسه في الطبلة، المكان الذي أصر والدي على إقامة ذلك العرض، الذي فيه ومعه بدأ الإنحدار. صعد ناس من جميع الأحياء، حتى من أكثرها بعداً ومع أن اليوم كان عيداً فإن وجوههم لم توحِ بذلك. لم أستطع أن أمنع ذاكرتي من أن تستحضر في لحظات أغانٍ وضحكات وألعاباً ومسيرات لثلاث عشرة سنة مضت، والبلية الفظيعة التي انتهى إليها كل شيء.تغيَّب فقط ممثلو حيّي القصبة وباب البيرة.

كنت أتوجه إلى الناس، الكثر، ومحاطاً بالأعيان، عندما سمعت صليل أسلحة أوأصواتاً تعلن عن صليل الأسلحة. أقلقني الخلط. عدت وتذكرت نهاية العرض المشؤومة. هتف لي أهل البيازين: «لا تخف يامولانا، فنحن سنموت قبلك» وانطلقوا متزاحمين إلى الأسفل.

لفت الانتباه إلى ما كان يجري رجل رقيق جداً كعينيه، قال إنه يسكن أنتيقيرة: كان أهل القصبة وباب البيرة قد وضعوا الحواجز في الشوارع، وأغلقوا باب وادي آش وباب العظام على الجانب الآخر من نهر دارة.طلبت من الرجل أن يقترب. تقدم بين الحشود كان مبتور اليد

اليسرى.

ـ لماذا؟ ـ سألته.

فكرت في الحال أنه سيجيبني عن سبب بَتْرِ يَدِهِ، لكن لم يحدث.

ـ لأنهم يقولون بأن الرهائن سيخرجون منهم ولن يعودوا بعدها، تماماً كما لم تعد أنت إلى القصبة منذ عدة أيام وأن النصارى سيدخلون وسينهبون بيوتهم.

ـ إنها أعمال مغاورين وكسالى يا مولاي ـ صرخ بدين جداً يحمل بين ذراعيه طفلين.

ـ أليسوا جنوداً؟ فليذهبوا هم إلى الحرب. لقد كان لنا نحن منها ما يكفي ـ همهم عجوز اتكأ إلى عكازه المعوج.

ـ تعالوا ـ قلت للوجهاء وذهبت معهم ومع مواطنين كثيرين بحثاً عن المتبرمين.

عندما رأوني أصل، أمسكوا بِمُعِدَّاتهم التي كانوا يستخدمونها لإقامة الحواجز بقوة أكبر. لم يكن الوقت وقت مواربات. كلمتهم برصانة.

ـ علمت أن عدداً وفيراً من فرسان غرناطة وبعض أصحاب الضيع تفاوضوا مع الملكين النصرانيين دون موافقتي. أنتم وأنا وبشكل مشترك من يجب أن يقوم بذلك. هذا ما جاء يطلبه مني كباركم. وما فعلناه باسمكم لا أفكر بالتراجع عنه. إذا كان هناك من يريد أن يقاتلهم ويقاتلني سيجدنا في الحمراء، لكن إذا كان هناك من عنده ما يطلبه أو يتأكد منه أو أنه فهم أن شيئاً ما لم ينفّذ باستقامة فليتكلم به مع أمينِهِ، وليمنحه الصلاحية. ليأتوا ويعرضوا علي ما الذي يقلقهم وما الذي ينقصهم. وأنا لن أخرج من غرناطة إلاّ إلى القبر إذا تركت أتباعي دونما حماية. والسلطان ليس غير هذا.

تعثرت، كما في مرات أخرى، بعيني فرج. المتشربتين بصوتي، كان يصغي إلي بفم مفتوح، فابتسمت له، أنا غير القادر على تفادي ذلك. وقتذاك كان قد قرر جميع الأهالي إرسال سفارة عامة إلى الملكين النصرانيين. كثيرون اعتبروا من المفروغ منه أن كل شيء كان مكيدة، والشعب في النهاية إنما جاءني ليطلب مني ما تعاهدت عليه. ربما لم تكن السياسة إلا هذا السبق. المسألة أن الذي قاد السفارة هوابن كماشة والمالح، وجدوا الملك موافقاً *ولِناً*، منحهم كل الذي طلبوه ولم يخطر لأحد أن يطلب أكثر مما هوممنوح في شروط الاستسلام.أهدى رجالَ

السفارة نقوداً ذهبية ومجوهرات: بعضها لهم وبعضها الآخر كي يتابعوا به أمر *تليين* المقاومة، رغم أنني أشك بأن الأخير منها سيصل إلى أصحابه.

ومع ذلك فقد كانت السفارات الخاصة إلى مدينة الإيمان المقدس تزداد يوما بعد يوم، وقد تناهى إلى مسمعي التقدم الذي حققته المباحثات مع قادة الفقار، الحصن الخارجي الوحيد الذي كان ما يزال في يدي. تلك المفاوضات التي كانت تتم دون موافقتي وتم التوقيع عليها يوم 20 كانون الأول بالضبط.

قلت بالضبط، لأنه في ذلك اليوم أخرجت بقايا أسلافي من الحمراء. أنا الذي كنت بالنسبة للكثيرين مهيناً، كان عليّ الوقوف في وجه المهانة. إذ بمعزل عن صراعاتنا، كان من حقهم أن يرتاحوا بسلام.

كانت القبور من الكثرة بحيث أن الفكرة ضايقتني. طلبت من فرج أن يساعدني لكننا كنا بحاجة إلى آخر في غاية الثقة. عولت على حاجب، اقترب مني بصراحة غريبة، بعد إحدى الاجتماعات التي كانت كثيرة قبل أيام، وقال لي:

ـ مولاي، حول ما يجري، هذا إذا كان يجري شيء، ليس لي رأي. لا أملك غير ذراعي وهو لك. نظرتُ إليه شاكراً أمام تصريح لوحصل قبل قليل لكان واضحاً، أرحت يدي، وربما أكثر من يدي، على الذراع التي قدمها لي وأجبته:

ـ ربما وقبل الوقت الذي نعتقد سأجد نفسي مضطراً لاستخدامه. شكراً.

استخدمته للدافع الذي سأقوله الآن. إسم الحاجب هو بشير الجبيس.

ودون أن أشارك أحداً من أسرتي، لأنني خفت بلبلة الآراء في حالة يجب أن تحل بسرعة، قررت أن أحمل رفاة الموتى إلى مندوجار. فهناك كانت رفاة والدي ويبدولي من الفطنة جمعهم جميعاً في وادي لقرين، الضارب إلى الحمرة والخصيب كبطن امرأة، إلى الأسفل من المجموعة الصخرية من جبال البشرات، والأكثر شبهاً بالفردوس الذي كان باستطاعتي تقديمه لهم.

ما أن بدأ الليل حتى بدأنا العمل. أحزنني أنه كان علي أن أمارس بالسر، كما لوأن الأمر يتعلق بجريمة، ما كان يتطلب كثيراً من الجلالة.

لكن لم يكن عقلانياً أن أجرح حساسية الغرناطيين المرهفة أكثر. لم أستدع أي فقيه: الموتى يتمتعون، أوهذا ما آمله، بالوعود التي شجعتهم ولا يحتاجون إلى وسطاء يشكلون لهم جسراً مع العناية الإلهية. كنا قد حصلنا على بضع عشرة رجلاً مثبت إخلاصهم من الشعب، ثمانية منهم جنائنيون مثل فائز. وكان السر، سواء بالنسبة لنبش القبور أولمواراتها التراب في المكان الجديد أو اسم المكان نفسه جوهرياً بالنسبة لهدفي. وأعتقد أننا حققناه.

عندما اجتزنا باب الروضة بقبته العالية والعجيبة انتابني دوار خفيف ربما سببه التوتر الذي أرغمتني عليه الأحداث المتوالية. غشي نظري استندت إلى الجدار. تصورت أنني سمعت صوت المالح لما قبل عشرين عاماً، عندما فسر لي لأول مرة ذلك الباب كثير الغموض.

ـ هذا ـ قال لي مشيراً إليه ـ والبئر الذي يمد بالماء قاعة قمارش وحماماتها هما البقية الوحيدة الباقية ـ كان يرن في رأسي صدى كلمة *البقية* ـ من قصر اسماعيل الأول، المغدور ـ الآن كلمة *المغدور* هي التي كانت ترن ـ الذي يرقد مع السلاطين الآخرين في الروضة. ابنه يوسف وسع ذلك القصر وحوّله إلى قصر قمارش. حفيده محمد بنى قصر الأسود وأضاف إلى قمارش أبوابها الفائقة الجمال. جميعهم يرقدون الآن في هذه الروضة القريبة جداً من أعمالهم الخالدة... ـ سمعت *الخالدة* وعدت وسمعتها من جديد.

استعدت قواي يساعدني فرج ودخلنا. ربما كانت حديقتي المفضلة. صغيرة ووديعة تُوَقِّعُها وتهدهدها المياه والعصافير. دائماً تخيلت أن النوم فيها مريح. يتبعثر في جوها صيفاً ظل ناعم أخضر وضارب للخضرة وشتاءً يحميها من الرياح اتجاهها والأشجار السامقة. لكن لأن في الحمراء مقابر أخرى متفرقة وسابقة على هذه أرسلنا خمسة من الرجال العشر إليها، وتواعدنا على اللقاء بأسرع ما يمكن في مندوجار.

كان العمل متقطعاً وكئيباً. من المحال تنفيذه بالنظافة التي كنت أرغب بها، فالزمن لم يكن لصالحنا حتى بعد أن خرجنا منه. التوابيت مهشمة والعظام مفككة وشاهدات القبور محطمة، وكان علي أن أتجاوز الضيق من تجميع الرفاة دون أن أعرف تماماً لمن هي أولمن كانت. رتبتها في العربات بعكس وضعيتها في الدفن في اليوم التالي. صليت على طريقتي وطلبت المغفرة على هذا التدخل المزعج قبل يوم الحساب والبعث

على طريقتي أيضاً.

هناك كان يرقد سلاطين أفضل السنين العظام، والأمراء الخائبون والسلطانات أمهات أمرائنا ومرشدينا ومن ماتوا على يد غاضبة من الفرع الثاني من سلالتنا. هناك كان يرتاح أخيراً كل من كان بهياً أومغتصباً للعرش: البريق والرفاة، الأحلام، الزهو، الرغبات، الهياكل الرشيقة أوالمعوجة، المترابط منها والمفكك، الرواية القصيرة للبطولات المبالغ بها، التي ليست دائماً حقيقية، والمنقوشة على الألواح المتطاولة التي تدوم أكثر مما ترويه...«هنا ينتهي كل شيء»، قلت لنفسي، لكنني قلته بسرعة ودون توقف لأنه كان علي أن أرتب ذلك المستودع من العظام، ذلك السوق الهائل من الضراعة. من حين لآخر كانت تبرق بين الرماد جواهر أطواق مبعثرة أومصوغات ذهبية. لم يبق مما ذكرت ولا حتى الاسم: من يتعلم من حديث الأطلال؟ كيف نتفكر ببطلان حياتنا أوأستخلص صورة نتائج تواسيني من الشقاء في حدوده القصوى الذي وُضعت المملكة فيه ـ بسببي، أوفي زمني ـ ؟ كيف أتّهم نفسي أوأتوسل الذرائع؟ اقتصر عملي، تحت الإضاءة الشبحية للقمر ولبعض القناديل القليلة، على تجميع كل ما تبقى في صمت الحفر الباردة من الذين وضعوا ضمناً أملهم فيّ فخيبتهم دون شك. كانت مهمتي تكمن في تحريرهم من الحالة الطارئة المشؤومة التي تسببت لهم بها. ونفذتها دون خوف في أبرد ليلة من ليالي كانون الأول.

وهاهم الآن يرقدون مجتمعين في مجلس مهيب في مندوجار. هناك سأُدفن أنا أيضاً. إذا كان الموت يقدم للإنسان الحكمة التي تنقصه، فإنني أعتقد أنهم سيبررون لي ما قمت به وسيستقبلونني عندما تحين ساعتي. أما إذا كان الموت لايصل بالإنسان إلى الكمال، فالأمر سيان لأنهم سيستمرون كما كانوا نادري الفضيلة. وإذا كان الموت انتقالاً إلى العدم فلن يكونوا لا هم ولا أنا شيئاً. ربما كان هذا الأخير هوالمفضل وربما المحتمل. بعد أن أمسكت بيدي كل الرفاة الصموتة والخرساء فأي يوم حساب يمكن أن يوجد أوأي نشور؟ قليلون هم الضالون، وقليلون هم الأفاضل جداً الذين يستحقون نشوراً. ليس النشور ضرورياً جداً للذين ما يزالون يعيشون، نظراً لأعمالهم، في ذاكرة الشكورين، إنها أفضل طريقة عرفتها للخلود. ربما كانت الحياة لا تنتهي أبداً بل تتحول متقزحة ومتواجدة، ليس لأنها تنتصر على الموت، وإنما لأنها تغزو كل شيء وكل شيء هو هذا المظهر من الحياة أوذاك طالما أن الموت يأتي، والموت نفسه أحد مظاهرها. لكن الإنسان الذي لا يفهم غير حياته تقريباً ـ ولا

يكاد ـ فَجُلُّ ما يطمح إليه هوالنشور، كي يعود إليها. كم هوصغير ومع ذلك كم هوتوّاق لأن يخلد. أن يخلد في ذاته وهوذاته، بدل أن يمتزج في الطبيعة التي هي الأم الكبرى التي لا تقدم تفسيرات لأنها حتى ولوقدمتها ستبقى غامضة غير قابلة للتفسير. هي النبع وهي البحر. ليست قاسية أو رحوماً. ليست محكومة بندوبنا أو بمستوياتنا الجلية. كل موجة من أمواجها تأتي بكائنات وتجرف أخرى. لا يعني هذا أن الحياة تتحرك: الحياة ساكنة محاطة بالحدود الغامضة التي تتاخم الموت. نحن ندخل إليها أونخرج منها ـ أي أننا *عابرون* ـ بينما هي *دائمة*.

إذن هل أستطيع القول بأن الحياة على حق؟ لا ليست على حق، لا حاجة لها به، ليس لها أجنحة ولا شذى، ولا غلمة مفرطة، هذه من خصائص الطيور والأزهار أوالأفراس والأسماك، إنها خصائص ومن خصائص الإنسان التافهة العقل، شأنه شأن الدافع، دافع الخجل أودافع الابتسام الذي يميزه عن الحيوانات. لكنه يفكر ـ نفكر ـ أن العقل تاج وطريق لا نهاية له، فيفقد الفرصة في أن يكون سعيداً. التكبر هوالذي يخرب السعادة القائمة على التمسك بالتوافه والانشغال بها، على استخدام العقل للنموو الزيادة والفرح، للخجل والابتسام. لكن لا، فالإنسان ينتفخ ويَتَقَنَّعُ، يرغب بأن يظهر قوة وحجماً أكبر منه.

غرور، غرور. كأن طريقتنا في الحياة هي كل الحياة، وكأن الكواكب والنجوم التي لا تحصى ترف في مقرنصاتنا. كم من الخيلاء الأحمق نرتكب! إننا مثل أمي، مثل أولئك الشيوخ البلهاء الذين يختصرون العالم بغرف نومهم ويعيشون مقتنعين بأن الخارج كله يخضع لهم والخارج لا يعلم بوجودهم. كم من الإصرار المنهك على الخلود. حالة الأعزل نفسها، التي تضطرنا لأن نبتدع الآلهة والحياة المستقبلية والجزاء غير الحقيقي، لا تقدم لنا صورة البؤس الذي نمثله. لأنه إذا كان الأصل الذي يفوقنا هو ما نسميه إلهاً، فالآلهة تحيط بنا، وإذا كان المتوعد والرهيب هو الإله ـ الشيء الذي سيكون محزناً جداً ـ يكاد يكون كل إله، فالحياة هي فعلاً إله. إله دائم الظهور وفي الوقت ذاته صموت، حصيف وحنون، يخلقنا ويستخدمنا كما تخلق وتستخدم أداة، يساندنا ويتركنا. لكننا لا نريد هذا، لا نريد هذا فقط: نريد أن ندوم، وندوم في السعادة. أي أننا نريد أن نكون آلهة تماماً.

IV . كلّ موسيقى تتوقف

إذا ما أصخت السمع اليوم، فإنني سأسمع موسيقى تأتي من البعيد القصي، من الماضي أيضاً، من كل ما مات، من ساعات ورموز مختلفة عن مثيلاتها الحالية وعن الحيوات الأخرى. ربما كانت حياتنا ـ ونحن أنفسنا لسنا شيئاً آخر سواها ـ ليست غير هذه الموسيقى. لأننا جميعاً كنّا ذات مرّة أفضل، أو أكثر سعادة ووقاراً. ومع ذلك فكل موسيقى تتوقف. حتى في ذاكرتنا كل موسيقى تتوقّف.

أبوعبد الله الصغير

بعد أن نُظِّمت خيوط هذه اللُّحمة المجهدة، كي نتجنّب أن تضرّ اتفاقياتٌ أخرى مع الملكين بما كنا قد وقّعناه، تساهلت في تقديم موعد التسليم. وحُدّد في يوم السادس من كانون الثاني. كنت أُحسُّ، رغم أن أقرب الناس إليّ كانوا ينكرون ذلك، بشرارات الانزعاج بين أهل غرناطة، بعض الهياج والنزق، كما لوكان صادراً عمن يخرجون عن الطاعة ويحاولون أن يعيشوا حياة الملك ـ أيّ ملك؟ ـ فيما تبقى من أيامهم بعد أن ضاعت قضاياهم. هاجموا بيوت بعض اليهود، وزادت الجريمة ليلاً. إذن كان من الحكمة الإسراع بالأحداث.

كان اليوم الأول من السنة الشمسية يوم أحد. لم أرَ يوماً أكثر كآبة

منه. قرّرت تسليم الرهائن الخمسمئة في ذلك اليوم بإشراف ابن كماشة والمالح. وما أن هبطت ظلال الليل، والمساء لم ينتصف بعد حتى جمعوا الرهائن قرب حي الفخّارين. لم أستطع تفادي أن يدب الصوت ويعلو اللغط حولهم، رغم أن البرد كان قد حبس الناس في بيوتهم. أمرت بخروجهم من البستان الصغير في المنجرة، عبر باب الغرب. خفت أن يُخرّب أي نزاع المسيرة السلمية للأمور فيسبب استدعاء جيش النصارى أومنحه حجةً للتدخل. وبحجة سحب زوج من الخيول وسيفٍ كنت قد أهديتها للملك فرناندو، جعلت ابن كماشة يعود وأعطيته رسالة يسلمها له باليد.طلبت منه فيها أن يرسل بكثير من الحذر، في تلك الليلة نفسها قوات تتولى أمور الحمراء، وفي اليوم التالي قبِلَ من كانوا ما يزالون أتباعاً لي، أمام ما كان حتمياً، بتسليم غرناطة دون محاولة أن يقوموا بتمرد مسلح. وهكذا أبعدت الأخطار والمستجدات.

ومنذ أن تسلّم فرناندو الجشع إخطاري لم يترك ساعة واحدة تمر. فأرسل في منتصف الليل قوة يقودها غوتييره ده كارديناس، رئيس رهبانية ليون الأكبر، جاءت القوة يلفها البرد من جهة أليجار، التي يعتبر طريقها أكثر سرية وبعداً عن العيون. كان فرج ونسيم ينتظران النصارى في برج الماء، فأدخلاهم إلى الحمراء عبر باب الجباب. كان الفجر ـ هذا إذا كان هناك فجر ـ مازال أمامه متسع للانبلاج.

كنت في قاعة الأسود مع اثني عشر رجلاً من الأشراف. رأيت فرجاً يدخل شاحباً قليلاً فعرفت أن القدر قد جاء، صرفت الفرسان وأمرتهم بالانسحاب إلى المدينة وانتقلت إلى قاعة قمارش لوحدي. في الطريق نزعت عني الأوسمة الملكية وأعطيتها لفرج، الذي قبّل يدي حين تناولها. كان دون غوتييره قد وزّع جنوده، الذين لم يكونوا كثراً على جناحين كي يتخذوا مواقعهم إذا ما تطلب الأمر. استقبلته في قاعة قمارش. كنت قد أمرت بتزيينها بسبع عشرة راية، انتزعت من النصارى في عصور مختلفة: بعضها مضى عليه عندنا قرنان ونصف. كان يحيط برئيس الرهبانية بعض النقباء، رأيت في وجوههم انذهالاً كبيراً من القصر، كما لوكانوا يلتقون الله في الجنة. سمعت واحداً يقول: «أشبيلية، إذا ما قورنت بهذا، ليست سوى بيت من التبن». كانوا من الانذهال بحيث أنني اضطررت أن أتقدم من دون غوتييره ومفاتيح الحمراء في يديّ. ناولتها له بصمت. عرفني وقبّل يدي أيضاً وهو يأخذها. فعل الآخرون الشيء نفسه بعده.

رجوت رئيس رهبانية ليون بصوت خافت جداً ـ ضخّمه الخجل وتيقّظ الليل ـ أن يعطيني ورقة موقعة باسمه تثبت بأنه استلم الحصن، وبأن ذلك تم كما كان يرغب. كتب وصل الاستلام راهب من معيته،وكان بديناً وأصلع ويخرج لسانه وهويكتب. ناوله لي دون غوتييره دون أية كلمة، بمجرد ابتسامة متهيبة في إحدى زوايا فمه. كان الصحن كله قبة خرساء. أحد سقط منه سيفه، فانتشر الدوي على البلاط وعلى ماء البركة المتخدر.

ـ لم يعد لنا ما نفعله هنا. هيا بنا ـ قلت لفرج ثم لنسيم ـ: رافق أنت الضيوف. وابق معهم إذا كنت ترغب.

عندما خرجت من الحمراء كي أذهب إلى القصبة، حيث أمرت في المساء أن تقيم أمي ومريمة مع وصيفاتهما، رأيت أن قوات دون غوتييره قد احتلت الأبراج والنقاط الأقوى في السور. هبطت علي أبيات جرير:

ما للمنازل لا يُجبنَ حزينا	*أَصممن أوقدم البلى فبلينا*
روحوا العشية روحة مذكورة	*إن متن متنا وإن حيين حيينا*

كان اليوم السابق عاصفاً، وأشرق هذا على عكسه، صافياً وأزرق. ولولم يكن بسبب الحرارة لقيل إنَّه ربيع.

ـ وابن كماشة والمالح؟ ـ سألت فرجاً.

ـ لم يأتيا مع دون غوتييره. فضّلا البقاء في مدينة الإيمان المقدس.

ـ جبانان حتى النهاية ـ تمتمت ونظرت إلى السماء اللامتناهية.

عبرنا بمجموعة من أسرى النصارى كانوا يصعدون سطح السبيكة. أتذكر أنني هجست: « ما عاد أحد يتعرّفني». وقلت:

ـ يمضون للانضمام للآخرين. وسيقيمون معاً صلاة شكر. سألت نفسي «أيُّ الأماكن سيختارون ليدنسوها أولاً؟». وأجبت: «لا يهمني. هذا عمل الله».

عندما دخلنا القصبة سمعنا ثلاث طلقات مدفعية. نظر اليّ فرج مذعوراً.

ـ إنها إشارة لإخطار المعسكر.

التفتُّ إلى الشرق.

ـ الشمس ليست مخلصة: تخرج عندما يبدو للمسلمين الهلال الجديد.

ثم وبالقرب من غرفي، قلت للذين كانوا يتبعونني:

ـ على من يستطيع أن ينام قليلاً.

ـ هل تسمح لي بالبقاء معك؟. سألني فرج.

ـ وهل أنت بحاجة لذلك؟ فأشار مؤكداً بحزن ـ إذن ادخل.

كانت الغرفة باردة أوأنني كنت كذلك. أمرت بإشعال المجامر: واحدة منها كانت تطلق دخاناً خانقاً.

ـ ليخرجوها ـ طلبت ـ وليحرقوا بعض الخشب العطر.

وضع فرج يده فوق يدي:

ـ كيف تجد نفسك؟.

ـ لا أجد نفسي ولا أريد أن أجدها. لا تسألني شيئاً، أود أن أنام وأستيقظ عندما يبدأ نسيان كل هذا. أومن الأفضل ألاّ أستيقظ أبداً.

لم أستطع النوم. كنت أشد على أجفاني بقوة تمنعني من النوم، وعملت بقوة على إغلاق اذني في مواجهة ما كنت أخاف سماعه، فأسمع ألف ضجيج داخلي، وكأن رأسي مليئة بالرياح. شددت على فكيّ إلى حد أنني شعرت بالألم، كان جسمي مشدوداً مثل أوتار عود. لم أستطع النوم. اقترح علي فرج أن نذهب إلى الحمام. فلربما تفيدني الحرارة والمسادات. نظرت إليه طويلاً، طويلاً. وفجأة راح يبكي بحنق مثل طفل، وشدّني إلى صدره. ثم وبعد أن بلع دموعه ابتعد عني. حسدته لأنه يستطيع البكاء وأيضاً لأنه يستطيع التوقف عن البكاء.

في الظهيرة جاء هرناندو البياسي في طلبي. كان في غاية التأثر، ويحاول اخفاءه احتراساً، الأمر الذي كان يظهره أكثر تأثراً.

ـ لقد خلعوا الحداد يا مولاي.

ـ أي حداد؟ ـ سألت مرتبكاً.

ـ الذي كانوا يرتدونه حداداً على موت ولي عهد البرتغال.

ـ آه، هم، تقصدهم هم. حدادنا يبدأ اليوم.

لم أكن أرى، لم أكن أسمع شيئاً، وعبثاً كنت أحاول عكس ما كنت أحاوله عبثاً في الفراش. الآن، نعم، كنت أريد أن أرى وأسمع. لقد حمموني، عطروني، ألبسوني. على الباب كان بانتظاري قرابة خمسين فارساً، امتطيت حصاني أيضاً. لطخ الطين فردة جزمتي. وتقلص العالم

كله فجأة حتى صار هذه اللطخة من الطين.. لم أستطع أن أحيد بنظري عنها. أسير وأنظر اليها. كانت على الجلد الفاتح مثل خثارة حياة غريبة ومقرفة.

بعد أيام سلّمني هرناندو البياسي، الواثق من أنه يعيش يوماً مشهوداً ولا ينسى ـ كم أدفع أنا كي يكون منسياً ـ، صفحة تحتوي على أمر العرض الذي كان قد نظّمه الملك فرناندو. كان مفرطاً مثل عرض والدي ذاك، ولا أدري إذا كان لِبَثِّ الخوف أم علامة الفرح، لا أدري إذا كان كي يفرض نفسه على *المسلمين المتقلبين والثوريين والمتمردين*، أم ليستعرض مجده أمامنا. من جهتي لا أستطيع أن أتكلم عن هذا المجد، لم أره، لم أسمع آلاته، تهليلاته، ولا أناشيده. فحسب ما أقرأ في هذه الصفحة، مقدمة الجيش القشتالي يشكلها ـ ولا أستغرب ذلك ـ قائد آل دونثليز، إضافة إلى دوق البورقيق، بلتران ده لا كويبا، ذاك الذي كان عاشقاً لملكه والمشيرون. وكان في الطليعة رئيس رهبانية شنتيقب (سانتياغو) مع فرسان رهبانيته وبيته وأخوته، وفي الجناحين الأيمن والأيسر، على التوالي قوات دوق بلازنسيا ومدينة سالم. وفي الخلف كان يسير مركيز قادش مع أتباع غونثالو ميخيا. ويشكل الطابور الثالث قند (كونت) أورينيا ودون ألونسو ده أغيلار. الرابع أتباع قمّص أشبيلية وبيدرو ده بيرة وقائد مورون. الخامس دوق مدينة شذونة. السادس رئيس رهبانية قلعة رباح. السابع قند قبرة. الثامن الكردينال دون بيدروغونثالث ده مندوزه. التاسع دوق ناجرة. العاشر قند بينابينته، وقائد اتيينزا ودون البارو ده بازان. أما الطابور الملكي فتشكله مجموعة معززة بالرماح والمشاة الجليقيين والأشتوريين والبيزكائيين والجبليين وعلى جناحيه فرق من أشبيلية وقرطبة. كان موكب الشرطة مؤلفاً من أربعمئة فارس وراجل من بلاط جلالتهما. أما الحراسة وحراسة الأحمال فقد كانت على عاتق مئتي شريشي ومجموعة دعم من المشاة. أخيراً في مؤخرة الجيش كان فرانشسكوده بوباديلا مع أهل جيان وأندوجار ودييغو لوبيز ده أيالا، مع أهل أوبيدا وبياسة. أما المدفعية التي دخلت غرناطة من طريق مختلفة، فكانت تسير يحميها عدد كبير من سرايا الخيالة والمشاة ويقودها رئيس رهبانية القنطرة مارين ألونسو قند فرية ، وقائد سورية هيرناوأي لوّب هورتادو.

تواجد هناك في ذلك اليوم كل المتحدرين ممن قاتلوا فيما دعي سوءاً بالاستعادة وكانوا في ذروتهم.

لم أعرف أين كنا ذاهبين. لا أحد في الشوارع. سألت نفسي: أين الجميع؟ أين ذهبوا؟ أعتقد الآن أنهم على الأسوار يتأملون المشهد وربما كانت غايتهم الوحيدة أن يسلوا. كنت جزءاً منه. بعد فترة من المسير لاأستطيع أن أقول إلى متى، انتبهت إلى أن دون غونثالو فرناندث القرطبي كان يمضي إلى جانبي، لم أقدر على تحيته. إلى جانب رملة شينل رأيت أمام مربطٍ كنت أحب رؤيته في طفولتي عندما كنا نذهب إلى الحامة لأنه كان دليلاً على أننا خرجنا من غرناطة ـ كان بشكل من الأشكال مثل تدريب على هذا اليوم ـ أقول رأيت مجموعة من الفرسان، توجهنا إليها.

ـ ها هوذا الملك، يا مولاي ـ كان هذا صوت دون غونثالو.

ـ شكراً ـ قلت له. لكنني لم أميزه: لاحظ دون غونثالو ذلك.

ـ الذي في الوسط ـ أشار إليه بإصبعه ـ. لا تُقَبِّلْ يده.

آنذاك قررت أن أنظر إليه، كان وجهه النقيب متوتراً وكان ينظر إلي أيضاً. تقدمت. سحبت قدماً من الركاب. «إنه ملطخ بالطين ـ قلت لنفسي ـ هذه اللطخة من الطين....» رفعت يدي اليمنى إلى رأسي واليسرى على السرج. لم أعرف ماذا كان يعني ذلك، ربما أن أترجل. ترددت. أدرت عينيّ. تقدم الملك بيدٍ ممدودة، كما لوليمنعني. أيضاً لم أدري ماذا كان يعني، لأنني عندما هممت أن آخذها سحبها. قلت لنفسي: «ربما فهم أنني أطلبها منه كي أقبلها له. لا قالوا لي لا.» مددت له المفاتيح التي أعطاها لي أحد أتباعي، لا أدري من هو.

ـ تلك هي مفاتيح فردوسكم. الله يحبكم كثيراً ـ قلت لا أدري لماذا أو ما إذا كان قد فهم ما قلت. أعتقد أنه فهم، لأن هرناندو البياسي ترجم له ثم ترجم لي:

ـ لا تشك بأننا لن نفي بما وعدنا به،ولا يفتّ من عزيمتكم مصابكم.

بينما كنت أصغي للبياسي كنت أرقب كيف لم يوفق الملك في إخفاء ابتهاجه، ومرة أخرى لطخة الطين على فردة جزمتي.

ـ أعطوا الخاتم للقند ـ أملى عليّ دون غونثالو.

ـ إلى أي قند؟ ـ سألته.

دلني عليه بعينيه. قند تنديلة، الذي كان ينتظر متشامخاً. ناولته الخاتم. لم أقل شيئاً. رأيت فمه الذي بلا شفتين. تمتم هرناندو البياسي ببعض الكلمات. فهمت بعدها أنها كانت: « بهذا الخاتم حكمتُ غرناطة.»

أسعدكم الله أكثر مني. يؤكد البياسي بأنني قلت ذلك لكنني لا أستطيع تذكره.

تابعنا خبباً فترة طويلة إلى أن وصلنا إلى هضبة عالية في أرميلة التي تشرف على المدينة وعلى سلسلة الجبال. استدار بي الجواد جامحاً في منعطف فرأيتها. بدا وكأن المدينة قد تنازلت أيضاً. ظهرت قصور الحمراء لا كما ترى من غرناطة في القمة، وإنما مشكلة جزءاً من كل أعلى منها بكثير، أبيض وأكثر شموخاً من تنديلة. «هكذا يحدث للملوك عندما يتعثرون بآخرين أقوى منهم.»

ـ الملكة، يا مولاي ـ نبهني دون غونثالو ـ بين الكردينال وولي العهد.

رفعت رأسي فوجدتها في الحال. كان يوجد وراءها نساء أخريات. تولد عندي انطباع بأن إحدى السيدات كانت معروفة لي تماماً، لكنني لم أتوقف عندها إلا لثانية. سلمت على الملكة كما سلمت على زوجها. «سأنتهي، أخيراً، إلى إتقان هذه الحركات غير المفهومة». كان هرناندوالبياسي إلى جانبي يكلمني:

ـ تقول جلالتها بأنكم ستلقون دائماً صداقتها ومساعدتها طالما أنكم لن تتخطوا حدود ما تم التوقيع عليه.

ـ ليس دائماً ـ قلت بابتسامة مرة.

ـ ويقول لكم الكردينال بأن أيام الإنسان قصيرة ومليئة بالأحزان وأن الله هوالذي يعطي وهو الذي يأخذ، نبارك مشيئته القدسية.

ـ الأسهل هوأن نباركها عندما يعطي. لكن لا تترجمها له ـ تمتمت، تململ جوادي وأنا تململت أيضاً ـ لنعد. أين ولدي؟ ـ بدأت حركة باتجاه دون غونثالو وصرخت به تقريباً ـ: أنا وفيت. أريد أن أرى ابني.

تبادل دون غونثالوالنظر مع فارس كان يمضي بمحاذاته، عرفت فيما بعد أنه دون رودريغوده أوليوا.

ـ إنه في فسطاط مدينة الإيمان المقدس يا مولاي. سنذهب الآن في طلبه.

ـ بسرعة. أُشبِعْتُ تشريفات. بالنسبة لكم يمكن أن تكون تعميداً أوعرساً، بالنسبة لي هي جنازة مريعة.

اخترت من جماعتي فرجاً وبشيراً الذي كان يجذبني إيجازه وذكاء عينيه في كل مرة أكثر. وأمرت الآخرين بالعودة إلى المدينة. انطلقنا خبباً

عبر أقصر الطرق. كان هرناندو البياسي يتأخر ونضطر لأن نخفف من سيرنا. وسط الطريق كان يجري جدول زاد الثلج غزارته. لم تبلغ المياه صدر الخيول. رحت أهمز جوادي.

ـ مولاي! ـ هتف بشير ـ مولاي! اقترب مني هوفرج وحمياني. أرادا أن يطبقا العرف السياسي القاضي بحماية ركابي السلطان بأركبتهما.

ـ لقد انتهى هذا. أشكركما، لكن هذا انتهى.

كان دون غونثالوقد أصبح بموازاتنا.

ـ ستبقى بالنسبة لنا السلطان دائماً ـ قال فرج.

ـ إذن لنذهب لتحرير ولي العهد ـ تمتمت وأنا أدخل في الماء.

تنحى دون غونثالوجانباً ولدى مروري حنى رأسه.

حين أوشكنا أن ندخل في المحيط الملكي كان الجو قد تحول كله تقريباً إلى دوي.ذعرنا. ابتسم دون غونثالو قليلاً وأشار إلى الخلف منا وطمأننا. كان ذلك آخر احتفال بإعلان الملكين النصرانيين كسيدين جديدين لغرناطة: تحية مدوية من كل أصناف الأسلحة النارية وآلات الحرب، كانت تختلط المنجنيقات والمدفعية مع الأبواق والبنادق مع النفير، الطبنجات مع الطبول والطبلات. كان يبدووكأن الأرض تهتز وأنا ـ لا أقول إن ذلك لم يحدث فقد كان لها مبرراتها ـ أيضاً كنت أهتزُّ، لا أدري ما إذا كان للأسباب نفسها.

لم أتمعن في المعسكر، يبدوأن فيه ساحة مركزية، يتفرع منها أربعة شوارع رئيسية مستقيمة. وكانت هناك أخرى أصغر منها تتقاطع معها.

ـ الكردينال مندوزا يقدم لكم غرفته ـ قال لي رودريغوده أوليوا.

قادوني إلى فسطاط كبير موجود في الساحة إلى جانب آخر ذي مظهر ثري، افترضت أنه للملكين. اختفى النقباء النصارى. لم أحتمل الجلوس منتظراً، فرحت أتحرك دون توقف في تلك الخيمة الكبيرة، أمام شخص قدموه لي على أنه أخُ الكردينال، الذي كلفه بحراستي. « حراستي؟». من خلال تقاسيم هرناندو البياسي وفرج ـ تقاسيم بشير كانت أكثر كتامة ـ خلصت إلى أن اضطرابَ مِزاجي كان بادياً تماماً. حاولت أن أكبح نفسي، لكنني بالتأكيد لم أنجح. ولكي أداري ذلك تظاهرت بأنني أتسلى بالنظر إلى المفروشات: مذبح محمول جميل جداً مع صور من حياة يسوع المسيح، ثريات، وشمعدانات فضية مغطسة بالذهب،

كرسي ركوع من ذهب وأرجوان. لا. لا شيء من ذلك كان يهمني. كنت أريد أن أسترجع ولدي، أن آخذ جميع عائلتي وأخرج من غرناطة. تأخر دون غونثالوودون رودريغو. وعندما عاد، جاء في حالة من التأثر جعلني أتوقّع شراً.

ـ مولاي ـ مولاي ـ قال لي دون غونثالو بنبرة مرتبكة ـ جاء أمر في غير مكانه، أوأمر معاكس. لا تنزعجوا، لم يحدث شيء لا يمكن تفاديه. إن دون مارتين ده ألاركون قد أخذ ولدكم من مقلين إلى القصبة. من المفترض أن يكون الآن في حضن أمه.

لم أُعَلِّق. خفت ما هوأسوأ. كانت مسألة ساعة أخرى زيادة.

دخل إلى الغرفة في تلك اللحظة ابن كماشة والمالح. جاءا بوجهين كانا بالنسبة لهما طارئين، كانا على وشك أن يضحكاني. قبلا بندم وطاعة زائفين ذراعي ويدي. لم أسألهما لماذا لم يعودا في الليلة الفائتة إلى المدينة. كنت أعرف لماذا لم يهتموا باستعادة ابني أحمد. ومع ذلك سارعا ليقدما لي تفسيراً بائساً.

ـ رَجُوْنَا، يا مولاي ـ ابن كماشة هوالذي تكلم ـ أن نبقى إلى جانب الرهائن الذين جئنا بهم يوم البارحة من غرناطة. لأن مساعدتنا برأي جلالتهما ستعزز أمنهم. ـ ثم تلعثم وكأنه يتردد بقول ما تبقى أوفي كيفية قوله. ترقبت ـ قائد هذا المعسكر يتوسل إليكم أن تبقوا فيه، في غرفة الكردينال هذه، حيث هناك أمر بألا ينقصكم شيء، إلى أن يقوم أتباعكم... ـ تلعثم آخر ـ حتى يقوم رعاياكم في غرناطة بتسليم أسلحتهم للمحتلين...

انتابتني فجأة برودة شديدة. جلست.

ـ ليسوا محتلين، يا ابن كماشة. أنت من يجب أن يعرف ذلك أكثر من أيّ شخص آخر ـ التفت إلى دون رودريغوـ. ما الأسلحة التي يجب أن تسلم؟

ـ كلها ـ أجابني ـ الهجومية منها والدفاعية على حد سواء. ويجب أن يقوموا بذلك فرداً فرداً، وهذا ما سيمط الإجراءات. أما البنادق الطويلة وطلقات البارود فيسلمها فيما بعد قائد المدينة.

ـ في شروط الاستسلام ـ تكلمت ببطء ـ وباستثناء طلقات البارود هذه لا يشترط أن يأخذ صاحبا الجلالة من الغرناطيين أسلحتهم، كما لن يطلب منهم تسليمها. لا أسلحتهم ولا جيادهم ولا أي شيء آخر. لا الآن ولا في أي زمن وإلى أبد الآبدين ـ خيم صمت ـ أليس كذلك يا مالح؟

ـ حسب ما أتذكر، هوكذلك يا مولاي.

تدخل دون غونثالو:

ـ ربما قدرا أن من الحكمة اتخاذ مثل هذا القرار لضمان أمن المدينة والإمساك بها في هذه الأيام...

ـ حتى ولوكان كذلك، يجب أن أُستشار. السرعة التي بدأوا يخرجون بها على الشروط مفرطة. حتى أنا، المعتاد على الخيانات، تذهلني.

ولكي يفرغ أخ الكردينال شحنة التوتر قدم لنا غداء. عزمت أن آكل شيئاً، ليس إلا من أجل أن ألبي طلب فرج اللطيف والأخرس لكن دون جدوى، وبينما كنت أمضغ إلى ما لانهاية اكتشفت أنني أفكر بالمكان الذي يمكن لرعاياي أن يخبئوا فيه أسلحتهم. « ليسوا رعاياي». ما أسهل أن يخبئوها في بيوتهم، إذ لا أحد يستطيع أن يدخلها دون موافقة قضاتنا، وما أسهل أن يجدوا كهفاً مشتركاً، يجهله النصارى، حيث يمكن تجميع مخزنٍ متزايد منها... احتدمت في داخلي، وكان يأكلني الندم مثل السوس بل وكُنت أسمع ضجيج هذا السوس.«إن من يتعاهد مع هذين الملكين كمن يتعاهد مع الهواء».

كان النور يتراجع، فأشعلوا سُرُجاً. ودعنا دون غونثالو ودون رودريغو: إذا سمحتُ لهما، فعندهما عمل.

ـ هل أنا الرهينة لتسليم الأسلحة أيها الفارسان،أم أنه يمنع حضوري إلى غرناطة كي لا يثور رعاياي إذا رأوني؟ ألم أبرهن عن نواياي الطيبة أكثر من اللازم؟

ـ لا تأخذكم الريبة يا مولاي فلا أنا ولا السيد رودريغو متورطان في هذه القضية. تلقينا الخبر منه في الوقت نفسه الذي تلقيتموه أنتم.

كان يلاحظ الانزعاج الذي سببه له الأمر في صوته، في عينيه وفي يديه ولم أبغِ أن أزيده بشكواي. سمحت لهما بالانسحاب. كان أخ الكردينال البدين والأبله يمشي مثل بطة في الخيمة.

ـ أنتم تستطيعون أن تنسحبوا إذا كانت كذلك رغبتكم ـ قلت له ففعل.

كان الزمن قد توقف ومع ذلك فقد حل الليل. كان هرناندو البياسي وبشير يلعبان الشطرنج على رقعة من الآبنوس والعاج موضوعة على طيفور. « كل شيء كان إسلامياً باستثناء المذبح. كم سيلاقون من الصعوبة حتى يمحونا». لزمنا أنا وفرج الصمت. إذا نظرت إليه أكتشف

أنه ينظر إلي فيحيد بعينيه عني. ذكرني كثيراً بكلبي *مرنان* الذي ضربته بنعومة على رأسه. هزمني التعب، أردت أن أستلقي منفرداً. حملني أحد الخدم خلف بعض الستائر الثقيلة إلى حجرة فيها سرير واسع. «مع من ينام هذا الكردينال الذي لا بد أن خطيئاته (أولاده) في غاية الجمال؟» استلقيت متنهداً. أغمضت أجفاني التي كانت من رصاص. كنت على وشك أن أغفو...

لم يحدث ذلك. على العكس، فقد اكتسبت الأشباح تجسيداً وصوتاً وعداوة أكبر. كنت أتصور ما كان يحدث في المدينة، وأتصور ما هوأسوأ، أي الحقيقة. بعضهم وأمام انعدام الحماية المطلق، الذي كان يفترضه تسليمهم لأسلحتهم، لا بد أنهم هربوا إلى الجبال، حيث هم مُقتَلَعُون، مُجرَّدون ومهزومون بكل المعاني، بين الثلج يلعنون اسمي. وآخرون في المدينة يعانون من النكوثات ـ التي لن أدري بها ـ بالعهود الموقعة: جنود في بيوتهم ينظرون إلى نسائهم بعيون شبقة، ضباط يُستَقبَلون من أعيان مرتبكين ومرتعشين، قاعات الحمراء مترعة بالجنود الثملين من الخمر والاثارة اللجلاجة، شوارع مليئة بالجيوش الجموحة النفورة، والكردينال، الذي أَشغُلُ الآن حجرته بالقوة، يرتل أناشيد لإلهٍ آخر، سيثير استنكار جدراننا ويهزّالمياه في بركنا، وسترتفع حتى المقرنصات فتثيرها ذعراً وحزناً، جياد نصرانية تصهل في اصطبلاتنا، هذا إذا أقاموا معالفها في اصطبلاتنا وليس في بيوتنا...وأولادي؟ ومريمة؟ هل ستصل الوقاحة بالنصارى إلى حد أنهم ما عادوا يتحملون ولا حتى خوفي؟ شعرت بدافع عنيف للهرب من هناك لأقوم على رأس أهلي في غرناطة أوأن آمر فرجاً بأن يخبّ إلى غرناطة وينقل من فم إلى فم حكماً بالقتل على كل نصراني يصادفونه، وبنحر رؤوس السكارى، وخنق النيام وطعن الحراس في ظهورهم. كان العالم ينهار فوقي وأرى نفسي أترنح وأعبر على غير هدى في شوارع مظلمة وغامضة بأناس وجوههم مرتبكة ومتشربة بالدم وبنساء يصرخن شاتمات لي وبين أذرعهن أطفال ميتون، بجنود فقدوا أرجلهم أوأذرعهم، أويسيرون منتصبين وقورين يحملون رؤوسهم في أيديهم... كان يؤلمني صليل الأسلحة، التي تسقط متكدسة بعضها فوق بعض وسط ساحة أوتحت شجرة ميس سوداء ثمارها كرات عيون بلا وجوه، كأنها ضربات سيف إيقاعية ووحشية. صرخت. صرخت... كان فرج إلى جانبي.

ـ رأيتَ كابوساً ـ كنت أتعرق وأرتعش ومن حنجرتي يخرج أنين أجشّ ـ هل ترغب بانتظار النهار كي تعود إلى القصبة؟

ـ وهل أستطيع العودة؟ ـ سألت بلهفة.

ـ إذا أردت، بلى.

ـ نذهب بأسرع وقت ممكن.

كانت عربات الحرب والمدفعية والبغال التي تنقل العتاد والمؤن تعيق الطريق إلى غرناطة. كان يحرسنا بعض فرسان النصارى ونتقدم بصعوبة كبيرة. تأخرنا أكثر مما توقعنا. بدا الليل صافياً، والبرد يصقل السماء ويلمّع النجوم، ريح عالية تكنس لفافات الغيوم الأخيرة، الخابّة بسرعة أكبر منا. دخلنا المدينة أخيراً من باب العقبة. كانت أنوار الحمراء مشتعلة، ربما جهد نسيم المخلص لها في الحفاظ عليها وفي استضافة القوات والسادة. وربما رتب الثقيل قند تنديلة أموره في قصر يوسف. ما هم؟ عندما تضغط الحياة لتبدأ فيجب أن يتم ذلك بأسرع وقت ممكن.

أخبروني في القصبة بأن ابني أحمد قد جاء به دون مارتين ده ألاركون وبأنه ينام في الطابق الأعلى، في غرفة أخيه الصغير نفسها. خلعت حذائي عند الدرج. وبشير الذي يمارس مراسمه مرة أخرى، أخذه مني.

ـ عفواً يا مولاي، لا يوجد هنا من هوأعلى شأناً. قصدي أن أقدم القليل مما عندي منه.

كنت قاب قوسين أوأدنى من الانفجار بالبكاء. أخذت جزمتي من يديه بلطف وتركتها على الأرض.

ـ انس من الآن فصاعداً، يا صديقي بشير، المراسم السلطانية. بما أنه يجب أن نعتاد على عادات أكثر قساوة، يجب البدء بابعاد الأسهل منها.

دخلت غرفة نوم ولديّ. عجينة غير متوقعة قفزت فوقي ودفعتني بقوة. كان ذلك هوالكلب *مرنان* يحرك ذيله بفرح متواصل، يقفز من حولي كما لوكنت بالنسبة له حجر الكعبة. يجري من الفراش إليّ ومني إلى الفراش. اقتربت. كان الطفلان نائمين بدعة، إحدى يدي الصغير على صدر الكبير. كانا مختلفين جداً ومتشابهين في آنٍ معاً. وتحت الضوء الذي كان يمسك به فرج كانت أقواس أجفانهما تظلّل خدودهما الصقيلة والوردية، شفاهما نصف مفتوحة وكنت أسمع تنفسهما المنتظم. يدا أحمد اللتان ما تزالان متسختين ورشيقتين، ضائعتان بين ملاحف الفراش، في

اليسرى يوجد جرح صغير: عوسج ربما أو خنجر صغير من تلك التي يُسحر بها الأطفال. كانت تلك اليد الصغيرة شاهداً على أن العالم ينهار: العالم الذي كان عليها أن تحكمه. أمسكتها كي أغطيها بالملحفة، قبل ذلك قبلتها وربما ضغطت عليها دونما إرادة مني. استيقظ ابني. نظر اليَّ بعينين كدرتين من النوم، كان فيهما خوف. لم يتعرفني.ابتسمت له، لكن الخوف بقي يدوّرهما.

ـ أنا أبوك يا أحمد ـ قلت له.

كنت سأداعب عنقه. تجنب المداعبة طارحاً رأسه للخلف. أضفى عليه هذا الموقف مظهر تحد.

ـ ولماذا أيقظتني؟ ـ كانت نبرته وقحة.

أخذني فرج من ذراعي وأخرجني من الغرفة.

ـ إنك بحاجة للراحة ـ داعب عنقي بحنان ـ لا تستطيع الآن فعل أي شيء غير أن ترتاح.

كان *هرنان* ما يزال يحرك ذيله لكن باعتدال الآن وخرج من الغرفة خلفي. وضعت يدي على رأسه.

سقطت في النوم الحالم مثل حجر في بئر. كان الوقت ظهيرة عندما خرجت منه.

أبلغوني في الحال بالتعيينات التي قام بها الملك فرناندولحكم المدينة: القوات، المقدمون، القضاة المحركون أوالبوابون. كل شيء كان مقرراً مسبقاً: كان قد فاض عنهم الوقت. وأكدت التعيينات ما تنبأت به: أسماء من راحوا يتخلفون عن اجتماعات جنة العريف كانت تظهر في اللائحة، والبقيني في أفضل المناصب إيراداً هو والشرت وكل أولئك الذين تعاونوا بموافقتي أو بدونها مع المالح أوابن كماشة. كل الناس الضروريين لتسيير الشؤون العادية قد تم انتقاؤهم. لقد كان دون غونثالوفرناندث القرطبي على حق: ميزتي الرئيسية هي أنني لم أكن دقيقاً.

كان فرج وبشير، كما لوأنهم يسخرون منا، من بين المرشحين لحكم المدينة وكلاهما توسلني وهوغير مصدق ترشيحه أن آخذه معي حين أغيب وبالتالي أن يكون تحت أمرتي. كانت اللهفة في عيني فرج من

الود وبقية المحيط من العدوانية بحيث أنني تأخرت لحظة في إدراك أنني ضروري لأحد ما.

وكان وكيل المدينة والمحتسبون ـ قالوا لي ـ سيُختارون في أول اجتماع للبلدية خلال هذا الأسبوع، والأمناء أو رؤساء النقابات شوهدوا في مدينة الإيمان المقدس قبل أيام من تسليم المدينة وقد بدأوا مهامهم، وكان الملك فرناندو قد حل بضربة ريشة مسألة الوظائف، التي طالما سببت لنا الاستياءات والمواجهات والانزعاجات التي كان حلها مضنياً.

ـ جميع النقابات؟ ـ سألت مستغرباً.

ـ حتى نقابة الدلالين وأمينهم هومحمد الأزرقي. لا شك أنه مضى عليهم أشهر وهم يعدون البدائل.

ـ يسعدني ذلك، فبهذا الشكل لن تشعر غرناطة بفقداني. تلك هي المسألة.

دفقة من الحزن صعدت من قلبي.

طلبت رؤية والدتي. جاءتني خادمة بجواب أنها لم تكن مستعدة وعندما تتحسن ستطلبني بنفسها. كان واضحاً في تلك اللحظة أنها ترفض استقبالي.

بالمقابل ظهرت مريمة وبعض الأزهار في يدها وكأن شيئاً خاصاً لم يحدث. كانت مبتسمة وفي غاية الجمال.

ـ هل رأيت أحمد؟ ـ اتسعت ابتسامتها.

ـ لا ـ كذبتُ.

ـ لقد كبر كثيراً. كم هوجميل. إنه في غاية الجمال ويشبهك الآن أكثر من السابق بكثير. اذهب لرؤيته بأسرع ما تستطيع. ـ اقتربت مني كثيراً ـ متى سنخرج من غرناطة؟

ـ نظرت إليها باستغراب وتوقف. «تراها تتظاهر؟» ـ سألت نفسي ـ هل كانت تعمل أمام كل هذا الفشل المريع على تشجيعي أم أنها كانت فعلاً سعيدة لمغادرة وكر الفشل والحسد والغدر هذا، كي تجد نفسها مرة أخرى وحيدة معي كما في سجن برقونة؟« مهما يكن ـ أجبت نفسي ـ إنها تحبني. وتفعل ذلك لأنها تحبني.» قبّلتها. ألقت بذراعيها على عنقي ونظرت إليّ بعينين مطلقتي الصراحة غير قادرة على الكذب.

ـ أحبك كما لم أحبك من قبل، يا أبا عبد الله. يبدولي مثل الكذب لكنه كذلك.

أثبت هذا لي شيئاً لم أكن واثقاً منه: فعلاً إن السعادة التامة للإنسان ليست موجودة، لكن التعاسة التامة غير موجودة أيضاً. التجأت إلى هذا التفكير.

كنت وأسرتي أقل تبصراً من الملكين النصرانيين بكثير، وكان من الضروري نظراً للظروف أن نقرر ما المناسب أكثر لمريمة ولأمي ولأختي فيما يتعلق بإرثهن: بساتينهن وحصصهن في المزارع، الطواحين، الحمامات وبيوت الاستجمام، سواء منها الموجودة في غرناطة أو متريل وجبل البشرات.

رأيت أن بيعها يعني القطيعة مع كل حياتنا لكنها أيضاً تعني التحرر، الذي سيسمح لنا بأن نبدأ، بحرية أكبر، حياة أخرى جديدة تماماً، دون أن يكون علينا أن نفوض أحداً للتحصيل، والحقوق التي إذا لم يكن الإنسان على رأسها تتناقص باستمرار. ربما لم تكن اللحظة سيئة للبيع لأن كثيراً من النبلاء النصارى يتطلعون إلى الإقامة في غرناطة، ومع ذلك فمن المحتمل أن يحولها الوضع المتقلقل والمتردي إلى أسوأ لحظة. عرضت الأمر على مريمة، هي كانت تفضل أن يستمر فيها الأشخاص أنفسهم الذين مايزالون يريدونها.

ـ على كل الأحوال ـ أضافت ـ ليكن أبناؤنا من يبيعون، إذا كانت تلك رغبتهم حين تحين الساعة. يؤلمني أن أتركهم بلا أي شيء مني في بلاد كانت كلها لهم.

لم تترك أي أثر للملامة تظهر في صوتها: لاشيء غير البساطة والطبيعية. كانت تبتسم بشكل ساحر، انتهزت الفرصة:

ـ ابنُك أحمد لا يحبني، أنا واثق من أنه يدين ما قمت به.

ـ عمره إحدى عشر سنة، يا أبا عبد الله. لم يتحدث معه أحد على علم بالقضية. لا أحد في عمره ينتظر أباً لا يكون بطلاً: فالحب يختلط بالإعجاب.

ـ أنت لم تشعري قط بالخيبة من أبيك وكذلك أنا في طفولتي..

ـ هناك بطولات واضحة، يا أبا عبد الله، وبطولتك خفية صعبة الاكتشاف على أي كان، فكيف بها على طفل، سوف يكتشفها شيئاً فشيئاً. يجب ألا يدرك هذا. سنبقى الآن لوحدنا كأسرة عادية تجتمع وليس لها من

عمل غير نفسها. أضمن لك أن أحمد يحبك أكثر مني ولذلك فهو يطالبك بأكثر مما يطالبني ورد فعله برهان على ذلك.

والدتي التي كانت ما تزال مريضة، كما يبدو، أرسلت إلي رسالة لم تتركني دون مفاجأة: أرح بالك بالنسبة لكل ما يتعلق بي وبأختك، ما عندك من أرق يفيض عنك. كانتا قد اتخذتا القرارات المناسبة فيما يتعلق بثروتهما العقارية. بل إن أمي - أضافت الخادمة - كانت قد طلبت من الملكين صكاً منفصلاً بالشروط المتعلقة بها وحصلت عليه. هذه النسخة الموقَّعة من جلالتهما كانت تحمل تاريخ 15 كانون الأول أي قبل التسليم بأسبوعين. ولم أدر ما إذا كنت أحزن لعدم ثقتها بي أم أفرح للراحة التي كانت تمثلها لي. شيء واحد لم يكن بالإمكان نكرانه: إنَّ أمي ستبقى بلا شك المرأة الحرة والمستقلة التي كانتها حتى هذه الساعة.

جميع أفراد أسرتي كانوا يلجأون إلي سواء في تفسير أو فهم الشروط المتفق عليها في حل المشكلات المترتبة عن نفينا والتي لم تكن بسيطة. يلجأون إلي، أنا الأقل مهارة وفهماً، لأنني انغمست كلياً في مسائل أخرى أقل شخصية. هذا ما كان يجعلني أؤجل خروجي من غرناطة ويضايقني في كل يوم أكثر.

جاؤوني بعد أيام في ليلة عاصفة بخبر أن الأمير يحيى سيعين حاكماً أعلى لغرناطة بدلاً من ابن كماشة، ونتيجة لتوليه هذا المنصب سيكون من نصيبه السهر على الشروط. لم أستطع عندما عرفت ذلك إلا أن أبتسم. طلب بعد أيام مقابلتي. رفضت لأسباب منها تقديري بأنه لم يكن يرغب حقيقة باستقبالي له، وأن طلبه جاء استجابة لمتطلبات التشريفات المحصنة في الإمارة المنهارة. هوالذي كان قد أصدر حكم موت أخي يوسف، هوالذي خان وباع *الزغل* وشعبي ووقف ضدنا في خدمة العدو. أي معنىً إذن للقائنا، بعد كل هذا الزمن وكل تلك المرارات، ما لم يكن لأقتص منه بيدي؟ كان أفضل انتقام أن أتركه حياً للملكين.

أقاموا في إحدى قاعات الحمراء - بما أنني لم أر نسيم ثانية، لا أدري تماماً في أي منها. لكن أحداً ما وضح لي بأنها قاعة الشورى - كنيسة نصرانية مؤقتة بانتظار قرارات لاحقة. تخيلت ما هي وكان ضيقي

يلح علي للذهاب. واحدة من أولى الشعائر الدينية التي اقيمت فيها كانت تعميد كاد ونصر، أخويّ من أبي وَلَدِيّ ثريا. استعادت ـ هي التي اعترفت بأنها أجبرت على الارتداد عن دينها ـ اسمها إيسابل ده سوليس. وسمي ولداها فرناندو وخوان، لأن اشبينيهما في التعميد كانا الملك وولي العهد.

كنت أتابع كل هذه التفاصيل ولقب أمراء غرناطة عندما انتبهت إلى أن تلك السيدة التي كانت مع الملكة، وبدا لي وجهها مألوفاً يوم التسليم إنّما كانت، دون أي شك، ثُريا. لم أعرفها. فقد ارتدت لباس النبيلات في قشتالة وسرحت شعرها بشكل مختلف. لكنها حضرت في ذاكرتي في تلك اللحظة، وكأنني عدت لرؤيتها بهيئتها المتحدية والمتغطرسة والاحتقار فائق الوصف الذي كانت تتأملني به. أيضاً ابتسمت رغماً عني، وأسأل نفسي لماذا تجعلني تفاهات البشر الصغيرة أبتسم دائماً؟ ألست، يا ترى، نموذجاً منها؟

كنا نتناول طعام الغداء، بشكل غير رسمي، الأمر الذي لم يكن مزعجاً تماماً وأضفى على بعض الأفعال طابع العرضية، عندما وصلت رسالة من قند تنديلة. كان القند، وكما افترضت، يقيم في قصري في الحمراء، *لأنه الأفضل جاهزية والأكثر قابلية للسكن*، دون أيِّ سبب آخر بحسب ما وضَّح. قطعت علينا رسالته الغداء. يخبرني في الرسالة، إلى جانب عبارات اللباقة، التي لم تكن مفرطة، بأنه يتمنى عليَّ أن أختصر إقامتي في غرناطة قدر ما أستطيع. لم يكن يخفى على نباهتي أنه كان يعير أذناً صاغية للتفسيرات السيئة، فوجودي كان يهيج المشاعر النائمة في نفوس المواطنين، ويُخرِّب الحل المنطقي لنقل السلطات، ويعيق استقرار الاجراءات التي يريد الملكان الإسراع بها. تجرَّأ القند باسم ملكيه، هذا إذا لم أكن أرى غير ذلك، الأمر الذي سيزعجهما طبعاً، أن يقترح عليَّ بأنَّ قرية أندراش، مركز الاقليم الذي يحمل هذا الاسم هي المكان المثالي لخلوتي مع جميع أفراد أسرتي. جميعهم ـ وضع ملاحظة ـ *باستثناء الأميرين أحمد ويوسف، اللذين قرر الملكان أن يبقيا عليهما في مقلين في* حضانة غريمي المعروف مارتين ده ألاركون. بالتأكيد لم يكن كثيراً عليَّ أن أفهم أن ولديَّ لن يكونا رهينتين ـ هذا لن يكون بأي شكل من الأشكال ـ وإنما تخفيفاً للريبة التي يمكن لجلالتهما أن يشعرا بها أمام إمكانية انتفاضة أهل *هذا البلد* التي لم يشكا باحتمالها.

ـ لا أستطيع أن أفهم، لأنني لا أرى الأمر واضحاً ـ قلت ـ إذا كنت

سأذهب من غرناطة فيجب أن يرافقني ولداي. هذا ما يعنيه الرسول بقوله *هذا البلد*.

ـ معناه أوسع بكثير، كما يبدو ـ وضَّح لي الرسول ـ أنا أعتقد أنه يعني جميع أملاك جلالتهما.

أجهشت مريمة. قاومت النظر اليها.

لم يجد نفعاً أن مريمة حاولت مقابلة الملكة إيسابل: لم تمنحها المقابلة. بحثت من جهتي عن دون غونثالو في جميع أنحاء غرناطة، وبعد استقصاءات كثيرة، أوحي إليَّ بأنه ولعدم رضاه عن المنحى الذي اتخذته الأشياء، انسحب إلى مقره في أليورة. حاولت الوصول إليه بخروجي متخفياً من القصبة فاكتُشِفْت، أظن بوشاية من الحارس نفسه الذي رشوته. طُلِبَ مني أن أغادر غرناطة خلال اليومين اللاحقين، وألا أظهر خلالهما خارج مقري، وُضِعَ على أبوابها حراسة متيقظة. عدت ورشوت بعض الفرسان النصرانيين ـ لحسن الحظ أنهم كانوا ناساً مرتشين يفون بوعودهم، على العكس من الحارس، وهم موجودون في كل مكان، وليس بيننا فقط ـ حمّلتهم رسالة إلى دون غونثالو. عرضت له فيها الحالة التي تكدرنا وذكرته بألمٍ مطلقٍ بعروضه.

كلُّ شيء كانَ يقول لنا وداعاً. انطلقنا من غرناطة يوم الخامس والعشرين من كانون الثاني. لم يكن قد بزغ الفجر بعد.

في الليلة السابقة ودَّعنا ولدينا مريمة وأنا. جاء دون مارتين ده ألاركون لأخذهما. لن أحاول أن أصف ما كنا نشعر به. يقيناً أنه ما من تضحية، وما من شيءٍ مقبولٍ بألم، ولا حتى تنازلاتنا، كانت مجدية ولا في الحد الأدنى، جعلنا نعضّ عليَّ شفاهنا كي لا ننفجر بالنحيب أمام الطفلين. كلاهما كان ينظر إلينا دون أن يفهم لماذا كنا ننفصل. عبثاً حاولت أن أشرح للكبير التعاسة التي تلف، أحياناً، الأسر الملكية وكيف أن الامتيازات توازن دائماً بالواجبات القاسية.

ـ أعرف هذا ـ صَفَعني ناظراً إلي باستفزاز.

من جهة شعرت بالاعتزاز به ومن جهة أخرى بأنني جرحت، لعجزي عن توضيح أمور كثيرة له، ربما كان من المحال توضيحها لمن لا يتخيلها من تلقاء نفسه. خطر لي أن أوكل إليه أمر رعاية *مرنان* كعربون على أن الثلاثة سيكونون معنا قريباً وتركناهم يغادروا إلى مقلين،

مكسوري الروح، بين يدي رئيس الرهبانية العسكرية، الذي يحرسهم الآن كما حرسني من قبل.

قضيت بقية النهار أمام نافذة أتأمل السبيكة يزينها إكليل الحمراء العجيب. على برج التكريمات كان يرتفع صليب، وعلى برج قمارش رايات شنتيقب والراية الملكية. قالوا لي بأن الصليب كان للكردينال مندوزا، وأن الذي رفعه إنما كان قس الملكة، الذي عيّنوه أسقفاً على غرناطة: راهب هزيل له حرقدة كبيرة وعينان تطلقان شرراً، رأيته يوماً يعبر ممتطياً حماراً قذراً عبر باب القصبة. غوتييره ده كارديناس نصب راية شنتيقب وتنديلة راية الملكين. يبدو لامعقولاً أن تتغير مدينة إلى هذا الحد في فترة قصيرة جداً. بينما كانت تنتشر فوق الوادي والهضاب ليلة حريرية جليدية، انتصبت في داخلي كل طفولتي، نعمي وشقاءاتي، رغبتي العنيدة والغامضة بالعيش التي تهجرني الآن. سمعت أصوات الحراس الذين ما عادوا يتصايحون ولا يتجاوبون بلغتي، بعضَ الصهيل ووقعَ حوافر على أرض مرصوفة بالحجارة، جلبة بعضها عادي وبعضها لم يكن كذلك، إلى حد أنه يمكن للمرء الانخداع بأنه نائم ويحلم. كان صوت فرج يصعد من الصحن مشغولاً بالرحلة لأنه سيرافقنا مع بشير وكذلك ابن كماشة والمالح والقيسي وآخرون كثيرون. انقطعت أوامر أمي القاطعة منذ برهة. ستجيء مع كل نسائها، فأسرتها كانت جاهزة منذ اليوم السابق. صمت مطبق ومباغت عم المشهد، المدينة والبيت. وكان بودي أن أسمع، لأتعزى، موسيقى النجوم المرئية والخرساء. سمعت بالمقابل ابن زمرك:

وللسبيكة تاج فوق مفرقها   تود درّ الدراري لوتحلّيها
فإن حمراءها والله يكلؤها   ياقوته فوق ذاك التاج يعلوها
كرسيّها جنة العريف   مرآتها صفحة الغدير
وجوهر الطل عن شنوف   تحكمها صنعة القدير

«غرناطة ـ فكرت ـ بالنسبة لي كما غالب: شخص يُحِبُّ ويسمح بأن يُحَبُّ، لكنه من المحال عليه أن يستجيب لنا. أهرب منها ـ قلت لنفسي ـ وأقتنع أنها ما عادت موجودة، إنها لم توجد قط. لكن ماذا عن صبح وفايز الجنائني ودعامات حبي في الطفولة، أخي يوسف وغالب نفسه، الذي مات في واحد من جبال هذه السلسلة التي تشع بياضاً في الليل؟ وأنا؟ تراني أولد الآن بلا ماض ولا حتى حاضر»؟ غطيت وجهي بيدي،

يضايقني ثقل لا يحتمل، يزداد كلما حاولت أن أداريه أمام الآخرين... أحد داعب شعري، كما يداعب شعر طفل أشعث، فَمُ أُمٍّ أصدر تلك الطقطقات التي يُهَدْهَدُ بها لطفل يستيقظ، وإن لم يكن كلياً وسط نوم سيء. تلك كانت مريمة، التي انحنت وقبلتني على جبيني. لا أدري ما الزمن الذي مضى عليها إلى جانبي وكيف دخلت دون أن أحس بها. بقينا معاً إلى أن حانت ساعة الشروع بالسفر. لم نتبادل أي كلام.

توجد نقطة في طريق البشرات في مرتفعات البذول، حيث تلمح غرناطة لآخر مرة لتختفي بعدها. فيها تنقسم مياه شنيل ووادي الفيل، فيها ينقسم يومي وغدي. كانت الشمس قد ذهّبت القمم العالية، والضباب المبشر بصباح جميل يغمر المرج بالكسل. كان بودّي أن أصل أبكر إلى تلك النقطة أوأن أعبرها دون انتباه. كنت أعرف تماماً بعينين ضريرتين ما الذي كان يرى من هناك: هضاب، أكفار، جنان، قرى، مساجد، مآذن، مُنيات، أدغال، أسوار: كل ما تثيره غرناطة من طمع بالنسبة لمن ليسوا أصحابها، وكل ما فيها مما هو ممتع للآخرين، وكل ما فيها من ثقل على من لم يعودوا كذلك. ابن الخطيب أيضاً عرف هذا:

يوم أزمعت عنك طوع البعاد وعدتني عن الوداع العوادي
قال صحبي وقد أطلت التفاتي أيّ شيء تركت قلت فؤادي

تحكمت بخطو جوادي عندما سمعت أصواتاً تتوسلني الوقوف. لم أبغ الالتفات، لم أبغ رؤية غرناطة مرة أخرى، ما أردت أن أشعر بالطرد من الجنة كسيف من نار. فرج، الذي حدس ذلك راح يكلمني بتعثر عن ترهات التنظيم والوصول والمشاكل التي برزت أثناء تحميل الدواب ومع سائقيها. سمعت صراخ النساء وانتحابهن وقد راحا ينجدلان ويعزز واحدهما الآخر مثل النباتات المتسلقة. كنٌّ يتودعن من هذا المكان من العالم الذي بدونه لا يستطعن أن يتصورن حياتهن. لقد صرنا المنفيين، كنا القافلة التي تغادر واحة الوفرة والسعادة وما تزال ترى أوتاد الخيام، آثار قيعان الرمل، الروابي التي ضمها فيها الحب، وجه الحبيبة يبلله الدمع في لحظة الوداع. أشحْتُ بوجهي، لم أبغ أن أرى غرناطة. شعرت بأنني لن أستطيع المقاومة. همزت جوادي، دون أن أسمع ثرثرة

فرج الذي كان يريد أن يصرف ذهني عن ذلك وانطلقت خبباً لأهرب بأسرع ما يمكن.

نقول أونقرأ «إن السلطان المخلوع قد حبس في سالوبرينا، أو لجأ إلى المنكب أوأنه سُمِحَ له بأن يُنفى مع بلاطه إلى وادي آش.» ما أسهل ذلك. لكن ما أصعبه عندما يكون المرء هوالمخلوع. بل وأكثر من ذلك عندما يكون هومن يغلق أبواب القصر عند خروجه. ما علاقة التاريخ بالحياة؟ هل يتطرق التاريخ لما في القلب أويهمه هذا؟ هل يتكلم عن وعورة الطريق الذي يضيع عن النظر ولا يعود؟ من القارىء الذي سيفكر بمحنة المنفي، الذي يشعر بلا مبالاة هذا العالم، على هذه الضفة أوتلك من رحلته؟ رحلة لا يدري إلى أين تقوده، لأنه أضاع الاتجاه، والهدف والدافع. ما الأمل عندما لايبقى أدنى إمكانية للمعافاة، عندما تنهار أنقاض الذكريات، وما يتبقى منها لا يشبه حتى ضحية زلزال، يبقى على قيد الجياة ثمانية أو عشرة أواثني عشر يوماً، يحافظ عليها عزاؤه الصعب بأنه نجا، وأمله بأن يهتم أحد ما بإيقاع تنفسّه غير المسموع وأن تحرِّك يد ما كومة الأنقاض على السطح فتكتشفه؟ إن هذا الخلاص لم يوجد له، ليس له أيُّ خلاص. يخبىء رأسه المحزون ولا يطمح بالخروج من خرابه، لأنه لن يعرف على السطح المدينة أو الشارع أو الغرفة التي كان فيها سعيداً في الماضي أوعاش فيها على الأقل. ثم إن هذه المدينة والشارع والغرفة التي صارت لآخرين لن تعرفه. يتفحَّص أنقاضها، ثروته الوحيدة، قطعة قطعة، يبحث عن علامة تدل على ما كانه وما تعني، فلا يدرك أنه كان، ذات يوم غير بعيد جزءاً منها، وأنها كانت ذات يوم هونفسه... هل ستكون هذه الأنقاض،من الآن فصاعداً حياته، أم أنها، وقد ماتت، جرّت معها حياته الحقيقية، فما عاد يوجد هنا أي حياة؟ هل الإنسان تاريخ متجانس، أم أنه تتابع لحظات غير مترابطة؟ لماذا يحكم وماذا يحاول، أم أنه ليس إلا فلّيناً تتناقله الأمواج بلا هدف ولا غاية؟ تراه المنفي الذي أنا هو، *الزغيبي* الذي هوأنا، وهو جميع آباء عبد الله الذين وصلت من خلالهم إلى هنا، إلى هذا الجدار النهائي البليد، أم أنه أسوأ من هذا، لا يمثل أحداً؟ هل هوالشقي نفسه الذي كان البارحة؟. يعضّه الفشل اليوم، أم أنه آخر مختلف، ولد توّاً من موت حياةٍ وافرةٍ كانت له، من حياةٍ جمةٍ كانت تغني من حوله أغانٍ ما كانت لتنتهي؟ ما همّ من يكون أو ما يكون في هذه الهوة التي هو فيها؟ إنه وحيد ـ لأن الحب ليس حليفاً له في هذه الوحدة ـ والوحيد لا يُمْنَحُ إلا الراحة المفتعلة أو ما هو توازن سطحي بين ما هو، إذا كان ما يزال شيئاً، وما يفعل، إذا بقي له

ما يفعله. توازن يمنعه، وإن كان خيالياً، من السقوط، الآن دون شهود، في أعمق الظلمات.

كانت الجبال القريبة من لوشة، ما تزال تظهر فيها أضرار المناوشات، والأدغال المقطوعة، والإهمال والهجران. لون الصخور الرمادي يبرق أخضر تحت السماء الرمادية. كنا نتقدم بين الصخور المسننة عند حافة الجبال العالية، داكنة الزرقة، التي تنتصب معممة بالغيوم الهائجة. على الروابي الحوارية بقع برتقالية تلهي العيون.

عندما دخلنا البشرات رحبت بنا أزهار الجرس برقّة، زرقاء وبيضاء ووردية تداعب بأصابع رقيقة ولطيفة قيعان الوديان، والجراح الهائلة التي لم تندمل والهوات الفظيعة. كانت تلطّف مع الماء المشهد، الذي يكوّره الماء ويهدهده بسرعة متواصلة، يرنُّ أغنية لا أدوار فيها ولا نهاية لها. أثرت فيَّ البيوت الصغيرة في الأخاديد التي يقيم فيها حبُّ شعبي للأرض، وللزراعة، وقد صارت هندسة، والترف والسخاء اللذان يوليهما لها الناس الذين يعيشون عيشة مدقعة في الكهوف أوبين اللبن. وكان يؤثّر بي - وفي هذا كنت من كنته في السابق - تفاني الانسان في المصاطب الوعرة (عيون الذين صاغهم الصمت والوحدة) الجداول التي تخطها المياه بين القرى، الدروب الزاحفة التي يجهد العمل والمثابرة في رسمها، قيعان المسايل التي لا تعرف الهدوء وقد تحوّلت إلى بساتين منمنمة، بريق الحجارة التي تبدوتحت الشمس وكأنها مبللة بشكل دائم بالمطر، الصمت المحسوس التي تبرزه العصافير والحشرات الخالدة، الضباب الذي لا يسمح للمسافرين، كي لا تتقطع قلوبهم حزناً، برؤية أبعد من ثلاث أوأربع خطوات..... كل ذلك كان يثيرني أكثر من الاضطرابات الانسانية المذمومة، العالم الكبير الذي لم ينته بعد، وقد توقف لثانية في حركته الأبدية، محطماً، مسنناً، متآكلاً، مرفوضاً، مليئاً تماماً بالأشكال الحادة، أوالناقصة، مثل مغارة هائلة من الصواعد، قبتها السماء الفسيحة. إذا كانت قبب الحمراء لا تتطلّعُ إلى أن تشابه هذا، فما الذي تتطلع إليه؟

كان البرد يقصم الظهر. ومريمة يقلقني أمرها، لكنني في كل مرة ألتفت إليها لأهتم بها أتعثر بابتسامتها التي لاتتبدل.

- هل أنت بخير - تقول لي - هل تريد شيئاً، شيئاً ما بالتحديد؟

وعندئذ أقذفها بقبلة بيدي التي سمّكها القفاز.

أمضينا الليلة ملتصقين الواحد بالآخر. مثل بدويّين يلتصق الواحد منهما بالآخر في قرّ الصحراء الليلي، كنا رفيقي سلاح يجهلان ما سيحدث لهما في اليوم التالي فيضمّ الواحد منهما الآخر كي يشعر بالاطمئنان والدفء والنشاط.

مقابل الخضرة الداكنة أوالزرقة النيلية والزرقة الصارخة التي تصبغ الجبال الأخرى، كانت تعلو جبل غندور انعكاسات وردية، أكثر رقة وأنوثة. ذرى دائرية، حتى الصخور التي تتشكل منها لطيفة وناعمة. الطبيعة تُظْهِرُ فيها، بعد كل رسوخها الصارخ، بشاشتها.

وصلنا إلى وادي أندراش منهكين. هذا التعب الحليم هوالذي منعني من تذكّر الحادث الذي جرى لي مع عمي أبي عبد الله. الأمر الذي لوحدث لكان مؤثراً جداً. فكرت أن الملك فرناندو قد حدد أندراش مقرّاً لنفيي ومركزاً للإقطاعة الريفية، التي تشرَّف وخصني بها، عقاباً على احتلالي السابق لها وعلى تمرّد *الزغل* اللاحق.

نظرت حولي كما ينظر السجين إلى زنزانته عندما يدفعونه إليها ويسمع صرير قضبانها. جبال غير لطيفة أو مرحّبة شهدت حضورنا تحت المطر الناعم. بدت الأرض غير مشغولة وكئيبة بسبب تكرار الحروب. بجانب الوادي هناك تموجات يليها ارتفاع متدرج. إلى اليمين تبدأ جبال، حراجها الصغيرة داكنة اللون. كانوا قد بنوا القصبة في السهل على حافة سفح ناعم، أمام سلسلة منخفضة ومتموجة من الجبال القاحلة أكسبتها الشمس، عندما استطاعت أن تتسلل بين المطر، جمالاً بطيئاً. نشر قوس قزح ذيل طاووسه المؤقت وسط السماء. نظرت إلى مريمة، ونظرتْ إليّ. حام سرب من الحمام المطوّق في الهواء... هل سنقضي ما تبقّى من حياتنا هنا؟ قلت لنفسي: «حالياً هذا هوبيتي».

حطّت أمي عينيها الجافتين والقاسيتين جداً عليّ، بكت النساء وربما بدأ الأعيان الذين تبعوني يندمون، بينما الخدم ندموا قبل ذلك بكثير. انتظرتني مريمة كي ندخل معاً. قالت لي برقة:

ـ أنا ملكتك الآن وما عدا ذلك ماذا يهمنا؟

كان فرج وبشير يحيطانا باحترامهما الذي لايخلومن المراسمية، كما لوكانت تلك الخرائب واحداً من قصور الحمراء. دخل خلفنا ابن

كماشة والمالح وابراهيم القيسي، الذي كان فرحاً أكثر من الجميع، في وقت لاشيء يستدعي كل هذا الفرح.

هنا كتبت هذه الأوراق الأخيرة.

اليوم خطر لي التفكير حول قضية على علاقة كبيرة بآلامي. إذا كان الله قد وهبنا الدين ولم يفعل ذلك إلا ليخفف عنا فكيف يمكن أن يتشوه حتى يتحول إلى أعظم الشرور. إن الانسان، وإن نسيَ، كائن ضعيف وفان، يعيش قليلاً ويموت، كائن يعبر في كون غير مبال. والأديان تنزع إلى تعزيزه، ومنحه القوة والوزن، مثل الحجارة التي يضعها بعض الفلاحين في جيوب الأطفال، كي يمنعوا الريح من حملهم. فمن أين تأتي إذا هذه الحمية السخية ظاهرياً، التي تطلق بعضهم ضد بعض لأن طرق عبادتهم لله مختلفة؟ ألم توجد يا ترى للتعايش؟ كم من التناقضات في سلوك الانسان، ليس في سلوكه وحسب وإنما في جوهره أيضاً. إلا إذا كان تحت هذه التناقضات فكرة ملحة، لكن ما هي؟

ديننا، مبدئياً مُختَرِم: فاليهودية والنصرانية ليستا بالنسبة إلينا ديانتين غريبتين، والخلاص يمكن أن يدرك عبرهما، ولا إكراه في الدين. ألم يكن ابن عربي من قال:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لراهب

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

ثم ألم يضف:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وايماني

أم أن من يفهم التعاليم هم وحدهم من يسمون ويتقدمون؟ ثم لماذا لا يقلدون؟ ألا نرى أن الناس العامة الدهمائيين ـ والملوك الدهمائيين ـ لا يحكمون أو يسودون أو يعملون، في الحقيقة، حسب التعاليم الدينية؟

عداؤنا لليهود يستند إلى أنهم أهانوا النبي عيسى، وعداؤنا للنصرانية يستند إلى أنهم ألّهوه: لأن ما يريده الإسلام إنما هوتجديد دين ابراهيم، الذي انبثق منه الكتاب الذي ... ل الأديان الثلاثة. وأكثر من ذلك:

فإن الجهاد الأكبر، كما يقول الرسول، إنما هوالذي يدور داخل ديننا نفسه، أما الجهاد الأصغر، فهوالموجه ضد المعتدين الخارجيين وأكثر من ذلك أيضاً إذا ما استسلم هؤلاء قبل أن يهزموا فإنهم يتمتعون *بالأمان*، أي بالحماية والغفران. لقد تمّ الحفاظ على الكنس والكنائس، وسُمِحَ بممارسة الشعائر. والضريبة الشخصية التي فرضناها في الأندلس على النصارى واليهود لم تكن إلا بدلاً عن الخدمة العسكرية، والذين لم يكونوا مجبرين على أدائها. النساء والأطفال والرهبان والمقعدون لم يكونوا مجبرين على دفعها. ألم يُحسّن الإسلام حياة الغالبية العظمى؟ ألم توزع الاقطاعات الواسعة السابقة وتحسّن زراعتها؟ ألم يعتق العبيد الذين أسلموا، لأنه لا يمكن أن يكون المسلم عبداً أبداً، أويدفع الدية عنهم، الشيء الذي لم يكن مسموحاً به من قبل؟ وإسلامهم ألم يكن مقتصراً على قبول الإسلام كشريعة اجتماعية؟ الإجباري يتعلق فقط بالسلوك الخارجي الذي يحدده القرآن، ودرجة هذا السلوك داخلياً ليست هدف هذه الوصية (ما يحدث في هذا يعاكس ما يحدث في العمارة: فعمارتنا يتم تصورها من الداخل وللداخل ومظهرها عندنا سيان، والخارج يتم تأمله من النوافذ المحصرة التي تحفظ الود والألفة تماماً. على العكس من النصارى فإنهم يبنون كي يرى الأبنية من يمرون في الشارع، ويحاولون أن يحسدوا عليها.) ومع ذلك فإن النصارى يأخذون علينا هذا الإجبار الوحيد على السلوك الخارجي ويتهموننا بأننا منافقون، مع أنهم منافقون بدرجة أكبر، عندما يطالبون الجميع بالكمال المحال. إنه شيء شبيه بما يحدث للصوفيين الذين يتقدمون عبر الطرق الروحية، وهم عندنا فقط أولئك الذين يخصهم الإلهام الإلهي بسرّه أمّا عند النصارى فهم، بدءاً من العماد، الطقس الأولي، جميع النصارى، رغم أنهم قليلاً ما يستمرون بالعمل به. لهذه الأسباب كانت التحولات إلىالإسلام أكثر بكثير من التحولات المعاكسة. ولم نكن المسببين لها. لقد حضرنا نحن المسلمين دائما الاحتفالات النصرانية بفضول وأغرتنا زيارةُ أديرتهم في أعياد قديسيهم، ولم نستخدم القوة قط كَمَخْلٍ للارتداد، حتى ولوكان لسبب بائس، إذ مع كل نصرانيٍّ يتحول إلى الإسلامِ نَفْقدُ جزية.

وأتساءل كيف أمكن أن نصل إلى هذه الحالة من الشراسة التي نحن عليها اليوم. لم يقسم الدينُ الناسَ في بداية الإسلام في اسبانيا. والحرب لم تكن جوهرياً مسألةً دينية، ونصارى الأندلس كثيرا ما قاتلوا إلى جانبنا جيوشَ الشمال. وأهل الشمال كانوا يرسلون أبناءهم ليتربّوا بيننا ويزوجون أميراتهم من قادتنا، وكلما كانوا أكثر نبالة كلما زادت

الزيجات، بكم من بنات الملوك المدعوين سانشو وغارسيا وألفونس وبرمود تزوج «منصورينا»؟ وتعلم النصارى الذين كنا نتعايش معهم العربيةَ إلى حد ان ألْبَرو القرطبي طرح موضوع ترجمة الكتاب المقدس إليها، لا ليحوّلنا عن ديننا، وإنما ليُصْبِحَ مفهوما من قبلهم. ما الذي حدث فيما بعد؟ إن معركة الزلاقة، التي قام بها يوسف المرابطي، الذي لجأ إليه الأندلسيون ليحمينا من ألفونسوالسادس، بَدَّلت كلَّ شيء. فالحرب السياسية بوضوح، على الأرض التي كان الشماليون يحاولون استعادتها تحولت إلى حرب دينية لا رحمة فيها ولا شفقة. عندئذ طُرِحَ ما إذا كان الإسلامُ هوالذي سيسيطر على شبه الجزيرة أم النصرانية. لكن هذا لم يكن ولا بشكل من الاشكال شعاراً أندلسيا، كان شعارا مستوردا من أفريقية. دفعنا ضَعْفنَا لنُطالِبَ بنجداتٍ خارجية، ومن هناك جاءت، وما من نقطةٍ مشتركة بيننا وبين الأفارقة غير الدين. والطامَّة الكبرى للجميع ـ كائن من كان من أيدها ـ أن هذا الاتجاه بالحرب هوالذي فرض نفسه حتى الآن ومع ذلك ورغم الأحزان كما كنت أقول لغونثالو فرناندث القرطبي، كنا، مسلمين ونصارى ويهوداً وحتى البارحة، نطمح ونتنفس، كل حسب معتقده، في عالم روحي لا أدري ما إذا كان واحداً، لكنه مُتَفَهِّمٌ من الجميع، وإن كان في كل مرَّة أقل. منذ تلك اللحظة انتفى هذا العالم. التاريخُ الذي بَدَأَ تاريخٌ آخر. «في اللحظة الأكثر عمقاً، ما الذي جرى؟ أعود وأسأل نفسي ـ ألم يتخذوا من الدين مُجَرَّدَ ذريعة؟» إن البشر غالباً ما تَلْعَبُ بهم الظروفُ، التي هم أنفسهم لا يفهمونها، مِثْلَ من يجد نفسَهُ مجروفاً بتيار لا يستطيع منعه.

كان الملك فرناندو، *قديس* قشتالة، أوَّلَ من أخطأ عندما ناقض قِسْمَتَنا للإقطاعات، وقرر منحَ الأراضي الواسعة المحتلة للنبلاء ليساعدوه في احتلاله للأراضي. فإقطاعات الرهبان أوالدنيويين الغنية راحت تشكل قوةً كبيرة، دون أن تشكل قوة الدهماء أوتجار المدن المحدودة قوة موازية وكافية لها. بيدرو الأول هوالذي انتبه إلى ذلك، وقام ضده لكنه كان غريبا في قشتالة، بالطبع كان مُعَرَّباً. على العكس منه كان أخوه الذي أسس طموحه على النبلاء المتضررين، دعمه المَلاَك، الذين تعرضت سيطرتهم للخطر. وهكذا ضاع الخلاص الذي شُرِعَ به بالنسبة لهم كما بالنسبة لنا. لأن فقرَ قشتالة معدٍ، فعندما هبط رعاتها إلى أندلسنا مترحلين تحت حماية الرهبانيات العسكرية، حملوا معهم جوعَهُم وفَقْرَهُم ودمَّروا ثروةَ مملكتنا. قشتالة لا تُنْتِجُ: بل تستهلكُ، لا تعملُ: بل تُحاربُ. تلك كانت مهنتهم. ولم يكن يهبط مع روحهم العسكرية إفقارُ الاقتصاد

وحسب وإنّما أيضا إفقار الثقافةِ وتنظيمِنا الاجتماعيّ الأكثر عدالةً.

لقد بَلَغَ التطلعُ التكامليُّ للإسلام، الذي يتداخل فيه سكان المدن أوالشعب ويتخالطون باتزان، نهايَتَهُ، وخُسرت معركةُ العدالةِ أمام جورِ أصحابِ الامتيازات.

لم يكن من هذا الأثر الهدام إلاّ أن تفاقمَ. لقد فرغت قشتالة. الجميع كانوا يرغبون باللجوء إلى الجنوب، شلوا زراعتهم البدائية، وانتشرت تدفقاتُ النهبِ والسلبِ البشرية، وتم قبول تجار أجانب يشترون الصوف، الشيء الوحيد الذي تنتجه قشتالة، إضافة إلى بردها. وأمام الإفلاس لجأوا إلى جيوب اليهود الأندلسيين في معظمهم. ولم يكن عند القشتاليين للاستمرار في شراء الطعام والانفاق إلا مصدرين للدخل: الحملات ضدنا ومذابح اليهود. فالمستدين سيء الذمة، يستخدم الوسيلة الحاسمة في قتل دائنه كي يصفي ديونه. وكانت هذه الحالة موائمة لأن تغطى من الخارج بستار الدين، والتدين، الذي كلما كان أكثر تعصباً كان أكثر عماءً وبالتالي عملياً أكثر. لكن هل يقاتل القشتاليون من أجل الإيمان، أم يقاتلون من أجل قوتهم؟ ألا يقاتلونَ مَنْ يملكون المال من أجلِ المال؟ ومع ذلك ولأنهم غير معتادين على ممارسة المهن والصناعات ـ الأولى لنا والثانية لليهود ـ، فإن فائدة امتلاك الأرض لم تعد عليهم إلا بالقليل لأنهم لم يزرعوها، وكذلكِ شغل المناصب طالما أنهم لا يتقنون شغلها ولا كيفية إدارتها. هل يعتبر مالكاً حقيقياً للساعة المائية أوالاسطرلاب، أوللبوصلة من يجهل فائدتها. أوللحديقة من لا يشتغلها أويَستَمْتِع بأزهارها؟ ولم يَقِمْ شعبُ قشتالةَ قوتَهُ إلاّ بقوةِ غنائم الحرب وسلب الجوامع، وكان دائما على استعداد لدعم الاصوات التي تقودُه ضد غرناطة والأحياء اليهودية انطلاقا من مصلحته. وكان ملوكهم بدءاً من الطرف المعاكس قد تدربوا على استخدام هذه الحجج القاتلة بثقة من يعرف أنه لن يعاقب، وليس الحجج الدينية التي تتطلع للحياة الاخرى، وإنما الحجج الاقتصادية التي تَتَطَلَّعُ إلى هذه الحياة، رغم التظاهر بالورع بعيون غاب سوادُها.

لقد جاء الملكان الحاليان، إيسابل وفرناندو بأمرين جديدين: إنهما يجمعان في شخصيهما أراجون، التي تعيش من الخارج وقشتالةَ الجائعةَ والتحصنَ ضد الإقطاعات، بعد أنْ ألْهِبَ وعُبِّئَ الشعبُ المتسولُ بالوعودِ وأُمْسِكَ بزمامه يعززُ واحدهما الآخر ويسانده. إذ ولكي يؤسسا مملكةً متماسكةً لا بدَّ أن تكون السلطةُ في يدٍ واحدةْ. وكان أوّل من تَكَهَّن بنواياهما، حسب المعلومات المتوافرة لدّي، الكردينال مندوزا، الذي

أخضع عائلته الكبيرة بمهارة لهذه القيادة حصراً، ليس لصالح الوطن، والذي هو بالنسبة لهم مفهوم لا وجود له، وإنما لصالح فائدتهم الخاصة: فقد غطّى آلُ مندوزا إدارات الكنائس والجيوش والمدن، لكن ليس باسمهم الخاص وإنما باسم من كان يُعَيِّنهُم. إلاّ أنَّ المكاسبَ، إنْ لَمْ نَقُلْ الرفعةَ، بقيت على حالها.

بِكَمْ من الوضوحِ أرى أَنَّ الشعبَ الصغير والفقير لا يؤمن بصدق بالله، وأنَّ السادة الكبار لا يؤمنون بشعوبهم ولاالملوك بأتباعهم، كباراً كانوا أم صغاراً، مهما كان حجمهم. فالملكان يكذبان عندما يهتفان: «لكَ القوة والمجد وليسَ لنا». كل انسان يبحث عن منفعته،التي يموهها أحياناً بملابس زاهية مترفة، يُسَمِّيها الله، الملكَ أوالوطنَ، وأحياناً يتركها عارية، تتخبط مثل ذئب وحيد. فلكي يتنازل عن طمعه الضاري بالعرين والغذاء، والزوج، عليه أنْ ينضمَّ إلى رجال آخرين تحت جناحِ قوةٍ مشتركة ترضي هذه الحاجات الثلاث، تدعوه فيما بعد للعيش في مدينةٍ عادلةٍ حيث التعايشُ مع الآخرين يُغْني حياة كل واحد منهم، أيّاً كان الذي يعبده، واللغةُ التي بها يُعَبِّر ولون جلده. هذا ما كان يحاوله الإسلام في شبه الجزيرة.

عانَيْتُ لَيْلاً من كابوسٍ قاتل. حلمتُ بكل أنواع التفاصيلِ المُعاشة والدقيقة، كيف أضعت غرناطة، وكيف سلمتها، وطُردت منها. ومع ذلك فقد كان في الحلم تخفيفٌ غائم للمعاناة بطريقة غامضة لا تعمل إلا في الأحلام، وكنت أعرف أنني أحلم. أيقظتني مريمة لتخرجني من الضيق الذي جعلني أَئِنُّ وبذلك قادتني إلى كابوس أسوأ: إلى واقعِ الأرق هذا، حيث كلُّ ما حلمت به كان قد حدث مسبقا.

تقتصر كتب الأخبار عن كلِّ مملكةٍ وكلِّ معركة على دور واحدٍ في لعبة شطرنج، لتسهل على قرآء المستقبل فهمها أولتبسط التاريخ الذي يفوق الوصف دائماً . أنا نفسي أنزع إلى هذا: فشغفُ الإنسان باللعب من العظمة بحيث أنه يُبَرِّرُ أخطاءه أحياناً بإعزائها للقضاء والقدر.

عندما سقطت طليطلة أطلق أحد الحكماء، وهوأبومحمد العسال، صرخةَ إنذار:

يا أهل أندلسٍ حثّوا مطيَّكم فما المقامُ بها إلّا مِن الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوبَ الجزيرةِ منسولاً من الوسط

من وسط الرقعة ـ وكل رقعة تتباهى بخصوم عالم ما، سواء أكان كبيرا أم صغيرا ـ تتَقَدَّم بيادقُ اللعبة. كانت المراهناتُ متهورةً والورقةُ الرابحةُ مغرية، واستدعت الألعاب بعضها بعضاً بشكلٍ مأساوي. سَمَّى النصارى بحقّ: «خاك ماث» ما أسماهُ العربُ *شاه مات* وتعني لنا أن *الملك مات*. هذا ما حدث في لعبتي وعلى رقعتي. وفي الجوهري تتساوى كل اللغات.

ألعبُ، أحياناً، في هذه الليالي المتطاولة للغاية التي تبدو كأنها توقّفت، كأن ساعاتها نهاراتٌ مظلمةٌ، بالشطرنج مع بشير وفرج، اللذين يضحكان عندما يهزماني، أي أنَّهما يضحكان دائما. ترفع مريمة عينيها عن مطرزها وتنهرهما، فهي عندما تلعب معي لا تلعب ضدي، تنسى أن تقوم بالحركة التي تكسبها النصر. ومع ذلك أرفض أن ألعب مع ابن كماشة والمالح، إذ حتى لو لم يحتالا معي فإنني لا أستطيع أن أتجنب الشك بأنهما يقومان بذلك. أفضلُ أن أراهما يلعبان فيما بينهما ويلتحمان في جدالات تقود إلى تعادلٍ ما من أحد منهما يقبل به.

حملت معي من الحمراء كتبي المفضلة وأخرى لم أقرأها بعد وقد جُلِّد كثيرٌ منها بشكل أنيقٍ بالجلدِ الأحمر أوالأزرقِ بحلقاتٍ من الفضةِ المنقوشة. لكن ما كنت أقدمه منها على غيره هي تلك المستخدمة والمهترئة بفعل لمسِ أيدي من سبقني بالمصادفة. لقد انتقل الكتاب، كرسول، من قرن إلى قرن ومن بلد إلى بلد ومن إنسان إلى إنسان. إنه يضم ذاكرة العالم وكذلك نبوءته، تاريخ البشرية الغابر والتاريخ القادم الغائم. كل هذا مختصر ومتوقع في هذا السراج الذي يمضي من يد إلى أخرى مضيئاً الظلمة.

إن استحضار ميراث الكتب، الذي يكاد يكون متواصلاً ولايمكن الإحاطة به، وترتع في حضنه المعرفة والفضول والكوارث وحب البشرية، يشعرني بالعظمة والتأثر. إنها تقودني إلى صفومشترك، لاأتصوّر نفسي دون رفقتها الكريمة.

وكتب الحمراء هذه لا تثقفني بمحتواها وحسب وإنما بجوّها الذي أحاط بها وَتَذَوَّقَها: الرفوفُ المهملةُ التي ارتاحت عليها، العملُ الدقيق الذي قام به من كتبوها ومن نسخوها وخاطوها وجلدوها، عبقُ رطوبةٍ

وجلدٍ، كلماتُها التي هُمِستْ، الرعشات التي أحدثتها في هذا القلب أوذاك، أوالقروح التي أوقفت نزفها. الأشياء التي لم نحترمها الاحترام الكافي قط، تُغنى بمن استخدمها عبر السنين وعبر القرون. أتناول أحياناً كُتُباً كانت لسلفي محمد الفقيه، وأخرى وصلتنا من مكتبة الأمير الأموي الحكم الثاني، الذي جمع في مدينة الزهراء أكثر من ستمئة ألف مجلد، قبل أن تخرّبها الوحشية الانسانية، فأذهل، دون أن أجروً على القراءة، وكأن قلبي بين أصابعي، أومثل عصفور متخشب ومتشوق يمكن أن ينفجر بالزغردة فجأة. هنا في أندراش ساعات يكون فيها الكتاب نفسه، بمعزل عما يحتوي وما يعني، من يَخفقُ وينبثقُ ويحرق ويسارعُ بإيقاع الظهيرة ويبشمُ المساءات. وأكثر ما يؤثر بي في هذه الساعات هوانصهار من كتبوها وفصلوها وقرؤوها قبلي، والارتباط بأصحابها المتعاقبين، الذين ربما عادوا ذات يوم بمخيلتهم، مثليَ الآن، إلى الوراء وارتبطوا بالماضي، تماما كما أفعل أنا الآن مع ماضيّ، الذي يشكلون جزءا منه. أوربما نظروا إلى مستقبلهم فلمحوني أوتنبؤوا بي فيه قارئا أوسلطاناً مخلوعا، حفيد أحفادهم أونظروا إلى ماهوأبعد مني، بعدي، عندما أصبحُ جزءاً من ماضي آخرين، القراء القادمين المجردين من الحمراء والعرش، أو ربما الغرباء عن سلالتنا وتطلعاتها أيضا. ويفرحني افتراض أن بعض الأيدي، التي لم تعد موجودة ـ وأتساءل ما إذا كانت غير موجودة ـ فتحت هذا الغلاف وقلّبَتْ هذه الأوراق، وأن نظرة لاوجود لها ـ أوربما موجودة فقط لهذا الكتاب ـ انزلقت على هذه الخطوط، وفكّت معنى هذه الجملة، وغرقت في متاهة هذا الخط. إن التفكير بأن أحدا ما، مثلي اليوم، لكن منذ قرون قطع قراءته للحظة وتفكر واضعاً إصبعه بين هذه الصفحات نفسها ناظراً كما أنظر أنا إلى الفراغ، بين جدرانٍ ربما مهدمةٍ وأمام منظرٍ لايمكن التعرف عليه، يُجَدِّدُ شبابي.

وتظهر الحياة ـ أو نظهر نحن في الحياة ـ قاهرةً، فارسةً، خضراء، جذلة، تبهرنا، ثم تستمر دوننا. وهاهي اليوم هنا، في هذا الحصن المنعزل، في هذا الصباح العذري من نهاية شباط، حيث يتسرب الربيع، هذا الصباح الذي جعله أسلافي ممكناً لأنهم صاغوني وصاغوا هذه الكتب الكريمة. من هنا جاء شعوري بأنني ملزم بأن أسمع وأرى وأداعبَ ـ بكلمة واحدة بأن أعيش ـ رغم الشعور بالفشل الذي يغمرني، في هذا الصباح الكثيف، لأن من نسميهم من غير صواب أمواتا يرونَ ويسمعونَ ويداعبونَ بعينيَّ وأذنيَّ ويديَّ. سيأتي صباح نقيٌّ آخر لن أكون فيه.

ستكون فيه هذه الكتب وقارىء آخر، وربما سيتذكر اسمي دون ملامح، وأرى بعينيه وأصغي إلى انسجام العالم بأذنيه وأداعب الهواء الأزرق الممتع بيديه. وسيكون قد انتهى واكتمل بالنسبة لي ـ أنا النائم نوما لايقظة منه ـ سباقُ الحياة العنيف: السبيل الذي يحتم عليّ اليوم أن أتابعه مكان الذين ساروا عليه من قبلي.

أقرأ شعر شعراء بغداد القدماء أوقرطبة، اشبيلية أومرسية أومن هم أقدم منهم ومن بلاد أبعد، تكاد لغتهم لاتفهم لأن تعبير الحياة تبدل أكثر من الحياة نفسها. مع الشعر القديم أسافر:

لكلّ أشعثَ يلقى الموت مبتسماً حتى كأنّ له في قتله أرَبا
قُحٌ يكاد صهيلُ الخيل يقذفه عن سرجِهِ مرحاً بالعزّ أوطربا
فالموتُ أعذرُ لي والصبرُ أجملُ بي. والبرُّ أوسع والدنيا لمن غَلَبا

لقد كتب هذه الأبيات شاعر كوفي، فكر بنفسه كما أفكر أنا بالكتب:

فَشرِّق حتى ليس للشرق شرق وغرِّب حتى ليس للغرب غربُ

أقرأ في الشعر القديم شكواهم الحية تماماً من الهوى، وأقرأ اضطراب قلوبهم وقد لاقت تجاوباً.

وتدركني القصيدة أكثر عندما تنبثق من الكتاب، وتستيقظ منه، كما لو من فراش، يعانقها الصوت ويتمطى مع الموسيقى. وأحب أن أقرأها لمريمة ولفرج عندما يكون الآخرون قد انسحبوا، مرافقة مع آلة ما، فأحرك فيهما الطرب: الاهتياج الجسدي بفعل الحزن أوالفرح، والذهول والأسر.

ـ مادام الطرب يهزّك ـ قالت لي مريمة ليلا ـ فأنت لم تفقد شيئا.

قالت لي ذلك وقد استلقت بين الوسائد وانفجرت بإجهاش جموح مع القصيدة التي كنت أقرؤها لها، بينما راح فرج يرمي حبات التمر، هاذياً من النافذة ويطرق بعدها بالصينية على جبينه. تقول القصيدة:

اذكريني حين أموت
فلا مُتّسع للنحيب: ليس لفمي طعم الرماد بعد
يتأخر هذا النور ساكناً.
يعود إلى المجرات التي هبط منها متعباً لا ذابلاً.
عبثاً يختِم الظلام علينا
فالشمس المترصدة في وجارها

تدبّر لانتقامها.
سريعاً سيمتصنا جوف المساء، يا منفيي الظهيرة،
كعصير البرتقال.
والنجوم الخارجة عن مدارها تترصدنا.
مشرعين على الليل على مدانا
وحده الأرق سلاحنا
والسهل حول الماء يعطرنا.
يهبط الفجر باخضره وأصفره عن الثلج...
من سيغلق هاتين العينين، هذا الفم
هذا اللحم؟
ما من أحد ينجومن اليوم الموعود، من الحداد
وهاهوالنور يبتعد، وتبقى الحياة وأنت.
حين يموت النور، ويصيح باسمي
تكونين أنت واسمي بمنجاة في الروض: لن يعكركما سحر الزمن المؤذي وأنتما خارجه(1).

كتب بشير، كحاكم لأندراش رسالتين باسمي لملكي قشتالة أتوسلهما فيها ـ ماذا يستطيع المهزوم أن يفعل غير ذلك؟ ـ أن يعيدا لي ولديّ. على الرغم من أننا لم نكن نتكلم أنا ومريمة عنهما إلا أنهما لم يفارقا تفكيرنا. يوسف لا بد أنه يشتاق إلينا أكثر من أحمد، الذي رُبّي بعيداً عنا، مع أن مريمة تعاتبني لأنني أفكر بهذه الطريقة.

يتردد ابن كماشة والمالح عادة على غرناطة، لكن دائماً كل على حدة. يقابلون هناك هرناندو الصفري، الذي أصبح الآن الحاكم الدائم للمدينة، وقد وطّد المالح معه أواصر صداقة مفيدة جداً لنا ولجانب المعلومات عندنا، رغم أنني أعتقد أنها ذات فائدة أكبر لكلا الطرفين. يحكون لي، وبذلك عليّ أن أصدق، بأن الملك يتعامل بسخاء كبير مع المسلمين: يقضي لهم بالعدل، يعفيهم من الضرائب، يعتني بهم ويحترمهم. والنصارى، كما يبدو، يواجهونهم بذلك: «لا تستطيعون أن تشكوا ـ يقولون لهم ـ فأنتم معزّزون ومكرّمون عند ملكنا أكثر منا». ومع ذلك فإن المالح

(1) هذه الأشعار لأنطونيوغالا نفسه (المترجم)

يخمّن بأن قصد الملك هو تحقيق التالي: تعزيز رأي الناس القائل بأن هذه الرحمة ستستمر كي يقرروا العيش مع النصارى ليشتروا البيوت والأراضي ويوطدوا وجودهم. ثم يرى الملك أن يتركوا المدينة ليعبروا إلى أفريقية، لكن من سيعمل في الأرض إذا كانوا هم من يعرفون الأرض والريّ، ومن سيقوم بالأعمال المتواضعة التي ما من نصراني يقبل القيام بها، فليس من أجل هذا خرجوا من قشتالة؟

لم يعطهما الصفري، حتى الآن، غير الكلمات الطيبة عن ولديّ ورسالة قصيرة جداً من أحمد.

منذ عدة أيام ومريمة شاحبة. تقضي الساعات الميتة غارقة في التفكير أمام النافذة دون أن تنتبه إلى أن النور قد رحل، أوتهيم في البيت دون توقف عند أي عمل أوغرفة محددين. أراقبها بصمت فتسقط مني روحي عند قدميّ.

يؤكد الطبيب اليهودي والمدعو يوسف أيضاً، بأنه ما من شيء خطر عندها. فالمسألة تتعلق بعاطفة في نفسها تعتصر قلبها بقوة لا تحتمل عندما تتذكر ولدينا ـ أما من خطر في هذا؟ ـ .

ـ ربما لوكان واحد منهما هنا إلى جانبكما، لشفيت ـ ألمح إليّ اليوم.

ـ لكن لا أحد منهما معنا ـ أجبت متنهداً.

ـ أعني لوحبّلتها وأنجبت هنا.

ـ سيكون عليّ أن أستشيرها بالأمر. فقد يكون العلاج أسوأ من المرض. ربما علينا ألا نأتي إلى الحياة بكائن جديد قبل أن نتأكد تماماً بأننا نحب الحياة.

ـ أنا أحب الحياة لأنك فيها. ولولا ذلك لتخليت عن حبها ـ اعترفت لي مريمة منذ أيام ـ .

ـ لكن ألا نحب أولادنا؟

ـ بلى، إنهم بالنسبة لي امتداد لك. هم بالنسبة لي أنت بشكل آخر. أنت هنا ناقص.

حياتي مريحة وكسولة. ربما كانت السعادة تكمن في هذا النعاس.في الصباح أخرج مع فرج لأرى كيف يشيدون الحديقة الصغيرة.

اليوم كنت أقول له وكان يصغي إليّ مثل تلميذ:

- معرفتنا بالحدائق مصدرها النبطيون، الذين حولوا الصحراء العربية الصخرية إلى أرض خصيبة. وكانت عندهم معارف كبيرة بالعلاقة القائمة بين حركات الأفلاك السماوية ونموالنباتات. كل الشعوب البدائية الزراعية اعتبرت السماء قوة فعالة ومولّدة، والأرض قوة صبورة ومتلقية للكون.

- مثل الرجل والمرأة؟

- تقريباً. وفي هذه النظرية ينصهر المفهومان: الروحي والمثالي والمادي والعملي. وقد عزا الإنسان الزراعة دائماً للألوهية. وعندما لم يفعل ذلك، لم يحببها ولم يبسطها بالورع المطلوب. هذا ما يحدث للنصارى، وللرومان من قبلهم، إنهم مزارعون يزرعون دون ري، من النوع الذي لا يستخدم الماء إلا إذا كان قريباً. أما نحن فالحديقة بالنسبة لنا انعكاس للجنة، أوبالأحرى، مقدمة لها. ألا ترى؟ - وكنت أريه ما كنت أعرضه عليه - هنا رتبت البحرة وسط محورين، يتقاطعان فيها ويشيران إلى جهات الأفق الأربع كما في جنة عدن. وأسلافنا العرب الذين درسوا الثقافات الأخرى، أخذوا هذه الرسائل المصورة عن المندالات البوذية ونشروها في العالم. وبهذا فإن الحديقة تمثل رمزاً للحياة، متاهة مرسومة، كما لو كانت منمنمة مصغرة للكون. وفي لغتنا يعبر عن الحديقة والجنة بمفردة واحدة وكذلك الحديقة والمقبرة. لأنها كلها واحدة وذاتها في آن معاً. وأنا أرى أن الأرض والسماء متقابلتان تتناظران وتتثاوقان.
- وأضفت -: وها أنا أجهز قبري هنا، كمنزل دائم. لا أريد أن تحملني إلى مندوجار، تنازلت عن تلك الرفقة. ففيّ تحطمت سلسلة أسلافي.

- وهل تفكر بأنك ستموت قبلي؟ - هتف فرج ضاحكاً.

- أرجوك، يا فرج. أنت لم تخيب أملي قط، فلا تفعل هذا في النهاية. لن أغفر لك... فيوسف الثالث، باني داري، أمر بأن ينقش على شاهدة قبره:

سقى الهطل قبري وأحياه
وهذا الروض بالعطر أنداه[1]

(1) لم أتمكن من العثور على هذا البيت فاضطررت لترجمته (المترجم)

›› كم كان حماسنا للمياه كبيراً دائماً. نحن لا نهدرها أبداً: من الضروري الحصول على نتائج كبيرة بأقل كمية منها، يجب عدم استخدامها كقوّة مدوية، وإنما كخرير مريح. وفي الحقيقة مازلنا أناساً من الصحارى، لا يعتادون على أن تكون في متناول أيديهم. لذلك نجمع فيها بين المتعة والفائدة ـ كنت أشير له إلى خط مازال وهمياً في الحديقة ـ تتدفق المياه لتصل إلى هنا، تُغرِّد، وتتراقص لتشفي سقمنا تحت هذا الرواق. ومن هنا سنجعلها تعمل: ستُنَدِّي الخضراوات والأشجار المثمرة. يرشدنا ابن ليون في رسالته عن الفلاحة إلى طريقة تحقيق ذلك. أنا أعتقد أنه علينا أن نخلق الصمت كي يكسر الماءُ هذا الصمت، يجب أن نقبل الحر كي ننعم برطوبة الماء، يجب أن نخلق السرّ كي يشاركنا فيه أحد ما. فجأة توقف فرج وهمس:

ـ لا جسد ولا روح عندي، فأنا أنتمي لروح الحبيب.

ـ وأين قرأت هذا؟ ـ سألته باندهاش.

ـ في أحد كتبك.

ـ شكراً، يا صديقي ـ قلت له وتابعت ـ: إذا لم تمثل الحديقة روحنا، فهذا يعني أنها غير محكمة الصنع. يحدث لها ما يحدث للعمارة، لكن، وكما يمكن لسور أن يبقى راسخاً ألف عام، يحدث أن الحديقة الأكثر رقة والأسرع زوالاً تحتاج للعناية، والمثابرة والمراعاة. بكلمة واحدة، إنها مثلنا تحتاج للحب.

تنزلق ساعاتي، دون تسارع على الإطلاق، على رؤوس أصابعها وبتعادل. هل ساعات الشمس الرومانية على حق: «جميعها تجرح والأخيرة تقتل ؟» اليوم لا أدري إذا كانت الشمس على حق فهي ليست موجودة. منذ أيام وهي تمطر. أرفع عينيّ عن الكتاب فتغرورقان بستائر المطر، وهما وديعتان الآن، لا الأمس.

سادت الريح البارحة بجبروت مريع. كانت تجوب الحديقة الواهنة وكذلك الريف كله، لاهثة لا تتعب. كانت ترتفع غضبى، تدوّي وتهتاج مثل ثور خفيّ. خرّبت كل شيء اعترض طريقها أو لا أدري ما إذا كانت إرادتها العمياء، قصمت الأغصان، أفسدت الورود التي كانوا قد

أحضروها من غرناطة. أنهكت أشجار الجبل الكبيرة. ترفع فوق الجئير الأخرس صفيراً شكساً وسريعاً، وفوق الحركة ترفع أخرى مختلفة، وتصل إلى الاحتدام في عصفاتها المفاجئة وكأنها قررت، لإثارة ما، أن تدمر العالم. كانت البارحة ملِكاً حائراً وأرقاً عدتنا جميعاً، بأرقها وحيرتها. رجتني مريمة بتقطيبة الخائفة، كي أسمح لها بأن تقضي الليل معي. أنّت الريح في الخارج، تلوّت، اشتبكت مع نفسها، تسلقت، انهارت، تمايلت، رفعت بروجاً وهمية عالية، طوحت البراعم، تجاهلت رائحة اللاذن والزعتر، وأمادت الأرض متناسية كل شيء. ومريمة تتكوّر عليّ كي لا تسمعها.

اليوم يسقط المطر، الذي تحرر من الريح، رحيماً.

أقرأ ابن هذيل، الخبير بالأبطال:

فوقَ جيده الرشيق ينسدل السبيب،
كالمطر فوق الحصى الملساء.
وفيما الخيول الأخرى الأصيلة تجرف منهاء، منهكة، النقع على الأرض الصلدة،
يتململ حيويّاً، يشتعل هياجاً
وتقدح سنابكه كأنها قدر يغلي.
سريع كخذروف في خيط شدّه صبيٌ ورماه.
يخبُ فتتطاير الحجارة
وقد فتتها بأرجله
التي تدمغها مثل حديد حام.
ينتصب عليها، رشيقة، أمينة فيقمس خفيفاً وقويّاً(1).

لم أدرِ وأنا مشغول بالطقس ما إذا كان يتكلم عن المطر أوالريح أوالجواد.

في آخر رسالة كتبها بشير الخبيث إلى الملكين يطالب فيها بولديَّ، طلب منهما أن يرسلاهما إلينا، أنا وأمهما، إلى أندراش.«لأن إنجاب الأولاد ـ ذكّر الملكة ـ لا يقتصر على منحهم الحياة بل يتعداها إلى

(1) لم أتمكن من العثور على هذه الأبيات في المصادر العربية فاضطررت لترجمتها (المترجم)

إعدادهم لها في جو من الدفء والمعايشة» وأضفت اقتراحاً جديداً: أن يرسلاهما إلى أفريقية. فربما كان الحصول على هذا أقل صعوبة. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن رغبتي هي أن يُربيا على الثقافة ومفهوم الحياة التي ينتمي إليها أجدادهما وأبواهما، ومع ذلك لست متأكداً من تحقيق ذلك في أفريقية.

جاءني المالح من غرناطة برأي الصفري. وفي النهاية يسبق هذا رأيَ الملكين أو يلتحم به. على كل حال يلتقي معه. يبدوأنهم يترددون حول ما إذا كانوا سيرسلون ولديّ إلى أفريقية أم لا. إذا كان قرارهما إيجابياً، وحين يصل ولداي إلى هناك، سيحتم عليَّ أن أقرِّر اللحاق بهما مع بقية الأسرة. وإذا ما حدث العكس ومات ولداي بحادث مشؤوم، أو وقعا في قبضة أحد الملوك الصغار، المستفيدين من استخدامهما لصالحهم، فلن أعبر قط إلى أفريقية. والملكان في أعماقهما يعملان على أن أعبر. إن وجودي على أرضهما يعكر صفوهما، حتى ولوكان هذا الوجود محدداً ووديعاً، تماماً كما تُعكِّر بقعة الدم، مهما كانت جافة لباسَ العيد.

اليوم أغمي على مريمة. كنا قد خرجنا لنرى براعم الحديقة. دائماً يدهشني أن أراقب كيف أن ساقاً رقيقة ـ لا تشكل شيئاً، غير احساسٍ مسبقٍ بالخضرة، وهنا يستطيع طفل صغير أن يكسرها بإصبعه ـ تشقّ جذعاً متشققاً وقوياً قاوم سنين وعواصف وتتفوّق عليه. كنا نعقّب على هذا أمام أحد البراعم، أنا ومريمة، حين حملت يدها فجأة إلى عينيها، وحرّكت رأسها بنعومة إلى هذا الجانب وذاك وخرّت. ولم أملك من الوقت أكثر من أن أمد ذراعيّ لأتفادى أن تتأذى من الارتطام بالشجرة أو بالأرض. مذعوراً، لا أدري ما أفعل، كلمتها بصوت خافت، ردّدت اسمها، هززتها بنعومة، طلبت منها أن تعود بسرعة إلى وعيها، لا أدري ماذا كنت أطلب منها. فتحت مريمة عينيها، ابتسمت قليلاً، وقالت لي:

ـ كنت تقول لي شيئاً، يا أبا عبد الله. عذراً، فأنا لم أسمعك جيداً.

قبّلتها على شفتيها فاتسعت ابتسامتها.

ـ ما من ضارة إلا وتأتي بنافعة ـ همست ـ. هل تريد أن تساعدني على النهوض؟

بدأتُ تحت إلحاح مريمة أخرج إلى الصيد. لا أجروْ على الابتعاد كثيراً، ولا على قضاء أكثر من يومين أوثلاثة، لأنها تشغلني. ازداد

نحولها بشكل ملحوظ. حتى والدتي نفسها، التي لا تتوقف إلا عند خصوصياتها، علّقت على ذلك في الأسبوع الفائت.

ـ ربما كان عليك أن تنتبه إلى مريمة أكثر قليلاً، خاصة وأنه لا يوجد عندك الآن شيء أكثر ضرورة تفعله. ـ قالت لي بسخرية بليغة.

لم أكن قط هاوي صيد متحمس. أدرك أنَّ أميراً من قشتالة، في عصر لم تكن فيه الملكية في خصام تام مع الثقافة، يستطيع أن يكتب بأن الصيد: «شيء نبيل ووجيه ولذيذ»، لكنني ومهما حاولت لا أتمكن من إقناع نفسي بالتلذذ بطعمه. أعترف بأنه يساعد على التخفيف من الآلام التي يأتي بها الفراغ للروح والجسد. فالممارسة التي يفترضها وتجمُّع الأصدقاء والمنافسة السليمة، والطيور الفرورة، وسرعة الكلاب العجيبة تشدني. ومع ذلك ماأن تتحقق المطاردة ويُحدَّد مكان الصيد حتى أوقف المسيرة التي قادت إليه. لأن أناقة مالك الحزين وعناد الخنزير الجبلي الجهم وقوة الحجل المحزنة ورشاقة الأيل تجذبني.

لا أعتقد أن هذا الموقف ناتج، كما يقول فرج، من إفراط في النعومة أوالمشاعر، ولا حتى التماثل مع الضحايا، الأمر المفهوم لأنني واحد منها. الأصح هوأنني أجد حياة الحيوانات، المحكومة والمسيرة من قوانين الطبيعة، المتناغمة معها تماماً، رائعة وأن الصيد كنوع من اللعب مخالفة لقانون أجهله ويقهرنا، وكنا جميعاً خاضعين له ذات يوم، وبدأ الإنسان يزدريه عندما راح يخسر أمام ما كان يرتئيه.

لم تصل إلى أيامي مجموعة الحيوانات الغريبة التي كانت موجودة في الغابة تحت الحمراء، والتي طالما مدحوها لي في طفولتي كمعلومة عن التألق المسرف للأسرة. صحيح أنني لم أصطد كثيراً في غابات الجبال. فتجربتي قصيرة جداً. ذهبت وأنا مراهق مع عمّي، في شهر تشرين الأول إلى جبال فينيانا وقتلت خنزيراً جبلياً. تأخرت كثيراً حتى نسيت ـ ولم أتمكن من ذلك تماماً ـ الحقد الصارخ، الذي أبداه نحوي بينما كان يموت. بأي غريزة مستغلقة عرف بأنني أنا بالضبط مصدر موته؟ وإذا كنت أتذكر تلك الأيام بحنين فذلك لقرب أبي عبد الله مني، الذي كان يتزايد مع العزلة، وليس بسبب الموت الذي زرعناه حولنا (على فكرة هوأكثر مني بكثير.). وقتل كائن ملكيته الوحيدة حياته ـ الخالصة والبسيطة غير المعقدة ولا المضاعفة ولا المجمَّلة كحياة الكائنات البشرية ـ ربما كان أخطر جريمة بالنسبة إليَّ. يقول برث لوبث ده أيالا،

وهومستشار نصرانيّ، بأن الرجال يحصلون في الصيد على المتعة دون خطيئة، مستفيدين ومستغلين الأشياء التي خلقها الله ووضعها في خدمتهم. أود لوأقتنع بهذا مثله.

على الرغم من أنه من الممكن أن يكون هذا التفكير مجرد تمرين سطحي للجدل. فأنا لا أمقت شواء من لحم العجل أوالخروف وهوعندي طعام رائع، ففي عيد الأضحى أنحر ـ وإن كان بتغلبي على نفسي ـ الخروف ولا يخطر لي أن أقرف من طبيخ الأرنب، فأول البارحة أكلته. ربما كانت محاولتي ألا أكون أنا من يقضي على الحيوان، وأنني أتمتع بعدها بأن الآخرين قد قاموا به، برهاناً آخر على أنانيتي. المسألة ليست في نهاية المطاف مسألة أخلاق وإنما مسالة ذوق جمالي. فقطع قفزة في عنفوانها أو تحليق أو صدح أوصيحة الرغبة بالآخر لا يُولد عندي أي رضى، بل على العكس يُولد ندماً لأنني قطعت عليها احتدامها الجميل.

طبعاً، إذا استبعدنا الكتب، فما التسلية الأخرى التي أستطيع أن أجدها هنا؟ لقد خلطت لعدة أسابيع بين الرياضتين: القراءة والصيد. وقد أحضرت معي عدداً من الكتب عنه. وأفضلها ـ الذي منه تستمد جميعها ـ هوكتاب عيسى بن عليّ الأسدي، الضليع في التصقّر وملهم النصارى. رسالته الدقيقة تحكي بالإضافة للطيور والكلاب، عن طريقة مطاردة الأرانب وإعداد الشباك، وعن وقت اجتذاب الطير وأماكن الصيد المفضلة. لا أعتقد أن هناك من هو عالم بالحيوانات مثله.

سمعتني مريمة يوماً أتكلم، بارتياب، عن *كتاب الصيد* لدون خوان مانويل، وعن الطيور السبعة عشر المدربة التي يجب أن يملكها برأيه كلّ سيد عظيم، كي يحصل على صيده الأكيد. وقد جمعت مريمة بمهارة وصبر المجموعة كاملة، مكلفة هذا وملزمة ذاك: سنفور، صقر وهما صائدا سنقيل كفوّان، أربعة شواهين مدربة، لا تأتي بالضرورة من منطقة لبلة، وإنما من منطقة إلى الشمال منها بكثير. ستة بواشق شديدة احمرار الساقين، تحافظ فيما بينها على عداوات قاسية وصامتة، باشق فريسته الحجل، وآخر فريسته البط وثالث فريسته البلشون الرمادي، ودرّاع اكتشفه ابراهيم القيسي في منطقة مستنقعية قريبة يطارد الأرانب، وباشق للسنفورات والعصافير الصغيرة، يؤيؤ شبيه جداً بالباشق، لم أكن أعرفه ولا حتى بالإسم. وإذا بدا هذا قليلاً، تخطت مريمة قائمة دون خوان مانويل، بأن أكملتها بصقرين ملولين مقترني الحاجبين واحد منهما مصدره شمال أوروبا وثمنه كان جواداً جيداً، والآخر فينيق ومصدره

مراكش.

ـ وثمنه كان جملاً، أليس كذلك؟ ـ مزحت.

ـ لا ـ أجابتني مريمة ضاحكة ـ إنه هدية من السلطان.

ـ لقد كان البيازين لزمن طويل ربضاً لمربي الصقور ـ أضفت وعدت لأتيه في غابة الذكرى الوارفة.

ـ يا أبا عبد الله ـ هتفت مريمة لامسة يدي ـ ما زلت هنا. أعرف بماذا كنت تفكّر. لكن هل تعرف أنت بماذا كنت أفكر أنا؟ بقصيدة قرأتها لي في برقونة: تلك التي خصصها أحد الحجاب للمتوكل، سلطان بطليوس الشجاع. نسيت بدايتها، الجوهري فيها هوما يلي:

زَيَّنتَ عنقي بطوق فضائلك فزين يدي بصقر صافي الجناح
لوت ريح الشمال ريشَهُ. لأخرج فخوراً في السحر
فتلعب بالريح يدي فتقنص الحرَّ بالمقيَّدِ[1]

ـ كانت توجد صقور في غرناطة.

ـ في غرناطة ما يزال يوجد من كل الأنواع.

ـ ربما باستثناء السلطان ـ أطلقت تنهيدة ـ معك حق، يا مريمة، التذكير بحد ذاته ليس سيئاً ولا حسناً: فالأمر يتعلق بما يتم تذكّره.

في قرية تقع في محيط القصبة، أقاموا حظيرة كلاب الصيد. جميع كلاب المطاردة متشابهة وذات خشونة محببة، مثل رعاة اعتادوا الوعورة. شكورة ومشدودة لصوت مدربها، ومع ذلك تعرف أنني صاحبها، وأنني أنا من يجب أن تخدم في الصيد. هناك واحد يجب أن يعزل عن الآخرين: إذ تقوم بينها امتعاضات ـ قائمة ولا شك على أساس، رغم بلادتنا في فهمها ـ أوعراكات، تكون عادة صامتة وقاتلة، تنفلت مثل صاعقة بين اثنين. وعندئذ يضعون حلقة إلى طوق المعزول ويمكن للطوق أن تربط بحبل طويل مثبت بين شجرتين متباعدتين، وهذا ما يسمح له بحركة واسعة تخفف من قيده. «كنت قد قدرت كثيراً هذا الاختراع ـ فكرّت ـ خلال أسري في برقونة أو كاسترو، رغم أن التقدير يمكن أن يكون الآن أكبر، الآن في هذا الأسر في أندراش.»

---

(1) أيضاً لم أعثر على هذه الأبيات (المترجم)

عندما أتأمل الريف الوعر والمفتوح حولنا في آن معاً، أشتاق *لهرنان*، الذي لا بدّ سيكون سعيداً لوكان موجوداً. ماذا تراه يفعل الآن؟ تراه يشعر بأنه يتولى واجب حراسة ومرافقة ولديّ؟ كيف حاله مع أحمد؟ وحال أحمد وهوالأصعب؟ الكلاب والأطفال يحذرون من يحبهم ومن يحبون، دون أن يطرحوا الأمر على أنفسهم. (أود لويحدث الشيء نفسه معي: أيضاً لم أكن فطناً في هذا.)

عندما قفز في هذا المساء أرنبٌ من تحت قدميّ، تصورت مفاجأة *هرنان* واغتباطه وهويلاحقه. أوربما وقد اعتاد على البشر، خُرِّبت غريزته ـ ما أسوأ تأثيراتنا ـ وصار يفضل صحن أرزِّه مع الجزر واللحم، أوالقذارات التي يأكلها خلسة، وتبدوله طعاماً لأنها ممنوعة أومسروقة.

بين الكلاب الضامرة المكونة من الريح وحدها، والتي يتقوس صلبها المطواع والمتموج تحت ملاطفة يدي، يوجد واحد أسود يدعونه *سرعة*. إنه آية من التناسق. عيناه خضراوان ومقتنع تماماً بجماله، إلى حد أنه لا يكاد يتحرك إلا في المطاردات المجنونة. يمكث رصيناً، شبه نعس تلفه كبرياؤه كما يتصوَّرُ كيف يكون الملكُ من لم يصبحوا ملوكاً قط.

توصلت إلى الاقتناع بأن هرناندو الصفري قد أحاطني بالجواسيس في أندراش. لكن الأمر سيانٍ عندي: ما من تآمر هنا، فعندما لا يكون ممكناً الحفاظ على العرش مِنْ على العرش، كيف سيستعاد وقد ضاع؟ ما يزعجني هوألّا أعرف من هو أو من هم. أفترض أنهم يشكلون جزءاً من الخدم، وأنه من الممكن أن تكون مهمتهم التجسس على ابن كماشة والمالح أكثر مما عليّ أنا، وهما اللذان ينقلان إلى الصفري أوثق الأخبار عني. هذا إذا كان هناك من خبر موثوق بالنسبة للدساسين. لا أريد أن يتملكني هوس هذا التجسس، لكن في مكان لا يحدث فيه أي شيء ينزع المرء إلى التركيز على الغريب من الأمور: خشخشة ظنَّ أنَّه سمعها خلف طنفسة، خطوات فرورة تبتعد أوكما حدث ليلاً، قصعة تسقط في الظلمة من صوان (تلقائياً كما يبدو، كما لوان القصعات هنا تنتحر).

يقترح فرج أن يستجوب جميع سكان القصبة وفي مقدمتهم الخدم. وروح فرج من الشفافية بحيث أنه واثق من أن مهنة التجسس تُستشف في

العيون. منعته من فعل ذلك. وأكتفي بقول جمل متناقضة، منثورة عرضاً في الحديث: «ما أن يعيدوا إليَّ الأميرين - أقول مثلاً - حتى أعبر المضيق.» كي أضيف بعد لحظة: «عندما يأتي الأميران ستعود أندراش لتصبح الحمراء مرة أخرى، ولن نشتاق إلى شيء. خير لي أن أنهي أيامي متقاعداً هنا. الخزامى والريحان ينموان سريعاً: في سنتين...» وأخرس فجأة. عامان من السأم الثقيل، من السبات الإرادي لأمحو ذاكرتي، كي أنسى ما تعلمته كي أؤجل الماضي. ما أطولها من مدة وأنا أنظر إليها الآن. ربما كان عليَّ قبل أن أنظر إلى المستقبل، هذا إذا كان هناك مستقبل، أن أغمض عينيَّ زمناً طويلاً، أن أنام أو أتظاهر بالنوم. أو ربما العكس: أن أفتح عينيَّ مثل صحنين، لكن على الحاضر فقط، كي أراقب بدقة كيف ينمو الريحان والخزامى.

تدخل الشمس من النافذة مثل كلب سلوقي مذهب. تزحف إلى قدمي على السجادة، وتلعق هذه الأوراق التي أكتب عليها. إنها في كل يوم أقوى من سابقه، فالطقس هنا متطرف. الصيف الذي يقترب سوف يكون قائظاً. اليوم اضطررت لأن ألجأ إلى الداخل، ففي الخارج حتى الظلّ كان يلتهب على الرغم من الساعة. تمشيت وحدي. ابتعدت أكثر من المعتاد عن البيت وفجأة اكتشفت أنني كنت أرنّم. لا أدري لماذا شعرت بقليل من الخجل. ممّ؟ من أنني فرح؟ من أنني فرح دون وعي مني مع أنها أفضل طريقة للفرح، أو الوحيدة؟ ظلمات كثيرة تحيط بي، ومع ذلك فقلب الإنسان مثل بئر يمكن أن توجد فيه عقارب وماء قراحٌ أيضاً. هل عليّ أن أرفض هذا الصفاء لأنه أخرق قليلاً؟ أليس أرقي الذي يتكرر يومياً، هو ما يمنعني فعلاً من النسيان؟ متى سأتعلم أن أهجر نفسي، أحلّ عقالها، أترك الحياة تسيِّرني دون محاولتي فرض مفاهيمي عليها؟

رغم أن الفجر ما يزال مظلماً فالنهار يوشك على البزوغ
والوجه الذي يلتفت إلى الشمس وضّاء كالفجر.

البارحة قرأت هذا. والشاعر الذي كتبه كان على حق مثل كل شاعر حقيقيّ، لأنه على أكثر من الحق بكثير.

شق الليل روحي بحديثه العذب. أستغرب أن يقول أحد إن الحقيقة مُرّة قوت البشر من الخارج وقوت محب الحياة من الداخل: يجتر ويمضغ مثل جملٍ.

مامن أحد عاقل يعرف الطرب الذي يتسع له رأس سكران.

لوأن الجنة لا تدور حيرى وعاشقة كدرويش لتعبت من دورانها وصاحت:

كفى، إلى متى، إلى متى؟

ليلاً دخل فرج إلى غرفة نومي. كان الحقل قد صار كله جداجد حلّت محل الزيز، لكن ليس كلياً، فبعضها ما يزال موجوداً، ينعشه الحر الذي لم ينقطع مع الفجر. بقي فرج زمناً طويلاً واقفاً أمامي دون أن يتكلم إلى أن فهمت ما يريد فابتسمت. عندئذ قام بحركة من سيذهب، لكنه سألني قبل ذلك:

ـ ألست بحاجة لشيء؟

ـ بلى ـ أجبت.

مريمة لا تتحسن مع الحر. تبقى خامدة، زائغة العينين، مُكتَّفة اليدين في حضنها. ولا تبدي أي اهتمام إلا عندما أتكلم، لكنها كانت تبلغ من التكلُّف حد أنني صرت أشك بما إذا كنت أفعل خيراً بتوجهي الكلام إليها. وذات ليلة انخفضت حرارتها فشجعتها. اقترحت أن أقرأ لها بعض القصائد، وحدنا، أوأطلب الموسيقيين، أوأن نزور الحديقة، التي كانت قد ازدانت بالياسمين. كان القمر هلالاً. والليل يتبدى كأنه فاحش. ابتسمت مريمة رافضة بحركة من رأسها.

ـ كل ما أريده موجود هنا ـ ومرّت بيدها على ذقني ـ وكل ما أملك موجود هنا. لا تقلق، ليس بي أي شيء. عندما كنا نشتهي شيئاً ما أحياناً ويطول به الوقت ثم نحصل عليه أخيراً، كان يغمر قلبنا نعاسٌ ما. وكنا نفاجأ، نحن أنفسنا، من أننا لا نقفز فرحاً. لا نقفز، ـ ابتسمتْ أكثر ـ لكنني سأقفز إذا ما طلبت مني ذلك ـ ثم أضافت بصوت منخفض أكثر ـ: كثيراً ما تملأ الحياة، الغافلة جداً، أيدينا بالأزهار وتنسى أن تعطينا المزهرية.

كان الصمت الذي أعقب كلامها من العظمة بحيث أنني سمعت خلف صوت الجدجد رقرقة الماء في البحيرة. جلست إلى جانب مريمة. أخذت يديها. بدأت دون أن تتوقف عن الابتسام، بالبكاء فبلَّل الدمع ابتسامتها. قبلت دموعها باحترام عميق وغبيّ.

كان المالح يسمن نتيجة الخمول، غير التام، فهولا يتوقف أبداً عن الدسّ. على العكس منه ابن كماشة الذي هو في كل يوم أكثر نحولاً وضموراً: ليس على ما يرام هنا. وفي المرات القليلة التي يلتقيان فيها

يشكلان ثنائياً مضحكاً. وكل يأتي على حدة، بأخبار لا تسر.

علمت أن الملكين الكاثوليكيين استغلاً فرح الربيع اللطيف، ومنحا مهلة ثلاثة أشهر لليهود الذين لا يتنصرون كي يغادروا ممالكهما. يستطيعون أن يخرجوا معهم أموالهم ـ يؤكدون لي ـ باستثناء الذهب والفضة والنقود. ما الذي سيخرجونه إذن: بيوتهم وأراضيهم على أكتافهم؟ هل سيحملون على أكتافهم كنسهم وحوانيتهم وخيولهم؟ ما أكبر حجم الوحشية والظلامية. حتى ولوكان إلههم هوالإله الحقيقي الوحيد فعليه أن يعاقبهم. أتصور اليهود الذين يسكنون أسبانيا هذه منذ ما يقارب الألفي سنة يقايضون كرماً من العنب بحمار ينقلون عليه أولادهم، أوقصراً بعربة، أوبستاناً بنسيج من القطن أوالكتان يغطون به صندوق كتب طقوسهم الدينية. هنا أسسوا صهيونهم وهنا ازدهروا وساهموا في ازدهار الجميع. والآن يجبرونهم، رفساً، بأن يقولوا وداعاً، وداعاً للمكان الذي ولدت فيه نساؤهم ودفنوا موتاهم، وداعاً للمكان الذي أرسوا فيه أملهم مثل برج على صخرة. أملاكهم بُعثرت، وتلاشت عائلاتهم. ومن جديد إلى الصحراء، ومن جديد يعلقون قيثارهم على الأشجار. ما كان سيصبح سرمدياً انتهى في يوم واحد. لم يبق لهم غير العقيدة، وبالضبط العقيدة هي ما يطالبونهم بالتخلي عنها.

من المناسب أن نتعلم ممن درسهم، وأخاف أن يكون علينا أن ننظر إلى أنفسنا في مرآتهم.

قال لي المالح:

ـ هل تتذكر يا مولاي، ذلك الفقير الذي كنت أستغرب رؤيته في فسطاط الإيمان المقدس عندما ذهبت لمقابلة الملكين؟ كان يشبه الشرفاء القشتاليين، ليس عندهم ما يأكلونه ويقتنعون بأنهم شرفاء، يسرقون قطعة شحم خنزير ويلتهمونها بأبهة ملكية، أويحتفظون بها كي يفركوا بها شاربهم ساعة الغداء ويتظاهرون بأنهم أكلوا. كان رجلاً ثمل الثياب، ملفعاً بدثار بالٍ، له عينان براقتان تماماً. كان يهيم، دون أن ينام، ليلاً ونهاراً في شوارع المعسكر. سألت الصفري، مستغرباً مظهره، من يمكنه أن يكون «ليس بأحد ـ أجابني ـ إنه مجنون. يتحدث بأنه سيجعل طريق الهند من الجهة المعاكسة للطريق التي استخدمت حتى الآن. ويكرر بمناسبة وبغير مناسبة، بأن الأرض كروية. وأنا لا أفهم بهذه الأمور، يكفيني تجار غرناطة. لكن لوكان الأمر يتعلق بي لطردته. لأننا لم نشوِ حتى الآن وندهن خبزنا. هؤلاء المجانين ليسوا خطرين إلا عندما

يتجاوزون الحد أوعندما يثق بهم أحد.» والنتيجة الآن يا مولاي، أنهم منحوه ثلاث سفن كي يحاول القيام برحلته في الاتجاه المعاكس. يقولون بأنه كان أمراً من الملك البحار أكثر من الملكة، فقشتالة لم تر البحر ولا في الخرائط. ويقولون بأن البرتغال متحمسة كثيراً له وأن استباقها سياسة جيدة. هذان الملكان في صعود لا شكّ في ذلك. إنهما مثل أولئك الذين يجدون كنزاً فيتبجحون، بدل أن يخبئوه، وينفقون على هذا الأمر وذاك ويهدرون كلّ شيء. الشيء الوحيد الذي ليس واضحاً بالنسبة لي هومن أين يأتيان بالأموال. لأنهما لم يجدا كنزاً على حد علمي. إذا لم يكن اليهود... لكن الكنز لا: ما رأيك أنت يا مولاي؟

كان ينظر إليّ متمعناً، متحققاً مني، كما لوأنني تركت كنزاً مطموراً في الحمراء.

- إذا كنت أنت لا تعرف - قلت له - فهذا يعني أنهم لم يعثروا عليه.

رحتُ أفلي كتبي مدفوعاً برواية المالح. مضى عليَّ وقت كاف وأنا غارق في كتب العلوم والفلك وعلم الملاحة، وخرجت بنتيجتين: الأولى هي أنني ومهما اعتقدت بأنَّ معرفة الأندلسيين كبيرة فالواقع يؤكد أنها أكبر، والأخرى هي أن الدراسين، إذا كانوا مخلصين لميولهم، يكونون أكثر توحداً ويتشابهون فيما بينهم أكثر من بقية البشر: لا يهمهم من يكون الملك ومملكته لأنَّ علمهم كوني ووحيد، ولا يمكن أن يوضع في خدمة أية سلطة طموحة أو في خدمة الدمار.

إن اكتشافاتنا الفلكية ومخطوطاتنا العلمية قد تمثلها النصارى بالتعاون مع المستعربين واليهود. فالإسلام الأندلسي هوالذي ألهم الملك ألفونسو، الذي يلقبه القشتاليون *بالعالم*، وكان معاصراً لسلفي *الفقيه*. والعلماء الغرناطيون الذين أزعجتهم الظروف المنهكة للمملكة هاجروا إلى أفريقية الصغرى والشرق، فحرضوا بهذا الشكل على التبادل العالمي.ومن الغرابة أن يرى المرء كيف أن الثقافة الأندلسية تأتي من أقصى بقاع العالم، وتستقر هنا وتسافر من جديد إلى أقصى البقاع. فالعلوم والمعرفة هي فوق كل العداوات بين الحكام واهتياج الأديان.

لقد سرّني اكتشاف أن رياضيين أندلسيين اشتغلوا لصالح الوزير الفارسي رشيد الدين بل وأيضاً للمغول. وابن أقين، الذي كان تلميذاً لابن

ميمون، ويحيى بن أبي شكر الغرناطي هما مثل على هذا وذاك. ولقد عرفت من خلال رواية فلكي رحالة، وهومالك ابن الهيثم، في أحد كتب الحمراء، أنه تم التوصل في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وفي ثلاثة أماكن مختلفة إلى ملاحظات تقود إلى ألواح فلكية متشابهة في وقت واحد. فمن جهة هناك هولاكوالقائد المغولي، الذي دمر حصن الحشاشين في ألموت ووزيره الزين (الذي كان له اسم كلبي نفسه)، وضع، بمساعدة الأندلسي أبي الشكر، الألواح العليانية في الشرق. ثم هناك في أقصى الغرب ألفونسو العاشر، الذي عمل معتمداً على معارف جابر بن عفلا، ألواحه، التي حرّرها اسحق ابن السيد. ثم هناك أخيراً أقدم الثقافات التي عملت حول الموضوع نفسه في بكين، حيث صقل تشا ما لوتينغ الأدوات الدقيقة لاختبار الكسوفات. وأكثر ما يملأ نفسي بالرضى هوأن أتبين أن اسم تشا ما لوتينغ، ليس إلا تكييف الاسم العربي أيضاً، جمال الدين (رحمه الله ورحم كلبي أيضاً) للحناجر الأخرى.

ذلك أن الإنسان ـ خاصة المسلم ـ كلما ازداد علماً كلما غاص في الطبيعة، وفحصها بتأنٍّ واحترمها كينبوع للمعرفة. لواتفق البشر جميعاً عبر ذكائهم، من المحتمل ألا يكون قد كتب ذلك المتشدد:

لا أثق بالإنسان المضخَّم لقوته ولا يأخذ بالحسبان القوى التي يجهلها

ربما كان سكان الكواكب المجهولة أكثر جدارة منا. ففيهم يكمن أملنا الأخير. منذ وقت قصير ـ هل هوقصير؟ ـ قرأت عن آلات قياس الوقت. استدعى سلفي *الفقيه* إلى غرناطة، المرسي ابن راغان، الذي صار فلكيّه وطبيبه وكان يعرف عن الساعات الشمسية أكثر من أي شخص آخر. وعن الساعات المائية هذه الساعات الغامضة، كان أبوالقاسم بن عبد الرحمن، الذي عمل بدأب وغموض في طليطلة، أكثر من عرف عنها، وقد بنى في ضواحيها، على ضفاف النهر، بركاً كبيرة كانت تُملأ وتُفرّغ بحسب دورات القمر ـ كان القمر يحكمها كما يحكم المد والجزر ـ إلى أن عطّلها أحد ملوك النصارى كي يتقصّى عملها.وكانت توجد طريقة أخرى لقياس الوقت أكثر غموضاً من سابقيها: الساعة الفلكية، التي تتكون حسب ما يظهر، من دائرة بسيطة من النحاس مثقبة، وفي محيطها محيطان يحددان الساعات والشهور، يجب أن ينظر عبر الفتحة إلى نجمة القطب الهادئة، بالحفاظ على القرص على بعد نصف شبر من العين والانحناء على بعد شبر باتجاه الذقن ونصف شبر عن الجبين.

أمرت بصنع جهاز يكون مثل أبسط جهاز وصف في الكتب، لكنني لم

أملك في مراقبتي صبراً ولا نجاحاً. لست عالماً، لا ولا تلميذ عالم.

قبل ذلك بكثير، عرفنا ومنذ القرن الحادي عشر في الأندلس ألواح الميل الشمسي على امتداد العام. وكان يستخدمها المؤذنون لتحديد مواعيد الأذان. رأيت بعضها في الحمراء وعليها آلاف الأرقام. أحدها كان قد حسبه ابن الكماد الغرناطي منذ ثلاثمئة سنة. ولا أستغرب أن يكون هذا الملاح الفذ الذي ذكره المالح قد حصل على شيء مشابه من غرناطة. لقد قيل دائماً بأن المسلمين ـ محتدهم البحري نادر في الصحراء ـ كانوا بحارين سيئين. الآن صححت هذا الرأي.

ألم يخترع شرف الدين الطوري (أيضاً الدين مثل كلبي أسكنه الله فسيح جنانه[1]) الاسطرلاب، وأحضره إلى الأندلس ابن رضوان النميري، *الوادي آشي*؟ ألم تكن كل الرياضيات المطبقة على الملاحة في أيد أندلسية؟ ألم يكن أسطول خلافة قرطبة هو الأمهر والأكثر مخاطرة وجابت قطعاته برئاسة ابن رميس أو ابن غالب من ايرلندة وحتى مسينا بوسائط توجيه متقدمة ومتجددة في تحديد الموقع والقياس والمحافظة على الاتجاه، التي كثير منها لم يعرفها أوربما بدأ يعرفها الآن هذا الملاح الباذّ، بعد خمسة قرون؟

البوصلة وحسب ما أستخلص مما أقرأ، ليس دون عناء كبير وبالتطبيق الكامل، هي أيضاً اختراع أندلسيّ. فدونها ما كان باستطاعة العذري أن يصف قط جغرافية الأندلس. أمام عينيَّ الآن نسخة من القرن الثاني عشر، العذري يتحدث، بما يشبه السحر، عن صيد الحيتان في ايرلندة ويذكر الموانئ الأفريقية المواجهة تماماً لمثيلاتها على الشاطئ الأندلسي: مقابلها تماماً، الأمر الذي كان من المحال وضعه دون بوصلة، كائن ما كان نظامها.

أحد الكتب الذي مصدره مدينة الزهراء هو *عجائب الهند*. أدرسه باستفاضة وبعدم كفاءة أيضاً. هناك خبر أربطه بكروية الأرض التي يعزوها المالح إلى بحار مدينة الإيمان المقدس. في القرن العاشر يبحر رجل قادشي في سفينة عبر خليج البنغال، تباغتهم عاصفة فتغطي الخليج النيران، يهدئ الأندلسي الملاحين والركاب لأنه كان قد حضر هذه الظاهرة على شاطئ بلده نفسه. ويعلق المؤلف بأن هذا الضياء الألق ـ ماذا أسميه إن لم يكن كذلك؟ يظهر أيضاً في الخليج العربي. أليست هذه

(1) يخلط المؤلف بين كلمتي الدين والزين (المترجم).

مصادفة عجيبة؟ في الفقرة نفسها من المخطوط هناك تلميحات إلى الاتجاه تدخلني في تخمينات ربما كانت خاطئة.«لم يعد يُرى - يقول - نهار ولا شمس ولا قمر، ولا نجوم نستطيع أن نهتدي بها: لقد دخلنا تحت تأثير نجم سهيل.» وقد رجعت إلى الكتب الأساسية - فالليل والنهار صارا لي - وتعلمت أن سهيلاً هوالنجم المساوي للجدي، وهو يساويه بمعنى أنه نجمة القطب الشمالي، الثابتة كطليعة والأخرى تسمى سهيلاً وهي التي تهدي الملاحة في النصف الآخر من الكرة.

إن النظر إلى ترامي السماء، المزدانة بكواكب متلألئة، من هذه الأرض التي تكاد تكون مقفرة يسبب لي قشعريرة، وفي الوقت ذاته راحة كبيرة. فالإنسان ليس أكثر من شرارة تعبر صدر الليل العريض، لكن الليل مطلق. ربما واسى هذا الشرارة.

أشعر بالفخر والاعتزاز، مثل طفل يبدأ التهجئة، باكتساب هذه المعلومات والربط بينها. كثيرة هي المرات التي لا أحللها فيها جيداً، لقد أضعت وقتاً طويلاً في التوافه. وأجد تعويضاً عن هذا التضييع في أنني كنت وإن لم يكن بجدارة، سلطاناً لما تبقى من شعب حمل في يديه خلال عصر لامع صولجان المعرفة.

يؤكد لي المالح بأن البحار ذا الدثار البالي يدعى كريستوفرو كولون وأنه من أصل يهودي. ولا يفاجئني هذا أبداً، فكل من حول هذين الملكين يهود: أمناؤهما وإداريوهما، ومن يدينونهما المال ويحفظونه لهما. ويهود هم الذين جهزوا لهما الوثائق لطرد اليهود.

ولا يغيب عن ذهني من هم أشد معاناة بين هؤلاء. يحكون أنهم ينزلون بإجهاش متواصل من قشتالة إلى الموانئ الأندلسية من حيث يبحرون. يبكون على ما مُنعوا من حمله، وما من المحال عليهم حمله مادياً، على من يطردونهم وعلى الذين تلقّوا العماد وبقوا، أعطوهم المناديل واضطروا لأن يعضوا على شفاههم وأرواحهم ويرضوا بما كان يقدمه لهم المتعسفون. هناك يهود ماتوا نتيجة ابتلاعهم ذهبهم كي يعبروا به الجمارك وهوفي بطونهم، كما أكد لي المالح أنهم فتحوا بطن امرأة، بعد أن أصبحت جثة، فوجدوا فيه أكثر من ستين دوكادو، فالقنوط كان يدفعهم إلى الموت.

لقد عبروا بعض طرق عدرة غير البعيدة عن هذا المكان. أعلمني بشير أنهم كانوا يروون الأرض بدموعهم.

كثير من الشيوخ كانوا يجلسون على حافة الطريق كي يموتوا، فهم يرفضون في آخر حياتهم أن يبدؤوها من جديد في مكان لا يمكنهم أن يتصوروه. يتجرجر المرضى والمقعدون والحبالى والأطفال بأقدامهم الدامية مثل الحيوانات، جميعهم يرحلون معوزين والرعب في عيونهم وقد حرموا من أمتعتهم وأثاثهم، لا تحميهم غير عقيدتهم.

يقدّم لهم النصارى في القرى التي يمرون فيها، ككل نجدة، التنصر والعماد. يقول بشير بأن حاخاماتهم يجعلونهم، كي يخففوا عنهم وهم يبكون بكاءً غزيراً، ينشدون أناشيدهم ومزاميرهم وينقرون على الدفوف، كما لوأنهم ذاهبون لزيارة الأماكن المقدسة، النساء كن يسقطن عن مطياتهن من الحزن، والرجال ينتفون شعرهم والفتية لا يعرفون إلى أين ينظرون ما لم يكن إلى الموت.

اليوم استدعيت الطبيب ابراهيم، الذي ظهر أنه كان نبياً في شريعته. يسرني أن يموت قبل أن تكتمل نبوءته.

مرت هذه الأسابيع الأخيرة بسرعة أكبر من سابقتها. ربما كان السبب يكمن في أنني لم أتوقف لأرى كيف تمر.

أمر واحد جديد. مات في آب بفارق ستة أيام بينهما، عدوّانا الرئيسيان: دوق شذونة ومركيز ودوق قادش الأشقر. سعداء من يرتاحون، هذا إذا ارتاحوا، بعد أن تنتهي مهمتهم.

كل ماكان بين هذين الشريفين متناقض: تكوينهما الجسدي، أسرتهما، أهلهما. ومع ذلك أبى الموت أن يفصل بينهما، وإذا كان هناك حياة أخرى فماذا سيعمل الواحد منهما دون الآخر، إذا كانا قد تفرغا في هذه إلى المواجهة فيما بينهما أكثر مما تفرغا لمواجهتنا؟ كنوع من السخرية فاجأ الموت الأول في سان لوكار وقريباً من أملاك الثاني، والثاني في أشبيلية، حيث جرت أكبر المشاجرات مع الأول، ووجد نفسه مجبراً على الخروج منها.

سمعت اليوم، في الضحى العالي، جياداً وعجلات. وبما أن ابن كماشة والمالح كانا موجودين فكرت بأنه يمكن أن يكون أحد زوارهما الغرناطيين (رغم أنني لا أشجعهم على زيارتهم كيلا ألهب فضول الجواسيس ولا شكوك الملكين). وفي الحال سمعت صياح النسوة ينادين على مريمة وأمي ونباح كلب صاخب. أنا نفسي لم أكد أصدق، لكن ودون تفكير ـ ربما كان هذا هوالطريق الأفضل للمعرفة ـ كنت على يقين بأن هذا الكلب إنما هو *مرنان*.

هرعت نحواللغط في المدخل. كان ولداي هناك محاطين بالجلبة. ومريمة في غاية الجدية، تعانقهما مغمضة العينين وجالسة القرفصاء. *مرنان* الذي فقد كل تحفظ وثب عليّ بقفزة واحدة.يدا مريمة تتحركان على وجه الصبيين كما لوأنهما تتأكدان من ملامحهما. فكّرت: «إنها تثق بهما أكثر من عينيها، و*مرنان* يثق بلسانه أكثر» عندما فتحتهما مريمة بعد ذلك بكثير كانت قد صارت امرأة أخرى، تضحك مقهقهة، تقفز على هذا القدم وذاك، تضرب كفيها في الهواء، حتى أنها دفعت أمي كي تنتزع يوسف من ذراعيها. فتحت بعدها ذراعيها على مداهما وصاحت لي ووجهها إلى الأعلى باهرة: «أبا عبد الله» فكّرت: «هكذا يجب أن يكون يوم القيامة».

من فوق كتف مريمة، التي كانت تعانقني، رأيت فرج. (فكرت أيضاً بأن هذا يحدث لأول مرّة). كان متقاطع الذراعين تعلوه علائم فرح وقّاد. أومأت إليه بأن يقترب، فأحطنا نحن الثلاثة بالطفلين، كما في لعبة الأطفال حيث الجميع يدورون: خمسة أجساد بتصرف خمس أرواح يداعب بعضها أيدي بعض دون أن تدري لأي تكون. كان *مرنان* في هذه الأثناء يلعق الجميع بنهم وآن معاً.

دونما سابق إنذار بدأ يهطل مطر ناعم، والجميع يصيح ويضحك ـ بمن فيهم *مرنان* ـ فهرعنا إلى الداخل.

تركت لأيام كثيرة هذه الأوراق جانباً. ليس لأنني انشغلت بأشياء أخرى: فأنا لم أقرأ، ولم أصطد، ولم أستقبل أحداً.

أخاف أن أكتب ذلك، لكنها الحقيقة: لم أفعل شيئاً آخر غير تعزيز سعادتي.

لم أتصور أندراش بهذا الجمال قط ولا الحديقة مع المطرة الأولى بهذا العبق، ولا أمي بهذا اللطف والتواصل، وكنت قد نسيت رنين ضحكة مريمة وكيف تملأ رشاقة فرج الصباحات تسلية. كيف يمكن ألا أفهم أن العالم كروي وأن هذا النصف من كرة السعادة الذي وصلت إليه من نصف كرة التعاسة هو هدية وحدها يد الله من يمنحها؟

وإذا كنت قد كتبت هذه الأسطر اليوم فذلك لأنَّ الخوف من فقدانها قد داهمني. وليبق هنا ما يدل على أنني ملكتها.

حملوا إلينا من غرناطة أخباراً عجائبية. لقد عاد البحار ذوالدثار البالي من البحر بعد غياب دام عدة أشهر. الجميع كان يتصور بأنه قد غرق. لا شيء من هذا: لقد اكتشف أراضٍ مجهولة فيها بشر مختلفون عنا. ولونهم مختلف عن الألوان التي نعرفها، يستعملون لغات غريبة الأصوات، يحتقرون الذهب ويعبدون أوثاناً عديدة وغريبة. وهوالآن في طريقه إلى برشلونة، حيث ينتظره الملكان.

يملؤنا العالم، كما لوجُنّ، بالتشنج والفرح لكن الفرح يباغت قلب البشر، غير المعتاد عليه، أكثر من الآلام.

إذا كان من الممكن لي أن أرى في مواجهة النور ظلاماً، فهوالرفض غير المرئي تماماً، الذي يشعر به أحمد تجاهي. أحدس أنه لا يغفر لي خلعه عن العرش الناتج عن خلعي، أوالذل الذي عاناه فيّ. لكن ربما كان الأمر يتعلق بتهيُّؤات: هذا ما تؤكده لي مريمة. ومع ذلك يزعجني التأثير الذي تمارسه أمي على ولدي ويقبل هو به.

ـ لو أنه توصل لأن يصبح سلطاناً لما حدث شيء مما حدث ـ أكدت والدتي منذ ايام ـ أحمد صلب وصامت وعنده ذاكرة جيدة للإهانات. لوكان الأمر لي لكنت عملت منه ملكاً رائعاً ـ ثم وبتقطيبة حاجبين تامة ـ: ربما ما زال هذا ممكناً.

فرج يعلم يوسف ركوب الخيل، ويوسف يثبت على جواده الصغير بمسؤولية ورشاقة مثل فارس غماريّ.

ومريمة التي ترتدي ثياباً فاتحة الألوان تماماً، تقول بأنها لا

تستطيع أن تكون في مكان آخر غير الساحة، لأنها تخاف أن يرميه الجواد، والحقيقة أنها تتباهى بظرافة ابنها الصغير، وهي ليست قادرة على أن تبقى ثانية واحدة دون أن تنظر إليه.

تنقسم النسوة للاحتفاء بالصبيين ويتنازعن على شرف خدمتهما.

وإذا ما أمعن المرء النظر يلاحظ أن *مرنان* قد شاخ. عندما يلاحظ أن المرء ليس مشغولاً به يتمدد تحت الشمس، ينكس رأسه عدة مرات ويغفو مثل الأطفال الميتين نعاساً لكنهم يرفضون الذهاب للنوم في غرفهم.

أنظر إلى الجميع. ليس عندي أية رغبة بعمل أي شيء غير النظر إليهم، تماماً مثل مريمة، إلى أن أكتشف أنني أبتسم فأبتسم أكثر.

حتى أن ابن كماشة والمالح (اللذان يشتمّان رائحة مجيء الصبيين ما كانا ليستبقا الخبر لأنهما مجبولين بالشك.) كانا يتصرفان بطريقة أكثر ألفة ولطفاً:يرسلان من بيتهما الصحون والحلوى للغداء أويشتريان لمريمة وشاحات وقياطين وبوابيج مذهبة من غرناطة. ربما من ليس سيئاً - والإنسان ليس سيئاً بشكل عام، بل أنانياً - يجعله تأمل سعادة الآخرين يلتفت إلى سعادته، من هنا يأتي التوق للمشاركة بأية طريقة في رفاهية الآخرين فلربما انعكس هذا على رفاهيته نفسها.

أسجل بشكل مشوش أشياء غير ذات أهمية، فهي تجعلني سعيداً. المهم منها يُعكِّر ويجر إلى التأمل. أود لوتكون لي رباطة جأش *مرنان* الطبيعية، والذي أراه بجوار جدار تحت الشمس: الكلبيون في بلاد اليونان لم يكونوا على خطأ من أمرهم. أسجل هذا بشكل مشوش - أكرر - وعلى عجل.

أقنعني فرج. غداً نخرج للصيد لعدد من الأسابيع في ريف برجة ودالية. الحملة كبيرة العدد ومعقدة مثل تلك التي نظّمتُها للاستيلاء على همدان (ليس في هذه المزحة أية ظرافة).

رحت آلف تدريجياً هذه الفسحات المقفرة والوعرة، ربما كانت الحاجة هي التي تحرّكني. أوأن الأمر يتعلق بقانون من قوانين الحياة. لقد انتهت من حياتي مرحلة الحدائق. يذهلني عريّ الأراضي غير المشغولة، الأراضي البور، التلال الوعرة. لقد قطعنا خلال الأسابيع الثلاثة التي قضيناها في البرية جداول، ستختفي مع مجيء الصيف، والتزمنا

الصمت في المشارب الشتوية، حيث تهبط الطرائد، التي لا تعرف الإنسان، ببطء عند الغروب، تنزل ساعة تخيّم الهدنة فوق الحقول، فتؤجل كل الصراعات للصباح، لقد حضرنا أنواراً سماوية كثيرة وتدرجات لا تتكرر، تلفت النظر فوق هذه الأراضي المغراء، وتتخذ حسب ساعات النهار تدرُّجات ذهبية أولحمية أوتوبازية أووردية.

الطبيعة هنا عائلة لا يحصى عددها، يتشابه جميع أعضائها ويحتفظون فيما بينهم بالمظهر العام الذي يميز الأخوة دائماً. صخور، تلال، حيوانات، غيوم، أشجار معمرة، زهيرات، تحتفظ فيما بينها بشبه واضح. يظهر ذلك بوضوح أكبر في عري الأشياء، وحده الإنسان يبدوغريباً، مثل مغتصب مباغت لم يجد مكانه الحقيقي، ويستبعد نفسه بنفسه. ماذا كنا غير هذا، صيادين ننقض قواعد الحياة غير المكتوبة؟ لذلك ودعت الحقول الصافية، عندما التفت إليها أثناء العودة، بكلمات ابن خفاجة شاعر الجزيرة. وقد خرجت من فمي دون أن أفكر بها:

وداعًا! كلنا محكومون: أنتم بالبقاء وأنا بالرحيل.[1]

ومع ذلك، ربما كان فرج هوالمحق.فأنا لم أره بهذه الجرأة والنشاط منذ أيام الحرب. ذلك هوجوهره: لقد أضعت كل شيء، أضعت الفرج الحقيقي. في الحرب كان يبحث بمعرفة أودون معرفة، عن الموت، لكن ما يتفتّق عنه هنا إنما هو إفراط في الحياة، إفراط يبعث الموت أيضاً، تماماً كما في الحرب.

لا يكاد الجبل ينبض تحت الضباب، ما يزال يرقد غافياً، النور كئيب، السماء كثيفة وكامدة، وبين الحراج الصغيرة لا يحيا إلا الشذى، والخضيري في الأعلى. لكن عندما تنقشع الغيوم المستهترة ويبدأ الرحيل سيفور كل شيء بالحياة. الكلاب السلوقية المتلهفة، تحطم رؤوس الأرانب، تحولها إلى خرق بالية ومعفرة وتأتي بها مختالة. الجوارح تمزق وهي في عز طيرانها طيوراً أخرى أضعف منها، يبقى ريشها طافياً في الهواء بينما تعود الشواهين منتفشة إلى القفاز. الكلاب المفلوتة تخرج الغزال من وجاره، تطرده من زواياه الكثيفة، تحاصره، تدوّخه وتوجهه نحوالصيادين المختبئين، يقلب، بعد أن اخترقه السهم، عينيه كي لا يرى يد الموت.

---

(1) رغم بحثي الكثير في ديوان ابن خفاجة لم أعثر على هذا البيت. (المترجم).

بين ضجيج الصيادين وحوار الأبواق راح فرج يقفز، وقد توردت وجنتاه وتلطخت ثيابه بالدم وهو يرفع الصيد مثل إله وثني قديم منتصر. أنا لم أصطد إلا قليلاً، فضلت أن أراقب بذهول كيف تقوم حيوانات درّبها الإنسان، بوظيفتها كسلاح قاتل ضد حيوانات أخرى. فضلت أن أراقب كيف أن الإنسان ـ فرج وبشير والأصدقاء الآخرون ـ غير واع ووحشي: يفرض العظمة الدامية على الأضعف ويرفض أن يفرضها عليه من هم أقوى منه. وأمام عاصفة من البروق والرعود نشرت فوقنا جلالها المكفهر لجأنا نحن الملوك المسلوبين تحت الخيام بوجوه مكروبة. كنت أبتسم وأنا أنظر إلى الآخرين دون أن يعرفوا السبب.

رأيت ذات ليلة لهب الصلاء الباسم يتراقص في عيني فرج الفاحمتين. لم أتمكن من معرفة أين كانتا تمعنان. في صباح اليوم التالي كنا سنبدل مكان التخييم، لكن بينما كنت أنسحب ارتاحت يد فرج فوق يدي بنعومة حمامة. كان البرد من الشدة بحيث أنه فرّغ رأسي ولم يسمح لي بالتفكير.

ـ هل أنت سعيد لأنك جئت؟ ـ سألني.

ـ بلى، بسببك.

تفتحت شفتاه عن ابتسامة أرقّ من زهرة. «هل هذا هوالرجل نفسه ـ تساءلت ـ الذي يسدد ويقطّع ويسلخ ويمزّق وينتف؟»

ـ اذهب وارتح ـ قال ـ فغداً سيكون يوماً منهكاً.

نهضت. رافقني إلى خيمتي دون أن يترك يدي، وأضاف بصوت حلووكثيف مثل العسل:

ـ هل تريدني أن أدخل؟

عندها رأيت نفسي في عينيه.

تأخرت عن عمد مني. كنت أصغي إلى صياحات الصيادين وهديل الحمام الخفي. استلقيت كي أتنعّم بسلام إلى جذع شجرة كستناء. شعرت بصفير خفيف، ثم بضربة جافة. سهم انغرز على أقل من شبر فوق رأسي. مقبضه كان يهتز. أبقتني المباغتة لحظة دون حراك. أمسكت بعدها بالقوس الفولاذي، الذي كنت قد تركته عندما استلقيت. لم أكن أسمع أحداً ولا أرى أحداً. كانت الأصوات تبتعد. وفي الحال عاد الهديل. لم أقل شيئاً لفرج، لكنه ما أن عاد حتى أعطيت الأوامر بالعودة.

أجريت محادثة سرية مع المالح. لم يدهشه كما كنت أتوقع حادث السهم.

ـ عاجلاً أم آجلاً كان يجب أن يحدث. أشك كثيراً أن يكونوا أرادوا قتلك.

ـ هل كانوا عدة؟

ـ لا أدري. أنا لا أتكلم عمن رماه ـ كانت عيناه تتكلمان أكثر من لسانه ـ. لو أرادوا ذلك لفعلوه. فقد كنت في أيديهم. أعتقد أن ما يبتغونه هوأن تشعر بأنك مهدد وفي خطر.

ـ ولماذا؟

ـ شيء سهل. إنك تزعجهم.

ـ هل تتحدث عن الملكين؟

ـ عمن سأتكلم إذا لم يكن عنهما؟ حضورك يحرقهما. أنت شوكة في اقدامهما. وأملاكك نقطة إزعاج داخل مملكتهما. منحوها لك بشق النفس مقابل غرناطة، لكن ما أن صارت لهم، حتى صاروا يريدون الكل.

ـ كما رغب الملك داوود ببتشابع.

ـ بلى، وأرسل زوجها أوريا إلى الخط الأول من المعركة، ولم يكن يملك غيرها. من يكاد يملك كل شيء لا يوقفه شيء. إنهم يتطلعون إلى إرهابك (فقتلك فيه كثير من التحريض) كي تبيعهم أراضيك، وترحل إلى أفريقية. أنت الشاهد المزعج لما صار يجرحهم تذكُّره.

ـ لن أرحل أبداً يا مالح. قل لهم ذلك، ليعرفوا ذلك. إذا كنت أعطيتهم مملكتي لأهنأ بالسلام لا يعني أن أذهب الآن إلى مملكة غريبة لأكون محل مُساءلة. خاصة إلى أرض إسلامية حيث سيعاب عليّ سلوكي.

ـ وهل تعتقد أنهم سيتركونك بسلام؟

ـ ومن هم هذه المرة؟

ـ أنفسهم يا أبا عبد الله. لا تتغابَ. هم سيكونون بالنسبة لك هم.

ـ ألست أنت من حكى لي ما حدث *للزغل* في تلمسان؟ حاكموه ما بين عالم وفقيه على الشقاق الذي زرعه بين المؤمنين. وهل سيكون حكمهم في حالتي أنا أفضل؟ أخبر الصفري بجوابي على سهمه: لن أخرج من وطني. أنا أندلسي، ولدت في الأندلس وفيها سأموت. وإذا كانوا هم من يحض على موتي، فليسقط دمي عليها وعلى أبنائهم.

- ظهورهم عريضة يا أبا عبد الله. لقد قاوموا دماءً كثيرة.

- بكل المعاني - أجبت - لأن دماءهم مشوشة. بصيرتهم كم هي عصية على الفهم. إلى أفريقية، يقولونها كما لو أننا جئنا من هناك. كم من الأفارقة في غرناطة؟ من بين مئتي ألف نسمة لا يوجد خمسمئة أفريقي. أسبان ودمهم أقلُّ اختلاطاً منهم، الملكة ذاتها فيها دم برتغالي أكثر مما فيها من دم قشتالي، والملك فيه دم يهودي وقشتالي أكثر مما فيه من دم أراجوني. في إسبانية لا يوجد دمٌ نقي إلا عند الخيل، وهو في كلِّ يومٍ أقل.

جاءني بعض آل بني سراج يريدون مقابلتي. خمّنت من مظهرهم الجهم لماذا جاؤوا. قبلها كانوا قد تركوا نساءهم وأبناءهم في البشرات ورحّبت بهم. تخلّصوا من أملاكهم وعقاراتهم في غرناطة، ويستعدون للرحيل من هناك اعتباراً من آذار. وحسب قولهم فإن معظم الناس المهمين سوف يتركون هذه الأراضي التي تصل حدودها إلى حيث تصل ذاكرة شعبنا. لن يبقى حتى الصيف في المدينة غير المهنيين والفلاحين، ويمكن أن يحدث هذا في البشرات أيضاً.

- إذا بقيت الأمور تجري كما هي الآن فإنك لن تتأخر باللحاق بنا - قال لي كبير الأسرة - كل شيء عند النصارى زيفٌ، ولن تدوم شريعتنا في غرناطة. نودعك آملين لك السلام.

همَّ بتقبيلي. قبَّلتهم وباركتهم واحداً وحداً. لم أجد كلمات تشجيع أقولها لهم: كما لم أجدها لي. كان وداعنا قطعياً. معاً قمنا بأشياء كثيرة، وتحمَّلنا معاً أشياء أكثر. لن يروا من الآن فصاعداً لا السماء ولا المنظر اللذين يمثلان جوهر حياتهم. هنا يتركون رماد جهودهم ورماد موتاهم... فكرت أن أقول لهم: «ربَّما رأيتم، عندما تنامون في أفريقية، غرناطة في الحلم». أحجمت متذكرًا كابوسي المرير.كانت غرناطة العروس التي تبدت لنا يوم عرسها،يوم عرسنا، مليئة بالزينات،إن البلاد البعيدة التي يذهبون إليها لا تصلح أن تكون ولا حتى المهر للتي نحب.

رأيتهم يبتعدون يعلوهم الإهمال والإنهاك المذل الذي يطأطئ أعناق المستسلمين.

في الليل عندما تراجع الجميع،جلست مريمة بالقرب مني. أنشدتني وفمها على أذني قصيدة أعتقد أنني علمتها إياها، لاأدري متى، لم استطع أن اتحقق منها.

أنسيت أعواماً مرّت الليالي فيها فوق فراش من نوّار؟
فيه جمعنا إزار واحد وكنا عقداً متناغماً.
تعانقنا كما الأغصان في الهواء
كنا غصنين في واحد،
بينما النجوم فوقنا مثل الذهب المطعّم باللازورد.

مسحوراً رددت عليها بأبيات أخِرى.من فم إلى فمٍ اختلطت بعد ذلك قصائد الشعراء. كدنا نموت حباً. قلت لها:

وقارك يجعلني أخاف جسدك
ومع ذلك فهوغايتي ومرادي
فأنا مثل من يخرج من سكرة
يتقهقر ويضعف أمام كأس جديدة.

خبأت رأسها في كتفي:

أضناني الهوى: خفيفاً صرتُ لا أكاد أُرى.
واهن نفسي، يتلاشى ولا يسمع.
وجسمي طيف أقل جلبة
أصبو لأن أكون شكورة
رضاك دوائي، أئن كما المريض عند الصباح.

وبالفعل كانت تئن. ختمتُ أنينها بقبلة:

زرعت حبك في فؤادي
في المكان المفضل الذي تشغله ثروة البخيل.
ألوذ إلى حبك لأهرب من عذابي، مثل الجبان يبحث عن خلاصه في السلاح.

شددتها إليّ حتى أنني خفت ايذاءها:

إلى صدري أشدّك كما يشدّ المحارب سيفه
فتسقط جدائلك على كتفيّ كما الغمد.

أبعدت رأسها ونظرت في عيني:

قبل أن تزيح الغمد، ضمّ إليك سريعاً من تملك الزنار لتثأر من حبها رويدك، انظر أين تتحرّك، لا تخرّب بيدك ما سيكون مأواك.

وشيئاً فشيئاً رحنا نقترب من الفراش. منذ الليل وأنا أعلم علم اليقين بأن حب الحياة هوالذي يولدّ الحياة.

لا أدري ما إذا كانوا قد وضعوا جواسيس جدداً في بيتي، أم أن عند الموجودين أوامر بأن يتضاعفوا، أوربما أنني أجن. أشعر بنفسي مرصوداً حتى في آخر مخبأ، أسمع لهاثاً خلف الستائر، تتبدل أماكن أشياء كنت تركتها، وتوضع عن عمد بشكل سيء كبرهان على ذلك. وأشك بأنهم تجسسوا على هذه الأوراق القرمزية نفسها.

اليوم، وبينما يخدمونني، وضعوا طعامي على ستارة نافذة. أحد أدخل *مرنان* إلى القاعة. كنت ما أزال في الخارج. فزج الكلب خطمه في احدى القصعات وأكل طعام غدائي. سمعت الصياح من صحن الدار، ولم أصل إلا لحضور موته. مزّقت قلبي عيناه المذعورتان ولسانه المتدلي الذي يعض عليه، وجسده الذي تهزّه الرعشات، «كان هذا *مرنان*» كان يوسف ينتحب ممسكاً بحنق بثياب أمه، وأحمد يجلس على الأرض وبين يديه رأس الكلب المخلوع. يوجه إليّ نظرة اتهام حادة، كما لوكنت أنا المسؤول. لم يخطر لي ـ والله يعلم الألم الذي كان يعتصرني ـ أن أعده بجرو له وحده.

ـ لا أريد كلباً آخر ـ قال لي ـ أريد *مرنان*.

منذ أن سمَّ *مرنان* وأحمد يهرب مني. أمر فرج الخدم بأن يجربوا الطعام قبل أن أتناوله. الرعب ينتشر في البيت. هرب بعض الخدم. ومريمة، الحبلى الآن، لأول مرة لا تعرف ماذا تقول لي أو كيف تواسيني.

لكي أشاغل ولديّ رجوت فرج أن يعلِّمهما ويدرِّبهما على ركوب الخيل واستخدام السلاح. لوكانت الظروف مختلفة لكان أسعدني أن أتذكر كيف كان يدربني عمي أبوعبد الله في المنكّب. ومع ذلك أرى الآن بما يشبه الحزن ذراعي أحمد الرقيقتين ترشدهما ذراعا فرج القويتين. الاثنان يُصوِّبان معاً بقوس فولاذي. بينما يوسف ـ الأصغر دائماً يميل إلى الآني ـ يجول سعيداً.

وعدتهما بأننا سنذهب شهراً كاملاً للصيد في جبال لوجار، التي

يوجد فيها دببة وخنازير وغزلان، عندما يصبحان مؤهلين - وكلي ثقة بأن ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً - وما أن يستيقظ أحمد - بل وحتى قبل ذلك، لأنني أعتقد أنه يحلم بهذا - حتى يهرع بحثاً عن فرج، معلمه الذي لاينفصل عنه. أحياناً يرفع فرج نظره، وسط التدريب، إلى النافذة التي أتأملهما منها.

ربما كان الجاسوس أوالجواسيس بين الخدم الذين اختفوا. فالتوتر قد خفّ. كلنا نحاول أن نقتنع بأن الخطر قد زال.

مريمة، التي يلاحظ عليها الحمل الجديد، أجمل من أي وقت آخر.

مات كلبان من مجموعة كلاب الصيد، لكن بشير قلّل من أهمية هذا الموت: فهويؤكد أن لا علاقة لهاتين الميتتين بعمليات الاعتداء عليّ.

أما أنا فقد كتبت بالسر رسالة إلى الملكين. بلاطهما الآن في برشلونة. اقترحت عليهما فيها أن أذهب إلى هناك أحاول معهما توضيح كل الأمور وأرجوهما السلام لي في عزلتي. احتساباً من ألا تصل رسالتي إلى الملكين، أرسلت أخرى مشابهة مع المالح إلى الصفري.

شكرني أحمد اليوم على قوس فولاذي كنت قد أمرت بصنعه له في غرناطة. اقترب مني يمسك به فرج من يده. ربما كان هذا من نصحه أن يشكرني. ابني جميل، رشيق، وسيم الطلعة. يسرُّ جدته أن تراه يشدُّ القوس ويرمي، وكيف يقترب في كل مرة أكثر من الهدف. مريمة على العكس منها، يبدوأنَّ ألعاب الحرب هذه لا تعجبها.

نكاد لا نشعر بالزمن. قريباً يبدأ البرد بالاعتدال.

اليوم تلقيت جواب الملكين. إنه مقتضب، ما يكفي لكي يعلنا لي عن غايتهما. يتملصان من منحي الاذن بالذهاب إلى برشلونة: يقولان بأنها مدينة بعيدة ويمكن أن يتعبني طريقها. ويقترحان أن أرسل مكاني ابن كماشة. حسب فهمهما كل شيء له حل مرضٍ. عليَّ ألَّا أنشغل: سواء أنا أو أسرتي، كلنا في أمان، فهما يضمنان لي ذلك.

لكنهما يضيفان فيما بعد بشكل غير منتظر بأنهما كتبا رسالة أخرى وفي التاريخ نفسه إلى حاكم ألمريّة بهذه العبارات أوبما يشبهها: «ما أن تستلموا هذه الرسالة حتى يكون عليكم أن تزيلوا أي عائق في سبيل إبحار مولاي أبي عبد الله إلى المكان الذي يرضيه في أفريقية. وليعمل الشيء

نفسه كل من يعلم بهذه الرسالة، محافظين بأمانة على ما تمّ التعهد به معه. لتنفيذ المطلوب بالصرامة القصوى.»

عندما يتطلع الأقوياء لأن يكونوا إضافة الىذلك مكّارين، لا يحصلون إلا على الاحتقار، فالأسد لا يمكن أن يتصرف كثعلب دون أن يبعث على الاشمئزاز.

على كل حال فإن ابن كماشة سيسافر إلى برشلونة.

انتزع الخوخ والمشمش دوره في الإزهار من اللوز. وقريباً سيحل محلهما السفرجل.

لقد انهار العالم. مات فرج منذ أسبوع. كل شيء كان غير متصور وغير عادل ولا يمكن أن يعزى إلا إلى إله شرير.

كل شيء كان فاخراً، أحمد يرمي بقوسه الجديد. ركض فرج نحوالهدف مشيراً له إلى المركز كي يصوب جيداً. شجعه بضحكته وبذراعيه.

ـ هيا ـ قال له ـ الآن!

دخل السهم في عينه اليسرى.

لم أقتنع حتى الآن بأن ذلك حقيقة وبأنني لن أرى شبابه الجميل ثانية ولن أسمع صوته.

يرقد الآن في الحديقة التي كان على جسدي أن يدشنها.

منذ ذلك الوقت وأنا لم أخرج من هذه الغرفة. من المحال عليَّ أن أسلّم بالأمر. سأبكي اليوم. وسأبكي ما تبقى من حياتي. ففرج والموت كانا كلمتين في منتهى التناقض. وألوم نفسي أنني لم أبح له بمدى حبي. وألوم نفسي لأنني لم أحبه أكثر.

القدر يسخر منا. مات، وهو يلعب، من داعبه الموت آلاف المرات في الحرب.

لا يغيب وجهه عن عينيّ. لا تغيب ضحكته عن مسمعي. اليوم أحبُّه كما لم أحببه من قبل. لو كان الأمر بيدي لبدأت أؤمن بالخلود بشرط أن أستعيده.

لا أريد أن أرى أحداً، لا أريد أن آكل. سآكل لوكنت على يقين بأنهم ما انفكوا سيسمُّون لي الطعام. لقد ضربني حد موته بالصميم حتى أنني أقسم بأن موتي هو ما أتمناه.

فرج، آه يا فرج. جسدك يتفكك تحت الحديقة التي خططناها معاً ورأيناها تنمومعاً. كيف كنت سأفكر بأنك ستصير سمادها؟ لماذا تختبىء ممن يحبك في كل يوم أكثر؟ كيف سأنام إذا كان موتك خلفي يترصدني؟ موتك، وليس موتي؟

حملت والدتي أحمد ليعيش معها بحجة أن حضوره يوقظ ذكرياتي. كالمروبص أرى الأيام تمر أمامي بمنتهى البطء.أعرف أن مريمة بمتناول صوتي دائماً، لكنني أشعر بأنني غير قادر على مناداتها. أشعر أنني غير قادر على أي شيء.

حاولت أن أحرق هذه الأوراق، التي صارت الآن مجرّد شاهد على شقائي. منعتني مريمة.

لا أريد أي مسكِّن لالآمي. لا أريد لألم موت فرج، الذي توَّج الالآم السابقة، أيَّ مسكّن. الطريقة الوحيدة للتخلص من الألم هي أن أتركه يجهز عليّ. أحاول ألا أفكر بما حدث، هذا يعني البدء بقبوله. لأن المسألة ليست في أن روحي تؤلمني، بل في أن كل شيء يؤلمني، جلدي ولحمي وعظامي. صرت هشاً، قصفاً، ميالاً للجراح. يجرحني بريق الشمس والحرارة اللطيفة ولون الفجر الوردي أوالغروب الوردي الغامق. وأرفع عتبي على كل شيء. الحقيقة أنني أضجر من نفسي.

أجمع اليوم هذه الأوراق، التي ارتسمتْ عليها مؤقتاً. منذ ثلاثة أشهر لم أكتب عليها. أجمعها كما لوكانت تحكي عن شخص مختلف، وربما ميت. كيف لا أفكر؟

للوصول إلى العزلة غير المرغوبة، بل المفروضة، ما من طريق مباشر مثل الألم. لكن كم هي غامضة هذه الكلمة، إنها غامضة غموض الكلام عن الروح والجسد بشكل منفصل. عندما أقول ألماً، لا أعني ألم الروح وحده، بل ألم الجسد أيضاً، إنهما متداخلان الواحد في الآخر أكثر مما نعتقد. وإذا ما استطعنا في لحظة ما أن نميز بينهما بدقة، فإننا

سنتأكد بأن المعنوي أكثر قابلية للمشاركة وأكثر تأثراً بالشفقة والمواساة، بينما الجسدي يُغَرِّبنا ويعزلنا. لكن هل يصيبنا الواحد منهما دون الآخر؟

كنت مريضاً. والمرض يثير الابتعاد الذي يتركنا منسيين وعراة. ألم الجسد يواجهنا مع ذاته وحسب وبالتهديد ينبهنا، لأن هذا التنبيه هوصوته الوحيد. لوكان الألم الجسدي مجانياً لكان لعنة من الطبيعة غير مفهومة.

يقولون إذ ما يستدعينا المرض، مهما كان، يجب ألا نتهرب منه بل أن نستخلص منه أكبر فائدة: نعانقه، نتحمله، نجعله من دمنا، وليس ضياعاً للدم. يقولون ما من معاناة لا يتم تمثلها، تستطيع أن تجعلنا أكثر نبلاً وكرامة. فالمعاناة بحد ذاتها قبيحة وبشعة ومهينة مثل التفكير السيء، لذلك أختبيء، لكنهم يقولون إن بلاغة الحياة التي لا تدرك تعمل عمل الذَّم في مكان المدح، تحوّل الشتيمة إلى مديح. وهذا ما يتطلب التمكن من البلاغة. قد تحول الحياة كل شيء تلمسه إلى ذهب، مثل الملك ميداس، لكن هذا لا يحدث إلا إذا حُوِّلت العزلة التي تنتج عن الألم، مسبقاً، إلى عزلة مفيدة. كم من السخاء يحتاج المرء للوصول إلى هذه القمة.

في البداية يقدم الألم مرافقة أكبر، وفهماً ولطفاً أكثر. لكنه إذا طال فإنَّه يخمد همة المرافقين المحصنين ضد تبدياته المتواصلة ويضجرهم. ينتهي المتألِّم إلى البقاء وحيداً مع ألمه. ما الذي يعرف الألم بالضبط غير انطواء الذي يعاني منه على نفسه؟ إنه ليس شيئاً يُرى جوهرُه، ولا شيئاً يُبَلَّغ للآخرين، أوينتقل بالعدوى، أو يقاس، مهما بلغت أدوات الأطباء من الدقة. فهوبالنسبة للذي لا يشعر به غير مفهوم ومتعذر البلوغ، لذلك تراني أصمت. يتملك المرض جسداً وروحاً فيلفهما وينقلهما إلى مملكته الكئيبة. العلامة الوحيدة التي يقدمها عن نفسه هوسلوكه الخارجي ـ بكاء، أنين، تأوُّه، وتعابير مفككة ـ لغة نفهمها، لكنها ككل اللغات يمكن أن تزيف من قبل من يستخدمها ويسيء متلقيها فهمها.لأن اللغة ليست مفردات وحسب، بل هي أكثر من ذلك بكثير. اللغة لا تُمْتَلَكُ حتى تَمْتَلِك. وهذا ما يحدث مع الألم، لا يُفهم حتى يصير المرء هوالمتألم، مملوكه المقتصر عليه، غير أهل لتعلم أوفهم لغة أخرى، أوأن يذعن لأوامر أخرى غير أوامره. ومع ذلك ما من ألم يكون نفسه بالنسبة للآخرين، كما لا يتكرر بالاطلاق. ما أشعر به اليوم تجاه فرج مختلف عن الذي شعرت به تجاه غالب، وحتى عن الذي شعرت به تجاه فرج نفسه البارحة. الألم (لذلك تراني أنعزل) ما

من شيء في الوجود شخصي مثله. أكثر من الصحة، التي هي توازن وتفاؤل متعلقان بالمحيط، أكثر من الحب الذي يتطلب مرآته، وأكثر من السعادة الانتشارية التي تحتاج إلى مجال تعمل فيه، فتجعلنا نستقر ونستحم فيه.

الألَم، حتى عندما يكون عرضاً لمرض أوحالة نفسية، يتم تلقيه بطرق تختلف حسب الوقت والبلاد وظروف من يسببه أومن يعانيه. سمعت عن عبيد يُساطون عادة قبل أن يمنحوا أدمهم، وعندما يشعرون بالسياط وهم يمورون جوعاً، يعبرون بوجوههم عن النهم والشكر، مستشعرين بالطعام. والمسألة بحسب العلماء أن الرغبة بالبقاء هي فوق وتحت أي اعتبار آخر. ومع ذلك أعرف معذباً يفضل الموت.

هل يوجد علاج ما لعزلة الألم هذه؟ كان الرواقيون الرومان يؤكدون أن تحصيله يتعلق بالكيفية التي نعيه بها. لكن هل يبقى للمتألم منافذ يتشعشع منها انتباهه؟ وهل عنده تسلية أخرى أونقطة ينظر إليها غير ألمه نفسه؟ يؤكد ابن سينا أن سماع الأغاني اللطيفة يخفف منه، لأنها تدفع بالنفس خارج ذاتها، وابن عربي ينصح بمكافحة الألم بالتأمل بموضوعات إلهية، تقتلع الانسان من عزلته القاسية. يقول جلال الدين الرومي:

أجترّ لأجلك الألم مثل جملٍ، مثل جملٍ يزبد.

تراني أتحصن ضد الألم، بكتابة هذه الصفحات بالفطرة؟ أليس ألم الجسد هذا، الذي أنهكني تخفيفاً لألم الروح؟ مثله مثل الماء الذي يفيض عن الساقية فيغرق البستان ويخربه. لايمكن فصل ما ليس قابلاً للفصل ـ ما لا يمكن حتى التفريق بينه ـ دون الوصول إلى الموت. الروح والجسد معاً شيء واحد. ربما ما من جسر مع العالم ـ حتى ولوكان جسر هذه الأوراق الخفيفة المتحرك ـ يستطيع أن يجعلني لا أحتجز في شقاء ألمي البائس. ربما مجرد عرض الحالة يقربني من الآخرين، لأن أي ألم، في النهاية، هوشكل من أشكال النفي. لكنني لا أجد في نفسي العزيمة على توسل المساعدة. المساعدة؟ ممن؟ لنفسي، المسألة ليست في أن هذا الألم ألمي، فأنا لست إلاّهُ: فيه تتركز كل حشاشاتي.

نظرت، هذا الصباح، لأول مرة بعد ذلك الحدث إلى نفسي في المرآة.

ـ من أنت؟ سألتُ صورتي ـ أومن أنا؟ هل أنت وأنا شيء واحد؟ هل كنت نفسي دائماً؟

لم يكن إلى جانبي أحد، لا في المرآة ولا في الواقع. لم تفهمني مريمة، لن تفهم هذا الجزء من نفسي الذي أتكلم عنه: الذي يحاكم اليوم وربما يدان.

ـ لمن هاتان العينان اللتان تراقبانني، وقد أطر قزحيتيهما قوسان ضاربان إلى الرمادي؟ ما علاقة آثار التعب الطويل الطويل بي؟ أين كنت خلال هذا الزمن الطويل الذي يبدوأنني قضيته؟ كيف حدث وبيَّض كل هذا الشيب رأسي ولحيتي؟ ما الطريق الذي سلكت حتى وصلت إلى هنا، حتى تعثرت بهذا التّلف الذي لا يثير قلقي بحد ذاته، وإنما بمباغتته؟ كيف يمكن أن يشيخ المرء بهذه السرعة؟

كم من الأشياء مختلطة في خزانة الذاكرة العميقة والزجاجية. ياللكسل في ترتيبها؟ كم من المِيتات حولي. كم من الجثث معلقة من أكتافها مثل دثار مشؤوم يتجرجر ثقيلاً أثناء المسير. ولماذا سأسير أكثر؟

ـ كل شيء يمضي، وأنت أيضاً تمضي ـ كانت تقول لي صورتي الشائخة، هذا إذا كانت صورتي ـ الحياة هي ما يجب أن تهم: وليس أنت ولا نبوغاتك المختلسة، ولا حتى حياتك.

ـ محال الإصلاح، محال الإصلاح ـ كنت أردد.

ـ لا تستطيع أن تحكم بهاتين العينين الباردتين اليوم ـ كانت ترد عليّ الصورة ـ على الأعمال الحماسية والفرورة للأمس، ولا على إسرافات القلب وارتكاباته.«الزمن المهدور سيصير كنزنا»، كنت تؤكد. ألم يحدث هكذا؟ أجب نفسك.

ـ أنا لست هذا. أنا من هوخلف هذا ـ كنت أدافع عن نفسي ـ الطفل الذي كان يترصد مبهوراً بعينيه المبهورتين عالماً باهراً، كانت ترفع المفاجأة حاجبيه ولم تكن خيبة الأمل تخنقه. أنا اليافع الذي كان الأمل يكور عينيه ويصبغهما بالخضرة. عيناه اللتان نظر بهما إلى الحب بضراوة فاستجاب لهما: أحبهما لا، فالحب شيء آخر، وإنما استجاب الحب لهما. أنا المرتعش بالقلق، الرجل غير الراضي أبداً عن نفسه وعن

الآخرين الذي لايشبع. الفتى الذي كان يلتفت بعينيه الشبعتين إلى داخله، حين لم تكونا تقاومان شبع الجمال وتسمحان بتقبيل أهدابه بشكل أفضل. لذلك أرى الآن أنني لست أنا.

وصورتي - أوصوت في داخلي - يقول:

- بما أنّك كنت الآخر، من يكون هذا الذي يتعلم الموتُ الآن اسمَهُ؟ ألا تأخذه على عاتقك؟ والآن والنهاية تقترب، الآن وقد تلقيت رسائل وتحذيرات، هل ستطلقه؟ هناك أيام تسمع فيها خطوات ليست لأحد، فكم سيتأخر الموت حتى يخالطك؟ هل يمد الآن يده إلى كتفك؟ كيف سيأتي؟: مثل البرق، أم دقيقاً ويتأخر؟ مهما يكن يجب عدم اللمص أمام المرآة. أم أن الذي كنته (الطفل، الندمان، التواق الذي كنته) لم يتصور نهاية العرض التافه الذي هوالحياة؟ لا تقل، لا، لا تقل: «لماذا وقد وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه، سأتحرك، لماذا سأتوهم،أبدأ طريق الحب الذي لا يخطىء من جديد، لماذا سأظهر اهتماماً حياً بشيء ميت وأنا حي؟» لا، لا تقل هذا. ادخل بهاتين العينين اللتين تراهما ذابلتين في المرآة،اعبر قوسهما الشائخ الكئيب: إنه قوس نصرك.في ظله ستلتقي بكل المسافرين الذين قادوك إلى هنا وتعترف أنهم أنت نفسك اليوم. أنت كنت المسيرةَ والطريقَ والسائرون هم فقط الذين صنعوك. الآن وأنت قريب من نقطة الوصول التي أدركتها بهم، هل ستخيب أملهم؟ وهم، الذين سعوا لاهثين ليغطوا نصيبهم،هم الذين اجتهدوا متكاتفين ورافقوك يبللهم العرق إلى مرآة هذا اليوم الحقيقي بقدر ما هو مر... عليك أن تحمل هذه الصورة إلى ما هوأبعد من ذاتك، لأنها لاتنتمي إلى الذي أنت الآن، وإنما إلى الذين كنتهم البارحة وما قبل البارحة. لا إنها ليست صورتك، ياأبا عبد الله، وإنما الحياة: الحياة النابضة الحقيقية والدامية. أحببت وأحبوك،بمعنى ان المستحوذين المتتالين الذين مثلوك أحبّوا وأُحبوا. أعطوا من ذاتهم (أعطيت أنت من خلالهم) كل ماكان في أيديهم تقريباً: لا يُعْطى أبداً الكلُ المرغوب. جهدوا كي تكون أنت نفسك في كل يوم يقترب ببطء من هذا اليوم.

- لكن، إذا كنت نفس الذي كنته البارحة وما قبل البارحة - كنت أقول لنفسي بصوتٍ عالٍ - ألم أخفق؟ ألم يخفقوا فيّ؟

- الحياة - أجابتني الصورة من داخلي - ليست خالية من الرحمة، إنها متفهمة ورحيمة، لكن الذي يحدث هوأننا لا نفك رموزها إلا بعد فوات الأوان. الحياة لا تطالب إلّا بأن تعاش بثقة عمياء وبمتعة متزايدة،

لأن المتعة التي كانت للأموات يجب أن توفى. وأنت مُتأمّلُ اليوم، المتنصلُ، تخليت عن تنشق هواء الفرح، مشغولاً بألمك الظلامي وواجبك الصارم. أكلمك عن الفرح الذي يرفرف فوق كلّ شيء، عن الفرح الجذري والكامن، الذي هوالحياة. انتبه، لأن هذا الفرح في الأعماق، هوالواجب الأولُ والوحيدُ أساساً لكل كائن. لا أحد هنا ليثري الحياة (يا لهذا الغرور)، وإنما ليتمتع بها. انظر إلى شفتيك المتيبستين، افتحهما،ابتسم. اعذر نفسك لبلادتك، وابتسم. وإذا ما أضعت فرح القناعة والرأفة لكونك حياً، فهذا يعني أن الموت الحتمي يتقدم داخل روحك، فيك. إن الأملَ (أَمِلْتَ أم لم تأمَل، فالأمر سيان) يجب ان يدوم حتى عتبات الموت. أوربما إلى ما وراءها.

كان قد مضى علي وقت طويل وأنا ممعن النظر في الوجه الذاوي في المرآة ورأيتُ خلفه صورة فرج الفرورة وغير المحتملة. التفت. لا أحد، أنا وحدي. كان وجهي في المرآة ما يزال شاحباً جداً.

ـ مريمة! ـ صرخت ـ مريمة!

ظهرت هادئة تحتَ قوس المدخل. أسندتْ يدَها إلى قائمة الباب. لقد كوّرَ الحملُ بطنها وأغار عينيها. استنتقطني بهما. هدؤها أراحني. قلت لها شيئاً مرتجلاً:

ـ بي شيب،يا مريمة. ظَهَرَفيّ شعرٌ شائب.

انطوت شفتاها، دليل ابتسامة.

ـ منذ زمن بعيد لم يعد البياض لون الحداد في الأندلس يا أبا عبد الله. لا تحاول أن تلمح إليّ أن هذه الشعرات الشائبة هي الحداد الذي ترتديه على شبابك.

فكرت: «طيبة سيدتي، وتعرفني جيداً.»

تابعت وهي تقترب:

ـ لقد قضينا السهرة كلها معاً، كان الليل طويلاً ورهيباً، لكنك ها أنت ترى الآن ـ داعبت شعري الذي يبيض ـ فالفجر يطلع.

فكرت: «ربما الحب ليس غير هذا: ليس الذهول، ليس الجنون، بل أن نشيخ معاً أن نخرب معاً.» نظرت إلى طيف مريمة المشوه فسررت به، وضعت يدي حيث كان خصرها من قبل. كان صحيحاً، فلِتَوْليدِ الحياة ليس من الضرورة أن تُحبَّ، وإنما أن يُستَسلَمَ لها، فهي التي تتكفّلُ بما

يتبقى. لذلك رجوت مريمة أن تبقى معي. فمنذ شهور لم تفعل ذلك. وقفت، وبشيء من الصعوبة شعرت أنها بمستواي. داعبت بَطْنَها، مرتعشاً من استمرارية الحياة، التي تغور في مكان وتنبثق في آخر.

مكثنا هكذا صامتين زمناً طويلاً. بعدها قالت:

ـ عليك أن تتكلم مع أحمد، ليعرف أنك لا تعتبره مسؤولاً. وستكون هذه أفضل طريقة كي لايعتبرك أنت مسؤولاً عما لست مسؤولاً عنه. كثيراً ما يختبىء القدر خلفنا، فيدفعنا ويستخدمنا كسلاح له. واجبنا أن نُقَويه ونُوضِّح له الأمور ليصبح هومن يتحمل مسؤولية نكباته.

استقبلت رعايا أندراش ـ هل يحق لي أن أدعوهم هكذا؟ ـ الذين اهتموا بي خلال أسابيع مرضي، أوطلبوا مقابلتي. انقضى صباحي وأنا أحاول أن أحل دعاواهم وعوزهم وخلافاتهم بأناة. شعرت بنفسي مثل طفلٍ يحاول أن يقلِّد حركات السلطان في باب مسجده ويمارس لعبة تطبيق العدالة فيتعب في الحال من اللعب.اختصرت ما استطعت الاجتماع، وخرجت بريبة وحذر إلى الحديقة. لم أكن قد رأيتها منذ ذلك الوقت. كانت مزهرة.

أجهل كيف تعمل النباتات في ورشتها الكتومة نسغاً وجذوراً. في كل صباح أستيقظ مثل الحديقة، وبي شعور بأنني حلمت بحل كل شيء وبأنني نسيت الحلم عند الاستيقاظ. أحسست اليوم بعزلة الحديقة في مواجهة عزلتي، وليس بعزلتها من حولي،لا، بل في صراعها معي. كما لوأن غرفة نومنا المفضلة قد تحولت إلى قاعة تعذيب، وكموا فيها أحداً في داخلي. أحد يحتاج أن يعبّر عن شيء بسرعة لا مناص منها. لماذا لا أبكي؟ لماذا أكبت بكائي منذ زمن طويل؟

انتابني اليوم خوف من أن أكون قد ضللت لا أدري ماذا ولا متى، أوأنني أهملت عملاً ما: أكثر الأعمال، التي لأجلها ولدت، جوهريةً. بعدها وجدت الكثير منها، المئات، عملت وفشلت في كثير منها، لكنني كنت قد تلهيت وذاكرتي عادت إلى الوراء بشغف، والروح علقت إلى فرجٍ من المحال استعادته. أجد نفسي اليوم ـ والحديقة التي أحببتها وفرجٌ، كما يبدولي ـ كمن يستمع قلقاً إلى روايةٍ معقدةٍ، فيغفل لحظة واحدة، فيفوته مقطع صغير، ومنذ هذه اللحظة يغرق ويصبح كل شيء متاهةً ملتبسةً،

أولفيفةً متشابكةً، كلما حاول المرء الامساك بالخيط كلما زاد تشابكها. وأنا اليوم كمن يجد نفسه غارقاً في الظلمات، وَوُعِدَ بأن يُشعَّل له نورٌ لحظيٌ على مخرج خفي، لكن دون أن يقال له بالضبط متى، فيترقب واثقاً من الوعد، يمعن النظر، ينتظر ذلك الومض، تلك الشرارة المخلِّصة، دون أن يجرؤ على الراحة أوالحركة، لأنه يجهل كيف وفي أية لحظة ستحدث الفرصةُ سريعةُ الزوالِ للعودةِ إلى الضياء.

في هذا الصباح الربيعي الأبيض، تراها الحديقة من يتكلم لصالحي؟ هل فرج هوالذي يكلمني من خلال الحديقة، التي يشارك فيها الآن، أم انها الحياة، التي تضمنا جميعاً أحياءً وأمواتاً، وقد عصيت أوامرها النزقة والأمومية؟ ألست، دون أن أدري، مثل فرج الذي بدوره لا يدري، بمنجاة في الحديقة؟

هكذا تمر ساعاتي متلعثمةً حلوةً مُرةً. عقيمة في بحثها عن القدر، بينما على عاتق القدر يقع عمل البحث عني. أوربما كان تَرَدُّدي ناتجاً، كتردد هذه الحديقة الربيعية، عن فقدان ما كان لي أكثر مما أنا لنفسي. ومع ذلك، أليست الحديقة الآن من تملكه؟ عندما تنقضي معركة الورود الحامية، سيتوجب عليَّ أن أوقِّعَ سلاماً حامياً مع الحديقة، ربما يكون سلاماً أبدياً.

عاد ابن كماشة من برشلونة. كان يتفاداني، يتذرع بالتعب، يتهرب مني إلى حد أنني ارتبت بوقوع أمر سيء. والمالح كان يُسوِّفُ على أسئلتي أيضا: لابدّ ان لديه إلمامة ما. تجاوزت فتوري واستدعيت ابن كماشة. وما أن مثل في حضرتي وصار أمام صرامتي حتى اختار أن يقطع الشك باليقين. ناولني رزمة أوراق. وبينما كنت أقرؤها ـ رغم أنني لم أحتج لأكثر من القاء نظرة حتى عرفت مافيها ـ أراد أن يمتص الضربة مادحاً الفائدة التي حصل عليها، التساهل الذي تنطوي عليه الشروط، وحِكْمتها باستباق أحداث، صارت حسب قوله حتمية.

توقفت عن قراءة الأوراق. وتوقعت أنه وبناء على خمودي تصوَّر بأنني سأتغاضى عن تصرفه النذل. رميته بسهام عيني.

ـ ماذا يعني هذا؟ ـ سألت هازّاً الأوراق.

ـ لقد كان الملكان كريمين، نظرا للحب الذي أكنه لكم.....

ـ ماذا يعني هذا ـ ألححت.

ـ عندما تقرؤنها بهدوء ستعرفون كم علينا أن نشكر.....

قاطعته. اقتربت منه لم يكن يتسع ما بين وجهه ووجهي ولا لقبضة يد.

ـ ماذا يعني هذا؟ ـ ضربته بالأوراق على وجهه. تراجع خائفاً. شحب لونه ـ هل هذا هوالتحرير الذي تبيع به جميع أملاكي لقشتالة، أيها الكلب الخائن؟ هل هذا عهد لأغادر أرضي فلا أعود إليها أبداً؟ قل لي، ياابن العاهرة!

ـ لم يبق أمامي مخرج آخر ـ تلعثم ـ الملكان طالبا بذلك. حياتك مهددة. لولم أوقع، لكنت متّ......

لاأدري كيف كان مظهري، فهوكان يرتعد. رأيت خنجراً فوق أحد الصناديق، ولم أر بعده شيئا. لقد امحى كل شيء. لم يبق غير الخيانة والخنجر، الخنجر الذي يملأ كل شيء ويوسّخ كل شيء. يبدوأنني كززت على فكّيَّ كثيرا إذ مايزالان يؤلماني. أخذت الخنجر، سحبته من غمده، رفعته ووجهت ضربة إلى صدر ابن كماشة. انسحب قافزاً، لكن بما لم يكف كي لايخرق قماش بذته. صرخ بصوت حاد:

ـ أنا! يقتلني مولاي! أنا، يقتلني مولاي!

يبدوأن المالح كان يسترق السمع في مكان قريب. ظهر في اللحظة الدقيقة: لاقبلها ولابعدها.

ـ اخرج، أيها الكلب ـ قال لابن كماشة ـ لقد عَضَضتَ صاحبك أخيرا. اذهب! ـ ودفع به خارج القاعة ـ كم قبضت أيها الحقير؟ ـ اقترب بعدها مني فاتحاً ذراعيه على مداهما، كما لوأنه يبين لي عجزه ـ اهدأ يامولاي. سندرس هذه الوثائق. سننظر فيها. هوّن عليك. لقد ذهب هذا الجبان النتن دونما تفويض منك. لم يُمَثّلْكَ. ماقام به باطل. سنجد حلا، لكن هوِّنْ عليك.

قذفت الخنجر على الجدار. ارتدّ. نظرت إلى المكان الذي وقع فيه لقد سقط بجانب الباب الذي دخلتْ منه مريمة في تلك الحظة. فاجأتني أيضاً سرعتها، التي كانت أكبر بكثير مما يسمح بها حملها إلى جانب ابتسامتها التي كانت تزيدها شباباً. فكرت «سأذبل هذه الابتسامة، لكن...» كنت سأحكي لها عن خيانة الوزير. كنت ما أزال ـ لا أدري كيف ـ أمسك الأوراق بيدي!.

ـ أعرف كل شيء ـ قالت لي.

ـ لماذا تبتسمين إذن؟ ـ رفعت الرزمة. ـ هل تعلمين ماذا يعني هذا؟

ـ نعم، إنك ما تزالُ حَيّاً يا أبا عبد الله. ـ انحنت بصعوبة، أخذت الخنجر وَضَمَّتْهُ إلى صدرها ـ إنك حي مرة أخرى. لا أحد يريد أن يقتل ما ليس حيّا.. ما عدا ذلك لا يهمني.

لم أرَ بعدها ابنَ كماشة. لم يكن نفيه من هذه الإقطاعة الصغيرة عملاً دقيقاً. اختفى دون أن يودع أحداً.

حمل معه أسرته، فتخلّى عني كثيرون من أتباعه في الوقت نفسه. أتفهمهم تماماً. أنا نفسي أتساءل ماذا أفعل هنا، محاصراً ومُبَاعاً في الأرض التي احتضنتني مَلِكاً. أتباعي ما عادوا يصلون إلى الألفين.

اليوم، العاشر من نيسان من عام 1493 وبعد التداول مع مريمة، استدعيت، بحضورها كاتبي محمد بن نصر والمالح وبشير وابراهيم القيسي. فوّضت الثاني بتوكيل حرره الأول للوصول إلى اتفاق مع هرناندو الصفري حول بيع هذهِ القرى المتبقية لي ورحيلي إلى أفريقية. قام القيسي بترجمة النص. أعرف أنني بهذا القرار أستنفد آخر قدراتي التي ربما لم تكن موجودة. من يعارض المقدور كمن يناطح صخرة.عندما رأيت التاريخ فكرت أنّ شهور نيسان أخرى كانت أكثر ملاءمة لي. فأبعدت هذا التفكير حالا، لا أريد أن الوذ بالماضي، لن أفعل ذلك ابداً. وَقّعْتُ باسمي وختمت السندَ بخاتمي الخاص الوحيد الذي ما أزال أحتفظ به.

ليست المسألة أن الانسان يتلهى بمأساته، بل انه يتكيف معها. والعيش دون أمل حماقة أو ربما محال. من الضعف يستخرج المرء قوته، بالعفوية التي ينموبها العشب على مزبلة، أو على قبر.

موقف مريمة أمامي مألوف: يداها فوق حضنها الذي صار شديد البروز وعيناها على الحياة الجديدة. غطيت يديها بيديّ.

ـ ليست أيدينا وحدها هي التي نسندها هنا، يا مريمة.

ـ الشمس واحدة في كل مكان ـ أجابتني بصوتها المرتعش ـ. أنت وأنا، وإلى جانب أولادنا الثلاثة سوف ندرك السعادة أخيراً، بعيدا عن كل هذا القلق وهذا الشقاء، غير مبالين بجشع الأقوياء ومن يحاول أن يكون

قويا، ـ وكانت بالنسبة لي في تلك اللحظة الأمُّ التي لم تكن لي قط ـ في أرض لم يسرقْهَا أحدٌ منك، ولم تَسرق منَّا بدورها أحداً ممن أحببناهم ونحبهم.

عاد المالح من غرناطة. لم يتأخر غير خمسة أيام في تحرير كتاب استسلامي الكامل مع الصفري. لا شكّ أن الملكين يستعجلان رحيلي الذي يكمل أهدافهما. فشبه الجزيرة أصبحتْ فعلاً تحت صولجانهما وبالكامل، ويخططان لأسفارٍ جديدةٍ إلى العوالم التي اكتشفت مجدداً. إذا كان الله معهما ويساعدهما، فأية مقاومة بلهاء أستطيع أن أقاوم انا؟

أطرح على نفسي الآن اختيار المكان الذي سنشرع فيه مغامرةً أخرى. ونرغب أنا ومريمة بمكان هادىء ونجيع، يُعَدُّ فيه أولادُنا لمستقبلٍ ربما كان في غايةِ التَقَلُّب ويُسْمَحُ لنا فيه بالراحة. اختلطتْ علينا أسماءُ وهران وفاس والاسكندرية. تَشدُّني تونسُ لأنني سألتقي فيها بعمي أبي عبد الله، الذي لم أعرف عنه شيئًا في السنوات الأخيرة، يبدو أنه ذهب حديثاً من وهران إلى هناك، لكن هناك أخبار تقول بأن هذا البلد تنتهكُهُ البلايا والغلاءُ والفقرُ والوباءُ. والاسكندريةُ من جهة أخرى في غاية البعدِ عن هذا الوطن، الذي ما زلتُ واثقا بأنَّ اللهَ لم يقتلعْ منه الإسلامَ للأبد.

الاختيار ـ وهذا فعلا شيء جديد ـ متروك لنا تماماً. ربما كنت أختال وأنا أتكلم بهذه الطريقة لكننا عرضنا، فرحينَ بهذهِ الحريةِ، المحاسنَ والمساوىءَ، مثل الأطفالِ الذين يَتَرَدَّدون في وِقفة العيدِ حول الهديةِ التي سيطلبونها من آبائهم.

لم أُصادِق بعد على الوثائق، لكنني وعدتُ الصفري بأننا ما أن ينقضي حرُّ الصيف حتَّى نعبرَ إلى القارة الأخرى قبل أن تشتدَّ عواصفُ المضيق. نحن أحرار مؤقتاً ـ أوأننا هكذا نشعر، وهذا ما هوكاف ومعتاد عند الانسان ـ. أو على الأقل نصرّ على الشعور بأننا أحرار.

يتقدم حمل مريمة بسرعة. ونحن وولدانا موقوفون له وأنا واثق بأن الذين يحبوننا كذلك. عنه نتحدث، وإليه نعود باستمرار. لم أكن قط ملتحماً بزوجي إلى هذا الحد في ضناها ونزواتها غير المألوفة اطلاقا، في ترددها بصعود وهبوط الدرج تراني بقربها دائما. أعتقد أن شغلي الرئيسي الآن هوتحضير الترحاب للقادم. واتمنى أن تكون ولادة الثالث في الأندلس، حتى ولو تدرجت بقية حياته في أرض غريبة ـ إذ من يدري بعد تجربتي؟ ـ غريبة عَليَّ وليس عليه. ربما هذا ما سيباعد بيننا.

كانت أمي، بين الخيبات والعمر، لا تطاق، هذا إذا أمكن قول ذلك. بدأت تشعر بالغيرة من الطفل الذي سيأتي - وراحت تظهر ذلك، وهذا هوالأسوأ - لأنه يستأثر باهتمامنا ولأن أحمد، الذي عاد إلينا بناء على طلبي، تبناه كشيء منه وكحامٍ له.

أتصور بأن أمي تشتاق إلى دسائسها مع ابن كماشة، الذي كان يدعم افتراضاتها البائرة كي يكسبها إلى جانبه، ويضايقها أننا لا نستشيرها في موضوع الانتقال (كنت ارفض أنا ومريمة أن نسميه منفى) ويعذبها أن عليها تقليص شغفها بالتسلط إلى حدود قصبة ريفية ضيقة. وعليها الآن أن تكتفي بما إذا كانت ستُحَرِّك شبراً إلى هنا أو إلى هناك كنارَ خزامى الحوض، أو ما إذا كانت ستؤجل تقليم شجرة الغار أم لا، بعد أن كانت تخط في زمن مضى خططها الطموحة وحدودها على خارطة غرناطة.

ذكّرني شهرا أيار وحزيران، بساعاتهما اللطيفة المتراخية، بفائز الجنائني. كم أود لوأنه عندي الآن بين الفَظِّ والفَطِنِ، يعتني بهذه الحديقة التي سنتركها، وتبدو كأنها تتنبأ بذلك فتجهد في نشر طيبها وإبهاج أنوفنا وعيوننا. بل وكل الحواس المتبقية، لأنها جميعها تستمتع بها.

في هذه اللحظة تماما أداعب التويجة الصفراء لوردة تفتحت توّاً، فوق هذه الاوراق القرمزية. طرية ناعمة وشحمية أكثر من أغلى أنواع الحرير، بعروقها الرقيقة التي لا تكاد تظهر للنظر وتصبغ وتكثّف لونها، مكورة مثل صدفة على الشاطىء، ومنتهية برأس ناعم مثل لُحمة أجفان فتية. أشمها وهي ما تزال تنطوي على رسالة الأرض الرطبة والمنعشة. تُختَصرُ فيها مُتَزاحمةً جذور وسوق وأوراق الفصيلة التي تقدَّمتها، وهي أملس من وجنة فتاة. وإذا ما عضضت عليها فإنني سأتذوق عصارتها الغامضة التي تدب فيها الحياة.

فجأة سقطت على الأوراق جميع التويجات الاخرى للوردة الصفراء تقريبا. إنها مثل مطر ذهبي، موت في غاية الجمال...

من فوق كتفي قرأت مريمة ما أكتب وقالت لي وهي تداعب التويجات:

ليس ذبول الوردة: إنه خد حبيبتك وقد أذبله خوفها من فقدانك.

فأجبتها بأبيات ابن اللبانة وأنا أداعب صدغيها، وجنتيها وفمها:

أين الوردة من خد التي تصون ودي

أين جمالها من خصالها
أين شدوالطير من صوتها
فالفجر والآس يحاكيان نبض جيدها، بهاءً ونورً محياها.(1)

ضحكنا لأن لعبة معرفة بقية القصيدة تُبْهِجنا بطريقة عجيبة. انزلقت تويجات الوردة الصفراء من فوق الأوراق إلى الأرض.

كلّفت اليوم صائغين من غرناطة، بأن يصنعا لمريمة طوقاً وصدرة، هذا إذا ما كانوا أوفياء للتقاليد التي شهرتهم. أرغب أن يكون الأول مؤلفاً من زهيرات مطعمة بالزمرد والياقوت: تلك التي يسمونها هنا أزهار الطير. وأريد للصدرة أن تجمع كل الحديقة ببريقها طالما أنه من غير الممكن أن تجمع عطورها. وكنت أريد أن أقدم لها الهدية يوم الولادة، لكنني لن أستطيع المقاومة. سأقدمها إليها يوم يأتونني بها. كلي لهفة الآن لأن أطوق بها عنقها ولأن أرى مظاهر فرحها الطفولي وبهجتها، لا بدّ أنها ستصفق.

سألتها البارحة ما إذا كانت تتذكر ربيعاً كان كريماً معنا.

ـ معي لا ـ أجابتني ـ أنت الآن إلى جانبي كل اليوم وكل الأيام. وكل لحظة بجانبك أروع عندي من النجمة الدقيقة المعطرة بالياسمين.

قبّلتها، تحت ظل أشجار الخرنوب الدائرية، بتؤدة شديدة وأنشدتها بينما المساء يتلاشى، مقدّماً لها كأساً:

ترشف الخمرة والنسيم عذب
تهزّ الظلّ الرطب مثل بيرق.
الزهرة عين أفاقت تواً وتبكي
والجدول فم تبسم عن بردٍ براقة.

فتابعت، وهي تشرب الكأس بجرعة واحدة وبزهو:

هزّت الجنان معاطفها الموشّاة،
لتبدي مفاتنها، مثل سكران تحنيه الريح ويوشك على السقوط
والندى كسا بالفضة وجه الروض هذا الصباح وفي المساء كساه بالذهب.

---

(1) لم أعثر على هذه الأبيات (المترجم).

أخيرا ختمناها بصوت واحد وضحكة عالية:

والندى كسا بالفضة وجه الروض هذا الصباح وفي المساء كساه بالذهب.

لاأحكي لمريمة أن حلمي يتوّج في بعض الليالي بالذعر. لاأريد بعدها أن أتذكره أوأحكيه. لابدّ انه نتيجة للملاحقات والتهديدات الكثيرة والتفكير الضاري بالخطايا التي لست متأكداً من أنني ارتكبتها. وعند الفجر أغتسل منها بماء الطهارة الأوّل، لكن محوَ آثاره أكثر كلفةً من آثار الجريمة.

إنّ من ينشيءُ ولديَّ ويربيهما على شعرنا واسعِ المعنى وكثير العبر، هوالعقيلي، استاذي الذي رباني، نفسه. يتولّد عنديَ انطباع بأنه أقصر مما كان منذ عشرين سنة، ربما لأنني كبرت. لكن من الواضح أنه بَدَنَ كثيراً، وإذا ما نُظِرَ إليه بِتَجّردٍ ظَهَر أنّ أعلاه أضخم من أسفله ومع ذلك لم يخفّ وَلَعُهُ بالخواتم. وكنت أهديه منها اثنين أوثلاثة في العام ولم يكن يُبَدِّلها كلّ يوم بل كلَّ ساعة تقريباً.

طرحت معه، منذ خمسة عشر يوماً، فرصة أن نكتب رسالة إلى الشيخ الوطاسي، صاحب فاس. ورجوته أن تكون في غاية البساطة ـ فأنا أعرفه جيداً ـ وأن يعرض عليه رغبتي الملحة باللجوء إلى مملكته، طالباً منه استضافتي لاأكثر.

اليوم جاءني بمسودة خالدة من الشعر والنثر المسجوع لأراجعها، وقد عنونها بافتخار: *الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس*. ربما كان العنوان لطوله يكفي عن الرسالة كلها.

استمتعنا أنا ومريمة ببعض المقاطع غير المناسبة: «قبل أن يداهمنا الصمت والظلمة، أستحضر بدوري النهار السابق وقيظ الظهيرة الحارق والفجر الرائق، الذي ماكان أحد ليتصور بأن خطوه لنا مفارق. لكن هاقد حل المساء. وتغرق الألوان جمعاء في أرجوان الانتهاء الذي يصبغ المدى بالدماء. في الأفق تعرت الأشجار وجفت. وحده النور يضفي على الحسن حسنا. في بعض الأعمار يفضل الليل لأنه يسمح لرحمته بأن تنزل على أشيائه[1]»

---

(1) تعمّدتُ السجع عملاً بقول أبي عبد الله نفسه (المترجم)

لكننا تمتعنا بفقرات أخرى ـ لا أدري إذا كان هذا وقتها المناسب ـ

«يقال ان الملائكة لاتميز بين من هم في عالم الأحياء ومنْ صاروا في عالم البين». والحياة ربما ليست غير رفة عين. لايدوم إلا المنون. وما يحدث لنا هونفسه ما يحدث للملائكة: الحياة وداع، وداع دائم. تبديل للمكان أوللموقف، وربما كان الموت كذلك أيضاً».

وبناء على الرسالة (التي قَبِلْتها كاملة كي لاأجادل، وقعتها وأمرته بحملها إلى محمد النصر) أمضينا، أنا ومريمة، الوقت على هوانا.

كيف سنتذّكر من اليوم فصاعداً ماضينا؟ لقد حَوَّلنا غموضَه إلى يقين وخلعنا عنه كل الذي يبدولنا اليوم عرضياً وربما هو كان كذلك، فَسَّرْناهُ كشيء متساوقٍ ومحدد. ولم يكن كذلك، فالماضي، من وجهة نظرنا الحالية، هوببساطة ما جعلنا نكون مانحن عليه، لكن هل كان هذا هوقصده، جوهره؟ هل كان له من قصد؟ وجوهره، عندما كان حاضرا ـ بمعنى عندما كان ـ ألم يكن كجوهر اليوم انتقالياً؟ إن الماضي الذي لايشوّه والمتحجر الذي نراه اليوم، ليس إلا بدعة، ومع ذلك ماكان من الممكن للحاضر أن يوجد دونه.... فالمسألة أنه ليس للتاريخ بداية ولانهاية، إنه مثل النهر: المجرى هوالذي يبدأ وينتهي، وليس الماء. لاأحد يستحم في الماء نفسه مرتين: وكان قد لاحظ ذلك أحدُ اليونانيين.

ـ الحاضر ـ كنت أقول لمريمة ـ هوآخر لحظة في تاريخنا... الآن. لكن كيف نفسر غداً لحظة اليوم المليئة بالإحتمالات والإمكانات؟ ألا يتعلق تفسيرها بكيف يكون الغد الذي نبحر فيه؟

ـ إذا لم تصمم على فهم الحياة تماما ـ أجابتني ـ فستصبح بالنسبة لك حفلاً صاخباً.

ـ ومن هوالقادر على عدم التصميم على فهمها؟

ـ أنا ـ أجابث مبتسمةً.

ـ أما أنا فلا. ليس لأنني أنظر، وأنا أنظر فعلا وتكراراً إلى الخلف أكثر مما إلى الأمام، (وأنا أفعل هذا لأنَّ مامضى أكثر عندي مما بقي وهوأنا) ليس لأنني أشعر بنفسي عجوزاً (فالفارق بين مرحلة وأخرى من عمر الإنسان لايدرك بالأرقام)، ليس لأنني أَشْتَمُّ أنني أقرب إلى الموت (فالموت في الحياة وأكثر مايكون في انقضائها). لذلك إذا كنت أحاول أن أفهمها فذلك كي أشعر بنفسي.

ـ لاتنظر إلى الخلف، ياأبا عبد الله: انظر إليَّ.

ـ إذا لم أنظر إلى الخلف (ثم إنك هناك كما في الآتي) فإنّني سأتعثّر: ذلك هو التناقض الظاهر. وإذا نظرت إلى الماضي فقط، سأتعثّر أيضاً. ذلك هو الزقاق المغلق الذي تكمن فيه المأساة. من هنا جاءت محاولتنا لتصوّر الماضي وتزويره، كي نمسك به ونجعله ملكنا ونتأكد منه على الأقل.

ـ والماضي ألا يتغير؟ ـ ردت مريمة ـ ليست المسألة أنّ الأمور كان بإمكانها أن تحدث بطريقة أخرى البارحة، بل لقد حدثت بالفعل بطريقة مختلفة عن تلك التي نتذكرها بها. الأمر بالنسبة لي في غاية الوضوح: إننا نخلط بين مانتخيله وما نعيشه. ذلك لأننا نريد أن نروي تاريخنا الخاص بوضوح وتاريخنا نادراً ما كان واضحاً.

برأيي أنّ مريمة تستنتج، دونما إرادةٍ منها، أفضل مني. بالفعل إن الحياة استمرار من القَطْعِ معَقَّدٌ، اهتزاز أيدٍ تقول لنا وداعاً. نغيب عن المدن والأشياء، عن الأجساد، عن الحب والنفور، عن العزلة والصحبة، عن القناعات والضعف. ألا أَقْسُرُ هذا الحاضر منذ الصباح الذي مات فيه غالب، أومنذ الصباح الذي هزموني فيه في اللسانة، أوالصباح الذي سلّمت فيه غرناطة أوالذي قبرت فيه فرج؟ وهل في هذا القسر تكمن الحرية؟ ألا يقتصر الحاضر على الدفاع عن النفس، خاصّةً من بعض مظاهر الماضي عبر اختيار بعض الوداعات، الاختيارات التي تبدو لنا ذكية، وربما ليست أكثر من أنها تبدولنا ذلك؟ لأن الحياة ليست أكثر من أنّ الإنسان يقول لنفسه دائماً: وداعاً. أكثر مما يقوله لبقية العالم. والحياة ـ كيف سأعترف بذلك إلى مريمة ـ وِخشَةٌ من الوداعات رَنَّانة. هذا هولحنها الوحيد: لحن نحاول ألا نسمعه.

ـ كل قصة تُقَصُّ ـ قالت مريمة وكسرت الصمت ـ سَتُقص بطريقة سيئة، لأن كلّ قاصٍّ يختار دائماً ما يريد أن يقصه، ولأن أيَّ قصة تستوعب أيَّ شيء.

اليوم، 8 تموز، وَقّعتُ أخيراً الاتفاقية مع ملكي قشتالة. أبيعهما الأملاك التي اعترفا لي بها منذ سنة ونصف وألتزم لهما بالعبور إلى أفريقية، عبر ميناء عدرة، مع كل من يرغب بمرافقتي.

سحب الملكان دفاعاتهما عن شواطىء ألمرية، وهذا ما يعني أن علاقتهما مع سلاطين أفريقية جيدة. وأنا الآن أنتظرُ ردَّ سلطانِ فاس.

يطمئنني المالح بأنه عليّ ألا أنشغل: ففي الوقت الذي أرسلتُ فيه محمد بن نصر، أرسل الصفريّ مبعوثاً عن الملكين ليؤكد له بأن نفيي يلاقي رضاهما. هذان الملكان النصرانيان كُلِّيًا الحضور، مثل إلههما تقريباً.

وصلتني رسالتان في آن معاً: جواب الوطاسي ورسالة الصفري. الأولى بدورها لا نهاية لها تقريباً: يرحب بي في مملكته بكل السرور القادر عليه ـ لن يكون كثيراً. فالأفارقة لم يتقدموا في هذا الطريق بعد ـ كما لوكنت هو. والصفري يرسم لي بتكليف من الملكين الطريق الذي عليّ أن أقطعه إلى عدرة. في عدرة سأجد حرّاكتين من حرّاكات البندقية راسيتين بانتظاري ومن معي. سأبقى حتى النهاية وإلى ما بعدها مضطراً لأن أشكر جّلاديّ، الذين يسلمون بإحسان «حياتي ونجاتي لله».

أنا ومريمة، المتعبة الآن كثيراً، نقترح الواحد على الآخر مشاريعَ مطوّلة جداً.

ـ نحتاج إلى حياتين أوثلاث كي ننهيها ـ ألفت انتباهها.

ـ ألن يكون لنا حياتان أوثلاث؟ ـ تردّ عليّ متظاهرة بخيبة أمل كبيرة.

كان أحمد ويوسف، عندما يجدان نفسيهما متحررين من مؤدبيهما ومُعَلميهما، ينضمان إلينا في تنزهاتنا. أحمد يحمل معه في كل الساعات جروَ الدرواس الذي قبلني أخيراً. إنه قبيح جداً وظريف، مثل كيس مطوي يَتَكَلَّفُ الزمنُ بملئه. أراد في اليوم الأول أن أضع له اسماً.

ـ ما رأيك بزين؟ ـ اقترحت عليه.

ـ زين، زين، ـ صاح أحمد والجرو قَطَّبَ ما بين حاجبيه وكأنه عرف أنه يُنادى ـ زين! ـ كرّر صاحبه مرة أخرى وهويضمه اليه.

صار في هذا العالم كلب آخر يدعى زين. تراه لا يموت كلياً. ربما كان الاسم هو أكثر ما يهم.

يعذّب الحر الخانق مريمة. ياليت ساعتها المباركة لا تتأخر كثيراً.

تعتبر النساء سهولة الولادة أمراً مفروغاً منه. الطبيب يوسف يطمئنني: فالحمل كان من السهولة بحيث أن طلاب المدرسة كان باستطاعتهم أن يتعلموا منه كيف يجب أن يكون الحَمْل.

لوكنت أعرف الغناء دون أن أخيف الذين يسمعونني لرنمت شعر ابن قزمان القديم:

سعيد الأب
يهنؤونه بمولوده
دثروه، انذروا له النذور
بخّروا من حوله،
واكتبوا بالأحمر على مهده:
«قل، أيها الطفل، لا إله إلّا الله»(1)

ما عادت مريمة تتابع مشاريعي، وترفض القيام بخطط بعيدة المدى: تشعر بالفوري القريب جداً. ترتيب البيت تركته لأختي، التي لم تنفع قط لمثل هذه المهمة. والدتي تحشر أنفها في كل شيء، وكل الأمور تسير ارتجالاً، لكن هذا، ولأننا جميعاً نندفع في فوضى لطيفة، يزيد من ترقبنا المشترك. كما لوأننا جميعاً نساعد بتضحيتنا واستسلامنا في ولادة مريمة. أحمد ويوسف يتآمران في الممرات، يتبعهما *زين*، متراهنين على كيف سيكون الأخ الذي يعبدانه منذ الآن ـ أشقر أم أسمر ـ، أي مثل هذا أو ذاك منهما.

النساء جهّزن كل أنواع التمائم والتعاويذ غير المعروفة دائماً والثياب الرقيقة التي لا تحصى. أعرف أنهن ينعمن أيديهن بالحجارة المسامية ويصبغنها بأفخر أنواع الحناء. القصبة بكاملها تتزين وتستعد لاستقبال ولدي.

هذا سيحمل فعلاً اسمي، إذا ما كان الاسم هو أكثر ما يهم...

عدت من مندوجار، بعد أن واريتُ مريمةَ وابنتي الثرى.

وعندما أغلقت هذه الأوراق وللأبد، سقطت نورية وردة صفراء جافة ومعضوضة بينها.

مضى عامان على آخر ملاحظة كتبتها في هذه الأوراق.

هل هذا هوالشيء الوحيد المهم الذي جرى: عامان؟ لا بدّ من القول بأنه قد جرى كل ما كان من الممكن أن يجري.

(1) لم أعثر على هذا الزجل في ديوان ابن قزمان فترجمته (المترجم)

إنني مقيم بشكل مؤقت ـ بأي شكل آخر يمكن أن يقيم الانسان؟ ـ في فاس. يحيط بي بعض أتباعي، أولئك الذين ليس لديهم أية وسيلة للحياة دوني، وأولئك الذين لا يتصورونها دون خدمتي.

فاس مدينة في انحدار، أعرف تماماً متى تكون المدن كذلك. فانحطاطها السياسي واضح تماماً للعيان: المرينيون فقدوا نبضهم الأول، ما من سلالة تدوم هنا دون أن ينالها الضعف (لا هنا ولا في أي مكان آخر.) انحطاطها السياسي تسببه الفوضى والحروب، التي تقطع بين الفينة والأخرى التبادل التجاري مع بلاد النصارى. انحطاطها الفكري، هذا إذا كان فكرها مرتفعاً ذات لحظة، هوالأوضح. رغم أن الواجهة ما تزال برّاقة (المدن مثل نور النجوم تتأخر في الانطفاء حتى بعد موتها) خلفها يوجد فراغ عميق جداً. فراغ يتفاقم يوماً بعد يوم لأن السلطان ينظر إلى أوروبة بدل أن ينظر إلى الجنوب حيث كان الخطر على هذه الأمة. ليكن له ما يريد فهذه ليست مسألتي.

خرجت، يوم أكملت الواحدة والثلاثين من عمري، من أندراش (أحَدٌ ما ظنَّ الآخرون أنه أنا خرج من أندراش) دون أن أرفع عينيّ.

في عدرة كان يهبّ هواء رطب، رغم أن الحرّ استطال في ذلك الخريف.

لم أشعر بشيء، حتى ولا برغبة في البكاء: صار الوداع مهنتي.

في المرفأ الهادىء والمرتعش كانت تطفو حرّاكتان «حرتين طليقتين، لا يترتب عليهما أي أجر أوحقّ»: تلك كانت الكلمة الوحيدة التي أوفى بها الملكان بشرط أن أذهب. صعد إلى الحرّاكة التي حجزاها لي وإلى الأخرى 1120 شخص، بين أسرتي وأسر قوادي وخدم الجميع. وبينما كانوا يصعدون رأيت بين الأرصفة التي تشكل الميناء خطاً داكناً يفصل فضة البحر الحر ـ لم يعد بحري ـ عن فضة الميناء ـ لم يعد مينائي ـ «مثل زرد الحراشف المبهرة ـ فكرت ـ. يقول القرآن بأنّ أول من لبس الثياب المخططة كان داوود» ثم فكرت: «لمن أفكر؟» بعد ذلك كان البحر أزرق. والسماء فوقه زرقاء، ليس فيها غير بعض الغيوم المتكبرة. ومع ذلك كانت السماء ما تزال فوق الأفق بيضاء. تمنعت عن رؤيته، أشحت عنه. على اليابسة نخلة سامقة طالت لحيتها، ولم تقلم. بسطت يدي مشيراً إليها كما لوأنني أريد أن أقول لها «لا يمكن للنخل أن يهمل بهذا الشكل. من المسؤول عن هذا الإهمال؟» أحجمت، أنزلت يدي. ما عاد هناك أي شيء له علاقة بي. طرف الكوفية التي رفعها الهواء غطى وجهي ولامس

عينيّ. كان النور مفرطاً وأبيض، حاداً وجارحاً. بكت عيناي. عيناي وليس أنا.

ومن جديد أشحت بوجهي. كان المنظر العاري ينمو، بموجات متتالية بدءاً من أراضي ألمرية المنخفضة وحتى المرتفعات القريبة من غرناطة. من هناك كانت تأتي غيوم كثيفة باتجاه البحر. ارتعشت أشرعة السفن. وأنا أيضاً.

لم يكن آخر ما رأيته من مملكتي جميلاً. شكرت الله على ذلك.

كانت الرحلة في البر إلى فاس من القساوة بحيث أن أمي رجتني، متذرعة ببضاضة الأطفال، أن نعود أدراجنا ونبقى في أيٍّ من مدن الشمال. أنا، الذي جبلت على المشقات، لم أبغ أن أوفر أياً منها. عندما وصلنا إلى فاس، كان الوباء والجوع اللذان انتشرا بدءاً من تونس قد سبقانا إليها. كثير من سكانها، الذين كانوا يغادرونها، تقاطعوا معنا. بدت لي فرصة جيدة للنهاية، ومع ذلك فقد خطر للكثيرين من مرافقيّ أنها تجربة يُخضع الله إليها أتباعي المخلصين، الذين اعتبروا أنَّ ساعة التخلي عن هذا الاخلاص قد حانت. بعضهم تناثروا في المملكة وآخرون عادوا إلى غرناطة، كي يقنعوا أنفسهم أنَّ وراء السّيءِ يوجد دائماً ما هوأسوأ. وكنت مقتنعاً مسبقاً بذلك.

كان المدجنون في غرناطة، حسب ما راح يتناهى إليّ، يجبرون على ارتداء قلنسوة صفراء وهلالاً أزرق على الكتف الأيمن. إذ عندما تأكد الملكان من أن المسلمين الأكثر تواضعاً قرروا البقاء هناك. نكثا بالعهود جميعها واحداً بعد الآخر. وأثقلا كاهلهم بالضرائب، وبدآ يعاملونهم بوحشية واحتقار ويخضعونهم لقوانين عاتية. مُنِع الأذانُ في المساجد وبدؤا يطردونهم من المدينة التي كانت لهم. وأبعدوهم إلى الأرباض والقرى، حيث انزووا في فاقةٍ وذلٍ وإهانة.

وإذا كان هذا الملك الأول، الأكثر ارتباطاً بوعده لا يرعاه، فما الذي سيرعاه لنا خلفاؤه؟ إنّ سقوطنا لم يبلغ بعد مداه الأقصى. لماذا يسكت الله؟

كنت في تلمسان. أكد لنا عدد من المسافرين أن عمي أبا عبد الله يسكن هناك. جرت، في البداية شائعات تقول إنه كان في بلش ده لاغومرا،

وبأن القضاة قد عموه، نظراً لخيانته لي بالشبهان المحمى وأنه كان يعيش على التسوّل.

ـ يمضي مثقلاً بالأسمال ـ كانوا يضيفون ـ وفوقها يضع لافتة تقول «هذا هو ملك الأندلسيين الشقي». وبها يثير عواطف الناس للحصول على الصدقات.

شعرت بخنجر يقطع قلبي. صممت على المضي دون تأخر للبحث عنه. عند ذلك أكد لي ابن نصر بالبراهين أنه يسكن في تلمسان.

عندما وصلت بأقصى ما استطعت من سرعة كان قد مضى على وفاته شهر. حملني أبناؤه، الذين لا يفيض عنهم المال، إلى قبره في مقبرة شعبية. كنت واقفاً أمامه عندما اقتربت مني مترنحةً امرأةٌ تبدوعليها علائم التواضع،كانت بدينة جداً، وقبلت يدي.

ـ أنا خديجة ـ قالت لي وأجهشت بالبكاء.

«ليست خديجة ـ فكرت غاضباً ـ كيف سيكون هذا الحوت خديجة الرقيقة والحيوية؟» ومع ذلك فالعينان ـ ما خُمّنَ منهما بين الأهداب الكثيفة ـ كانتا عينيها. لم أجرؤ على تقبيلها. كيف سأدنس ذكرايَ عن خديجة مقبلاً هذا الخراب؟

أمرت بعمل شاهدةٍ رائعة جداً، مماثلة لشواهد قبور سلاطين الحمراء. وضعت بنفسي النص: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على نبيه محمد وآله. هذا قبر سلطان توفي في الصحراء، غريباً، مهجوراً بين نسائه. جرحه القدر الذي لا يلين بعد أن حارب الكفار. لكن الله منحه صبراً على قدر بَلِيَّتِهِ. طَيَّبَ الله ثراه.»

وفي الحال فصَّلت: «هذا قبر السلطان العادل المعظم، الكريم، ناصر الدين، الوفي، أمير المسلمين، وكيل رب العالمين، سيدنا أبي عبد الله، الظافر بالله، *الهمام*، ابن مولانا سعد أمير المسلمين، ابن مولانا الصالح أبي الحسن، ابن أمير المسلمين أبي الحجاج، ابن أمير المسلمين أبي عبد الله، ابن أمير المسلمين أبي الحجاج، ابن أمير المسلمين أبي الوليد، ابن نصر النصري، الخزرجي، السعدي الأندلسي.

››طيّب الله ثراه وأسكنه فسيح جنانه. حارب في مملكته من أجل انتصار الايمان، قضى حياته الكريمة في ميدان المعارك الطاحنة التي كانت تهبط فيها على حفنة من الفرسان المسلمين جيوش لا تحصى من

عبدة الصليب. لم ينقطع في أيامه عن القتال في سبيل إعلاء كلمة الله، وقام بالجهاد في كل مرة تطلبها الأمر، وشجع رجاله عندما كان يراهم يضعفون.»

»وصل إلى تلمسان التي لاقى فيها الترحاب والمحبة الجديرة ببلاياه. باغته الموت في أرض غريبة، بعيداً عن مملكة أجداده، سلاطين بني نصر العظماء، الذائدين عن دين المصطفى.

»انتقل إلى جوار ربه، مكللاً بالمجد، بين صلاتي يوم الأربعاء من هلال شعبان من عام 899 . عن عمر يقارب الأربعين».

عندما وضعوا الشاهدة، قرأتها بأناة. شعرت أنني لا أعرف عمره بالضبط. ارتكب النقاش بعض الخطأ في الكتابة، بدا لي معذوراً: فالله يقع فيه أيضاً.«قصص الذين كانت لهم علاقة معي ترشح أوتتبدل». فكّرت.

ولكي أتجنب شكر أسرته امتطيت جوادي وعدت إلى فاس دون أن أودعهم.

عمّا أستطيع أن أتكلم بعد الآن إن لم يكن عن الجنازات؟ فالبارحة واريت والدتي الثرى. كانت رغبتي بأن يصلّي الفقهاء الصلاة الأخيرة على جثمانها في مسجد الأندلسيين. كان من الصعب جداً عبور المدينة بالتابوت. وكنت قد قررت أن أبَذّرَ قليلاً من الأموال المتبقية معي إرضاء لرغبتها وليعلم الفاسيون أن المتوفاة، شخصية ملكية. كانت الجنازة غالية والطريق من المنطقة التي كنت أعيش فيها إلى المسجد صعبة. لكنني أتصور أن أمي لا بد ستكون راضية لأنها تزعج الناس حتى بعد موتها. وعندما كانت الجنازة تشق طريقها بين زحام المشترين والباعة والمتجولين والأطفال والحمير والجمال، كانوا يقولون: «إنها عمّة من عمات السلطان». وحدهم الأندلسيون عندما رأوني ملفعاً بالحداد فهموا أنها كانت أحد أفراد بيتي، لكن أحداً لم يفكر بأنها كانت أمي: ربما افترضوا أنها ماتت منذ زمن بعيد.

كنت أحكي لكل من التقيته، سألني أم لم يسألني، ماذا كانت كلماتها الأخيرة:«عندما تعود لتحكم في الحمراء، اقبرني في الروضة مع السلاطين.» كان بودّها لوتقولُ ذلك، وأقلُ ما يمكن أن يفعله ابن هوأن ينقله عن لسانها. على كل الأحوال كانت حياتها قائمة على فرض نفسها وأن يكون واضحاً للعيان أنها فوق كل شيء منذ أن خرجنا من غرناطة لم

تتوجه إليّ بالحديث إلا مرات قليلة. حتى عندما توفيت مريمة، قالت لي فقط ودون أن تنظرالىّ:

ـ اعتقدتُ أنها تعرف، على الأقل، كيف تنجب أولاداً ـ ثم عادت إلى شغل الإبرة الذي كانت تعمل فيه، وأضافت ـ: أنهت تطريزاتها قبل الأوان، وهذا أفضل، إذ ليس عليها أن تتحمل ذلاً أكثر.

أول أمس أظهرت أعراضاً خطرة، كانت تختنقُ. أخبرتني بذلك إحدى وصيفاتها. عندما دخلت غرفة نومها كانت تحتضر. عيناها خارج مدارهما. وتتنفس بلهاث يشبه عربة متورطة في الوحل. وكان يخرج من بين أسنانها صرير يضايقني أكثر مما كان يضايقها. بدأت أسعل كما لوكنتِ من يخنقه البلغمُ، أو كما لو أن تنحنحي يمكن أن يكون لها مثلاً للتخلُصِ من الغصةِ التي تخنقها.

ـ هل تسمعينني؟ ـ سألتها.

أجابتني بالإيجاب بحركة من رأسها.

أردت أن أعتذر منها عن كل الخيبات التي تسببت لها بها على امتداد حياتي. اعتذرت مختاراً ألفاظي، لأنني خيبت أملها، لأنني أذعنت للأحداث منذ طفولتي، دون أن أواجهها بشجاعة. ربما كان هذا طرحاً مسهباً. شدّت أمي على ذراعي التي كانت تمسك بها بأصابعها المتشنجة، وقالت بلجلجة قاسية:

ـ دعك من الهذر وناد الطبيب.

تابعتُ، واثقاً من عدم جدوى مناداة الطبيب ومن أنها لن تغفر لي عرضي لوجهات نظري، تبريراتي وثقتي المترددة بأنه لم يكن باستطاعتي أن أعمل بطريقة أخرى.

ـ يقول المثل ـ تمتمت بسرعة ـ من الأفضل أن يقولوا: *هارب منا من ميت هناك.*

ولم أكن أفكر بنفسي، وإنما بالغرناطيين: فالمملكة انتهت لكن الرجال لم ينتهوا.

انغرست أصابعها في ذراعي بقوة لاتصدق من امرأة بمثل شيخوختها وظرفها.

ـ لا شيء مما تقوله يهمني ـ بصقت بي ـ ماذا تهمني غرناطة إذا كنت سأموت؟ ناد الطبيب. أريد أن أعيش. الشيء الوحيد الذي يهمني هو أنني أموت...

عندما وصل الطبيب الذي طلبته كانت قد فارقت الحياة. وقتها فقط أدركت كيف تقلّص جسدها خلال كل هذه السنين. كان هناك مجعّداً مثل جسد طفلة صغيرة بائسة. وجهها مجعّد وصغير، جميع ملامحه مشدودة، ما يزال يحتفظ بازدرائه، كما لوأنها حتى بعد مماتها ما تزال غاضبة مني.

فكرت وأنا أمامها بأن تاريخ بني نصر كتاريخ أية أسرة أخرى، أوأي شخص آخر، ليس فيه ما يدعو للدهشة ولا ما يدفع للاستنفار. شيء يولد، يرتفع، يتحمس، ثم يهون ويسقط: هذا كل ما في الأمر. مثل لعبة يراهن فيها المرءُ بأمل، ويربح ويخسر المراهن عليه، أويربح أويخسر في آن معاً. ليس عنده أي شيء ثابت إلا بعد فوات الأوان حين يبطل الاهتمام. يطمح للسعادة، ربما كانت السعادة تكمن في هذا الطموح نفسه. مثل حياة أي شخص: لعب، حب، موسيقى. وهل من لعب، أو حب أو موسيقى لا تتوقف في يوم ما؟

الطبيب الذي لم يصل في الوقت المناسب لمساعدة أمي على لفظ أنفاسها يزورني في بعض المساءات. البارحة خرجنا معاً. في باب أحد المساجد أشار إلي قائلاً:

ـ انظرّ. هل ترى هذه البركة المليئة بالأسماك؟ إلى هنا نأتي بالأطفال المصابين بالحول كي ينشطوا أعصاب عيونهم بمتابعة سمكة محددة فيصحح عندهم الحول. إنها وسيلة غير مؤلمة ومحببة بالنسبة للحول، الذين يلعبون ويتراهنون ويحب كل منهم سمكة كما لوكانت له.

كان الطبيب يضحك. وما أن تجاوزنا شارع الكتاب الشرعيين، حتى أراني ساحة في وسطها شجرة جوز وارفة. في العمق، قال لي، يوجد بناء كبير فيه المارستان الذي يؤون إليه المجانين وأنه يذهب من حين لآخر لزيارتهم.

ـ كما تزورني؟ ـ سألته.

ـ أكثر (أكثر مما أريد) وبثقة أقل بكثير. أعترف أنهم يخيفونني.

ـ ربما كانوا يخيفون لأنهم يخافون.

ـ القسم الأعظم منهم خطر جدّاً ـ تابع ـ عندما تنتابهم حالات الهيجان الجنونية لا يرتدعون عن شيء، نحاول أن نهدئهم بعزف الموسيقى الأندلسية في صحن المصح. يبدوأن سماعهم لها يجعلهم بنعومة الحرير. بل لاحظنا أنهم يتحسنون بعد سماعها لعدة صباحات.

فيترنحون ما بين الإذعان والإندهاش، وكأن الله نفسه ربت على أكتافهم وهمس في آذانهم بأمر.

ـ لا أستغرب هذا ـ قلت له بحزن ـ على العكس، فالذي ينقصني كي أجن نهائياً هوسماع جوقة من هذه الموسيقى الأندلسية التي لم أستطع ولا حتى في منامي أن أبعدها عن سمعي.

أمرت ببناء قصر لي قرب مقبرة بني مرين. وهوبالنسبة للأذواق الخشنة هنا قصر رقيق، نسخة عن الحمراء، وأي شخص يعرف الحمراء سيفهم أنه ما من شيء في بيتي يشبه ذاك. لا في بيتي ولا في أي مكان آخر: فالروح لا تنسخ.

هذا ما يقوله لي الزوار الغرناطيون، الهاربون من مدينتنا. هذا وأشياء أخرى أكثر. الأندلس كله تحول إلى النصرانية، إلى حد أنه لم يعد هناك من يقول علناً «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله». ففي المآذن وضع المطران ثيزنيروس نواقيس، وفي المساجد صوراً وصلباناً. وإذا ما تمرد أحد يعاقب بالتعذيب وبالموت. ويقولون لهم كي يرتدوا عن إسلامهم: «جدك كان نصرانياً وارتد، فارتد أنت الآن.» يعترفون إذن بأن غرناطة كانت مليئة بالعلوج والمرتدين والمنقلبين أي بالناس الذين يحتفظون بالرغبة الخالصة بالعيش. عمّد ثيزنيروس من شهر حزيران وحتى كانون الأول سبعين ألف مسلم. وكانت الملكة تقول له «مزيداً من النصارى وبسرعة أكبر». كانوا يعمدون الرؤوس وليس الروح.

وكما هوالأمر دائماً، انتفض حيّي، حيّ البيازين، حيي المفضل. شعار التعسف: «الارتداد أوالموت». آمل وكما كان يقول فائز أن يستمر الكثيرون بعبادة الله في زوايا قلوبهم، لكنني أيضاً أنتظر بشكل مفجع، أن يُحْرقَ المُباغَتون. فعندما يراد القضاء على أي شيء ـ قوم، دين، أوطريقة في الحياة ـ فالذي يملك القوة لا يتردد في استخدامها.

ومع ذلك كنت أشجع المهاجرين الأندلسيين بقولي:

ـ غرناطة ملك لله وإليه تعود. وكل ما يحدث مكتوب في كتاب العلي الذي لا يغلق اليوم.

ورغم نيتي الطيبة فإنني لا أعتقد أن ذلك كان يواسيهم، فأنا أيضاً لم يواسني قط.

من وقت لآخر وفي تواريخ غير محددة أعيد قراءة صفحة أوصفحتين من هذه الكتابات، بالفضول الغامض الذي تثيره القضايا الغريبة. انتهت هذه الطريقة الاعتباطية في قراءتها إلى أن أدخلت التشويش إلى ذكرياتي. تختلط علي كثافة ما تحكيه، وما تمثله وتاريخها. وإذا ما كنت متحمساً فإنني أضيف بعض الأسطر على الهوامش، أوأسجل شيئاً حدث بعد المكتوب. هذا ما فعلته في هذه اللحظة.

منذ شهور عنَّ ببالي أن أتنزّه كثيراً في المَنمَلَةِ اللامتناهية والدقيقة التي هي المدينة، حيث جميع المهن تجد مكاناً مزعجاً لها. تملك أويملكها ثلاث دوائر: دائرة المهنيين، السوق، ودائرة المساكن. لكن كل شيء مختلط. الشعب بكامله يعيش بداخلها معاً كما لوفي بيت كبير. الشوارع في الحقيقة، ممرات قصيرة. سكانها يسمعون الصوت نفسه: صوت المؤذن، الأبوي والمنتظر، وتفوح منهم رائحة التوابل والأعشاب الواخزة، يمضون في طريقهم إلى الأماكن نفسها، يعبدون الإله نفسه ويستريحون أويصلون على الحصير نفسه. المدينة بيتهم الوحيد، ليس عندهم غيرها، فبيت كل واحد منهم صغير كي يعيش فيه: إنه مجرد جحر ينامون فيه قليلاً ليخرجوا من جديد مع الفجر لينعزلوا أوليجتمعوا. يملكون ثقافة ـ أم أنها تملكهم؟ ـ عملية متمرسة على الصبر الطويل. إنهم قادرون على المكوث وحيدين يفكرون أو قادرون على ألا يفكروا بشيء. أو أن يجتمعوا في حلقات صموتة، حيث تتعرّج أحياناً بسمة مماثلة على كل الأفواه وللسبب الضمني نفسه. ثقافة على ما يبدو تستسلم وتغفو، لكن ليس أكثر مما على ما يبدو. رفاهيتهم الوحيدة الخضرة والماء ـ فوجودهم في الصحراء ما يزال ماثلاً ـ وليست المحادثة، فالراوي هوالذي يجب أن يتكلم. أرى هنا من الأعلى ما لم تتح لي الفرصة لأن أراه في غرناطة، وأفهم أكثر من الداخل ما لم أفهمه في غرناطة، بل ما لم أطرحه على نفسي.

رجل قادم من الريف يسوق حميره الأربعة ويكلمها كما لوكانت أربعة أشخاص منهكين وبلهاء بعض الشيء. على باب، منخفض، إلى حد أنه من الضروري هبوط درجتين لعبوره، أقرأ «عين الحسود فيها عود». يخترق النور الحصر التي تغطي الأزقة وتداعبها. على السُّطيحات تُنشرُ السجاجيد بألوانها الأنيقة الحائلة. طَرقُ النحاسينَ العريق يحدِّد إيقاع الوجود. أعمى يرنم طلبه ـ «حسنة في سبيل الله» ـ يتقدم ببطء شديد، ويمسح وجهه بيده دون توقف وكأنه يغتسل. رجل عجوز بعمر العالم يبتعد وبيده سمكتان. نجاران ينشران خشب تابوت وهما يضحكان، إلى

جانب منبر شبه منته. أمر بمدخل حمام مزدحم. أمر بحانوت قنادر مخططة، حيث يخيط الخياط ويجدل خيطاناً يمسك بها - مشدودةً، في كل يد أربعة - طفلٌ بطول كرسي صغير.. أمرُّ بقفصٍ يصدحُ فيه بُحُبٌ ترغلتان منتوفتان ووسختان. أمرُّ تحت آبارٍ من النور، تُحْتَرَمُ كما لا يُحتَرَم غيرها، مقابل زاويةٍ، أمام بابٍ وسطٍ في ممرٍ مسقوفٍ ومظلم. (ماالذي يدل هنا على أنّ هذا شارع وهذا ليس شارعاً، على أن هذاً دهليز أو زقاق؟ لقد تم التوصل إلى درجة عالية من التمام: محاكاة الليل في عزّ النهار.) أمر بأكوام من الزيتون على شباكٍ من خَلْفاءِ المَعَاصر: أسود، بنفسجي، وأخضر، مثل الحجارة الكريمة، وبينما كنت أتأملها ساهياً تَبَرَّزَ عليها كلب عابر. أمرُّ أمام صانع خفّافات يسند فردة على ركبته بواسطة سير يدوس عليه، ويحرّك رأسه على إيقاع ترنيمة لايرنمها. أمرّ أمام صانعِ معدنياتٍ ينتقي ترساً من بين ثلاثين أوأربعين ترساً مختلفاً، مثل كاتب يَنتقي كلمته. أمر أمام وفرة من الخضار: بدءاً من الكزبرة، التي يفتح طعم الفراغ فيها مكاناً لغيرها، الكرفس، البقدونس وحتى الثمار والبقول المستديرة، وبينها الأسماك النهرية الخضراء وأجبان الماعز المضغوطة في تيجان من الحلفاء المضفورة. أمرّ أمام عربة من الرؤوس المقطوعة: عجول، خراف، ماعز تحت نور الشمس المتكسر، الذي يرشّ بالذهب هذه القذارة. أمرّ بقافلة جمالٍ سيرها متثاقل ومتشابك، تذكرني برجل أعرفه، يضعف يوما عن يوم دون أي حل ممكن، رجل يرغب بالموت (لم أتمثل قط سرَّ النبلِ المُتَشامخِ للجمال. محملة، منحنية، جائعة، عطشى وتحافظ - رغم قبحها الغريب - على هدوء وإيقاعٍ خطوها الواسع مرفوعة العنق، كلما رأيتها يجرحني شعور بالأخوة، المَلِكُ يجب ألا يكون مثل حصان أصيل، وإنما مثل جمل: تعلمت هذا بعد فوات الآوان). عندما أردت أن أخرج من المدينة تهت وأضعت الجهات، ثم عدت وتهت بعد أن اهتديت. لايوجد غير شيء واحد واضح في هذه المتاهة: تضليل من لاينتسب اليها.

ترتفع مدينة الأحياء في فاس في وهدةٍ بين المقابر. وعندما يشير الفاسيون إلى التلال المليئة بالقبور يبتسمون ويؤكدون، إنهم يفضلون مابعد الحياة. «إنه أجمل - يقولون وقد برهن مؤسسوالمدينة على ذلك عندما تركوا للأموات الأفضل.» مقابل باب الشرع - أوالرجل المحروق، إشارةً إلى ابنِ بَلَدي، ابن الخطيب، حيث عُرِضَتْ جثته - الذي أمر بجانبه لأذهب إلى المدينة، توجد بعض الهضاب الناعمة المليئة بالقبور بين الزيتون. عندما أراها من نافذتي، مثل ثيران حراثة مستريحة، أفكر إنه

ليس مكانا سيئا للراحة، هذا إذا كان الموت يقتل.

أتأمل المدينة قبل أن أنزل اليها، من شرفة غرفة نومي. تغطيها السطيحات، التي تقد م للحب ولقاءات أخرى طريقا متيسراً أكثر من طرق المدينة. أري أمامي في الاسفل، كما لومن الحمراء، بيازين، أقل بساتين وأقل بياضاً: لكنني أسمع مياهه. في العمق توجد جبال ليست بارتفاع جبالي ـ هل جبال شلير ماتزال جبالي؟ ـ أيضا مغطاة بالثلج، لكنها ليست خلفي، بل أمامي، كما لوأن رأسي المنهك جنّ أوأن منظر أفق غرناطة دار نصف دورة. الآن وحسب الفصول ـ الآن خريف ـ يغشى الضباب الهضاب المحيطة بالمدينة تحت سماء رتيبة الزرقة. والقرى المبعثرة لاتكاد تظهر بسببه، تحدث الشمس بعض الوميض على أسطحة المساجد، دخان ساكن يرتفع ويكثّف الضباب المنخفض. بياض القبور يُرَقِّطُ السفوحَ. من حسن الحظ أن الحرارة في الشتاء هنا أعلى بكثير من غرناطة. عمري لايتحمل ليالي كانون الثاني فيها: إنه الشيء الوحيد الذي لا أحنُّ اليه.

للوصول إلى نهر الدباغين والصباغين الصاخب، الذي يشطر المدينة، لابد من عبور عالم بكامله: شوارع محفوفة بالقدور التي يتصاعد منها البخار والشلل صاخبة الألوان، روائح الخشب المحروق الطيبة والأرض المرصوفة بالحجارة الملمعة بالأحماض، التي تتوغل باتجاه الأفران الداخلية...... نزلت ذات يوم إلى جحيم الدباغين، عبر منحدر زلق ومقرف مغطى بالشعر والصوف والروث والسواقي كريهة الرائحة. عيناي، اللتان تربيتا على الهرب من القباحة، لاذتا بأصيص من الزنبق الأبيض والحبق: هناك كان فوق إفريز، غير ملوث وعجيب، في مكان في غاية الوساخة، مالذي كان يفعله؟ (ربما كان من الأفضل أن أسأل لماذا وصفتُ هذا المكان بالوسخِ والأصيصَ بالعجيبِ). في نهاية المنحدر، أحواض تثبيت الألوان، المعمولة من زرق الحمام، والجدران التي تغلق هذا المنجم الوحلي، الجلود المنشورة لتجف، التي لاينشرونها في الصيف إلّا ليلاً، كي لاتتاذى من الشمس.يعمل الدباغون وصناعهم بصمت وإيقاع. شبه عراة، بأرجلهم المصبوغة وسط هذه الفُوَّهة العدوانية وعلى حد الأحواض يكاد يلفهم البخار المنبعث مثل أبخرةٍ من فوّهة بركانٍ حيٍّ، يتخذون وضعيات موزونة أنيقة. ينظفون الجلود، جالسين القرفصاء، بأدوات قاطعة وحادة من الشعر ويزيلون زوائدها. («الحيوانات الفتية ـ يقولون لي ـ تقدم جلوداً أفضل»: انه لمن المحبط أن النجاح حليف الشباب أكثر حتى في الموت، الشيوخ حتى الموت لايرحب بهم). تعرفت في هذه المدابغ، في علية حزينة كئيبة، على رجل مضى عليه سبعون عاما

وهويعمل، قال لي وهويشير في زاوية غير مرئية إلى كتلة جامدة: «هذا أبي». فتى يأخذ الجلود التي مضى عليها شهران في الكلس واحداً واحدا بمرديّ. بعيداً عنه آخر يقوم بحركات من يدعس في معصرة عنب، كما لو أنه يدعك الجلود على الأرض، أويبحث بقدميه عن شيء ضائع في قعر الحوض. النواعير العمودية تدوِّخُ تيارَ النهر الهادر. من المجففات العالية ترى أسطحة الضفة المقابلة: إنه حيّ الأندلسيين، إليه تمضي عيناي...

يتبدل وجه المدينة مع تبدل الساعات. ففي الظهيرة لاتكاد تُميِّزُ نخلةٌ واحدة في السوق الكبير على خَلْفيَّةِ المحيط الرملي اللون. بصعوبة يظهر القرميد الأخضر لهذه المدرسة أوتلك وزليج مئذنة من المآذن، والثياب المنشورة لايحركها الهواء. في الثالثة عصراً كل شيء يصير ضجيجاً مدوّخاً ومبهماً. فجأةً يعلوصياح: السوق الكبير يصلي. وإذا ما سهوت قليلاً عن نفسي أجد نفسي فجأة وحيداً... أين مضت بقية النمل؟ وكما في حياة كل إنسان توجد هنا ساعات تتحطم فيها كل الألعاب ولا يبقى غير الإنطواء على النفس. يتقدم ليل المدينة بأقدام جبارة، ما عاد فيها نور واحد، ليس غير صريرٍ، انزلاقٍ مجهولٍ والشوارع المتخثرة بروائح طبيعية.

كيف تعرّفت على أمين وأمينة؟

على بعد خطوة من جامع الأندلسيين يملك حداد ورشة صغيرة. كان أحد عماله، ذوالبشرة الأكثر سمرة يبتسم لي كلما التقت عيناي بعينيه، بينما كان يقسي الحديد على السندان، أويثنيه كي يلحمه، ولا يتوقف عن النظر إليّ. إلى جانب حانوت الحدادة كان هناك ورشة خراطة. لكن الخرّاط لم يكن لينظر إليّ أبداً، إلى حد أنني كنت أشعر بلا مبالاته بي بحدةٍ أكبر مما لوأنه كان لا يرفع نظره عني. تراني كنت قد رأيت من قبل ذلك الوجه الناحل المصمت؟ هل في سوق السقاطين في غرناطة؟ كان من العبث أن أحاول تذكره، فمهمتي الآن هي أن أنسى كل الذي عشته، وكل الذي عرفته وملكته. كان ذلك الخراط يعمل بآلية بسيطة وساذجة تماماً، بيديه وقدميه في آن معاً، داخلاً في تركيز يحسد عليه ـ وأحس به عدوانياً ـ حتى مغيب الشمس. عيناه اللتان كانتا تبدوان ناعستين، لم تكونا ترتفعان عن أخشاب الغار أبداً. ما لونهما؟ لم أستطع معرفة ذلك. وعلمت ذات صباح، من خلال الحدّاد، أنه كان بالفعل غرناطياً.

بعد أيام ظهرت دكان الخراط مغلقة. اشتقت لعمله المعقّد، الذي كانت تسليني مراقبته، الشبيهة بمراقبة إلتواءات رباعيات الأيدي بين الإعجاب والقرف. اشتقت لغياب نظرته المقصود. وذات ليلة رأيت الخراط في الحلم، كان أخضر العينين.

مرت عدة أيام أخرى. أخيراً قال لي الحداد العابس والمبتسم:

ـ مات الخراط، يا سيد. هذان هما ولداه.

كان قد جلس على درجات الجامع صبيان متماثلان في الثانية أو الثالثة عشرة من العمر. ورغم التمايز البسيط في الطول، كان واضحاً للعيان أنهما توأمان، لكن ولخطأ في الطبيعة، هذا إذا كانت تخطىء، كان واحد منهما ذكراً والآخر أنثى. ربما كان لعمل والدهما بيديه وساقيه معاً علاقة بذلك. ماتت أمهما في ولادتهما. هذه الحالة المحزنة قربتهما مني. لم يكن عندهما عائلة: جاء والدهما من غرناطة في الوقت الذي خرجت فيه منها. وجدت نفسي مجبراً على المجيء بهما إلى بيتي وهاهما هنا منذ ذلك الوقت. إنهما بالنسبة لي مختصر عالمين: عالم هذه المدينة، الذي يظهر لي ويختفي (مختصر مثلها، لا يفسر، معكر وجميل.) وعالم أمسي، مختصر ما في الأرض من آثار غرناطة المنثورة والرائعة.

كلاهما حاد الذكاء ويقظ وذوسليقة مرحة وتعابير نافذة. لهما نظرة صقر، متنبهة لكل شيء، وثابة وحذرة. تطل ابتسامتهما بمجرد النظر إليهما، نوعاً من التفادي الاحتياطي لاتّهام محتمل. أنفهما قصير وغير مستقيم تماماً. عيونهما خضراء مثل عيني والدهما في حلمي، وتبرق وكأنها مشتعلة في داخلها إلى حد أنهما لوأمعنا بها فيّ، لكان عليّ أن أجهد نفسي كي لا أرفع نظري عنها. جسداهما متناغمان، إنها الكلمة التي تعبر عنهما بأفضل وجه. للصبي مشية رشيقة ومتحدية، يباعد قليلاً ما بين ساقيه، مقلداً بذلك مشية الرجل، لذلك يعامل أخته بقسوة واحترام في آن معاً، كما لوكانت طفلاً. مظهرها هي حلو ووديع ـ ومع ذلك أعتقد أنه ينطوي على صلابة راسخة ـ وأمام أي شك تلتفت بعينيها البهيتين إلى أخيها. واضح أن معاهدة ظاهرة أو ضمنية، تربط بينهما وتحددهما في مواجهة بقية العالم: عالم ما زلت أشكل جزءاً منه. ونظراً لعدم وجود أي شاغل آخر عندي، ترصدت الصبيين، درستهما بروية في البداية خفية، تجرأت بعدها على الكلام معهما. الاختلاف بيننا كان بكبر البحر: فهما إما كانا بعيدين جداً، أم مختبئين خلف الأمواج. ومع ذلك خاطرت

بالاستعجال وخلصت باستنتاجاتي: الحياة لم تمر عليهما دون أن تترك بصماتها، لكنها لم تخدشهما، هاجمهما الألم لكنه لم ينخرهما، أوعلى الأقل لم يترك آثاره في روحيهما (لا أعتقد أنهما يتطارحان موضوع الروح هذا).

وأتأمل مرّة أخرى. ربما كان الألم والحب ليسا إلّا موضوع الفرد. وحده الفرد الحقيقي، أي الذي يغطي حاجاته الدنيا قادر على الاحساس بهما. الشعب ليس إلا نوعاً، وهو خالد كنوع غير قادر على الحب، لذلك هوممتنع على الألم بالمقابل.

هل لي الحق بأن أتكلم بهذه الطريقة؟ وهل أستحق أنا ماأملك؟ بل وأكثر من ذلك هل عندي إمكانية التألم؟ بعد كل هذا الذي أضعته، هل أنا كذلك؟ وحده خطر الألم أوالموت، الذي يحدث بالتروي ـ خطر غير مفروض ـ يجعل الانسان يمضي من حياة نابضة وجسدية مجردة إلى حياة هي في جوهرها إنسانية. عندما لا تتكشف الحياة بل تنكمش وتخلد فقط، من خلال الفرد كأداة، لا تستحق هذا الاسم. أنا أعرف ذلك. وقتاً طويلاً عشته للصراع، للتحدي، للمعجزة، المؤسفة أوالمفيدة ألهبت سنوات عمري، لكنني فقدت الدوافع والحجة على المخاطرة: سُلِبَتْ مني كلياً وبشكل عبثي. وفقدانها اليوم فوّهة من نار تلتهم كل شيء، بما فيه الألم. (الألم الآن مخدر لكي أستطيع الاستمرار بالحياة، لقد تحول إلى حالة من الحزن خرساء، إلى قاع مظلم من الشقاء لا يسمح لي بأن أرى، ولا أن أبغي رؤية العالم. أنا الآن مثل سفينة خالية تتقاذفها الأمواج.)

لقد استصغرت الذين كانوا يستسلمون للبقاء على قيد الحياة، الذين، كهذين الصبيين، ولدوا محكومين بهذا. لأن الحياة ـ كنت أقول لنفسي ـ ليست الاستمرار على قيد الحياة، وإنما المشاركة في السر، في زرع الحياة القاسية، وفي قطف جنيها: خلق الحياة، وليس توليدها وحسب. هل لهذا السبب أمين وأمينة هنا؟ تراهما المتراس الأخير الذي يجب أن يخفق قلبي فيه؟

الحيوانات البرية والشعب الفقير كانا لوتفحصتهما بتأنٍ، سيتركاني منهكاً. عندما تكون الحياة دافعاً لايقاوم، موجهاً للخلاص من الموت على حساب الآخرين، تصبح غير مفهومة وصارمة، مثل واجب أصم وأبكم خالٍ من أي تعويض. القواديس في الناعورة التي لاتتوقف تمتلىء بالماء غير المبالي وتفرغ منه، ترتفع وتهبط مستخدمة أومعطلة دون موافقتها. وهل هذه حياة، هذه السقاية المستمرة، هذه الملاحقة للغذاء، للمجرى،

للأولاد؟ الانسان في جانب ينتمي إلى الطبيعة التي لاتدجن. لكن أليس فيه جانب آخر يناقضه؟ الحب، الذي يدفعنا في الظاهر لأن نولد حيوات أخرى، ألا يدفع المحبين لأن ينهوا حياتهم في أفضل المناسبات؟ الغريق الذي يغرق أكبر من البحر بكثير، لأن الغريق يعرف أنه يموت والبحر لايعرف أنه يقتله.

البقاء على قيد الحياة، لكن إلى متى؟ تراها الشراسةُ السلاحُ الوحيدُ، الشراسة البريئة جداً وغير العقلانية التي تشبه الحنو الذي يلحس به الأسد جراءه؟ إن البقاء على قيد الحياة على حساب أي شيء ليس انسانياً. الموت مغرٍ: ليلة الاسترخاء الحقيقي الأولى، المخدة الوديعة التي يهرب فيها الجسد بتنهيدة ويتلاشى. الموت هدف المصادفة الذي لامفر منه، نتيجة التكليف الذي لم يطلبه أحد: إراحة الرأس، إغلاق العينين والتمني بوقف الخوف. آهٍ، ما أسهله: قطع بسيط في الشريان الصحيح وينتهي الخوف من غدٍ هَجَماتُهُ لم تخطر ببال وملامحه عدوانية متجهمة، يحمل الهزائم والشيخوخة، غد سيفتت الشراسة التي لاغنى عنها من أجل البقاء على قيد الحياة ويجعلنا عزلاً أمام أسنان الأفتى الذي يبدأ. انتهى الموكب التافه والظلام يلفنا بتعايشه الأمومي. ألا يكون الإنسان إنساناً أكثر إذا أثار في نفسه ماهوأقل حيوانية عنده؟ تلك القدرة على قطع الحياة بمنتهى الحرية؟ ومع ذلك، بماذا يؤثر على الحياة أن يموت فرد، سواء أكان انساناً أوحيواناً ضارياً أوسمكةً تتابعها العين الحولاء لطفل صغير؟

لاأدري ما إذا كانت هذه هي الأسباب التي دفعتني باضطراد وبطء للاقتراب من أمين وأمينة، كمن يقترب من جروي نمر يتيمين. لاأدري ما إذا كان شروعاً جديداً بمهمة من التجارب والتعليم، أو احتماء خلف ترسهما القيّم وإضفاء معنى على كل هذا الفراغ، أو استبدال أولادي الذين ماعادوا معي ولايحترمونني، وربما لم يحترموني قط، أوأنني أحاول أن يحلا محل ابنتي التي لم تولد ولذلك لم تخذلني، وربما لهذه الأسباب مجتمعة.

من الأفضل ألا أسأل نفسي ما إذا كان البقاء على قيد الحياة هوالاستمرار حياً، بالمضي من تمديد إلى آخر.

ينهال عليّ فيض من الأخبار عمّا راح يحدث في غرناطة على امتداد هذه السنوات. لقد استطاع المسلمون هناك أن يعتادوا على الفكرة، أما أنا فكل شيءٍ ينهار فوقي دفعة واحدة ويضايقني. صحيح بأن الزمن يخفف الألم ويجرعنا اياه مع الحياة، وأنه هو من يأخذنا من أيدينا بوداعة ـ هذا إذا أعطوا وقتاً للوقت ـ في الطريق إلى الموت.

في ساحة باب الرملة أحرقوا الكتب: الكتب التي تركتها في الحمراء والكتب التي وجدوها في البيوت، التي لم يكن باستطاعتهم، حسب الشروط، دخولها. لم يحترم شيء: لا العلم، ولا الفلسفة، ولا الطب. الكتب التي تمثل قروناً من الحب ومن الانكباب: صلواتنا، *قصائدنا*، صوفيتنا، وموسيقانا. كله اشتعل. إذا ما أغمضت عينيّ رأيت الدخان، يتصاعد مثل شجرة من الحماقة والحرقة والتناقض، يستصرخ سماء غرناطة الصافية. أرى النار تلتهم كتباً فاخرة مثل عصافير، ملونة، مزخرفة، ملبسة بالفضة، موشاة، صوراً تأخرت عناية ثقافتنا مئات السنوات حتى ابتدعتها. أرى ثقافتي تحترق، وأسمع نواقيس أعدائي تقرع للمجد. أي مجد؟ إلى أية وحدة يتطلع هؤلاء الضواري؟ هل الطريق إلى الوحدة هي التخريب، التنكيل بالأجساد وبالمعتقدات والآراء، القضاء على كل ما ليس مماثلاً تماماً؟

في رندة قُتِلَ من الناس ما جعل جبال الحمراء تُسمّى من الآن حمراء من كثرة الدم، وليس من لون الحجر، وثورات البشرات قمعت وخنقت بدم أكثر. كل ذلك الجمال غارق في الدم والنحيب. يا لها من طريقة نصرانيةً في التنصير، في الطرد من الجنة لمن يعرقلهم. ياللزيف في تقنيع السياسة باتكاءات دينية. «التعميد أوالعبور إلى أفريقية في سفن الملك، وعشر دوبلات على الرأس»، لكنهم كانوا قد سلبوهم دوبلاتهم مسبقاً. ما الذي يقوله هذان الملكان ليلاً لإلههما، هذا إذا كانا يؤمنان به فعلاً؟ المجرمون بمرسوم إلهي، الجلادون باسم الايمان، كيف يصلون لإلههم؟

كثير من الغرناطيين الذين عبروا إلى افريقية ما زالوا يقاومون منصرفين إلى القرصنة. ربما لا ينتظرون أن يعودوا إليها ذات يوم، إنما يناضلون من أجل أبنائهم وأحفادهم. هناك لحظات تلتهمني فيها الحاجة لأن أضع اسمي ورايتي القرمزية في المقدمة أمامهم وأموت معهم. عاطفتهم هي التي جعلت النصارى يقررون بأن الوسيلة الوحيدة لهزيمة الإسلام هي قطع شرايين المضيق بسكين الدين. تعميد مسلمي شبه الجزيرة واحتلال الحصون الساحلية الأفريقية وتنصيرها أيضاً لمزيد من

الراحة.

حضروا إلى هنا. هل سيتركهم إلههم يخدعونه؟ هل يخدعون أنفسهم؟ احتلوا وهران لمجرد الغنائم. لا أحد كانت له مصلحة في تنصير أحد ولا في إقناع أحد، وحده النهب مصلحتهم: الذبح، الطعن بالمدى، طعن «المسلمين الحقيرين» كما تطعن الثيران، للقضاء عليهم. لم يتركوا أكثر من ثمانين مسلماً حياً. «مسلم ميت خير من الجميع»، هكذا يقول قادتهم. خصصوا المسجدين لتجسيد الرب وشنتيقب قاتل المسلمين، كي يتركوا الهدف من مجيئهم جليا: أن يبصقوا على جثثنا. الخوف من اسم الإسبان وحده جعل الغالبية العظمى من سكان تلمسان والقرى المجاورة يسارعون إلى الهرب. لقد وصل كثير منهم إلى هنا. من بينهم أبناء أسرة عمي أبي عبد الله، الذين استقبلتهم في بيتي هذا حتى استطاعوا أن يجدوا مكانا لإقامتهم في المدينة. قبر *الزغل* الآن وحيد. خديجة ـ أوالتهابها هذا ـ بقيت معي على شرف ذكرى أخي يوسف. (والآن تماما أسمعها تترنح في البيت، فهي كلما حرصت أكثر على ألا تزعج أحدثت ضجة أكبر.)

يكنّى ملكا أسبانيا بالملكين الكاثوليكيين. إذا كان هناك إله يُسْعَدُ لما يفعلان، فإنني لا أرغب بمعرفته إطلاقاً. آه، أيها الأندلسيون: بذرتكم ودمكم اليوم، مثل معارفكم بالأمس منثوران بغير حساب في العالم، كما تُذرى الغلال بالمذراة......

مع الانتهاء من كتابة ماتقدم، دخل أمين وأمينة وفاجآني منكباً برأسي على هذه الأوراق وأنا أجهش. كانت مظاهر العاطفة قد بلغت عندهما حداً جعلني أستسلم لها مثل طفل صغير. غمراني بالقبلات والمداعبات التي تفيض بينهما بخلو مطلق وساحر من الخفر. منذ اليوم الأول قررت ألا أتدخل بينهما. اليوم استيقظ فيّ قلق حار ومنسي. ما الذي يرميان إليه من هذا الاحتفاء؟ مالذي يرميان إلى إفهامه لي؟

اليوم تناول معي طعام الغداء الابن الأكبر للمالح ـ والده توفي منذ ثلاث سنوات ـ إنه يتمتع، بتشجيع مني، بمنصب مرموق في البلاط وهوعلى اطلاع على كل مايجري خارج هذه المدينة. حكى لي قصة ابن كماشة، منذ أن هرب من قصبة أندراش.

لقد فهم أنه كي ينجح لابد له أن يَتَنَصَّر، وكان الملكان اشبينيه في التعميد. تبنى اسم دون خوان ده غرانادا، ولاحظ أن الرهبانية الفرانشيسكانية وبتأثير من المطران ثيزنيروس سوف تقدم له مستقبلاً باهراً، فاتخذ زيها. ومع ذلك لم يستسلم للعيش في ديرٍ كان سيؤَجّل طموحاته إلى مالانهاية. هرب منه، لكن ليس قبل أن يحمل معه أموال الرهبان، التي لم تكن قليلة واستقر وهومسلم متحمس من جديد في الجزائر. تطلع هناك لأن يصبح محسوب الأمير ووصل إليه بالتملق والمخاتلة. وبذكاء الشر نفسه الذي استمال به أمي استمال الأمير: توصل إلى أن أوكل إليه الدفاع عن المملكة. وعندئذ دخل في مفاوضات مع بيدرو نابارو، فباع بالمال ذلك الحصن كما باع أملاكي. عندما حضر الاسطول الإسباني إلى بجاية، قاموا بعكس ماوعدوا به ابن كماشة، بسلسلة من المعارك الرهيبة وغير المنتظرة. كانت أسوارها القديمة جداً والمرتفعة تؤوي شعباً أكثر عدداً من شعب وهران وأكثر غنى، لكنه ليس محارباً مثله ويميل كثيراً إلى الملذات. وما أن استسلمت المدينة، في رمضان، حتى أبادوا الشعب بالكامل ذبحاً. وعندما وضع نابارّو يده على القصر تعثر بجثة مطعونة في صالة العرش: كانت تلك جثة ابن كماشة، قتله السلطان، الذي اكتشف خيانته، بيديه. أعتقد أنه إذا كانت هناك حياة أخرى ويعاقب فيها على الشر، لن تكون هناك عقوبة كافية للخائن الأكبر. لكن حتى وإن كان كذلك فابن كماشة ارتاح الآن، فهناك أناس، مامن شيء يكبحهم إلا الموت ولايكاد.

حاول ملك بجاية، بعد شهور، أن يستعيدها. لكن القشتاليين دمروا له جيوشه، فطلب اللجوء إلى هنا، حيث نتواجد نحن المُدَمّرين جميعاً.

كثير ما أفكر، إذا لم يخمد حماسي الكسلُ، بزيارة آخر سلطان زيري من غرناطة وآخر ملوك اشبيلية، المنفيين هناك في أقصى الجنوب في أغمات، قرب مراكش.

لقد كتبت لهذا المعتمد، الذي كان يقلقه تأخر الموت عليه، مرثية خاصة، يمكنها أن تنطبق عليّ تماما:

في صدر الصباح يعشش الليل الصامت
وحين يهبط يساوي بين راعي الجمال في أفريقية
وراعي الخنازير في قشتالة وبين أسطع مالمع في عالي السماء.
مِزَقٌ من قلبك ترقد في قرطبة وفي رندة، آخرها دفن مع اعتماد.
لا إرثٌ لورثتك: لازغاريد، لارياحين ولاظلّ نظيفٌ ولاماءٌ فرِحٌ.

من الأسفل تبدو لك الغربان طيور الرحمة.
نشوة حياتك ـ الدغدغة والسيف والشعر ـ خلصت إلى هذا الخمار.
كان الحب امتلاكا: تحديك لايمكن أن تحافظ عليه يدان مكبلتان بالقيود.
اسأل شلب أين ابتدأت المتعة، إذا كانت تتذكرك.
مازالت النخلات نفسها تنتصب بجانب القصر نفسه.
القمر نفسه والنهر نفسه الذي عكس وجه الرميكية.
كل شيء على ماكان ودونك.
وأنت على ماأنت دونها.
كم من القصور للعدم بين البركة والجنائن.
تردد أنت «أجيبي، ياأغمات».
«هل تتسعين لكل هذه العظمة دون أن تتحطمي؟ »
أجبني أنت: هل تتحطم من الألم ذاكرتك المنتصرة دائما على النسيان المرغوب؟
يقين واحد يطمئنك: ستفتح عينيك يوم القيامة في اشبيلية. لكن لابد للبعث من الموت: وهذا ماترغب به.

لم تتأخر طرابلس ثلاثة أشهر إلّا وسقطت. لقد وضع النصارى أقدامهم بقوة في أفريقية. وأنا أعرف أنه من الصعب إيقاف هذه الأقدام.

اليوم عيد المولد النبوي الشريف. أهديت أمينة العقد والصدرة اللذين أوصيت عليهما منذ سنوات طويلة لمريمة، ولم يرسلهما لي الصاغة الغرناطيون إلا بعد وفاتها. لم أتصور قط أن بعض المجوهرات تحدث مثل هذا الطرب من الفرح. ربما كان إسعاد شخص هوالوسيلة الأكثر تواضعا ـ لكنها الأقل خطورة أيضا ـ للاقتراب من السعادة.

هزّتان تجوبان العالم الإسلامي. بالنسبة لبعضهم هوالأمل بتوحيد كل القوى الشقيقة، بالنسبة لآخرين أن يحتل التركي الأعظم وحده الممالك الإسلامية المستقلة. تراها لم تنقطع بعد فتوحات الإسلام الخيالية؟ للتخفيف من محني يحرضني أعداء سلطان فاس على وهم جديد. بماذا أرد عليهم؟

منذ بيازيد الذي احتل أوترانتو بينما كنت أتوج لأول مرة وحتى

سليم، هناك سلسلة من الانتصارات التي تبهر العالم. يسمونه سليم *المريع أو الضاري*: قتل والده وقتل أخوته والمنحدرين منهم، وقتل ثلاثة من أولاده. هناك رجال لايعرفون غير التقدم، لايعرفون النظر إلّا إلى الأمام: ألذلك هم مدهشون؟ لاأدري. ربما كانت الشعوب دونهم تزحف. مالذي ليس في تركيا في هذه الايام؟ من القسطنطينية ينتشر كبرياء مجدد: الصرب، الأناضول، العراق، الصحراء العربية، البتراء، اليمن السعيد ومصر والمدينة ومكة وبلغراد.

عادت النصرانية لتفقد حلمها ولترتعد وعلى رأسها البابا. فبيوالثاني يقدّم لمحمد التاجَ الإمبراطوري خوفاً منه، إذا تَنَصَّر، واينوسينس الثامن آوى، خوفاً في روما، أخا بيازيد. هل تفقد النصرانية الحلم حقاً؟ وهل لسبب ما يفرح من يفكرون أن بلاد البربر كاملة ومن جديد صقلية وسردينية والأندلس أيضاً ستصبح قريبا تركية؟ وبين رعشة الفرح ورعشة الاستنفار أتساءل: هل التركي هو الإسلامي؟ لقد انقضت وإلى الأبد غبطة الأمويين والعباسيين، علام يمكن أن تركز الإمبراطورية الجديدة إن لم يكن على القوة؟ أم أننا نشعر بالدين كما يجب أن نشعر به؟ هل منع الدين بعد وفاة الرسول بقليل أن يقاتل الخليفة الثالث الخليفة الرابع. كان الرسول على حق عندما تحدث عن الجهاد الداخلي أكثر من الجهاد الخارجي، ألم يكتب ابن خلدون هذا منذ قرون: «والعرب أصعب الأمم - ونتباهى نحن بأننا مثلهم - انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة والمنافسة في الرياسة فقلّما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوة أوالولاية الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فَسَهُلَ انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المُذهِبْ للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس فإذا كان فيهم النبي أوالولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لاظهار الحق...».

لكن هل تتكرر الظروف المواتية؟ أشك بذلك، التاريخ لايكرر الخطأ. القوى الداخلية المفتتة في الإسلام، وتجذّر البلدان والأمم، هي من القوة بحيث يصعب أن تسمح بخطوة نحوالوحدة الدينية. آه، بلى: لوتوحدنا لسيطرنا على العالم. باستمرار هناك من يقترحها علينا بصوتٍ عالٍ، لكن متى تحقق هذا الحلم؟ ربما ليس مسموحا به بإرادة الله، يمكن أن يكون هذا لصالح الجميع. فقدرنا، لم يكد يكون ولبرهة قصيرة، أن نصبح ملوك طوائف. الأقوياء جدا ليسوا عادة ماهرين جداً، لكن حتى ولوقبلنا بأن الأتراك يقودون المسلمين جميعا بطريقة متواصلة ومقنعة، هل عليّ أن

أسعد بأن تعود غرناطة إسلامية. حتى ولواستعدت عرش الحمراء، ماعلاقتي أنا بالأتراك؟ إن ديننا يتدخل وهذا صحيح في كل ساعة من حياتنا، لكن هل إلى حد أن تتصادف طرقنا بالتمتع بها، بالحب، بالحزن بتأمل البحر، بالنشوة، بالحرية أو بتحركنا مع الموسيقى؟ هوّات تفصلنا عن الأتراك. غرناطة لن تعود بعد الآن غرناطة: فنحن الذين عملناها نعرف ذلك جيدا؟ هل أستطيع أن أفرح بأن يطأ العثمانيون غوطتها وجبال شلير؟ باسم الله نعم، لكن ليس باسمي كأندلسي إطلاقاً. ففي الأعماق ماذا أنا، في هذا العالم ـ وفي العالم الآخر إذا وجد ـ غير أنني أندلسي؟

إنَّ حبّ ـ لماذا لاأسميه بشجاعة هكذا؟ ـ أمين وأمينة قد خلقا حولي جواً دافئاً. قريباً سأكمل الستين من عمري. وها أنذا أصير وحيداً. إنهما ينشغلان بتسوية العراقيل والصعوبات التي توجد دائما حول العجوز الغريب والوحيد. إنهما، وأقول ذلك عن معرفة عميقة جدا، كائن وحيد بجسدين ذوي جنس مختلف. إنهما يحافظان عليّ حياً بضحكاتهما، برغباتهما الحقيقية بالإحتفال بي وإدخال البهجة إلى قلبي، وهما بحبهما الشديد الواحد للآخر، لن يجدا قط خارج هذا البيت مايجدانه فائضاً فيه.

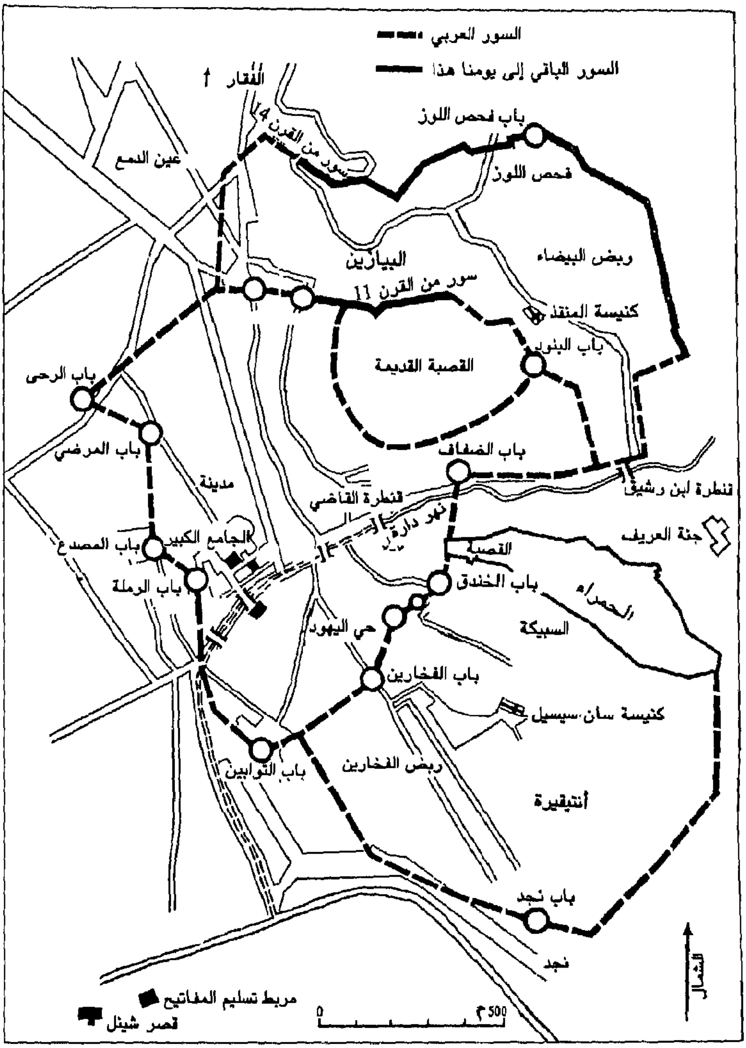
لن يفهم أحد علاقتنا ولن يبررها، لاعلاقتهما معي ولاالعلاقة التي يتمتعان بها فيما بينهما. وأنا لاأتطلع إلى مثل هذا الفهم: فالبشر قليلا مايفهمون مالايشعرون به، وبالعكس فإنهم يبررون مايشعرون به، دون أدنى حياء. ربما كانت تلك هي حالتي، لاأدري. لن أسأل نفسي ذلك. وأقبل هذه الهدية الأخيرة من الحياة كما يُقبَلْ صحن حلوى لذيذة ولطيفة بعد الطعام، ليس في ذلك، بعكس مايمكن أن يتخيل أي شخص، أدنى أثر للتعقيد.

أجهل متى بدآ يحب الواحد منهما الآخر وسأبقى أجهل ذلك، كما أجهل متى قررا، هذا إذا كانا قد قررا، أن يقدما لي حبهما ويطالبا بحبي. كل ذلك كان وليد ليال وديعة كثيرة قرأنا فيها سوية، وتشاركنا في أغان وحوارات. إنهما مخلوقان شهمان وكريمان معطاءان. أعرف أن هناك من يحكم بأنهما إذا كانا يحبانني فلثروتي. لكن ثروتي في معظمها صارت في أيدي أولادي، وحتى لولم يحباني، فما تبقى منها سيكون لهذين الشابين اللذين يضيئان لياليّ ويجددان أيامي. ففيهما وجدت الفهم والشغل. وجدت من أودع فيه ماتعلمته، القليل الذي اكتسبته من الحياة،

والقدرة القليلة على الحنان،الفضول والمفاجأة التي مازلت أملكها. لايعني هذا أنني ومن خلالهما أتمسك بالبقاء على قيد الحياة. فأنا لاأخدع نفسي. لقد أدركت شيئاً لم أعرف قط ماكان يعني: الصفو، بكل مايجر معه من لامبالاة وامتثال. وأنا أعرف أنّ الشيءَ الوحيدَ الذي يُمكن أن يَفْعله صحنُ الحلويات الأخير، مهما كان لذيذاً، إنما اختتام الطعام بحلاوة، والإيحاء للندماء بأن ساعة مغادرة المائدة قد حانت. وأنا لاأتفادى هذه الساعة، كما لن أسرّع بها. فلقد أتعبتني المبادرات.

ورقة مضافة في نهاية المخطوط

ذهبت إلى معركة السلطان وعدت حياً. أكثر من مرة كتبت هنا: لقد خانني كل شيء، حتى الموت. لم يبغ الحضور إلى الموعد الذي اقترحته عليه. نفرت مني السيوف وتفاداني الاعداء، ربما لأنهم لم يكونوا أعدائي أنا بالذات. هوالذي أعطاني السيف. ومن جديد أذعن إلى ما لا أتوصل إلى فهمه. لن يكون أمامي من الآن فصاعداً غير الانتظار. عندما يأتي الموت في ساعته ـ وليس في الساعة التي نحددها نحن له ـ فتلك مشيئة الحي القيوّم الذيّ له الأسماء الحسنى وّمامن قوّة وْلاسلطان إلّا قوته وسلطانه، وهوالعليّ القدير وارث السماوات والأرض.



خريطة مأخوذة عن اسبانيا الإسلامية أيام بني نصر لـ راشيل آرييه دو بوكارد. باريس 1990.

غرناطة بني نصر

الفهرس